الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى

الرّاهب الباسيليّ المخلّصيّ

ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ

بين اللّاهوت والرّمزيّة

٢٠١٢

إهداء من القلب

إلى أمّي الّتي أحببتُها منذ نعومة أظافري

الرّهبانيّة الباسيليّة المخلّصيّة

الأمّ الّتي سهرت على تربيتي الرّهبانيّة، والكهنوتيّة، والكنسيّة، والّتي بفضلها وصلتُ إلى ما أنا عليه اليوم.

*

إلى عائلتي الجليليّة، الأبرشيّة العكّاويّة العريقة برجالاتها وتاريخها المُشرق. ليَ الفخر في أن أكون خادمًا لمذابحها المقدّسة في رعيّة مار الياس، حيفا

*

إلى عائلتي الحبيبة في بيت ساحور، بلدة الرّعاة الأبيّة، الّذين تعلّمتُ منهم معنى المحبّة، والمثابرة، وتقدمة الذّات في خدمة الكنيسة.

*

إلى روح المثلّث الرّحمات المطران جبرائيل أبو سعدى، خادم الكنيسة الأمين. فليكن ذكره مؤبّدًا.

إفتتاحيّة وبركة

بروتوكول ٦٣٨/٢٠١١ر **الرّبوة ٢٠١١/١٢/٨**

قدس الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى المحترم

تحيّة ميلاديّة مع الدُّعاء والبركة،

طالعتُ مسودة كتابك "ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ: بين اللّاهوت والرّمزيّة" وعلّقتُ عليه في حينه. إنّ ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ في الطّقس اليونانيّ، المدعوّ البيزنطيّ، مشتركة بين الرّوم الأرثوذكس والرّوم الكاثوليك. ويحتفل بها حوالي ثلاثمئة مليون مسيحيّ أرثوذكسيّ وكاثوليكيّ في الشّرق الأوسط وفي اليونان وفي أوروبا الشّرقيّة، في البطريركيّات الشّرقيّة والكنائس في هذه المناطق.

الميزة الأولى الكبرى لهذه اللّيتورجيّا، بين جميع الطّقوس المسيحيّة شرقًا وغربًا، هي أنّها الاحتفال بسرّ التّدبير الخلاصيّ. فمن خلال صلواتها، وزيّاحاتها، وحركاتها داخل قدس الأقداس وخارجه، تستعرض وكأنّها شاشة رائعة مراحلَ محبّة الله للبشر في شخص يسوع المسيح. وهذه المحبّة يدعوها اللّاهوت الشّرقيّ: التّدبير الخلاصيّ. وباللّغة اليونانيّة عبارة "تدبير" تعني "إدارة البيت" (إيكو – نوميّا). وهكذا فاللّيتورجيّا هي بكلّ أجزائها تعبيرٌ عن محبّة الله للبشر، للبيت، بيت الإنسان، الّذي أراد أن يسكن فيه: "والكلمة صار جسدًا وسكن فيما بيننا". وهكذا، فاللّيتورجيّا بهذا الغنى الوفير هي الاحتفال بمراحل محبّة الله عبر التّاريخ الّتي تطال البشريّة عمومًا وكلّ إنسان في فرادته، وفي حياته. اللّيتورجيّا هي الاحتفال بمحبّة الله للبشر، وتدبيره الخلاصيّ نحونا.

والميزة الثّانية هي المقوله الشّهيرة الّتي يُردّدها اللّاهوتيّون: **اللّيتورجيّا هي السّماء على الأرض.** إذ يعيش المؤمن من خلالها ساعةً من نعيم السّماء، على الأرض، في الكنيسة، في حياته، في مشاعره، في مسيرته على هذه الأرض نحو الملكوت!

إذا كنّا حقيقةً ندخل في روحانيّة الكنيسة وآبائها وقدّيسيها، فلا نشعر بأنّ الصّلاة طويلة، بل نتمنّى أن نعيش بعمقٍ روحيٍّ ونشوةٍ مقدّسةٍ خبرةَ ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ، بدون أن ننظر إلى عقارب السّاعة! بل ندخل من خلال وقتنا الأرضيّ الزّمنيّ الزّائل إلى حياة الله الّذي أراد أن نتحوّل إلى هيكلٍ روحيٍّ لسكناه فينا!

والميزة الثّالثة هي **الرّموز الكثيرة الجميلة** الّتي تُواكب صلوات ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ، والإيقونات الّتي تُزيّن الكنيسة، والّتي سبقت عروض Power Point العصريّة، وهي الشّاشة العملاقة الّتي تُغطّي مساحة الكنيسة وتبرز بطريقةٍ رائعةٍ معاني صلوات اللّيتورجيّا. فالرّموز والإيقونات هي صيغة تعبيرٍ ثانيةٍ إضافيّةٍ للصّلوات ونصوصها. لذا، هي اللّاهوت في ألوانٍ ورموز.

هناك ميّزاتٌ كثيرةٌ أخرى تتميّز بها ليتورجيّا كنيستنا لا مجال لذكرها. وللأسف لا ننجح دائمًا في تحبيب ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ وصلواتنا الطّقسيّة، وأناشيدنا واحتفالاتنا وأعيادنا لتكون جميعها جذّابةً، محبّبةً، شعبيّةً، فعّالةً، متألّقةً، ساحرةً، ومجالَ خبراتٍ روحيّةٍ، قدسيّةٍ، شخصيّة، ومدرسةً كتابيّةً ولاهوتيّةً ونُسكيّةً وفنيّةً وشعريّةً وثقافيّةً وحضاريّةً وتاريخيّة...

نُهنّئك أيّها الأخ الحبيب الأرشمندريت الأب أغابيوس أبو سعدى المخلّصيّ على جهودك في تحقيق أُمنيّتنا هذه من خلال صوتك الجميل، وتسجيلاتك، وكتابك حول قانون مدائح أُمّنا مريم العذراء، ومن خلال هذا الكتاب بالذّات.

نُهديك بركتنا الرّسوليّة أيّها الأب الحبيب أغابيوس، ولكلّ مَن سيقرأ هذا الكتاب، ومن خلاله يزداد حبّه لتراث كنيسته، لا بل يدخل هو بدوره، بخاصّةٍ أيّام الآحاد والأعياد، في سرّ الله الّذي ظهر بتجسّد السّيّد المسيح المحتفِل الأوّل

باللّيتورجيّا، ورئيس الكهنة الأعظم وأسقف نفوسنا. لا بل من خلال اللّيتورجيّا يدخل ويغيّر سرُّ اللّه حياتَنا كلَّها.

مع محبّتي وبركتي وتقديري

+ غريغوريوس الثّالث

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندريّة وأورشليم للرّوم الملكيّين الكاثوليك

تقديم

إعرف الكتاب من الكاتب

حسبُه فخرًا أنّه وليد بيتَ ساحور، بلدةِ الرّعاة الّذين كانوا أوّل مَن سمعوا بآذانهم بُشرى السّماء إلى الأرض: "المجد للّه في العلى، وعلى الأرض السّلام، وللنّاس المسرّة"، وأوّل مَن رأوا، بعيونهم البشريّة، اللّهَ الكلمة متجسّدًا إنسانًا، طفلاً مُضجَعًا في مذود.

وحسبُه فخرًا أنّه سليل آل "أبو سعدى"، الّذين قدّموا – ولا يزالون – خيرة أبنائهم لخدمة الكنيسة، علمانيّين ملتزمين وكهنة وأسقفًا نائبًا بطريركيًّا سابقًا في القدس (المطران جبرائيل أبو سعدى).

وحسبُه فخرًا انتماؤه إلى الرّهبانيّة المخلّصيّة الكريمة، الّتي كانت في أساس كنيسة الرّوم الملكيّين الكاثوليك، فأعطتها، على مدى ثلاث مئة سنة، عددًا من بطاركتها وأساقفتها وكهنتها ورهبانها، نذكر منهم، بنوع خاصّ، الأب بشارة أبو مراد، الّذي أعلنه البابا بندكتس السّادس عشر "مكرّمًا" السّنة الماضية، على أمل إعلانه "طوباويًّا" فـ "قدّيسًا" إن شاء اللّه.

في هذه الرّهبانيّة المباركة تربّى إيهاب (الرّاهب – الأب – فالأرشمندريت لاحقًا – أغابيوس) أبو سعدى، فنمّت فيه بذور التُّقى والفضيلة، وزوّدته بالعلم في جامعات روما، فعاد يحمل شهاداتها في لاهوت الكتاب المقدّس. ثمّ صقلَ كلّ ذلك في خبرةٍ رعويّةٍ نشيطةٍ مثمرة.

هذا المخزون الثّريّ، الثّقافيّ والرّوحيّ والعلميّ، هو ما أراد الأب أغابيوس أن يُشرك فيه قرّاءه، في كتابه "ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ بين اللّاهوت والرّمزيّة". والهدف هو أن يُدرك المؤمنون غنى هذه اللّيتورجيّا، ويفهموا رموزها، ويتذوّقوا ويعيشوا جمالها وروحانيّتها. فهل وُفّق في ذلك؟ الكتاب موسوعة ضخمة حجمًا

ومضمونًا، حشدَ فيها المؤلّف "كمًّا هائلاً من الاستشهادات الكتابيّة والمعلومات الكنسيّة واللّاهوتيّة واللّيتورجيّة والتّاريخيّة".

الكتاب يريد – وبكلّ حقّ – أن يسدّ نقصًا كبيرًا في ثقافتنا الدّينيّة، والجهد الّذي بذله الكاتب في سبيل ذلك يستحقّ كلّ تقديرٍ وتشجيع. فشكرنا للأب العزيز أغابيوس على مبادرته النّبيلة الجريئة، ونسأل الله أن يكافئه عليها بخير الجزاء، فيَصِلَ الكتاب إلى كلّ رعيّةٍ وبيتٍ وقلب.

عيلبون في ١٥ نيسان ٢٠١٢

+ المطران بطرس المعلّم

مطران البرازيل والجليل سابقًا

مقدّمة عامّة

- **لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة**

سنكتشف في الخطوط العريضة لهذا الكتاب روحانيّة اللّيتورجيّا الإلهيّة وعُمق لاهوتها المبنيّ على الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد ولاهوت الآباء الكنسيّ وهو عُصارةُ تأمّلاتهم وكتاباتهم الغزيرة على مدى أجيالٍ وأجيال، وقد عاشوا من خلالها لحظاتٍ مقدّسةٍ في تاريخ حياتهم الشّخصيّ، والإنسانيّ، والكنسيّ، والرّوحيّ، جعل من هذه اللّحظات مسيرةً تصاعديَّةً نحو الأبديّة والملكوت السّماوي.

وهكذا نؤكّد أنّ اللّيتورجيّا الإفخارستيّة هي رحلة الكنيسة إلى الملكوت، رحلةٌ تبتدئ من أورشليم الأرضيّة، رمز العبوديّة والمنفى، متوجِّهةً نحو أورشليم السّماويّة، الوطن الحقيقيّ للإنسان، على حدّ تعبير القدّيس بولس: "لأنّه ليس لنا ههُنا مدينةٌ باقية، وإنّما نسعى إلى مدينة المستقبل" (عبرانيّين ١٣: ١٤). وما مدينة المستقبل هذه إلاّ إشارةٌ إلى الخيرات الإلهيّة الموعود بها على لسان الرّبّ نفسه: "إنّ في بيت أبي منازلَ كثيرة، وإلاّ فهل كنتُ قلتُ لكم إنّي منطلقٌ لأعِدّ لكُمُ المكان؟ وإذا انطلقتُ وأعددتُ لكُمُ المكان أرجع فآخذُكم معي لتكونوا، أنتم أيضًا، حيث أكون" (يوحنّا ١٤: ٢-٣)، والّتي وصفها القدّيس بولس الرّسول في ما بعد بلغةٍ بليغةٍ مليئةٍ بإشراقة الأمل والرّجاء بهذه المدينة الإلهيّة المستقبليّة، قائلاً: "ما لم تَرَه عينٌ ولا سَمِعَت به أذنٌ ولا خَطَرَ على قلب بشر، ذلك ما أعدّه الله للّذين يُحبُّونه" (١ كورنثس ٢: ٩). من هنا نَعي أنّ ليتورجيّتنا الّتي نحتفل بها في كنائسنا هي ذات طابع تصاعديّ، بمعنى آخر، **إنّها ليتورجيّا الصّعود والارتقاء بالرّوح القدس إلى الملكوت السّماويّ**. الحقّ أقول أنّني في خدمة القدّاس الإلهيّ أقف مندهشًا ومتعجّبًا: تُرى هل ارتفعت الكنيسة إلى السّماء نحو عريسها الإلهيّ، أم تحوّلت الأرض سماءً، فجاء العريس السّماويّ مع مصاف ملائكته يحتضن عروسه الّتي أحبّها؟!

إنّ الهدف الكامن وراء إعداد هذا الكتاب عن مفهوم الإفخارستيا في الكتاب المقدّس والكنيسة المقدّسة هو أن يُدرك المؤمنون معاني هذا السّرّ العظيم الّذي فيه يُقدّم لنا المسيح ذاته ذبيحةً وقربانةً حيّةً في سبيل فداء الإنسان وتحريره من عصر الخطيئة الرّهيب الّذي دمّر حياته الرّوحيّة مع اللّه. فالإفخارستيّا تظهر من هذه الزّاوية سرّ إعادة الإنسان إلى مائدة الرّبّ وارتقائه إلى الملكوت السّماويّ، ذلك أنّ أوّل درجةٍ في سلّم الصّعود هذا هو في الخروج من هذا العالم الفاسق الخاطئ والدّخول في العالم الإلهيّ المتمثّل في الكنيسة الأرضيّة، بيت اللّه، باب السّماء.

وهكذا، فإنّ الهدف يكمن في الدّعوة لكي نعمل معًا لنجعل من رعايانا وكنائسنا **جماعاتٍ إفخارستيّة**، ذلك أنّ الإفخارستيّا هي المكان اللّاهوتيّ الّذي تُعلِن فيه الكنيسة موت وقيامة المسيح وتشترك في حياة المسيح وتتّحد به، في جسده ودمه ومن خلاله بالآب السّماويّ، بقوّة الرّوح القدس الّذي يحقّق ويكمّل فيها ثمار الخلاص. إنّها [الإفخارستيا] القوت والزّاد وهي ضمانة الشّركة والوَحدة وتجلّي الكنيسة، والاشتراك بالمائدة المقدّسة وبنصيب القدّيسين، وهي الّتي تجعل من الجماعة جماعة قدّيسين "الأقداس للقدّيسين".

- **تأثير مذهب المادّيّة على الممارسة اللّيتورجيّة**

مشكلةٌ جديرةٌ بتسليط الأضواء عليها تُعيق عالمنا اليوم من بلوغ ما تقدّم ذكره، المادّيّة. لقد دخل مذهب المادّيّة وتغلغل في مجتمعاتنا وحتّى في تفاصيل حياتنا اليوميّة، وقد كان له الأثر السّلبيّ على جوانبَ عدّةٍ من حياة الكنيسة الأسراريّة. وإذ تفقد اللّيتورجيّا روحها، تُصبح الطّقوس عبارةً عن حركاتٍ سطحيّةٍ فارغةٍ من هُويّتها الحقيقيّة، دون الوصول إلى غاية هذه الطّقوس، السّيّد المسيح. فالمرأة السّامريّة الّتي ذكرها الإنجيليّ يوحنّا في الفصل الرّابع من إنجيله الشّريف، لم تكتشف في يسوع سوى مسيح الطّقوس والشّعائر الدّينيّة الظّاهريّة والسّطحيّة: "تَعَبَّدَ آباؤنا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إنّ المكان الّذي فيه يجب التّعبُّد هو في أورشليم" (يوحنّا ٤: ٢٠)، إلاّ أنّه منحها القدرة على أن تكتشف بنفسها هُويّته الحقيقيّة أنّه المسيح المخلّص: "إنّي أعلم أنّ المَشيحَ آتٍ – وهو الّذي يُقال له المسيح – وإذا أتى، أخبَرَنا بكلّ شيء. قال لها

يسوع: أنا هو، أنا الّذي يُكلّمُكِ... هلمُّوا فانظُروا رجلاً قال لي كلّ ما فعلت. أتُراه المسيح؟" (يوحنّا ٤: ٢٥-٢٦، ٢٩). إذاك، يُصبح للطّقوس والشّعائر الدّينيّة معنًى روحيٌّ واضح المعالم، حين نرى فيها المسيح المخلِّص ونُقيم العلاقة الإيمانيّة المطلوبة معه، لنحيا معه في هذا الدّهر والدّهر الآتي. هذه هي غاية اللّيتورجيّا وحدودها.

إنّ السّؤال الّذي يطرح بظلاله علينا ويَشدّنا إلى التّفكير بروح كنسيّةٍ ومسؤوليّةٍ راعويّة: كيف تعيش في أيّامنا الأكثريّةُ المعمَّدة يوم الرّبّ (أي يوم الأحد)؟ وإذا قدّسنا فكيف نقدّس؟ أقُدّاسنا هو بحقٍّ عيد القيامة أم أحيانًا كثيرةً يكون حفلةً فولكلوريّة؟. كم من مرّةٍ جعلنا من دم المسيح دمًا رخيصًا بأعمالنا الميّتة. لنقرأ ما كتبه بولس الرّسول في هذا الصّدد: "**فأيّ عقابٍ أشدّ** من ذلك العقاب يستحقّ، كما ترَون، **مَن داس ابنَ الله وعدّ دم العهد الّذي قدّسَ به نَجسًا واستهان بروح النّعمة؟**" (أي الرّوح القدس) (عبرانيّين ١٠: ٢٩). قد يبدو هذا الكلام قاسيًا جدًّا في حقّ بعض المسيحيّين الّذين يعتبرون مسيحيّتهم عبارةً عن مجموعة طقوسٍ عفا عنها الزّمن دون التّأمّل في ذبيحة المسيح القربانيّة على الصّليب والدّم الإلهيّ الّذي سال من على خشبة الصّليب المقدّسة! هناك بعض المسيحيّين يُسمّرون يدَي السّيّد ورجلَيه بالمسامير بدلاً من الجنود الرّومان؛ وهناك بعضٌ آخر يطعنون جنب المخلِّص بالحربة بدلاً من الجنديّ الرّومانيّ؛ وهناك آخرون يستهزئون بملكهم ويُجدّفون عليه بدلاً من اليهود المارّين من أمام الصّليب؛ وهناك أخيرًا مسيحيّون يقفون عند أقدام الصّليب بدلاً من التّلميذ الحبيب والمريمات، يُصغُون إلى الكلمات الأخيرة الّتي سينطق بها المصلوب، ويتّخذونها شعارًا وعنوانًا لحياتهم، فيبلغون إلى ملء قامة المسيح.

بيد أنّ ثمّة سؤال يطرح نفسه بقوّةٍ على كلّ واحدٍ منّا اليوم: أين موقعك من أنواع المسيحيّين هذه؟

كلّ هذا يفترض وعيًا لأهميّة القدّاس في الحياة الشّخصيّة للإنسان المسيحيّ وفي حياة الرعيّة الرّوحيّة والكنسيّة واللّاهوتيّة، فالأسبوع كلّه يتوجّه نحو الأحد والأحد نحو الأسبوع. فالمسألة ليست بكثرة القدّاديس بل بعمق المشاركة، وإلاّ تحوّلت اللّيتورجيّةُ الإفخارستيّة إلى ليتورجيّةٍ تَقَويّةٍ مؤلّفةٍ من

مجموعة حركاتٍ وطقوسٍ فارغةٍ من معناها الأساس: سرّ الكنيسة في دخولها إلى فرح ربّها (راجع متّى ٢٥: ٢١) والشّهادة له في العالم.

- **الجماعة المؤمنة والإفخارستيّا**

جُلّ ما نبتغيه هو أن تُصبح الجماعة المؤمنة جماعةً إفخارستيّةً – قربانيّة، إذ إنّ القدّاس لا ينتهي داخل الكنيسة بل يتواصل في مشروع قربانيٍّ أي تقديم الذّات يوميًا للآب، والحركة في هذا تساهم مع المسيح في رسالته التّقديسيّة: "كرّسهم بالحقّ" (يوحنّا ١٧: ١٧، ١٩) وأبناؤها بدورهم ملتزمون في مشروع تقديس المجتمع. وهكذا تستمرّ اللّيتورجيّا في مواقف حياتنا الشّخصيّة واليوميّة، إذ إنّ كلّ مؤمن مدعوٌّ ليُتابع ليتورجيّةً شخصيّةً على المذبح السّرّيّ في قلبه الخاصّ، ليُحقّق استعلانًا حيًّا للعهد الجديد من أجل حياة العالم. ودون هذه الاستمراريّة، تبقى اللّيتورجيا الكنسيّة غيرَ مكتملة وعاجزة عن إتمام هدفها المنشود.

- **بُنية الكتاب**

وفقًا لذلك، يأتي هذا الكتاب مؤلّفًا من ثلاثة أقسامٍ مترابطةٍ كتابيًّا، كنسيًّا، لاهوتيًّا وليتورجيًّا.

- سيُخصّص **القسم الأوّل** منه لدرس "لاهوت الإفخارستيّا" في الكتاب المقدّس الّذي يُشكّل أساسَ كلّ عملٍ كنسيٍّ وليتورجيٍّ وعقائديّ، إذ من خلاله تكتشف الجماعة المؤمنة مشيئة الله الخلاصيّة وهو، في الوقت عينه، يُشكّل القاعدة الذّهبيّة لكلّ أسرار الكنيسة المقدّسة، بالإضافة إلى إظهار تسميات الإفخارستيّا كما عبّرت عنها الكنيسة المقدّسة في لاهوتها.
- ويأتي **القسم الثّاني** ليُكرّس لدرس اللّاهوت اللّيتورجيّ للقدّاس الإلهيّ كما وصلنا في صيغته الحاضرة. وفيه سنقوم بدراسةٍ تفصيليّةٍ لكلّ أقسام الذّبيحة الإلهيّة الإفخارستيّة من خلال شرحٍ موسّع للعبارات اللّاهوتيّة واللّيتورجيّة الواردة في القدّاس (كالثّالوث، والملكوت، والنّور الإلهيّ...)، والصّلوات الّتي يتلوها الكاهن بإسم الجماعة من جهة، وعن نفسه من جهةٍ أخرى، والأناشيد الطّقسيّة، والطِلبات المتنوّعة، وسنتوقّف باحثين في تفسير الصّلاة الرّبّيّة الكتابيّ ولنا في هذا الموضوع كلامٌ كثير.

- أمّا القسم الثّالث من هذا الكتاب فسيكون مخصّصًا لدرس معمَّق لرموز القدّاس الإلهيّ اللّيتورجيّة الّتي تُعنى بإبراز الحركات اللّيتورجيّة الّتي يقوم بها الكاهن أثناء الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ والّتي لا يفهمها السّواد الأكبر من المسيحيّين المشاركين في هذا الاحتفال المقدّس. فدخولنا إلى شرح هذه التّفاصيل الطّقسيّة، يُساعد بقوّةٍ وزخمٍ كبيرَين في جعل المؤمنين أكثر إدراكًا للحركات الطّقسيّة الّتي ليست بحدّ ذاتها حركاتٍ مُفرَغةً من معانيها اللّاهوتيّة، بقدر ما تعبّر عن روحانيّةٍ عميقةٍ تتمحور حول عيش الكنيسة، أي الجماعة الإفخارستيّة، لهذا الاحتفال اللّيتورجيّ الّذي يجعلنا "نتذوّق مُسبقًا ليتورجيّا السّماء المحتفَل بها في أورشليم الجديدة والّتي نتوق إليها كمسافرين"[١] في محجّتنا نحوها.

- **الهدف المنشود من الكتاب**

إنّ الهدف المنشود من وراء الأقسام الثّلاثة الّتي تُشكّل بُنية الكتاب يكمن في دعوة الإنسان المشترك في القدّاس الإلهيّ إلى التّأوين المستديم لسِرّ الحمل الفصحيّ، وإلى عيش الفرح الإفخارستيّ، في قلب الجماعة، وفي وسطها، ومع إخوتنا نَعبُر إلى بيت الله بفرح إلى حياةٍ جديدةٍ مع المسيح، انطلاقًا من الخبرة البيبليّة (الكتابيّة) للجماعة: "سأبشّر إخوتي باسمك، وفي وَسْط الجماعة أُسبّحك" (مزمور ٢١: ٢٣)؛ وأيضًا: "إنّي أعبر مع الجمهور وأقصِدُ بهم بيت الله، بصوت تهليلٍ وحمدِ المُعيِّدين" (مزمور ٤١: ٥).

كما ويعيش المسيحيّ أيضًا اختبار تلميذي عمّاوس، كما أعلن قداسة البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني في خبرته الشّخصيّة قائلاً: "كلّ يوم سمح لي إيماني بأن أعرف في الخبز والخمر المكرّسَين الحاج الإلهيّ الّذي، في يومٍ من الأيّام، سار مع تلميذي عمّاوس ليفتح أعينهما على النّور وقلبهما على الرّجاء" (لوقا ٢٤: ١٣-٣٥)[٢]. ويتابع قداسة البابا شهادته بهذا الابتهال: "السّلام عليك أيُّها

---

١) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة***، ص. ٥-٦.

٢) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد٥٩.

الجسد الحقيقيّ المولود من مريم العذراء، الّذي تألّم حقًّا وذبح على الصّليب من أجل الإنسان"[٣].

وعليه، فلا بدّ لنا من أن نُدرك بكلّ أذهاننا وقلوبنا وإيماننا أنّ اللّيتورجيّا الإفخارستيّة، وأعني بها "القدّاس الإلهيّ"، هي حركة الكنيسة بصفتها معبرًا من القديم إلى الجديد، من "هذا العالم" إلى "العالم الآتي". ففيها نلتقي بربّنا يسوع المسيح، ونلمس حبّه، ونُدرك عمله الخلاصيّ، ونتذوّق الاتّحاد به، وننعم بإشراقاته الإلهيّة، ونشاركه أمجاده الأبديّة.

- **كلمة ختاميّة**

سيجد القارئ نفسه أمام كمٍّ هائلٍ من الاستشهادات الكتابيّة، والمعلومات الكنسيّة، واللّاهوتيّة، واللّيتورجيّة، والتّاريخيّة، وذلك كلّه بهدف إثراء الثّقافة الدّينيّة الشّخصيّة لديه، من جهة، وتعميق المعرفة اللّيتورجيّة والطّقسيّة، الّتي تجعله يتذوّق حلاوة الاحتفال الإفخارستيّ بلاهوته ورموزه الثّريّة، ليتسنّى له الدّخول من باب اللّيتورجيّا المقدّسة للتّحليق في سماء كلمة الله، أساس كلّ عملٍ كنسيٍّ ومنبعه الحيّ، من جهةٍ أخرى.

هذا الكتاب نافعٌ للإكليروس والأكاديميّين اللّاهوتيّين دارسي الكلمة في المعاهد والجامعات اللّاهوتيّة. كما أنّه يصلح لجميع المسيحيّين، وبخاصّةٍ أولئك الّذين يتردّدون دائمًا للاشتراك في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ في الآحاد والأعياد، كي تكون مسيحيّتهم مسيحيّة العلاقة الشّخصيّة واللّقاء المباشر والإيمان الحيّ بيسوع المسيح، خبز الحياة وحمل الله الذّبيح.

---

٣) المرجع نفسه، عدد ٥٩.

- **شكر**

جزيل الشّكر أوجّهه بعاطفةٍ بنويّةٍ خالصةٍ **لغبطة أبينا البطريرك كيريوس كيريوس غريغوريوس الثّالث لحّام الكلّيّ الطّوبى**، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندريّة وأورشليم للرّوم الملكيّين الكاثوليك، الّذي أشرف شخصيًّا على قراءة هذا الكتاب، وأبدى ملاحظاته القيّمة والثّمينة عليه، فجاء يحمل رونقًا بطريركيًّا ونفحةً ليتورجيّةً من أبي الآباء وراعي الرّعاة، وغبطته صاحب الباع الطّويل في الإصلاحات اللّيتورجيّة الّتي طالت كنيستنا الأمّ، وهو، في الوقت نفسه، اللّيتورجيّ المحلّق في سماء اللّيتورجيّا والطّقوس الكنسيّة. فإلى سنين كثيرة يا سيّد.

كما يطيب لي أن أقدّم جزيل الشُّكر والامتنان **لسيادة المطران بطرس المعلّم الموقّر**، الّذي لم يتوانَ عن تقديم العون والمساندة في إعادة دراسة الكتاب والإطّلاع على تفاصيله وإبداء كافّة الملاحظات عليه اللّيتورجيّة واللّغويّة، خصوصًا وأنّ سيادته يتمتّع بفكرٍ لاهوتيٍّ عميق، وحسٍّ ليتورجيٍّ عالٍ. فإلى سنين كثيرة يا سيّد.

كما لا يسعني أيضًا إلاّ أن أشكر كلّ مَن ساهم في إنجاح هذا العمل وأخصّ بالذّكر: قدس الأب شارل ديب، الّذي ساهم في تصميم الغلاف؛ قدس الأب سعيد الهاشم، الّذي قام بمراجعة القسم الأوّل من الكتاب؛ وحضرة الاستاذ المربّي اسكندر عمل، الّذي راجع الكتاب من النّاحية اللّغويّة. كما أودّ أن أقدّم شكرًا خاصًّا للسّيّد خليل مزاوي مدير مطبعة الحكيم، وطاقم العاملين فيها، على اهتمامهم ومحبّتهم.

الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى

ب.م

القسم الأوّل

الإفخارستيّا

في الكتاب المقدّس

وفي لاهوت الكنيسة المقدّسة

الفصل الأوّل

الشّكر

بين العهدَين القديم والجديد

الباب الأوّل

الخبز
عطيّة من اللّه

يشرح معجم اللّاهوت الكتابيّ أنّ الخبز الّذي يهبه اللّه للإنسان هو مصدر قوّةٍ له: "أنتَ المُنبت كَلأً للبهائم. وخَضِرًا لخدمة البشر. لإخراج خبز من الأرض. وخمر تُفرّح قلب الإنسان. لإزهار وجهه بالزّيت. والخبز يُشدّد قلب الإنسان" (مزمور ١٠٣: ١٤-١٥)، كما وأنّه وسيلةٌ أساسيّةٌ للحياة، لدرجة أنّ العوز إلى الخبز مرادف الحرمان من كلّ شيء[٤]. يعتبر الكتاب المقدّس أنّ للخبز قيمته في كلّ ظروف الحياة: فالمتألّم والّذي يشعر بأنّ اللّه نَسِيَه يأكل خبز "الدّموع والكرب والرّماد": "كانت لي دموعي خُبزًا نهارًا وليلاً. إذ قيل لي كلّ يوم: أين إلهك؟" (مزمور ٤١: ٤)؛ أمّا المبتهج فيأكل عيشه في هناء: "فاذهَبْ وكُلْ خُبزَكَ بفرح، واشرَبْ خمرَكَ بقلبٍ مسرور، لأنّ اللّه قد رَضِيَ عن أعمالك" (سفر الجامعة ٩: ٧)؛ والخاطئ يأكل خبز النّفاق والكذب: "لقد أكلوا خبز الشّرّ، وشَربوا خمر عُنف" (أمثال ٤: ١٧)؛ والكسول يأكل خبز الكسل: "تُراقب طرق بيتها، ولا تأكل خبز الكَسَل" (أمثال ٣١: ٢٧). من جهةٍ ثانية، الخبز ليس ضروريًّا للحياة فقط، بل هو وسيلةٌ للمشاركة. فكلّ مأدبةٍ تفترض تجمُّعًا لا بل شركة، وأكل الخبز بشكلٍ منتظَمٍ مع شخص معيّن، يعني أنّنا اتَّخذناه صديقًا، من هنا القول المأثور "يوجد خبز وملح بيننا". فإنّ واجب الضّيافة مقدّس وهو يحوّل خبز كلّ فرد إلى

---

٤) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٢٩٥.

خبزٍ لعابر السّبيل الّذي أرسله الربّ الإله: "... وأُقدِّم كِسرة خبزٍ فتُسندون بها قلوبكم..." (تكوين ١٨: ٥). ويشدِّد الكتاب المقدّس على ضرورة تقاسم الخبز مع الجائع، فهي الرّوحانيّة الّتي تعبِّر عن المحبّة الأخويّة: "الصّالح العين يُبارَك، لأنّه أعطى من خُبزه للفقير" (أمثال ٢٢: ٩). **فالخبز هو عطيّة من الله.**

في الخلق كما بعد الطّوفان الرّبّ الإله يؤمِّن الطّعام لشعبه. لذلك يفهم المؤمن أنّ أوقات الوفرة في الخيرات هي بركة من الرّبّ، أمّا ساعات القلّة والقحط، فهي عقابٌ للخطيئة. لذلك يطلب الإنسان الخبز من الرّبّ وينتظره بكلّ ثقة، وهذا ما يذكِّرنا بمعجزة تكثير الخبز والسّمك، والمعجزات السّابقة كما حصل مع إيليّا وأرملة صرفة صيدا، وأليشاع في سفر الملوك الثّاني حيث قال: "سنأكل ويفضل عنّا". إنّ استعمال الخبز في العبادة يعود إلى تاريخٍ قديمٍ على أثر شعورٍ دينيٍّ حيث كانت تُقدَّم الأطعمة للآلهة. أمّا إله إسرائيل فإنّه يرفض أيّ طعام، لذلك كانت توضع البواكير، أي بواكير غلاّت الأرض، في سِلالٍ، وتُحمَل إلى المذبح، وذلك للاعتراف بجميل الرّبّ.

إنّها ترمز إذًا إلى الشّركة بين الله وشعبه المؤمن، وتكون في النّهاية من نصيب الكهنة: "وخُذ سَميذًا واخبزهُ اثني عشر رغيفًا، يكون كلُّ رغيفٍ عُشرَين. واجعلها صفَّين، كلُّ صفٍّ مُنَضَّدةٌ على المائدة الطّاهرة أمام الرّبّ. وضَعْ على كلّ صفٍّ بخورًا خالصًا، فيكون للخبز تذكارًا، ذبيحةً بالنّار للرّبّ. في كلّ يوم سبت، تُصَفُّ أرغفة السَّميذ أمام الرّبّ دائمًا، وهي من عند بني إسرائيل: عهدٌ أبديّ. فتكون لهارون وبنيه، يأكلونها في موضعٍ مقدّس، لأنّها قُدس أقداسٍ له من الذّبائح بالنّار للرّبّ: فريضةٌ أبديّة" (أحبار ٢٤: ٥-٩)، **لأنّ الكاهن هو ممثّل الله.** ثمّ تحوّل استخدام تقدمة الخبز الفطير إلى استخدامٍ احتفاليٍّ بعد الخروج من مصر وذلك لارتباط الحدثين الواحد بالآخر، ولاعتبار الخمير سيّئًا لا يَصلُح للعبادة. ووصل استخدام الخبز في العبادة إلى قمّة معانيه في الإفخارستيّا حيث يسوع قدّم جسده في هذا الرّمز وأمر تلاميذه بالقيام بهذا العمل حتّى مجيئه جاعلاً منه سرّ وحدة المؤمنين.

وفي استخدامه الرّمزيّ، يحمل الخبز معنى الغذاء الرّوحيّ بالكلمة. ففي زمن النّبيّ عاموس أعلن عن الجوع إلى "كلمة الله": "ها إنّها ستأتي أيّامٌ، يقول

السَّيِّد الرَّبّ، أُرسل فيها الجوع على الأرض، لا الجوع إلى الخبز ولا العطش إلى الماء، بل إلى استماع كلمة الرَّبّ" (٨: ١١)؛ وكذلك الأنبياء كأشعيا الَّذي يعلن عن الوليمة الإسكاتولوجيَّة حيث يكون "كلام الرَّبّ" هو الخبز الَّذي يُحيي: "أيّها العطاش جميعًا، هلمّوا إلى المياه، والَّذين لا فضّة لهم، هلمّوا اشتروا وكُلوا، هلمّوا اشتروا بغير فضّة ولا ثمن، خمرًا ولَبَنًا حليبًا، لماذا تَزنون فضّةً لِما ليس بخبز، وتتعبون لِما لا شِبَعَ فيه؟ إسمعوا لي سماعًا وكُلوا الطَّيِّب، ولتتلذَّذ بالدَّسَم نفوسُكم. أميلوا آذانكم وهلمّوا إليّ، إسمعوا فتحيا نفوسُكم، فإنّي أُعاهدكم عهدًا أبديًّا، على الخيرات الَّتي وُعِدَ بها داود" (٥٥: ١-٣).

بالنّسبة إلى يسوع، يُشير الخبز إلى "الكلمة الإلهيّة الَّتي يجب أن تكون جوهر غذائنا اليوميّ"[٥]: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تخرج من فم اللّه" (متّى ٤: ٤). "وباعتبار الخبز غذاءً ضروريًّا وهِبَةً من اللّه، حتّى في شكله الماديّ، فالمؤمن الَّذي يطلبه من ربّه كلّ يوم، يمكنه أن يعني به، مع نموّ الإيمان، الكلمة الإلهيّة وشخص المخلّص نفسه المقدَّم ذبيحة وهو خبز السّماء الحقيقيّ وخبز الحياة الحيّ والمُحيي"[٦] (يوحنّا ٦: ٣٢، ٣٥، ٥١).

---

٥) **المرجع نفسه**، ص. ٢٩٦.

٦) **المرجع نفسه**، ص. ٢٩٧.

الباب الثّاني

الشّكر

وعيٌ لعطايا اللّه المجّانيّة

يقول معجم اللّاهوت الكتابيّ أيضًا بأنّ "عطيّة اللّه هي مجانيَّة وتفيض، وأبديّة، وفعل الشّكر هو جوابٌ على نعمة اللّه المتدفّقة والمتواصلة"[٧]. لذلك نفهم بفعل الشّكر أنّه **وعيٌ لعطايا اللّه المجّانيّة للإنسان**؛ اندفاعٌ لا شائبة فيه للنَّفس الّتي امتلأت بالدّهش من جُود اللّه عليها؛ عرفانُ الجميل أمام العظمة الإلهيّة؛ وردَّةُ فعلٍ دينيَّةٍ عميقةٍ للخليقة الّتي تكشف شيئًا من اللّه ومن عظمته ومجده. ففي العهد القديم، الشّكر هو عرفانٌ للجميل بقدر ما هو تَوقٌ نحو المستقبل ونحو نعمةٍ أكبر. وفي الحقيقة إذا لم يكن قد عرف هذا العهد الشّكر في كماله، فلأنّه لم يكن قد تذوّق بعد ملء النِّعمة. فلقد تعوَّد الأقدمون في الكتاب المقدّس الشّكر عن طريق استعادة الفرح[٨]، والحمد والتّهليل[٩]، وتمجيد اللّه[١٠] للاعتراف ولإعلان العظائم الإلهيّة وبالتّالي، للشّهادة

---

٧) **المرجع نفسه**، ص. ٤٥٦.

٨) "رنِّموا للرّبّ أيّها الصّدّيقون. فإنّ التّسبيح يليق بالمستقيمين. اعترفوا للرّبّ بالكِنّارة وبعودٍ عُشاريّ الأوتار أشيدوا له. رنِّموا له ترنيمًا جديدًا. أحسِنوا العزف مع الهُتاف... به تفرح قلوبنا وعلى اسمه القدّوس توكّلنا" (مزمور٣٢: ١-٣، ٢١).

٩) "ورنِّموا بالتّسبيح والحَمد للرّبّ "فإنّه صالح، فإنّ للأبد رحمته" على إسرائيل، وهَتَفَ كلّ الشّعب هُتافًا عظيمًا، وهم يُسبِّحون الرّبّ بسبب تأسيس بيت الرّبّ" (عِزرا ٣: ١١)؛ "أسبِّح اسم إلهي بالنّشيد. أعظّمه بالتّسبيح" (مزمور٦٨: ٣١).

لها. لذلك استخدم الأقدمون عبارتين للتّعبير عن شكرهم: الأولى هي "شكر" (توداه)؛ والثّانية هي "بركة" وفيها معنى "التّبادل الجوهريّ بين الله والإنسان". فصدى بركة الله الّذي يَهَب خليقته الحياة والخلاص هو البركة الّتي يشكر بواسطتها الإنسان خالقه: "باركوا الرّبّ إلهَ الآلهة، يا جميع مُتّقي الرّبّ، سبِّحوه واحمَدوه لأنّ للأبد رحمته" (دانيال ٣:٩٠). لقد وصلت العبارتان إلى معناهما القويّ مع يسوع في عشائه السّرّيّ. ففي ذلك العشاء حمل يسوع حياة البشريَّة كلَّها من خلال رموزها ومن خلال عناصرها الأساسيَّة وقرَّبها كلَّها بفعل شكرٍ للربّ الإله، وقرَّبها كلَّها بفعل تعويض، بشخصه، عن خطيئة العالم، حتّى رَفَعَ العالم معه عندما رُفِعَ هوَ على الصّليب.

إنّ الشّكر في كتابات العهد الجديد لا ينفصل عن الاعتراف (متّى ١١: ٢٥؛ لوقا ٢: ٣٨؛ عبرانيّين ١٣: ١٥)، وعن الحَمد (لوقا ٢: ١٣، ٢٠؛ رومة ١٥: ١١)، وعن التّمجيد (متّى ٥: ١٦؛ ٩: ٨)، ويرتبط بشكلٍ مميَّز ومستديمٍ بالبركة (لوقا ١: ٦٤، ٨٦؛ ٢: ٢٨؛ ١ كورنثس ١٤: ١٦؛ يعقوب ٣: ٩). إلاّ أنّ هناك عبارةً جديدةً لم يعرفها العهد القديم وهي باليونانيّة "إفخارستيّا" الّتي "تملأ العهد الجديد (أكثر من ٦٠ مرّة)، فتُعبّر عن أصالة الشّكر المسيحيّ وأهميّته، كجوابٍ للنّعمة الّتي وهبها الله في يسوع المسيح"[١١]. إذًا، لقد وجد شكر العهد القديم اكتماله في العهد الجديد في شخص يسوع المسيح. وهذا ما سنراه في سياق دراستنا.

---

١٠) "إنّ الّذي يجعل ذبيحته الاعتراف هو يُمجّدني. والّذي يُقوّم طريقه إيّاه أري خلاص الله" (مزمور ٤٩: ٢٣)؛ "أعترف لك أيّها الرّبّ إلهي بكلّ قلبي. وأمجّد اسمك إلى الأبد" (مزمور ٨٥: ١٢).

١١) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٤٥٧.

الباب الثّالث

تقدمة ملكيصادق

يعتمد الآباء في تقديمهم لصور وأمثال العهد القديم، وهم يشرحون ويوضّحون أعمال اللّه في العهد الجديد، على حقيقةٍ إيمانيّةٍ ثابتةٍ لدى الكنيسة كلّها، أنّ كلّ ما عمله اللّه في الماضي عمله بتدبير خاصّ حتّى يكون كأساسٍ مُسبَقٍ يبني عليه الإنسان رجاءه وأمله في ما هو عتيدٌ أن يعمله اللّه في مستقبل الزّمان من أجل تكميل خلاصه. فعندما نتكلّم عن الإفخارستيّا الّتي تُشكّل القلب النّابض لكِلا العهدَين، يرى معظم اللّاهوتيّين العلاقة الأسراريّة الّتي تربط تقدمة ملكيصادق وتقدمة يسوع نفسه.

نقرأ في الكتاب المقدّس: "وأخرج ملكيصادق، ملك شليم، خُبزًا وخمرًا، لأنّه كان كاهن اللّه العليّ" (تكوين ١٤: ١٨) وكهنوت المسيح هو على هذه الرّتبة: "... أنتَ كاهنٌ للأبد على رتبة ملكيصادق" (راجع مزمور١٠٩: ٤)، وليس بحسب رتبة الكهنوت الهارونيّ الّذي يُقدّم ذبائح حيوانيّة. وذبيحة هارون الدّمويّة كانت رمزًا إلى ذبيحة الصّليب، وتقدمة ملكيصادق هي غير دمويّةٍ تُشير إلى ذبيحة الإفخارستيّا غير الدّمويّة. وملكيصادق لم يكن له نسلٌ وكهنةٌ تسلّموا منه بخلاف هارون الّذي مات وتسلّم أولاده بعده وذلك إشارةٌ إلى أنّ كهنوت المسيح باقٍ للأبد. فذبيحة المسيح قُدّمت مرّةً واحدةً ولن يصلب المسيح ثانيةً ولكنّ الإفخارستيّا هي ذبيحةٌ لا ينقطع تقديمها إلى الأبد. هذا ما يجعلنا نُشير إلى أنّ الكهنوت والإفخارستيّا ينحدران أصلاً من الأبديّة، من اللّه، من وراء الزّمن والتّاريخ، إذ إنّ ملكيصادق هو أصلاً بلا بداية أيّامٍ ولا نهاية أيّام (راجع عبرانيّين ٧: ٣).

يقول القدّيس كبريانوس في هذا الصّدد ما يلي: "وفي حالة ملكيصادق كاهن الله العليّ نرى ذبيحة الإفخارستيّا الّتي قدّمها الربّ يسوع تسبق فتأخذ صورتها الأولى بحسب شهادة الكتاب المقدّس إذ يقول إنّ ملكيصادق ملك شليم قدّم خبزًا وخمرًا. إنّ ملكيصادق هو قبل كلّ شيءٍ مثال، صورةٌ نموذجيّةٌ للمسيح، ودليلنا على ذلك قول المزمور المئة والتّاسع: "إنّك أنت الكاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق". ثمّ مَن هو ذلك الكاهن لله العليّ أكثر من ربّنا يسوع المسيح الّذي قدّم للآب نفس التّقدمة أي الخبز والخمر – كملكيصادق – اللّذين هما جسده ودمه"[12].

إنّ المسيح عندما قدّم لتلاميذه الخبز والخمر في العشاء السّرّيّ، لم يُقدّمهما كصورةٍ أو نموذجٍ أو حتّى مجرّد بركةٍ كهنوتيّة، بل كحقيقةٍ أبديّةٍ وفعلٍ لانهائيٍّ وأسرارٍ إلهيّةٍ حيث كشف السَّيّد المسيح عن مفهوم الخبز وعن جوهره الّذي كان عند ملكيصادق مجرّد خبز حنطةٍ للبركة، فإذا به على يدَي المسيح خبزٌ نازلٌ من السّماء، خبزٌ حقيقيٌ، فيه صفة الأليثيّا"[13]، جسدٌ إلهيٌ، مأكلٌ حقٌ، الّذي يأكل منه لا يموت، يثبت في الله، يحيا إلى الأبد، يقوم في اليوم الأخير. ثمّ كشف المسيح أيضًا عن مفهوم الخمر الّذي كان على يدَي ملكيصادق مجرّد بركة، فإذا به على يدَي المسيح "دم"! دم ابن الله، حيٌّ بروحٍ أزليٍّ، دم ذبيحةٍ قُدِّمَت بحسب المشورة الإلهيّة منذ الأزل (لا بداية أيّامٍ له)، وهي باقيةٌ أمام الآب تُكفِّر عن خطايا الخطأة وتشفع في المذنبين إلى الأبد (لا نهاية أيّامٍ له): إنّه دم المسيح الّذي للعهد الجديد، يُعطَى لمغفرة الخطايا، ويَهَب حياةً أبديّةً لكلّ مَن يتناول منه.

من هنا يتبيّن وبوضوح "أنّ كافة الذّبائح تتجمّع بكلّ قِيَمها الرّوحيّة مُضافًا إليها سرّ المسيح كابن الله وككاهنٍ أعظم للعالم كلّه. وهكذا تكمل في المسيح كلّ عبادة، وكلّ ذبيحة، وكلّ عهد، وكلّ توسُّطٍ بين الله والنّاس، في

---

١٢) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٥٣.

١٣) الأليثيّا "ἀληθεία" كلمةٌ يونانيّةٌ تعني "الحقّ"، ومنها "الحقيقيّ" وهو الّذي لا يتغيّر ولا يَفسُد ولا يزول. إنّها الكلمة المحبَّبَة لدى يسوع الّذي كان يصف بها نفسه عندما يُعطي تشبيهاتٍ مادّيّةٍ كالكرمة الحقيقيّة والنّور الحقيقيّ والخبز الحقيقيّ، حتّى يرفع الصّفة المادّيّة إلى مستوى الأليثيّا. **المرجع نفسه**، ص. ٥٥.

كلّ العصور، وعلى المستوى الكلّيّ، فهو البداية والنّهاية لكلّ علاقةٍ تربط الإنسان بالله والله بالإنسان. أمّا هذه العلاقة بكلّ أسرارها العميقة الّتي استعلنها المسيح في نفسه، فقد استودعها جميعًا في سرّ الإفخارستيّا، حين أعلن قائلاً: "الّذي يأكلُني سيَحْيا بي" (يوحنّا ٦: ٥٧)"[١٤].

سنتكلّم بتفصيلٍ أكثر عن كهنوت ملكيصادق وكهنوت المسيح في القسم الثّاني من هذا الكتاب، وبالأخصّ أثناء ترنيم نشيد الملائكة (النّشيد الشّيروبيميّ) حيث يتلو الكاهن صلاة نشيد الملائكة وفيها ذكرٌ للمسيح رئيس الكهنة.

١٤) المرجع نفسه، ص. ٥٨.

الفصل الثّاني

الإفخارستيّا

في كتابات العهد الجديد

الباب الأوّل

الإنجيليّان متّى ومرقس

متّى ٢٦: ٢٦-٢٩

"وبينما هم يأكلون، أخذ يسوع خبزًا وبارك ثمّ كسره وناوله تلاميذه وقال: "خذوا فكُلُوا، هذا هو جسدي". ثمّ أخذ كأسًا وشكر وناولهم إيّاها قائلاً: "إشربوا منها كلُّكم. فهذا هو دمي، دمُ العهد، يُراق عن كثيرين لغفران الخطايا". أقول لكم: لن أشربَ بعد الآن من عصير الكرمة هذا حتّى ذلك اليوم الّذي فيه أشربَه معكم جديدًا في ملكوت أبي".

مرقس ١٤: ٢٢-٢٥

"وبينما هم يأكلون، أخذ يسوع خبزًا وبارك، ثمّ كسره وناولهم وقال: "خذوا، هذا هو جسدي". ثمّ أخذ كأسًا وشكر وناولهم، فشَربوا منها كلّهم، وقال لهم: "هذا هو دمي، دم العهد، يُراق عن كثيرين". الحقّ أقول لكم: لن أشربَ بعد الآن من عصير الكرمة، حتّى ذلك اليوم الّذي فيه أشربُه جديدًا في ملكوت الله".

١) الدّعوة إلى الأكل

"خذوا كلُوا، خذوا إشربوا"، تدلّ هذه الدّعوة على رغبة يسوع وتصميمه على إشباع وتغذية الرّسل والمؤمنين وهو يطعمهم جسده ويشربهم دمه. ولقد أعدّ هوَ نفسه هذا العشاء وطلب من الرّسل أن يذهبوا ليعدّوا المكان له. وهو نفسه هنا يدعو بصوته وكلماته إلى هذه الشّركة بالأكل للغذاء والشّرب. والملاحظ أيضًا عبارة "من أجل الكثيرين" (راجع أشعيا ٥٣: ١١-١٢)، فالدّعوة هنا لا تعني جزءًا من العالم فقط، إنّما هي دعوةٌ مفتوحةٌ لكلّ الجنس البشريّ دون استثناء[١٥]، وهي دلالةٌ على شموليّة الدّعوة وشموليّة المشاركة بهذه الدّعوة.

وهذا يعود ليذكّرنا بالمثل الَّذي أعطاه يسوع عن الملك الَّذي يُعِدّ وليمة لعرس ابنه في إنجيل متّى (٢٢: ٤) ويقول "أعِدَّ كلّ شيء، فتعالَوا إلى العرس". ويسوع هنا عندما يدعو إلى الأكل فهو يعمل ما يراه الآب أنّ يعمل وما يريده الآب أن يعمل من أجل خلاص النّاس، بمعنى الآب أعدّ للبشريَّة فرحة عرس ابنه في هذا العشاء، فالابن إذًا "لا يستطيع أن يفعل شيئًا من عنده، بل لا يفعل إلاّ ما يرى الآبَ يفعله. فما فَعَلَه الآب يفعلُه الابن على مثاله" (يوحنّا ٥: ١٩).

٢) العشاء الفصحيّ

بحسب سفر الخروج ١٢-١٣ يحتفل بنو إسرائيل بالعشاء الفصحيّ كعيدٍ للفطير، بحيث يُعيِّدون لتحريرهم من العبوديّة في أرض مصر؛ دم الحمل المتناثر على أبواب بني إسرائيل، يجب أن يحميَهم من الموت. بحسب سفر العدد ٢٨: ١٦-٢٥، يُقرِّب بنو إسرائيل في اليوم الأوّل للفطير ذبائح مختلفة، بما في ذلك ذبيحة من أجل الخطيئة، ليصنعوا طقس التّكفير (عدد ٢٨: ٢٢). إنّ الرِّباط بين الفصح وذبيحة الخطيئة هو أكثر وضوحًا في سفر حزقيال ٤٥: ١٨-٢٤.

يربط القدّيس يوستينس الشّهيد دم الحمل في العهد القديم بدم المسيح في العهد الجديد، قائلاً:

> "إنّ الَّذين خَلُصوا من شعب إسرائيل في مصر إنّما خَلُصوا بدم الفصح الَّذي مسحوا به قوائم بيوتهم وأعتابها، لأنّ الفصح كان المسيح الَّذي ذُبح في

١٥) C.E.Cranfield, ***The Gospel according to St. Mark***, p.427.

ما بعد! فكما أنّ دم الفصح خلّص الَّذين كانوا في مصر، هكذا دم المسيح يحفظ من الموت الَّذين يؤمنون به. ولكن، هل هذا يعني أنّه لو لم تكن العلامة موجودةً على الأبواب، كان اللّه يُخطئ في معرفة الَّذين له، كلاّ، ولكنّ هذه العلامة – أي الصّليب – كانت استعلانًا مُسبقًا عن الخلاص الَّذي سيتمّ بدم المسيح الَّذي به يخلّص اللّه جميع الخطأة في كلّ الأمم".

ويُضيف قائلاً:

"إنّ الَّذي خلَّص شعب إسرائيل في مصر وفداهم من ضربة الملاك المُهلِك هو سرّ دم المسيح الَّذي رُسِمَ على الأبواب كعلامة الصّليب، أمّا دم الخروف فكان هو الظّاهر من هذا السّرّ".

هذا ما أكّده القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم حين بيّن فعل الدّم الإلهيّ فينا تطبيقًا لفعل خروف الفصح قديمًا:

"لأنّه لا وسيلة لنا الآن أن ننجوَ من الملاك المُهلِك إلاّ بالدّم الإلهيّ الَّذي سكبه بمحبّته من أجلنا" (أخذت هذه المقاطع من الإنترنت، من منتديات الأنبا كاراس المسيحيّة، تحت عنوان "صور وأمثال ورموز الإفخارستيّا في العهد القديم").

وهكذا يصير دم المسيح عبورًا على الموت، وقيامةً في الحياة الأبديّة: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبديّة، وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنّا ٦: ٥٤).

٣) دم العهد

إنّ كلام يسوع حول "دم العهد" يستحضر إلى التّأوين نصّ سفر الخروج حين رشّ موسى نصف دم الذّبائح على المذبح، ورشّ النّصف الآخر على الشّعب العبريّ[١٦]: "فأخذ موسى الدّم ورشّه على الشّعب وقال: هوذا دم العهد الَّذي قطعه اللّه معكم على جميع هذه الأقوال" (خروج ٢٤: ٨؛ راجع أيضًا الآيات ٥-٧). فيسوع قد تبنّى صراحةً الصّورة الّتي استخدمها موسى: "دم العهد" (مرقس ١٤:

---

١٦) John Nolland, ***The Gospel of Matthew***, NIGTC, p.1079.

٢٤) على أنّ "الإشارة المثلّثة إلى الحمل الّذي يُخلّص بدمه الشّعب اليهوديّ، وإلى ضحايا سيناء الّتي ثبّتت العهد القديم، وإلى موت العبد التّكفيريّ، هي إشارةٌ تؤكّد بوضوح طابع الذّبيحة في موت يسوع؛ إنّ هذا الموت يُفيد الجموع بغفران الخطايا، ويُكرّس العهد النّهائيّ وميلاد شعبٍ جديد، ويكفل الفداء. فالموت يُصبح إذ ذاك ينبوعًا للحياة"[١٧]. فكما خُتِمَ العهد الأصليّ بدم الذّبيحة، بالدّم الّذي رشّه موسى على الشّعب العبريّ الّذي كان من المقرّر أن يؤلّف جماعة العهد، هكذا فإنّ عهدًا جديدًا هو أيضًا على وشك أن يُفتَتح بذبيحة، والدّم سيكون العلامة المشتركة الأبرز بين النّاس لهذا العهد الجديد.

لقد اعتمد آباء الكنيسة في شرحهم للفصح على مقاربتَين هامّتَين هما: **المقاربة الأولى**: تُشير إلى أنّ الفصح هو "**العبور في**" بحيث تنصبّ هذه المقاربة في الشّرح على عبور بني إسرائيل **في** البحر الأحمر (راجع خروج ١٤: ١٥-٣١)؛ **المقاربة الثّانية**: تُشير إلى أنّ الفصح هو "**العبور على**" بحيث ينصبّ الشّرح حينئذٍ على عبور الملاك المُهلِك **على البيوت** الّتي أخذت علامة دم الحمل دون أن يُصيب الابن البكر فيها (راجع خروج ١٢: ١٢-١٣). ولذلك سُمِّيَ الحمل بحمل "الفصح" أي الّذي بواسطة دمه يَعبُر الملاك المُهلِك.

فبالرّغم من كون المقاربة الأولى بالغة الأهميّة، إذ تُشير إليها الكنيسة البيزنطيّة في قانون الفصح مُعلنةً: "اليوم يوم القيامة، فلنتفاخر أيّها الشّعوب، فالفصح فصح الرّبّ، لأنّ المسيح إلهنا قد أجازنا من الموت إلى الحياة، ومن الأرض إلى السّماء، نحن المرنّمين نشيد الانتصار" (التّسبحة الأولى، ضابط النّغم)، إلاّ أنّ المقاربة الثّانية تأخذ حيّزًا أوسع وأعمق، ذلك أنّها مَثَلٌ بارعٌ لتصوير مفهوم الفداء عمليًّا: "فالحكم بالهلاك قد صدر تلقائيًّا ودائمًا ضدّ العالم بسبب الخطيئة الّتي سادت فيه وعليه، ولكنّ الله قام بعمليّة فداءٍ عُظمى تُغطّي كلّ الأجيال في كل الدّهور وتشمل الّذين يقبلون **دم المسيح كعلامة خلاص**، وهذا الدّم إذ يلزم أن يكون موجودًا باستمرارٍ وفي كلّ مكانٍ وزمان، قدّمه الله من عنده بروح أزليٍّ ثمّ استودعه في سرّ الكنيسة، أي سرّ الإفخارستيّا، مجّانًا؛ ولو أنّ سرّ المعموديّة لا يخلو أيضًا من تعبير عن الفداء والعبور أي الفصح، فعندما يُدفَن

---

١٧) ***معجم اللاّهوت الكتابيّ***، ص. ٣٥٦.

الشّخص في الماء كمَن مات، ثمّ عندما يقوم من الماء يُدهَن بزيت الميرون بعلامة الصّليب (دم المسيح) فيكون قد نجا بالصّليب، وقبلَ الفداء بدم المسيح كعلامةٍ حتّى لا يموت مع العالم"[18].

نعود للحديث عن العهد فنقول إنّ إعادة طرح موضوع العهد يأتي في سياق فشل العهد المستمرّ بين الله وشعب إسرائيل، وذلك بسبب عدم أمانة الشّعب للعهد الإلهيّ. نورد على سبيل المثال ما جاء في سِفر النّبيّ إرميا: "فإنّ شعبي قد صنع شرَّين: تركوني أنا ينبوع المياه الحيّة، وحفروا لأنفسهم آبارًا، آباراً مشقَّقةً لا تُمسك المياه" (٢: ١٣). إنّه لمن المرجّح أن تكون الخلفيّة إصرارًا نبويًّا يُشير إلى فشل الشّعب في الالتزام بالعهد، الّذي بدوره قادهم إلى المنفى. إنّ هذه الخبرة المدمِّرة للمنفى ستجعل الله، بحسب التّوقُّع النّبويّ، يتدخّل فيُبادر إلى تأسيس علاقة عهدٍ جديدٍ مع شعبه، يتميّز بكونه عهدًا أبديًّا[19] (راجع أشعيا ٥٥: ٣؛ ٥٩: ٢٠-٢١؛ ٦١: ٧-٨؛ إرميا ٣١: ٣١-٣٤؛ ٣٢: ٣٧-٤١؛ حزقيال ١٦: ٦٠-٦٣؛ ٣٧: ٢٤-٢٨؛ باروك ٢: ٢٧-٣٥). فالعبارة الواردة في سفر زكريّا النبيّ، بحسب التّرجمة السّبعينيّة[20]، "ἐν αἵματι διαθήκης" (إين إيماتي ذياثيكيس)، والّتي تعني "بدم العهد" (٩: ١١)، تتكلّم عن افتداء أسرى إسرائيل في عودته بعد المنفى، وهي، في الوقت عينه، رؤيةٌ نبويّةٌ تُشير بقوّةٍ إلى دم يسوع المهراق من أجل الكثيرين على عود

---

١٨) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٦٨.

١٩) John Nolland, ***The Gospel of Matthew***, NIGTC, p.1080.

٢٠) تُشكّل **التّرجمة السّبعينيّة** لقاء العالم اليونانيّ الأوّل مع وحي العهد القديم. فلقد كتب ديمتريوس الفاليريّ، مدير مكتبة الاسكندريّة، رسالةً إلى ملك مصر بطليموس الثّاني فيلاذلفوس (٢٨٥-٢٤٧ ق.م) يطالبه فيها بوضع الشّريعة اليهوديّة في المكتبة الملكيّة، ولكن، بعد ترجمتها إلى اللّغة اليونانيّة. فقام الملك بإرسال مبعوثين إلى أورشليم للقاء أليعازر عظيم الأحبار آنذاك لمعرفة رأيه. فكان أن أرسل **اثنين وسبعين حاخامًا يهوديًّا إلى الاسكندريّة**، يمثّلون أسباط إسرائيل الاثني عشر، حيث قاموا بترجمة الشّريعة **في اثنين وسبعين يومًا**، وكان ديمتريوس يُدوِّن النّصّ بصيغته المتَّفق عليها. وهذا هو سبب تسميّتها بالسّبعينيّة. فلقد جعلت هذه الترجمة اليهودَ الّذين يعيشون الشّتات اليونانيّ، قادرين على قراءة الكتب المقدّسة في لغتهم المألوفة، وفتحت الفرصة أمام غير اليهود لدراسة العهد القديم (راجع أع ٨: ٢٦-٤٠). ضِف إلى ذلك، أنّها أصحبت الكتاب المقدّس للمسيحيّين في القرون الأولى.

الصّليب وهو دمُ العهد الجديد، الّذي كان حقًّا سبب تحرير الجنس البشريّ برمته من أسر الشّيطان وعبوديّة الخطيئة، وعبوره من عبوديّة الموت إلى حريّة الحياة. هذا ما يؤكّد القدّيس باسيليوس الكبير في صلاة الشّكر الخاصّة بليتورجيّته قائلاً:

"بذل ذاته فديةً للموت الّذي كنّا في حوزته أرقّاء للخطيئة. ولمّا انحدر بالصّليب إلى الجحيم. ليُتمّ في ذاته كلّ شيء. أبطل أوجاع الموت. وقام في اليوم الثّالث. ونهج لكلّ جسدٍ القيامة من بين الأموات. إذ لم يكن ممكنًا أن يستولي البلى على مُبدئ الحياة. فصار باكورةً للرّاقدين. وبكرًا بين الأموات. ليكون هو الأوّل في كلّ شيء".

في حين أنّ فكرة العهد المختوم بدمٍ بشريٍّ تُعبّر عن الجِدّة في النّصوص اليهوديّة، وقد وردت بدايةً في نصّ سفر أشعيا النبيّ في ٥٢: ١٣-٥٣: ١٢ وتطوّرت في سفر المكابيّين الرّابع ٦: ٢٨-٢٩. فأشعيا من خلال هذه الآية النّبويّة: "والرّبُّ رَضِيَ أن يسحقه بالعاهات، فإنّه إذ جعل نفسه ذبيحة إثمٍ، يرى ذُريّةً وتطول أيّامه ومرضاةُ الرّبّ تَنجَحُ على يده" (٥٣: ١٠)، يرى موت العبد المتألّم عن طريق عَرْض حياته كتخلٍّ وكذبيحة إثمٍ[٢١]. في سفر المكابيّين الرّابع، يقول: "أجعل دمي تطهيرًا لهم وتنقيّةً" (٦: ٢٩). نصٌّ كتابيٌّ ثالث قد يكون ذا صلةٍ بما تقدّم طرحه في النّصّين الأوّلَين (أشعيا والمكابيّين) مُقتَبَسٌ من سفر الخروج، وجاء على لسان كليم الله، موسى: "... قد خَطِئتم خطيئةً عظيمة، والآن أصعد إلى الرّبّ، **لَعَلّي أكفّر عن خطيئتكم**" (٣٢: ٣٠).

ما يُثير دهشتنا في هذه النّصوص الكتابيّة الثّلاث هو أنّ نظام الهيكل الذّبائحيّ (أو القربانيّ) جرى استبداله بالذّبيحة البشريّة، وذلك لأنّ الفعل العبريّ "כִּפֵּר" الّذي يُستخدم بانتظامٍ في العهد القديم يعني: "التّكفير عن طريق الذّبيحة"[٢٢]. فكما خلّص الله أوّلاً شعبه من عبوديّة مصر، وصنع معه العهد في سيناء، هكذا الآن، هناك بدايةٌ جديدةٌ لشعب الله، لا تجد مركزيّتها في

(٢١) Roland Meynet, ***La Pasqua del Signore***, p.43.

(٢٢) John Nolland, ***The Gospel of Matthew***, NIGTC, p.1081.

طقوس الذّبائح الحيوانيّة، بل إنّما من خلال الموت الكفّاريّ الوشيك ليسوع[٢٣]، ذلك أنّه كرّس نفسه من أجل هذه التّقدمة الذّبائحيّة الوشيكة الّتي هي حياته (راجع عدد ٦: ١-٢١).

وهكذا، ومن خلال ما أشرنا إليه سابقًا حول مفهوم العهد في كتابات العهد القديم، يأتي يسوع ليتحدّث في هذَين النّصَّين الإنجيليَّين عن عهدٍ جديد. فهو لم يحقّق فقط العهد الّذي يتحدّث عنه الأنبياء في العهد القديم، إنّه هو "العهد الجديد بالذّات". وهذا العهد يتقدّم ويتحقّق بالدّم الّذي يقرّبه. فهو إلهٌ وإنسانٌ بالوقت نفسه ويلعب دور الوساطة بين البشريّة والله. فالعهد إذًا يتحقّق فيه بكلّ جوانبه، على ما جاء في نشيد العبد المتألّم الأشعيويّ: "جعلتُك عهدًا للشّعب ونورًا للأمم، لكي تفتح العيون العَمياء، وتُخرج الأسير من السّجن، والجالسين في الظّلمة من بيت الحَبس" (٤٢: ٦-٧؛ راجع أيضًا ٤٩: ٨). لقد تخطّى كلّ ما قيل قديمًا عن أنّ الله يريد أن يحقّق عهدًا مع شعبه. فكلّ العهود القديمة في سيناء ومع الأنبياء الّتي أراد الله من خلالها خلق رباطٍ مع الشّعب، جاء يسوع هو بنفسه وحقّق هذا الرّباط. فهو إلهٌ ويحمل للبشريّة محبّة الله، وهو إنسان ويحمل لله معاناة البشريّة، وهكذا قرّر أن يحقّق الرّباط والعهد بينهما.

فالعهود القديمة كانت صورةً لحقيقة هذا العهد الجديد الّذي تحقّق بدم المسيح الأبديّ، على حدّ ما جاء في رسالة بولس الرّسول إلى العبرانيّين: "... لأنّه، إنْ كان دم ثيرانٍ وتيوس ورماد عِجلةٍ يُرشّ على المنجّسين فيقدّسهم لتطهير الجسد، فَلَكَم بالأحرى دم المسيح، الّذي بروح أزليٍّ قرّب لله نفسه بلا عيب، يُطهّر ضميرنا من الأعمال المَيْتة لنعبد الله الحيّ" (٩: ١٣-١٤)؛ "فمِن ثمّ، حتّى العهد الأوّل لم يُكرّس بلا دم. وفي الواقع، إنّ موسى لمّا تلا، على مسامع جميع الشّعب، كلَّ وصيّةٍ بحسب النّاموس، أخذ دم العجول والتّيوس مع ماءٍ وصُوفٍ قِرمزيٍّ وزُوفى، ثمّ رشّ على السِّفر عينه، وعلى جميع الشّعب، قائلاً: "هذا دم العهد الّذي أمركم به الرّبّ"... فإنّ النّاموس يقضي بأن يُطهّر كلّ شيءٍ تقريبًا بالدّم، ولا مغفرة بدون سفك دم" (٩: ١٨-٢٢).

---

٢٣) R.T.France, ***The Gospel of Mark***, NIGTC, p.570.

أمّا ميزة هذا العهد فهي **الشموليّة**. فلقد أقام الله عهده القديم (النّاموس، الهيكل، الكهنوت، الذّبائح، الفرائض والطّقوس) مع بني إسرائيل فقط. أمّا العهد الجديد، فقد أقامه المسيح من خلال دمه "المُهراق **عن كثيرين**"، أي مع كلّ الّذين سيؤمنون به، بغضّ النّظر عن أجناسهم وقوميّاتهم وخلفيّاتهم... يُسطّر بولس الرّسول هذه الفكرة بقوله: "ولقد قال ذلك في هوشع: سأدعو شعبًا لي مَن ليس بشعبي، ومحبوبةً تلك الّتي ليست بمحبوبة؛ وفي الموضع الّذي قيل لهم فيه: لستم بشعبي، هناك يُدعَون أبناء الله الحيّ" (رومة ٩: ٢٥؛ راجع هوشع ٢: ٢٥). ويُؤكّد القدّيس يوحنّا الإنجيليّ هذه الحقيقة النّبويّة والكتابيّة، فيقول: "وكانوا يُرتّلون نشيدًا جديدًا فيقولون: أنتَ أهلٌ لأن تأخذ الكتاب وتَفُضّ أختامه، لأنّك ذُبحتَ وافتدَيتَ بدمك أناسًا من كلّ قبيلةٍ ولسانٍ وشعبٍ وأمّة، وجعلتَ منهم لإلهنا مملكةً وكهنةً سيملكون على الأرض" (رؤيا ٥: ٩-١٠).

وعليه نقول إنّ المسيح كرّس عهده الجديد من خلال دمه المسفوك على خشبة الصّليب، والمهراق للتّكفير عن خطايانا؛ ونقول أيضًا إنّ ذبيحة المسيح على الصّليب هي الذّبيحة النّهائيّة الكاملة للتّكفير عن خطيئة الإنسان وخلاصه، إذ إنّ الذّبائح جميعها لم تكن إلاّ رموزًا لذبيحة المسيح الّذي، كما قال القدّيس يوحنّا الإنجيليّ "غَسَلَنا بدمه من خطايانا" (رؤيا ١: ٥). فيسوع، على حدّ تعبير بولس الرّسول، هو "وسيط العهد الجديد" وأنّ دمه هو "دمٌ مطهّرٌ أبلغ منطقًا من دم هابيل" (عبرانيّين ١٢: ٢٤).

٤) غفران الخطايا

يرتبط غفران الخطايا، في مفهوم كتابات العهد القديم، بالكَفّارة والذّبائح، إذ إنّ الله قد جعل الدّم وسيلةً للتّكفير عن الخطايا: "لأنّ نفس الجسد هي في الدّم، وأنا [الله] جعلتُه لكم على المذبح **ليُكفّر** به عن نفوسكم، لأنّ الدّم يُكفّر عن النّفس" (أحبار ١٧: ١١). وقد استمرّ هذا الارتباط حتّى وجد اكتماله في ذبيحة المسيح الدّمويّة على خشبة الصّليب، كما بيّن ذلك بولس الرّسول بقوله: "الّذي لنا فيه الفداء **بدمه مغفرةُ الزّلاّت** على حسب غنى نعمته" (أفسس ١: ٧).

إنّ تعبير "لغفران الخطايا" (متّى ٢٦: ٢٨) هو تعبيرٌ خاصٌ وبامتياز بالإنجيل الأوّل. من ناحيةٍ أخرى، يبدو أنّ متّى هو الوحيد بين الإزائيّين الّذي لم يذكر أنّ معموديّة يوحنّا كانت "لغفران الخطايا":

- **متّى ٣: ٢**: "توبوا، قدِ اقترب ملكوتُ السّموات".
- **مرقس ١: ٤**: "تمّ ذلك يوم ظَهَرَ يوحنّا المعمدان في البرّيّة، يُنادي بمعموديّة توبةٍ لغفران الخطايا".
- **لوقا ٣: ٣**: "فجاء إلى ناحية الأردن كلّها، يُنادي بمعموديّة توبةٍ لغفران الخطايا".

وهكذا، فإنّنا نُدرك من خلال هذه القراءة الإنجيليّة للإزائيّين أنّ متّى قد اعتبر أنّ غفران الخطايا محفوظةٌ ليسوع فقط.

إنّ في هذا التّعبير المتّاويّ إشارةً واضحةً إلى نشيد العبد المتألّم الرّابع في سفر أشعيا النّبيّ (٥٢: ١٣-٥٣: ١٢) وبخاصّةٍ ما ورد في الآية الأخيرة منه: "وهو حَمَلَ خطايا الكثيرين، وشَفَعَ في معاصيهم" (٥٣: ١٢)[٢٤]. إنّ بداية تجديد العهد المُتوقَّعة من قِبَل الأنبياء مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالمغفرة[٢٥]. فعلى سبيل المثال، حين يتكلّم النّبيّ حزقيال عن "تاريخ أورشليم الرّمزيّ" يقول: "حين أغفر لكِ جميع ما فعلتِ، يقول السّيّد الرّبّ" (١٦: ٦٣؛ راجع أيضًا إرميا ٣١: ٣٤).

إنّ القدّيس متّى يستعمل كثيرًا الفعل "ἀφίημι" (آفيمي) الّذي يعني "غفر" (متّى ٦: ١٢، ١٤-١٥؛ ٩: ٢، ٥-٦؛ ١٢: ٣١-٣٢؛ ١٨: ٢١، ٢٧، ٣٥). إنّه يرغب، تاليًا، في أن يُحدّد أنّ دور يسوع يكمن في منحه غفران الخطايا (راجع متّى ١: ٢١؛ ٩: ٢، ٥-٦؛ ٢٦: ٢٨)، ومحذّرًا من احتمال إبعاد الإنسان نفسه عن هذا "المشروع الغفرانيّ المسيحانيّ" المرتبط بالمغفرة للإنسان الآخر، الّتي اعتبرها يسوع الطّريق الرّئيس نحو نيل الإنسان المغفرة من الآب السّماويّ (راجع متّى ٦: ١٢، ١٤-١٥؛ ١٨: ٢١، ٢٧، ٣٥)، ومُشدّدًا على الصِلة القائمة بين المغفرة للآخرين والمغفرة من الله (متّى ١٢: ٣١-٣٢).

---

٢٤) Roland Meynet, ***La Pasqua del Signore***, p.43.

٢٥) John Nolland, ***The Gospel of Matthew***, NIGTC, p.1082.

وهذا ما يذكره متّى عندما يتحدّث عن الكأس. فهو يُهراق لأجل الكثيرين بمعنى الكلّ، ولأجل محو الخطايا. فالذّبيحة هنا هي ذبيحة تكفير، أي ذبيحة مقدَّمة لنيل غفران الخطايا. وهذا النّوع من الذّبائح تحدَّثنا عنه في العهد القديم. ولكنّ الذّبيح هنا ليس فقط حياةً إنسانيّة إنّما هي إلهيَّة أيضًا. من هنا عظمة هذه التّقدمة الّتي تكفّر عن أكبر خطايا العالم. ولكنّ الهدف من هذه الذّبيحة لم يكن فقط تخليص البشريّة من الخطيئة بل إنّ يسوع يريد أن يذهب أبعد، وهو أن يُعطي هذه البشريّة الحياة الأبديّة: "... وأمَّا أنا فإنّما أتيتُ لتكونَ للخراف الحياة، وتكون لها وافرة. أنا الرّاعي الصّالح؛ الرّاعي الصّالح يَبذِل نفسه عن الخِراف"، هذا ما يقوله يسوع في يوحنّا (١٠: ١٠-١١). وهذا البذل وعطاء الحياة الأبديّة حقَّقه يسوع على الصّليب. هناك، انتصر على كلّ قوى الشّرّ. والقربان يُعيد مجدَّدًا انتصار يسوع المخلّص النّهائيّ على كلّ قوى الشّرّ ويُعطي بفيض كبير حياةَ الحبِّ الّتي يرافقها محو الخطايا.

٥) يسوع يُعلن موته وقيامته

إنّ الخبز والخمر اللّذين قدّمهما يسوع للإثنَي عشر ليأكلوا ويشربوا هما، في الحقيقة، جسده الخاصّ ودمه الخاصّ (٢٦، ٢٨). إنّها طريقة مميّزة لإعلان آلامه وموته أيضًا. فعندما أمر يسوع تلاميذه ليأكلوا جسده ويشربوا دمه، دعاهم ليتقبّلوا، يستوعبوا، ويصنعوا ذبيحته (تضحيّته) الخاصّة[٢٦]. وفي الوقت عينه، أعلن يسوع أنّ دمه سوف يُراق (٢٨). لكنّه لم يَقُلْ أنّه لن يشرب أبدًا من عصير الكرمة (٢٩). لن يملك الموت الكلمة النّهائيّة. بل سيأتي، في الحقيقة، يومٌ يستعيد فيه مع تلاميذه شرب النّبيذ الجديد (٢٩)، لا نبيذ الحزن والألم، بل نبيذ الفرح والعيد "في ملكوت أبيه" (٢٩)[٢٧]. يُشير "كأس الموت" إلى المَظهر الحاضر لمجيء ملكوت الله، المُختبئ في الرّفض والألم، بينما يدلّ "كأس المجد المستقبليّ الآتي" على الخلاص الّذي سوف يتحقّق بالدّخول إلى ملكوت الله.

---

٢٦) Roland Meynet, ***La Pasqua del Signore***, p.44.

٢٧) **Ibid**, p.44.

بينما تُشير العبارتان المتّاويّة "في ملكوت أبي" والمرقسيّة "في ملكوت الله" إلى لقاء يسوع النّهائيّ مع تلاميذه، في ما يُسمّى "بالوليمة المسيحانيّة": "أقولُ لكم: سوف يأتي أُناسٌ كثيرون من المَشرق والمغرب، فيُجالسون إبراهيم واسحق ويعقوب على المائدة في ملكوت السّموات" (متّى ٨: ١١)؛ و"سمع ذلك الكلامَ أحدُ الجُلَساء على الطّعام فقال له: طوبى لِمَن يتناول الطّعام في ملكوت الله" (لوقا ١٤: ١٥)؛ وأيضًا: "وأنا أُوصي لكم بالملكوت كما أوصى لي أبي به، فتأكلون وتشربون على مائدتي في ملكوتي..." (لوقا ٢٢: ٢٩-٣٠)؛ وأخيرًا: "طوبى للمدعوّين إلى وليمة عرس الحمل" (رؤيا ١٩: ٩). وقد تُشير أيضًا إلى الزّمن الممتدّ ما بين قيامة يسوع وصعوده إلى السّماء (راجع لوقا ٢٤: ٣٠-٣٥؛ أعمال ١: ٤؛ ١٠: ٤١)[٢٨].

أمّا في ما يتعلّق بعبارة "أشربه [عصير الكرمة] معكم جديدًا" فإنّها تُشير إلى "**الوليمة المسيحانيّة**" عندما يجعل الله كلّ شيءٍ جديدًا (أنظر أشعيا ٢٥: ٦-٩؛ متّى ٨: ١١-١٢؛ رؤيا ١٩: ٩). في حين أنّ رؤيةً كلاسيكيّةً واحدةً لوعود الوليمة المستقبليّة تُشير إلى أنّ هذا النّبيذ سيكون معتّقًا وناضجًا[٢٩] (أشعيا ٢٥: ٦). إنّ المراجع الكتابيّة الكثيرة الّتي تتكلّم عن "النّبيذ الجديد" في العهد القديم تُفهَم على أنّها علامة الازدهار والحياة الحسنة (راجع تكوين ٢٧: ٢٨؛ تثنية ٣٣: ٢٨؛ يوئيل ٤: ١٨؛ زكريّا ٩: ١٧). من هنا نخلص إلى القول إنّ يسوع في هذه الآية يُعلن، بطريقةٍ لا التباس فيها، القيامة، حين يلتئم شَمله مع الآب، عندما سيكون معه. لقد انفرد الإنجيليّ متّى وأضاف أنّ يسوع سيشرب النّبيذ الجديد مع تلاميذه (٢٩). فكما أنّ الإثنَي عشر مدعوّون من قِبَل يسوع للانضمام إلى آلامه، كذلك يَعِدُهم أنّهم سيجتمعون به مُجَدَّدًا عند انتصاره على الموت بقيامته ظافرًا.

---

٢٨) C.E.Cranfield, ***The Gospel according to St.Mark***, p.428.

٢٩) **Ibid**, p.572.

الباب الثّاني

الإنجيليّ لوقا

٢٢: ١٤-٢٠

"فلمّا أتتِ السّاعة جلس هو والرّسل للطّعام. فقال لهم: إشتهَيتُ شهوةً شديدةً أن آكُل هذا الفصح معكم قبل أن أتألّم. فإنّي أقول لكم: لا آكُلُه بعد اليوم حتّى يتمّ في ملكوت اللّه. ثمّ تناول كأسًا وشكر وقال: خذوا هذا واقتسموه بينكم، فإنّي أقول لكم: لن أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة حتّى يأتيَ ملكوت اللّه. ثمّ أخذ خبزًا وشكر وكسره وناولهم إيّاه وقال: "هذا هو جسدي يُبذَل من أجلكم. إصنعوا هذا لذكري". وصنع مثل ذلك على الكأس بعد العشاء فقال: "هذه الكأسُ هي العهدُ الجديد بدمي الّذي يُراق من أجلكم".

١) العشاء السّرّيّ

تبدأ رواية لوقا حول العشاء السّرّيّ بوصف مجيء يسوع مع تلاميذه إلى الطّاولة المُعدّة للعشاء: "فلمّا أتَتِ السّاعة جلس هو والرّسل للطّعام" (لوقا ٢٢: ١٤). يُعرب بعدها يسوع عن رغبته في تناول الفصح مع تلاميذه قبل انطلاقه إلى مسيرة الآلام الخلاصيّة، بحيث سيُشكّل هذا العشاء المناسبة الأخيرة لتأسيس سرّ الإفخارستيّا، العشاء السّرّيّ الّذي سيكتمل في ملكوت الله. بنفس الطّريقة، شارك يسوع كأسًا من النّبيذ مع تلاميذه مع التّعليق بأنّه لن يشرب النّبيذ حتّى يأتيَ ملكوت الله. إنّ معنى كلمات يسوع هذه بالنّسبة إلى الإنجيليّ لوقا تُشير إلى أنّ هناك عشاءين يُكمّل أحدهما الآخر: العشاء الأوّل وهو عشاء الرّبّ السّرّيّ مع تلاميذه في عليّة صهيون، وفيه أسّس الرّبّ سرّ الإفخارستيّا المقدّس؛ بينما يأخذ العشاء الثّاني طابعًا إسكاتولوجيًّا (أُخرويًّا)، إذ إنّ مكان الاحتفال به سيكون في ملكوت الله، على مائدة الرّبّ القائم والممجّد.

يُشير نصّ لوقا هذا إلى كأسَين في الآية ١٧ والآية ٢٠، فهل يُشير الكأسان اللّذان ذكرهما القدّيس لوقا إلى طقس واحدٍ أم طقسَين؟ للإجابة عن هذا السّؤال، لا بدّ من تقسيم هذا النّصّ اللّوقانيّ. يُقسَم هذا النّصّ إلى قسمَين أساسيَّين هما:

- ٢٢: ١٤-١٨: يصف هذا القسم العشاء الّذي قام به يسوع مع رسله، مشاعر يسوع والفصح الأخير اليهوديّ. يُسمّى هذا القسم "العشاء الفصحيّ".
- ٢٢: ١٩-٢٠: يصف هذا القسم أيضًا العشاء الّذي قام به يسوع مع رسله، ولكن بمنحًى جديدٍ هو "تأسيس الإفخارستيّا". ويُطلَق على هذا القسم اسم "العشاء السّرّيّ".

من هنا يتّضح أنّ لوقا يتكلّم عن كأسَين منفصلَين، وطقسَين مختلفَين يكمّل أحدهما الآخر ويُنجزه: طقس الفصح اليهوديّ القديم، والطّقس الجديد هو طقس الإفخارستيّا، العشاء السّرّيّ[٣٠]. إنّ نصّ لوقا هو نتيجة بناءٍ تدوينيٍّ جمع فيه الإنجيل الثّالث تقليد مرقس وتقليد بولس (١ كورنثس) ليصل إلى توازٍ رائع

---

٣٠) Roland Meynet, ***La Pasqua del Signore***, p.126.

يقابل فيه الفصح اليهوديّ بالفصح المسيحيّ، ويُحلّ محلّ الحمل والكأس في الطّقس القديم (لوقا ٢٢: ١٥- ١٨) الخبز والخمر في الطّقس الجديد. نحن هنا في جوّ العهد الجديد. وذبيحة يسوع (دمه) تدشّن زمن الخلاص. وهكذا، فإنّ "العهد الجديد" الّذي تكلّم عنه لوقا في نصّه هذا يُشير إلى نصّين نبويّين برز فيهما طابع "اللّغة الجديدة للعهد":

- **النّصّ الأوّل: إرميا ٣١: ٣١-٣٤**

"ها إنّها تأتي أيّام، يقول الرّبّ، أقطع فيها مع بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدًا جديدًا، لا كالعهد الّذي قطعتُه مع آبائهم، يوم أخذتُ بأيديهم لأخرجهم من أرض مصر لأنّهم نقضوا عهدي مع أنّي كنتُ سيّدَهم، يقول الرّبّ. ولكنّ هذا العهد الّذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيّام، يقول الرّبّ، هو أنّي أجعل شريعتي في ضمائرهم وأكتبُها على قلوبهم، وأكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا. ولا يُعلّم بعدُ كلّ واحدٍ قريبَه وكلّ واحدٍ أخاه قائلاً: إعرفِ الرّبّ، لأنّ جميعهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الرّبّ، لأنّي سأغفر إثمهم ولن أذكر خطيئتهم من بعد".

- **النّصّ الثّاني: حزقيال ٣٦: ٢٦-٢٨**

"وأعطيكم قلبًا جديدًا وأجعل في أحشائكم روحًا جديدًا وأنزع من لحمكم قلب الحجر، وأعطيكم قلبًا من لحم، وأجعل روحي في أحشائكم وأجعلكم تسيرون على فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها. وتسكنون في الأرض الّتي أعطيتُها لآبائكم، وتكونون لي شعبًا وأكون لكم إلهًا".

"هذا الفصح" (لوقا ٢٢: ١٥) هو الفصح الأخير ليسوع، والّذي سيُشكّل الوجبة الأخيرة له قبل موته. لن يأكل بعد الفصح (١٦)، ولن يشرب أكثر من ذلك من عصير الكرمة (١٨)؛ بالنّسبة له، لقد انتهى الأمر. إنّ عهد الفصح مع يسوع لا يعني أنّه احتفل به فقط، أحياه، وعاشه كليتورجيّة الوجبة الفصحيّة اليهوديّة، بل أضفى على عهد الفصح اليهوديّ هذا معنًى جديدًا خلاصيًّا، ذلك أنّ يسوع غيّره ليكون "عهدًا جديدًا بدمه المُهراق" (٢٠). لوقا هو الوحيد من بين الإزائيّين الّذي حدّد هكذا العهد الّذي اختتمه يسوع مع تلاميذه. إنّ تعبير

"من الآن" (١٨) يتضمّن تغييرًا أساسيًّا، تحوّلاً جذريًّا، نوعًا من نقطة اللّاعودة: إنّه زمنٌ جديدٌ تكمن مَهمّته في التّوجيه نحو العهد المصمّم ليكون نهائيًّا، بحيث يُصبح العهد الأوّل هكذا عهدًا قديمًا[٣١]. **يسوع هو الحمل الفصحيّ الجديد**، حيث إنّ الفصح الجديد سيُحتفَل به في ذكراه (١٩)، فيتحوّل تحرير الله لشعب إسرائيل من مصر تجسيدًا للخلاص الّذي يمنحه بيسوع المسيح.

إنّ العهد الجديد لا يُلغي أبدًا الفصح القديم بل يُكمّله: "هذا الفصح" (١٥) هو "العهد الجديد". فيسوع لم يحتفل بطقسَين مختلفَين ومتتابعَين. مَن يستطيع التّمييز بين الإثنين؟ كلّ شيءٍ حدث في ليلةٍ واحدةٍ هي ليلة الخميس المقدّس، في بلدٍ واحدة، في بيتٍ واحد، وفي عشاءٍ واحد. عندما أتمّ يسوع الفصح، افتتح بدوره الفصح الجديد، وجعل من العشاء الفصحيّ القديم عشاءً جديدًا، أطلقت عليه الكنيسة المقدّسة اسم "العشاء السّرّيّ"، وفيه أسّس يسوع السّرّ العظيم، سرّ الإفخارستيّا المقدّس. فالمسيح أسّس سرّ الإفخارستيّا من داخل وليمة الفصح الأخير نفسها، هذه الوليمة الّتي كان اليهود يعتبرونها وليمةً خلاصيّةً لفداءٍ تمّ وفداءٍ منتظَر، ووليمة عهدٍ تأسّس بدم خروف الفصح في مصر انتظارًا لعهدٍ جديدٍ بالمسيّا (المسيح). هنا، أكمل المسيح هذا الفداء المُنتظَر الّذي ظلّ ينتظره اليهود كلّ سنةٍ في كلّ فصح، على مدى الأجيال السّالفة؛ هنا أعلن لهم العهد الجديد حيث **المسيح نفسه هو حَمَل الفصح الجديد، ودمه هو دم العهد الجديد، وجسده هو طعام الفصح الأبديّ.**

لقد انتهى الفصح الّذي بالمثال، الّذي كان ينبغي أن يتكرّر كلّ سنة، وجاء الفصح الحقيقيّ ليقدَّم مرّةً واحدةً عن كلّ العالم، فتظلّ تأكل منه كلّ الأمم، في كلّ الأجيال، وعلى مدى الدّهور كلّها إلى أن يأتي. لقد ذُبح المسيح فعلاً كحَمَلٍ وديع على الصّليب (راجع أشعيا ٥٣: ٧؛ إرميا ١١: ١٩)، أمّا هو فقد استودع مُسْبَقًا سرّ ذَبْحِه، وسرّ جسده ودمه في **وليمةٍ فصحيّة، فصار جسده حياةً وقيامة، ودمه عهدًا جديدًا وغفرانًا لخطايا العالم كلّه**: إنّه الفصح الحقيقيّ الجديد. من هنا صارت **الإفخارستيّا ذبيحةً فصحيّة، ذبيحة عبورٍ فوق الموت والظّلمة والجحيم والعالم والخطيئة والزّمن.**

(٣١ **Ibid**, p.131.

جانبٌ آخر يُميِّز بشكلٍ خاصّ نصّ لوقا هو الإعلانان الهامّان قبل العشاء وبعده. يقول نصّ لوقا "فلمّا أتت السّاعة جلس هو والرّسل للطّعام. فقال لهم: إشتهيت شهوةً شديدةً أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألّم. فإنّي أقول لكم: لا آكله بعد اليوم حتّى يتمّ في ملكوت الله. ثمّ تناول كأسًا وشكر وقال: خذوا هذا واقتسموه بينكم، فإنّي أقول لكم: لن أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة حتّى يأتي ملكوت الله" (لوقا ٢٢: ١٤-١٨). هذان الإعلانان يَربُطان حدث العشاء بالبعد الإسكاتولوجيّ النُّهيويّ. بمعنى أنّ تحقيق ملكوت الله هو عملٌ خاصٌّ بالأزمنة الأخيرة، والإفخارستيّا هو عشاءٌ وطعامٌ على الأرض. لكنّ الغذاء الّذي يعطيه هذا الطّعام هو غذاءٌ سماويٌّ يتغذّى به المؤمنون من أجل تحقيق الملكوت الّذي ينمو ويكبر على الأرض حتّى يصل إلى النّهاية في السّعادة السّماويّة. فالإفخارستيّا تزرع بذار الملكوت وتنمّيه إلى أن يتحقّق في آخر الأزمنة ويصبح بكامله. أمّا الشّهوة الشّديدة الّتي يرغب فيها يسوع، فتعني أن كلّ شخصه يعيش هذه الرّغبة وهو بكلّ استعدادٍ وشوقٍ للقيام بالعشاء أكثر من الرّسل الّذين ينتظرون الغذاء. فرغبة يسوع تولّد فينا نحن الرّغبة إلى القربان، لأنّه يُحِبّ العطاء حتّى نصبح نحن نعطي مثله. وهذا بُعد من أبعاد القربان في حياتنا. فلم يكن المسيح يشتهي أن يأكل لحم خرافٍ ولا كان يودّ أن يستمتع بذكريات مصر وسيناء مع تلاميذه، بل اشتهى أن يكشف لهم سرّ **الفصح الكبير**، فصح العالم كلّه، "مُشتهى الأمم"، الفصح السّماويّ الجديد حيث كان يُجرَى الاستعدادُ لذبح حمل الله في السّماء كما على الأرض. فالمسيح اشتهى شهوةً أن يُطعمهم لحمه السّماويّ بيدَيه قبل أن يذبحه اليهود بأيديهم. وهل توجد شهوةٌ عنده أو حبٌّ أعظم من هذا أن يذبح نفسه من أجل أحبّائه، ألم يقل هو نفسه هذا؟ (يوحنّا ١٥: ١٣).

والآن، لقد اشتهى أن يكسر بينهم الخبز السّرّيّ النّازل من السّماء، الّذي طالما حدّثهم عنه، حتّى عند أكل هذا الخبز تنفتح عيونهم ويعرفونه، قبل أن يتألّم! اشتهى شهوةً أن يُسفك دمه ويسقيهم منه قوّة الحياة الّتي للعهد الجديد، ليبقى حيًّا فيهم بقوّة قيامته، فيكون لهم حياةٌ أبديّةٌ في أنفسهم، حتّى يقوموا ويلحقوا به في السّماء ليُكمِل معهم الفصح الأبديّ في ملكوت الآب، ويجلسوا

معه على مائدته! هذه كانت شهوةَ المسيح الَّتي اشتهاها لنا. ومن هذا يتبيّن أنّ الفصح الَّذي أكله المسيح مع تلاميذه قبل الآلام له أيضًا امتدادٌ في وليمةٍ آتية، وليمة الماسيا في ملكوت الآب، الَّتي يدعو المسيح إليها منذ الآن أخصّاءه القدّيسين[٣٢].

بناءً على ما تقدّم نقول إنّ إفخارستيّة هذا الدّهر تقف كمرحلةٍ تهيّيء وتعدُّ المؤمنين ليكونوا من خاصّة المسيح، من لحمه ودمه، ليكونوا من مدعوّيه في وليمته السّماويّة في عشاء عرس الحمل (راجع رؤيا ١٩: ٩)؛ فالإفخارستيّا تقف بين وليمة الفصح في العهد القديم وبين وليمة المسيح في الدّهر الآتي في ملكوت الآب، فبالنّسبة لوليمة الفصح القديم هي استعلانٌ حقيقيٌّ له كسرّ النّجاة والخلاص والفداء؛ إنّها سرّ الفصح الجديد للعالم كلّه، سرّ الفداء والخلاص الَّذي أُكمِل، والَّذي يؤكل فيه جسد ودم المخلّص والفادي.

أمَّا بالنّسبة لوليمة المسيح في الدّهر الآتي في ملكوت الآب، فالإفخارستيّا هي استعلان ٌمُسْبَقٌ لها، وسَبْقُ تَذَوُّقٍ، ونوالُ عربونِ والحصول على شركةٍ مع العريس منذ الآن؛ إنّها الآن استعلان، من داخل الزّمان، لملكوت اللّه على الأرض، حيث الكنيسة في لحظة تقديم الإفخارستيّا تكون بمثابة استعلانٍ زمنيٍّ لأورشليم السّماويّة النّازلة من السّماء سرًّا (راجع رؤيا ٢١: ٢)، والمذبح يكون بمثابة عرش المسيح غير المنظور، وحوله كلّ جنوده وأخصّائه القدّيسين، حيث المسيح يأخذ بيديه الخبز والخمر ويُطعم أخصّاءه من جسده ودمه، كامتدادٍ دائمٍ وفعَّالٍ لِما فعله مع تلاميذه يوم خميس العهد (تأسيس الإفخارستيّا في العشاء السّرّيّ)؛ إنّها، إذًا، استعلانٌ دائمٌ لسرّ المسيح الحاضر والآتي.

---

٣٢) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٧٢.

٢) تلميذا عمّاوس (لوقا ٢٤: ١٣-٣٥)

١. مقدّمة حول الفصل ٢٤ من الإنجيل الثّالث

يحتوي كلُّ إنجيلٍ على تقاليدَ متنوّعةٍ في ما يتعلّق بالقيامة تُشكّل بدورها استمراريّة للاختبار الإيمانيّ والتّأمُّل الرّوحيّ للجماعات المسيحيّة على مدى فترةٍ من الزّمن. من بين الأناجيل الإزائيّة، يختم متّى ومرقس إنجيلهما بقصص تروي ظهور يسوع القائم، والّتي بدورها تُعبّر عن سيادته الشّموليّة حتّى مجيئه. بينما نجد أنّ للوقا وُجهة نظر مختلفة. بحسب الإنجيل الثّالث، تُشكّل القيامة نقطة التّحوُّل من قصّة يسوع الأرضيّ إلى قصّة الحركة الّتي ظهرت باسمه، والّتي دُعِيَت تارةً "بالطّريق الجديدة"، وتارةً أخرى "بالمسيحيّة".

٢. بُنية الفصل ٢٤

يتألّف الفصل الرّابع والعشرون من إنجيل لوقا من لوحةٍ ثلاثيّةٍ تتبع تراتبيّة ثلاثة أحداثٍ كبرى تؤسّس هذا الفصل، هي:

أ. القبر الفارغ (١-١٢)

- مقدّمة (١-٣)؛
- ظهور عند القبر (٤-٨)؛
- شهادة النّسوة للأحد عشر ولآخرين (٩-١١)؛
- زيارة بطرس للقبر (١٢)؛

ب. الظّهور على طريق عمّاوس (١٣-٣٥)

- بعيدًا عن أورشليم (١٣-١٦)؛
- الحوار (١٧-٢٧)؛
  - القسم الأوّل من الحوار (١٧-٢٤)؛
  - القسم الثّاني من الحوار (٢٥-٢٧)؛
- وجبة عمّاوس (٢٨-٣٢)؛
- العودة إلى أورشليم (٣٣-٣٥)؛

ت. الظّهور في أورشليم والصّعود إلى السّماء (٣٦-٥٣)

- يسوع يظهر للتّلاميذ في أورشليم (٣٦-٤٣)؛
- مَهمّة يسوع النّهائيّة (٤٤-٤٩)؛
- الصّعود (٥٠-٥٣)[٣٣].

ترتكز هذه البُنية على إبراز طابع الشّهادة لقيامة الرّبّ من بين الأموات من قِبَل النّسوة، وبطرس كرأس للرّسل، وتلميذَين منفردَين في حديثٍ حميمٍ مع الرّبّ، وأخيرًا، للرّسل أجمعين. وهذا يُظهر أنّ الإيمان بالقيامة يأتي كنتيجةٍ لأحداثٍ متشابكة تُبيّن تاريخيّة قيامة الرّبّ من الموت. لذا، فإنّ هذه الأحداث المتشابكة تُظهر:

- **وَحدة المكان**

إنّها مرتكزةٌ على أورشليم وبيئتها (٢٤: ١٣، ٣٣، ٤٩، ٥٠، ٥٢). إنّ أورشليم، كمدينةٍ رئيسيّةٍ في تحقيق التّدبير الإلهيّ، ستكون نقطة الانطلاق نحو نشر الرّسالة المسيحيّة وارتداد العالم. هذا ما جاء على لسان الرّبّ القائم نفسه: "ويُنادى باسمه بالتّوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداءً من أورشليم" (لوقا ٢٤: ٤٧).

- **وَحدة الزّمن**

وهي المشار إليها بحقيقة أنّ السَّفرة إلى عمّاوس حدثت في اليوم عينه الّذي جرت فيه زيارة القبر (٢٤: ١٣) ويتبع ذلك فورًا ظهور الرّبّ للتّلاميذ (٢٤: ٣٩).

- **وحدة الأشخاص**

إنّهما اثنان من الّذين كانت النّسوة قد أخبرتهم بقيامة الرّبّ (٢٤: ٩، ١٣). وهكذا يتّضح أنّ الجماعة هي في طَور التّكوين من شهود عيان إلى رُسُلٍ للكلمة.

---

٣٣) Hayden Williams, ***The disciples of Emmaus***, p.2.

- **وحدة المواضيع اللاهوتيّة**

بخلاف استراتيجيّة متّى الدّفاعيّة في وجه اليهود بسبب تشكيكهم بالقيامة (أنظر متّى ٢٧: ٢٦...)، يُقدّم لوقا تأكيدًا ثُلاثيًا، في وجه الشّكّ والضّرورة الإلهيّة للآلام والقيامة. يأتي التّأكيد الأوّل من قِبَل الملاكَين في رواية القبر الفارغ، اللّذين اتّبعا نبوءةً أدلى بها يسوع أثناء حياته الأرضيّة ("**إنّه ينبغي**"، ٢٤: ٧)؛ بينما يأتي التّأكيد الثّاني من قِبَل الرّبّ القائم، بصيغةٍ إيمانيّة، كفكرةٍ رئيسيّة للعهد القديم كلّه ("**أفما كان ينبغي**"، ٢٤: ٢٧، ٣٢)؛ أمّا التّأكيد الثّالث، فإنّه يجمع التّأكيدَين السّابقَين بحيث يُظهر الرّبّ القائم الآلام والقيامة لتكون الفكرة الرّئيسيّة لتعليمه السّابق وللعهد القديم ("**إنّه يجب أن يَتِمّ كلُّ ما كُتِبَ في شأني، في شريعة موسى وكُتُب الأنبياء والمزامير**"، ٢٤: ٤٤).

٣. عمّاوس والاحتفال اللّيتورجيّ – الإفخارستيّ الأوّل

لقد أحدث لقاء الرّبّ القائم من بين الأموات بتلميذَين من تلامذته تغييرًا محوريًّا بالغ الأهميّة في التّاريخ البشريّ يكمن في العبور من المسيح المصلوب إلى المسيح القائم؛ إنّه تغييرٌ طال أيضًا قلوب التّلاميذ، فحوّلها من قلوبٍ يائسةٍ وحزينةٍ إلى قلوبٍ مُلتهبةٍ بالرّوح الإلهيّ ومتّقدةٍ بالمحبّة الإلهيّة الخلاصيّة ومليئةٍ بالفرح المسيحانيّ: "أمَا كان قلبُنا مُضطرِمًا فينا حين كان يُحدّثُنا في الطّريق ويُفسّر لنا الكتب؟" (٢٤: ٣٢).

إنّ هذا الحدث الإنجيليّ اللّوقانيّ المميّز الّذي يصف لقاء الرّبّ يسوع القائم من بين الأموات باثنَين من التّلاميذ يُشير، بكلّ أبعاده ومضامينه، إلى أنّه حدثٌ إفخارستيٌّ بامتياز، لأنّ **المسيح القائم نفسَه هو الكاهن المحتفِل بهذه الإفخارستيّا**. فالتّعابير الّتي يستخدمها لوقا ٢٤: ٣٠ (إتّكاء يسوع على الطّاولة، أخذ الخبز، البركة، كسر الخبز والمناولة) تُحيي ذكرى العشاء السّرّيّ من جهة، وتُحقّق ما قاله يسوع سابقًا أنّه لن يشرب ويأكل معهم حتّى يتحقّق ملكوت الله (راجع لوقا ٢٢: ١٨). وبالتّالي، فلقد أظهر يسوع في عمّاوس أنّ ملكوت الله قد تحقّق فعلاً. ومن الآن وصاعدًا، فإنّ الرّبّ القائم لن يكون حاضرًا في جماعة الرّسل بشكلٍ منظور، بل في كسر الخبز. وهكذا، فإنّ جماعة

الرّسل بوجهٍ خاصّ، والجامعة المسيحيّة بوجهٍ عام، سيعرفونه ويُدركونه، لأنّه هكذا سيكون حاضرًا حقًّا في وسطهم وبينهم[٣٤].

ولقد أقرّ المجمع الفاتيكانيّ الثّاني أنّ الاحتفال الإفخارستيّ يُشكّل منبع الإيمان وقمّته. البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني لاحظ أنّ السّرّ الفصحيّ، حياة وموت وقيامة يسوع المسيح، الّذي نُحيي ذكراه في الإفخارستيّا، يُشكّل القلب النّابض لإيمان الكنيسة المقدّسة. وهذا ما يُنمّي في داخلنا التّوق والرّغبة في عيش الحياة الإفخارستيّة، الحياة الّتي تعكس نهجًا روحيًّا للإنسان المسيحيّ من خلال الحضور، والدّعوة، المناولة والرّسالة، وفي الوقت عينه، تعكس تغييرًا جذريًّا للقلب الّذي يُشكّل الموضعَ الحقيقيّ والاستراتيجيّ الّذي يلتقي فيه الإنسان مع الله، إذ إنّ العهد المُبرَم ما بين الله والإنسان هو عهدٌ قلبيٌّ (راجع إرميا ٣١: ٣٣؛ حزقيال ١٨: ٣١).

إنّ هذا الحدث يُسلّط الأضواء على أنّ الإفخارستيّا هي إعتراف. الإعتراف بأنّ الله يرغب في أن يدخل في صلةٍ حميميّةٍ معنا وقد بُنينا لندخلَ ليس في شركةٍ مع الله فحسب، بل في شركةٍ مع الآخرين أيضًا، ذلك أنّ كلّ مَن يأكل من الخبز الواحد، ويشرب من الكأس الواحدة، لا يمكن إلاّ أن يكون واحدًا مع الآخرين، فنؤلّف معًا جماعة المؤمنين. إنّ هذا الاعتراف من قِبَل الجماعة المسيحيّة يقودنا إلى الرّسالة، لأنّنا حين نأخذ جسد المسيح في جسدنا، فنحن نتبنّى أيضًا رسالته الخلاصيّة في حياتنا لننقلَها إلى حياة الآخرين، إذ إنّ الرّسالة هي الوجه النّهائيّ للإفخارستيّا، وهذه هي الشّهادة الحيّة والفاعلة، ذلك أنّه لا رسالة حقيقيّة بدون شهادةٍ حياتيّة. وهذا ما حدث مع تلميذَي عمّاوس، اللّذين حالما عرفا الرّبّ القائم "قاما من ساعتهما ورجعا أدراجهما إلى أورشليم. فوَجَدا الأحدَ عشر والّذين معهم مجتمعين وهم يقولون: "لقد قام الرّبّ حقًّا. وظهر لسمعان". فأخذا هما يرويان ما حدث في الطّريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز (٢٤: ٣٣-٣٥).

---

٣٤) Joseph Fitzmyer, ***The Gospel according to Luke X-XXIV***, p.1559.

إنّنا غالبًا ما نفهم أنّ الرّسالة هي عطاء، إلاّ أنّها **استقبالٌ** أيضًا. فتلميذا عمّاوس قد استقبلا من الرّبّ القائم كلّ التّعاليم الّتي تتكلّم عن المسيح "في جميع الأسفار، من موسى إلى سائر الأنبياء" (٢٤: ٢٧)، وهذه هي الهديّة الثّمينة الّتي نقلاها إلى الرّسل: **المعجزة الّتي تشهد للحياة الّتي وُلِدَت من الموت: إلهُنا حيّ.** وهذه هي الإفخارستيّا الحقيقيّة، إنّها إختبارٌ حياتيٌّ وإيمانيّ، وإصغاءٌ إلى كلمة الله، ودعوةٌ نوجِّهها إلى يسوع ليمكثَ معنا، ودخولٌ في شركةٍ معه ليتسنّى لنا أن نُعلن الأخبار السّارّة للعالم أجمع. هذا ما قصدناه بالذّات حين تكلّمنا عن مفهوم الاستقبال والعطاء اللّذين يُشكّلان منارتَين مُشعّتَين في سماءِ الإفخارستيّا.

الباب الثّالث

الإنجيليّ يوحنّا الحبيب

من الملاحظ أنّ الإنجيلي يوحنّا لا يذكر العشاء السرّيّ بنصٍّ خاصٍّ مثل الأناجيل الثّلاثة الباقية، لعلّ السبب هو أنّه يريد أن يكمّل العمل ويساعدنا على فهم الموضوع أكثر من ترداده بخبريّةٍ جديدة. فالتّعويض الّذي يعطيه بذكْرَين خاصّين بالقربان يؤكّدان صلابة تفكيره.

١) **يسوع خبز الحياة** (يوحنّا ٦: ١-١٥؛ ٣٥-٥١)

نجد هذه المعجزة عند الإنجيليّين الأربعة: متّى ١٤: ١٣-٢١ (ومرّة أخرى في ١٥: ٣٢-٣٨)، مرقس ٦: ٣١-٤٤ (ومرّة ثانية في ٨: ١-١٠)؛ لوقا ٩: ١٠-١٧، يوحنّا ٦: ١-١٥. من المرجّح أن تكون الجماعات المسيحيّة الأولى قد رأت في معجزة تكثير الخبز إشارةً رمزيّةً إلى الإفخارستيّا وحافظت عليها كتقليدٍ مشترك. وما يفعله يسوع بالخبز في روايات الإنجيليّين، يعكس الحركات اللّيتورجيّة الّتي كان يقوم بها الكهنة عند احتفالهم بالإفخارستيّا.

في الصّيغة الّتي نجدها عند الإزائيّين، نلاحظ الحركات التّالية: **أخذ** يسوع الخبز **وبارك وكسر وأعطى**، وهي ذاتها الّتي يقوم بها الكاهن عادة. وما يرد في الإنجيل الرابع يشير أيضًا إلى الاحتفالات الطّقسيّة مثل الإزائيّين ولكنّه يحمل ميزةً مسيحيّةً خاصّة: ففي يوحنّا ٦: ١١، يقول الإنجيلي: "**أخذ** يسوع الأرغفة **وشكر** ثم **وزّع**..." وقد استعمل في اليونانية فعل "شكر" (إفخارستيو eucharisteô) الّذي أعطانا التّعبير المسيحيّ للذبيحة: إفخارستيّا. يرد هذا الفعل مرّةً أخرى في ٦: ٢٣ عندما يذكّر الإنجيليّ بما حدث. ومن الجدير بالذّكر أنّ يسوع نفسه وزّع الأرغفة على الشّعب، كما فعل خلال العشاء السّرّيّ عند

الإزائيّين، بينما يترك التّلاميذ يقومون بهذا العمل حسب متّى ومرقس ولوقا في رواية المعجزة. ويلفت يوحنّا انتباهنا أيضًا أنّ يسوع صنع آية تكثير الخبز في وقتٍ قريبٍ من عيد الفصح (راجع ٦: ٤)، وهذا يزيدنا قناعةً بالمعنى الإفخارستيّ العميق الّذي يحمله الفصل السّادس.

إذًا، يذكر يوحنّا بشرحه لمعجزة تكثير الخبز والسّمك أنّ يسوع هوَ الخبز النّازل من السّماء حتّى أنّ مَن يأكل منه يجد الحياة الأبديّة وبهذا يربط ما بين الإفخارستيّا (أي القربان) والتّجسّد. إنّ مَن يأكل من هذا الخبز الجديد، السّماويّ/الرّوحيّ، تكون له حياةٌ جديدةٌ وهي الحياة الأبديّة. ونجد بعض العبارات تشبه نصوص التكريس الّتي يتحدّث عنها الإنجيليّون الآخرون مثل: "فأخذ يسوع الأرغفة وشكر"، "أنا الخبز الّذي نزل من السّماء، مَن يأكل من هذا الخبز يحيا للأبد". وهذه الحياة الأبديّة سوف تمتلئ وتُعاش بكلّ جوانبها بفعل الرّوح القدس، فيقول يوحنّا: "إنّ الرّوح هو الّذي يُحيي، وأمّا الجسد فلا يُجدي نفعًا، والكلام الّذي كلّمتكم به روحٌ وحياة" (يوحنّا ٦: ٦٣).

يَشدّ الإنجيليّ يوحنّا أذهان قارئيه إلى كشف يسوع الذّاتيّ: "**أنا** خبز الحياة" (٦: ٣٥؛ ٤٨)، "**أنا** الخبز الّذي نزل من السّماء" (٦: ٤١)، "**أنا** الخبز الحيّ الّذي نزل من السّماء" (٦: ٥١)، "هوذا الخبز الّذي نزل من السّماء" (٦: ٥٨)[٣٥]. إنّ إعطاء هذا الخبز النّازل من السّماء وأكله يَهَب الإنسان القدرة على الحصول على الحياة الأبديّة، من خلال **الاتّكال الإيمانيّ** على "الّذي نزل من السّماء" (راجع ٦: ٣٣، ٣٨، ٤١، ٥٠، ٥١)، **والإيمان الحيّ في يسوع**، ابن الإنسان وابن الله الّذي "جاء من الله"، وهو "المُرسَل من الآب" (راجع ٦: ٣٨-٣٩، ٤٦). إنّ الفصل السّادس من الإنجيل الرّابع لا يبحث في تصديق كلمة يسوع وحسب، بل إنّما أيضًا في الإيمان الّذي يحتضن السّرّ الكامل للكلمة المتجسّد، والحدث الكلّيّ لنزول ابن الله من السّماء وحياته الأرضيّة، والّذي يُتوَّج في تقديم جسده (إنسانيّته) من أجل حياة العالم (٦: ٥١)، من خلال آلامه وموته على الصّليب، في طاعةٍ لا مثيل لها لإرادة الآب الّذي أرسله (٦: ٣٨). إنّ ذبيحة الطّاعة المقدّمة من يسوع للآب تشمل موته الذّبائحيّ (القربانيّ)، ذلك أنّ أكلَ جسد ابن الإنسان وشُرب دمه (٦: ٥٣) يدخل

---

٣٥) Valerio Mannucci, ***Giovanni il Vangelo narrante***, p.292.

في سياق الإيمان الّذي يجب أن يحتضن "ساعة يسوع"، ساعة آلامه – موته، من جهة، وساعة قيامته – صعوده، من جهةٍ أخرى (راجع ٦: ٦٢).

يشدّد يوحنّا على الواقع الحسيّ لحضور المسيح في الجسد والدّم، أكثر من الإزائيّين ومن بولس، فهو يستعمل الفعل "مضغ"[٣٦] (τρώγω-تروغو) (٦: ٥٤، ٥٦، ٥٨، راجع أيضًا ١٣: ١٨) بدل الفعل العادي "أكل" (ἐσθίειν-إيسثِين)، ويفضّل كلمة "لحم" (σαρξ) بدل كلمة "جسد" (σῶμα-سوما) الّتي استعملها الازائيّون وبولس[٣٧]. إنّ تعبير "ساركس" يُشير، في الإنجيل الرّابع، إلى المجال الإنسانيّ والدّنيويّ في مقابل الإلهيّ والرّوحيّ[٣٨]. يقول يسوع في حواره مع نيقوديمس: "فمولود الجسد "ساركس" يكون جسدًا، ومولود الرّوح "پنيـﭬما" يكون روحًا" (يوحنّا ٣: ٦)؛ وفي حواره أيضًا مع اليهود، يقول يسوع: "إنّ الرّوح هو الّذي يُحيي، وأمّا الجسد فلا يُجدي نفعًا" (يوحنّا ٦: ٦٣). وعليه، فإنّنا نؤكّد أنّ كلمة "ساركس"، بالمفهوم الكتابيّ، تُشير إلى حقيقة الإنسان الكامل.

إنّ يوحنّا يستعمل هذا التّعبير "لحم" ليصف في مقدّمة إنجيله طريقة حضور الكلمة بيننا (يوحنّا ١: ١٤)، وليضع التّوكيد على العلاقة القائمة بين سرّ الإفخارستيّا وسرّ تجسُّد كلمة الله. وهكذا يُعبِّر الإنجيليّ يوحنّا من خلال كلمات الآية ١٤ من الفصل الأوّل لإنجيله عن المفارقة الّتي لا لبس فيها أنّ الكلمة السّاكن مع الله، واللّابس كمال عظمة الألوهيّة والحائز على ملء الحياة الإلهيّة، قد دخل فعلاً في المجال الأرضيّ والإنسانيّ، واتّخذ المواد القابلة للفساد بصيرورته بشرًا: إنّه حدثٌ حقيقيّ. فالجسد الّذي اتّخذه الكلمة في التّجسُّد هو نفسُه الجسد الّذي سيُعلَّق على خشبة الصّليب (راجع يوحنّا ١٩: ٣٤؛ ١يوحنّا ٥: ٦). كما أنّنا لا ننسى أنّ التّعبير "اللّحم والدّم" الّذي نجده عند يوحنّا يعود إلى التّقليد اليهوديّ وهو يعني الإنسان بكلّيته. فالإنجيليّ يوحنّا يرى أنّ "الحالة الإنسانيّة" للكلمة ترمز إلى "حالته الإلهيّة". بالنّسبة ليوحنّا، لا يُمثِّل المسيح في الجسد إنسانًا من سلالة آدم، كما في بولس (راجع رومة ٨: ٣)، بل

---

٣٦) Raymond E. Brown, ***The Gospel according to John I-XII***, p.287.

٣٧) Valerio Mannucci, ***Giovanni il Vangelo narrante***, p.285.

٣٨) Rudolf Bultmann, ***The Gospel of John***, p.62.

إنّما هو القائد الّذي يجلب الإنسان الأرضيّ المُقيَّد إلى العالم السّماويّ النّابض بالحياة الحقيقيّة والمُمتلئ من المجد الإلهيّ (راجع يوحنّا ٦: ٦٢؛ ١٤: ٦؛ ١٧: ٢٤)[٣٩]. من هنا نُدرك أنّ يسوع عندما تكلّم عن هذا التّعبير، لم يقصد بتاتًا الجوهر الماديّ للجسم الإنسانيّ، بل قصد نفسه في حالة موته[٤٠]. فلم يَعُدِ الخبز، بحسب الفكر اللّاهوتيّ للإنجيليّ الرابع، مجرّد خبز ماديٍّ طبيعيّ، بل أصبح يعني عطيّة يسوع في شخصه. إنّها، أوّلاً، عطيّة الخبز السّماويّ (راجع ٦: ١١، ٢٧، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٥١، ٥٢)، وهي، ثانيًا، عطيّة بَذْل نفسه في سبيل الخراف (راجع يوحنّا ١٠: ١١، ١٥، ١٧، ١٨؛ ١٣: ٣٧؛ ١٥: ١٣). وعليه نقول إنّ هذا التّعبير "لحم" يُعبّر بوضوح عن التّأثير المُفعَم بالحياة لسرّ التّجسّد الإلهيّ؛ وفي المستقبل سيكشف الفعل "سأعطي" عن موت يسوع كنبع للحياة من أجل العالم. فالمصطلحات الّتي سبق وذكرناها، "من أجل"، و"اللّحم"، "والعطيّة"، تجعلنا نستحضر الزّمن الماضي ليسوع في مواجهته لموته، والزّمن الحاضر للجماعة المسيحيّة الّتي تعيش الذّبيحة الإفخارستيّة[٤١].

ثمّ إنّ يسوع يطلق على نفسه صفة "ابن الإنسان" مرّتين عندما يتكلّم عن خبز الحياة وعن جسده ودمه (٦: ٢٧، ٥٣). وهذه الصّفة مرتبطة في الفكر اليوحنّاوي بموت المسيح وتمجيده (٣: ١٤؛ ١٢: ٢٣، ٣٤؛ ١٣: ٣١)، وبكونه مرسلاً من الآب، وأنّه سيعود إليه (١: ٥١؛ ٣: ١٣؛ ٦: ٦٢)، وبسلطته على إجراء القضاء (٥: ٢٧). هكذا نلاحظ وجود علاقة حقيقيّة بين التّجسّد والإفخارستيّا في الفكر اليوحنّاويّ. من جهة أخرى، فإنّ فكرة الفداء الّتي نجدها في ٦: ٥١ب "الخبز الّذي سأعطيه أنا هو جسدي أبذله ليحيا العالم" يذكّرنا بنص مماثل في أشعيا ٥٣: ١٢: "... لأنّه أسلم نفسه للموت وأُحصي مع العُصاة وهو حمل خطايا الكثيرين وشفع في معاصيهم". ولكنّ يوحنّا يستبدل كلمة "الكثيرين" بكلمة "العالم" وبدل "غفران الخطايا" نجد فكرة "الحياة" العزيزة على قلب يوحنّا. الإفخارستيّا بالنّسبة إلى يوحنّا تحمل فكرة غفران الخطايا بواسطة ذبيحة المسيح،

---

٣٩) Rudolf Sch., ***The Gospel according to St. John***, vol.1, p.268.

٤٠) Xavier Leon-Dufour, ***Lettera dell'evangelo secondo Giovanni***, p.485.

٤١) **Ibid**, p.486.

ولكنّها بالأكثر مصدرُ حياةٍ جديدةٍ لِمَن يتناول منها كونها مرتبطة بالقيامة المجيدة. هذا الطّعام السّماويّ الّذي يعطيه الربّ يسوع يتجاوز بكثير المنّ الّذي أكله الشّعب الإسرائيليّ في الصّحراء، ذلك أنّ هذا الخبز "لم يُعطِه موسى للشّعب بل من السّماء (من الله)، وهو ليس خبزًا سماويًّا، بل إنّما هو خبزٌ أرضيّ "ماديّ" يتناقض في طبيعته مع الخبز الحقيقيّ "السّماويّ" والّذي سيمنحه الله للمؤمنين بابنه"[٤٢]؛ فمَن يأكل جسد الابن ويشرب دمه، تُعطى له الحياة الأبديّة (٦: ٣٣، ٥٤).

يؤكّد يسوع أنّ الاشتراك في هذا السرّ الّذي يعطيه ضروريٌّ لنيل الحياة وبالتالي للحصول على الخلاص (راجع ٦: ٥٣ وما يتبع). قبول هذه العطيّة يمنح الإنسان الفرصة ليدخل في علاقةٍ مميّزةٍ مع المسيح ويشاركه حياته الإلهيّة (٦: ٥٦)؛ كما ويُعطي يسوع الإنسان أيضًا "الاشتراك في حياة الله الخاصّة" (٦: ٥٧)[٤٣]، ويَرِد هذا التّعبير أيضًا عند القدّيس بطرس: "شركاء الطّبيعة الإلهيّة" (٢ بطرس ١: ٤). يعبّر يوحنّا عن هذه الشركة بفكرة الحلول المتبادل ("أثبتوا فيّ وأنا فيكم" ١٥: ٤-٧؛ راجع أيضًا صلاة يسوع الكهنوتيّة وبخاصّة ١٧: ٦-١٢). الاشتراك بالإفخارستيّا يُدخِل المؤمن في زخم الحياة الّتي تأتي من الآب إلى الابن (٦: ٥٧). والوَحدة الموجودة بين الآب والابن تصبح المثال الأعلى للوَحدة الّتي يجب أن يصل إليها المؤمن مع المسيح بتناوله جسده الحيّ (راجع يوحنّا ١٧: ٢٠-٢١).

فيسوع يحثّ مستمعيه كي يؤمنوا بابن الإنسان الّذي يُعطي نفسَه، من خلال موته، حتّى يحيَوا هم. وهذه هي ثمرة الإيمان، الحياة الأبديّة الّتي ما هي إلاّ إقامةٌ متبادلة: الابن في المؤمن والمؤمن في الابن. فالجماعة الّتي تحتفل في ليتورجيّتها بحضور القائم لا تفصل هذه عن ذكرى الموت الّذي من خلاله أحبّ يسوع خاصّته إلى أقصى الدرجات. إنّ الإفخارستيّا (الشكر) تُركّز على العطيّة الّتي قدّمها ابن الإنسان نفسه من أجلنا. فالإفخارستيّا، إذن، تُمثّل الحقيقة الخفيّة الّتي عبّر عنها الإنجيليّ يوحنّا بالإقامة المتبادلة. وهكذا تُشدّد

---

٤٢) C.K.Barrett, ***The Gospel according to St. John***, p.289.

٤٣) Raymond E. Brown, ***The Gospel according to John I-XII***, p.292.

الإفخارستيّا، ودائمًا من جديد، على مشاركة المؤمن بالّذي يحيا في الآب[٤٤]، أي، بتعابير أخرى، **الحياة الجديدة للتّلميذ في الابن** وهي حياة الإيمان نفسها[٤٥]. وهكذا فإنّ أكل خبز الحياة يعني، أسراريًّا، الانضمام إلى شخص يسوع، ابن الله النّازل من السّماء، والّذي يُخلّص العالم من غُربته وبُعده عن الله. من تكثير الخبز، يعلن يسوع عن معنى هذه الآية بتصريحه بأنّه الخبز الحقيقيّ (٦: ٣٢-٣٣)، فهو يقدّم نفسه أولاً على أنّه "الكلمة" الّتي يجب الإيمان بها (٦: ٣٥-٤٧). ولأنّ هذا "الكلمة" المتجسّد يُقدّم نفسه ذبيحةً، يحتّم الإيمان بضرورة الشّركة في هذه الذّبيحة في طقس الإفخارستيّا (٦: ٤٨-٥٨). وباعتبار الخبز غذاءً ضروريًّا وهِبَةً من الله، حتّى في شكله الماديّ، فالمؤمن الّذي يطلبه من ربّه كلّ يوم، يمكنه أن يعني به، مع نموّ الإيمان، الكلمة الإلهيّة وشخص المخلّص نفسه المقدَّم ذبيحة وهو خبز السّماء الحقيقيّ وخبز الحياة الحيّ والمحيي (٦: ٣٢، ٣٥، ٥١). إنّ يسوع في هذه الآيات (٦: ٣٥-٥١) يُعلن نفسه "الخبز الحيّ" في معنًى حكميٍّ: "هلمّوا كُلُوا من خبزي واشربوا من الخمر الّتي مزجتُ" (أمثال ٩: ٥)؛ "تُطعمه خبز العقل وتسقيه ماء الحكمة. فيها يترسّخ فلا يتزعزع" (يشوع بن سيراخ ١٥: ٣)؛ "تعالَوا إليّ أيّها الرّاغبون فيّ واشبَعوا من ثماري... مَن أكلني عاد إليّ جائعًا ومَن شربني عاد ظامئًا" (يشوع بن سيراخ ٢٤: ٢٦، ٢٩). فيسوع يَصِفُ نفسَه كما وصف العهد القديم الحكمة؛ وفي الواقع، كلّ وحي الله في العهد القديم، بما في ذلك الشّريعة، تتكلّم عن طعام الله أو خبز الله المُرسَل من السّماء. يسوع، إذًا، يصف نفسه في هذه الآيات على أنّه مُحضر كلمة الله، ورسالته عن المحبّة، ومخطَّطه للعالم[٤٦]. فإذا قبلَ أحدٌ يسوع كمُرسَلٍ من الله واحتضن رسالته، سيعرف الحياة الّتي في الله يسوع هو كلمة الله. كانت كلمة الله في العهد القديم دائمًا مُحيية (تُعطي الحياة)؛ وهذا هو الحال مع يسوع أيضًا؛ فكلماته ليست مجرّد معلوماتٍ عن الله، بل إنّها تتضمّن سرّ الله والحياة في الله. فعندما يُصغي الإنسان بانفتاح ويقبل كلماته بإخلاص، سيختبر هذا الإنسان حضور الله ويُشاركه حياته الخاصّة.

---

٤٤) Xavier Leon-Dufour, ***Lettera dell'evangelo secondo Giovanni***, p.497.

٤٥) **Ibid**, p.498.

٤٦) Michael J. Taylor, ***John, the different Gospel***, p.66.

٢) العشاء الفصحيّ الوداعيّ (يوحنّا ١٣: ١-١٧)

إنّ "تقليدَي العشاء" الإزائيّ واليوحنّاويّ مع كلّ الاختلافات الظّاهرة بينهما[٤٧]، يشتركان في الإدلاء بتصريحاتٍ لاهوتيّةٍ حول موت يسوع، ويبدو أنّهما يستخلصان الطّابع الفصحيّ لساعة يسوع النّهائيّة.

١. اختلاف تاريخ العشاء السّرّيّ

إنّ التّشريع الدّينيّ الخاصّ بالعهد القديم وبخاصّةٍ سفر الأحبار، يُشير إلى أنّ أكل وجبة الفصح يجب أن يكون في اللّيلة الّتي تختتم اليوم الرّابع عشر من شهر نيسان وبداية اليوم الخامس عشر[٤٨] (إنّ بداية يومٍ جديد، بحسب التّقويم القمريّ، كان يُحسَب من غروب الشّمس): "في الشّهر الأوّل في اليوم الرابع عشر منه، بين الغروبَين، فصحٌ للرّبّ" (أحبار ٢٣: ٥؛ راجع أيضًا خروج ١٢: ٣-٢٠؛ تثنية ١٦: ١-٨).

لقد ذكرت الأناجيل الإزائيّة عشاء الرّبّ مع تلاميذه (متّى ٢٦: ١٧-٣٠؛ مرقس ١٤: ١٢-٢٦؛ لوقا ٢٢: ٧-٣٨)، حيث يُصوَّر بشكلٍ واضح على أنّه وجبة عيد الفصح: "وفي أوّل يومٍ من الفطير، وفيه يُذبَح حَمَلُ الفصح، قال له تلاميذه: إلى أين تُريد أن نمضيَ فنُعِدَّ لكَ لتأكل الفصح؟" (مرقس ١٤: ١٢)؛ "وجاء يوم الفطير، وفيه يجب ذبحُ حَمَل الفصح. فأرسل بطرس ويوحنّا وقال لهما: إذهبا فأعدّا لنا الفصح لنأكله" (لوقا ٢٢: ٧-٨). إنّ هذه الآيات المقدّسة تَصِفُ لنا أنّ العشاء حدث فعلاً مساء الخميس قبل أن يُصلَب يسوع في اليوم التّالي، الجمعة، بناءً على ما جاء في إنجيل مرقس: "وكان المساء قد أقبل، ولمّا كان ذلك اليومُ يومَ التّهيئة، أي الّذي قبل السّبت..." (١٥: ٤٢).

---

٤٧) تكمن الاختلافات بين التّقليدَين في توقيت العشاء الأخير، إذ إنّ الإزائيّين يُشيرون إلى أنّ العشاء هو فصحيٌّ الطّابع ويسوع سوف يُحاكم ويموت يوم عيد الفصح اليهوديّ؛ بينما يُشير يوحنّا إلى أنّ العشاء سيكون في وقتٍ مبكّر، ويسوع سيكون في القبر قبل بداية الفصح؛ الإزائيّون يركّزون كثيرًا على تأسيس الإفخارستيّا كسِمَةٍ رئيسيّةٍ من العشاء؛ بينما لا يذكر يوحنّا أنّ الإفخارستيّا ستؤسّس في العشاء، إنّه يركّز على غسل أرجل يسوع لتلاميذه...

٤٨) Raymond E. Brown, ***The Gospel according to John XIII-XXI***, p.555.

أمّا فيما يتعلّق بالإنجيل الرّابع، فإنّنا نجد في نهاية الفصل الحادي عشر إشارةً إلى اقتراب الفصح اليهوديّ: "وكان قدِ اقترب فصح اليهود" (١١: ٥٥). ثمّ تظهر إشارةٌ ثانيةٌ في الفصل الثّاني عشر تُعطي تحديدًا زمنيًا لهذا الفصح: "وقبل الفصح بستّة أيّامٍ" (١٢: ١). ووَفقًا للجدول الزّمنيّ الخاصّ بالإنجيليّ يوحنّا (١٣: ١)، احتفل يسوع وتلاميذه بالعشاء قبل يومٍ من وقوف يسوع للمحاكمة أمام بيلاطس (١٨: ٢٨-١٩: ١٦)، وقد حدثت قبل وجبة الفصح اليهوديّة: "وساقوا يسوع من عند قيافا إلى دار الحاكم. وكان ذلك عند الفجر، فلم يدخلوا دار الحاكم مخافة أن يتنجّسوا فلا يتمكّنوا من أكل الفصح" (يوحنّا ١٨: ٢٨). وبالتّالي، ففي وقت اتّهام يسوع أمام بيلاطس، لم يكن اليهود قد أكلوا الحملان الفصحيّة بعد، وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ الصّلب حدث، بحسب التّوقيت اليوحنّاويّ، في الرّابع عشر من نيسان، يوم "تهيئة الفصح" (يوحنّا ١٩: ١٤)[٤٩]. **وبذلك يكون عشاء الرّبّ قد وقع يوم الخميس، أي قبل الفصح بيومٍ كامل.**

بعض شرّاح الكتاب المقدّس، وأخصّ بالذّكر جيراميّاس (Jeremias)، الّذي يتبع في رؤيته التّوقيت الإزائيّ للعشاء السّرّيّ، قام بمحاولة إظهار أنّ كلّ الأحداث الفرديّة الّتي أوردتها الأناجيل في يوم الجمعة (المحاكمات، الجلد، حمل الصّليب، الصّلب، فتح القبر والدّفن) قد حدثت يوم الفصح لكي لا تُنتَهك الشّريعة اليهوديّة[٥٠]. إلاّ أنّ تفكيره هذا بقي مجرّد فكرٍ نظريٍّ لاعتبارين هامّين:

الاعتبار الأوّل، ما جاء في إنجيل القدّيس مرقس بخصوص تصميم رؤساء الكهنة ألاّ يُقبَض على يسوع في يوم العيد: "وكان عيد الفصح وعيد الفطير ("وفي اليوم الخامس عشر من هذا الشّهر [نيسان]، عيد الفطير للرّبّ: سبعة أيّامٍ تأكلون فطيرًا" (أحبار ٢٣: ٦) بعد يومين. وكان رؤساء الكهنة والكتبة يتلمّسون حيلةً للقبض عليه. غير أنّهم قالوا: لا في العيد لئلاّ يقع شغبٌ في الشّعب" (١٤: ١-٢). وهذا يوضّح أنّ المسألة تختصّ بقرارٍ صدر عن السّنهدرين (أعلى سلطةٍ قضائيّةٍ لليهود) ألاّ يُقبَض عليه في العيد، ليس فقط لاعتبارات الخوف

---

٤٩) Joachim Jeremias, ***The Eucharistic words of Jesus***, p.15.

٥٠) **Ibid**, p.75-79.

من ثورةٍ شعبيّةٍ يقوم بها الشّعب ضدّ السّلطة الدّينيّة، ولكن بسبب اعتباراتٍ طقسيّةٍ هامّة أيضًا، إذ بحسب الشّريعة، لا يجوز عمل ذلك في العيد.

والاعتبار الثّاني، هو ما جاء عند الكثيرين من شُرّاح الكتاب المقدّس الّذين يؤيّدون التّوقيت اليوحنّاويّ للعشاء السّرّيّ الّذي أكله يسوع مع تلاميذه مساء يوم الخميس الموافق الرّابع عشر من شهر نيسان، حسب التّقويم اليهوديّ الرّسميّ، أي قبل يومٍ من عيد الفصح اليهوديّ، وقد تميّز هذا العشاء بكلّ خصائص الفصح، كحوارات الأب والبنين، وصلاة الختام الرّسميّ... وهكذا، فلقد كان مساء ذاك الخميس يوم استعلان للفصح الأبديّ، وقد وقع عشاء ذاك الخميس يومًا قبل الصّليب، حيث الصّليب هو الفصح الحقيقيّ المزمع تقديمه على الصّليب يوم الجمعة؛ إنّه يسوع، الحمل المذبوح لأجل حياة العالم، ولمغفرة خطايا الكثيرين. فعلى الصّليب، أشارت كلّ صُور الفصح إلى يسوع: قصب الزّوفا، وعظامه الّتي لم تُكسَر، أي أنّه حملٌ كامل، ممّا يعني بوضوح لاهوتيٍّ بارز أنّ "**يسوع قد مات كحمل العهد الجديد الفصحيّ**"[٥١] (راجع يوحنّا ١: ٢٩؛ ١٩: ٣٦؛ ١ كورنثس ٥: ٧).

٢. الأناجيل الأربعة تتّفق على يوم الدّفن

وعلى الرّغم من اختلاف تواريخ التّقويم، إلاّ أنّ الأناجيل الأربعة تتّفق على أنّ اليوم الّذي مات فيه يسوع ودُفِن يسوع كان يوم جمعة، قبل غروب الشّمس، ذلك أنّه في زمن يسوع كان يُحسَب اليوم من غروب الشّمس إلى غروبها[٥٢].

(*) "وفي الغد، أي بعد يوم التّهيئة للسّبت، ذهب عظماء الكهنة والفرّيسيّون معًا إلى بيلاطس وقالوا له: يا سيّد، تذكّرنا أنّ ذاك المُضلّل قال إذ كان حيًّا: سأقوم بعد ثلاثة أيّام" (متّى ٢٧: ٦٢-٦٣)؛

(*) "وكان المساء قد أقبل، ولمّا كان ذلك اليومُ يومَ التّهيئة، أي الّذي قبل السّبت، جاء يوسف الرّامي، وهو عضوٌ وجيهٌ في المجلس، وكان هو أيضًا ينتظر ملكوت الله، فحَمَلته الجُرأة على أن يدخل إلى بيلاطس ويطلب جثمان يسوع" (مرقس ١٥: ٤٢-٤٣)؛

---

٥١) Rudolf Sch., ***The Gospel according to St. John***, vol.3, p.15.

٥٢) Joachim Jeremias, ***The Eucharistic words of Jesus***, p.19.

(*) "فذهب [يوسف] إلى بيلاطس وطلَبَ جثمان يسوع. ثمّ أنزله عن الصّليب ولَفّه في كتّان، ووضعَه في قبرٍ حُفِرَ في الصّخر لم يكن قد وُضِعَ فيه أحد. وكان اليومُ يومَ التّهيئة وقد بدت أضواء السّبت" (لوقا ٢٣: ٥٢-٥٤)؛

(*) "وكان ذلك اليومُ يومَ التّهيئة، فسأل اليهود بيلاطس أن تُكسَر سوقُ المصلوبين وتُنزَل أجسادُهم، لئلاّ تبقى على الصّليب (بعد غروب الشّمس، أي عند بدء يومٍ آخر) يوم السّبت، لأنّ ذاك السّبت كان يومًا عظيمًا (السّبت الوحيد الّذي يُدعَى عظيمًا هو السّبت الّذي يقع فيه عيد الفصح)" (يوحنّا ١٩: ٣١).

يتضمّن يوم الجمعة هذا أيضًا مجمل أحداث الآلام: العشاء السّرّيّ، الجتسمانيّة، القبض على يسوع ومحاكمته، الصّلب والدّفن (متّى ٢٦: ٢٠-٢٧، ٦١؛ مرقس ١٤: ١٧-١٥: ٤٧؛ لوقا ٢٢: ١٤-٢٣: ٥٦؛ يوحنّا ١٣: ٢-١٩، ٤٢). يتّفق الإنجيليّون الأربعة أيضًا على هذه النّقطة[٥٣].

٣. وَحدة لاهوت العشاء السّرّيّ

يُشكّل البُعدان التّاريخيّ والرّوائيّ أهميّةً بالغةً فيما يختصّ بشهادة الأناجيل حول روايات عشاء الرّبّ السّرّيّ مع تلاميذه. إلاّ أنّه لا يجب أن يغفل عن بالنا أنّ هناك بُعدًا آخَرَ أكثر عُمقًا ومعنًى يشكّل مفتاحًا لفهم هذه الرّوايات الإنجيليّة، هو البُعد اللّاهوتيّ[٥٤]. إنّ عشاء الرّبّ السّرّيّ يُشكّل عملاً رمزيًّا يتجلّى من خلال حقائقَ لاهوتيّةٍ متعدّدة، أهمّها، الموت الوشيك كذبيحةٍ من أجل تلاميذه، ومن خلالهم، البشريّة جمعاء. فالعشاء السّرّيّ يُسطّر استمراريّة الأفعال الخلاصيّة الّتي قام بها الله في العهد القديم، ويُبرز أهميّة موت الرّبّ، وهو، في الوقت عينه، مناسَبةٌ لتوطيد الاتّحاد الرّوحيّ مع الرّبّ القائم، وهو أيضًا اشتراكٌ في الوليمة السّماويّة، وتعبيرٌ عن الشّراكة في جسد المسيح.

يرغب الإزائيّون في إظهار يسوع يُبدّل ويتمّم سرّ الفصح. إنّ سرّ موت يسوع وقيامته من بين الأموات يُحقّق له وللمؤمنين به الخروج إلى الله؛ إنّه الخروج الجديد من الخطيئة إلى الحياة الحقيقيّة، ومن أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد

---

٥٣) **Ibid**, p.16.

٥٤) Thomas Sch., Matthew Craw., ***The Lord’s Supper***, p.44.

"أرض الحريّة"، وقد ترك يسوع للمؤمنين الإفخارستيّا كوجبةٍ تحتوي رمزيًا فصحه. إنّها تُمكِّن إسرائيل الحقيقيّ "المؤمنين باسمه" من الاحتفال بفصح يسوع معه؛ إنّها تساعدهم ليُدركوا أنّهم هم أيضًا جزءٌ من هذا السرّ الفصحيّ.

كما ليوحنّا، فإنّ الكثير من الشُرّاح آمنوا أنّه أظهر بالفعل في الفصل السّادس (٥١ب-٥٨) أنّ يسوع قد ترك لمؤمنيه "جسده ودمه" كسرٌ فصحيٌ تحت رمز الخبز[٥٥]. إنّه يسوع، الحمل المذبوح لأجل حياة العالم ولمغفرة خطايا الكثيرين. فعلى الصّليب، أشارت كلّ صُور الفصح إلى يسوع: قصب الزّوفا وعِظامه الّتي لم تُكسَر، أي أنّه حَمَلٌ كاملٌ، مِمّا يعني بوضوح لاهوتيٍّ بارز أنّ "يسوع قد مات كحمل العهد الجديد الفصحيّ"[٥٦] (راجع يوحنّا ١٩: ٣٦).

خِتامًا نقول إنّ توقيت العشاء ليس له الأهميّة ذاتها الّتي للإعلان اللّاهوتيّ عن أنّ موت يسوع هو فصحيّ، وقد عبّر عن ذلك القدّيس بولس قائلاً: "فقد ذُبح حَمَلُ فصحنا، وهو المسيح" (١ كورنثس ٥: ٧). فقد حرّر يسوع بموته العالم والإنسان من العبوديّة. فمن خلال يسوع الفصحيّ، تحرّر العالم أيضًا من الظّلمة الأبديّة، وانتقل إلى النّور الأبديّ والمحبّة الخالدة.

٤. غسل الأرجل (١٣: ١-١٧)

لقد وصف الإنجيل الهبات الّتي يقدّمها يسوع من الآب على أنّها حياة الله، ونوره، ومحبّته (الكلمة الّتي تُلخِّص هذه التّعابير هي "المجد"). وبما أنّ الإنجيل اليوحنّاويّ يُقسَم إلى قسمَين أساسيَّين: كتاب الآيات (٢-١٢)، حيث يتكلّم يسوع في معظم الأحيان تحت مصطلحات "الحياة" و "النّور"؛ وكتاب المجد أو السّاعة (١٣-٢٠)، حيث يستعمل فيه يسوع تكرارًا مصطلح "حبّ". إنّ السّاعة وهي الموضوع الرئيسيّ في هذا القسم من الإنجيل، تُشير، في الفكر اليوحنّاويّ، إلى أنّ يسوع قد اقترب من موته الّذي ما هو إلاّ فعلُ حبٍّ لامتناهٍ تجاه تلاميذه ولأولئك الّذين آمنوا به؛ وفي الوقت نفسه، فقد ظهر موته كانتصار، إذ وضعه يوحنّا في إطار الانتقال إلى الآب[٥٧] (راجع يوحنّا ١٣: ١). ومن الواضح أنّ غسل

---

٥٥) Michael J. Taylor, ***John: the different Gospel***, p.155.

٥٦) Rudolf Sch., ***The Gospel according to St.John***, vol.3, p.15.

٥٧) Raymond E. Brown, ***The Gospel according to John XIII-XXI***, p.563.

الأرجل عند يوحنّا يدخل في إطار التّحضير لموت يسوع الخلاصيّ، إذ يبدأ النّصّ قائلاً: "كان يسوع يعلم بأنْ قد أتت ساعة انتقاله عن هذا العالم إلى أبيه، وكان قد أحبّ خاصّته الّذين في العالم، فبلغ به الحبّ إلى أقصى حدوده..." (يوحنّا ١٣: ١). ما فعله يسوع يشكّل حركةً رمزيّةً تشير إلى عودة الابن إلى الآب مرورًا بالموت حبًّا بالعالم. إذًا، نستطيع القول إنّ **غسل الأرجل هو بذلُ محبّةٍ اختياريّ، مرتبطٌ بالصّليب.**

يهوذا مذكورٌ هنا، لأنّ يوحنّا يرى في شخصيّته رمزًا "للظّلمة"، إذ إنّه رفض، تحديدًا، محبّة يسوع. لقد كان تلميذ يسوع؛ ويجب أن يكون لديه محبّة ليسوع في آنٍ معًا، وقد تمّ الآن سحب هذه المحبّة. لِتَرك يسوع، لخيانة حبّه، يرفض الإنسان محبّة الله المتجسّدة في شخصه [يسوع]. إلاّ أنّ يسوع لم يُقابل هذا الرّفض برفض آخر، بل إنّ هذا الرّفض لم يُثنِه عن إظهار حبّه اللّامحدود لخاصّته. فإظهار هذا الحبّ لا يُمثِّل عمق محبّة يسوع للعالم فحسب، بل يَعرض محبّة الآب أيضًا. إنّ "ساعة" يسوع هي، قبل كلّ شيء، ساعةٌ تتجلّى فيها محبّته ومحبّة الآب للعالم (يوحنّا ١٣: ٣).

إنّ العمل (غسل الأرجل) الّذي يتبع كلام يسوع هذا عن المحبّة هو عملٌ تفرّد به يوحنّا دون سواه من الإنجيليّين. ولأنْ كشف يوحنّا مُسبَقًا تأسيس سرّ الإفخارستيّا في الفصل السادس (٥١ب-٥٨)، فهو لم يَعُدْ بحاجةٍ إلى ذكره هنا كما فعل الإزائيّون. فوضع عوضًا عنه ما قام به يسوع انطلاقًا من حبّه اللّامتناهي في إطار رمزيّة غسل الأرجل. وبحسب تفكير يوحنّا، كِلا الرّمزان يقولان الشّيء نفسَه: فيسوع أظهر حبّه إلى أقصى الحدود من خلال موته وقيامته، وترك لتلاميذه سرّ محبّته في رمز الغسل. فيوحنّا، عن طريق اختيار سرد غسل الأرجل فقط يرغب في تلقين شعبه معنيَين هامَّين يختصّان بساعة يسوع النّهائيّة: المعنى الأوّل يكمن في أنّ هذه السّاعة هي حبّه اللّامحدود المُعطى لهم ولأجلهم؛ والثّاني، الوجود في هذا الحبّ يوجِّب عليهم العيش خارج حياتهم في خدمة بعضهم البعض[٥٨].

---

٥٨) Michael J. Taylor, ***John: the different Gospel***, p.157.

وهكذا، فإنّ حدث غسل أرجل التّلاميذ أثناء العشاء في ليلة الفصح (يوحنّا ١٣: ١-١٧) يشير إلى محبّة يسوع، والى عطاء ذاته لتلاميذه، وتضحيّته بنفسه بتواضع من أجلهم، مُقدّمًا لهم أمثولةً يُحتذى بها في الخدمة الأخويّة، إذ إنّه يدعوهم بدورهم أن يعملوا هم أيضًا ما صنعه هو المعلّم بينهم: "فقام عن العشاء فخلع ثيابه، وأخذ منديلاً فائتزر به ثم صبّ ماء في مطهرة وأخذ يغسل أقدام التلاميذ ويمسحها بالمنديل الّذي ائتزر به" (يوحنا ١٣: ٤-٥). ولمّا انتهى من الغسل أعطى يسوع الأمثولة لتلاميذه في المحبّة المتبادلة الّتي تتجسّد بالخدمة والتواضع. فعلى العشاء إذًا يُعطي يسوع مختصر تعليمه ورسالته فيقول: "فإذا كنتُ أنا الرّبّ والمعلّم قد غسلتُ أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضًا أن يغسل بعضُكم أقدام بعض. فقد جعلتُ لكم من نفسي قُدوةً لتصنعوا أنتم أيضًا ما صنعت إليكم. الحقّ الحقّ أقول لكم: ما كان الخادم أعظم من سيّده ولا كان الرّسول أعظم من مُرسِله. أمّا وقد علمتم هذا، فطوبى لكم إذا عَمِلْتُم به" (يوحنا ١٣: ١٤-١٧). إنّ خطاب يسوع سيضع تركيزًا شديدًا على المحبّة الأخويّة والوَحدة الّتي يتوقّعها من تلاميذه. ولقد فَهِمَ المسيحيّون في وقتٍ مبكّر الإفخارستيّا على أنّها السّرّ العظيم الّذي يدلّ بكلّ أبعاده اللّاهوتيّة على المحبّة الأخويّة والوَحدة (أنظر ١ كورنثس ١٠: ١٤-١٧؛ ١١: ١٧-٣٤)[٥٩]. يرى القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم أنّ "السّيّد المسيح قدّم أعمالاً عظيمةً منذ بداية خدمته، أمّا وقد جاء وقت رحيله عنهم منطلقًا إلى الآب، فقدّم لهم حبًّا فائقًا، خلال الصّليب، ليكون سندًا لهم بعد صعوده". هذا يُشير بوضوح إلى أنّ الصّليب هو تحقيقٌ واكتمالٌ لفعل الحبّ اللّامتناهيّ الّذي قام به يسوع.

خلاصة: حادثة غسل الأرجل

- إنّ وصف الإنجيليّ يوحنّا لحادثة غسل الأرجل هذه يكشف ما كان يريد يسوع أن يفعله لأتباعه من خلال موته؛ فلقد اتّخذت هذه الواقعة مكانها حين أعلن الإنجيليّ يوحنّا أنّ يسوع كان يعلم "أنّ ساعته قد أتت لينتقلَ من هذا العالم إلى أبيه" (١٣: ١) من جهة، وحين أشار الإنجيليّ نفسُه إلى خيانة يهوذا (١٣: ٢)، من جهةٍ أخرى.

---

٥٩) **Ibid**, p.155.

- ملاحظةٌ مقدّمةٌ لبطرس تُشير إلى أنّ محبّة يسوع سوف تجلب أتباعه إلى علاقة التزامٍ معه. "أجابه يسوع: إذا لم أغسلكَ فلا نصيبَ لكَ معي" (يوحنّا ١٣: ٨)، ويُمكننا إعادة صياغة هذه الآية بقولنا: "إذا لم أمُتْ من أجلك، لا يوجد لك نصيبٌ معي". ليكون لك نصيبٌ "مع يسوع" يعني أن تكون في علاقةٍ شخصيّة معه، وبالتّالي، في علاقةٍ مع الله. إنّ هذه العلاقة لا تبدأ إلاّ بالإيمان الّذي يؤدّي إلى تدفُّق الحياة الأبديّة في حياة الإنسان، وهذا ما أكّده السّيّد المسيح في صلاته الكهنوتيّة حين قال: "يا أبتِ، إنّ الّذين وهبتَهم لي أُريد أن يكونوا معي حيث أكون، فيُعاينوا ما وهبتَ لي من المجد، لأنّك أحبَبتَني قبل إنشاء العالم" (يوحنّا ١٧: ٢٤).
- تَعرض حادثة غسل الأرجل أيضًا موت يسوع كوسيلةٍ من وسائل التّطهير: "فقال له يسوع: مَن استحمّ لا يحتاج إلاّ إلى غَسل قدمَيه، فهو كلُّه طاهر. وأنتم أطهار، ولكن لا كلُّكم" (يوحنّا ١٣: ١٠). يفترض القسم الأوّل من الآية اليوحنّاويّة أنّ التّلاميذ مثل بطرس قد "اغتسلوا" بالماء قبل تناولهم الوجبة. ينبغي للشّعب، وَفقًا للعادات الدّينيّة اليهوديّة، ألاّ يشترك في الوجبات وهو في حالةٍ من عدم الطّهارة. يمكن للشّعب الاشتراك فقط بعد أن يكون قد اغتسل بالماء[٦٠]. إنّ الفصول الأولى من الإنجيل الرّابع تَلحظ مكان التّطهير في الممارسة اليهوديّة وتؤكّد، في الوقت عينه، على أنّ غُسل المعموديّة كان يُمارَس بين تلاميذ يسوع (راجع ٢: ٦؛ ٣: ٢٢، ٢٥). إلاّ أنّ غسل الأرجل يُشير إلى تطهير من نوع آخر: الغَسل يُزيل الأوساخ من الجسم، لكنّ موت المسيح يُوفّر التّطهير من الخطيئة، الّتي ما هي، بحسب لاهوت الإنجيل الرّابع، إلاّ انفصالٌ عن الله وكسرٌ للعلاقة القائمة بين الإنسان والله؛ فالبشر قدِ اغتسلوا أو تطهّروا من الخطيئة من خلال كشف الحبّ الإلهيّ الّذي يُعيد البشر إلى العلاقة الصّحيحة مع الله عبر الإيمان الّذي هو عكس الخطيئة. لقد عبّر يسوع عن حبّه بطريقةٍ مؤقتة من خلال غسل أرجل تلاميذه، من جهة، وبطريقةٍ كاملة عن طريق وضع حياته في الصّلب[٦١].

---

٦٠) Craig R. Koester, ***Symbolism in the Fourth Gospel***, p.132.
٦١) **Ibid**, p.133.

- **وهكذا نُدرك أنّ التّلاميذ لم يعودوا بحاجةٍ إلى الغسل، إذ إنّ يسوع قد غسل أرجلهم، بل أصبحوا بحاجةٍ إلى المحبّة والتّضحية بالذّات (راجع يوحنّا ١٥: ١٢-١٣؛ ١يوحنّا ٣: ١٦)، مِمّا يُشير إلى أنّ يسوع بعمله هذا قد أعطى تلاميذه مسلكيّة حياتيّة ومثالاً حيًّا لصورة التّلميذ الحقيقيّ والمسيحيّ الحقيقيّ (راجع يوحنّا ١٣: ١٤-١٥). وبذلك، يفهم التّلاميذ ما عناه يسوع بقوله: "ما كان الخادم أعظم من سيّده ولا كان الرّسول أعظم من مُرسِلِه" (يوحنّا ١٣: ١٦).**
- **لا بدّ أن يكون يوحنّا عالِمًا بما حدث خلال العشاء السّرّيّ بما يخصّ تأسيس الإفخارستيّا، كما أنّه عايش لسنينَ عديدةٍ احتفال المسيحيّين الأوّلين بهذا التّذكار، ولكنّه مع محافظته على المعاني الأساسيّة (إنْ في مشهد غسل الأرجل أو في عظة خبز الحياة)، فَضّل إدراج حدث غسل الأرجل على نقل ما ذكره الإزائيّون. ويختم يسوع لقاءه بتلاميذه هذا بصلاته الكهنوتيَّة بالفصل السّابع عشر حيث يعبّر عن العطاء والتّقدمة وعن الشّكر للآب، وهذا ما يميّز صلاة الإفخارستيّا.**

٣) رمزيّة "الدّم والماء" من جنب يسوع المطعون

١. الرّمزيّة الكتابيّة

"لكنّ واحدًا من الجُنود طعنه بحربةٍ في جَنبه،
فخرج لوقته دمٌ وماء" (يوحنّا ١٩: ٣٤)

لقد رأى بعض آباء الكنيسة أنّ هذه الآية اليوحنّاويّة تُشير ضمنًا إلى رواية الفردوس في سِفر التّكوين بقراءةٍ مسيحيّة تُظهرها بالمقارنة مع الفردوس الجديد: الحياة الأسراريّة للكنيسة. إنّ اللّاهوتيّين يُشيرون إلى أنّ جنب المصلوب المفتوح يرمز إلى باب الحياة الّذي منه تدفّقت أسرار الكنيسة، والّتي بدونها لا يستطيع الإنسان أن يدخل الحياة الحقيقيّة. ننتقل من الأسرار إلى الكنيسة، حوّاء الجديدة الخارجة من جنب آدم الجديد، النّائم على الصّليب (راجع تكوين ٢: ٢١-٢٢). هذا ما يؤكّده آباء الكنيسة وبالأخصّ القدّيس أغسطينوس أنّ الكنيسة وُلدت بشكلٍ إفخارستيّ، من جنب المسيح، حين طُعن بحربة، وخرج للوقت دمٌ (سرّ الشّكر) وماءٌ (سرّ المعمودية). لقد وُلدت الكنيسة فعلاً من

جنب المسيح المصلوب كما وُلدت حوّاء من جنب آدم النّائم. وليشرح القدّيس أغسطينوس هذه الآية اليوحنّاويّة، استخدم من ناحية، رموزًا كتابيّة ثلاثة: آدم/المسيح؛ حوّاء/الكنيسة؛ سفينة نوح، ومن ناحية أخرى، منظورًا كنسيًّا مزدوَجًا: ولادة الكنيسة، والأسرار[٦٢]. وهكذا يتّضح أنّ جنب السَّيِّد المطعون هو نموذجٌ حيٌّ للرّحمة الإلهيّة، إذ إنّ قلب الشّخص البشريّ – الإلهيّ للكلمة المتجسّد هو نبعٌ لمحبّته اللّامتناهية، وفي الوقت عينه، هو نبعٌ لعطيّة الرّوح القدس، الّتي رآها شُرّاح الكتاب المقدّس من خلال موضوع "الماء الحيّ" في الإنجيل الرّابع:

- عطش يسوع وهو ما زال في الحياة ("أنا عطشان"، ١٩: ٢٨)؛
- عطيّة الرّوح من خلال موته ("لقد تمّ. وأمال رأسه وأسلم الرّوح"، ١٩: ٣٠)؛
- الماء الحيّ كرمزٍ دائمٍ لعطيّة الرّوح هذه بعد موته ("أمّا يسوع فلمّا وصلوا إليه ورأوه قد مات... لكنّ واحدًا من الجنود طعنه بحربةٍ في جَنبه، فخرج لوقته دمٌ وماء"، ١٩: ٣٣-٣٤).

إنّ قول يسوع وهو على الصّليب "أنا عطشان" يفتح منظورًا جديدًا للزّمن القادم الّذي هو على وشك أن يبدأ بعد موت يسوع: إنّه سيكون زمن الرّوح القدس. إنّ عمل يسوع، نقطة تحقيق العهد القديم واكتماله في شخصه الإلهيّ ورسالته الخلاصيّة، سيستمرّ فاعلاً من خلال عمل الرّوح القدس، في كلّ زمن الكنيسة، كتحقيقٍ للتّدبير الإلهيّ. وسترافق عطيّة يسوع هذه (الرّوح القدس) حياة الكنيسة واستمراريّتها الأرضيّة ومسيرتها في محجّها نحو الكنيسة السّماويّة، الوطن السّماويّ، ذلك أنّ الكنيسة تعيش زمن الرّوح القدس، وهو الّذي "يجعل من الكنيسة "هيكل الله الحيّ" (٢ كورنثس ٦: ١٧)"[٦٣]. وهكذا، فإنّ الماء الحيّ الخارج من جنب المصلوب والّذي يُشير إلى الماء الحيّ الخارج من **الهيكل الإسكاتولوجيّ** الّذي تنبّأ عنه النّبيّان حزقيال: "ورجع بي إلى مدخل البيت، فإذا بمياهٍ تخرج من تحت البيت نحو الشّرق، لأنّ وجه البيت نحو الشّرق، والمياه تنزل من تحت من جانب البيت الأيمن عن جنوب المذبح" (٤٧: ١)؛ وزكريّا: "ويكون

---

(٦٢) Ignace de la Potterie, ***Studi di Cristologia Giovannea***, p.168.

(٦٣) *التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة*، عدد ٧٩٧، ص. ٢٥٧.

في ذلك اليوم أنّ مياهًا حيّة تخرج من أورشليم" (١٤: ٨). تُشير هاتان النّبوءتان إلى أنّ المذبح الحقيقيّ هو جسد الرّبّ (راجع يوحنّا ٢: ٢١) وتؤكّدان، في الوقت عينه، على أنّ يسوع هو حقًّا هيكل الرّوح، وهو نبع الرّوح الفيّاض. وَفقًا لذلك نقول إنّ سرّ **الرّوح القدس لا يتجزّأ عن سرّ صليب المسيح. فمَهمّة الكنيسة الأساسيّة اليوم تكمن في أن تكشف وتُظهر للعالم بقوّة الرّوح القدس أنّ صليب المسيح سيكون دائمًا مركز تاريخنا وقمّته**"[٦٤].

أمّا بالنّسبة للدّم، فإنّنا نؤكّد أنّ الدّم هو مركز الحياة، بناءً على ما جاء في سفر الأحبار: "لأنّ نفس الجسد هي في الدّم، وأنا جعلته لكم على المذبح ليُكفّر به عن نفوسكم، لأنّ الدّم يُكفّر عن النّفس" (١٧: ١١)، وأيضًا: "لأنّ نفس كلّ جسدٍ هي دمُه في نفسه" (١٧: ١٤)، بينما يُشير الدّم المُراق إلى الموت. من هنا نَعي بأنّ دم المسيح يُمثّل حياة المسيح. إنّه [دم المسيح] يرمز إلى حياة يسوع البنويّة، وطاعته للآب السّماويّ، وتقدمته الذّاتيّة، ومحبّته الخلاصيّة لأخصّائه. وهكذا يتبيّن أنّ الدّم الخارج من جنب المصلوب بعد موته يُشير إلى أن يسوع قد قَبلَ، في الرّوح، هذا الموت من أجل خلاص العالم (راجع يوحنّا ٣: ١٤-١٧). إنّ هذا كلّه يعني أنّ حياة المسيح قد أصبحت منذ الآن حياة الكنيسة، إذ إنّ الكثيرين من آباء الكنيسة اللّاهوتيّين قد أشاروا إلى أنّ "الصّورة الأكثر حميميّة للكنيسة هي أن تكون جسد المسيح"[٦٥]. فالحياة الّتي تُعطى للمسيحيّين في الكنيسة هي حياة يسوع الّتي كُشِفت على خشبة الصّليب. هذا ما يؤكّده الإنجيليّ يوحنّا في رسالته الأولى، يقول: "فها هيَ ذي الشّهادة: أنّ اللّه أعطانا الحياة الأبديّة، وهذه الحياة هي في ابنه" (٥: ١١).

وهكذا نقول إنّ الدّم المُراق من جنب المصلوب ما هو إلاّ إشارةٌ إلى الموت الخلاصيّ ليسوع، وإلى القيمة التّكفيريّة لموته (راجع ١ يوحنّا ١: ٧)؛ فالدّم الخارج من جنب يسوع إذًا هو صورةٌ لموته الّذي قَبلَه من أجل خلاص البشريّة... إنّه رمزٌ للموت الاختياريّ والطّوعيّ ليسوع؛ والماء ما هو إلاّ رمزٌ للرّوح القدس

---

٦٤) Ignace de la Potterie, ***Studi di Cristologia Giovannea***, p.183.

٦٥) **Ibid**, p.189.

والحياة (راجع يوحنّا ٧: ٣٧-٣٩). وهكذا نقول إنّ الدّم الطّاهر يرمز إلى سرّ الإفخارستيّا المقدّس، والماء الحيّ يرمز إلى سرّ المعموديّة المقدّس.

٢. الرّمزيّة اللّيتورجيّة

إنّ من أهمّ التّفسيرات الكتابيّة ما يَرد في الصّلوات الطّقسيّة البيزنطيّة ذات الأساسات البيبليّة (الكتابيّة). إنّ آباء الكنيسة المُحلّقين في سماء اللّاهوت، قد صلّوا الكتاب المقدّس بمجمل أحداثه الخلاصيّة وتأمّلوا بتدبير الله الخلاصيّ وقاموا بربط مجريات هذا التّدبير الّذي يُعبّر عن تدخُّل الله في التّاريخ البشريّ في العهد القديم، بالتّدبير الّذي تحقّق وأنجز في العهد الجديد بشخص الكلمة الإلهيّ المتجسّد، يسوع المسيح، مقدّمين إيّاها للجماعة المسيحيّة، عُصارةَ فكرٍ لاهوتيٍّ وإرثٍ روحيّ، لكي تتمكّن الجماعة أيضًا من تثبيت دعائم إيمانها بالكلمة الحيّة من خلال قراءة الصّلوات اللّيتورجيّة كأساسٍ لفهمٍ أعمق للكتاب المقدّس. فلم يكتفِ الآباء بالتّعاليم والكتابات الإرشاديّة ولكن امتدّ تأثيرهم إلى الصّلوات التّعبديّة اللّيتورجيّة. فقد كان التّلامس الآبائيّ مع الحقّ والّذي أفرز لنا تلك النّصوص الرّائعة هو ما دعا الكنيسة لأخذ بعض تلك النّصوص لتصير لها صلاة. لذا من الضّروريّ أن نفرّق بين الصّلوات الخاصّة والصّلوات اللّيتورجيّة الّتي يجتمع عليها المؤمنون معًا. في صلواتنا الخاصّة نستخدم تعبيراتنا ونشكو آلامنا ونطلب حلولاً خاصّةً بنا ونتلمّس الله على قدر قامتنا وطاقتنا... وفي المقابل يتفاعل الله مع صلواتنا على خلفيّة معرفته الخاصّة بنا. ولكن تبقى تلك الصّلوات في دائرة الخصوصيّة لأنّها تُعبّر عن شخص مُفردٍ ولكنّها لا تُعبّر عن الجماعة.

على الجانب الآخر فإنّ الصّلاة اللّيتورجيّة هي الصّياغة الّتي هذّبها الرّوح لتنمية وعي كتابيٍّ خلاصيٍّ مُتكاملٍ لتصِر أساسًا صلبًا لأيّة صلاةٍ خاصّةٍ أو شخصيّةٍ فيما بعد. والخلط بين ما هو شخصيٌّ وما هو ليتورجيٌّ هو أحد الأخطار الّتي تواجه عبادتنا المسيحيّة. وعليه، لم تكن أقوال الآباء وسِيَرهم ورسائلهم وفكرهم يُمثّل تُراثًا ثمينًا يُوضَع في بطون الكُتُب أو يُحفَظ في خزائن المتاحف والجامعات ليكون مادّةً لدراساتٍ فلسفيّةٍ نظريّة، إنّما كان إنجيلاً عمليًّا حيًّا تخطُّه الأجيال بالرّوح القدس، شهادةً لديمومة عمل الله الخلاصيّ

المُستمر في كلّ جيل. هكذا اعتزّ الآباء بتراث السّابقين لهم لا بكونه أدبًا روحيًّا لأجيالٍ ماضيةٍ، وإنّما بكونه مُمثّلاً لحاضرٍ حيّ وحياةٍ واقعيّةٍ صادقةٍ عاملةٍ في الكنيسة.

بعد كلّ ما تقدّم من وصفٍ لعلاقة الآباء باللّيتورجيّة والّتي لا تخلو من أبعادٍ أساسيّةٍ كتابيّة، وعقائديّة، وتعبُّديّة، نورد هنا نصًّا ليتورجيًّا من صلاة سَحَر الإثنين لتقدمة عيد جسد الرّبّ، يُشكّل جسرًا كتابيًّا بين مفهوم الماءِ والمنّ في العهد القديم ومفهومهما في العهد الجديد، على ضوء الإيمان بشخص يسوع المسيح، الحمل الذّبيح:

"إنّ الصّخرة النّابع منها الماء قديمًا لشعب الله في البريّة (أنظر خروج ١٧: ٥-٦)، كانت رمزًا للمسيح، كما قال بولس الرّسول: إنّ الصّخرة كانت تتبعهم، والصّخرة كانت المسيح (أنظر ١ كورنثس ١٠: ٤). لأنّ الصّخرة الحقيقيّة أعني يسوع، لم يزَل يُفيض من جنبه، لا المضروب بالعصا بل المطعون بالحربة، دواءً حيًّا مقدّسًا محييًا، لريّ عطشنا المُذيب، ما دُمنا في تِيه هذا العمر. ومنذُ ما انشقّتِ السّماء وأمطرتِ الصّدّيق، أي المنَّ الحقيقيّ الحاويَ كلَّ طعمٍ لذيذٍ لأتقياء الرّبّ (أنظر خروج ١٦: ٤)، صار لنا مأكلاً يَقينا الجوع الرّوحيّ، ويُعيد فينا الإنسان العقليّ المتلاشِيَ بالخطيئة. فلا نَخشى جوعًا ولا عَطَشًا في تِيه هذه الحياة، بل نقهر الأبالسة، ونلِجُ أورشليمَ أرضَ الأحياء، لنستحقّ أن نقوم على جبل صهيون في ذُرى الأبكار، حيث ذلك الحمل الذّبيح، وحولَه الألوف من الأطهار المغتسلين بدم الخروف النّقيّ، مُسبّحين معهم تسبحةً جديدةً (أنظر رؤيا ٥: ٦-١٢؛ ٧: ١٤) لتقدمة العيد"[٦٦].

---

٦٦) المطران لطفي لحّام (البطريرك الحاليّ غريغوريوس الثّالث)، ***كتاب الصّلوات الطّقسيّة، المجلّد الثّالث***، ص. ١٢١٢.

لنضع رسمًا بيانيًّا لهذا النّصّ اللّيتورجيّ الجامع:

العهد القديم	العهد الجديد
صخرة حوريب المضروبة بالعصا	جنب المسيح المطعون بالحربة
الماء المادّيّ	الماء الحيّ
أروى العطش المادّيّ	أروى العطش الرّوحيّ
المنّ	الخبز الحيّ
سدّ الجوع المادّيّ	سدّ الجوع الرّوحيّ
الحمل الحَوليّ	الحمل الذّبيح يسوع المسيح

وعليه، وانطلاقًا من هذا الرّسم البيانيّ، نؤكّد أنّ سرّ الإفخارستيّا المُشار إليه في العهد القديم بهذه الصّور الكتابيّة، قد تحقّق في شخص يسوع المسيح في العهد الجديد، وهو، من خلال النّصّ اللّيتورجيّ المذكور، سرّ دخول الإنسان إلى الملكوت السّماويّ، واشتراكه في وليمة الحمل الإلهيّة (رؤيا ١٩: ٩).

الباب الرّابع

بولس الرّسول

١) **التّقليد الإفخارستيّ البولسيّ (١ كورنثس ١١: ٢٣-٢٦)**

"فإنّي تسلّمتُ من الرّبّ ما سلّمته إليكم، وهو أنّ الرّبّ يسوع في اللّيلة الّتي أُسلِم فيها أخذ خُبزًا وشكر، ثمّ كسره وقال: "هذا هو جسدي، إنّه من أجلكم. إصنعوا هذا لذكري". وصنع مثل ذلك على الكأس بعد العشاء وقال: "هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. كلّما شربتم فاعملوه لذكري". فإنّكم كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تُعلنون موت الرّبّ إلى أن يأتي".

١. **"فإنّي تسلّمتُ من الرّبّ"**

يعتبر الأوّل في التّعبير عن القربان، أوّلاً لأنّه رجع في أبحاثه وفي أفكاره وتعاليمه إلى التّقاليد الأولى الّتي تنبع من عمل يسوع بالذّات مع الرّسل في أورشليم. تعتبر رسالة القدّيس بولس الأولى إلى أهل كورنثس هي الكتابة الأقدم بالتّاريخ بين الكتابات الأخرى في العهد الجديد. فلقد حرّرها بولس ما بين سنتي ٥٦ و ٥٧ وبالتّالي هي قبل الأناجيل. ولكنّ القدّيس بولس لا يستند على كتاباته فقط بل يعود إلى يسوع بالذات ليدلّ سامعيه على أنّ مرجعيّته لا شائبة فيها، فهو يعود إلى النّبع الأوّل، أي يسوع. لذلك يقول: "فإنّي تسلّمتُ من الرّبّ ما سلّمته إليكم، وهو أنّ الرّبّ يسوع في اللّيلة الّتي أُسلِم فيها أخذ خُبزًا وشكر، ثمّ كسره وقال: "هذا هو جسدي، إنّه من أجلكم. إعملوا هذا لذكري". وصنع مثل ذلك على الكأس بعد العشاء وقال: "هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. كلّما شربتم فاعملوه لذكري" (١١: ٢٣-٢٥). ومن هنا يصل بولس إلى

الاستنتاج السّريع لفهم معنى هذا العشاء الإفخارستيّ، ومعناه الجوهريّ، هو أنّه يقول: "فإنّكم كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تُخبرون بموت الرّبّ إلى أن يأتي" (١ كورنثس ١١: ٢٦). إذًا، كلّ الظّروف الَّتي تدور حول هذا العشاء وكلّ المعاني الَّتي يحملها الخبز الذي يقدّمه يسوع كجسده والمعاني التي تحملها الخمر الَّتي قدّمها يسوع كأنّها دمُه من أجل العهد الجديد، كلُّ هذه المعطيات تلقي الأضواء على أنّ هدف هذه المائدة وهذا العشاء هو إعلان موت يسوع على أنّه سوف يعود بالمجد.

ويؤكّد بولس على أنّه "تسلّم من الرّبّ" ما يقوله لأهل كورنثس وهو يشدّد على الأمر كأنّه هو شاهد وهو تلقّى من الشّهود أنفسِهم لهذا الحدث وهم الرّسل الَّذين يؤكّدون بدورهم أنّ يسوع هو نبع القربان لأنّه هو صنعه بنفسه ليلة العشاء الشّهيرة. والقدّيس بولس يعود بالمرجع إلى الرسل مرّةً ثانيةً ليؤكد حدثًا أقوى وهوَ حَدَثُ قيامة يسوع، وذلكَ بنفس الرّسالة إلى أهل كورنثس، حيث يقول "سلّمت إليكم قبل كلّ شيءٍ ما تلقَّيتُهُ، وهو أنّ المسيح مات من أجل خطايانا كما جاء في الكتب، وأنّه دُفِنَ وقام في اليوم الثّالث كما جاء في الكتب" (١٥: ٣-٤). فموت يسوع وقيامته يشكّلان النّقطة الأساس والجوهريّة في الوحي المسيحيّ، وبالأخصّ القيامة الَّتي تؤكّد كلّ تعاليم يسوع. لذلك من المهمّ أن يلجأ القدّيس بولس إلى المرجعيَّة الأساسيَّة لتأكيد أكبر حقيقتين في الحياة المسيحيّة: حقيقة موت يسوع وقيامته، وحقيقة القربان الَّذي أسَّسه بشخصه. وهذه الحقائق كلّها تدخل في صلب عمليَّة خلاص البشريّة. لذلك يشدّد أنّه تسلّم حقيقة القربان مباشرةً من الرّبّ بالاستناد إلى أعمال يسوع وأقواله وهذا ما يثبّت كلّ احتفالٍ قربانيٍّ نحتفل به، لأنّ التّقليد له دوره ولكن في العمل القربانيّ ليس التّقليد وحده ما يؤكّد العمل، بل تدخّل يسوع بالذّات، فهو المرجعيّة الأولى للقربان.

٢. "إصنعوا هذا لذكري"

إنّ فهم معنى هذا النّصّ الإفخارستيّ سوف يضيف إلى ذخيرتنا الإيمانيّة والتّقويّة آفاقًا جديدة، وسوف يجعل الإفخارستيّا بليتورجيّتها عملاً أو فعلاً محقّقًا لأمر المسيح: "إصنعوا هذا" تسليمًا شخصيًّا من الرّبّ يسوع نفسه، كقول القدّيس

بولس الرّسول: "لقد تسلّمتُ من الرّبّ ما قد سلّمته إليكم". يطلب يسوع من الرّسل أن يصنعوا هذه الذّبيحة غير الدّمويّة حتى يتذكّروا شخصه الّذي يجمع بين الإنسان والإله والّذي يتخطّى كلّ الزّمان: "الحقّ الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يوحنا ٨: ٥٨). وبهذا "التّذكار" يعلن للرّسل وللجميع أنّه هو في وسط العمليّة الخلاصيّة التي دبّرها الله للبشريّة كلّها. فهو حاضرٌ منذ الأزل، من قبل إنشاء العالم، وهو لا يزال حاضرًا حتّى بعد قيامته وصعوده، وعمله هو هو نفسه في عمليّة الخلاص هذه. فكما كان العشاء الفصحيّ السّنويّ عند اليهود حتّى يتذكّروا الخروج من مصر، أراد يسوع أن يكون هناك أيضًا العشاء السّرّيّ الّذي يعيش فيه المؤمنون وتعيش فيه الكنيسة التّجدُّد المتواصل لعطيّة يسوع الخلاصيّة. والضّمانة لهذا العشاء الّذي يحمل طابعًا مميّزًا هو يسوع نفسه لأنّه إلهٌ وإنسانٌ وهو الّذي أمرَ وهو الّذي يحضر في كلّ عمليّة عشاءٍ تذكاريٍّ له. من هنا نلاحظ تلاقي حقيقتين: حقيقة التّذكار وحقيقة حضور يسوع الواقعي معنا. "فوصيّة الرّبّ: "إصنعوا هذا لذكري" تجعل من الإفخارستيّا – بعد كونها شركةً في جسد ودم المسيح – رباط حبٍّ مقدّس وعهدَ أمانةٍ شديد الصّلة جدًّا بالرّبّ، كميراثٍ روحانيٍّ غالي الثّمن نعود إليه كلّ يوم، ككنز، ننال بواسطته دخولاً إلى الله الآب، ونتراءى أمامه في ذبيحة المسيح وباسمه، فنجد رحمةً، وخلاصًا، وتطهيرًا، ونعمة، ونصبح وكأنّنا على مائدة عشاء الرّبّ وسط التّلاميذ نأكل ونشرب سرّ موته وقيامته"[٦٧].

تجد كلمات الآية البولسيّة هذه جذورًا لها في كتابات العهد القديم، وبخاصّةٍ ما ورد في سفر الخروج عن الفصح. فالرّبّ يأمر موسى وبني إسرائيل بالاحتفال بالفصح كتذكارٍ لخروجهم من مصر وتحريرهم من عبوديّتها، يقول: "ويكون هذا اليوم لكم ذكرى، فتُعيّدونه، عيدًا للرّبّ تُعيّدونه مدى أجيالكم فريضةً أبديّة" (خروج ١٢: ١٤). فالرّبّ يسوع قدّم جسده ليؤكل كفصح حقيقيّ، ودمَه ليُشرب لعهدِ خلاص أبديٍّ لن يتوقّف تذكاره إلى الأبد. من هنا يتّضح أنّ الذّكرى الّتي تحدّث عنها القدّيس بولس هي "ذِكر" فصح المسيح الحيّ والقائم مذبوحًا دائمًا أمام الله، الّذي فيه نتلاقى معه كلّما أكلنا

---

٦٧) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٢٢١.

من جسده ونتلاقى معه على عهد أمانةٍ كلّما شَربنا من دمه الثّمين؛ نتلاقى معه في موتٍ وفي قيامةٍ، وفي خلاصٍ مجدّدٍ ومستمرّ، أكمله بالدّم على الصّليب مرّةً واحدة، ودخل به إلى الآب فوجد لنا فداءً وخلاصًا أبديًّا[٦٨]؛ فالمسيح الرّبّ وقد جاء مذبوحًا على مائدة المحبّة اليهوديّة جاعلاً من خبز وخمر الوليمة العتيقة فصحًا مسيحيًّا جديدًا، صار خبزُها بالضّرورة شهادةً دائمةً على موت الرّبّ، وكأسُها خبرًا مجسّمًا حيًّا للصّليب الّذي سال فيه الدّم الفصحيّ للعهد الجديد.

٣. "إلى أن يأتي"

إنّ بولس الرّسول في كلماته هذه يُعطينا في الإفخارستيّا "الرّجاء المنظور والمحسوس لمجيء الرّبّ الّذي تنتظره كلّ الأجيال حتّى الّتي عَبَرَت أيضًا، ذلك أنّ كلّ عينٍ في السّماء وعلى الأرض تتطلّع لمجيئه، ولكن لنا في الإفخارستيّا صلةٌ حيّةٌ بهذا المجيء وربطٌ محسوسٌ وثيقٌ يربطنا بذلك اليوم السّعيد الآتي حتمًا، وعهدٌ متّفَقٌ عليه ومختومٌ بختمِ دمٍ إلهيٍّ بروح أزليٍّ نغمس فيه إصبع إيماننا القلبيّ مع شفاهنا كلّ يومٍ إلى أن يجيء. فالإفخارستيّا لا تُشكّل فقط عهدًا جديدًا بل وعهدًا متجدّدًا أيضًا إلى أن يأتي. نعم آمين تعال دائمًا أيُّها الرّبّ يسوع!"[٦٩].

ولقد أشارت الأناجيل أيضًا إلى انتظار اكتمال ملكوت الله، الملكوت الّذي بدأه وأعلنه الرّبّ يسوع وهو على الأرض. وفي العشاء الّذي أقامه المسيح لتلاميذه عشيّة يوم صلبه، قال لهم: "لن أشرب بعد الآن من عصير الكرمة، حتّى ذلك اليوم الّذي فيه أشربه جديدًا في ملكوت الله" (مرقس ١٤: ٢٥). إنّ الإفخارستيّا تجمع معًا وبقوّةٍ مجيء يسوع الأوّل ومجيئه الثّاني، مجيئه الأوّل المتّضع الّذي أكمله سابقًا بالتّجسّد والصّليب، مع مجيئه الثّاني في مجده، ذلك أنّ المسيح الّذي أتى والمقدّم الآن جسده ودمه في الإفخارستيّا، هو نفسه الّذي سيأتي في التّاريخ ليُنهيَ التّاريخ والزّمن، لذلك فحينما نأكله بطريقةٍ أسراريّةٍ في الإفخارستيّا، نكون في حالة استحقاقٍ لملاقاته عند مجيئه الّذي سيكمله في التّاريخ. وكأنّ المؤمنين بتناولهم من جسد الرّبّ ودمه، تشتعل فيهم نار الاشتياق

---

٦٨) **المرجع نفسه**، ص. ٢٢٥.

٦٩) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٣٨٧.

والرّجاء والانتظار للمجيء الثّاني للمسيح، لأنّ الإفخارستيّا، على حدّ تعبير البابا يوحنّا بولس الثّاني، هي:

"توقٌ نحو النّهاية، إستشعارٌ بملء الفرح الّذي وعد به المسيح. هي نوعًا ما استباقٌ للفردوس "عربون المجيء الثّاني": مَن يتغذّى في الإفخارستيّا لا حاجة له بأن ينتظر الآخرة كي يسعد بالحياة الأبديّة، إنّه يملكها منذ الآن على الأرض. فيها نحصل على ضمانة القيامة: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي، فله الحياة الأبديّة، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير"[٧٠] (يوحنّا ٦: ٥٤).

٢) مفهوم "دم المسيح" في الرّسائل البولسيّة

بالكاد ذَكَر القدّيس بولس الرّسول في رسائله تعبير "دم" عشر مرّاتٍ بمعانٍ مختلفةٍ وأبعادٍ لاهوتيّةٍ متنوّعة. إلاّ أنّ هناك بُعدًا جديرًا بتسليط الأضواء عليه، هو **البُعد الكريستولوجيّ** (المسيحانيّ) **لدم المسيح**[٧١]، الّذي يستعمله القدّيس بولس في ثماني نصوص مختلفةٍ من رسائله (رومة ٣: ٢٥؛ ٥: ٩؛ ١ كورنثس ١٠: ١٦؛ ١١: ٢٥، ٢٧؛ أفسس ١: ٧؛ ٢: ١٣؛ كولسّي ١: ٢٠). تُقسَم هذه النّصوص الثّمانية إلى أربعة مواضيع رئيسيّة، تأتي على الشّكل التّالي:

١. **الإفخارستيّا** (١ كورنثس ١٠: ١٦؛ ١١: ٢٥، ٢٧)؛

نلاحظ بيّنًا أنّ نصّ ١ كورنثس ١١: ٢٥، ٢٧ يُشير مرّتَين إلى دم المسيح في السّياق التّقليديّ. إنّ الإشارة إلى "التّقليد" (١ كورنثس ١١: ٢٣) يقول بوضوح إنّ بولس ببساطةٍ ينقل مادّةً تنتمي بالفعل إلى تقليد الكنيسة الأولى. إنّ هذه الآيات تجد، في الحقيقة، توازيًا بليغًا لها في الأناجيل الإزائيّة الثّلاثة (متّى ٢٦: ٢٦-٢٧؛ مرقس ١٤: ٢٢-٢٣؛ لوقا ٢٢: ١٩-٢٠)، وعلى الرّغم من هذا التّوازي، إلاّ أنّ النّصّ اللّوقانيّ يبقى الأقرب إلى النّصّ البولسيّ[٧٢]. يُظهر القدّيس بولس في هذه الآيات اهتمامًا بالغًا بالبُعد الحقيقيّ لسرّ الإفخارستيّا والكائن في الحضور

---

٧٠) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ١٨.

٧١) Romano Penna, ***Paul the Apostle***, p.25.

٧٢) **Ibid**, p.29.

الشّخصيّ للرّبّ أثناء الاحتفال اللّيتورجيّ. وهو، في الوقت عينه، يُبيِّن أنّ الشّرب من الكأس يعني التّواصل الّذي ما هو إلاّ شركةٌ في دم المسيح (راجع ١ كورنثس ١٠: ١٦). ووَفقًا لِما تقدّم نقول إنّ "دم المسيح" في هذه النّقطة يدخل في التّفسير الخلاصيّ لموت يسوع كتضحيةٍ تكفيريّة.

٢. التّبرير والفداء (رومة ٣: ٢٥؛ ٥: ٩؛ أفسس ١: ٧)

يركّز القدّيس بولس في هذه الآيات على الشّخصانيّة من خلال الضّمير الشّخصيّ المتّصل بتعبير "دمه" في إشارةٍ إلى دم المسيح الشّخصيّ.

نقرأ في رومة: "ولكنّهم بُرِّروا مجّانًا بنعمته، بحكم الفداء الّذي تمّ في المسيح يسوع، ذاك الّذي جعله الله كفّارةً في دمه بالإيمان ليُظهر برَّه، بإغضائه عن الخطايا الماضية في حِلمه تعالى" (٣: ٢٤-٢٥). إنّ لَفي هذه الآيات إشارةً محدَّدةً إلى البُعد التّكفيريّ لذبيحة المسيح. هذا ما يجعلنا نرجع إلى كتابات الشّريعة في العهد القديم وبخاصّةٍ إلى سفرَي الخروج والأحبار، لنطّلع على الطّقوس المحلّيّة الخاصّة في هيكل أورشليم الأوّل.

نقرأ في سفر الخروج: "واصنع كفّارةً من ذهبٍ خالص..." (٢٥: ١٧)؛ وفي سفر الأحبار نقرأ: "ثمّ يَذبح تَيس ذبيحة الخطيئة الّتي على الشّعب، ويدخل بدمه إلى داخل الحِجاب، ويصنع به كما صنع بدم العِجل: يَرُشُّه على الكَفّارة وأمامها. ويُكفِّر على القُدس نجاساتِ بني إسرائيل ومعاصيهم وجميع خطاياهم" (١٦: ١٥-١٦). يقودنا هذان النّصّان إلى نصَّين آخرَين يصفان استشهاد أليعازر والإخوة السّبعة في سفر المكابيّين الرّابع: "إجعل دمي تنقيّةً (تطهيرًا) لهم، وخُذْ حياتي كفديةٍ لهم" (٦: ٢٩)، وأيضًا في السِّفر ذاته: "لقد أصبحوا فديةً عن خطيئة الأمّة. ومن خلال دماء هؤلاء الأتقياء وموتهم التّكفيريّ، أنقذتِ العناية الإلهيّة إسرائيل الّذي كان يُعاني" (١٧: ٢١-٢٢).

لقد عرفتِ اليهوديّة الهلّينيّة الطّابع التّكفيريّ لموت الشّهداء، وقبلَتْه، ووصفَتْه باستخدام مصطلحاتٍ خاصّةٍ بلغة الذّبائح: الطّهارة، والكفّارة، والدّم. إلاّ أنّها احتفلت به في سياقٍ غير طقسيّ[٧٣]. هذا بالضّبط هو الحال مع يسوع،

---

٧٣) **Ibid**, p.32.

"الشّاهد الأمين الصّادق" (رؤيا ٣: ١٤). فقد ركّز القدّيس بولس، في سياق تعليقه على تضحيّة المسيح، على إبراز طابع **المحبّة** الّتي أعطاها يسوع بعمله هذا نفحةً إلهيّةً وجوهرةً حياتيّةً للمسيحيّين، بحيث تَطبع سلوكهم ومسلكيّتهم بختمٍ إلهيٍّ مقدّس: "فما أنا [بولس] أحيا بعد ذلك، بل المسيح يَحيا فيّ. وإذا كنتُ أحيا الآن حياةً بشريّة، فإنّي أحياها في الإيمان بابن الله الّذي أحبّني وجاد بنفسه من أجلي" (غلاطية ٢: ٢٠؛ راجع أيضًا رومة ٥: ٨؛ ٨: ٣٥، ٣٩؛ أفسس ٢: ٤؛ ٥: ٢، ٢٥). وهكذا، **فإنّ يسوع يَعلو فوق أيّ سياقٍ طقسيّ، لأنّه أتمّ في ذاته التّضحية الشّخصيّة والطّوعيّة** (الحُرّة). فلقد أكمل الله، في شخص المسيح يسوع، الكفّارة، وهي: إزالة كلّ نجاسةٍ كامنةٍ في البشر المحرومين من "مجد الله" (رومة ٣: ٢٣). هذا ما يجعلنا نؤكّد أنّ التّضحية المادّيّة أو الدّمويّة لا تستطيع أن تجلب للإنسان التّبرير أو الخليقة الجديدة، على حدّ تعبير القدّيس بولس: "فإذا كان أحدٌ في المسيح، فإنّه خلقٌ جديد. قد زالت الأشياء القديمة وها قد جاءت أشياءُ جديدة" (٢ كورنثس ٥: ١٧)، **بل ذبيحة تقديم الذّات في المحبّة والطّاعة باقتناع كامل** (الإيمان). هذا ما يؤكّده القدّيس بولس في رسالته إلى أهل رومة، قائلاً: "ولمّا كنّا لا نزال ضُعفاء، مات المسيح في الوقت المحدّد من أجل قومٍ كافرين، ولا يكاد يموت أحدٌ من أجل امرئٍ بارّ، وربّما جَرُؤَ أحدٌ أن يموت من أجل امرئٍ صالح. أمّا الله فقد دلّ على محبّته لنا بأنّ المسيح قد مات من أجلنا إذ كنّا خاطئين" (٥: ٦-٨). "يُعبّر بولس عادةً عن معنى صليب المسيح، بذكر دمه الفادي. فيسوع، المخضّب بدمه، يقوم من الآن فصاعدًا، بالنّسبة إلى كلّ البشر، بالدّور الّذي كان يقوم به فيما مضى الغشاء (غطاء التّابوت)، في رتبة الكفّارة: إنّه موضع الحضور الإلهيّ، كما أنّه يُحقّق غفران الخطايا، لأنّ لدمه قوّةً خلاصيّة"[٧٤].

٣. المصالحة الكونيّة (كولسّي ١: ٢٠)

يُبيّن القدّيس بولس في نصّه الرّسائليّ هذا الرّابط الوثيق بين دم المسيح وتأسيس السّلام الكونيّ. إنّ هذه الآية الكولسيّة تُظهر المسيح كمبدإ لتوحيد كلّ شيءٍ تحت سيادته الإلهيّة من منظورٍ كونيّ. وبالتّالي، يَظهر

---

٧٤) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٣٤٣.

المسيح على أنّه الضّابط الكلّ، سواءً من حيث طبيعته الإلهيّة الّتي تضعه فوق "كلّ الأشياء المنظورة وغير المنظورة (كولسّي ١: ١٥-١٨أ)، وكذلك أيضًا من حيث قيامته من بين الأموات، الّتي منحَتْه حقّ الأولويّة على الأشياء كلّها (كولسّي ١: ١٨ب-٢٠). تُشير هذه الآية الكولسيّة أيضًا إلى أنّ سيادة المسيح على الكون لم تؤسَّس من دون دراما تاريخيّة محدَّدةٍ هي الصّليب، الّذي عبَّر عنه القدّيس بولس، بصورةٍ حقيقيّة، بواسطة دم المسيح المهراق على خشبة الصّليب من أجل البشريّة جمعاء.

إنّ التّناغم القائم بين الفعلَين "يصالح" و "يصنع السّلام" يجعلهما يُشيران إلى مفاهيم الوَحدة، والصّداقة، والانسجام، والهدوء، والنّظام، والازدهار، والخصوبة، والوفرة من جميع الخيرات[٧٥]. إنّ المفاهيم المذكورة، تعني، في اللّغة الكتابيّة "الخلق الجديد"، الّذي وصفه كلٌّ من النّبيّ أشعيا في العهد القديم: "لأنّي هكذا أخلق سمواتٍ جديدةً وأرضًا جديدة..." (٦٥: ١٧-٢٥؛ راجع أيضًا ١١: ١-٩)، والإنجيليّ يوحنّا في سفر الرّؤيا في العهد الجديد: "ورأيتُ سماءً جديدةً وأرضًا جديدة... ورأيتُ المدينة المقدّسة، أورشليم الجديدة، نازلةً من السّماء من عند الله... وقال الجالس على العرش: هاءنذا أجعل كلّ شيءٍ جديدًا" (٢١: ١-٥).

٤. وَحدة الكنيسة (أفسس ٢: ١٣)

تكشف لنا هذه الآية الأفسسيّة بُعدًا جديدًا للثّمار المتعدّدة لدم المسيح هو وَحدة الكنيسة. إنّ الحالة السّابقة الّتي كان يعيشها المجتمع قبل المسيح تُشير إلى حالة انقسامٍ عظيمٍ بين اليهود والأمم. يأتي النّصّ الأفسسيّ الحاليّ ليقترح، في الواقع وبوضوح، أنّ مَن يريد أن يصير مسيحيًّا، عليه أن ينضمّ إلى شعب إسرائيل، إذ إنّ الكنيسة هي الوريث المباشر له (أنظر أفسس ٢: ١١-١٢)، ذلك أنّ الجماعة المسيحيّة هي النّتيجة الوحيدة لانضمام هاتَين العائلتَين. وبالتّالي، فإنّ الرّسالة إلى الأفسسيّين هي الرّسالة الوحيدة في العهد الجديد الّتي تُعالج بصراحةٍ موضوع وَحدة اليهود والأمم المنضمّين إلى المسيح[٧٦]. تُشير الآية

---

٧٥) Romano Penna, ***Paul the Apostle***, p.37.

٧٦) **Ibid**, p.38.

الأفسسيّة الّتي نحن في صدد دراستها إلى أنّ هذه الوَحدة في المسيح لا تتمّ ولا تتحقّق إلاّ في "دم المسيح".

نلاحظ فورًا أنّ تأسيس السّلام والوَحدة الّذي أنجزه المسيح موصوفٌ على أنّه خلق: "... ليَخلق في شخصه من هاتَين الجماعتَين، بعدما أحلّ السّلام بينهما، إنسانًا جديدًا واحدًا" (أفسس ٢: ١٥). إنّ هذا الموضوع هو بالفعل حاضرٌ في كتابات العهد القديم، في إشارةٍ إلى الله، الّذي "خلق" إسرائيل ليكون شعبه الخاصّ (راجع تثنية ٣٢: ٦؛ أشعيا ٤٣: ١، ١٥؛ ملاخي ٢: ١٠)؛ بينما آية أفسس ٢: ١٥ هي الحالة الوحيدة في كتابات العهد الجديد كلّها يَرجع فيها الخلق الجديد لخاصّته إلى المسيح في شخصه الخاصّ، حيث إنّه لم يَعُدْ يظهر كمجرّد وسيطٍ للخلق الكونيّ الأوّل (راجع يوحنّا ١: ٣؛ ١ كورنثس ٨: ٦؛ كولسّي ١: ١٦؛ عبرانيّين ١: ٢). إنّه [المسيح] كعاملٍ في نفسه، قد جَلَبَ إلى حيّز الوجود حقيقةً جديدةً ذات طابع اشتراكيٍّ ومسكونيّ، وهي الكنيسة المؤلّفة من يهودٍ وأُمم، جُعلوا إخوةً وأخواتٍ، راسخين معًا "بدمه".

تجد الآية الأفسسيّة الحالية (٢: ١٣) اكتمال معناها وتجسُّدَه في أربعة تكراراتٍ لافتةٍ للانتباه (١٤-١٥أ، ١٥ب، ١٦-١٧، ١٨) تُركّز على موضوعَين أساسيَّين هما: "الثّنائيّة" "الشّعبَين"، "الاثنَين"، "كلَيهما"، "كِلَينا"؛ و "الوَحدويّة": "واحدًا"، إنسانًا واحدًا"، "جسدٍ واحد"، "بروحٍ واحد". فلقد انطلق القدّيس بولس في هذا النّصّ الرّسائليّ من مفهوم الثّنائيّة، أي اليهود والأمم، ليصل إلى مفهوم الوَحدويّة، أي وَحدة الشّعبَين، الّتي لن تتحقّق فعلاً إلاّ في شخص المسيح يسوع من خلال الكنيسة جسده السّرّيّ: "جسده"، "في نفسه"، "بالصّليب"، "به". وبالتّالي، فإنّنا بالعودة إلى الآية الأفسسيّة الثّالثة عشرة نؤكّد أنّ دم المسيح هو قاعدة الاتّحاد المتبادَل الذّهبيّة بين اليهود والأمم: إنّه رمز اتّحاد الكنيسة الحقيقيّ، والّذي يجعل من المؤمنين بالمسيح جسدًا واحدًا. ففي موت المسيح خرجت الكنيسة إلى حيّز الوجود، وهذا دليلٌ على أنّ لاهوت الصّليب يشرح وَحدة الكنيسة ويطلبها (راجع ١ كورنثس ١-٤)[٧٧].

---

٧٧) **Ibid**, p.40.

- **خلاصة**

وهكذا نرى في مادة الإفخارستيّا، أي الخبز والخمر، إشارةً عَبْر ملكيصادق، إلى أزليّة المسيح وذبيحته؛ ونرى في توقيت الإفخارستيّا، ليلة الفصح، إشارةً عَبْر خروف الفصح، إلى ذبيحة نفسه، وإلى العهد الجديد بدمه، وإلى الخلاص الشّامل العتيد الّذي سيكمّله بموته؛ ونرى في اختيار تأسيس سرّ الإفخارستيّا ليكون من داخل وليمة المسيّا، إشارةً إلى اكتمال الزّمان وتحقيق النّبوءات.

إذًا، فالإفخارستيّا هي التّحقيق النّهائيّ لوليمة المسيّا النّبويّة، والاستعلان الشّامل لكلّ أسرارها. وإنّه وإن كانت الإفخارستيّا قد جاءت في شكلها وترتيبها حسب الطّقس اليهوديّ المتواتر، إلاّ أنّها جاءت في كلماتها وفي جوهرها وسرّها ومعناها ونتائجها مختلفةً تمامًا عن كلّ ولائم المسيّا الّتي صنعها اليهود.

الفصل الثّالث

الإفخارستيّا

في لاهوت الكنيسة المقدّسة

الباب الأوّل

الإفخارستيّا حياة الكنيسة

سنقوم في هذا البحث بدراسة تحليليّة لِما جاء في الرّسالة البابويّة الّتي أصدرها البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني "الإفخارستيّا حياة الكنيسة" في العام ٢٠٠٣. وسنعتمدها كدراسة لاهوتيّة وكنسيّة لهذا السّرّ العظيم.

١) الرّوحانيّة القربانيّة

منذ عشرين قرنًا والمسيحيّون، من كلّ صوبٍ ومدى، يحتفلون، على تنوّع طقوسهم وعاداتهم، بما ائتمن يسوع رسله عليه في عشائه الأخير معهم، ألا وهوَ الأمر الّذي أصدره أن "اصنعوا هذا لذكري". فباحتفالهم بهذا العمل الطّقسيّ، يعتقد المسيحيون، وبكلّ قواهم، أنّهم يلتزمون بملء إيمانهم. منذ عشرين قرنًا والمسيحيّون يحتفلون ولا يزالون، بالإفخارستيّا، ويفتشون على فهم معناها بدون أن يصلوا إلى القمّة بعد. فعطيّة يسوع لها غناها الّذي يصل إلى درجة عدم التّمكّن من احتوائه كلّه وتحصيل محتواه وتفريغه. وليس هناك حتّى تسميّة واحدة قادرة أن تستوعب كلّ المعنى. فالإفخارستيّا بمضمونها هي أكثر من وليمة، أو تذكار، أو ذبيحة أو قدّاس. يسوع نفسه لم يُعطِ هذا العمل اسمًا. لا بل عبّر عنه بمجموعة حركاتٍ أتبعها بكلمات. وكانت حركاته بسيطة جدًّا لدرجة أن تلميذي عماوس عرفاه عندها أي "عند كسر الخبز". ويسوع نفسه أيضًا، تبنّى هذه العلامة، فجعل منها رمزًا لحضوره وتضحيته حيث قال: "أنا الخبز الحيّ الّذي نَزَلَ من السّماء؛ مَن يأكل من هذا الخبز يَحيَ للأبد" (يوحنّا ٦: ٥١).

لقد أعلن قداسة البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني عن رغبة قويّة في أن تكون السّنة اليوبيليّة، سنة٢٠٠٠، سنة "إفخارستيا مكثّفة"، ولقد عقد مؤتمرًا

قربانيًّا عالميًّا في قلب هذه السّنة، أي تمامًا في وسطها ما بين ١٨ و ٢٥ حزيران تحت عنوان "يسوع المسيح مخلّص العالم الوحيد، خبز الحياة الجديدة". أراد قداسته أن يُظهر للملأ قدسيّة "السّرّ الإفخارستيّ" وفعاليّته في تقديس النّفوس المؤمنة. فالعالم في عصرنا اليوم، يحتاج أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أن يعرف أنّ يسوع هو مخلّصه الوحيد. العالم الجائع اليوم يحتاج أكثر من أيّ وقتٍ مضى أن يعرف أنّ الخبز الوحيد القادر على سدّ جوعه وإشباعه، هو الخبز الحيّ النّازل من السّماء والّذي يعطي حياةً جديدة.

كلّ احتفالٍ بالإفخارستيّا يوحي إلى فجر قيامةٍ جديدة، ويعلن عن القبر المفتوح والفارغ الّذي صار مهد الإنسانيّة الجديدة. الإفخارستيّا هي خبزٌ يؤدّي إلى جوع، بمعنًى آخر إنّه خبزٌ يشبع، وبالوقت نفسه يخلق جوعًا إلى اللّه، فهو يُعطي طعمة حياةٍ جديدةٍ وهي حياةُ اللّه فينا، أي "حياة روحيّة"، كلّما شبعنا منها، عدنا إلى الجوع لها لأنّها لذيذةٌ ومُحيية. كتبَ الفيلسوف الفرنسي غبريال مارسيل: "أن تحبّ أحدًا، هذا يعني أن تقول له: "أنتَ لن تموتَ أبدًا". وعندما أسّس يسوع لنا سرّ القربان كان يقول لكلّ واحدٍ منّا: "كن فرحًا، إسعَد في قلب الإفخارستيّا، فأنتَ لن تموتَ أبدًا، لا بل أكثر من هذا كلّه، سينفتح أمامك عالمٌ جديد، إنّه ملكوت السّماوات، وهو قريب، إنّه هنا".

٢) الإفخارستيّا وسرّ التّجسّد

للتّواصل بين سرّ الإفخارستيّا وسرّ التّجسّد وللتّسلسل بينهما معنًى كبير. إنّهما العلاقة الفعّالة لحضور المسيح الحيّ والفاعل في قلب كنيسته ووسطها. فالقربان يتابع التّجسّد، يكمّله أي يتواصل معه. في رسالته "سرّ التّجسّد"، الّتي بها أطلق سنة اليوبيل الكبير، يقول البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني:

> "منذ ألفي سنة والكنيسة هي المهد والمذود حيث وضعت مريم يسوع وقدّمته للعبادة والتّأمُّل لكلّ الشعوب. من تواضع العروس يسطع أكثر فأكثر مجد القربان وقوته، به تحتفل الكنيسة وتحفظه في قلبها. ففي علامتي الخبز والخمر المكرّستين، يسوع المسيح القائم من الموت والممجّد، نور العالم (لوقا ٢: ٣٢) يوحي بتسلسل تجسّده ومتابعته. يبقى

حيًّا وحقيقةً بيننا، في وسطنا لكي يُطعِم المؤمنين بواسطة جسده ودمه"[٧٨].

٣) الطّابع القربانيّ لعيشنا

إذا دخلنا في ذهنيّة "الرّوحانيّة القربانيّة" أي دخول القربان بمعانيه ومفاعيله الحيويّة في حياتنا الرّوحيّة الشّخصيّة، فإنّنا نجده مرتبطًا بالفضائل الإلهيّة الثّلاث، أي الإيمان والرّجاء والمحبّة، ارتباطًا يدفعنا إلى العيش.

١. إرتباطه بالإيمان

الإيمان بالإفخارستيّا ليس إيمانًا عابرًا من الدّرجة الثّانية، بل هو من الدّرجة الأولى وهو أساسيٌّ بالنّسبة إلى الوحي المسيحيّ لأنّه يفترض الإيمان بالتجسّد الخلاصيّ والإيمان بالكنيسة. ويسوع بنفسه وضع نقطة الأهميّة على هذا الموضوع عندما أعلن للمرّة الأولى عن الإفخارستيّا وذلك في حادثة تكثير الأرغفة الخمسة والسّمكتين. ومن بعدها أعلن أنّه لم يأتِ إلى العالم ليملأه بالخبز الماديّ، إنّما جاء بحقٍّ بين النّاس مثل الخبز النّازل من السّماء (يوحنّا ٦: ٤٣-٥٣) وهو يحمل هذا الخبز للنّاس. وأثناء حديثه الطّويل مع اليهود في مجلس كفرناحوم شدّد على نيّته في أن يُعطي جسده مأكلاً ودمه مشربًا، لكنّه اصطدم برفض النّاس الّذين سمعوه وقالوا "من يطيق سماع هذا الكلام". ويسوع نظر عند ذلك إلى تلاميذه وسألهم إذا ما كانوا هم أيضًا يرفضون هذا الكلام وكأنّه يطلب منهم القبول بالإيمان عَرْضَهُ هذا، وكان مستعدًّا أن يرسلهم بعيدًا عنه إذا ما هم أيضًا لم يؤمنوا بالإفخارستيّا الّتي أعلنها مباشرة. من هنا نفهم أنّه من المستحيل اتّباع يسوع بدون الإيمان بالقربان. وهذا ما جاء وأكّده في جواب بطرس "إلى مَن نذهب وعندكَ كلام الحياة الأبديّة، نحن آمنّا وعرفنا أنّك قدّوس الله" (يوحنّا ٦: ٦٨-٦٩).

إذًا، **الإيمان المسيحي هو إيمانٌ قربانيّ**. وهكذا الرّسل حصلوا في العشاء السّرّيّ على هذا الخبز وهذا الدّم جسدًا ودمًا جديدَين. وفي كلّ قدّاس، عندما يرفع الكاهن الخبز والخمر، يوجّه لنا يسوع الدّعوة نفسها أي أن نؤمن به،

---

٧٨) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***سرّ التّجسّد***، عدد ١١.

بوجوده في هذا الخبز والخمر الَّتي تحوّلت إلى جسده ودمه الخلاصيَّين. فالإيمان هنا ينفصل عن الوقائع الملموسة حتى يتعلّق الإنسان مباشرةً وبشكلٍ مترفّع بشخص يسوع. وهذا ما قاله يسوع جوابًا على شكّ توما بعد القيامة: "طوبى للَّذين آمنوا ولم يروا" (يوحنّا ٢٠: ٢٩). وهذا الإيمان يؤدّي إلى الفرح، فرح الوصول إلى الحقّ بدون لمس الوقائع. هذا هو سرّ الإيمان.

٢. إرتباطه بالمحبّة

كما أنّ القربان مرتبطٌ بالإيمان كذلك نعيشه بالمحبّة. ونحن نعلم أنّ المحبّة هي الَّتي تحرّك الإيمان وتدفعه. ونعلم أيضًا أنّ يسوع حين تكلّم مع النّاس في حياته العلنيّة عن الإيمان حدّثهم أيضًا عن أولى الوصايا ومختصر الشّريعة كلّها وهي المحبّة: "أحبب الرّبّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ ذهنك. تلك هي الوصيّة الكبرى والأولى. والثّانية مِثلُها: أحبب قريبك حبَّك لنفسك. بهاتين الوصيّتين ترتبط الشّريعة كلّها والأنبياء" (متّى ٢٢: ٣٧-٤٠؛ راجع أيضًا مرقس ١٢: ٣٠-٣١؛ تثنية ٦: ٥). وبالقربان نجد هذه المحبّة متجسّدة، إذ يقدّم يسوع نفسه في هذا الخبز وهو يطلب أن نقبله بكلّ حبّ، ليس فقط طعامًا جسديًا، بل هو غذاءٌ روحيٌّ نتقبّله بكلّ حبّ، نحبّه بكلّ قلبنا ونفسنا وروحنا وبكلّ قوتنا. فيسوع يحبّنا ويأتي إلينا ونحن نحبّه ونقبله عندنا وفينا. ويسوع عندما علّم عن مختصر الشريعة ربط حبّ الله بحبّ القريب وأعطانا مثل السّامريّ الصّالح ليقول لنا إنّنا مدعوّون أن نكون أقرباء من الكلّ.

أمّا في العشاء السّرّيّ فلقد أعطى وصيّة المحبّة: "أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم" (يوحنّا ١٣: ٣٤)، وكذلك ربط هذه المحبّة بالتّواضع والخدمة حين غسل أرجلهم. فالقربان إذًا يُعطي للإنسان قوّة يسوع، ليس فقط لكي يتخطّى الصّعوبات ويتلافى آفات الكبرياء والأنانيّة الّتي تؤكّد الخصومات والانشقاقات بين النّاس، إنّما القربان يدفع بحبّ الإنسان الّذي اكتسبه من يسوع إلى العطاء الكامل حتّى تقدمة الذّات ذبيحة مثل يسوع الّذي قدّم ذاته، إنّها الدّرجة العليا من الحبّ. فالقربان يزرع فينا يسوع بكلّ حبّه ويجعلنا قادرين على المواجهة والجهاد للحفاظ على مسيرتنا البنويّة لله وتخطّي كلّ الصعوبات الّتي تعترض مسيرتنا هذه. تقول القدّيسة تريزا الطّفل يسوع لتعبّر في أشعارها

عن قدرة المحبّة الّتي تظهر في الإفخارستيّا وهي فيها: "يا يسوع، يا كرمتي المقدّسة. أنتَ تعلم جيّدًا، يا ملكي الإلهي، أنّني عنقودٌ ذهبيٌّ ويحب أن أختفيَ لأجلكَ. في قلب الألم سوف أجدكَ يا حبّيَ الأبديّ. لا أريد شيئًا هنا إلاّ أن أُذبحَ كلّ يوم". من هنا نتأكّد أنّ **"الذّبيحة، في جوهرها الرّوحانيّ، هي فعل محبّة"**[٧٩].

٣. إرتباطه بالرّجاء

بالقربان نجد أيضًا بُعد الرّجاء، إنْ للحياة المسيحيّة، وإنْ في حياة الأفراد بشكلٍ خاصّ. وأكبر تعبير عن الرّجاء يعني الشّوق والتّوق إلى السّعادة السّماويّة نسمعه من يسوع نفسه حين قال: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبديّة، وأنا أُقيمُه في اليوم الأخير" (يوحنّا ٦: ٥٤). إذًا، **مَن يأكل القربان تدخل فيه حياة يسوع الأبديّة وهذا هو ضمانة القيامة في الحياة الثّانية.** وأكثر من ذلك، القربان يعلن مستقبل البشريّة جمعاء وقدَرَها كلّه، وهذا ما يؤكّده القدّيس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس: "فإنّكم كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تُعلنون موت الرّبّ إلى أن يأتي" (١١: ٢٦)؛ فالقربان يساعدنا للثّبات حتّى المجيء الثّاني للرّبّ. هذا هو معنى الإفخارستيّا المتعلّق بالحياة الثّانية وهي تدعمنا في حياتنا هنا على الأرض لتضمن لنا الحياة الباقية بعد هذه الفانية. ويقول القدّيس أغناطيوس أسقف أنطاكية عندما كتب لأهل أفسس: **"إنّ الإفخارستيّا (أو القربان) هي دواء عدم الموت، عربونٌ كي لا نموت، بل أن نحيا في يسوع المسيح إلى الأبد".**

فالقربان يعلن لنا مميّزات الحياة الأبديّة ويؤكّدها لنا؛ يدفع المؤمنين إلى الرّجاء ويحقّق هذا الرّجاء؛ وهو يجعل يسوع حاضرًا بشكلٍ ملموس داخل الكنيسة في مسيرتها نحو الملكوت؛ يعضد كلّ مَن يحمل بشارة الكلمة؛ يوجّه كلّ مستقبل الكنيسة نحو هدفه وقمّته، أي نحو مجيء يسوع بالمجد وعندما يقوم الموتى كلّهم ويتم الحساب الأخير؛ هذا ما نسمّيه أنّ القربان يقودنا جميعًا نحو الرّجاء الّذي لا يخيب (رومة ٥: ٥)، لأنّ هذا الرّجاء مرتبطٌ بحبّ يسوع وبقدرته اللّذين يزرعهما فينا بروحه القدّوس.

---

٧٩) ***معجم اللاّهوت الكتابيّ***، ص. ٣٥٧.

الباب الثّاني

الإفخارستيّا

في تسميات الكنيسة

١) كسر الخبز

في بدء الحياة الكنسيّة، كانوا يسمّون الحركة الّتي قام بها يسوع ليلة العشاء السّرّيّ مع تلاميذه "كسر الخبز". إنّها الحركة الّتي يقوم بها مترئّس المائدة. فبعد القيامة، عَرَفَ تلميذا عمّاوس يسوع عند هذه الحركة: "فأخذا هما يَرويان ما حدث في الطّريق، وكيف عرفاه عند كسر الخبز" (لوقا ٢٤: ٣٥). كما ويصف سفر أعمال الرّسل كيف كان كسر الخبز يُشكّل ركيزةً أساسيّةً في الحياة الرّوحيّة للجماعة المسيحيّة النّاشئة: "وكانوا مُواظبين على تعليم الرّسل والشّركة، وعلى **كسر الخبز** والصّلاة" (أعمال ٢: ٤٢؛ راجع أيضًا ٢: ٤٦؛ ٢٠: ٧، ١١). من هنا نرى أنّ أعضاء الجماعة المسيحيّة الأولى يُعبّرون بذلك عن أنّ جميع الّذين يتناولون من هذا الخبز الواحد المكسور، أي المسيح، يدخلون في شركةٍ معه، بحيث لا يعودون يؤلّفون سوى جسد واحد معه (راجع ١ كورنثس ١٠: ١٦-١٧).

٢) الإفخارستيّا

جاءت فيما بعد، وهي نتيجة صلاة يسوع حين شكر ليلة العشاء ليقدّس الخبز والخمر. أصل الكلمة يونانيّ ويعني "تأدية الشُّكر". إنّنا نُدرك أنّ تقديم هذا الطّعام [الخبز والخمر] وهذا العالم والحياة إلى الله هو الوظيفة الإفخارستيّة

الأوّليّة للإنسان، وهو تحقيقٌ لوجوده، بالذّات، كإنسان. نعرف أنّنا خُلِقنا كهنةً لإقامة سرّ الحياة وتحويل الحياة إلى حياةٍ في الله وشَركةٍ معه. نعرف أيضًا أنّ الحياة الحقّ هي "إفخارستيّا"، وهي حركة حبٍّ وعبادةٍ لله الحيّ. نعرف أنّنا قد فقدنا هذه الحياة الإفخارستيّة، ونعرف، أخيرًا، أنّه في المسيح آدم الجديد والإنسان الكامل، قد أُعيدت هذه الحياة الإفخارستيّة إلى الإنسان. من هذا المنطلق نُشير إلى أنّه "في تقديم يسوع نفسه على الصّليب وفي الإفخارستيّا، إنّما تُحقّق الإنسانيّة كلّها، ومعها الكون الّذي يُحيط بها، عودتها إلى الآب"[٨٠].

٣) عشاء الرّبّ السّرّيّ

تأتي هذه التّسمية من خلال العشاء السّرّيّ ليسوع مع تلاميذه ليلة عيد الفصح. هذا العشاء أخذ طابعًا مميزًا، وصار العشاء السّرّيّ يعني النّهائيّ الّذي ليس من بعده عشاء. لقد بقيَ هوَ هوَ حتّى يومنا هذا ونحن نحتفل به كلّ يوم وكلّ عيد. هو فصحنا الجديد الّذي صار لنا القيامة. هذا العشاء كان بحسب الطّقس اليهوديّ وليمة عشاءٍ يهوديٍّ أقامها معلّمٌ لتلاميذ له من أخصّ أحبّائه، ولكن حينما جاء إلى كسر الخبز وإلى بركة الكأس قال ما لا يقوله بشرٌ، فقد باشر المسيح كهنوته الأزليّ، وكشف السّرّ المكنون منذ الدّهور في مشورة الآب. المائدة صارت أمامه مذبحًا، والخبز في يدَيه صار جسدًا حيًّا مكسورًا وممزّقًا، والخمر في الكأس تحوّل إلى دمه، ووقف الكاهن مُخَضّبًا بدم نفسه، المسيح قدّم نفسه ذبيحة. الحمل الّذي ظلّ رؤساء الكهنة يُطاردونه ليُمسكوه ويُقدّموه قبل العيد "لئلاّ يحدث اضطرابٌ في الشّعب" (متّى ٢٦: ٥) سلّم نفسه ليد الآب قبل أن يضعوا عليه الأيادي، وأكمل بهذا السّرّ مشورته الأزليّة، وسبق فذبح نفسه في وسط أحبّائه قبل أن يصلبوه بين لصّين.

فلم تَعُدْ مائدةً، ولم يَعُدْ عشاءً، ولم يَعُدْ طقسَ محبّةٍ لأخصّاء محبوبين، بل مذبحًا ناطقًا سماويًّا، وذبيحةً سماويّةً لكلّ الدّهور، ومسيحَ الحبِّ للعالم كلّه، ووليمةً أقامها ابن الله للبشريّة قاطبةً، وعليها جسده مذبوحًا ودمه مسفوكًا. هذا هو لاهوت عشاء الرّبّ كما أدركته الكنيسة على ممرّ العصور والأجيال، وهذا ما نحتفل به، نحن ورثة هذا العهد المقدّس، حين نشترك في اللّيتورجيّا

---

٨٠) المرجع نفسه، ص. ٨٥.

الإلهيّة الإفخارستيّة. ثمّ إذا ذهبنا إلى سفر الرّؤيا نسمع الرّبّ نفسه يتكلّم عن حضوره الشّخصيّ العجيب في هذا السّرّ المدعو بسرّ "العشاء": هاءنذا واقفٌ على الباب (القلب) أقرعه (بالكلمة)، فإنْ سمع أحدٌ صوتي (التّوبة) وفتح الباب (الإيمان والرّجاء)، دخلتُ إليه (في سرّ الكنيسة) وتعشّيتُ معه (شركةٌ في آلامنا) وتعشّى معي (شركةٌ في آلامه بالأكل من الجسد والدّم للحياة الأبديّة)"[٨١] (رؤيا ٣: ٢٠).

٤) الجماعة المُلتئمة

نقصد بها الجماعة الّتي دعاها الرّبّ حتى تشترك بالاحتفال الإفخارستيا، انطلاقًا من كلام المسيح في الإنجيل المقدّس: "فحيثما اجتمع اثنان أو ثلاثةٌ باسمي، كنتُ هناك بينهم" (متّى ١٨: ٢٠). هنا تبرز صورة "**وَحدة الجماعة**" الّتي تحقّقها الإفخارستيا، إنّها الجسد ويسوع هو الرّأس في القربان: "فأنتم جسدُ المسيح وكلٌّ واحدٍ منكم عضوٌ منه" (١ كورنثس ١٢: ٢٧). على هذا الأساس نستطيع القول إنّ الإفخارستيّا هي سرّ اجتماع الجماعة المؤمنة في الكنيسة القائم في أساسه على الاحتفال بمائدة الرّبّ وكسر الخبز، أي إنّه اجتماعٌ إفخارستيّ.

٥) التّذكار

إنّه غير الذّكرى. فالتّذكار يعني الأمر الّذي به تأسّس القربان لنتذكّر يسوع. التّذكار يجعل الحدث حاضرًا في حياة الكنيسة، والحدث هو موت يسوع وقيامته. يستحثّنا القربان إلى عيش هذا الحدث بالحاضر وليس أنْ نتذكّره بالذّاكرة. إنّه واقع. ففي الاحتفال اللّيتورجيّ تتذكّر الكنيسة التّدبير الإلهيّ الّذي صنعه الله في التّاريخ، والّذي اكتمل تحقيقه في صليب المسيح وقيامته. وهنا لا بدّ من شرح مصطلح "التّدبير الإلهيّ"، ولم أجد أعمق من الشّرح الّذي قدّمه القدّيس إيريناوس في القرن الثّاني الميلاديّ: "إنّ التّدبير هو قصد الله ومخطّطه بالنّسبة إلى الإنسان، وتصميم محبّته الّذي يتحقّق في تاريخ الخلاص

---

٨١) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٣٨٤.

الّذي يصل إلى ذروته في التّجسُّد والفداء"[٨٢]. إنّ قيامة المسيح وقد حدثت مرّةً واحدة في التّاريخ، قد أصبحت الآن معاصرةً لكلّ لحظةٍ من لحظات حياتنا، ذلك لأنّ المسيح، إذ قام من بين الأموات، قد اخترق جدار الزّمن المائت.

٦) **اللّيتورجيّا المقدّسة وسرّ الأسرار**

تدلّ هاتان العبارتان إلى القدّاس بحدّ ذاته. وعندما تُستخدمان للدّلالة على القربان فإنّهما تدلّان على أنّ الاحتفال بالإفخارستيّا هو الأهمّ، إنّه العبارة الأكمل عن سرّ الخلاص والفداء، أي عمل الله في خدمة البشر؛ والعمل الأكبر هو خلاص البشريّة. إنّ الإفخارستيّا هي "سرّ الأسرار" كلّها؛ وهي تتوّج وتختم كلّ الصّلوات والرّتب الطّقسيّة على اختلافها"[٨٣]، لأنّها وليمة الملكوت والشّركة الدّائمة مع الله. وعليه، فإنّ الإفخارستيا هي سرّ الأسرار بارتباطها الوثيق بعيد الأعياد وموسم المواسم، أعني به فصح الرّبّ الخلاصيّ، إذ إنّها المكانُ الأسراريّ، حيث يتمدّد الحدث الفصحيّ في الكنيسة ليُصبح كنيسةً. هذا ما أكّده آباءُ الكنيسة القدّيسون، أخصّ بالذكر منهم القدّيس غريغوريوس النَّزينزي الّذي أعلن أنّ **الإفخارستيّا هي ذبيحة القيامة**. لماذا هذا الرّابط بين الإفخارستيّا والقيامة؟ لأنّ "الإفخارستيّا تُدخل البشريّة في سرّ المسيح الفصحيّ، جاعلةً من كلّ مسيحيٍّ **إنسانًا فصحيًّا**، أي مشاركًا في آلام السّيّد وموته وقيامته، وشاهدًا للرّوح القدس، بل حاملاً إيّاه في هذا العالم. وهكذا، فإنّ الكنيسة باحتفالها بالافخارستيا، تُصبح وجودًا فصحيًّا دائمًا للمسيح الرّبّ في العالم"[٨٤]. من هنا نَعي أنّ قيامة المسيح من الموت أضحت ينبوع اللّيتورجيّا الّذي لا ينضب.

---

٨٢) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٣٠٨.

٨٣) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة***، ص. ٣.

٨٤) **المرجع نفسه**، ص. ٤.

٧) الذّبيحة المقدّسة

١. الإفخارستيّا وذبائح العهد القديم

في العهد القديم، كانت الذّبائح حيوانيّة، حيث كانت تقدّم يوميًّا في الهيكل، يرفعها شعب الله المختار إلى الله، تعبيرًا عن إكرامه وخضوعه له، وطلبًا لرحمته، وتكفيرًا عن الخطايا، وشكرًا على عطاياه وخيراته ونِعَمه. وعندما نُطالع كتابات الشّريعة في العهد القديم، نجد أنّ هناك ثلاثة أنواع رئيسيّة من الذّبائح، يُعبِّر كلٌّ منها عن حاجة دفينة من احتياجات الإنسان، وبالتّالي عن ناحية معيّنة من نواحي علاقته بالله:

- **ذبيحة المحرقة**: إنّها علامة التّسليم الكامل. وهي التّقدمة الّتي يقبلها الله بتمامها وبسرور "محرقة بالنّار، رائحة رضًى للرّبّ" (أحبار ١: ١٣)؛
- **ذبيحة الكفّارة**: إنّها ذبيحة الخطيئة، ذبيحة الإثم، ذبائح يوم الكفّارة. وهذه تمثّل طريقًا لإعادة العهد الّذي كسره الإنسان (أحبار ٧: ٥، ٧)؛
- **ذبيحة الشّركة**: إنّها تُعبّر عن الشّركة مع الله، حيث يشترك مقدِّم الذّبيحة في التّناول منها بعد تقديسها. وتمثّلها الذّبيحة السّلاميّة (أحبار ٧: ١١-١٧)؛ "إنّ وليمة السّلامة تُترجم وتُحقّق في الفرح والابتهاج الرّوحيّ وَحدة الشّركة بين المدعوّين بعضهم مع بعض ومع الله، لأنّ الجميع يشتركون في الضّحيّة عينها"[٨٥].

٢. ذبيحة المسيح الواحدة تتمّم جميع الذّبائح

المسيح هو المفتاح الوحيد لجميع ذبائح العهد القديم "الّذي ليس له اضطرارٌ كلّ يومٍ مثل رؤساء الكهنة أن يقدّم ذبائح أولاً عن خطايا نفسه ثم عن خطايا الشّعب. فإنّه فعل هذا مرّةً واحدةً إذ قدّم نفسه" (عبرانيّين ٧: ٢٧). فالمسيح هو **المحرقة الكاملة**: "أسلم نفسه لأجلنا قربانًا وذبيحةً لله رائحة طيبة " (أفسس ٥: ٢)؛ وهو ذبيحة **الخطيئة الكاملة**: "الّذي حمل خطايانا على الخشبة، وتألّم خارج أورشليم على نمط ذبيحة الخطيئة الّتي تُحرَق خارج المحلّة" (عبرانيّين ١٣: ١١-١٢)؛ وفي ذبيحة المسيح أصبح لنا **شركةٌ** حقيقيّة:

---

٨٥) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٣٥٥.

إذ استطاع الإنسان أن يأكل جسد الربّ ويشرب دمه (متّى ٢٦: ٢٦-٢٨؛ يوحنّا ٦: ٥١ – ٥٨). فإذا كان دم الحيوانات علامة العهد القديم، فالربّ يُصرّح أنّ علامة العهد الجديد هي دمه الإلهيّ (متّى ٢٦: ٢٨).

٣. الإفخارستيّا، ذبيحة الصّليب

إنّ الإفخارستيّا تدلّ بشكلٍ خاصّ على تضحية يسوع وذبيحته الكفّاريّة على الصّليب من أجل خلاص البشريّة جمعاء. فالقدّاس الإلهي هو ذبيحة. هذه الذّبيحة تذكّرنا بآلام المسيح وموته. وهي إلى ذلك ذبيحةٌ حقيقيّةٌ وذبيحةٌ جديدة. فإنّ المسيح الموجود في القربان المقدّس هو يسوع المذبوح لأجلنا. هذا ما تعنيه كلمات الربّ القائل: "هذا هو جسدي الّذي يُكسر من أجلكم... هذا هو دمي المُهراق من أجلكم...". إنّ "الإنسان كائنٌ قربانيٌّ (ذبائحيّ) لأنّه يجد حياته في الحبّ، والحبّ ذبائحيّ الطّابع: يضع قيمة الحياة ومعناها في الآخر وإيّاها يُعطيه، وهو، بهذا العطاء، وهذه الذّبيحة، يجد لحياته معنًى وفرحًا"[٨٦].

فالإنسان بذبيحته إنّما يقدّم نفسه وكلّ ما لديه لله. ولأنّ الخطيئة تقف حجر عثرةٍ في الطّريق نحو الله، توسّل الإنسانُ الذّبيحة نيلاً للصّفح والمغفرة. إلاّ أنّ ذبيحة الإنسان أعجز من أن تُنقذه من عبوديّته للخطيئة والموت، فقرّر الله بمنتهى حبّه ورحمته أن يُقدّم ابنه الوحيد ذبيحةً شاملةً لإنقاذ العالم الّذي قُرّب فيه ابن الله، بعدما صار ابنًا للإنسان، ذبيحةً لحياة العالم (يوحنّا ٣: ١٦-١٧). ففي المسيح أحبَّ الله الإنسان حتّى إنّه بذل ابنه الوحيد، وفي المسيح أيضًا أحبَّ الإنسانُ اللهَ حتّى أسلمه ذاته.

وإذا كانت حياة المسيح قربانًا وذبيحةً، فحياتنا فيه وكلّ حياة الكنيسة هما قربانٌ وذبيحة: قربانٌ عن أنفسنا، وبعضنا عن بعض، وعن العالم بأسره: ذبيحة المحبّة والوَحدة، ذبيحة التّسبيح والامتنان: "رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح" (تُقال عند بدء صلاة التّقدمة "الأنافورا" في القدّاس الإلهيّ)، ذبيحة الصّفح والشّفاء والشّركة: "فأحرّضكم إذًا، أيّها الإخوة، بمراحم الله، أن تُقرّبوا أجسادكم ذبيحةً حيّة، مقدّسة، مرضيّةً عند الله. فهذه هي عبادتكم الرّوحيّة" (رومة ١٢: ١)؛ "وأنتم أيضًا، شأن الحجارة الحيّة، تُبنَون بيتًا روحيًّا

---

٨٦) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٥١.

فتكونون جماعةً كهنوتيّةً مقدّسة، كَيما تُقرّبوا ذبائح روحيّةً يقبلها الله عن يد يسوع المسيح" (١ بطرس ٢: ٥). لأجل ذلك سنرى أنّ القدّاس الإلهيّ يُشدِّد على كون الذّبيحة المقدَّمة هي ذبيحةٌ كهنوتيّة، وفي الوقت عينه، ذبيحةٌ غيرُ دمويّة. فإذا ما طالعنا رسالة بولس الرّسول إلى العبرانيّين، نجد أنّ الذّبيحة الدّمويّة قد قُرِّبَت مرّةً واحدةً في التّاريخ وهي ذبيحة المسيح الدّمويّة والّتي لم تكن كسائر القرابين والذّبائح الّتي كان يُقدّمها رؤساء الكهنة في تلك الحقبة التّاريخيّة والّتي كانت تتكوّن من دم التُّيوس والثيران، بل **بدمه الخاصّ** (راجع عبرانيّين ٩: ٧، ١٢-١٤، ٢٥-٢٦، ٢٨؛ ١٠: ١٠، ١٩-٢٠؛ ١٣: ١٠-١٢). هذا ما يؤكّده أيضًا يوحنّا الإنجيليّ في رسالته الأولى، قائلاً: "... ودمُ يسوع ابنِه يُطهِّرنا من كلّ خطيئة" (١ يوحنّا ١: ٧)، ذلك أنّ دم المسيح، دم العهد الجديد، يُقدَّم ليغفر خطايا البشر (راجع عبرانيّين ٩: ١٨-٢٨) ليُحقِّق تقديسهم: "ولذلك تألّم يسوع أيضًا في خارج الباب **ليُقدّس الشّعب بذات دمه**" (عبرانيّين ١٣: ١٢). ويأتي سفر الرؤيا ليتكلّم بلغةٍ بليغةٍ عن دم الحمل، يقول: "للذاك الّذي أحبّنا فحلّنا من خطايانا بدمه" (رؤيا ١: ٥)؛ وأيضًا: "... وقد غسلوا حُلَلَهم وبيّضوها بدم الحمل" (رؤيا ٧: ١٤).

وهكذا، فإنّ الإفخارستيّا "تُجسّد في الحاضر الذّبيحة الوحيدة، ذبيحة المسيح المخلّص، وتتضمّن تقدمة الكنيسة؛ وتُسمّى أيضًا ذبيحة القدّاس المقدّسة، "ذبيحة التّسبيح": "كأس الخلاص أقبل وباسم الرّبّ أدعو" (مزمور ١١٥: ١٣)؛ "لكَ [الله] أذبح ذبيحة التّسبيح. وباسم الرّبّ أُشيد" (مزمور ١١٥: ١٧)؛ "فلنُقرِّب لله عن يده [المسيح] ذبيحة الحمد في كلّ حين، أي ما تَلفِظُه الشّفاه المُسبِّحة لاسمه" (عبرانيّين ١٣: ١٥)، الذّبيحة الرّوحيّة: "وأنتم أيضًا، شأنَ الحجارةِ الحيّة، ثبنَون بيتًا روحيًا فتكونون جماعةً كهنوتيّةً مقدّسة، كَيما تُقرِّبوا ذبائح روحيّةً يقبلُها الله عن يد يسوع المسيح" (١ بطرس ٢: ٥)، الذّبيحة الطّاهرة المقدّسة: "لأنّه من مَشرق الشّمس إلى مَغربها اسمي عظيمٌ في الأُمَم، وفي كلّ مكان تُحرَق وتُقرَّب لاسمي تقدمةٌ طاهرة" (ملاخي ١: ١١)، لأنّها تُكمّل وتفوق ذبائح العهد القديم كلّها"[٨٧]؛ ولقد شرح القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم

---

٨٧) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ١٣٣٠، ص. ٤٠٤.

معنى "الذّبيحة الواحدة الوحيدة" فقال: "إنّا نقدِّم دائمًا الحمل نفسَه، لا حملاً اليوم وحملاً آخر في الغد، بل دائمًا الحمل نفسه. لهذا السّبب، ليس هناك إلاّ ذبيحةٌ واحدة. والآن أيضًا، نقدِّم الضّحيّة الّتي قُدِّمَت قبلاً والّتي لا تُستَنفذ أبدًا"[٨٨] (عظة حول الرّسالة إلى العبرانيّين).

٤. ذبيحة الكنيسة الإفخارستيّة: ذبيحةٌ كهنوتيّة

لقد رأينا سابقًا أنّ قمّة هذه الذّبائح كانت ذبيحة المسيح ابن الله المتجسّد على الصّليب، الّذي غدا هيكل البشريّة جمعاء وقربانها. وفي هذه الذّبيحة، **المسيح هو المقدِّم والمقدَّم**، وقد فعل ذلك باسم البشريّة ومن أجلها. ويمكن مقارنة الذّبائح القديمة بالذّبيحة الجديدة الّتي هي المسيح يسوع، فنلاحظ في كلا الطّرفين كاهنًا يُقدِّم، وذبيحةً تُقدَّم، وسببًا لتقديم الذّبيحة. فالكاهن، أي الوسيط بين الشّعب والله في الذّبيحة الجديدة، هو رجلٌ بدون عيب، من سلالة ملكيصادق، أي الكهنوت المؤسَّس بإرادة الله، لا يحتاج إلى تنقية؛ والذّبيحة هي أيضًا حمل الله ولا عيب فيها؛ وأمّا الهدف، فهو التّكفير عن خطايا البشر. وهي عبادةٌ مقبولةٌ لدى الله، لأنّ الوسيط منبثقٌ منه، والذّبيحة غاليةً على قلبه الأبويّ، ولذلك، فالهدف، أي مغفرة الخطايا، سيتمّ لأنّ الله قَبلَ هذه الذّبيحة مسبقًا.

إنّ ذبيحة الصّليب هذه فتحت بابًا جديدًا للعلاقة بين الله والبشر، وللقاء الإنسان بالله، في عهدٍ جديدٍ خُتِمَ بدم المسيح. واعتبارًا من يوم الجلجلة، حيث رفعت إلى الله الذّبيحة الأزليّة، ما عادت هنالك حاجةٌ إلى الذّبائح الأخرى الّتي لا فاعليّة لها أصلاً، وقد أغنتنا ذبيحة المسيح عن كلّ الذّبائح الأخرى، وبذلك تصبح هذه الذّبيحة، حاضرةً وشخصيّة، إذ تتجدّد باستمرار. إلاّ أنّ المسيح، لم يعفِنا من واجب العبادة وتقدمة القرابين، ولكنّه أعطانا قربانًا مرضيًّا لدى الله، نقدّمه له في كلّ مناسبة، وهذا القربان هو جسده ودمه، اللّذان قرّبهما إلى الله يوم خميس الأسرار.

---

٨٨) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ١٢.

فالكنيسة أخذت الكهنوت عن المسيح، كما أنّها احتفظت به بواسطة سرّ الإفخارستيّا، قربانًا دائمًا ترفعه إلى الله لتؤدّي واجبات العبادة، والشّكر، والطّلب، والتّكفير عن الخطايا. وهكذا يكون العهد الجديد متميّزًا عن القديم، بكهنوته وقرابينه الإلهيّة الّتي تتمتّع بفعاليّةٍ لا حدّ لها (أنظر عبرانيّين ٩: ١٢-٢٦؛ ١٠: ١-١٠). فالقربان المقدّس هو الذّبيحة المُثلى المرضيّة لدى الله، الّتي تغدق علينا بركته وتوحّدنا معه بعهدٍ جديدٍ وثابت. ومهما يكن للصّلاة والعبادات الفرديّة من قيمة، فإنّ هذه القيمة تبقى ناقصة، إذا ما قيست بالذّبيحة الإلهيّة، الّتي مصدرها الله ومحطها الله. وإنّ الكنيسة إذ تقوم بتقديم هذه الذّبيحة، تحقّق عملاً إلهيًّا باسم جماعة المؤمنين، وتنال رضى الله وبركته لكلّ مَن يشترك معها في عمل الذّبيحة، الّتي هي القدّاس الإلهي. وللاشتراك الفعليّ في الذّبيحة، يجب طبعًا حضور عمل العبادة هذا في الكنيسة، ومشاركة الكاهن بالنّية. غير أنّ هنالك أمر التّقديس والإتّصال الحيويّ بالله الّذي لا يتحقّق إلاّ بالإتّحاد الفعليّ مع المسيح في المناولة، وبذلك نرفع كلّنا معه إلى الله، قربانًا مرضيًّا ومقبولاً.

٨) المناولة المقدّسة أو الاتّحاد

هي العبارة الّتي تدلّ على الاشتراك بطعام الرّبّ. فيقول الرّسول بولس بهذا الشّأن: "... فاحكموا أنتم في ما أقول: كأسُ البركة الّتي نُباركها، أمَا هي مشارَكةٌ في دم المسيح؟ والخبز الّذي نكسره، أمَا هو مشاركةٌ في جسد المسيح؟ فنحن على كثرتنا جسدٌ واحدٌ لأنّ هناك خبزًا واحدًا، ونحن كلُّنا نشترك في هذا الخبز الواحد" (١ كورنثس ١٠: ١٥-١٧). يحاول بولس الرّسول أن يُفهمنا أنّ الشّركة هذه تخلق وَحدةً حالٍ على جهتين: من جهةٍ هي اتّحادٌ مع يسوع الّذي يعود ليوحّدنا مع بعضنا البعض من جهةٍ أخرى، إذ إنّ الإفخارستيّا لا تعني إتّحاد المؤمن الفرد (الإتّحاد الشّخصيّ) بالمسيح وحسب، بل أيضًا إتّحاد جميع المؤمنين، لأنّها تُعبِّر عن وحدة الكنيسة في يسوع المسيح. فبالإشتراك في جسد المسيح الإفخارستيّ الواحد، ننضمّ كلّنا الى جسد المسيح الواحد، الى الكنيسة.

هذا ما يؤكّده البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني بقوله:

"بالشّركة الإفخارستيّة تتوطّد الكنيسة أيضًا في وَحدتها كجسدٍ للمسيح. تفسير يوحنّا الذّهبيّ الفم دقيق: "ما هو إذًا هذا الخبز؟ إنّه جسد المسيح. ماذا يُصبح الّذين يتناولونه؟ جسد المسيح: لا عدّة أجساد، بل جسدٌ واحد. لمّا كان الخبز واحدًا أحدًا، مع كونه مؤلّفًا من بذراتٍ عديدةٍ كائنةٍ فيه مع أنّا لا نراها، وقد اختفت فوارقها بسبب اندماجها الكامل بعضها مع بعض، كذلك نحن، بالطّريقة نفسها، متّحدون بعضنا ببعض، وكلّنا متّحدون معًا بالمسيح""[89].

إنّ فعّاليّة الذّبيحة الخلاصيّة تتحقّق كليًّا في المناولة، عندما نتقبّل جسدَ الرّبّ ودمَه. الذّبيحة الإفخارستيّة تصبو بحدّ ذاتها إلى اتّحادنا الحميم، نحن المؤمنين، مع المسيح، من خلال المناولة: إنّا نقبله هو نفسه، هو الّذي قدّم ذاته من أجلنا، نتناول جسده الّذي بَذَلَه من أجلنا على الصّليب، ودمه "الّذي أهرقه من أجل كثيرين، لمغفرة الخطايا" (متّى ٢٦: ٢٨). من هنا يتبيّن أنّ ثمرة تقبُّل الإفخارستيّا في المناولة تكمن في الاتّحاد الوثيق والعميق بيسوع المسيح. بتناول الأشكال الإفخارستيّة (الخبز والخمر المتحوّلين إلى جسد ودم الرّبّ)، يأتي المسيح بكامله ليُقيم فينا، ونحن بكاملنا نقيم فيه، على حسب ما وعدنا به الرّبّ نفسه في الإنجيل المقدّس: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي أقام فيّ وأقمتُ فيه" (يوحنّا ٦: ٥٦). بالدّخول في شراكة المسيح بالمناولة، تزداد فينا حياة النّعمة الجديدة، وتُشفى أمراض الخطيئة، ونتقوّى لمقاومة الخطيئة. وفي الوقت عينه، نتناول عربون السّعادة السّماويّة والحياة الأبديّة الآتية (راجع يوحنّا ٦: ٥٤).

٨٩) المرجع نفسه، عدد ٢٣.

القسم الثّاني

القدّاس الإلهيّ

في اللّاهوت اللّيتورجيّ

مقدّمة

الاحتفال اللّيتورجيّ

١) أهميّة الكنيسة في الاحتفال الإفخارستيّ

إنّ كلمة "كنيسة" في الأصل اليونانيّ هي (ἐκκλησία) "إكليسيّا"، وهي كلمةٌ كانت مُستخدمةً من قبل كتابة العهد الجديد، وكانت تعني "جماعة"، أو اجتماع"، أو "محفل". والكلمة "إكليسيا" تأتي من الفعل καλέω (كالِيُو) الَّذي يعني "دعا" والاسم هو κλήσις (كْليسيس)، فيُصبح معناها "دعوة إلى اجتماع" أو "الجماعة المدعوّة". بينما يأتي المصطلح اليونانيّ "Κυριακή - كيرياكي" للدّلالة على **التّخصيص الإلهيّ والمُلكيّة الإلهيّة للكنيسة** بمعنى "ما للرّبّ" أو "الرَّبّانيّة"[٩٠]. فالكنيسة بهذا المعنى الأخير هي "ما يملكه الرّبّ". ولقد عبّر القدّيس بولس الرّسول عن هذه المُلكيّة الإلهيّة من خلال تعبيرَي:

- "**كنيسة الله**" الوارد في الرّسالة الأولى إلى تلميذه تيموثاوس (٣: ٥؛ راجع أيضًا غلاطية ١: ١٣)؛
- و"**بيت الله**، أعني كنيسة الله الحيّ" الوارد في الرّسالة نفسها (٣: ١٥). وفي صلاته الكهنوتيّة، أعلن يسوع أنّ الآب السّماويّ قد وَهَبَ له أُناسًا يتبعونه ويكونون على اسمه الخاصّ، وهم المكتوبون في سفر الحياة، "سفر الحمل" (راجع رؤيا ٢١: ٢٧): "أظهرت اسمك للنّاس الّذين وهبتهم لي من بين العالم. كانوا لك فوهبتهم لي، وقد حفظوا كلمتك" (يوحنّا ١٧: ٦).

---

٩٠) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٧٥١، ص. ٢٤٢.

ثمّة سؤالٍ يتبادر إلى أذهاننا في هذه اللّحظة: هل وردت كلمة "كنيسة" في العهد القديم؟

إنّ الكنيسة وُجِدت منذ أن وُجِد الإنسان على الأرض. وتاريخ الكنيسة هو تاريخ تعاملات الله مع شعبه، وقد وصف استفانوس بني إسرائيل عندما كانوا في البريّة بقيادة موسى بأنّهم "**الكنيسة في البريّة**" (بالنّصّ اليونانيّ الأصليّ: " τῇ ἐκκλησίᾳ ἐν τῇ ἐρήμῳ"، تي إكليسيّا إين دي إيريمو) (أعمال ٧: ٣٨)؛ فكلمة "كنيسة" اليونانيّة "إكليسيا" والّتي كما رأينا أنّها تُترجَم إلى "جماعةٍ مدعوّة لأداء شعائر دينيّة" (راجع تثنية ٢٣؛ ١ ملوك ٨؛ مزمور ٢٢: ٢٦)، تُقابل اللّفظ العبريّ (קהל) "كاهال"[٩١] وهو لفظٌ يأتي من فعلٍ يعني "يدعو للجماعة ولأعمالها" ويمكن أن يُترجم أيضًا "جماعة" أو "حشد"، ونادرًا ما استُخدِمت لدعوة الشّعب إلى الحرب. وعندما ننظر نظرةً شاملة، سنجد أنّ كلمة "كاهال" العبريّة استُخدِمت في العهد القديم للإشارة إلى جماعة الرّبّ المجتمعة لتسمع كلمة اللّه سواء في سيناء (تثنية ٤: ١) أو في بريّة موآب إذ يقول: "وقرأ موسى على مسامع **جماعة** "كاهال" إسرائيل كلّها كلام هذا النّشيد إلى آخره" (تثنية ٣١: ٣٠). وسواء اجتمعت الجماعة بقيادة موسى أو يشوع، "لم تكن كلمةٌ من كلّ ما أمر به موسى لم يتلُها يشوع بحضرة **جماعة** إسرائيل كلّها..." (يشوع ٨: ٣٥؛ راجع أيضًا ١ أخبار ٢٨: ٨؛ نحميا ٨: ٢). وعندما أُطلقت كلمة "كاهال" على بني إسرائيل كانت تعني جماعة اللّه، أو الشّعب الّذي دعاه يهوه، ودخل في عهدٍ معه على جبل سيناء (تثنية ٩: ١؛ ١٠، ٤) وارتبط باسم يهوه "جماعة الرّبّ" (تثنية ٢٣: ٢-٤). والكلمة "كاهال" تشير إلى **الجماعة** الّتي ارتبطت بيهوه (عدد ١٦: ٣؛ ٢٠: ٤) وبقواعد ووصايا أعطاها لهم، مثل الشّريعة والنّاموس والطّقوس (تثنية ٩: ١؛ ١٠: ٤؛ ٢٣: ٣).

لذلك هي الجماعة الّتي تجتمع في الهيكل (مزمور ٢٢: ٢٣؛ ٨٩: ٦) وتجتمع للعبادة وتقديم الذّبائح، واللّه يدعوهم باستمرارٍ لطاعته (٢ أخبار ٢٠: ٥؛ ٣٠: ٣؛ مزمور ١٤٩: ١). وكلمة "كاهال" تعني أيضًا شعب اللّه المتحرّك والمتنقّل من مكان إلى آخر، وفي هذا يقول اللّه لموسى: "اصنع لكَ بوقَين، تصنعُهما من فضّةٍ

---

٩١) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٦٧١.

مُطرَّقة، فيكونان لكَ لدعوة الجماعة وترحيل المخيَّمات" (عدد ١٠: ٢). وكلمة "الجماعة" هنا هي (קהל) "كاهال" و"المناداة" هي الدّعوة للعبادة والحركة والديناميكية، فهي جماعةٌ لا تعرف الجمود ولا السّكون ولا التّقوقع.

أمّا في العهد الجديد، فلقد استخدم الرّسل كلمة (ἐκκλησία) "إكليسيا" "كنيسة" لأنّها عودةٌ إلى الكلمة العبريّة "كاهال" والّتي تعني كما ذكرنا سابقًا "شعب الله"، أو "الجماعة المدعوّة" أو "ما يملكه الرّبّ" فهي الجماعة المدعوّة من العالم لتنتمي إلى الله وتعبُده، وفي نفس الوقت، المرسلة إلى العالم لتخدمه وتشهد عنه، فهي مدعوّةٌ لتمارس علاقتها بالله وبالآخرين. من هنا نؤكّد أنّ الكنيسة، وبحسب القدّيس كيرلّس الاسكندريّ، هي "المدينةُ المقدّسة الّتي لم تتقدّس بحفظها النّاموس، بل لأنّها تمثّلت بالمسيح وشاركت في الطّبيعة الإلهيّة بالرّوح القدس الّذي طبعنا بختمه يوم انعتقنا واغتسلنا من كلّ غضن، وتحرَّرنا من كلّ عملٍ مشين"[٩٢]. فالكنيسة إذًا هي المكان الّذي فيه يتحقّق في الحياة الحاضرة الاتّحاد بالله، هذا الاتّحاد الّذي سيتمّ في الدّهر العتيد، بعد قيامة الأموات: إنّها، بكلماتٍ بديعة، الفردوس الأرضيّ. الكنيسة إذن هي "جسدُ المسيح وقد تطهّرت بماء معموديّته ونُضحت بدمه ولبست ثيابه ثياب العريس"[٩٣]. إنّها هيكل الله والمكان المقدّس وبيت الصّلاة ومجتمع الشّعب، جسد المسيح... إنّها السّماء الأرضيّة الّتي يسكن فيها الإله المتعالي ويتجوّل. إنّها تُمثّل الصّلب، والوضع في القبر وقيامة المسيح... وقد سبق رسمها في الأجداد، وتنبّأ عنها الأنبياء وتأسّست على الرّسل وتكمّلت بالشّهداء وتكلّلت بهم وارتوت بدمائهم.

من هذا المنطلق نؤكّد ما قاله العلاّمة أوريجانس في مَعرض كلامه عن الكنيسة: "الكنيسة هي التّجسُّد الأكثر اتّساعًا وشمولاً: إنّها المجيء الكلّيّ لابن الإنسان. وفيها يحيا التجلّيان الآخران: فالكتاب المقدّس، الّذي هو "صوت الحبيب" يُقرَأ ويُعلَن ويُعاش فيها؛ والمسيح القائم من بين الأموات يصير فيها

٩٢) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللاّهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٤٧.
٩٣) أفثيميوس سكاف (الأب)، ***مدخل إلى الهيستوريّة الكنسيّة...***، ص. ٤٤.

حاضرًا للعالم (الكنيسة المتعلِّمة والمعلِّمة): المبشّرون هم شفتا المسيح"[٩٤]. إنّ هذا يقودنا إلى القول إنّ **الكنيسة هي السّماء على الأرض**. وهكذا نُدرك أنّ الكنيسة هي المدخل إلى حياة المسيح القائم من الموت، وهي الشّركة في الحياة الأبديّة، "فرحٌ وسلامٌ في الرّوح القدس": إنّها ترقُّب النّهار الّذي لا يعروه مساء، نهار الملكوت. هذا ما يدعونا إلى التّفكير بالعلاقة القائمة بين الكنيسة والإفخارستيّا، لماذا يجب أن تَحتفل الجماعة المسيحيّة بالإفخارستيّا في الكنيسة؟ للإجابة عن هذا التّساؤل الهامّ، أقتبس ما جاء في كتاب "التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة"، يقول:

> "ولكنّ الكنيسة وُلِدَت بنوعٍ خاصّ من بذل المسيح الكامل لذاته في سبيل خلاصنا، مُسبَّقًا في إقامة سرّ الإفخارستيّا، ومتمَّمًا على الصّليب. ابتداءُ الكنيسة ونموُّها يرمز إليهما الدّم والماء الخارجان من جَنب المسيح المصلوب. إذ إنّه من جَنب يسوع الرّاقد على الصّليب وُلِدَ سرُّ الكنيسة العجيب. وكما أنّ حوّاء كُوِّنَت من ضلع آدم النّائم كذلك الكنيسة نشأت من قلب المسيح المائت على الصّليب مطعونًا بحربة"[٩٥].

لذلك نرى أنّ الكنائس تُعبّر عن جماليّةٍ روحيّةٍ وهندسيّةٍ فائقة الجمال، كونها في الحقيقة تُمثّل هيكل الله، المكان المقدّس، بيت الصّلاة، مجتمع الشّعب، جسد المسيح، وعرش الله على الأرض ومكان إقامته بين المؤمنين. هذا ما عبّر عنه مبعوثو أمير الرّوس فلاديمير، عندما زاروا كنيسة الحكمة المقدّسة "آيا صوفيا" في القسطنطينيّة، فأعلنوا قائلين: "إنّنا لم نكن لندري في أيّ مُقامٍ نحن مُقيمون، في السّماء أو على الأرض؛ لأنّه لا يوجد على الأرض جمالٌ يُضاهي ما كنّا نشاهد وليس بوُسعنا أن نَصِفَ ذلك الجمال. شيئًا واحدًا نعرفه هو أنّ الله يسكن في هذا المكان بين النّاس"[٩٦].

---

٩٤) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٤٠٣.

٩٥) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٧٦٦، ص. ٢٤٦.

٩٦) أفثيميوس سكاف (الأب)، ***مدخل إلى الهيستوريّة الكنسيّة والثيوريّة التذوقيّة***، ص. ١٤.

هذا ما يؤكّده القدّيس جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة في معرض كلامه عن معنى الكنيسة، قائلاً:

"الكنيسة هي هيكل الله، مكانٌ مقدّس، مكانٌ للصّلاة، اجتماع شعب الله، جسد المسيح واسمه، عروس المسيح الّتي تدعو الشّعوب إلى التّوبة والصّلاة... الكنيسة هي سماءٌ على الأرض، فيها يسكن الله السّماويّ ويتحرّك... الكنيسة هي بيتٌ إلهيّ. هي مكانٌ تُقدَّم فيه ذبيحة المسيح السّرّيّة (أي الجلجلة الرّهيبة)... وهي مغارة بيت لحم المقدّسة. هي قبر الرّبّ الكلّيّ القداسة، ومائدة العشاء السّرّيّ المُغذيّة للنّفس والمُحيية".

٢) الاحتفال اللّيتورجيّ والفرح الإفخارستيّ

الاحتفال الإفخارستيّ اللّيتورجيّ عبورٌ غايته اللّقاء بشخص يسوع المسيح، واللّقاء بالمسيح بحدّ ذاته هو فرح. ولكي نعبر من الاحتفال اللّيتورجيّ إلى الفرح الإفخارستيّ علينا أن نمارس الاختبار الشّخصيَّ في وسط وقلب الجماعة الكنسيّة المصلّية، لأنّ الكنيسة هي جماعةٌ مُصَلِّيَة. نعيش الفرح الإفخارستيّ عندما نختبر بالفرح وبأشكالٍ مختلفةٍ التّحقيق الدّائم للوعد:" هاءنذا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (متّى ٢٨: ٢٠). وتُعبِّر جماعة المؤمنين عن هذا الفرح، أي فرح حضور يسوع المسيح الخلاصيّ مع الجماعة في الإفخارستيا، من خلال الإصغاء إلى كلمة الله والحياة المشتركة وتناول جسد الرّبّ ودمه والصّلوات الطّقسيّة (راجع أعمال ٢: ٤٢). وهكذا، فالاحتفال اللّيتورجيّ يُغيِّرنا وينقلنا إلى حياةٍ مع الله إلى الفرح الحقيقيّ، إلى الفرح الإفخارستيّ، الّذي يُحوِّل أرضنا إلى فردوس وحياتنا البشريّة إلى حياةٍ إلهيّة. هذه هي القاعدة الذّهبيّة لفهم لاهوت اللّيتورجيّا الإفخارستيّة وإدراك معانيها الرّوحيّة السّامية واختبارها ككنزٍ روحيٍّ يجعل من حياة المسيحيّ حياةً مُفعَمَةً بالتّقوى والفاعليّة ومليئةً بثمار الرّوح القدس ومواهبه المقدّسة، وذلك انطلاقًا من خبرة صاحب المزامير الإفخارستيّة، إن جاز التّعبير: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ" (مزمور٣٣: ٩).

٣) اللّيتورجيّا الإلهيّة للقدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم

ولد القدّيس يوحنّا سنة ٣٥٤م في أنطاكية من والدين تقيّين، كان والده قائدًا في الجيش، أمّا والدته أنثوسا فتتحدّر من عائلةٍ شريفة. توفيّ والده بعد بضعة أشهر من ولادته، فتولّت والدته مهامّ تنشئته. درس الخطابة والفلسفة في سنٍّ مبكرة. في تلك الفترة كان القدّيس ملاتيوس أسقفًا على أنطاكية، فسمح لهذا الشّاب أن يكون بقربه، لأنّه أحبّ عذوبة قلبه وموهبته النّبويّة وقد تنبّأ بما ستصير إليه مسيرته. إقتبل يوحنّا سرّ المعموديّة المقدّسة في سنّ الثّامنة عشرة، ودرس على مدى ثلاث سنواتٍ في مدرسة أنطاكية اللّاهوتيّة. كان الشّوق يعتريه منذ ذلك الحين إلى التماس السّكينة، إلا أنّ تضرّعات والدته كانت تقنعه بتأجيل رغبته طالما هي على قيد الحياة. وعندما رقدت بالرّبّ سنة ٣٧٥م اتّجه القدّيس يوحنّا بعد رسمه قارئًا إلى الصّحراء، حيث بقي مدّةً من الزّمن تصل إلى ستّ سنوات.

عاش في السّنوات الأربع الأولى من نسكه، بالقرب من شيخ ناسك، وفي السّنتين اللّاحقتين عاش متوحّدًا داخل مغارة. ويكتب كاتب سيرته بلاذيوس عن هاتين السّنتين أنّه قضى معظم الوقت دون أن ينام يغرف من الكتاب المقدّس. تركت شدّة نسكه بصماتها على صحتّه، فاضطر إلى العودة إلى أنطاكية، حيث سيم سنة ٣٨١م شمّاسًا على يد ملاتيوس، وبعد خمس سنواتٍ سامه القدّيس فلافيانوس كاهنًا. خدم ككاهن في أنطاكية حتّى سنة ٣٩٧م فكان يعلّم الشّعب بعظاته الأخّاذة، فأنعشت كلماته روح الشّعب في أوقاتٍ عصيبة. ذاع صيته في أنطاكية وسوريا وتوقّع الجميع أنّه سيكون خليفة فلافيانوس على كرسيّ أنطاكية. إلاّ أنّ الله، بعد رقاد بطريرك القسطنطينيّة نكتاريوس، أرشد خطاه إلى عاصمة الامبراطوريّة، فسيم أسقفًا عليها في ١٥ كانون الأوّل من سنة ٣٩٧م.

كانت جهاداتٌ كثيرةٌ في انتظاره في القسطنطينيّة، إذ كانت الوثنيّة لا تزال تحارب الإيمان بالمسيح، والهراطقة (الآريوسيّون، الأفنوميّون، الأبوليناريّون) كانوا يشقّون وحدة الكنيسة، وإكليروس غير واعٍ لرسالته كان سبب عثرةٍ للشّعب. عمل القدّيس يوحنّا وسط هذا الجوّ الصّعب، وكان

يضرب الشرّ أينما وجد بنشاطه وكلماته؛ فعاقب الإكليروس غير الجديرين، ونظّم عمل الكنيسة الرّوحيّ وقام بأعمال الاحسان، وأوفد مبشّرين إلى غوتثيه وسكيثية وبلاد فارس وفينيقية، ورتّب خدماتٍ كنسيّةً ليليّةً ليستطيع العمّال النّهاريّون الاشتراك فيها. إنّ هذا العمل الجبّار، لا سيّما، معاقبة الاكليريكيّين غير الجديرين، خلّف له ردّات فعلٍ عنيفة، فلم يتورّع أعداؤه، وعلى رأسهم ثيوفيلوس بطريرك الإسكندريّة وبمساندة الامبراطورة إفذوكية، عن بلوغ حدّ إقصاء القدّيس ونفيه.

إلا أنّ بقاءه في المنفى لم يتجاوز يومًا واحدًا، إذ إنّ مقاومة الشّعب مع بلوغ القدّيس منطقة بيثينية، وحدوث واقعةٍ مع إفذوكية، بعثا الخوف فيها فعمدت إلى الطّلب بعودة القدّيس مجدّدًا؛ فاستقبله الشّعب بالتّكريم ودموع الفرح. ومع ذلك، لم يلبث أعداؤه ساكنين، فشكّلوا مجمعًا في ربيع سنة ٤٠٤م وأقرّوا إقصاءه من جديد. ويوم السّبت العظيم، عمد منفّذون من قبل الإمبراطور إلى طرد القدّيس يوحنّا والاكليروس من الكنيسة أثناء التّحضيرات لعمادة الموعوظين وعيد الفصح. وقعت أمورٌ فظيعةٌ في ذلك اليوم. الموعوظون، رجالاً ونساء، تعرّضوا للضّرب من قبل الجنود وطردوا عراةً من الكنيسة، بحيث امتلأت أجران المعموديّة دمًا، كما يقول القدّيس يوحنّا نفسه. وفي النّهاية دُنِّست القُدُسات، جسد المسيح ودمه. وفي ٢٠ حزيران من سنة ٤٠٤م اقتيد إلى منفاه بعد توديعه الاكليروس ولكن خفيةً عن الشّعب. وبعد شقاءٍ كبير، جسديٍّ ونفسيّ، دام أكثر من ثلاث سنوات، رقد بالرّبّ في ١٤ أيلول من سنة ٤٠٧م في بيتيوس الواقعة على شاطئ البحر الأسود الشّرقيّ، بعد تناوله الأسرار الطّاهرة ولفظه: "**الشّكر لله على كلّ شيء**".

الفصل الأوّل

ليتورجيّا التّقدمة

الباب الأوّل

طهارة الكاهن الملائكيّة

١) تهيئة الكاهن الرّوحيّة

إنّ كرامة اللّيتورجيّا الإلهيّة ومنزلتها الرّفيعة في حياة الكنيسة المقدّسة تتطلّبان من الكاهن الاقتراب من الهيكل متأهّبًا على نحوٍ لائقٍ وكما ينبغي. إنّ كهنة العهد القديم كانوا مُلزَمين الخضوع لطقوس تنقيّةٍ متنوّعةٍ قبل قيامهم بمهامهم الكهنوتيّة، وقبل تقدمة ذبائحهم. فالله نفسه قد تطلّب من اللّاويّين والكهنة الطّهارة والقداسة لأنّهم خَدَمَتُه: "كونوا قدّيسين، فإنّي أنا قدّوس" (أحبار ١١: ٤٤؛ ٢٠: ٧). فإذا كان على كهنة العهد القديم أن يتبنّوا مسلكيّةً حياتيّةً متناغمةً مع قُدسيّة أعمالهم الكهنوتيّة، فكم بالحريّ يتوجّب على كهنة العهد الجديد، الّذين يُقدّمون ذبيحة جسد ودم يسوع المسيح الإفخارستيّة، القيام بتحضير جسديٍّ وروحانيٍّ، قبل قيامهم بهذا العمل العظيم؟!

١. إستعداد الكاهن الرّوحيّ

إنّ عمل الكاهن الأوّل قبل احتفاله باللّيتورجيّا الإلهيّة يكمن في أن يؤهّب نفسه بشكلٍ صحيح، نظرًا لطبيعتها السّامية. يؤكّد ذلك القدّيس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس (١ كورنثس ١١: ٢٨-٢٩)، حيث يوجّه تحذيرًا لا للمؤمنين فحسب، بل للكاهن بشكلٍ خاصّ، لأنّه لا يتلّقى التّقادم المقدّسة خلال اللّيتورجيّا الإلهيّة فقط، ولكنّه أيضًا يُنفّذ فعل التّقديس بفضل النّعمة الممنوحة له من قِبَل يسوع المسيح نفسه[٩٧].

---

٩٧) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine Liturgy***, p.110.

إنّ المسلكيّة الرّوحيّة والإعداد الدّاخليّ للكاهن يدخلان أساسًا في صُلب كيانه الّذي يجب أن يكون في حالة النّعمة والقداسة؛ وبما أنّ الكاهن هو خادم سرّ خلاص الإنسان، فيتوجّب عليه بالتّالي أن ينفصل عن عالم الخطيئة ويتّجه نحو الله، ذلك أنّ هدف الخدمة الكهنوتيّة هو "أن تُعطيَ النّفس أجنحة، أن تنتشلها من العالم، وتهبَها لله... وأن تجعل المسيح، بنعمة الرّوح القدس مقيمًا في قلوب المؤمنين... وأن تُؤلّه الإنسان". يجب على الكاهن العازم أن يخدم الأسرار الإلهيَّة، أن يكون قبل الخدمة، متسالِمًا مع الجميع، طاهرًا نفسًا وجسدًا، لا يضمر لأحدٍ سوءًا، بعيدًا عن الأفكار الشّرّيرة، ومواظبًا في ليلة الخدمة على الإمساك وغير متوانٍ عن الموعد المضروب للخدمة. هذا ما يؤكّده **القدّيس غريغوريوس اللّاهوتيّ** بقوله: "ما مِن أحدٍ مستحقٍّ للإله العظيم، الضّحيَّة ورئيس الكهنة في الوقت عينه، طالما أنّه لم يقدّم نفسه أوّلاً ذبيحةً إلى الله حيّةً مقدّسة".

الخطوة الأولى والأساسيّة الّتي تقود الكاهن إلى المذبح المقدّس هي المحبَّة وعدم الإساءة لأحد: "فإذا كنتَ تقرّب قربانك إلى المذبح وذكرتَ هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، فدَعْ قربانك هناك عند المذبح، واذهَب أوّلاً فصالِح أخاك، ثمّ عُدْ فقرّب قربانك" (متّى ٥: ٢٣-٢٤). صحيحٌ أنّ هذه الآيات المقدّسة موجّهةٌ إلى كلّ المسيحيّين، ولكنّها موجّهةٌ بالأخصّ إلى الكاهن نفسه، الّذي يُقرِّب، باسم جميع المسيحيّين، الذّبيحة غير الدّمويّة[٩٨]. وهذا يتطلّب من الكاهن المحتفل باللّيتورجيّا الإلهيّة، كي يقترب باستحقاقٍ إلى المذبح المقدّس، **التّمتّع بخصائص روحيّة على الصّعيد الشّخصيّ**، يُمكن أن نُعدّدها كالتّالي:

- أن يكون قلبُه متحرّرًا من العداء والكراهية، ذلك لأنّ الكاهن، في نظر الكنيسة، هو إيقونة "الحمل البريء من العيب"، يسوع المسيح؛
- أن تكون نفسُه أيضًا متحرِّرةً، بقدر المُستطاع، من كلّ الأفكار الشّرّيرة، لأنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي أقدس الأعمال الكهنوتيّة؛

---

٩٨) **Ibid**, p.111.

- أن يكون جسدُه أيضًا طاهرًا وعفيفًا بالإمساك عن الأهواء (الشّهوات والملذّات الجسديّة)، والامتناع عن المأكل والمشرب. هذا ما يدعوه لاهوت الكنيسة اللّيتورجي "**العفّة الإفخارستيّة**" و "**الصّوم الإفخارستيّ**" الّذي أخذ بالانتشار في الكنيسة حوالي نهاية القرن الثّاني الميلاديّ وبداية القرن الثّالث الميلاديّ. وبما أنّ اليوم اللّيتورجيّ يبتدئ في المساء، فإنّه من المُستَحسَن أيضًا أن يبتدئ الصّوم الإفخارستيّ عشيّة الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة، الّذي، وبحسب التّقليد البيزنطيّ الأصيل[٩٩]، يجب أن يكون صباح الأحد، لأنّه احتفال الكنيسة بقيامة المسيح المجيدة الواقعة فجر الأحد (راجع متّى ٢٨: ١؛ مرقس ١٦: ٢؛ لوقا ٢٤: ١؛ يوحنّا ٢٠: ١). هذا ما حدا بالكنيسة إلى حثّ الكهنة والمؤمنين على السّواء وتحريضهم على نكران الذّات من خلال امتناعهم عن إعطاء الجسد حاجاته ورغباته[١٠٠]؛
- وأن يكون أخيرًا، متصالحًا مع الجميع، إذ إنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي ذبيحة المصالحة بين الله والإنسان.

٢. عَظَمَة الخدمة الكهنوتيّة

إنّ عَظَمَة الخدمة الكهنوتيّة الخاصّة بالاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة تُحتِّم على الكاهن، إذًا، أن يكون في حالة **يَقَظَةٍ ملائكيّةٍ** أثناء الاحتفال العظيم بسرّ الحمل الفصحيّ، الإفخارستيّا، لئلاّ يشرد الذّهن تائهًا في متاهات العالم وتفاهات العمر. فكم يجب أن يكون الكاهن غير مكترثٍ بأشياء الأرض وذلك لئلاّ يكون، عندما يحتفل بالخدم، الأسرار العظيمة والإلهيّة، مأخوذًا بفخاخ العدوّ، لكي يستطيع دائمًا أن يحترق بمحبّةٍ طاهرةٍ لله ولإخوته. وهذا ما

---

٩٩) إلاّ أنّ الاحتياجات الرّعويّة في عصرنا الحاليّ جعلت الكنيسة تتّخذ قراراتٍ كنسيّةً من أجل خير المؤمنين الأسمى، وتسمح بالاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة بعد الظّهر، إذ إنّ الرّبّ يسوع واضحٌ أشدّ الوضوح في الإنجيل المقدّس: "إنّ السّبت جُعِلَ للإنسان، وما جُعِلَ الإنسان للسّبت. فابنُ الإنسان سيّد السّبت أيضًا" (مرقس ٢: ٢٧-٢٨). فعندما يكون جزءٌ كبيرٌ من أبناء الرّعيّة في أعمالهم ومصالحهم ويصعُب عليهم المجيء إلى الكنيسة للاحتفال بالذّبيحة الإلهيّة في الصّباح، إذ ذاك ولأسبابٍ رعويّةٍ صوابيّةٍ، تسمح الكنيسة بأن يتمّ هذا الاحتفال في ساعاتٍ متقدّمة من يوم الأحد.

١٠٠) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.112.

يجب أن يكون عليه المؤمنون أيضًا. "فالكاهن الّذي أعطِيَ نعمةَ مباركةِ الخبز والخمر يقوم بمَهمّةٍ لم يُكلِّفِ الله الملائكةَ مَهمّةً مثلها (من أقوال القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم). لذا، فهو مطالَبٌ بأن يتطهّر، بأن يكون فوق الملائكة، فيدخل الهيكل ساجدًا وعقلُه في قبضة النّور الإلهيّ"[101].

٣. ثابتٌ قلبي يا الله

على الكاهن، قبل تقديم الذّبيحة الشُّكريّة، أن يُقدّم نفسَهُ ذبيحة. هذه **الذّبيحة الذّاتيّة** تطهّرُ الكاهن كلَّه، نفسًا وجسدًا. والكاهن الّذي يقترب من الأسرار الطّاهرة ولم يسبق له أن قدّم نفسه ذبيحة، لا يقترب من النّور الحقيقيّ، بل مِن نارٍ محرقة، ويؤكّد **القدّيس ثيوغنستوس** هذا بقوله: "أنتَ يا مَن جُعِلتَ أهلاً لنعمة الكهنوت الإلهيّة الشّريفة، يجدرُ بكَ قبلَ كلِّ شيء، أن تقدّمَ ذاتكَ ذبيحةً بموت الأهواء (التّوبة)، عندها تجرؤ على الاقتراب من الذّبيحة الرّهيبة الحاملة الحياة، إذا كنتَ لا ترغب أن تحرقكَ النّارُ الإلهيّة كمادةٍ سريعة الاحتراق".

٢) رتبة أخذ الإذن (الكيرون)

إنّ هذه الرّتبة معروفةٌ بصلاة الباب، يُصلّيها الكاهن أمام الإيقونسطاس قبل دخوله إلى الهيكل ليرتديَ حلّته الكهنوتيّة، ويشرع بتحضير الذّبيحة المقدّسة. إنّها فرصة تهيئةٍ للدّخول إلى الملكوت، وقفةُ استغفارٍ أمام المذبح المقدّس وأبوابه المقدّسة. فالكاهن في صلاة الباب تنتابه **عاطفة التّوبة والاستغفار**، من جهة، **وعاطفة الثّقة بالله وأبوّته ورحمته**، من جهةٍ أخرى. في هذه الأثناء، يتلو الكاهن أناشيد التّوبة الثّلاثة الّتي تردّدها الكنيسة المقدّسة في صلاة النّوم الكبرى الّتي تُتلى في الصّوم الأربعينيّ المقدّس: "إرحمنا يا ربّ ارحمنا..."، "إرحمنا يا ربّ، فإنّا عليكَ توكّلنا..."، وأخيرًا: "إفتحي لنا باب التّحنُّن، يا والدة الإله المباركة...". إنّ هذه الأناشيد الثّلاثة تُذكّر الكاهن أنّه وبالرّغم من حصوله على كرامة ونعمة كهنوت المسيح، إلاّ أنّه لا يزال خاطئًا أمام الله، وأنّه بحاجةٍ إلى رحمة الله. وبعد أنّ يكون الكاهن قد

---

١٠١) نقولا كاباسيلاس، ***شرح القدّاس الإلهيّ***، ص. ١٥.

عبّر عن ندامته أمام الله، وعن رجائه برحمته الغزيرة، وطلب بركته الإلهيّة ونعمته المخلّصة ليكون أهلاً للاحتفال بالليتورجيّا الإلهيّة، يدخل إلى الهيكل من الباب المقدّس مصحوبًا بشفاعة القدّيسين ووالدة الإله الّتي فتحت باب التّحنّن الإلهيّ أمام البشريّة قاطبةً بقبولها لتحقيق تدبير الله الخلاصيّ في التّاريخ.

وفيما الكاهن يدخل إلى الهيكل يتلو آيةً من سفر المزامير تقول: "[وأنا بكثرة رحمتك] أدخل بيتكَ. وأسجد أمام هيكلك المقدّس بمخافتك" (٥: ٨). إنّ كلمات هذا المزمور تُعيد إلى الأذهان مشهد دخول كهنة العهد القديم إلى هيكل أورشليم لتقديم العبادة. وإنّنا نتجرّأ فنقول "إنّ هيكل العهد الجديد هو أقدس من قدس أقداس العهد القديم الّذي سكنه الله بواسطة الغمام، إذ إنّ الله – الإنسان، يسوع المسيح يسكن في الإفخارستيّا المقدّسة، وهو حاضرٌ، فعلاً وحقًّا، تحت مظهر الخبز والخمر"[١٠٢].

لذا يتّضح أنّ الكاهن يتجرّأ على الدّخول إلى المكان المقدّس، إلى الهيكل، بعد أن يكون قد نقّى نفسه بصلوات التّوبة والنّدامة، والتمس رحمة الله من كلّ قلبه[١٠٣]. نستطيع أن نُقدِّر الضّرورة المطلقة لمِثل هذه التّنقية فقط حين نحاول أن نفهم الخشية والوقار والمخافة الّتي توليها الكنيسة البيزنطيّة للمكان المقدّس، الهيكل. لذلك، ينحني الكاهن قبل دخوله إلى الهيكل للمؤمنين في الكنيسة استغفارًا: إنّها انحناءة المصالحة والتماس العفو والمغفرة من الجميع، وهو الشّرط المطلوب قبل الدّخول إلى الهيكل، وهي فكرةٌ إنجيليّةٌ بحتة (راجع متّى ٥: ٢٣-٢٤). فعند دخول المؤمنين إلى الكنيسة، عليهم أن ينحنوا أوّلاً أمام الإيقونستاس ثم لِكِلا الجانبَين من المُصلّين كتحيّة محبّةٍ وسلام، وكإشارةٍ للمصالحة والمسامحة[١٠٤].

حين يدخل الكاهن إلى الهيكل، ينحني ثلاث مطانيات (سَجَدات)، ثمّ يُقبّل إنجيل الهيكل المقدّس، لأنّه يحتوي تعاليم الرّبّ يسوع ومشوراته، وهو، في

---

(١٠٢) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine Liturgy***, p.115.

(١٠٣) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.225.

(١٠٤) **Ibid**, p.232.

الوقت عينه، يأخذ مكان المسيح، ثمّ يُقبّل المائدة المقدّسة نفسها، وبعدها صليب الهيكل. إنّه المسيح نفسه الّذي قام الكاهن بتقبيله ثلاث مرّات: فالإنجيل المقدّس يرمز إلى المسيح المعلّم الإلهيّ؛ بينما ترمز المائدة المقدّسة إلى المسيح الذّبيحة ورئيس الكهنة؛ وأخيرًا، يمثّل صليب الهيكل عود خلاصنا وانتصار المسيح على الخطيئة والموت. أمّا الكاهن، فهو يُمثّل كنيسة المسيح الّتي دعاها القدّيس بولس "بالعروس" الّتي افتداها المسيح بدمه الخاصّ (أفسس ٥: ٢٣-٢٨). وهكذا، فإنّ العروس (كنيسة المسيح) بهذه الطّريقة تُعطي عريسها السّماويّ قُبلة المصالحة والمحبّة.

٣) ارتداء الحلّة الكهنوتيّة

إنّ الألبسة اللّيتورجيّة هي اللّباس الرّسميّ للخدم المقدّسة كالّتي كان يلبسها عظيم الكهنة اليهوديّ في العهد القديم. ولكن، لا صلة للاستمراريّة خلال القرون الثّلاثة الأولى، إذ لم يكن للمسيحيّين لباسٌ خاصٌّ للخدم اللّيتورجيّة. نجد في "شرائع هيبوليتس" ما يلي: "بقدر ما يرغب الأساقفة في الاشتراك بالأسرار، على الكهنة والشّمامسة أن يجتمعوا حوله مُرتدين ملابس بيضاء نظيفة، أكثر جمالاً من تلك الّتي يرتديها سائر النّاس"[١٠٥].

من الشّرق، ومن القدس خاصّة، تأتي الإشارة الأقرب للملابس اللّيتورجيّة الخاصّة بالعبادة المسيحيّة. نحن نعلم من ثيودوروس أنّه حوالي العام ٣٣٠م أعطى الملك قسطنطين "رداءً مقدّسًا" من النّسيج، مطرّزًا بالذّهب لكاتدرائيّته الجديدة في القدس؛ كان يلبس هذا الثّوب الأسقف الّذي سيحتفل بسرّ المعموديّة المقدّس في عشيّة الفصح (أي سبت النّور). وبعد بضعة عقود، نرى روبريكا (قاعدة من قواعد القيام بالخدمة اللّيتورجيّة) في الدّساتير الرّسوليّة تُصرّ على أنّ **الأسقف الّذي سيحتفل بسرّ الإفخارستيّا المقدّس يجب أن يكون مرتديًا لباسًا ليتورجيًا فخمًا ومُشرقًا**[١٠٦]. حوالي العام ٤٠٠م، يُعطي القدّيس إيسيذوروس البيلوسيّ (تُعيّد له كنيستنا البيزنطيّة في الرّابع من شهر شباط) الإشارة الأولى للباسٍ ليتورجيٍّ مميّز هو **الأموفوريون**، الّذي يلبسه الأساقفة كعلامةٍ على

---

١٠٥) **Ibid**, p.234.

١٠٦) **Ibid**, p.235.

واجباتهم الرّوحيّة، الكنسيّة، اللّيتورجيّة... كرعاةٍ حقيقيّين للقطيع. وفي وقتٍ متأخّرٍ من القرن السّادس الميلاديّ كان الزّنّار الخاصّ بالشّمامسة (الأوراريون) والأموفوريون (الخاصّ بالأساقفة) اللّباسَين اللّيتورجيَّين المميَّزَين في تلك الحِقبة التّاريخيّة.

إنّ من أهمّ مزايا الحُلّة الكهنوتيّة والأسقفيّة هي الميزة الرّوحيّة الّتي يجب أن يتمتّع بها أصحاب الدّرجات الكهنوتيّة (الشّمامسة، الكهنة، والأساقفة)، ذلك أنّ النّاس اليوم هم في أمسّ الحاجة إلى أن يرَوا في الكاهن أو الأسقف رجل صلاةٍ وروحانيّة. ولذا، تفرض الحُلّة على الكاهن أو الأسقف **نقاء القلب وصفاء الذّهن والفضائل الرّوحيّة والكنسيّة كالعفاف، والطّهارة، والاستقامة، والفرح، والضّمير النّقيّ**. إنّها، أي الحُلّة الكهنوتيّة، تخدم كتذكيرٍ دائمٍ للكاهن أنّه يجب أن يحاول دائمًا أن يُبقي نفسه بعيدًا عن الخطيئة والدّنيويّة والميول الخطيرة (الملذّات والشّهوات الجسديّة)؛ فهي، إذًا، **تُنمّي في الكاهن حسّ الاجتهاد الثّابت في المحافظة على يقظته الرّوحيّة، وتواضعه الإنجيليّ، وروح التّوبة لنموّ نعمة الله أكثر فأكثر في روحه**؛ إنّها تُميّز الكاهن من الشّعب؛ إنّها ترمز إلى مَهمّته ككاهنٍ للمسيح، وتُشدّد على كرامة كهنوته. إنّها علامةٌ مرئيّةٌ لنعمة الله الخفيّة الّتي تلقّاها الكاهن من خلال سرّ الكهنوت المقدّس. إنّ الإنسان الّذي يتّشح بالثّياب الكهنوتيّة لم يَعُدْ يُمثّل إنسانًا عاديًّا، بل إنسانًا مقدّسًا: إنّه عريس يسوع المسيح وخادمه وكاهنه، وهو الّذي يمنحه القوّة والنّعمة للاحتفال بالذّبيحة غير الدّمويّة، اللّيتورجيّا الإلهيّة.

سنقوم بدراسةٍ لاهوتيّةٍ وليتورجيّةٍ للحُلّة الكهنوتيّة والأسقفيّة في القسم الثّالث من دراستنا الحاليّة. لذلك، فإنّنا نكتفي بهذا القدر من المعلومات العامّة والتّاريخيّة للثّياب اللّيتورجيّة المُستَعملة في الخِدم الأسراريّة المقدّسة.

٤) غسل اليدَين

١. مفهوم الغُسل في العهد القديم

إنّ الطّهارة مفهومٌ مشتركٌ للدّيانات القديمة، وتقوم على الاستعداد المطلوب للتّقرّب من الأشياء المقدّسة. وقبل أن ندخل في موضوع الطّهارة الكهنوتيّة، سلّط الأنبياء الأضواء على أن لا قيمة تُذكَر للغُسل والذّبائح الّتي تخلو من

الطّهارة الباطنيّة: "فحين تبسُطون أيديكم أحجب عينيّ عنكم، وإن أكثرتم من الصّلاة لا أستمع لكم، لأنّ أيديكم مملوءةٌ من الدّماء. فاغتسلوا وتطهّروا وأزيلوا شرّ أعمالكم من أمام عينيّ وكفُّوا عن الإساءة" (أشعيا ١: ١٥-١٦؛ راجع أيضًا إرميا ٧: ٢١-٢٣). نصٌّ نبويٌّ آخر لا يقلّ أهميّةً عن النّصّ الأشعيويّ السّابق، يعود إلى النّبيّ هوشع الّذي قال على لسان الرّبّ: "فإنّما أُريد الرّحمة لا الذّبيحة، ومعرفة اللّه أكثر من المُحرَقات" (٦: ٦)، وقد جاءت هذه الآية النّبويّة أيضًا على لسان المعلّم الإلهيّ في العهد الجديد (راجع متّى ١٢: ٧).

نرى، في العهد القديم، أنّ الكاهن لا يغسل يدَيه فحسب، بل كامل جسده، تلك كانت وصيّة الرّبّ لموسى، إذ قال له: "وهذا ما تصنعُه لهم لتُقدّسَهم ليكونوا لي كهنة... وقدّم هرون وبنيه إلى باب خيمة الموعد **واغسِلهم بالماء**" (خروج ٢٩: ١-٤)؛ ويطلب الرّبّ من موسى أيضًا: "إصنع مغسلاً من نحاس، قاعدته من نحاس للغُسل، وضَعْهُ بين خيمة الموعد والمذبح، واجعل فيه ماء، فيغسل هارون وبنوه منه أيديهم وأرجلهم. إذا دخلوا خيمة الموعد، فليغتسلوا بماءٍ لئلاّ يموتوا، وإذا تقدّموا إلى المذبح ليخدموا ويحرقوا ذبيحةً بالنّار للرّبّ، فليغسلوا أيديهم وأرجلهم لئلاّ يموتوا. يكون ذلك لهم فريضةً أبديّة، له ولنسله مدى أجيالهم" (٣٠: ١٨-٢١). ثمّ نقرأ في موضع متقدّمٍ من سفر الخروج أيضًا: "ووَضَعَ المغسل بين خيمة الموعد والمذبح وجَعَلَ فيه ماءً للغُسل، ليغسل منه موسى وهارون وبنوه أيديهم وأرجلهم. فكانوا، عند دخولهم خيمة الموعد وعند تَقَدُّمهم إلى المذبح، يغتسلون، كما أمر الرّبّ موسى" (خروج ٤٠: ٣٠-٣٢).

وكيف لا نأتي على ذكر المزمور الشّهير الّذي نردّده في كافّة صلواتنا الطّقسيّة اللّيتورجيّة، المزمور الخمسين، الّذي لا يتكلّم عن التّوبة فقط، بل يُشدّد على موضوع التّنقية القلبيّة: "إغسلني كثيرًا من إثمي، ومن خطيئتي طهّرني... إنضحني بالزّوفى فأطهُر، إغسلني فأبيضّ أفضل من الثّلج... قلبًا طاهرًا أُخلُق فيّ يا أللّه، وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي... إنّما الذّبيحة للّه روحٌ منسحق، لا يرذلُ اللّه قلبًا منسحقًا ومتواضعًا" (٥٠: ٢، ٧، ١٠، ١٧). إنّ آيات هذا المزمور هي اختصارٌ لِما يجب أن يكون عليه خادم اللّه قبل تقرّبه من المذبح لتقديم الذّبائح والمُحرَقات: طهارة القلب الّتي تُولّد طهارة الجسد كلّه؛ وبالتّالي،

يُصبح الإنسان بكيانه كلّه طاهرًا ونقيًّا: "النَّقيُّ الكفَّين، والطّاهر القلب، الَّذي لم يُسلِم نفسه إلى الباطل، ولم يحلف بالغشّ لقريبه، إنّه ينال بركةً من الرّبّ" (مزمور٢٣: ٤-٥).

٢. **ماهيّة غسل اليدَين في اللّيتورجيّا الإلهيّة**

بعد أن ينتهي الكاهن من لبس حلّته الكهنوتيّة وقبل أن يبتدئ بتهيئة الذّبيحة المقدّسة، يقوم بغسل يدَيه وهو يتلو الآيات الأخيرة من المزمور الخامس والعشرين: "بالنّقاوة أغسِلُ يديَّ وأطوف بمذبحك يا ربّ. لأسمع صوت تسبيحك وأُحدِّث بجميع عجائبك. يا ربّ، إنّي أحببتُ جمال بيتك، ومَقام سُكنى مجدك. لا تُهلك مع الكَفَرَة نفسي ولا حياتي مع رجال الدِّماء. الَّذين تلطّخت أيديهم بالمآثم، وامتلأت أيديهم رُشوة. أمّا أنا فقد سلكتُ في سلامتي، فافتَدِني يا ربّ وارحمني. قامت قدمايَ في الاستقامة، في المجامع أُباركُك يا ربّ" (مزمور ٢٥: ٦-١٢). بينما نلاحظ أنّه في القداديس الحَبريّة (أي تلك الَّتي يرأسها البطريرك أو رئيس الكهنة) يقوم الأسقف بغسل يدَيه أثناء ترنيم نشيد الملائكة "أيّها الممثّلون الشّيروبيم"، أي قبل تقدمة الذّبيحة الإلهيّة، عند الدّخول الكبير.

يتّضح من كلّ ما تقدّم عرضه أنّ اليد الَّتي تلمس السِّرّ المقدّس يجب أن تكون نظيفةً جسديًّا وروحيًّا[١٠٧]. وهذا ما عبّر عنه القدّيس كيرلّس الاسكندريّ بقوله "إنّ غسل اليدَين يدلّ على نقاوة أعمالنا وبراءتها". بينما نلاحظ أنّ القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم يُشدِّد على "نظافة النّفس" بقوله: "نحن نغسل أيدينا حين ندخل إلى الكنيسة، أفلا يجدر بنا بالحريّ أن نغسل قلوبنا أيضًا؟". ويكمل الذّهبيّ الفم كلامه قائلاً: "لماذا؟ هل أيدينا هي مَن تتكلّم؟ إنّها النّفس مَن تنطق الكلمات؛ لها يُولي الله اهتمامه وعنايته؛ فلا جدوى من نظافة الجسد، إذا كانت النّفس دَنِسَة"[١٠٨].

---

١٠٧) **Ibid**, p.249.

١٠٨) **Ibid**, p.250.

وهكذا يتّضح أنّ الغايةّ الأساسيّة من غسل اليدَين تكمن، إذًا، في **النّقاوة الدّاخليّة والطّهارة الجسديّة الّتي يجب أن يتحلّى بها الكاهن قبل أن يُقدّس جسد الرّبّ**، وبالتّالي، في **التّحرُّر من كلّ وصمة الخطيئة وعارها**؛ وهذا يقودنا بالطّبع إلى إبراز حقيقةٍ كنسيّةٍ تُظهر أنّ غسل اليدَين ما هو إلاّ رمزٌ **للنّقاوة الرّوحيّة**، من جهة، **ولطهارة النّفوس المكرّسة للرّبّ**، من جهةٍ أخرى.

نودّ هنا أن نُلفت انتباه القارئ إلى وجود بعض الوثائق اللّيتورجيّة القديمة الّتي تُقدّم أدلّةً واضحةً على أنّ الشّعب، فضلاً عن الكهنة، كانوا يغسلون أيديهم قبل الخِدَم الإلهيّة. ويبدو هذا جليًّا في زمن القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم، حيث تمّ **وضع أحواض ماءٍ عند مدخل الكنيسة**، بحيث يستطيع المؤمنون غسل أيديهم كعلامةٍ على رغبتهم في أن يكونوا أنقياء القلوب في خدمتهم وصلاتهم للرّبّ. وما زالت العديد من كنائسنا شاهدةً على هذه العادة الطّقسيّة.

الباب الثّاني

تهيئة الذّبيحة المقدّسة

١) لمحة ليتورجيّة وتاريخيّة عامّة

١. ماهيّة التّقادم

إنّ ليتورجيّا التّهيئة هي طقس تقديم العطايا الّتي تتكوّن منها العناصر الإفخارستيّة: الخبز والنّبيذ. بكلماتٍ أخرى، إنّها تقديم الخبز والنّبيذ ، اللّذين سيتحوّلان في مراحل متقدّمة من اللّيتورجيّا الإلهيّة، إلى جسد ودم يسوع المسيح، بقوّة كلمات التّقديس المُعلَنة من الكاهن[١٠٩]، خادم الرّوح القدس في تلك اللّحظات المقدّسة بالذّات. إنّ أصل هذه اللّيتورجيّا يُمكن إرجاعه إلى العصر الرّسوليّ. فمن الوثائق اللّيتورجيّة لبدايات المسيحيّة نتعلّم أنّ المؤمنين كان يجتمعون للاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة، مُحضرين معهم خبزًا ونبيذًا كتقدمةٍ للرّبّ، معبّرين من خلال تقدمتهم هذه عن "حبّهم الصّادق في التّضحية، وإيمانهم الفعّال، وعُضويّتهم في الكنيسة"[١١٠].

جزءٌ من هذه التّقدمات كان مُخصّصًا للخدمة اللّيتورجيّة، بينما يوضع الباقي جانبًا لمأدبة المحبّة "الأغابي". ولقد تميّز المؤمنون بسخائهم وكرمهم فيما يتعلّق بالتّقادم لدرجة أنّهم كانوا يُقدّمون، بالإضافة إلى الخبز والنّبيذ ، الزّيتَ، والشّموع، والفضّة، والذّهب[١١١]، ناهيك عن التّقادم الخاصّة بالأعمال الخيريّة الّتي تُساهم في دعم احتياجات المُعوَزين والأرامل والأيتام والمرضى (راجع أعمال

---

١٠٩) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine Liturgy***, p.103.

١١٠) **Ibid**, p.107.

١١١) **Ibid**, p.103.

٢: ٤٥)، وتُعبّر، في الوقت عينه، عن **المحبّة والتّماسُك** اللّذين تميّز بهما المسيحيّون خلال فترة الاضطهاد الدّينيّ الّذي تعرّضوا له خلال القرون الأولى للمسيحيّة، ومن ثمّ دخلت هذه الأعمال في منظومة تدبير الكنيسة الاقتصاديّ، الّذي أخذ في الازدهار بعد الحريّة الدّينيّة الّتي منحها الإمبراطور قسطنطين للمسيحيّين في مرسوم ميلانو عام ٣١٣م.

وهكذا نُدرك أنّ أصل طقس التّهيئة لم يكن فقط تحضيرًا للمواد الإفخارستيّة (الخبز والنّبيذ)، ولكنّه كان أيضًا عملاً شعبيًّا يدلّ على محبّة المسيحيّين لكنيستهم، ولكهنتهم، ولجميع أولئك الّذين كانوا تحت حماية الكنيسة، والأهمّ من ذلك كلّه، أنّه كان تعبيرًا شُكريًّا يُشير إلى عرفان المؤمنين بالجميل لهبة الله مصدر كلّ الخيرات، والّتي يتلّقاها المؤمن خلال الذّبيحة غير الدّمويّة، الإفخارستيّا المقدّسة. وقد كان يُعتبر طقس تقديم العطايا التزامًا طبيعيًّا لجميع المؤمنين. إلاّ أنّ هذا الواقع قد تغيّر بحيث تحوّل طقس التّهيئة هذا من عملٍ شعبيٍّ إلى عملٍ خاصٍّ، عملٍ ليتورجيٍّ كهنوتيّ، فيه يُحضّر الكاهن ما يحتاجه من المواد الإفخارستيّة لتقديسها أثناء القدّاس الإلهيّ[١١٢].

٢. مكان تهيئة الذّبيحة المقدّسة

نظرًا لهذا التّحوّل في المضمون والمفهوم، أصبحت المراسيم اللّيتورجيّة تهيئة القرابين تجري في الهيكل خلف الإيقونستاس. ولأنّ الهيكل هو مكان سُكنى الله على الأرض، وقد أصبح مقدّسًا، بسبب الحضور الحقيقيّ للمسيح الإفخارستيّ (القربانيّ) نفسه، فلقد لقبّته الكنيسة البيزنطيّة **بالمكان المقدّس أو قدس الأقداس**. إنّه، تاليًا، يُعبّر عن الحضور السّرّيّ للألوهيّة في المقدّسات والإيقونات. وهذا هو السّبب الّذي جعله منفصلاً عن خصوصيّة الكنيسة بواسطة الإيقونستاس، الحاجز الغنيّ بالزّخرفة والمغطّى بالإيقونات الّتي ما هي إلاّ، بحسب اللاّهوت الشّرقيّ البيزنطيّ، **ظهورٌ حقيقيّ وتجلٍّ حيويّ للطّاقة الإلهيّة في العمل على الأرض، وذلك لأنّ الإيقونات تُمثّل أشكالاً**

---

١١٢) **Ibid**, p.106.

بشريّةً قد وُلدَت مجدّدًا في الأبديّة[١١٣]. **يقوم الكاهن المزمع أن يحتفل مع الجماعة المؤمنة بالإفخارستيّا بتحضير للذّبيحة الإلهيّة على مذبح التّقدمة قبل البدء بالقدّاس الإلهيّ. إنّ تهيئة القرابين تتمّ على مائدة الذّبيحة وهي تقوم على شمال الهيكل.**

٣. مضامين التّهيئة اللّاهوتيّة

واحترامًا لسرّيّة الحدث وغموضه وقداسته ولكونه يفوق العقل، فقد صارت هذه الخدمة الشّريفة محجوبةً عن أعين المؤمنين بحيث تُتمّم داخل قدس الأقداس. تتضمّن هذه الخدمة أحداثًا خلاصيّةً كالتّجسّد الإلهيّ، وذبيحة الفداء، والصّليب، والقيامة من بين الأموات، والصّعود إلى السّموات، وعودتنا واشتراكنا مع القدّيسين في حياة النّعمة حول عرش المسيح، ووَحدة الكنيسة التّامّة عبر كلّ العصور راقدين وأحياء، مؤمنين وقدّيسين وملائكة. الكلّ يشترك في الحدث ويأخذ مكانه حول الحمل. كان يسمح في الكنيسة الأولى لأولئك الّذين عُمّدوا وتأسّسوا في جدّة الإيمان أن يُحضروا تقدماتهم للكنيسة، لأنّ القدّاس الإلهيّ هو تقدمة الله للإنسان وتقدمة الإنسان لله في آنٍ معًا. يختار الكهنة من تقدمات المؤمنين ما هو ضروريٌّ للخدمة وأمّا الباقي فكانوا يستخدمونه لمعيشتهم ويوزّعون منه على الفقراء والمعوزين.

تشير هذه الرّتبة إلى السّنين الثّلاثين الأولى الّتي قضاها المسيح في الخفاء تحضيرًا لرسالته العلنيّة. وفي الواقع أنّ هذه الرّتبة تتمّ كلّها في داخل الأقداس وراء الأبواب المقدّسة والسّتائر، بعيدًا عن أنظار المؤمنين، كما انقضت حياة المسيح الخفيّة بعيدًا عن أنظار العامّة.

---

١١٣) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, pp.228-229.

٢) تهيئة الذّبيحة المقدّسة

١. التّقدمة الإفخارستيّة: الخبز والخمر

أ. مفهوم التّقدمة

يتحدّر هذا الاسم "التّقدمة" من عادة المسيحيّين الأوائل تقديم الخبز والخمر وكلّ ما تحتاجه إقامة القدّاس الإلهيّ. وإذا ما طالعنا السِّفر الأوّل من الكتاب المقدّس، سفر التّكوين، نجد أنّه يتكلّم عن هذه التّقدمة، حيث ترى الكنيسة في قربان ملكيصادَق، الملك والكاهن، الّذي قدّم خبزًا وخمرًا لإبراهيم (تكوين ١٤: ١٨) صورةً مسبّقةً لقربانها. فهما، أي الخبز "ثمرة الأرض"، والخمر "ثمرة الكرمة"، عطيّةٌ مجّانيّةٌ من عطايا الخالق للإنسان الّذي يُقابلها بتقديم شُكره للّه على ما وهبه (راجع مزمور١٠٣: ١٣-١٥).

ب. مفهوم الخبز والخمر بين العهدَين القديم والجديد

يختصر كتاب التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة مفهوم الخبز والخمر في العهد القديم بارتباطهما بذبيحة العهد الجديد، فيقول: "في العهد القديم كان الخبز والخمر يُقدَّمان قربانًا من بواكير الأرض، علامة اعترافٍ بالخالق. ولكنّهما اكتسبا، في قرائن سفر الخروج، مغزًى جديدًا: فالخبز الفطير الّذي يتناوله بنو إسرائيل كلّ سنةٍ في عيد الفصح يذكّرهم بخروجهم من عبوديّة مصر. وأمّا ذكرى المنّ في البريّة فهي تُعيد إلى أذهان بني إسرائيل دائمًا أنّهم يَحيَون من خبز كلام اللّه: "فذلّلكَ وأجاعَكَ وأطعمكَ المنّ الّذي لم تعرفه أنتَ ولا عرفه آباؤكَ، لكي يُعلِّمَكَ أنّه لا بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ ما يخرج من فم الرّبّ يَحيا الإنسان" (تثنية ٨: ٣).

أمّا "كأس البركة" (١ كورنثس ١٠: ١٦) الّتي يَختَتِم بها اليهود الوليمة الفصحيّة، فهي تضفي على فرح العيد ونشوة الخمر، معنًى أُخرويًّا نابعًا من ذاك التّرقُّب الماسيويّ لأورشليم الجديدة. لقد أضفى يسوع، بإقامته الإفخارستيّا، معنًى جديدًا وحاسمًا على بركة الخبز والكأس"[١١٤]، إذ إنّه [يسوع] وضع الإفخارستيّا تذكارًا لموته وقيامته، وقد أمَرَ رسلَه بأن يُقيموها "إصنعوا هذا

---

١١٤) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ١٣٣٤، ص. ٤٠٥.

لذكري" إلى يوم مجيئه الثاني، جاعلاً إيّاهم كهنة العهد الجديد. فالمعنى الجديد الّذي أضفاه يسوع على بركة الخبز والكأس هو تأسيسه للإفخارستيّا أثناء احتفاله بالعشاء السّرّيّ مع تلاميذه، هذه الإفخارستيّا الّتي تُكمِل الفصح اليهوديّ وتستبق فصح الكنيسة الأخير في مجد الملكوت.

إنّ خطيئة الإنسان تكمن في أنّها لا ترى في الخبز إلاّ خبزًا وطعامًا فاسدًا لإنسانٍ زائل، ودليلاً على اتّحاد الإنسان بالخطيئة والموت. أمّا نحن المؤمنون فنعلم في المقابل أنّ في المسيح لم يَعُدِ الطّعام الأرضيّ الّذي نتناوله يتحوّل إلى لحمنا ودمنا، إلى حياتنا بل إلينا أنفسنا، وبالتّالي، فإنّ ما هو مائتٌ يتسربل عدم الموت وينطلق في رحلته نحو الحياة الأبديّة المنشودة. إنّ جسد الربّ يسوع الطّاهر ودمه المُحيي، يمنحان الإنسان المسيحيّ هدفه المفقود والمنشود في الوقت عينه، الحياة الأبديّة، ذلك لأنّ الله ما خلق الإنسان للموت، بل خلقه ليحيا فيه [الله] ومعه ومن خلاله حياةً لا نهاية لها، مليئةً بالحبّ الإلهيّ والخيرات السّماويّة الخالدة.

ت. تقدمة الذّات من خلال الخبز والخمر

إنّ الإنسان بتقدمته هذه القرابين إنّما يُدرك أنّه كائنٌ جائعٌ إلى الله ومتعطّشٌ إليه، وهو بالتّالي، يُقدّم نفسه وكلّ ما لديه لله، نَيلاً للصّفح والمغفرة، وتوقًا داخليًّا لإعادة رباط الشّركة المنقطعة بينه وبين الله، إذ إنّه من خلال تقديمه القرابين والذّبائح والمُحرقات، كان يتوق إلى ذاك الّذي لا يمكنه أن يَكفّ عن البحث عنه، لأنّ الله إنّما خلقنا لنفسه؛ فالتّقادم الإفخارستيّة (الخبز، والخمر، والماء) المقدّمة للرّبّ في اللّيتورجيّا الإلهيّة، هي رموزٌ تعبيريّةٌ عن حياة الإنسان، الّذي، بتقدمته إيّاها، يُعيد إلى الله جسده ودمه، أي حياته بأكملها كشهادةٍ على معرفته أنّ كلّ الأشياء تأتي من الله وتعتمد عليه. بتعابير أخرى، إنّها تُشير إلى اعتراف الإنسان بأنّ الله هو الخالق والمُعطي الحياة؛ فهذه التّقادم، إذًا، تأخذ مكان حياة الإنسان. لهذا السّبب، اختار يسوع المسيح بحكمته الإلهيّة، الخبزَ والخمر والماء كعناصرَ أساسيّة لذبيحة العهد الجديد، دالاً بذلك على تقدمته الذّاتيّة لحياته كذبيحةٍ من خلال جسده المكسور ودمه المُهراق على خشبة الصّليب. لذلك، فإنّ الخبز الّذي يُشير إلى حمل الله،

يسوع المسيح لم يَعُدْ خبزًا اعتياديًا، بل خبزًا مقدّسًا، والخمر الَّذي يدلّ على دم المسيح، لم يَعُدْ خمرًا عاديًا، بل الكأس المقدّسة، وأصبح كلاهما قرابينَ مقدّسة.

ث. ميزة الخبز والخمر اللّيتورجيّة

يجب أن يكون خبز الذّبيحة مدوَّرًا ومن جزأين أحدهما فوق الآخر كرمز للطّبيعتَين البشريّة والإلهيّة في يسوع المسيح، على الوجه العلويّ للخبز يوضع الطّابع (الختم) الَّذي يعود استعماله في اللّيتورجيّا البيزنطيّة ابتداءً من القرن الحادي عشر الميلاديّ[١١٥]، والَّذي تُشكّل مقاطعه الأربعة الكلمات اليونانيّة: IΣ XΣ NI KA (إيسوس خريستوس نيكا)، أي **يسوع المسيح الظّافر**، على أن يكون الخمر المستخدَم في الذّبيحة مصنوعًا من العنب الأحمر لأنّه يُذكّرنا بلون الدّم المسكوب عنّا، وهو يمزج بالماء لكي يُذكّرنا بالدّم والماء الَّذي خرج من جنب الرّبّ عندما طُعن بالحربة على الصّليب.

٢. الصّينيّة المقدّسة

تُمثّل الصّينيّة مغارة بيت لحم والجلجلة. ويُمكن وصف الصّينيّة الحاملة المسيح بأنّها فلك السّماء يُظهر لنا بالتّصغير الشّمسَ الرّوحيّة أعني المسيح وقد احتواه بطريقةٍ غير منظورة شكلُ الخبز. توضع على الصّينيّة الأجزاء التّالية:

أ. الحمل الإفخارستيّ

- **تعبير "الحمل" في العهد الجديد**

إنّ تعبير "الحمل" هو محض كتابيّ، ذلك أنّ الإنجيليّ يوحنّا في سفر الرُّؤيا يدعو ابن الله "الحمل" لحوالي ٢٧ مرّة. وفي إنجيله المقدّس، يتكلّم عن شهادة يوحنّا المعمدان الَّذي كشف هُويّة المسيح على أنّه "حمل الله" (يوحنّا ١: ٢٩). إنّ المعنى الكامل لهذا التّعبير يتضمّن "الضّحيّة"، وهكذا فقط يمكن ليسوع أن يُزيل الخطيئة. ففي الشّريعة القديمة، حملٌ كان يُقدّم ذبيحةً قربانيّةً في الهيكل عن خطايا الشّعب، في الصّباح وفي المساء على حدٍّ سواء. وهذا يؤكّد

---

١١٥) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.266.

أنّ صورة الضّحيّة في أشعيا ٥٣: ٧ تُشير بوضوح إلى أنّ المسيح، كحملٍ لله، يُحقِّق في شخصه هذه النّبوءة الأشعيويّة. ولا يغفل عن بالنا أنّ الحمل الفصحيّ في سفر الخروج هو استباقٌ لصورة المسيح – الحمل في العهد الجديد. إنّ الله قد أمر الإسرائيليّين بذبح حملٍ لا عيب فيه ورشّ دمه على قوائم الأبواب، بحيث يَعبُر الملاك المُهلِك عن البيوت المختومة بهذا الدّم (خروج ١٢). إذًا، لقد حَفِظَ دم الحمل كلّ بكرٍ من بني إسرائيل من الملاك المُهلِك. أمّا في العهد الجديد، فقد حُفِظَ الإنسان من مصيرٍ أكثر فظاعة، وحُرِّر من كلّ قيود الخطيئة، ومُنِحَ عطيّة الولادة الثّانية (١ بطرس ١: ٢٣)، وذلك بفضل دمٍ كريم، هو دم المسيح "ذاك الحمل الّذي لا عيب فيه ولا دَنَس" (١ بطرس ١: ١٩). في اللّيتورجيّا الإلهيّة، إنّ الخبز والخمر اللّذين سيتحوّلان إلى جسد ودم المسيح، سيُقدّمان كذبيحةٍ قربانيّةٍ بحسب الشّريعة الجديدة. إنّ ليتورجيّا التّهيئة تُحضّر، تتنبّأ، وتستبق ما سوف يحدث في الذّبيحة الإفخارستيّة تمامًا كما كان يتمّ في زمن التّحضير في العهد القديم من نبوءاتٍ واستباقٍ للأحداث الخلاصيّة التّاريخيّة[١١٦].

- **رمزيّة الحمل**

يُمثِّل المسيح المذبوح بحسب أناشيد أشعيا عن العبد المتألّم (٤٢: ١-٩؛ ٤٩: ١-١٣؛ ٥٠: ٤-١١؛ ٥٢: ١٣-٥٣: ١٢)، حيث يذكر الكاهن آياتٍ مُنتقاةً من النّشيد الرّابع الأشعيويّ (راجع أشعيا ٥٣: ٧-٨) الّذي يُعتبر، ومن دون أيّة مبالغة، النّصّ الأكثر أهميّةً في كلّ كتابات العهد القديم؛ وهذا يتجلّى أوّلاً بالاستشهادات الوافرة في العهد الجديد (لوقا ٢٢: ٣٧؛ أعمال ٨: ٣٠-٣٥؛ ١ بطرس ٢: ٢٢-٢٥)، وثانيًا، بالأدب اليهوديّ والمسيحيّ الضّخم الّذي كان يستند على هذه النّبوءة عبر القرون. إنّ الموضوع المسيطر، في الواقع، هو **تمجيد المسيح "المنتصر والظّافر" من خلال آلامه** الّتي سيتحمّلها بالنّيابة عن جنس الأنام[١١٧]. وهكذا، نلمس أنّ موضوع النّبوءة الحاليّة لا يتطرّق إلى آلام عبد الله فحسب، بل إلى انتصاره على الآلام وتمجيده بعيدًا عن هذا العار والإذلال. ومن هنا يتّضح سبب كتابة عبارة **"يسوع المسيح الظّافر"** بالأحرف اليونانيّة على الحمل، كما أشرنا سابقًا. هذا فضلاً عن

---

١١٦) **Ibid**, p.270.

١١٧) F. Duane Lindsey, ***The servant songs***, pp.97-98.

أنّه يمثّل المسيح المطعون على خشبة الصّليب (راجع يوحنّا ١٩: ٣٤). وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الحمل المصلوب بَقِيَ كاملاً، أي أنّ الجُند الرّومانيّ لم يكسروا ساقيه (يوحنّا ١٩: ٣٦)، لتأكّدهم بأنّ المصلوب قد أسلم الرّوح، ليتمّ ما قيل في العهد القديم: "... وعظمًا لا تكسروا منه" [من حمل الفصح] (خروج ١٢: ٤٦)؛ وأيضًا: "... ولا يَكسِروا منه عظمًا" (عدد ٩: ١٢).

- **هُويّة العبد في كتابات العهد القديم**

ترد كلمة "عبد" عشرين مرّةً في سفر أشعيا ٤٠-٥٣. ومن الواضح أنّ كلّ مثلٍ يُشير إلى أنّ يهوه هو "السَّيِّد" الَّذي يُمثِّله "العبد"[١١٨]. فكلمة عبد، بحسب كتابات العهد القديم، يمكن أن تُشير إلى "عبد" (عبوديّة، استعباد: خروج ٢١: ٢٠-٢١)، "ملكٍ غنيّ" (٢ صموئيل ١٠: ١٩)، و"أمّةٍ خاضعة" (١ أخبار ١٨: ٢، ٦، ١٣). إنّ التّعبير الكامل "عبد يهوه – עֶבֶד יְהוָה" يرد اثنتين وعشرين مرّةً في العهد القديم. إنّه يشير إلى موسى (١٧ مرّة)، يشوع (مرّتين)، داود (مرّتين)، والمثل الأخير يُشير إلى إسرائيل العبد القوميّ (أشعيا ٤٢: ١٩). بينما يُشير التّعبير المماثل "عبد الرّبّ" إلى موسى أربع مرّات. هناك تعابير أخرى تتكرّر بشكلٍ متواتر "عبده" أو "عبدي" مع الضّمير الَّذي يُشير إلى الرّبّ[١١٩].

لقد دُعِيَ العديد من الأفراد في العهد القديم "عبيدًا" للرّبّ أو ليهوه، ولا سيّما أولئك الَّذين اختارهم هو لإنجاز مهامٍ متعلِّقةٍ بعهده مع الشّعب. من بين هؤلاء الأفراد، برز إبراهيم الَّذي سُمِّيَ "عبد يهوه" (تكوين ٢٦: ٢٤؛ مزمور ١٠٤: ٦)، وكذلك دُعِيَ اسحق (تكوين ٢٤: ١٤) ويعقوب (خروج ٣٢: ١٣؛ حزقيال ٣٧: ٢٥)؛ ثمّ دُعِيَ موسى، وسيط العهد السّينائيّ، الَّذي أسّس إسرائيل كشعبٍ خاضع ليهوه، "عبدًا ليهوه" (خروج ١٤: ٣١؛ عدد ١٢: ٧؛ تثنية ٣٤: ٥)، كذلك دُعِيَ خليفته، يشوع، الَّذي قاد الشّعب العبريّ إلى أرض الميعاد، "عبدًا للرّبّ" (يشوع ٢٤: ٢٩). أفرادٌ آخرون برزوا كعبيدٍ للرّبّ هم الملوك، وبخاصّةٍ أولئك الَّذين يتحدّرون من سلالة داود (٢ أخبار ٣٢: ١٦؛ أشعيا ٢٢: ٢٠؛ حجّاي ٢: ٢٣).

---

١١٨) **Ibid**, p.1.

١١٩) **Ibid**, p.2.

يُشار إلى أنّ داود قد دُعِيَ مرارًا "عبدًا للرّبّ" (١ ملوك ١١: ٣٨؛ مزمور ٨٨: ٤؛ إرميا ٣٣: ٢١-٢٢، ٢٦). من إحدى المهام الموكلة إلى الملك كعبدٍ للرّبّ يُشار إليها في سفر صموئيل الثّاني، يقول: "فافعلوا الآن، لأنّ الرّبّ كلّم داود قائلاً: إنّي عن يد داود عبدي أخلّص شعبي إسرائيل... ومن أيدي جميع أعدائهم" (٣: ١٨). لقد دُعِيَ أنبياء الرّبّ أيضًا "عبيدَ الرّبّ" (١ ملوك ١٨: ٣٦؛ ٢ ملوك ١٧: ٢٣؛ إرميا ٧: ٢٥؛ عاموس ٣: ٧)، إضافةً إلى كهنته (مزمور ١٣٣: ١). حتّى الملك الوثنيّ نبوكَدنصّر، الّذي استخدمه الله لتحقيق هدفه لشعبه، كان يُشار إليه كعبدٍ للرّبّ (إرميا ٢٥: ٩؛ ٢٧: ٦؛ ٤٣: ١٠). لقد اعتبر الرّبّ كلّ الّذين يعبدونه "عبيدَه" (أشعيا ٥٦: ٦). حتّى ملائكة الله هم "عبيده" (مزمور ١٠٢: ٢٠-٢١).

- **يسوع هو العبد في العهد الجديد**

لقد أوجز يسوع رسالته مؤكّدًا أنّ "ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدم ويبذلَ نفسه عن كثيرين" (مرقس ١٠: ٤٥). ولقد ذكر كاتبو الإنجيل المُلهَمون مرارًا عدّة إدراك يسوع لحتميّة آلامه المُقبلة وموته (متّى ١٦: ٢١؛ ١٧: ٢٢-٢٣؛ ٢٠: ١٧-١٩؛ ٢٦: ١٢، ٢٨، ٣١). بيد أنّ ثمّة سؤالاً يطرح نفسه هنا: ما هو مصدر توقُّع يسوع لآلامه وموته؟ لقد بيَّن شُرّاح الكتاب المقدّس، وبالأخصّ العهد القديم، أنّ يسوع رأى موته التّكفيريّ عن الخاطئين كتحقيقٍ لرسالة العبد في أشعيا ٥٣[١٢٠]. إنّ الاقتباس الوحيد ليسوع من أشعيا ٥٣ وَرَدَ في اللّيلة الّتي سبقت الصّلب حين قال لتلاميذه: "فإنّي أقول لكم إنّه لا بدّ من أن تتمّ فيّ هذه الكتابة: وأُحصِيَ مع المجرمين. وها إنّ ما يختصّ بي قد بلغ أجَلَه" (لوقا ٢٢: ٣٧؛ أشعيا ٥٣: ١٢). إنّ استشهاد يسوع بهذا النّصّ الأشعيويّ يُشير إلى طبيعة موته التّكفيريّة، من جهة، وإلى تطابقه الذّاتيّ مع هُويّة عبد يهوه الأشعيويّ.

- **نشيد العبد المتألّم الرّابع وكتابات العهد الجديد**

بينما يقطع الكاهن الحمل من القربانة، يقول بعضًا من آيات النّشيد الرّابع المتعلّقة بآلام المسيح وموته (أشعيا ٥٣: ٧-٨). ولقد اقتبس القدّيس فيلبّس المقطع عينه في حواره مع الخصيّ الّذي كان يقرأ هذه الآيات الأشعيويّة دون أن

---

١٢٠) **Ibid**, p.4.

يفهم منها شيئًا (أعمال ٨: ٣٢-٣٣). إنّ مجيء المسيح وموته شكّلا جزءًا لا يتجزّأ من نبوءات العهد القديم مئات السّنين قبل الأحداث الفعليّة. إنّ هذه الكلمات النّبويّة عينها الّتي تستعملها اللّيتورجيّة الإفخارستيّة تدلّ على أنّ هذه الأخيرة ما هي إلاّ إحياءٌ لذكرى آلام عبدالله المتألّم، يسوع المسيح، عبر الاحتفال اللّيتورجيّ بذبيحةٍ غير دمويّة.

- **"مثل شاةٍ سيق إلى الذّبح" (٥٣: ٧)**

لقد تحقّقت هذه النّبوّة حين اقتيد المسيح طوعيًا وبإرادته إلى موته الخلاصيّ والكفّاريّ.

- **"وكحملٍ لا عيب فيه أمام الّذي يجزُّه. هكذا لم يفتح فاه" (٥٣: ٧)**

في منزل قيافا، حيث عُقِدَت المحاكمة الأولى، جلب رئيس الكهنة وكلّ أعضاء المجمع، العديد من شهود الزّور ليشهدوا ضدّ يسوع، لربما يستطيعون بذلك تسليمه للموت (راجع متّى ٢٦: ٥٩-٦٢). إلاّ أن الإنجيل المقدّس حريصٌ على الإشارة إلى صمت يسوع، فيقول الإنجيليّ متّى: "وأمّا يسوع فظلّ صامتًا" (متّى ٢٦: ٦٣، ويُعلن الإنجيليّ لوقا أيضًا قائلاً: "فألقى [هيرودس] عليه أسئلةً كثيرةً فلم يُجبْه بشيء" (٢٣: ٩). بعد أنّ كُشِفَ خوف بيلاطس أمام يسوع البريء، المعذَّب والمُستهزأ به من قِبَل الجنود الرّومان، يقول الإنجيليّ يوحنّا: "... أمّا يسوع فلم يُجبه بشيء" (١٩: ٩). إنّ هذه النّصوص الإنجيليّة تؤكّد وبوضوح ساطع، أنّ حمل الله لم يتذمّر ولم يشتكِ من كلّ ما فعلوه به أثناء مسيرة آلامه الخلاصيّة.

- **"بتواضعه ألغِيَ قضاؤه" (٥٣: ٨؛ أيضًا أعمال ٨: ٣٣)**

لم يذكر تاريخ الإنسان عارًا كالّذي عاناه المسيح، إذ بُصِقَ عليه، وسُخِرَ منه، وتألّم، وعانى ما اعتُبِرَ في ذلك الحين الموت الأكثر عارًا، الموت على خشبة الصّليب، الموت المحفوظ لأدنى المجرمين. كان هذا أيضًا المشهد الأكثر عارًا لصورة العدالة الزّائفة الّتي عرفها الإنسان، لأنّه لم يكن المسيح، الإله-الإنسان، بريئًا تمامًا فحسب، بل بمجرّد أن يكون هو الإله، لا يمكنه أن يفعل شرًّا البتّة![١٢١].

---

(١٢١) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-slav liturgy***, p.268.

- "مَن يَصِفُ مولده؟" (٥٣: ٨)

لقد فهمت الكنيسة المقدّسة من خلال كتابات العهد الجديد أنّ للمسيح طبيعتَين في أقنومٍ واحد: الطّبيعة الإلهيّة: "في البدء كان الكلمة. والكلمة كان مع الله. وكان الكلمة الله. إنّه في البدء، كان مع الله" (يوحنّا ١: ١-٢)، والطّبيعة البشريّة: "والكلمة صار بشرًا" (يوحنّا ١: ١٤). تُشير هذه الآيات اليوحنّاويّة إلى أنّ الآب وَلَدَ المسيح في السّماء دون أمّ، وأنّه، عندما حان ملء الزّمان، وُلِدَ على الأرض من أمٍّ دون أبٍ بشريّ، وهذا ما يؤكّده القدّيس بروكلوس بطريرك القسطنطينيّة، وهو من أعظم اللّاهوتيّين في الكنيسة البيزنطيّة الأرثوذكسيّة، أنّ الابن الوحيد لا يُمكن أن يولد من أبوَين، ومَن هو بلا أمٍّ في السّماء، هو بدون أبٍ على الأرض. إنّ ولادة مريم البتوليّة هي علامةٌ ساطعةٌ على سرّ البنوّة الإلهيّة ليسوع، إذ إنّ البُعد الكريستولوجيّ لولادة يسوع البتوليّة يقوم في جوهره على هذا: أنّ يسوع هو الابن للآب الأزليّ بطريقةٍ فريدةٍ، لدرجة أنّه لا يستطيع أن يكون له أبٌ أرضيٌّ. إذًا، لا أحد يستطيع أن يصف مولده لأنّه ابن الله "المولود من الآب قبل الدّهور بلا استحالة، المسيح الإله الّذي تجسّد في آخر الأزمان بغير زرع من البتول" (ضابط النّغم، التّسبحة الثّالثة من قانون الميلاد).

- "لأنّ حياته تُرفَع من الأرض" (يوحنّا ١٢: ٢٣)

إنّ حياة المسيح الأرضيّة ستكون قصيرةً بسبب الموت العنيف الّذي سيُعانيه على خشبة الصّليب. وهذا ما أكّده أشعيا النّبيّ في نبوءته هذه قائلاً: "قدِ انقطع من أرض الأحياء" (٥٣: ٨). هذا وقد أعلن يسوع نفسه في إنجيل يوحنّا قائلاً: "وإنّه كما رفع موسى الحيّة في البريّة كذلك ينبغي أن يُرفع ابن البشر" (٣: ١٤). وقد عاد يسوع فأكّد لليهود مقولته قائلاً في الإنجيل ذاته: "متى رفعتم ابن البشر تعرفون أنّي أنا هو" (٨: ٢٨). وكما يتّضح من إعلانات يسوع أنّ الهدف الأساس من وراء رفع حياته من الأرض هو ميراث حياة الشّركة الحقيقيّة معه حيث يكون هو: "وأنا، متى رُفِعتُ عن الأرض اجتذبتُ إليّ الجميع" (يوحنّا ١٢: ٣٢). إنّ هذا الإعلان الثّلاثيّ (يوحنّا ٣: ١٤؛ ٨: ٢٨؛ ١٢: ٣٢) المتعلّق بالموت والقيامة، يُشير إلى ابن البشر الممجّد من خلال الصّليب، علامة الخلاص.

- **تحقيق نبوءة أشعيا ليتورجيًّا**

بعدئذٍ، يقلب الكاهن الحمل ويقطعه على شكل صليب، علامةً على أنّ هذه الذّبيحة هي ذبيحة الصّليب: "يُذبَح حمل الله الرّافع خطيئة العالم، لأجل حياة العالم وخلاصه". ثمّ يغرز الكاهن الحربة في أسفل الحرفين IΣ ويقول: "وإنّ واحدًا من الجند طعن جنبه بحربة، فخرج للوقت دمٌ وماء. والّذي عاين شهد، وشهادته حقّ" (يوحنّا ١٩: ٣٤-٣٥). وهكذا يتّضح أنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة تحتفل بموت المسيح غير الدّمويّ من خلال الذّبيحة الإفخارستيّة[١٢٢]. إنّ طقس قطع الخبز، الّذي يرمز إلى موت حمل الله، يسوع المسيح، على الجلجلة، قد أخذ هذا المعنى الرّمزيّ بالتّحديد بين القرنَين العاشر والحادي عشر الميلاديَّين، حيث بدأت الكثير من الصّيغ والنّصوص اللّيتورجيّة بالظّهور في طقس التّهيئة[١٢٣].

ب. مزيج الخمر بالماء في الكأس المقدّسة

عندما يقوم الكاهن بتحضير القرابين، فإنّه يضع في الكأس المقدّسة الخمر الممزوج بقليلٍ من الماء، إشارةً إلى:

- الدّم والماء الخارجَين من جنب المسيح المطعون بالحربة، بناءً على شهادة الإنجيليّ يوحنّا الشّخصيّة (١٩: ٣٤-٣٥).
- بالإضافة إلى كون تدفُّق الدّم والماء، بحسب الفكر اللّاهوتيّ آباء الكنيسة القدّيسين، أمرًا متعلّقًا بالعناية الإلهيّة، وممتلئًا من المعنى الأسراريّ، ذلك أنّه يرمز إلى البركات والنِّعَم المتدفّقة على الإنسان من خلال قوّة آلام المسيح وموته[١٢٤]. فالماء يرمز إلى المعموديّة، الّتي تَغسل كلّ وصمة الخطيئة، والدّم يرمز إلى الإفخارستيّا، الّتي تُشكِّل الينبوع المُحيي للمصالحة والغذاء الرّوحيّ للحياة الأبديّة، وكأنّي بالأسرار الخلاصيّة كلّها تنبع من سرّ القربان، أي من ذبيحة الصّليب.

---

١٢٢) **Ibid**, p.269.

١٢٣) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine Liturgy***, p.106.

١٢٤) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-slav liturgy***, p.273.

- **اتّحاد المسيح، أسراريًّا، بكنيسته.** فالمسيح حاضرٌ من خلال الخمر، وأعضاء الكنيسة من خلال الماء. وقد أعرب القدّيس كبريانوس بطريقةٍ بليغةٍ عن هذه الحقيقة، قائلاً:

  "منذ أن حمل المسيح خطايانا، حملنا جميعًا، نرى أنّ الماء يُمثّل الشّعب، والنّبيذ يعني دم المسيح. حين يمتزج الماء بالخمر في الكأس، يُصبح الشّعب متّحدًا بالمسيح..."[١٢٥].

- **اتّحاد الطّبيعتَين الإلهيّة والإنسانيّة في أُقنوم الكلمة المتجسّد ابن الله**، يسوع المسيح؛ فالخمر، نظرًا للونه الأحمر، يرمز إلى طبيعته الإلهيّة؛ بينما يرمز الماء إلى طبيعته الإنسانيّة.

ت. ذكرانيّات الكنيسة السّماويّة المنتصرة

١- لاهوت الذّكرانيّات

- **ماهيّة القربانات الخمس**

لم يُحدَّد قبل القرن الرّابع عشر الميلاديّ عددُ القربانات المُزمع استعمالُها في اللّيتورجيّا، إلاّ حين جاء القدّيس فيلوثيوس بطريرك القسطنطينيّة (١٣٥١-١٣٧٨) وحدَّدها بخمس قربانات؛ يقطع الكاهن من القربانة الأولى **الحمل الإفخارستيّ**؛ ومن الثّانية، الجزء المثلَّث المخصَّص لإكرام **البتول القدّيسة مريم**؛ ومن الثّالثة، أجزاءً لإحياء ذكرى **القدّيسين**؛ ومن الرّابعة، لذكرى **الكنيسة الكهنوتيّة** (الأساقفة الأرثوذكسيّين، رئيس كهنة الأبرشيّة، الكهنة والشّمامسة) **والأحياء**؛ ومن الخامسة، أجزاءً راحةً لنفوس **الرّاقدين** على رجاء القيامة للحياة الأبديّة.

- **وَحدة الكنيسة حول الحمل الذّبيح**

وكأنّي بالكاهن يجمع حول الحمل الإلهيّ الذّبيح كلَّ الكنيسة المنتصرة في السّماء، والكنيسة المتألّمة والمجاهدة على الأرض. فالأجزاء الصّغيرة الّتي يقتطعها الكاهن من القربان ويضعها في الصّينيّة حول الحمل تُمثّل جسد

---

١٢٥) **Ibid**, p.274.

المسيح السّرّيّ، كنيسته، مؤمنيه الّذين افتداهم بدمه الطّاهر. إنّ الكنيسة بهذا الطّقس اللّيتورجيّ تؤكّد على أنّ القدّاس الإلهيّ هو إظهارٌ لشركة القدّيسين الّذين يشتركون مع المؤمنين (الكنيسة الحاضرة في هذا الزّمن) في الخدمة المقدّسة. كلّ هذا يُبرز حقيقةً إكليزيولوجيّةً (كنسيّةً) هي **وَحدة الكنيسة المنظورة وغير المنظورة**، بأحيائها وبالسّابق رقادهم من أبنائها، فالكلّ واحدٌ في المسيح يسوع (راجع غلاطية ٣: ٢٨)، في تلك الكأس المشتركة "كأس الشّركة" الّتي يتناول منها كلّ المؤمنين، والّتي تبيّن وَحدة الكنيسة مع بعضها وفي المسيح يسوع... نحن نؤمن بأنّ الّذين سبقونا من آبائنا وإخوتنا قائمون في حضرة الرّبّ إلى يوم مجيئه الثّاني، وهم يُصلّون معنا وحاضرون معنا في كلّ حين، وإيماننا هذا ليس قائمًا على عواطف، بل على ما جاء في الكتاب المقدّس نفسه.

٢- ذكرانيّات الكنيسة السّماويّة المنتصرة

- **والدة الإله الدّائمة البتوليّة مريم**

نذكر هنا الشّخصيّة الأنثويّة الكتابيّة الأبرز، الّتي تنبّأ عنها الأنبياءُ والمزامير في العهد القديم، وأدركَتْها كتاباتُ العهد الجديد، فانتَقَلَتْ هذه المرأة من رموزٍ وصُوَرٍ وتشابيهَ إلى حقيقةٍ تاريخيَّةٍ ملموسة: إنّها مريم، الّتي وَسِعَتْ في حشاها الّذي لا يَسَعُهُ مكانٌ، وهي الأمُّ الّتي لَبِثَتْ بعد الولادة عذراء. بين الشّخصيَّتين الأنثويَّتين الكتابيَّتين "ابنةِ صهيون" و"المرأةِ المُلتحِفةِ بالشّمس"، تَتَمَركَزُ شخصيَّةُ مريمَ المُرتَبطَةُ بمعناها وأهميَّتِها بالحقيقة الكريستولوجيَّة (ما يختصُّ بلاهوت المسيح وشَخصِه) والإكليزيولوجيّة (الكنسيَّة). يقولُ جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة: "**فيها، عاشَ الّذي هو في الحقيقةِ ملكُ الملوك وربُّ الأرباب... إنّها حقًّا المدينةُ المتألّقة، إنّها صهيونُ الرّوحيّة**" (مزمور ٤٧). ففي مريم، أُنجزَتْ كلُّ وُعود العهد القديم لابنة صهيون، وفي شخصها الحقيقيّ، هناك سَبقُ تَوَقُّع سوف يَتَحقّقُ لشعب الله الجديد، الكنيسة. فكلُّ تاريخ الوحي الخاصّ بموضوع "المرأةِ صهيون"، تَحَقّقَ في شخص مريم، وهو ما زالَ مستمِرًا في الكنيسة إلى يومِنا الحاضر. فمريم في حبِّها وطاعتها، في إيمانها وتواضعها، ارتضت أن تكون ما كان ينبغي على الخليقة، منذ الأزل، أن تكون

إيّاه: هيكل الرّوح القدس، إنسانيّة الله. لقد ارتضت مريم أن تُعطي جسدها ودمها – أي حياتها كلّها – ليكونا جسد ابن الله ودمه، وأن تكون أمًّا للعالم بالمعنى الكامل العميق لهذه الكلمة، مُعطية حياتها للآخر، أي الله، ومكمّلة حياتها فيه، إذ إنّ مريم هي غاية وتمام تاريخ الخلاص، تاريخ الحبّ والطّاعة، تاريخ الاستجابة والرّجاء، إذ إنّها عطيّةُ العالم إلى الله، إلى جانب أنّها "اختارتِ النَّصيبَ الصَّالحَ الَّذي لن يُنزَع منها" (لوقا ١٠: ٤٢)؛ إنّها، في الحقيقة، التّلميذةُ الأولى للمعلّم الإلهيّ والنّموذجُ الحيّ والمثاليّ في اتّباع يسوع والتّتلمذ له.

لهذا، تذكر اللّيتورجيّا البيزنطيّة والدة الإله مريم، نظرًا لدورها الرّئيس في تحقيق التّدبير الخلاصيّ عبر دخول الله الكلمة في زمننا وعالمنا، والّذي منحها قدسيّة عظيمة، وكرامة إلهيّة. إنّها، بالتّالي، تحتلّ المكانة الأولى بعد يسوع المسيح. وهذا هو السّبب الّذي جعل اللّيتورجيّين يستشهدون بآية المزمور الرّابع والأربعين حين يتمّ ذكر العذراء مريم في تهيئة الذّبيحة: "**قامتِ الملكةُ عن يمينك**، مُتسربلةً ومُزيّنةً بوشاح مُوشًّى بالذّهب" (٤٤: ١٠). نعم، إنّها الملكة، لأنّها والدةُ ملك الملوك وهي القائمة عن يمينه في المجد السّماويّ. لذلك يضع الكاهن الجزء المثلّث الزّوايا الخاصّ بوالدة الإله عن يمين الحمل المقدّس في الصّينيّة.

- الملائكة

إنّ الذّكر المُقتضب للملائكة يتضمّن تعليم الآباء الشّرقيّين عن القوّات الملائكيّة العادمة الأجساد اللّاماديّة والرّوحيّة. فالكنيسة تعتبر الملائكة خُدّامًا لله: "الصّانع ملائكته أرواحًا، وخُدّامه لهيب نار" (مزمور ١٠٣: ٤)، ومساعديه، ومرافقيه، ورسله، لأنّهم "يُشاهدون أبدًا وجه أبي الّذي في السّموات" (متّى ١٨: ١٠)، وهم أيضًا "العاملون بكلمته عند سماع صوت كلامه" (مزمور١٠٢: ٢٠)، وهم، أخيرًا، يوجّهون خطوات الإنسان المتعثّرة نحو الله والسّماء"[١٢٦]. ولقد كانت القوّات الملائكيّة حاضرةً في بيت لحم. إنّ واحدًا منها أعلن البُشرى السّارة بميلاد المخلّص: "فحضرهم ملاك الرّبّ وأشرق مجد الرّبّ حولهم، فخافوا خوفًا عظيمًا. فقال لهم الملاك: لا تخافوا، ها إنّي أُبشّركم بفرح عظيمٍ يكون

---

١٢٦) Ibid, p.287.

فرحَ الشّعب كلّه: وُلدَ لكم اليوم مخلّصٌ في مدينة داود، وهو المسيح الرّبّ" (لوقا ٢: ٩-١١). لأجل ذلك، خصّصت اللّيتورجيّا البيزنطيّة جزءًا يضعه الكاهن على يسار الحمل المقدّس، يكون إكرامًا لرئيسَي الملائكة الأعظمَين ميخائيل وجبرائيل، وسائر للقوّات السّماويّة الّتي لا جسد لها.

يُعتبر رئيسا الملائكة في اللّيتورجيّا البيزنطيّة شمّاسين إنجيليّين يساعدان في الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة. إنّ ميخائيل، واسمه يعني "**مَن مِثلُ الله**"، هو ملاك الخليقة الأولى، يُشير إلى أنّ الله هو "أصل كلّ الكائنات". أمّا جبرائيل، ومعنى اسمه "**جبروت الله**" أي "**قدرة الله**"، فهو ملاك الأزمنة الأخيرة الّتي بدأت بتجسّد كلمة الله في أحشاء مريم العذراء، يُشير إلى أنّ الله هو "نهاية كلّ الكائنات"". فالله هو الأوّل والآخِر، الألف والياء. وكلا الملاكين يحمل ما يحمله عادةً المُرسَل، لأنّهما، حسب قول الرّسالة إلى العبرانيّين، من عداد "الأرواح الخادمة، الّتي تُرسَل للخدمة من أجل المزمعين أن يرثوا الخلاص" (عبرانيّين ١: ١٤).

- **أنبياء العهد القديم**

إنّ اللّيتورجيّا البيزنطيّة حافظت على الإرث النّبويّ اليهوديّ، وبخاصّةٍ قراءات الأنبياء الّتي تحتلّ مكانةً رفيعةً في صلاتي غروب وسحر الأعياد الكُبرى. إنّ نبيّ العهد القديم يتمتّع بسلطةٍ خاصّةٍ "إلهيّةٍ" كونه "رجل الله" (راجع ٢ ملوك ١: ١٢)، أي أنّ اختياره وارساله يتمّ بواسطة الله نفسه، وهو، تاليًا، الوسيط الوحيد بين الله والشّعب. لقد كان النّبيّ أيضًا يُمثّل صوت الله للشّعب، ينقل إليهم الرّسائل الّتي يتلقّاها من العليّ. وَفقًا للمعطيات السّابقة، نُشير إلى أنّ الأنبياء كانوا يلعبون دورًا بالغ الأهميّة في الحياة الدّينيّة والاجتماعيّة للشّعب اليهوديّ. فالنّبيّ هو المدافع عن القانون الأخلاقيّ الّذي يتضمّن الوصايا العشر، وهو الصّوت الصّارخ الّذي يدين عصيان أوامر الله ووثنيّة الشّعب الّتي تتجلّى في عبادته لآلهةٍ غريبةٍ عن الإله الحقيقيّ. فهو، إذًا، يُعزّز الدّين الصّحيح من خلال الوعظ، والتّعليم، وتفسير شريعة الرّبّ. علاوةً على ما تقدّم، يملك النّبيّ خصائص أخرى، فهو الرّائي الّذي يستطيع معاينة الإلهيّات (راجع مثلاً أشعيا ٦: ١...)، ويتوعّد بعقابٍ إلهيٍّ في حالة اللّاأخلاقيّة واللّاطاعة. الأهمّ من ذلك كلّه

يكمن في أنّ العديد من الأنبياء تنبّأوا عن مجيء المخلِّص، المسيح. لقرونٍ عدّة، أبقى هؤلاء الأنبياء المسيحانيّون الشّعب في حالة تَرَقُّبٍ حيّة لهذا المجيء.

من بين الأنبياء المذكورين في تهيئة القرابين المقدّسة النّبيّ الكريم والسّابق المجيد ومعمِّد الرّبّ **يوحنّا المعمدان** الّذي توليه الكنيسة البيزنطيّة مكانةً رفيعةً، بحيث توضع إيقونة المعمدان عن يمين إيقونة السَّيِّد المسيح في الإيقونستاس، لأنّه "صديق العريس" (يوحنّا ٣: ٢٩). كما نراه ووالدة الإله يحيطان بالرّبّ يسوع في إيقونة الشّفاعة. يُذكر يوحنّا المعمدان ست مرّاتٍ في الدّورة اللّيتورجيّة السّنوية في الكنيسة البيزنطيّة: الحبل به (٢٣ أيلول)، مولده (٢٤ حزيران)، قطع رأسه (٢٩ آب)، أول وثاني ظهور لهامته (٢٤ شباط)، ثالث ظهور لهامته (٢٥ أيار) بالإضافة إلى محفل مقدّس إكرامًا له (٧ كانون الثاني). في الدّورة اللّيتورجيّة الأسبوعيّة، تحتفل الكنيسة البيزنطيّة بالسّابق كلّ يوم ثلاثاء. يحتوي المعزي على خدمةٍ للسّابق خلال غروب الإثنين مساءً وسحر الثّلاثاء في كلّ لحنٍ من الألحان الثّمانية. كتب النّاظمان الموسيقيّان يوسف وثيودوروس الموسوم، متروبوليت نيصص، قطع القانون في كلٍّ من الألحان في القرن التّاسع الميلاديّ. وإنّه لمستحقّ كلّ هذا السّموّ لأنّ المسيح نفسه قد منحه إيّاه بقوله عنه: "ليس في أولاد النّساء أعظم من يوحنّا" (لوقا ٧: ٢٨)، وفي موضع آخر يقول: "أفضلُ من نبيّ" (متّى ١١: ٩؛ لوقا ٧: ٢٦).

- هامتا الرّسل: بطرس وبولس وسائر الرّسل

نقرأ في الإنجيل الأوّل أنّ يسوع اختار بطرس ليكون الصّخرة الصّلبة الّتي يبني عليها كنيسته، الّتي لن تقوى عليها حتّى أبواب الجحيم (راجع متّى ١٦: ١٨). وكونه نائبًا للمسيح على الأرض، فقد وَهَبَه سلطةً خاصّة، أرضيّةً وسماويّةً، حين قال له: "وسأعطيكَ مفاتيح ملكوت السّموات. وما ربطتَهُ في الأرض رُبِطَ في السّموات. وما حَلَلته في الأرض حُلَّ في السّموات" (متّى ١٦: ١٩). أمّا بولس، فقد اختاره المسيح ليكون أداةً لنشر إنجيله للأمم الوثنيّة. لذلك تُطلق عليه الكنيسة المقدّسة لقب "رسول الأمم". كونه رسولاً إلى الأمم، فقد تجاوز الرّسل الآخرين في الجهاد والآلام، تحمّل أوجاعًا، ومحنًا، وأحزانًا لا تُصدَّق، عانى الجوع والعطش والبَرد، ضُربَ بقضبانٍ وحجارة، وأخيرًا حُكِمَ عليه بالسّجن. وقد

عبّر القدّيس بولس عن اختباره هذا في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس، قائلاً: "لأنّي أرى أنّ الله أنزلنا نحن الرّسل أدنى منزلةٍ كالمحكوم عليهم بالموت... نحن حمقى من أجل المسيح... نحن ضُعَفاء... نحن مُحتَقَرون... ولا نزال حتّى هذه السّاعة أيضًا نجوع ونعطش ونَعرى ونُلطَم ونُشرَّد... صِرنا شِبه أقذار العالم ونُفاية النّاس أجمعين، إلى اليوم" (١ كورنثس ٤: ٩-١٣).

تدعوهما الكنيسة البيزنطيّة هامتَي الرّسل القدّيسين. إنّهما، وَفقًا للّيتورجيّا البيزنطيّة، "دعامتا الكنيسة" و"البوقان اللّذان يُعلنان الأمور الإلهيّة، وكاشفا التّعاليم الإلهيّة".

ويذكر الكاهن أيضًا "سائر الرّسل القدّيسين" وهم تلاميذ المسيح الاثني عشر، الّذين دعاهم المسيح ليكونوا قادة الكنيسة الرّضيعة الّتي ما زالت في طور النّموّ، وقدِ اعتُبروا من مؤسّسيها بعد المسيح[١٢٧]. لهذا السّبب بالتّحديد، يدعو المؤمنون الكنيسة في قانون الإيمان "بالرّسوليّة".

- القدّيسون

إنّ ذكر القدّيسين ليتورجيًّا يعني الدّخول سريًّا في شركةٍ معهم: مع فضائلهم وقوّة حياتهم والرّوح القدس الّذي فيهم. لأنّ المعنى الأخير للقداسة في سائر أشكالها إنّما هو إعلان الله: ظهور الرّبّ وتمجيده تمجيدًا كليًّا: "عجيب الله في قدّيسيه". إنّ القدّيس أعطى ذاته كليًّا للمسيح ليحلّ فيه ويُنيره. فذكرنا للقدّيسين إنّما هو إنماءٌ وتعميقٌ لشركتنا بالمسيح نفسه، وفي الوقت ذاته، هو ربطنا بنظام الخليقة الجديد الّذي هو القداسة. يعود تاريخ ذكر القدّيسين في ليتورجيّا التّهيئة، بحسب الكنيسة البيزنطيّة، إلى القرن الحادي عشر الميلاديّ[١٢٨].

يذكر الكاهن أيضًا رؤساء الكهنة العِظام: باسيليوس الكبير وغريغوريوس النّزينزيّ "اللّاهوتيّ"[١٢٩]، وهما من الآباء الكبّادوكيّين[١٣٠]، ويوحنّا الذّهبيّ الفم،

---

١٢٧) Ibid, p.290.

١٢٨) Ibid, p.280.

١٢٩) كتب غريغوريوس خمس خُطَبٍ لاهوتيّة، بحثت في الله نفسه، وَحدته وثالوثه. وهي الّتي أكسبت غريغوريوس لقب "اللّاهوتيّ" (تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة، ص. ٥٢٠).

الّذي أطلقت عليه الكنيسة لقب "الرّاعي السّماويّ للخُطباء الكنسيّين". إنّهم أساقفة القرن الرّابع الميلاديّ وملافنة الكنيسة الجامعة. وقد أطلقت عليهم الكنيسة البيزنطيّة لقب "اللّاهوتيّين الثّلاثة العِظام" و "معلّمي المسكونة". تُعيّد الكنيسة البيزنطيّة لهؤلاء الأساقفة العِظام في الثّلاثين من شهر كانون الثّاني من كلّ عام، بينما يحتفظ كلّ واحدٍ منهم بعيده الخاصّ أيضًا.

من أعمال القدّيس باسيليوس الكبير تأليفه للّيتورجيّا الإلهيّة الّتي تحمل اسمه. إنّها اللّيتورجيّا القديمة والرّسميّة في كنيسة القسطنطينيّة، وتتميّز بطول أفاشينها (صلواتها)، وجمال لغتها، وعمقها اللّاهوتيّ، وغناها من الكتاب المقدّس وقوّة الفكر فيها ووَحدته. كانت ليتورجيّا القدّيس باسيليوس الكبير تُقام كلّ أيّام الآحاد والأعياد – حتّى القرن الثّامن الميلاديّ – أمّا ليتورجيّا الذّهبيّ الفم فقد كانت اللّيتورجيّا اليوميّة. مع الوقت أخذت تسود اللّيتورجيّا الثّانية على الأولى وذلك بسبب قصرها وبساطتها. ولكن بالرّغم من هذا، فقد بقيت ليتورجيّا القدّيس باسيليوس هي ليتورجيّا الآحاد والأعياد الهامّة والرّئيسيّة في السّنة اللّيتورجيّة"[١٣١]. وهي اليوم تُقام عشر مرّاتٍ في السّنة، أي في الآحاد الخمسة من الصّوم الكبير (إذ إنّ أحد الشّعانين، كما هو متعارَفٌ عليه لا يُعَدّ من آحاد الصّوم الأربعينيّ)، وفي سهرانيّات الأعياد الكبرى: الفصح، الميلاد، الظّهور الإلهيّ (في البرامون)، وكذلك في يوم الخميس العظيم (يوم تأسيس سرّ الشّكر الإلهيّ)، وأيضًا في ذكرى القدّيس نفسه (الأوّل من شهر كانون الثّاني).

هناك طغمةٌ أخرى من القدّيسين الّذين تذكرهم اللّيتورجيّا البيزنطيّة: الشّهداء، وعلى رأسهم أوّل الشّهداء في المسيحيّة ورئيس الشّمامسة، القدّيس استفانوس. فالمسيحيّة هي المحبّة الباذِلة، والصّليب هو علامتها، وفي شخص المسيح التقى الحبّ بالألم، وتغيّر مفهوم الألم وأصبح شركة حبٍّ مع الرّبّ المتألّم، وارتفع إلى مستوى الهِبَة الرّوحيّة، والموت أصبح كأسًا لذيذًا يرتشفها

١٣٠) كبّادوكيّة إقليم في آسية الصّغرى يقع غربي أرمينية. كان محميّةً رومانيّةً في القرن الأوّل قبل الميلاد، ثمّ ولايةً رومانيّةً في القرن الثّاني؛ وفي ما بعد مركز إشعاعٍ مسيحيٍّ كان له أثرٌ واسعٌ في انتشار المسيحيّة (تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة، ص. ٤٩٣).

١٣١) الأسقف د. يوحنّا يازجي، ***مدخل إلى الأشكال اللّيتورجيّة***، ص. ٣٣.

المؤمن سعيدًا راضيًا بل يسعى إليها عن حبٍّ ويستعجلها، وليس في هذا عجبٌ. فقد تحوّل الموت من شيءٍ مُرعبٍ إلى جسرٍ ذهبيٍّ ومَعبرٍ يعبر بنا من حياةٍ قصيرة، وغُربةٍ مؤقتة، وثوبًا باليًا، إلى سعادةٍ أبديّةٍ دائمة، ومواطنةٍ سماويّة: "فلستم إذًا بعدَ اليوم غُرباء أو نُزلاء، بل أنتم من أبناء وطن القدّيسين ومن أهل بيت الله" (أفسس ٢: ١٩)، وثوبًا ناصعَ البياض لا يفنى. على هذا الأساس الإيمانيّ سارع المسيحيّون الأوّلون لتقديم حياتهم باستشهادهم في سبيل الدّفاع عن إيمانهم ومعتقداتهم، رافضين الاستسلام القائم على الخوف على المصير، إذ كانوا يرَون أنّ الاستشهاد هو أقصر طريقٍ يؤدّي إلى الأفراح الأبديّة؛ كانوا يرَونه شركةً في آلام المسيح وموته، وأيضًا شركةً في مجده، لذلك كان كثيرٌ من الشّهداء يرَون أكاليلهم ومجد السّموات وابن الله قائمًا عن يمين القدرة، فكانوا يثقون بالإيمان بما أعدّه الله لمُحبّي اسمه القدّوس: "ما لم ترَه عينٌ ولا سَمِعَت به أذنٌ ولا خطر على قلبِ بشر، ذلك ما أعدّه الله للّذين يُحِبُّونَه" (١ كورنثس ٢: ٩).

لذلك تعتبر الكنيسة شهادة الدّم معموديّة. هذا ما قاله السّيّد المسيح في معرض ردّه على طلب ابنَي زبدى: "أتستطيعان أن تَشربا الكأس الّتي سأشربُها، أو تقبلا المعموديّة الّتي سأقبلُها؟" (مرقس ١٠: ٣٨). "إنّ الاستشهاد ميلادٌ جديد، تربح فيه النّفس حياتها الأبديّة" (من أقوال العلاّمة ترتليان). بالإضافة إلى كون الاستشهاد ذبيحةً إفخارستيّةً اختبرها القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ الّذي وصفه وصفًا ليتورجيًا، قال: "الشّهادة ضحيّةٌ كفّاريّة، بحيث أقدّم فيها نفسي ذبيحة، كالحنطة الّتي تصير خبزًا". إذًا، الشّهيد هو مَن يُقدّم نفسه ذبيحةً وقربانًا للّذي قدّم نفسه ذبيحةً وقربانًا من أجلنا. وهكذا، أصبحت شهادة الدّم سبب بركةٍ للكنيسة المقدّسة بعد أن صار دم الشّهيد بذارًا للإيمان بالمسيح. هذه الحقيقة الإيمانيّة الّتي عبّر عنها القدّيس الشّهيد إغناطيوس الإنطاكيّ، عندما ذهب ليستشهد وقال: "**لقد ابتدأتُ أن أكون تلميذًا للمسيح**".

ث. ذكرانيّات الكنيسة الأرضيّة، المجاهدة والمتألّمة

إنّ الكنيسة على الأرض هي في حالة جهادٍ واستشهادٍ يوميٍّ طوال الأوقات، طالما أنّها في محجّتها إلى غايتها المقدّسة: أورشليم السّماويّة. وقد عبّر المسيح عن هذه الحقيقة حين أعلن قائلاً: "لا تَظنُّوا أنّي جئتُ لأحمل السّلام إلى الأرض،

ما جئتُ لأحمل سلامًا، بل سيفًا..." (متّى ١٠: ٣٤). إنّ تعاليم المسيح، الّتي بقيت الكنيسة أمينة دائمًا لها، هي سيفٌ يَقسم أعضاءها عن بقيّة العالم: "سيُسلم الأخ أخاه إلى الموت، والأبُ ابنَه، ويثور الأبناء على والدِيهم ويُميتونَهم، ويُبغضكم جميع النّاس من أجل اسمي، والّذي يثبت إلى النّهاية فذاك الّذي يخلُص" (متّى ١٠: ٢١)، وأيضًا: "لو كنتم من العالم، لأحبّ العالم ما كان له. ولكن، لأنّكم لستم من العالم، إذ إنّي اخترتُكم من بين العالم، فلذلك يُبغضُكمُ العالم" (يوحنّا ١٥: ١٩).

- **الطّبقة الإكليروسيّة (الأساقفة، الكهنة والشّمامسة)**

إنّ الأساقفة يُمثّلون، بحسب اللّاهوت البيزنطيّ، الرّأس المرئيّ للكنيسة الأرضيّة، إذ إنّهم نوّاب المسيح على الأرض، وآباء المسيحيّين أجمعين. يقول القدّيس كبريانوس في هذا الصّدد:

> "إنّ الكنيسة هي الشّعب المتّحد مع الأسقف، حيث تتمسّك الرّعيّة براعيها. إنّ الأسقف هو في الكنيسة، والكنيسة هي في الأسقف"[١٣٢].

إنّ أعضاء الطّبقة الإكليروسيّة هم أصدقاء الله الّذين كرّسوا ووقفوا حياتهم لخدمة رسالته الإلهيّة على الأرض. فكلُّهم، إذًا، يشتركون في عمل تغذية قطيع المسيح. وهذا العمل لا يدخل في منظومة التّغذية الماديّة، بل التّغذية الرّوحيّة القائمة على الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة.

يذكر الكاهن "جميع الأساقفة الأرثوذكسيّين". تتحدّر كلمة "أرثوذكس" من الأصل اليونانيّ، وتتألّف من كلمتَين: "ὀρθός" وتعني "صحيح، مستقيم"، و "δόξα" وتعني "رأي، معتقد". إنّ الأرثوذكسيّة، إذًا، لا تعني أبدًا كنيسةً معيّنةً أو طائفةً معيّنةً كما هو مُتعارَفٌ عليه في أيّامنا الحاضرة، إنّما تعني، وبحسب أصل الكلمة اليونانيّة، "الإيمان المستقيم" أو "العقيدة الصّحيحة". وبالتّالي، فإنّ كلّ إنسانٍ مسيحيٍّ يتبع هذا النّهج وهذه المسلكيّة في الإيمان الصّحيح يكون أرثوذكسيًّا. نأتي أيضًا على ذكر "الكاثوليكيّة"، وهي كلمةٌ تعني "الجامعة" أو "جامعيّة الكنيسة".

---

١٣٢) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.301.

إنّها تشكّل القاعدة الذّهبيّة لوَحدة المسيحيّين الجامعة، بناءً على كلمات السَّيِّد المسيح في الإنجيل المقدّس: "مَن لم يجمع معي كان مبدِّدًا" (متّى ١٢: ٣٠؛ لوقا ١١: ٢٣)؛ وأيضًا ما جاء على لسان القدّيس بولس الرّسول الّذي قال: "لأنّكم جميعًا واحدٌ في المسيح يسوع" (غلاطية ٣: ٢٨). وبالتّالي، فإنّ كلّ إنسانٍ مسيحيٍّ يعيش بمقتضى وَحدة الإيمان في المسيح فهو كاثوليكيّ. نخلص إلى القول إنّ الإنسان المسيحيّ يجمع في إيمانه الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة في آنٍ معًا. وبهذا القول نؤكّد أنّ **الكنيسة هي المسيح معنا.**

- **رئيس الكهنة الرّاسم**

يذكر الكاهن أيضًا رئيس الكهنة الّذي قام برسامته الكهنوتيّة، تعبيرًا عن شكره وامتنانه له، ذلك أنّ الرّبّ قد منحه بواسطته هِبَة الكهنوت العظيمة. فمن خلال يدَي الأسقف، تلقّى المحتفل قوّة الله، قوة غفران الخطايا، القوّة الّتي تُخوّله دعوة ابن الله نفسه على المذبح في الإفخارستيّا.

- **المغبوطون الّذين أنشأوا هذه الكنيسة المقدّسة**

لا بدّ هنا من تمييز الكلمات لئلاّ نقع في لغطٍ كنسيٍّ يتعلّق بهذا الموضوع. يذكر الكاهن هنا أولئك الّذين ساعدوا في إنشاء وبناء الكنيسة الرّعويّة، حيث يتمّ ذكرهم بشكلٍ دائمٍ في كلّ ذبيحةٍ إفخارستيّةٍ تُقام هناك. وبالتّالي، إنّهم ليسوا المؤسّسين، ذلك أنّ مؤسّس الكنيسة وبانيها هو المسيح، والمشرف على بنائها هو المهندس الإلهيّ، الرّوح القدس. وهكذا، لا يجب أن يتمّ الخلط بين التّأسيس الّذي هو إلهيٌّ، وتقديم المعونة اللّازمة لبناء الكنيسة، الّذي هو محض بشريّ.

- **الأحياء والرّاقدون على رجاء القيامة**

تدعو اللّيتورجيّا البيزنطيّة الرّاقدين بالأرثوذكسيّين، أولئك الّذين غادروا هذه الحياة الأرضيّة وهم على الإيمان المستقيم الحقيقيّ، كأعضاء في الكنيسة الحقيقيّة. بالنّسبة لأولئك الّذين رقدوا في محبّة الله، يكون الموت نومًا سلاميًّا، بعيدًا عن كلّ ألمٍ وتعب. هذا ما تُردّده اللّيتورجيّا الخاصّة بالرّاقدين: "حيث لا تعبٌ ولا حزنٌ ولا تنهُّد، بل حياةٌ لا نهاية لها". هذا ما أكّده

الرّبّ يسوع وهو في طريقه نحو قبر صديقه لعازر، بقوله لمرتا: "أنا القيامة والحياة: مَن آمن بي، وإن مات، فسيَحيا، وكلُّ مَن يحيا ويؤمن بي لن يموت أبدًا" (يوحنّا ١١: ٢٥-٢٦). **فالموت، بالتّالي، أصبح ميلادًا ثانيًا للإنسان، يتنعّم من خلاله بالميراث الّذي أعدّه الله للّذين يُحبّونه:** "تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح، شَمَلَنا بوافر رحمته فولَدَنا ثانيةً لرجاءٍ حيٍّ بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات، ولميراثٍ غير قابلٍ للفساد والرّجاسة والذّبول، محفوظٍ لكم في السّموات" (١ بطرس ١: ٣-٤؛ راجع أيضًا ١ كورنثس ٢: ٩). إنّه، إذًا، اختبارٌ للرّجاء السّعيد وتوقُّع الاستيقاظ للحياة الأبديّة، حياة الاتّحاد الكامل مع المحبّة، حياة النّعيم الّتي لن تنتهي أبدًا.

- **تسميّة الأحياء والأموات**

وهنا، أودّ أن أسلِّط الأضواء من جديدٍ على عادةٍ كنسيّةٍ جميلةٍ ما زالت مستعمَلةً في بعض الرّعايا، بينما اندثرت في رعايا أخرى، هي "تسميّة الأحياء والأموات". فتُحضر العائلة قربانةً واحدةً بمنديلٍ خاصٍّ للكاهن قبل بدء القدّاس الإلهيّ، أي أثناء تهيئته للذّبيحة، تضع فيه لائحةً بأسماء الأحياء، من أجل توفيقهم، وصحّتهم، وعافيتهم، وخلاصهم، والأموات من أجل راحة نفوسهم، فيجتزئ الكاهن قطعةً صغيرةً من القربانة ويضعها في الصّينيّة المقدّسة، وقطعةً أكبر يضعها في صينيّةٍ خاصّةٍ لتوزيعها في آخِر القدّاس على المؤمنين، ويُدعى "خبز البركة" (الأنديذورون)، بحيث يُباركها الكاهن، إذ يُدنيها من القرابين المقدّسة، أثناء ترنيم نشيد والدة الإله "إنّه واجبٌ حقًّا"، وهو يقول:

> **أذكر يا ربُّ عبيدَك المؤمنين الّذين قدّموا هذه القرابين. وأعطهم الصّحة والسّلامة والخلاص. إشفِ مرضاهم وأرحْ نفوس موتاهم.**

وهكذا نلاحظ أنّ الأحياء والأموات يُذكرون أوّلاً، في تهيئة الذّبيحة، وثانيًا، في الذّكرانيّات الّتي يتلوها الكاهن بعد تقديس القرابين. يا حبّذا لو نُعيد إحياء هذه العادات الكنسيّة والطّقسيّة لِما فيها من أهميّةٍ في حياتنا المسيحيّة، إذ تجعلنا نتّحد بالصّلاة مع بعضنا البعض، من جهة، ومع أمواتنا الرّاقدين على رجاء القيامة، من جهةٍ أخرى. إنّها حلقةُ تواصلٍ روحيّةٍ بين جميع أعضاء الكنيسة، أحياء وأموات.

- **الكاهن نفسه المُحتفل بالذّبيحة**

ثمّ يقتطع الكاهن جزءًا صغيرًا من القربانة ويُقدّمها على نيّته الخاصّة قائلاً: "أذكر، أيّها الرّبّ حقارتي أنا أيضًا، واصفح عن كلّ زلّة فعلتُها، إختياريّة وغير إختياريّة". إنّ التّوبة المنسحقة تُضيء من خلال هذا الالتماس الغفرانيّ للكاهن. إنّها تضرُّعٌ كهنوتيٌّ إلى الله، العارف القلوب والكُلى، والعالِم مقياس الخطيئة الشّخصيّة، أن يصفح عن زلّات الكاهن وهَفَواته الشّخصيّة، قبل أن يقوم الأخير بتقديم الذّبيحة الإلهيّة، الّتي تتطلّب منه الطّهارة والنّقاوة الجسديّة والرّوحيّة.

- **خلاصة**

عودٌ على بدء نقول إنّ كلّ الأجزاء المُقتطعة من الخبز الإفخارستيّ والموضوعة حول الحمل ترمز إلى جسد المسيح السِّرّيّ، أي الكنيسة الّتي هو رأسُها ومركزُها، على حدّ تعبير القدّيس بولس: "... فيجمع تحت رأس واحد، هو المسيح، كلَّ شيء: ما في السّموات وما في الأرض" (أفسس ١: ١٠)؛ وحول المسيح تجتمع كلّ كنيسته، أولئك الّذين خلَّصهم بثمنٍ باهظٍ هو دمه الخاصّ. هذا ما أعلنه القدّيس يوحنّا الحبيب في رؤياه: "رأيتُ بعد ذلك جمعًا كثيرًا لا يستطيع أحدٌ أن يُحصيَه، من كلّ أمّةٍ وقبيلةٍ وشعبٍ ولسان، وكانوا قائمين أمام العرش وأمام الحمل، لابسين حُللاً بيضاء، بأيدعم سَعَفُ النّخل، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم فيقولون: الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللحمل!" (رؤيا ٧: ٩-١٠).

ج. تقدمة البخور وتغطية القرابين

- **البخور**

لقد كان البخور يُستَعمل في العهد الجديد كجزءٍ من العبادة المثاليّة في السّماء: "وجاء ملاكٌ آخر، فقام على المذبح ومعه مِجمرةٌ من ذهب، فأعطِيَ عُطورًا كثيرةً ليُقرِّبَها مع صلوات جميع القدّيسين على المذبح الذّهب الّذي أمام العرش. وتصاعد من يد الملاك دُخان العطور مع صلوات القدّيسين أمام الله" (رؤيا ٨: ٣-٤). لقد بدا استعمال البخور واضحًا في اللّيتورجيّا الإلهيّة، في بعض الأبرشيّات، في القرن الحادي عشر الميلاديّ. هناك ثلاثة أمثلة لأوقات التّبخير في ليتورجيّا القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم هي: أثناء تغطية القرابين في

ليتورجيّا التّقدمة، الدّخول الكبير، وقبل مناولة المؤمنين[١٣٣]. إنّ البخور المُعبّق برائحة الشّذى والعبير، الّذي يُبخّر به الكاهن كلّ غطاءٍ قبل أن يضعه على الصّينيّة أو الكأس، وقبل أن يضع السّتر الكبير ليُجلّل به القرابين المهيّأة للذّبيحة، أصبح بخورًا مقدّسًا لأنّه مكرّسٌ للرّبّ، وأسراريًا لأنّ البركة المطلوبة هي نعمة الرّوح القدس. إنّه يرمز أيضًا إلى العبادة، وإلى رغبة الإنسان في إرضاء الله، وإلى الحصول على أجوبةٍ لصلاته، وإلى إحراز نِعَمٍ إضافيّةٍ من الله[١٣٤]. **إنّ التّبخير، في طقس التّقدمة، يرمز إلى كوننا توّاقين إلى أن يستقبل الله تقدماتنا ويقبلها، مُغدِقًا علينا نعمَه السّماويّة ومجدَه الإلهيّ.** هذا ما نراه في صلاة البخور، حيث يقول الكاهن:

> **أيّها المسيح إلهنا، نُقدّم لكَ البخور رائحة طيبٍ روحيّ، فاقبله على مذبحك السّماويّ، وأسبغ علينا عِوَضًا منه نعمة روحك القدّوس**

وهو ما يُطلبه الكاهن أيضًا باسم الجماعة كلّها في طلبات الاستعداد للمناولة المقدّسة: "حتّى إنّ إلهنا المُحبّ البشر، الّذي **قبلها على مذبحه المقدّس السّماويّ العقليّ**، رائحة طيبٍ روحيّ، يُسبغ علينا عِوَضًا منها النّعمة الإلهيّة، وموهبة الرّوح القدس". يرمز البخور إلى:

- المجوس الّذين قدّموا للطّفل الإلهيّ الذّهب الّذي يرمز إلى المسيح الملك، واللّبان (أي البخور) إلى المسيح الكاهن، والمرّ إلى الآلام الّتي سيُعانيها المسيح من أجلنا (راجع متّى ٢: ١١).
- المُرّ والزّيوت الثّمينة الّتي تمّ دهن جسد المسيح بها قبل أن يوضع في القبر (راجع يوحنّا ١٩: ٣٩).

- **النّجم**

بعد أن يضع الكاهن الأجزاء المخصّصة لإكرام والدة الإله والقدّيسين وعلى نيّة الأحياء والأموات، يرى في مائدة الذّبيحة مغارة بيت لحم، فيضع على الصّينيّة نجمًا يشير إلى النّجم الّذي دلّ المجوس على مكان ولادة المخلّص من

---

١٣٣) **Ibid**, p.312.

١٣٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, pp. 130-131.

جهة، وإلى الصّليب من جهةٍ أخرى. وهكذا تتجلّى فوق تلك الصّينيّة المقدّسة إيقونة اشتراكنا والتئامنا حول المسيح المخلّص، هو الله معنا نشاهده ونتناوله، وهو الإلتئام حول الله بواسطة الابن.

يقول الكاهن عند وضع النّجم على الصّينيّة فوق الخبز:

"وأتى النّجم ووقف فوق المكان الّذي كان فيه الصّبيّ" (متّى ٢: ٩).

- **غطاء الصّينيّة وغطاء الكأس**

بينما يُغطّي الخبز المقدّس الموضوع في الصّينيّة، يتأمّل الكاهن سرّ بيت لحم: قوّة الرّبّ العليّ، ملك السّماء والأرض، تُرى مستترةً تحت عجز طفلٍ رضيع! فبهاء الرّبّ وقوّته العظيمة تكشف عن نفسها في الطّبيعة. إنّ ظهور المسيح الكلمة بالجسد هو بحدّ ذاته دعوةٌ "للدّهشة". ولقد عبّرت اللّيتورجيّا البيزنطيّة عن ذلك منذ الحبل بيسوع بتساؤل الملاك جبرائيل: "كيف الّذي هو غير مدركٍ في الأعالي يولد من بتول؟ كيف الّذي السّماء كرسي مجده، والأرض موطئٌ لقدميه، يوسع في مستودع امرأة؟ كيف الّذي لا يستطيع ذوو السّتة الأجنحة والكثيرو الأعين أن يحدّقوا به، أن يتجسّد منها بكلمة واحدة؟".

يقول الكاهن على الغطاء الّذي يُجلّل الصّينيّة:

"الرّبّ قد ملك والجلال لبس. لبس الرّبّ القدرة وتنطّق بها" (مزمور٩٢: ١).

وعلى غطاء الكأس يقول:

"غطّى جلالك السّموات أيّها المسيح. وامتلأتِ الأرض من تسبحتك" (حبقوق ٣: ٣).

تشير هذه الأغطيّة إلى الأقمطة الّتي لفّت بها مريم العذراء الطّفل الإلهيّ (راجع لوقا ٢: ٧)؛ كما تشير الأغطيّة أيضًا إلى السّباني والأكفان الّتي لُفّ بها جسد المخلّص المائت حين أُنزل عن الصّليب (راجع متّى ٢٧: ٥٩؛ مرقس ١٥: ٤٦؛ لوقا ٢٣: ٥٣؛ يوحنّا ١٩: ٣٨-٤٠): "فحملوا [يوسف ونيقوديموس] جثمان يسوع ولفّوه بلفائف مع الطّيب، كما جرت عادةُ اليهود في دفن موتاهم" (يوحنّا ١٩: ٤٠).

- **السّتر الكبير**

يُمثّل السّتر الكبير الّذي يضعه الكاهن ليُغطّي به القرابين المهيأة في الصّينيّة والكأس الحَجَر الّذي وضعه يوسف على باب القبر والّذي ختمه حرّاس بيلاطس. في رسالته إلى العبرانيّين، يتكلّم الرّسول بولس عن هذا السّتر، قائلاً: "ولَمّا كُنّا واثقين بأنّ لنا سبيلاً إلى القدس بدم يسوع، سبيلاً جديدةً حيّةً فتحها يسوع لنا من خلال الحِجاب، أي جسده، وأنّ لنا كاهنًا عظيمًا على بيت الله..." (عبرانيّين ١٠: ١٩-٢٥). يقول الكاهن على السّتر الكبير الّذي يُظلّل به الصّينيّة والكأس:

أَسْتُرنا بستر جناحَيك. واطرُد عنّا كلَّ عدوٍّ ومحارِب. واجعل السّلام في حياتنا. وارحمنا يا ربّ. وارحم عالمك. وخلّص نفوسنا بما أنّك صالحٌ ومحبٌّ للبشر

ح. **صلاة التّقدمة**

ثمّ يتلو الكاهن صلاة التّقدمة باسطًا يدَيه:

يا أللّه إلهَنا. يا مَن أرسل ربَّنا وإلهَنا يسوع المسيح الخبزَ السّماويّ. غذاءَ العالم كلّه. مخلّصًا وفاديًا ومُحسِنًا. مباركًا إيّانا ومقدّسًا. أنتَ بارِك هذه التّقدمة واقبلها على مذبحك السّماويّ. وبما أنّك صالحٌ ومحبٌّ للبشر. أذكر الّذين قدّموها والّذين قُدِّمَت لأجلهم. واحفظنا بلا دينونة في خدمة أسرارك الإلهيّة

إنّ كلمات صلاة التّقدمة هذه تُشكّل دليلاً مُقنعًا أنّها ذاتُ جذورٍ تعود إلى ذلك الوقت الّذي فيه كانت الجماعة المسيحيّة الأولى تُمارس عادة تقديم العطايا في الكنيسة. يذكر الكاهن في هذه الصّلاة أولئك الّذين "قدّموا" هذه التّقادم القربانيّة، إضافةً إلى أولئك "الّذين قُدّمت لأجلهم".

يُوجّه الكاهن هذه الصّلاة إلى الآب السّماويّ، الّذي تكرّم ومَنَحَ العالم "الخبز السّماويّ" في شخص يسوع المسيح، طالبًا منه أن يُبارك هذه التّقدمة ويقبلها على "مذبحه السّماويّ". ولأنّ هذه التّقادم المقدّسة ترمز إلى يسوع المسيح، حمل الله، جنبًا إلى جنبٍ مع جسده السّرّيّ (كنيسته)، فإنّ الكاهن في نهاية الصّلاة

يلتمس من الله أن يكون جديرًا بالاستحقاق ("بلا دينونة") في القيام بمهامه الكهنوتيّة في اللّيتورجيّا الإلهيّة. وهذا يُشير إلى رغبةٍ قُدسيّةٍ في أن تكون مشاركة الكاهن الشّخصيّة في اللّيتورجيّا الإلهيّة لإرضاء الله.

خ. الحلّ

ليرحَمْنا المسيح إلهُنا الحقيقيّ. الّذي وُلِدَ في مغارةٍ وأضجع في مذود. لأجل خلاصنا (وقام من بين الأموات، إنْ كان يوم أحد). ويُخلّصْنا بشفاعة أمّه الكاملة الطّهارة. وأبينا في القدّيسين يوحنّا الذّهبيّ الفم. رئيس أساقفة القسطنطينيّة. وجميع القدّيسين. بما أنّه صالحٌ ومُحِبٌّ للبشر.

في الواقع، لكلّ طقسٍ ليتورجيٍّ أو خدمةٍ ليتورجيّةٍ الحلّ الخاصّ بها. إنّ الهدف الكامن وراء الحلّ هو للتّعبير عن الشّكر والامتنان، ولتقديم التّسبيح للمسيح إلهنا، وللتّمنّي لجميع المشتركين بالحصول على النِّعَم الوافرة والخلاص من خلال وساطة البتول القدّيسة مريم والقدّيسين.

د. نشيد الخِتام

أيّها المسيح. كنتَ في القبر بالجسد. وفي الجحيم بالنّفس. وبما أنّكَ إلهٌ. في الفردوس مع اللّصّ. وعلى العرش مع الآب والرّوح. مالئًا كلّ شيءٍ يا مَنْ لا يحدُّه شيء

- **ليتورجيّة النّشيد وتاريخيّته**

إنّ هذا النّشيد الّذي يتلوه الكاهن بعد الحلّ، بينما يقوم بتبخير المائدة المقدّسة من جهاتها الأربع، مأخوذٌ من خِدَم السّبت العظيم، بحيث إنّ كلماته تُشير بوضوح إلى دفن يسوع. ولقد تمّ إدراجه في اللّيتورجيّا الإلهيّة في القرن الرّابع عشر الميلاديّ[١٣٥]. وأُضيف تحت تأثير التّفسيرات الرّمزيّة الخاصّة بليتورجيّا التّقدمة والمذبح، الّتي رأت أنّ المذبح يُمثّل الموضع الّذي وُضِعَ فيه المسيح، ووَضْع التّقادم المقدّسة على المذبح كان رمزًا لوضع المسيح في القبر.

---

١٣٥) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.133.

- **المسيح المائت**

ففي ظلمة القبر، سَطَعَ ضياء جسد المسيح البشريّ المُحيي وغير القابل للفساد، وبتحرُّره من الجسد، نَزَلَ إلى الجحيم، حيث المكان الّذي يجمع نفوس الموتى الّذين توفّوا قبل أن يتمّ فتح أبواب السّماء في يوم صعود المسيح إلى السّماء. لقد ظهر لهم المسيح وأعلن لهم البُشرى السّارة، وهي السّاعة الّتي حرّرهم فيها المسيح من قيود الشّيطان وشوكة الموت، وأدخلهم من جديدٍ إلى السّماء، حيث الأنوار الإلهيّة تسطع كالشّمس. وحده هذا الإنسان – الإله (المسيح) الّذي لا سلطان للموت عليه، يُمكنه أن يدخل إلى ليل الموت الأحلك دون أن يستولي الموت عليه، وهذا هو التّجرّد في الصّليب: "إنّه التّألّق والبهاء في عتمة الظّلمات"[١٣٦].

- **صمت الأعماق: النّزول إلى الجحيم، النّور يُضيء في الظّلمة**

إنّه قمّة التّجرّد الإلهيّ الّذي أصبح لسكّان الجحيم ظهورًا إلهيًّا ساطعًا بالأنوار الإلهيّة، حيث يدخل الحيّ إلى ينابيع كلّ كائن. ففي هذا النّزول إلى الجحيم الّذي يقوم به الجسد الّذي لا يعرف الفساد، تبدّد كذب الموت، وأفيض سلام الشّركة الإلهيّة، وصار الرّجاء بداية الكلّ، وبدأ نهر الحياة المتفجّر من قبر المسيح يأخذ في جريانه كلّ شيءٍ نحو منتهى الدّهر. إنّ المسيح، إذًا، إذ قد نزل إلى الجحيم، حرّر الإنسانيّة المأسورة، ذلك أنّه ظهر في الجحيم لا بمظهر أسيرها، بل بمظهر غالبها يُحرّر الّذين كانوا سجناء فيها، ولا بمظهر العبد بل بمظهر سيّد الحياة. إنّه حاضرٌ في الجحيم حضور قوّةٍ ساطعة، ومُعتلنٌ اعتلان البرق: إنّه بالحقيقة نور القيامة وفجر الفصح.

- **المسيح النّاهض من القبر**

إنّ الموت، إذًا، لم يعد له وجودٌ لأنّ ابن الله الحيّ وَطِئَه بموته، أماته بموته: "المسيح قام من بين الأموات، ووطئ الموت بالموت، ووهب الحياة للّذين في القبور". وهذا ما عبّر عنه أيضًا القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ في قانون الفصح: "هلمّ أيّها المؤمنون، نُعيّد لإماتة الموت ولتدمير الجحيم، ولبدء حياةٍ أخرى أبديّة"

---

١٣٦) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، ص. ٤٩.

(التّسبحة السّابعة). وبذلك يكون قد بدأ زمانٌ جديدٌ داخل هذا الزّمان، حيث يخوض الموت بعد هزيمته الحاسمة، معركتَه على كلّ الجَبَهات، وحيث ينفذ فصح الرّبّ إلى أعماق الإنسان والتّاريخ: هذه هي الأزمنة الأخيرة، إذ إنّ الزّمن المائت لم يكن سوى "تهيئة"، وها هو الآن يملأه حدث الفصح[137]. هذا هو اختبار النّسوة حاملات الطّيب: "وعند **فجر** الأحد جئن إلى القبر وقد **طَلَعَتِ الشّمس**" (مرقس ١٦: ٢). لقد طلع الفجر، فجر الخليقة المحرَّرة من الموت، فجر اليوم الّذي لا مساء له، فجر القيامة والعبور إلى ما بعد الموت. "لماذا تبحثن عن الحيّ بين الأموات؟ إنّه ليس ههنا، بل قام" (لوقا ٢٤: ٥-٦). المسيح قام، حقًّا قام! ومن هنا بدأ كلّ شيء. لقد صار قبر المسيح الفارغ بدايةَ العهد الجديد، عهدِ القيامة الّتي ما هي أيضًا إلاّ دخول حضور الله في أرض النّسيان، وانبلاج النّهار في عتمة اللّيل، وبلوغ نهر الحياة صحراء موتنا. هذا الملء هو يسوع الّذي "فيه يحلّ ملء اللّاهوت جسديًّا" (كولسّي ١: ١٩).

- سارق الملكوت

يذكر هذا النّشيد أيضًا توبة اللّصّ اليمين المصلوب مع المسيح، حين طَلَبَ، بكلّ ثقةٍ وإيمان، في ساعة الغفران المتفجّر من الصّليب، من يسوع المصلوب أن يذكرَه في ملكوته (لوقا ٢٣: ٤٢). وردًّا على هذا التّوسُّل الإيمانيّ والنّيّة الصّالحة من قِبَل اللّصّ المذكور، قال له يسوع: "الحقّ أقول لكَ: ستكون اليوم معي في الفردوس" (لوقا ٢٣: ٤٣). لِنَعُدْ قليلاً إلى الوراء ونُصغي إلى كلمات اللّصّ: "أمّا نحن فعقابُنا عَدْل، لأنّنا نلقى ما تستوجبه أعمالنا" (لوقا ٢٣: ٤١). فمن خلال هذه الكلمات شَعَرَ اللّصّ بأنّه محكومٌ عليه بالعدل، وأنّه إنّما يحصد استحقاق ما فعل، هذا هو الحكم على الذّات وأعمالها (بمعنى قراءة ذاتيّة للحياة)، وهو يُشكِّل مقدّمة الرّجوع إلى الله والواسطة الّتي بها نستطيع أن نتمتّع بخلاصه. إذًا، إنّ اللّصّ التّائب ظلّ لصًّا، لأنّه سرق الملكوت بنعمة الله بواسطة التّوبة!

---

١٣٧) **المرجع نفسه**، ص. ٥٣.

- **المسيح المُمجَّد الجالس على العرش**

إيقونة أخرى يذكرها النّشيد هي جلوس يسوع على العرش مع الآب والرّوح. إنّ هذا الجلوس على العرش لا يُشير إلى المسيح المتألّم والمائت، بل إلى المسيح الحيّ، القائم من بين الأموات، الظّافر، الغالب، المُنتصر، وأخيرًا المسيح الممجَّد. هذا ما قاله المسيح نفسه أثناء استجوابه في المجلس قبل صلبه: "... سترَون بعد اليوم ابن الإنسان جالسًا عن يمين القدير وآتيًا على غمام السّماء" (متّى ٢٦: ٦٤). فبينما كان جسد المسيح في القبر، ونفسه في ملكوت الموت، كان المسيح أيضًا، كإلهٍ حقيقيّ، وكأقنومٍ ثانٍ من الثّالوث القدّوس، مُتوّجًا في السّماء ومالِكًا مع الآب والرّوح القدس. كونه اللّه الابن، فهو في طبيعته هذه الإلهيّة يملأ كلّ شيءٍ ولا يحدّه شيء.

- **ملخّص**

ختامًا نؤكّد أنّ ليتورجيّا التّقدمة ورموزها تُعبِّر، بحسب علماء اللّيتورجيّا، عن حقيقتين إنجيليَّتين تُشكّلان رُكنَين هامَّين من أركان المسيحيّة، هما:

- الرّمزيّة السِّرِّيّة لميلاد المسيح وحياته الخفية. فهناك جزءٌ مثلَّثٌ من القربانة يرمز إلى البتول القدّيسة مريم، الّتي ولدت يسوع المسيح؛ بالإضافة إلى جزءٍ آخر للملاك جبرائيل، عرّاب البشارة بميلاد المسيح من البتول؛ وترمز الصّينيّة إلى المذود حيث وضعت مريم الطّفل يسوع؛ بينما يرمز النّجم إلى نجم بيت لحم الّذي أضاء فوق المغارة حيث وُلِدَ المسيح؛ أمّا الأغطية، فهي ترمز إلى الأقمطة الّتي كان يسوع الطّفل ملفوفًا بها؛ والبخور يُمثِّل هدايا المجوس الثّلاثة القادمين من المشرق. إنّ طريقة تغطية التّقادم المقدّسة ترمز إلى الحياة الخفيّة ليسوع المسيح في النّاصرة؛
- الرّمزيّة الصّوفيّة والدّراميّة لتضحية يسوع المسيح على الصّليب، حيث يُشير الحمل إلى المسيح عبد الرّبّ المتألّم.

الفصل الثّاني

ليتورجيّا الموعوظين

أو

ليتورجيّا الكلمة

الباب الأوّل

أصل تسميّة "ليتورجيّا الموعوظين"

١) ارتباطها بالمجمع اليهوديّ

إنّ أصل هذه اللّيتورجيّا يعود إلى الزّمن الرّسولي. إنّ بُنية هذه اللّيتورجيّا تؤكّد إلى حدٍّ كبير تأثير المجمع اليهوديّ (الكَنيس) على حياة المسيحيّين الأوّلين. فالرّسل وخلفاؤهم اعتادوا على استعمال الخِدَم الّتي كان يُحتفَل بها في المجمع اليهوديّ كنموذج، مُعطين إيّاها طابعًا مسيحيًّا، شكلاً ومضمونًا. كان اليهود يحتفلون طقسيًّا بخدمتين أساسيَّتين: الأولى، تتضمّن الذّبائح الدّمويّة وغير الدّمويّة المقدّمة في هيكل أورشليم؛ والثّانية، تجري كلّ سبتٍ في المجمع. تتألّف هذه الخدمة الأخيرة من صلوات الجماعة القائمة على ترنيم المزامير، وقراءةٍ للكتب المقدّسة (العهد القديم) مع تفسير لها، ثمّ صلاة الجماعة الّتي تختم الخِدَمة. تُشكّل الأناجيل المقدّسة دليلاً واضحًا على أنّ يسوع والرّسل كانوا يشاركون في خِدَم السّبت في المجمع. فالإنجيليّ لوقا يُقدّم سردًا لمناسبةٍ واحدةٍ من هذا القبيل، حين وقف المسيح في وَسَط أولئك الحاضرين في المجمع يوم السّبت وقرأ نصًّا من سِفر أشعيا النّبيّ (٦١: ١-٢) وقام بتفسيره (٤: ١٦-٢١). لقد حذى الرّسل حذو معلّمهم، وكانوا يتردّدون على حضور خِدَم السّبت حتّى بعد صعود الرّبّ إلى السّماء. وكانوا يجتمعون في بيوتٍ خاصّةٍ مع بقيّة الجماعة المسيحيّة من أجل كسر الخبز وتقديم الذّبيحة الإفخارستيّة فقط. فلقد كانت خِدَم السّبت في المجمع مفيدةً جدًّا للرّسل الّذين كانوا هم

أنفسهم يهودًا، للإصغاء إلى الكتب المقدّسة الّتي تتمّ قراءتها وتفسيرها، بحيث كانت الفرصة مُتاحةً لهم ليؤكّدوا تحقيق نبوءات العهد القديم المتعلّقة بيسوع المسيح، وليُفسّروا المعنى الحقيقيّ للكتب المقدّسة للمتحوّلين جديدًا من اليهوديّة إلى المسيحيّة. ولقد تبنّت الكنيسة الأولى هذه الصّلاة وتعليمات الخدمة من المجمع اليهوديّ، وأعطتها طابعًا ومعنًى مسيحيًّا، فوضعت إلى جانب القراءة من العهد القديم، قراءةً من العهد الجديد (الأناجيل المقدّسة، أعمال الرّسل، رسائل القدّيس بولس وغيره من الرّسل الآخرين).

٢) نشأة اللّيتورجيّا المسيحيّة

وفي وقتٍ مبكّرٍ من القرن الأوّل الميلاديّ، قام المسيحيّون الأوّلون بانفصالٍ كاملٍ عن المجمع اليهوديّ، لأنّهم أصبحوا مُوقِنين بأنّ أملهم باهتداء اليهود إلى الإيمان المسيحيّ بات عقيمًا. ففي الواقع، نشأت هُوّةٌ عظيمةٌ بين اليهود والمسيحيّين، لأنّ المسيحيّين أصبحوا منبوذين من قِبَل اليهود ولم يَعُد لديهم مكانٌ للصّلاة في المجمع، وقد اعتبروهم خَوَنَةً لإيمان أسلافهم ولشرائع العهد القديم، وحُرموا من خِدَم السّبت الطّقسيّة. علاوةً على ذلك، ارتدّ الكثيرون من الوثنيّين إلى المسيحيّة ولم يكونوا على علمٍ بالخِدَم الدّينيّة اليهوديّة الّتي كانت غريبةً عن تقاليدهم الوثنيّة. لأسبابٍ عدّة، تخلّى المسيحيّون الأوّلون عن المجمع وبدأوا الاحتفال بخدماتهم الدّينيّة بشكلٍ مُنفصِل.

إنّ مسحنة المجمع ظهرت بوضوح حين ابتدأ المسيحيّون يحتفلون بصلواتهم يوم الأحد بدلاً من يوم السّبت كما كانوا يفعلون سابقًا؛ وقد كانوا يجتمعون أيضًا في أيّامٍ أخرى للاحتفال بصلاة الجماعة وقراءة الكتب المقدّسة، وبخاصّة كتب العهد الجديد، مع الاحتفاظ بالعادات الدّينيّة اليهوديّة كترنيم المزامير وقراءة مقتطفات من العهد القديم، خصوصًا النّبوءات المتعلّقة بشخص يسوع المسيح. إنّ المسحنة الأهمّ للأعراف الدّينيّة اليهوديّة جاء عندما بدأ المسيحيّون الاحتفال "بكسر الخبز"، أي الذّبيحة الإفخارستيّة. ولقد أصبحت ممارسةً راسخةً في الحِقبة الّتي تلت الحِقبة الرّسوليّة. قليلةٌ هي المراجع الّتي تتكلّم عن ليتورجيّة المسيحيّين القديمة؛ إلاّ أنّ هناك مرجعًا كنسيًّا معاصرًا لهذه الحِقبة التّاريخيّة هو القدّيس يوستينس الشّهيد (أواخر القرن الأوّل الميلاديّ).

إنّ االلّيتورجيّا الإلهيّة، بحسب وصف هذا القدّيس يوستينس، كانت تبدأ بقراءةٍ من العهدَين القديم والجديد، تليها عِظَةٌ من مترئّس الجماعة المُصَلّيّة، يُفسّر خلالها الكتب المقدّسة، ويَحُثُّ مستمعيه على احترام الوصايا. ثمّ يتلو المؤمنون صلواتٍ مشتركةً تخصّ احتياجاتهم المختلفة، ويقومون بمصافحة بعضهم البعض مع قُبلة السّلام. بعد ذلك، يُحضر الشّمامسة الخبز والخمر والماء للذّبيحة الإفخارستيّة، الّتي بعد أن يتمّ تقديسها، كانت تُوزَّع على المؤمنين في المناولة المقدّسة[١٣٨]. أمّا في أيّامنا الحاليّة، فإنّ الصّلوات، والتّرانيم، والقراءات من الكتب المقدّسة وتفسيراتها، فهي تُساعد على تهيئة الكاهن والمؤمنين واستعدادهم الرّوحيّ للذّبيحة الإفخارستيّة والمناولة المقدّسة.

فليتورجيّا الموعوظين اليوم تشدّ انتباه المؤمنين إلى تمجيد الله من خلال التّرانيم، وشكره على كلّ ما قدّمه لنا من نِعَمٍ وبركاتٍ وخيراتٍ زمنيّةٍ وسماويّة، بالإضافة إلى تنوير قلوب المسيحيّين وأذهانهم من خلال كلمة الله، ومنحهم التّوجيه المناسب في الحياة. بناءً على ما تقدّم نقول إنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي "التّاريخ" لِما فعله المسيح لخلاصنا، إذ إنّ اللّيتورجيّا بكلّيّتها تُشير إلى المسيح وتدبيره الخلاصيّ: التّجسّد الإلهيّ، حياته الأرضيّة، رسالته الخلاصيّة، آلامه المقدّسة، موته المُحيي، نهوضه من القبر (القيامة المجيدة) وصعوده إلى السّماء. وهذا ما جعل الكثيرين من المفسّرين اللّيتورجيّين يؤكّدون أنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي تسلسلٌ زمنيٌّ ليتورجيٌّ لحياة يسوع المسيح وموته[١٣٩]. وبالتّالي، فإنّ ليتورجيّا الموعوظين تُشير إلى ظهور المسيح العلنيّ وإعلانه البُشرى السّارّة – الإنجيل، وكلّ الأحداث الّتي طبعت حياته قبل دخوله الانتصاريّ إلى أورشليم وآلامه.

---

١٣٨) Meleyius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.137.

١٣٩) **Ibid**, p.140.

٣) مفهومها الكنسيّ

لقد كان القسم الثّاني من اللّيتورجيّا الإلهيّة معروفًا لقرون عدّة باسم "ليتورجيّا الموعوظين"، ذلك أنّ الاشتراك في هذا القسم لم يكن للمسيحيّين المعمَّدين فحسب، بل أيضًا لأولئك الّذين لم يُعمَّدوا بعد، ولكنّهم كانوا في حالة استعدادٍ وتهيئةٍ روحيّةٍ لاستقبال سرّ المعموديّة المقدّس. فلم يكن يُنظَر إلى الموعوظين كأعضاء في الجماعة المسيحيّة، وكانوا يُستَبعَدون من المشاركة في ليتورجيّا الذّبيحة غير الدّمويّة والمناولة المقدّسة. من ناحيةٍ أخرى، كان يُسمَح لهم بالاشتراك في هذا القسم من اللّيتورجيّا الإلهيّة القائم في أساسه على القراءات من الكتاب المقدّس. لذلك دُعِيَ هذا القسم "بليتورجيّا الموعوظين". حتّى بعد أن أصبحت المسيحيّة الدّيانة الرّسميّة لكلّ السّكّان، حافظت الكنيسة على ليتورجيّا الموعوظين، إذ إنّ عمليّة التّعلُّم حول حقائق الإيمان المسيحيّ كالتّجسّد، والخلاص، وواجبات المسيحيّ الحقيقيّ، لا تتوقّف مع المعموديّة أو مع التّعليم اللّاهوتيّ البدائيّ الّذي يسبقها (المعموديّة)، بل إنّها عمليّةٌ مستمرّةٌ طوال حياة الإنسان كلّها، إنّها تنشئةٌ روحيّةٌ متواصلة. وبالتّالي، فإنّ هدف ليتورجيّا الموعوظين هو أن تخلق جوًّا من الإيمان قبل بداية سرّ الإيمان العظيم، الاحتفال الإفخارستيّ.

الباب الثّاني

المراسيم الإفتتاحيّة

١) طقس التّبخير

تبدأ ليتورجيّا الكلمة بتبخير مذبح التّقدمة، والمائدة المقدّسة، والإيقونات، والمؤمنين في الكنيسة. أغلب الرّأي أنّ البخور لم يكن مستعملاً في الكنيسة حتّى القرن الرّابع، لأنّه كان يقدّم في العبادات الوثنيّة للأصنام، ونحن نعلم أنّ المسيحيّين في عصر الاضطهاد الّذي سبق القرن الرّابع كثيرًا ما آثروا سفك دمائهم على تقديم البخور للأصنام. ثمّ ما عتم التّبخير أن دخل في عادة الكنيسة. أمّا المعنى المقصود بتقديم البخور في القدّاس وفي سائر الصّلوات الكنسيّة فيرتكز إلى كون البخور يحترق بالنّار فيَفنى، ثمّ يرتفع دخانه إلى السّماء كالسّحاب، وينشر حوله طيب شذاه، فالبخور، إذًا، محرقة لأنّه يَفنى بالنّار. وما شذاه سوى نتيجة احتراقه، كما أنّ إشعاعنا المسيحيّ وطيب عرفنا الرّوحيّ ناتجان عن تقدمة أنفسنا محرقةً للّه. ودخانه المتصاعد هو رمز الصّلاة الّتي ترتفع بها النّفس إلى اللّه. وقد قال صاحب المزامير: "لترتفع صلاتي كالبخور أمامك" (المزمور ١٤٠: ٢). إنّه، إذًا، يُشير إلى العبادة الإلهيّة؛ إنّه خروجٌ لرغبة الإنسان التّوّاق إلى أن يقبل اللّه صلاته وذبيحته. كما ويدلّ البخور في بداية اللّيتورجيّا الإلهيّة على التّقديس والنّقاوة. إنّ آيات المزمور الخمسين الّذي يتلوه الكاهن أثناء التّبخير، تُشير إلى النّقاوة الّتي ما هي إلاّ تعبيرٌ عن التّوبة الّتي تشعر بها النّفس الّتي ترغب في أن تكون نظيفةً من كلّ خطيئة، لتصير "بيضاء كالثّلج"، لأنّها "هيكل اللّه الحيّ"[١٤٠]. أمّا في ما يتعلّق بالتّقديس، فإنّ

١٤٠) **Ibid**, p.143.

السّحابة البيضاء الّتي ارتفعت فوق قدس الأقداس في العهد القديم لم تكن سوى علامة مرئيّة لحضور الله في هيكل أورشليم. يظهر حضور الله في الكنائس المسيحيّة بطرقٍ متعدّدةٍ وأكثر أسراريّة.

في هذا الإطار، يأتي معنى **البخور امتلاءً من النّعم والبركات الرّوحيّة الّتي منبعها يسوع المسيح نفسه** الحاضر بطريقةٍ سريّةٍ في القرابين المقدّسة الموضوعة على مذبح التّقدمة. والسّبب الّذي يجعل طقس التّبخير يبتدئ من تبخير القرابين المقدّسة يعود إلى أنّ التّقديس هو فعلٌ إلهيٌّ يأتي من يسوع المسيح نفسه المُشار إليه بهذه القرابين؛ ويُمنَح هذا التّقديس للكاهن والشّعب على السّواء، لأنّه ومن أجل المسيح، تتدفّق نعمة الرّوح القدس على الجميع. **وهكذا، فإنّ البخور يخلقُ منذ مطلع القدّاس جوًّا سماويًّا**، منبّهًا الكهنة والمؤمنين إلى ضرورة الاستعداد على الصّعيد الشّخصيّ والرّوحيّ لتقديم الذّبيحة.

٢) صلاة الرّوح القدس

أيّها الملك السّماويّ المعزّي. روحُ الحقّ. الحاضرُ في كلّ مكانٍ والمالئُ الكلّ. كنزُ الصّالحات وواهب الحياة. هلمّ واسكن فينا. وطهّرنا من كلّ دنس. وخلّص أيّها الصّالح نفوسنا

١. أسماء الرّوح القدس: "الملك السّماويّ، المعزّي، روح الحقّ"

بعد أن يُنهي الكاهن رتبة تهيئة القرابين وقبل أن يُعلن بصوتٍ جهيرٍ مملكة الثّالوث، يُصلّي إلى الرّوح القدس، الّذي دعاه الرّبّ يسوع "بالمعزّي" و"بالحقّ" في الإنجيل الرّابع (يوحنّا)، حين أعطى تلاميذه وعدًا إلهيًّا بإرساله لهم بعد قيامته من بين الأموات، قائلاً: "وأنا سأسأل الآب، فيهبُ لكم مؤيّدًا آخر يكون معكم للأبد، **روحَ الحقّ** الّذي لا يستطيع العالم أن يتلقّاه، لأنّه لا يراه ولا يعرفه. أمّا أنتم فتعرفونه لأنّه مُقيمٌ عندكم ويكون فيكم... وأمّا **المعزّي** الرّوح القدس الّذي سيُرسله الآب باسمي، فهو يعلّمكم كلّ شيءٍ ويُذكّركم كلّ ما قلتُه لكم" (يوحنّا ١٤: ١٦-١٧، ٢٦؛ ١٥: ٢٦؛ ١٦: ٧). ثمّ قدّم القدّيس يوحنّا في إنجيله المقدّس لاهوت الرّوح القدس بأكمله، مستشهدًا بيسوع الّذي دعا الرّوح القدس "روح الحقّ" الّذي سيعلّم الرّسل ومن بعدهم الجماعة المسيحيّة كلّ شيء: "ومتى جاء

المؤيّد الّذي أرسله إليكم من لدن الآب، روح الحقّ المُنبثق من الآب، فهو يشهد لي" (يوحنّا ١٥: ٢٦). كونه الله، والمساوي للآب والابن في الجوهر، فهو ملك السّماء، ملك الجميع. فكلّ أقنومٍ من الأقانيم الثّلاثة: الآب والابن والرّوح القدس، يملك طبيعةً إلهيّة، و كلٌّ منهم يعمل من خلال الحكمة والقوّة والجُودة اللّامتناهية.

٢. خصائص الرّوح القدس في حياة الجماعة

- **الحاضر في كلّ مكان والمالئ الكلّ**

بالعنصرة صارت الخليقة أهلاً لتقبُّل الرّوح القدس، فينزل إلى العالم ويملأ بحضوره الكنيسة المُفتداة والمغسولة والمُطهّرة بدم المسيح. إنّه بالكلّيّة حاضرٌ في كلّ إنسان يتقبّله، وفي كلّ مكان. عندما يُعطى الرّوح القدس للأشخاص، فإنّه يطبع كلّ واحدٍ منهم بختم علاقةٍ شخصيّةٍ وفريدةٍ مع الثّالوث القدّوس صائرًا حاضرًا في كلّ شخص، وهذا هو المعنى الحقيقيّ لتعبير "المالئ الكلّ"، ذلك أنّه يملأث كيان المؤمنين فيَهبهم مواهبه الرّوحيّة (راجع أشعيا ١١: ٢)، ونعمته المؤلّهة، ويُنعِم عليهم بروح التّبنّي من خلال المعموديّة، ويمنحهم الملء الإلهيّ.

- **كنز الصّالحات وواهب الحياة**

يعود إلى الرّوح القدس نعمة موهبة كلّ عطيّةٍ صالحة[١٤١]، وذلك لأنّه "كنز الصّالحات"؛ بالإضافة إلى أنّ أعمال المحبّة تُنسَب هي الأخرى إلى الرّوح القدس، وأعظم فعل محبّة يكمن في تقديس النّفوس بالنّعمة الّتي تُعطي الحياة الفائقة الطّبيعة، بداية حياة الله في النّفوس. لذلك يتميّز بأنّه "واهب الحياة"، أي الحياة الإلهيّة للإنسان من خلال إشراكنا في الطّبيعة الإلهيّة.

- **هلمّ واسكن فينا**

ثمّ ندعوه إلى أن يسكن فينا، في نفوسنا، في قلوبنا، يُظلّل كياننا كلّه، جاعلاً من الجماعة المسيحيّة كنيسةً حيّة. فالكنيسة هي الجسد الرّوحيّ، أي

---

(١٤١) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.331.

الَّذي لا وجود له كجسد إلاّ بروح المسيح النّاهض من القبر، الموهوب للبشر لكي يستطيعوا أن يرَوا ويسمعوا ويلمسوا كلمة الحياة. فلقد طوّر القدّيس بولس التّعليم حول سُكنى الرّوح القدس في النّفوس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس قائلاً: "أما تعلمون أنّكم هيكل الله، وأنّ روح الله **حالٌّ فيكم**؟" (٣: ١٦)، وقد جاء في الرّسالة عينها: "أوَما تعلمون أنّ أجسادكم هي هيكل الرّوح القدس، **وهو فيكم** قد نلتموه من الله، وأنّكم لستم لأنفسكم؟" (٦: ١٩). فالرّوح القدس هو روح الله الَّذي يسكن في المؤمنين ليوحّدهم بالمسيح، ويدخلهم في علاقة المسيح بالآب. وهذا يؤكّد أنّ علاقة الرّوح القدس بالنّفس هي علاقة **سُكنى وإقامة**"[١٤٢]. إنّها ليست كعلاقة اتّحاد الجسد والنّفس في الإنسان، ولا هي على مثال الاتّحاد الكلّيّ للكلمة الأبديّ بالطّبيعة البشريّة للمسيح، ولا يُشبه اتّحادُ الرّوح القدس بنفس الإنسان اتّحادَ الشّخص الواحد مع نفسه: **فالإنسان يُحافظ على إستقلاليّته الشّخصيّة حتّى بعد تقديسه وتألُّهه بواسطة حضور الرّوح القدس**، في الوقت الَّذي يبقى فيه الرّوح القدس متميِّزًا عن الإنسان، بحيث "إنّه في مجيئه الشّخصيّ لا يُعلن شخصه. لا يأتي باسمه ولكن باسم الابن، ليشهد للابن، وليجعل الآب معروفًا... ويبقى غير مُعلَن كشخص، مخفيًّا، مستترًا في ظهوره عينه"[١٤٣]. إنّه، كما يقول القدّيس باسيليوس الكبير، "ينبوع التّقديس الَّذي لا ينضُب"[١٤٤].

- **وطهِّرنا من كلّ دنس**

إنّ مغفرة الخطايا هي جزءٌ أساسيٌّ من نعمة التّبرير، الَّتي تتضمّن التّجديد الرّوحيّ ("لم ينظُرْ إلى أعمال برٍّ عمِلناها نحن، بل على قدْرِ رحمته خلّصنا بغُسل الميلاد الثّاني **والتّجديد من الرّوح القدس**"، تيطس ٣: ٥)، وبالتّالي هي أيضًا جزءٌ من الخلاص الأبديّ. إنّ النّداء الَّذي تُوجّهه هذه الصّلاة يكمن في التّنقية من كلّ وصمةٍ للخطيئة، بحيث لا يبقى شيءٌ يُشوّه الجمال الفائق الطّبيعة للنّفس.

---

١٤٢) **Ibid**, p.331.

١٤٣) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٣٤.

١٤٤) **المرجع نفسه**، ص. ١٣٩.

• **وخلّص أيّها الصّالح نفوسنا**

بما أنّ الرّوح القدس هو أحد الأقانيم الثّلاثة الإلهيّة، فهذا يعني أنّ له دورًا رئيسًا في التّدبير الخلاصيّ، يتلخّص في أنّه يُرشد المؤمنين إلى طريق الحياة الأبديّة والدّخول إلى الملكوت السّماويّ من خلال روح التّبنّي الّذي يمنحنا إيّاه بالمعموديّة: "ما من أحدٍ يُمكنه أن يدخل ملكوت الله، إلاّ إذا وُلدَ من الماء والرّوح" (يوحنّا ٣: ٥).

٣. الرّوح القدس والكنيسة

"في صبيحة العنصرة، وَلَدَ الرّوح القدس، ومن غير زرع، "جسد المسيح" المنسوج من بشريّتنا: الكنيسة. لقد أُفيض الرّوح المُنبثق من الآب بالحمل المذبوح، وظهرت اللّيتورجيّا الأبديّة في عالمنا، وبرزت إلى الوجود خليقةٌ جديدةٌ هي جسد المسيح"[١٤٥]. نستشفّ من هذا المقطع أنّ زمن الكنيسة الحاليّ هو زمن الرّوح القدس، إذ "ما من أمر يحدث في الكنيسة من دون الرّوح القدس والشّركة معه. ذلك أنّ الكنيسة، وبفضل حلوله، تكشف عن نفسها على أنّها تحوّل النّهاية إلى بداية، والحياة القديمة إلى جديدة"[١٤٦]؛ فلقد رافق الرّوح القدس الكنيسة منذ نشأتها وفي جميع مراحل نموّها، لذلك دُعِيَ سفر أعمال الرّسل، الّذي يروي نشأة الكنيسة ونموّها، "**إنجيل الرّوح القدس**". الرّوح القدس هو قدرة الله الّتي تدفع بالكنيسة النّاشئة إلى "أقاصي الأرض" حسب قول يسوع لتلاميذه: "ولكنّ الرّوح القدس ينزل عليكم فتنالون قُدرةً وتكونون لي شهودًا في أورشليم وكلّ اليهوديّة والسّامرة، حتّى أقاصي الأرض" (أعمال ١: ٨).

في الختام نردّد ما ردّده القدّيس إيريناوس في دفاعه ضدّ الهرطقات: "**حيث الرّوح القدس فهناك الكنيسة، وحيث الكنيسة فهناك الرّوح القدس**". إنّ هذه المقولة اللّاهوتيّة المميّزة تُعطينا فكرةً عن التّرابط الحاصل بين أقنوم (شخص) الرّوح القدس ومواهبه الّتي يمنحها للبشر في الكنيسة، جاعلاً إيّاهم مشاركي الطّبيعة الإلهيّة، ومُعطيًا نار اللّاهوت، والنّعمة غير المخلوقة، لِمَن

---

١٤٥) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، ص. ٧٩.

١٤٦) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ٥٣.

يصيرون أعضاء في جسد المسيح. فلقد أرسل الرّوح القدس إلى الكنيسة المجتمعة في عليّة صهيون، باسم الابن (راجع يوحنّا ١٤: ٢٦). وهذا يعني أنّ على الإنسان أن يحمل اسم المسيح ويكون عضوًا في جسده حتّى ينال الرّوح القدس.

٤. تاريخيّة الصّلاة

إنّ هذه الصّلاة للرّوح القدس الّتي لا شبيه لها، والّتي تُستعمل في بداية غالبيّة الخِدَم اللّيتورجيّة البيزنطيّة، قد أُدخِلَت إلى اللّيتورجيّا الإلهيّة في وقتٍ ما خلال القرن الثّالث عشر الميلاديّ[١٤٧].

٣) أنشودة ملائكة بيت لحم

١. البُعد الكتابيّ

ثمّ يقول الكاهن بعدها: "المجد لله في العُلى. وعلى الأرض السّلام. وفي النّاس المسرّة" (لوقا ٢: ١٤). إنّ القسم الأوّل من الأنشودة: "المجد لله في العلى"، يُعبّر عن التّسبيح والاعتراف الملائكيّ بعمل الله العظيم. إنّها تعبيرٌ عن ظهورٍ لحضور الله يُمكن إدراكه حسيًّا (بطريقةٍ ملموسة). أمّا تعبير "في العُلى" فيُشير إلى المكان الّذي يسكنه الله (راجع أيّوب ١٦: ١٩؛ مزمور ١٤٨: ١؛ يشوع بن سيراخ ٤٣: ٩-١٠). بينما يُشير القسم الثّاني من الأنشودة: "وعلى الأرض السّلام، وفي النّاس المسرة"، أنّ ميلاد الميلاد جَلَبَ استعادة حضور الله على الأرض من خلال السّلام المسيحانيّ الّذي يأتي من الله، والّذي يتضمّن، تاليًا، الانسجام، والتّآلف، والازدهار (راجع عدد ٦: ٢٤-٢٦؛ مزمور ٢٩: ١١؛ ٨٥: ٨-١٠؛ أشعيا ٤٨: ١٨؛ ٥٤: ١٠؛ إرميا ١٦: ٥؛ حزقيال ٣٤: ٢٥-٢٩).

في الوقت الّذي أصبح فيه "السّلام" علامةً للملكوت المسيحانيّ المُنتَظَر: "مَن يُعطي من صهيون الخلاص لإسرائيل. إذ يردُّ الله سَبْيَ شعبه يبتهج يعقوب ويفرح إسرائيل" (مزمور ٥٢: ٧). ويعكس الإنجيليّ لوقا في سفر أعمال الرّسل هذه الفكرة: "والكلمة الّذي أرسله إلى بني إسرائيل مُبشّرًا بالسّلام عن يد يسوع المسيح، إنّما هو ربّ النّاس أجمعين" (١٠: ٣٦). فيسوع، إذًا، جَلَبَ سلام الله بطريقةٍ جديدة: إنّه السّلام الّذي يحمل خصائص السّماء نفسها: "فكانوا

---

١٤٧) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.332.

يقولون: تبارك الآتي، الملك، باسم الرّبّ! السّلام في السّماء! والمجد في العُلى!" (لوقا ١٩: ٣٨). وَفقًا لذلك نقول إنّ يسوع المسيح، الّذي ضحّى بنفسه من أجل تسبيح الله ومجده، يمنح الإنسان مِن على مذبح التّقدمة السّلام الحقيقيّ، والنّعمة الإلهيّة، والغفران، والمصالحة.

أمّا تعبير "المسرّة" فهو تعبيرٌ متحدِّرٌ من الأصل اليونانيّ (εὐδοκία - إفذوكيّا) ويعني "الصّلاح الإلهيّ" أو "الرّغبة الكاملة في الله". إنّه يُشير، إذًا، إلى إعلان المشيئة الإلهيّة نحو الإنسان، الرّحمة الّتي جعلت الآب يُرسل ابنه ليُخلّص العالم: رغبة الله في خلاص جميع النّاس، على حدّ تعبير القدّيس بولس (١ تيموثاوس ٢: ٣-٤).

٢. الطّابع اللّيتورجيّ

إنّها تسبحة الطّغمات الملائكيّة الّتي بشّرت رعاة بيت ساحور بميلاد السّيّد المسيح في بيت لحم، فكانت تسبحة فرح إلهيٍّ وابتهاج روحيٍّ بتلك البُشرى الخلاصيّة الّتي انتظرتها البشريّة طويلاً. إنّها إعلانٌ سماويٌّ لتحقيق وعد الله بالخلاص منذ بدايات الخليقة (تكوين ٣: ١٥)؛ إنّها إشراقةٌ مجد الرّبّ في عالم الظّلمة تحقيقًا لِما قاله النّبيّ أشعيا يومًا عن ميلاد رئيس السّلام: "الشّعب السّائر في الظّلمة أبصر نورًا عظيمًا، والمُقيمون في بُقعة الظّلام أشرق عليهم النّور... لأنّه قد وُلِدَ لنا ولدٌ وأُعطِيَ لنا ابن..." (أشعيا ٩: ١، ٥-٦).

من هذا المنطلق نُدرك أنّ القدّاس الإلهيّ ما هو إلاّ عيشٌ لمجد الرّبّ هذا، واختبارٌ إيمانيٌّ لنوره السّاطع الضّياء الّذي سيُظلّل جميع المؤمنين أثناء الاحتفال بالإفخارستيّا، مالئًا إيّاهم فرحًا إلهيًّا وغبطةً ملائكيّةً وسلامًا داخليًّا يفوق كلّ سلامٍ أرضيّ. لذا، فإنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي تعبيرٌ حيٌّ عن فرح السّماء مع الأرض، الكنيسة السّماويّة مع الكنيسة الأرضيّة، العالم الإلهيّ مع العالم البشريّ؛ إنّها إعلان الفرح الخلاصيّ بالتّجسُّد الإلهيّ لله الكلمة، يسوع المسيح، الّذي يُشكّل مركزيّة ليتورجيّا الكلمة الكتابيّة واللّاهوتيّة.

لقد أُدخِلَت هذه الأنشودة الملائكيّة إلى اللّيتورجيّا الإلهيّة بعد أن أصبحت ليتورجيّا التّقدمة رمزًا لمكان ولادة يسوع في مغارة بيت لحم. فالمسيح سيأتي

ليسكن بيننا على المذبح في اللّيتورجيّا الإلهيّة من خلال وجوده الإفخارستيّ الحقيقيّ.

٣. الكاهن "فم المسيح"

ثمّ يقول الكاهن: "يا ربّ افتح شفتيَّ. فيُذيع فمي تسبيحك" (مزمور٥٠: ١٧). إنّها آيةٌ من المزمور الّذي كتبه النّبيّ داود تعبيرًا عن توبته وندامته أمام الله. إنّ الكاهن ومن خلال هذه الآية الكتابيّة يجب أن يكون هو "فم المسيح" النّاطق بالإلهيّات، لأنّ على فمه دائمًا "الكلمة"، إنّه لا يَعِظُ بكلامه الشّخصيّ بل هو كالنّبيّ يُعلن كلمة الله ويشرحها ويحثّ على تطبيقها. مَن يترك الكلمة يكون قد تخلّى عن الهُويّة الأساسيّة لكهنوته.

٤. تقبيل الإنجيل المقدّس والمائدة المقدّسة

ثمّ يُقبِّل الكاهن كتاب الإنجيل المقدّس والمائدة المقدّسة. إنّ الإنجيل مقدَّسٌ لأنّه يحتوي كلمات وحياة مخلِّصنا، وكذلك أيضًا هي المائدة لأنّ المخلِّص نفسه سيأتي ليُقدِّم عليها ذاته ذبيحةً من أجل خطايانا. ولكن، هناك معنًى أعمق من مجرّد تقبيل الإنجيل والمائدة يكمن في أنّ الإنجيل يمثِّل المسيح والمائدة تمثِّل عرشه، وبتقبيلهما يُعبِّر الكاهن فعلاً عن الحبّ والرّهبة الكامنة في قلب المحتفِل للمسيح نفسه. ولهذا تظهر القُبلة على أنّها تحيّة حبٍّ وسلام. إنّ تقبيلَهما يعني أيضًا أنّ المسيح هو مُوجِد الكهنوت، وهو، في الوقت عينه، مَنبع القوّة الإلهيّة الّتي تلقّاها الكاهن من المسيح، الكاهن الأعظم، ليحتفلَ بذبيحة العهد الجديد غير الدّمويّة. تمامًا كما تطهّرت شفتا النّبيّ أشعيا بالجمرة المأخوذة من مذبح الرّبّ، مِمّا جعلت منه نبيًّا وسفيرًا للرّبّ (أشعيا ٦: ٦-٧)، لذلك، فإنّ تقبيل المسيح من خلال الإنجيل المقدّس والمائدة المقدّسة هو رمزٌ للطّهارة ولمسحة الكاهن الّتي تجعله أهلاً ليُقدِّم اللّيتورجيّا الإلهيّة.

٤) مملكة الثالوث

١. المجدلة الثالوثيّة إعلانٌ للملكوت

القدّاس الإلهي هو سرُّ حضور المسيح، وبالتّالي فهو كشفٌ للمملكة المبارَكة: "مباركةٌ مملكة الآب والابن والرّوح القدس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّاهرين"، لأنّ حضور المسيح هو نفسه ملكوت الله، إنّ هذا الحضور يحوِّل الأرض إلى سماء. فالمكان الّذي يلتئم فيه المؤمنون ليشكروا الرّبّ هو "مقر ملائكته، مقر رؤساء الملائكة، ملكوت الله، السّماء نفسها". إنّ هذه المجدلة المَهيبة تُعلن منذ البداية وُجهة سَير المؤمنين: إنّها الرّحلة إلى الملكوت.

إنّ هدف مسيرة حياتنا هو الملكوت، فنحن نبارك الله أي أنّنا نعلن أنّه هو هدفنا، مقصد حياتنا وغاية الخليقة بأسرها. يقول الكاهن هذا الإعلان وهو يرسم بالإنجيل إشارة الصّليب على المائدة المقدّسة (لقد استعمل المسيحيّون إشارة الصّليب في وقتٍ مبكّر من القرن الثّاني الميلاديّ، وقد ظهرت في اللّيتورجيّا الإفخارستيّة فقط في القرن الرّابع الميلاديّ، بحيث يقوم المؤمن برسم إشارة الصّليب حوالي ستٍ وثلاثين مرّة في القدّاس الإلهيّ[١٤٨])، العمل الأوّل الّذي يقوم به الكاهن هو الصّليب، فالقدّاس الإلهيّ هو ملكوت الله الّذي يقود إليه الصّليب الّذي عُلّق عليه ملك المجد. الصّليب هو البرهان أنّ المسيح هو وحده الملك الحقيقيّ، إنّه بالصّليب فُتِحَ لنا الملكوت. "فإنّ اختبار ملكوت الله في أعماق القلب من شأنه أن يجعل الأرض فردوسًا سماويًا"[١٤٩]. ولقد بدأ المخلّص كرازته بالتّبشير بالملكوت، وبإعلان ما هو قريب "جاء يسوع إلى الجليل يُعلن بشارة الله، فيقول: حان الوقت واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالبشارة" (مرقس ١: ١٤-١٥). حتّى أنّ الصّلاة المسيحيّة الأولى والأهمّ الّتي علّمنا إيّاها المسيحُ نفسُه تبدأ هي الأخرى بانتظار الملكوت وبطلب مجيئه "ليأتِ ملكوتك". ملكوت الله هو فحوى الإيمان المسيحيّ وهدف حياة المسيحيّين ومغزاها وجوهرها. وهذا الملكوت هو التّعرّف إلى الله، والحبّ الّذي نكنّه له والشّركة معه والحياة فيه. ملكوت الله هو الاتّحاد بالله كينبوع للحياة، لا بل

---

١٤٨) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.338.

١٤٩) نقولا كاباسيلاس، ***شرح القدّاس الإلهيّ***، ص. ٦٠.

كالحياة نفسها (يوحنّا ١٧: ٣). إنّه الملكوت المعلَن على لسان الكاهن في بداية اللّيتورجيّا الإلهيّة هو ملكوت الله الثالوث، ذلك أنّ الكنيسة هي شعب الله الّذي يحيا حياة الله الثّالوث، الآب والابن والرّوح القدس. لذلك يُمكننا القول إنّ الكنيسة هي امتداد الثّالوث القدّوس في العالم.

إنّ استعلان الله الثّالوث، الآب والابن والرّوح القدس، أساسُ كلّ لاهوتٍ مسيحيّ؛ إنّه اللّاهوت نفسُه، لأنّ عبارة "لاهوت" كانت تعني عند الآباء اليونانيّين سرّ الثّالوث المعلَن في الكنيسة، ذلك أنّ هدف اللّاهوت الأسمى يكمن في أن ندخل في اتّحادٍ كاملٍ بالله، ونبلغ تألُّه الكائن البشريّ، أي أن ندخل في الحياة الإلهيّة، في حياة الثّالوث ذاتها، ونصبح "مشاركي الطّبيعة الإلهيّة"، على حدّ تعبير القدّيس بطرس (٢ بطرس ١: ٤). اللّاهوت الثّالوثيّ، تاليًا، لاهوتُ الاتّحاد، لاهوتٌ صوفيٌّ يستدعي الخبرة، ويفترض سلسلة تحوّلاتٍ تدريجيّةٍ في الطّبيعة المخلوقة، وشركةً للإنسان مع الله الثّالوث، تزداد إلفةً أكثر فأكثر. فالإفخارستيّا إذًا هي استعلانٌ، من داخل الزّمان، لملكوت الله على الأرض، حيث الكنيسة في لحظة تقديم الإفخارستيّا تكون بمثابة استعلانٍ زمنيٍّ لأورشليم السّماويّة النّازلة من السّماء سرًّا، والمذبح يكون بمثابة عرش المسيح غير المنظور، وحوله كلّ جنوده وأخصّائه من ملائكةٍ وقدّيسين، حيث المسيح يكون هو الّذي يأخذ بيدَيه الخبز والخمر ويُطعم أخصّاءه من جسده ودمه، كامتدادٍ فعليٍّ لِما فعله مع تلاميذه في العشاء السّرّيّ[١٥٠]. لذا، فإنّ الابتهال إلى الثّالوث القدّوس في بداية اللّيتورجيّا الإلهيّة يعمل على تأكيد أنّه وبالرّغم من أنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي تجديدٌ وديمومةٌ غير دمويّةٍ لذبيحة يسوع المسيح الدّمويّة على الصّليب، الأقنوم الثّاني من الثّالوث القدّوس، فإنّها لا تكفّ عن أن تكون تمجيدًا لكلّ أقانيم الثّالوث القدّوس. إنّ هذه المجدلة هي أيضًا شكرٌ من الإنسان للّه، إذ إنّ كلّ إنسان يُعبّر عن شكره للّه وتسبيحه له، فإنّه يسعى أوّلاً لمجد الله. ينبغي على كلّ مَن يريد الاقتراب من الله أن يتأمّل أوّلاً عَظَمَة الله وجلاله ومجده، عندها فقط تنشأ في النّفس مشاعر الخَشية الّتي تبلغ ذروتها في تمجيد الله. على الإنسان أن يتأمّل خير الله ورحمته من أجل أن يوقظ في نفسه

١٥٠) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٧٢.

مشاعر الشّكر قبل أن يُقدِّم المرء احتياجاته الملائمة إلى الله. فينبغي، بالتّالي، أن تكون بداية صلاتنا بعيدةً عن مفهوم الاهتمام الذّاتيّ، وأن تتّسم بالمقابل بالكَرَم وتحمل دائمًا طابع التّسبيح والحَمد.

إنّ الكاهن، إذ يبدأ اللّيتورجيّا الإلهيّة بالمجدلة الثّالوثيّة، فهو يرمز إلى السّابق يوحنّا المعمدان[151]، انطلاقًا من رسالته في بريّة الأردن: "توبوا، قدِ اقترب ملكوت السّموات. فهو الّذي عناه النّبيّ أشعيا بقوله: صوت مُنادٍ في البريّة: أعِدُّوا طريق الرّبّ، واجعلوا سُبُلَه قويمة" (متّى ٣: ١-٣).

٢. جواب الجماعة الإيمانيّ

أ. معنى الآمين

يُجيب الشّعب "آمين" دلالةً على قبولهم الحقيقة الموجودة في إعلان الكاهن، ويعبّرون عن توقهم إلى تذوُّق الملكوت. إنّها كلمةٌ عبريّة، وهي صفةٌ تعني "الثّابت"، "الحقّ"، "الجدير بالثّقة". ثمّ تطوّرت إلى ظرفٍ بمعنى "ليكن كذلك" و "التَّثبُّت في الحقّ"، أي أنّها "تشتمل على معاني الحزم والصّلابة والثّقة"[152]. وهذا المعنى الأخير تطوّر ليصبح محصورًا في الموافقة العلنيّة على الإعلان الرّسميّ للحقائق الإلهيّة، وبالتّالي "فإنّ مَن يقول "آمين" يُقرّ بأنّ ما قيل له هو حقّ"[153].

ب. المعنى الكتابيّ للآمين

إنّها من أهمّ المصطلحات وأبرزها ليس على الصّعيد اللّيتورجيّ الطّقسيّ فحسب، بل على صعيد اللّاهوت الكتابيّ أيضًا. وهنا لا بدّ من إيجازٍ مختصر لمعناها في كتابات العهد الجديد وكميّة تردادها فيها. ولقد استخدم الرّبّ يسوع كلمة "آمين" ٥٤ مرّةً في الأناجيل الثّلاثة الأولى (٣١ مرّة في متّى، ١٤ مرّة في مرقس، ٩ مرّاتٍ في لوقا) وفي أغلب هذه المرّات بدأ يسوع بها كلامه في عبارة "الحقّ أقول لكم" ("ἀμὴν λέγω ὑμῖν" آمين ليغو إيمين) (متّى ٥ : ١٨، ٢٦؛ ٦: ٥؛ ١٠: ١٥؛ ١٣:

(١٥١) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p. 147.

(١٥٢) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٢٧.

(١٥٣) **المرجع نفسه**، ص. ٢٧.

١٧...). وفي إنجيل يوحنّا وحده ترد ٤٥ مرّةً في صورةٍ مؤكّدة: الحقّ الحقّ " ἀμὴν ἀμὴν" في بداية أقواله (يوحنّا ١: ٥١؛ ٣: ٣؛ ٥: ٢٤، ٢٥؛ ١٢: ٢٤؛ ١٤: ١٢...). كما استخدمت كلمة "آمين" في أسفار العهد الجديد الأخرى، فبولس يستخدمها في سياق الكلام أو في ختامه (رومة ١٥: ٣٣؛ ١٦: ٢٧؛ ١ كورنثس ١٦: ٢٤؛ غلاطية ٦: ١٨؛ فيليبّي ٤: ٢٠؛ ١ تيموثاوس ٦: ١٦)؛ كما يستخدمها عَقِبَ تسبحة شكرٍ أو حمد (رومة ١١: ٣٦؛ غلاطية ١: ٥؛ أفسس ٣: ٢١؛ ١ تيموثاوس ١: ١٧؛ ٢ تيموثاوس ٤: ١٨)؛ ويستخدمها في مباركته لله (رومة ١: ٢٥؛ ٩: ٥؛ ٢ كورنثس ١: ٢٠). كما تُختم بها التّسبيحات في الأسفار الأخرى (١ بطرس ٤: ١١؛ ٥: ١١؛ ٢ بطرس ٣: ١٨؛ يهوذا ٢٥؛ رؤيا ١: ٦؛ ٧: ١٢). ويختم كاتب الرّسالة إلى العبرانيّين تسبحته وتحيّته الختاميّة بكلمة "آمين" (عبرانيّين ١٣: ٢١، ٢٥). ويستخدم الرّسول يوحنّا كلمة "آمين" تسع مرّاتٍ في سفر الرؤيا بمعانٍ مختلفة، تبلغ الذّروة عندما يستخدمها اسمًا للرّبّ يسوع المسيح: "هوذا ما يقوله آمين، الشّاهد الأمين الصّادق" (رؤيا ٣: ١٤). ويذكر يوحنّا ثلاث مرّاتٍ في رؤياه أنّ الأربعة الحيوانات قالت: "آمين" (رؤيا ٥: ١٤؛ ٧: ١٢؛ ١٩: ٤) وانضمّ إليهم الأربعة والعشرون شيخًا في المرّة الأخيرة. ويختم يوحنّا رؤياه بكلمة "آمين" جوابًا على قول الرّبّ: "إنّي آتٍ سريعًا. آمين! تعال، أيّها الرّبّ يسوع" (رؤيا ٢٢: ٢٠).

ت. المعنى اللّيتورجيّ للآمين

وتكون الآمين في اللّيتورجيّا بمثابة الموافقة والقبول والالتزام، وهذا ما يعلنه الشّعب كموافقةٍ على الإعلان الّذي يتلوه الكاهن في الصّلوات. إنّها تُعبّر بكلّ أبعادها ومعانيها عن موافقة الكنيسة كجماعةٍ للمؤمنين على السّير في إثر المسيح، في صعوده إلى أبيه، وعلى اعتماده هذا الصّعود مصيرًا للإنسان، وهي إيذانٌ بأنّ الحركة نحو الله قد بدأت. فهي لا تعني الموافقة فحسب، بل تحمل أيضًا معنى **القبول الفاعل**، ليصير معناها "**أجل إنّه كذلك وليكن كذلك**". إنّها عبارةٌ تختم كلّ صلاةٍ يتلوها الكاهن وكأنّها تمهرها موافقةً، معبّرةً بذلك عن المشاركة المسؤولة لكلّ مؤمنٍ ولكلّ الجماعة في العمل اللّيتورجيّ الواحد الأحد للكنيسة. وهكذا، فإنّ المؤمنين يُعلنون من خلال "الآمين" استعدادهم ورغبتهم في تسبيح الله وحَمده، وتمجيد رحمته وجُودته الإلهيّة.

الباب الثّالث

الطّلبة السّلاميّة الكبرى

١) ميّزاتها

١. كاثوليكيّة (جامعة)

إنّ الطّلبة السّلاميّة الكبرى هي صلاةٌ كاثوليكيّة (جامعة)، لأنّها لا تذكر الاحتياجات الخاصّة للرّعيّة، بل تتأمّل في الصّفات الإلهيّة (العزّة، المجد، الرّحمة...) من جهة، وتُصلّي من أجل جميع النّاس دون استثناء، من جهةٍ أخرى. ولذلك سُمِّيَت في بعض المخطوطات اليونانيّة "الصّلاة الكاثوليكيّة"[١٥٤]. إنّها تُشير إلى احتياجاتٍ هامّةٍ جدًّا كسلام الله في العالم، وخلاص العالم، ووَحدة الكنيسة الإيمانيّة والأسراريّة، ونموّ ملكوت الله على الأرض وانتشاره، وخير الكنيسة وانتعاشها، كما تُصلّي من أجل الكنيسة المحلّيّة ومؤمنيها، من أجل: الرّئاسة الكنسيّة (الحَبر الرّومانيّ، والبطريرك، والأساقفة) والإكليروس؛ السُّلطات المدنيّة؛ خير المدينة والدّولة؛ ازدهار العالم وخيراته؛ ومن أجل أيضًا الاحتياجات الرّوحيّة للمؤمنين، كالنّجاة من الشّرّ وطلب الحماية الإلهيّة. إنّ هدف هذه الطّلبة الرّائعة يكمن في أن يتعلّم المؤمن الخروج من ذاته، من أنَويّته وأنانيّته، إذ إنّنا نعرف احتياجاتنا فقط. إنّنا نادرًا ما نُصلّي من أجل الآخرين واحتياجاتهم، وعندما نفعل ذلك، فعادةً ما يكون للشّخص الّذي تربطنا به علاقة أهليّة وشخصيّة (الأهل، العائلة، الأصدقاء...). فمَن منّا يتبنّى في صلاته خلاص الآخرين والعالم؟ أو انتشار ملكوت الله في

---

١٥٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.161.

جميع أنحاء العالم؟ أو صلّى طويلاً من أجل وَحدة الكنيسة ووَحدة جميع الشّعوب في سلام الله؟ لذا، فإنّ هذه الطّلبة تُعلّمنا ألاّ نضع في الاعتبار احتياجاتنا الشّخصيّة الخاصّة فحسب، وإنّما أيضًا احتياجات الكنيسة الواحدة الجامعة والعالم بأسره[155]. إنّها تجعلنا نُدرك أهميّة **الالتزام** في الصّلاة من أجل جميع النّاس وعدم نسيانهم، وأهميّة أن تشمل صلاتنا أكبر عددٍ ممكنٍ من النّاس واحتياجاتهم قدر المُستَطاع. إنّ اللّيتورجيّا لا تذكر الكنيسة والسّلطات المدنيّة فقط، بل تذكر أيضًا وتصلّي من أجل المُهمَلين والمُهمَّشين الّذين لا يُفكّر بهم أحدٌ أو يهتمّ لأمرهم أو يُصلّي لأجلهم: الفقراء، المُعوزين، المرضى، المُعاقين، الأسرى والحزانى. تشمل الكنيسة الجميع في صلاتها، لأنّ الكنيسة هي أمّ الجميع، وهي ترغب في أن تجلب الخلاص للجميع.

٢. كنسيّة

إنّ هذه الطّلبة هي ذات طابع كنسيٍّ من حيث المضمون والرّوح، لأنّها الصّلاة الرّسميّة للكنيسة الجامعة من جهة، ولأنّها تُقدّم باسم الكنيسة جمعاء ولأجل الكنيسة كلّها، من جهةٍ أخرى. فالكاهن الّذي يحتفل باللّيتورجيّا، لا يحتفل بها بصفته شخصًا عاديًّا، بل كممثّلٍ للكنيسة الجامعة ومندوبٍ عنها. وهذا هو السّبب الّذي يجعل صلوات الكاهن في العادة أن تكون في صيغة الجمع وليست في صيغة المُفرد، إلاّ بعض الصّلوات الّتي تُعبّر عن ندامةٍ كهنوتيّةٍ شخصيّة (على سبيل المثال، صلاة النّشيد الشّيروبيميّ). فالكاهن يقوم بدور النّاطق بلسان والمتحدّث ليس عن رعيّته فحسب، بل عن شعب الله كلّه، عن الكنيسة الجامعة. **إنّه بمثابة سفير الله للبشريّة جمعاء**[156].

تكشف الطّلبة السّلاميّة الكبرى أيضًا سلّم الأولويات الخاصّ باحتياجات المؤمنين الأساسيّة. تُسطّر هذه الطّلبة أولى درجات هذا السّلّم وهي **الحاجة الرّوحيّة** المتمثّلة في سلام الله، والخلاص الأبديّ، واحتياجات الكنيسة؛ والحاجة الّتي تليها هي **الحاجة الأرضيّة والمادّيّة** للإنسان المتمثّلة في وفرة

---

١٥٥) Ibid, p.161.

١٥٦) Ibid, p.162.

المحصول الزّراعيّ، والخيرات العامّة. إنّ الكنيسة تنظر إلى كلّ هذه الأشياء من وُجهة نظر سلام الله وخلاص الإنسان.

٣. سلاميّة

إنّ الإفخارستيّا هي ذبيحة سلامٍ وشكر، حيث تبدأ الكنيسة صلواتها في اللّيتورجيّا بطلباتٍ سلاميّة، فتطلب السّلام الّذي ينحدر من الله ليضم النّفس التّائبة إليه ليُعيد إليها صداقته وأُلفته. وتتضرّع من أجل سلام العالم وثبات كنائس الله وتشمل بصلواتها الكون بأسره للمصالحة مع الله بيسوع المسيح المقرّب من أجلنا. إنّها بداية الطّريق إلى الملكوت، صلواتٌ مشترَكةٌ ترنّم بفرح قيامة المسيح وانتصاره على الموت. إنّها ذبيحةٌ سلامٍ تعيد المصالحة بين الإنسان والله بيسوع المسيح، وتقدمةٌ شكرٍ للرّبّ بمعنى إنّها شهادةٌ لسيادة الله على الخليقة بأسرها. "إنّها تُعلن صلاة الكنيسة بل الكنيسة كصلاة، وترفعها كعملٍ مشترك، بكلّ بُعدها الكونيّ الشّامل. ففي خلال الاجتماع في الكنيسة، يُدعى المؤمن إلى أن يطرح عنه أوّلاً كلّ اهتمامٍ خاصٍّ به، أي وبتعبيرٍ آخر، يُدعى إلى "الانسلاخ" عن نفسه لينصهر بكلّ خاصيّته في بوتقةٍ واحدةٍ مع باقي المؤمنين في الصّلاة المشتركة"[١٥٧]. وهكذا، فإنّنا نَعي وعيًا تامًّا بأنّ السّلام المنشود هنا يشمل "وضعَ الإنسان الزّمنيّ ووضعَه الرّوحيّ، أي علاقتَه مع ذاته، أعني مع جسده ونفسه، وعلاقتَه مع الطّبيعة والكون، وعلاقتَه مع البشر، وعلاقتَه مع الله. ويتضمّن هذا السّلام بُعدًا فرديًّا وبُعدًا جماعيًّا: السّلام هو اتّفاق الآراء والتّآخي بين الأفراد وبين الشّعوب"[١٥٨].

٢) صرخة المؤمنين: "يا ربّ ارحم"

إنّه جوابٌ إيمانيٌّ من قِبَل المؤمنين، يُردّدونه بعد كلّ طلبةٍ من الطّلبة السّلاميّة الكبرى. هذا الجواب البسيط يحمل كلَّ اللّاهوت وكلَّ الفكر المسيحيّ. "إرحم" من الفعل رَحِمَ وهذا الفعل بالعبريّة يعني رحمة وصلاح ورأفة وخير، أي أنّنا نطلب من الله أن يسبغ علينا كلَّ مراحمه. فما أروع هذا الهتاف

---

١٥٧) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٢١.

١٥٨) المطران كيرلّس بسترس، ***مقالات في الأخلاق والحياة المسيحيّة***، ص. ٥٤.

يتردّد عشرات المرّات في أرجاء الكنيسة، مخترقًا السّماوات لينال لنا الرّحمة الإلهيّة. إنّه هُتاف الإنسان المعوز الخاطئ، الّذي يستمدّ رحمة ربّه، الّذي "يلتفت إلى صلاة المخذولين، ولا يستخفّ بتضرّعهم" (مزمور ١٠١: ١٨)، وأيضًا ما ورد في صلاة يهوديت: "... إنّكَ إلهُ الوُضعاء ومُغيثُ الصّغار، ونَصيرُ الضُّعفاء وحامي المُهمَلين، ومُخلِّصُ اليائسين" (يهوديت ٩: ١١).

بهذه العبارة "رُحماك، يا ربّ، يا ابنَ داود!" (متّى ١٥: ٢٢)، بكت المرأة الكنعانيّة واستنجدت بالرّبّ يسوع لعلاج ابنتها؛ وبالعبارة نفسها أيضًا (متّى ٢٠: ٣٠) اعترف الرّجلان الأعميان على طريق أريحا؛ وبعبارة "رُحماك يا يسوع، أيّها المعلّم" (لوقا ١٧: ١٣)، نادى عشرة البرص الّذين وقفوا عن بُعد. لقد سمع الرّبّ استغاثات هؤلاء وصلواتهم المتّضعة، ومنحهم كلّ ما سألوه، لأنّ الرّبّ رأى إيمانهم: "ما أعظم إيمانك أيّتها المرأة، فليكن لكِ ما تُريدين" (متّى ١٥: ٢٨)؛ وقال للأبرص (السّامريّ) الّذي عاد ليشكره: "قُمْ فامض، إيمانُكَ خلّصك" (لوقا ١٧: ١٩). تُبيّن هذه الوقائع الإنجيليّة المذكورة بوضوح أنّ هذه الصّلاة القصيرة ("يا ربّ ارحم") الّتي يُردّدها المؤمنون ما هي إلاّ **صرخة النّفس المُدركة لخطيئتها وعدم استحقاقها**[١٥٩]: "وإذا امرأةٌ كنعانيّةٌ خارجةٌ من تلك البلاد **تصيح**" (متّى ١٥: ٢٢)؛ وأيضًا: "فلمّا سَمِعا أنّ يسوع مارٌّ من هناك **صاحا**" (متّى ٢٠: ٣٠).

وبمعرفتهم لقوّة المثابرة في الصّلاة، يكرّر المؤمنون هذا الصّراخ الإيمانيّ حوالي ٥٩ مرّةً خلال اللّيتورجيّا الإلهيّة. يُرسَل هذا الصّراخ إلى الله بعد كلّ طلبة، لأنّ الله يُظهر، بسماعه وتلبيته كلّ طلبة، محبّته ونعمته ورحمته تجاه شعبه: "فلمّا ظَهَرَ لُطف الله مخلّصنا ومحبّته للبشر، لم ينظر إلى أعمال برٍّ عملناها نحن، بل على قدر رحمته خلّصنا" (تيطس ٣: ٤-٥).

---

١٥٩) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.158.

٣) الطّلبة السّلاميّة الكبرى: دراسة لاهوتيّة تحليليّة

١. بسلامٍ إلى الرّبّ نطلب

المقصود أوّلاً، أن نضع ذواتنا في حالة سلامٍ داخليّ. فمَن سيشترك في اللّيتورجيّا الإلهيّة، عليه أن يطرد من فكره كلّ تشويش، أن يُغلق كلّ نافذةٍ على التّجارب الجسديّة والدُّنيويّة، وأن يتحرَّر من كلّ تسلُّطٍ لـ "أمور" هذا العالم، ومن كلّ شعورٍ عدائيٍّ تجاه أي إنسان، ومن كلّ قلق شخصيّ. عليه أن يقف أمام الله في حالة هدوءٍ وانتباهٍ واثق وتركيز على "الحاجة الوحيدة". فبالخطيئة دخل الإنسان في حيّز الاضطراب والتّجزؤ، وأمّا المسيح فقد أعاد الإنسان إلى الوَحدة. أوّل ما نطلب من الله هو السّلام، وليس السّلام هنا هو السّلام الّذي يصنعه البشر بنزواتهم، إنّه السّلام الّذي من العلى، لأنّ المسيح أتانا من العلى لكي يبعث فينا السّلام الحقيقيّ الّذي يُعيد الطّمأنينة في النّفس المضطربة، السّلام الّذي يقبل كلّ نفس تائبة وعائدة: "والسّلام، في نظر الأنبياء، لا يمكن أن ينتج عن تحالفاتٍ سياسيّة كانت تُقام في معظم الأحيان مع أُممٍ لا تعرف الله، ولا من حروب امتدادٍ واحتلال، إنّه **عطيّةٌ من الله**"[١٦٠]. إذًا، أن تُصلّي "بسلام" يعني أن تُصلّي بقلبٍ طاهر وبريء، لأنّ الّذي استطاع أن يتحرّر من الخطيئة، ومن التّعلُّق المُفرط بشؤون العالم الوقتيّة والزّائلة، هو الوحيد القادر أن يُصلّي "بسلام". فبدون هذا السّلام الدّاخليّ والصّفاء الرّوحيّ، سيكون من الصّعب على الإنسان أن يقوم بصلاةٍ حقيقيّة، وصلاته تكون بلا فائدة على الصّعيدَين الشّخصيّ والرّوحيّ.

٢. لأجل السّلام العلويّ وخلاص نفوسنا. إلى الرّبّ نطلب

عندما نتعلّم كيف ندنو من الصلاة، نتعلّم ماذا نسأل أولاً، أعني السّلام من فوق وخلاص نفوسنا. لأجل هذا أمَرَنا السيّد له المجد قائلاً: "فاطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه وهذا كلُّه يُزاد لكم" (متّى ٦: ٣٣). خلاص نفوسنا يعني "الملكوت" و"السّلام العلويّ" يشير إلى برّ الله الذي فيه يقول بولس الرّسول: "فإنّ سلام الله الّذي يفوق كلّ إدراكٍ يحفظ قلوبكم وأذهانكم في المسيح يسوع"

---

١٦٠) المطران كيرلّس بسترس، ***مقالات في الأخلاق والحياة المسيحيّة*** ، ص. ٥٥.

(فيلبّي ٤: ٧). وهذا السّلام تركه الربُّ للرّسل عندما صعد إلى الآب: "ألسّلام أستودعكم سلامي أُعطيكم. لستُ كما يُعطي العالم أُعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا تجزَع" (يو ١٤: ٢٧). يجب أن نعترف، متواضعين، بأنّ هذا السّلام هو عطيّةٌ من الله، وأن ننفتح على هذه العطيّة ونمدّ لها أيدينا. فالسّلام، إذًا، إشارةٌ وعلامةٌ إلى حضور المخلّص وعمله فينا؛ إنّه سلامُ المصالحة، مصالحة الإنسان مع الله بالخلاص الّذي حقّقه يسوع المسيح؛ إنّه أيضًا "علامة ملكوت الله"[١٦١]، على حدّ تعبير بولس الرّسول: "فليس ملكوت الله أكلاً وشُربًا، بل برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الرّوح القدس" (رومة ١٤: ١٧).

٣. **"لأجل سلام العالم أجمع. وثبات كنائس الله المقدّسة، واتّحاد الجميع. إلى الرّبّ نطلب"**

أ. **سلام العالم الخارجيّ**

يُشكّل هذا العنوان القسم الأوّل من الطّلبة الحاليّة، وفيه نطلب من الله أن يكون العالم في سلامٍ دائمٍ وثابت، من أجل خير الجماعة المسيحيّة المنتشرة في كلّ أصقاع العالم. وهذا يتحقّق بالسّلام العلويّ، وهذا كلّه لتكون الكنيسة في ثباتٍ أمام تجارب الشّرّير الّذي يود الانشقاق للكنيسة، وأمّا اتّحاد الجميع، فهذا ناتجٌ عن رباط الرّوح، رباط السّلام، وبحسب القدّيس بولس الرّسول: "يا إخوة، إجتهدوا أن تحفظوا وحدانيّة الرّوح برباط السّلام"، أي أن نرتبط مع بعضنا البعض في رباط المحبّة، رباط المسيح المخلّص، وهكذا نستعد جميعًا للمناولة، وهكذا أيضًا نعيش السّلام الدّاخليّ مع أنفسنا والسّلام الخارجيّ مع الله والآخرين، ونكون بذلك قد أصبحنا آنيةً مستحقة لقبول المسيح في داخلنا.

وهكذا نُدرك أنّنا لا نتكلّم عن سلامٍ أرضيٍّ يتمثّل في غياب الحروب، بل عن سلامٍ سماويّ، سلام الله، رمز النّعم المسيحانيّة الّتي أفاضها المسيح، ملك السّلام، على العالم. وهنا بالذّات، يُصلّي المؤمنون أن يسود ملكوت السّلام العالم أجمع دون استثناء، بحيث يُصبح كلُّ واحدٍ مشاركًا حقيقيًّا في الخلاص والمصالحة مع الله الّتي تحقّقت من خلال يسوع المسيح[١٦٢].

---

(١٦١) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.345.

(١٦٢) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.152.

ب. سلام الكنيسة الدّاخليّ

إنّ القسم الثّاني من الطّلبة الحاليّة يُشير إلى السّلام الدّاخليّ داخل وبين الكنائس المتعدّدة، فضلاً عن الوفاق والوَحدة بين الأعضاء الّذين يُشكّلون كنيسة المسيح الجامعة (الكونيّة). وحده هذا الانسجام الدّاخليّ في جسد المسيح السّرّيّ يُشكّل الضّمانة الثّابتة والرّاسخة أنّ الكنيسة ستُحقّق الرّسالة الّتي ائتمنها عليها المسيح، وهي انتشار ملكوت الله في جميع أنحاء العالم، واستفاضة سلام المسيح على جميع الشّعوب. فإنّنا سنفهم تمامًا طلب هذا الوفاق الّذي يؤول إلى نموّ الكنيسة وازدهارها، إذا ما تذكّرنا الأوقات المُضطَربة للانشقاقات الدّاخليّة، والتّفرُّعات، والجدالات العقائديّة، والبدع (الهرطقات) الّتي كانت سائدة في القرنَين الرّابع والخامس الميلاديَّين، والّتي لا زالت تهزّ الكنيسة حتّى يومنا الحاليّ"[١٦٣]. وهذا هو السّبب الرّئيس الّذي جعل اللّيتورجيّا الإلهيّة تلتمس "وَحدة الجميع"، وهي، في الوقت عينه، تذكيرٌ لكلّ المسيحيّين بوجوب الصّلاة المتواصلة والعمل الحثيث من أجل بلوغ وَحدة ملكوت المسيح، كنيسته المقدّسة. وفقط عندئذٍ، نستطيع أن نُردّد مع الإنجيليّ لوقا الّذي قال في سفر أعمال الرّسل: "وكانت الكنيسة تنعم بالسّلام في جميع اليهوديّة والجليل والسّامرة. وكانت تنشأ وتسير على مخافة الرّبّ، وتنمو بتأييد الرّوح القدس" (٩: ٣١).

ت. الوَحدة والتّنوّع: "أنا الكرمة وأنتم الأغصان" (يوحنّا ١٥: ٥)

نطرح تحت هذا العنوان موضوعًا كنسيًّا بالغ الأهميّة هو وَحدة الكنيسة المقدّسة والشّركة الكنسيّة والأسراريّة. وكما نُردّد في قانون إيماننا أنّ هذه الكنيسة هي واحدةٌ، جامعةٌ، مقدّسةٌ ورسوليّة. لقد أعلن السّيّد المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيل يوحنّا أنّه الكرمة ونحن، أي الجماعة المسيحيّة المؤمنة، الأغصان. وهذه الأغصان لا يمكن أن تُثمر وتَثبُت بعيدًا عن الكرمة (يوحنّا ١٥: ٤-٥). كذلك الكنيسة، وهي أغصانٌ في هذه الكرمة، تستمدّ وَحدتها من الرّأس يسوع المسيح الّذي صلّى في صلاته الكهنوتيّة بأن يكون جميع المؤمنين به واحدًا كما هو الحال معه ومع أبيه السّماويّ (يوحنّا ١٧: ٢١-

---

١٦٣) **Ibid**, p.152.

٢٢). **فالوَحدة المطلوبة بين المسيحيّين هي شهادةٌ حيّةٌ عمليّةٌ تتّجه نحو إظهار** إيمان العالم بيسوع وبرسالته الخلاصيّة (يوحنّا ١٧: ٢١). إنّ الوَحدة بين الكنائس المسيحيّة ليست انصهارًا وذوبانًا في الآخر، إنّما هي **شراكةٌ وشَركة** مع الآخر مع الحفاظ على هُويّته الخاصّة الّتي تُغني الكنيسة. فأفراد العائلة الواحدة لا يتمتّعون جميعهم بعقليّةٍ واحدةٍ ونظرةٍ مشتركة لبعض الأمور الحياتيّة، ولكنّهم متّحدون برباط العائلة المبنيّ على المحبّة والشَّركة والانفتاح مع الحفاظ على خصوصيّة الأفراد الشّخصيّة. هكذا هو الحال في الكنيسة المؤلّفة من عائلاتٍ كنسيّةٍ متنوّعة، ولكنّها في الواقع خاضعةٌ لرأسها، المسيح (راجع أفسس ٥: ٢٣-٢٤) وتشترك في الإيمان الواحد: "... وهناك إيمانٌ واحدٌ" (أفسس ٤: ٥) والخبز الواحد: "فلَمّا كان هناك خبزٌ واحد، فنحن على كثرتنا جسدٌ واحد، لأنّنا نشارك كلُّنا في هذا الخبز الواحد" (١ كورنثس١٠: ١٧).

وهكذا نؤكّد أنّ غنى الكنيسة يكمن في تنوُّعها وفرادة كلّ عائلةٍ فيها مع الحفاظ على وديعة الإيمان الصّحيح ووَحدة الرّوح القدس الّذي يقود الكنيسة نحو ميناء الخلاص. فوَحدة الكنيسة تتجذر في الاتّحاد بالمسيح، حيث تنمو هذه الوَحدة وتتمّ في معرفة ابن الله والتّشبُّه به: "ذلك بأنّه عرفهم بسابق علمه وسبق أن قضى بأن يكونوا على مثال صورة ابنه ليكون هذا بكرًا لإخوةٍ كثيرين" (رومة ٨: ٢٩)، وأيضًا: "فنَصِلَ بأجمعنا إلى وَحدة الإيمان بابن الله ومعرفته ونصير الإنسان الرّاشد ونبلغ القامة الّتي تُوافق كمال المسيح" (أفسس ٤: ١٣).

- **الوَحدة المنشودة انفتاحٌ على وَحدة الثّالوث**

إنّ وَحدة الكنيسة يجب أن تكون على مثال **وَحدة الثّالوث**، أي وحدة في الكيان وتعدّديّة في الأشخاص. فكما أنّ هناك إلهًا واحدًا في ثلاثة أقانيم، هكذا يجب أن تكون الكنيسةُ واحدةً في أشخاص متعدّدين. وهذا ينطبق على صعيد الأشخاص وعلى صعيد الكنائس المحلّية. فالكنيسة الواحدة لا تُزيل تعدّدية الكنائس المحلّية، ولا ينبغي اعتبار هذه التّعدّديّة نقصًا في كيان الكنيسة بل هي أمرٌ أساسيٌّ في كيانها، كما أنّ تعدّديّة الأقانيم أمرٌ أساسيٌّ في

كيان الله. إنّ "الأنا" الشّخصيّ لا يذوب في كيانٍ كنسيٍّ يمثّله رؤساء الكنيسة، فالكنيسة لا يمثّلها فقط رؤساؤها بل كلّ مسيحيٍّ يحيا حياة المسيح، وهذا ما يجعل الأنا الشخصي يتأكّد وجودُه بالانفتاح على "الأنا" الكنسيّ بحيث يمكن تحديد الكيان الكنسيّ بعلاقة محبّةٍ وحياةٍ وشركةٍ بين أشخاص يَحيَون من حياة الله. لا يليق بنا أن نبحث عمّا هو شخصيّ، فكمال الشّخص يتحقّق بالتّخلّي الكامل والتّنازل عن الذّات. كلّ شخص يحاول أن يؤكّد ذاته لا يصل إلاّ إلى تجزئة الطّبيعة، إلى الكائن الخاصّ والفرديّ، متمّمًا عملاً مخالِفًا لعمل المسيح الّذي قال في الإنجيل المقدّس: "مَن ليس معي فهو عليّ، ومَن لا يجمع معي فهو يُفرّق" (متّى ١٢: ٣٠).

وكذلك الكنائس المحلّية لا تذوب في كيانٍ كنسيٍّ تُمثّله الكنيسة الأولى، كنيسة روما، والأسقف الأوّل، أسقف روما، بل يتأكّد وجود كلّ كنيسةٍ محلّيةٍ بانفتاحها على سائر الكنائس المحلّية، إذ تدرك كلّ كنيسةٍ أنّها، على غرار سائر الكنائس وبالاتّحاد معها، محافظةٌ على وديعة الإيمان وتحيا من حياة الله، بحيث يمكن تحديد الكيان الكنسيّ علاقة محبّة بين كنائس محلّية مختلفة تحيا من حياة المسيح. أمّا دور أسقف روما فهو المحافظة على المحبّة والوَحدة بين جميع الكنائس المحلّية. إنّ تقدّم الحركة المسكونيّة للبلوغ بالكنائس المحلّية إلى الوحدة المنظورة رهن بتلك النّظرة اللّاهوتيّة الثّالوثيّة إلى سرّ الكنيسة، فهي تضمن التّوازن بين الوَحدة والتّعدّديّة. وهذا هو سرّ الكنيسة الّذي لا يُسبَر غوره، عمل المسيح وعمل الرّوح القدس.

الكنيسة الواحدة في المسيح والمتعدّدة في الرّوح القدس: طبيعةٌ بشريّةٌ واحدةٌ في أقنوم المسيح، وأقانيم بشريّة كثيرة في نعمة الرّوح القدس. فالكنيسة ليست فقط الطّبيعة الواحدة في المسيح، بل هي أيضًا الأقانيم المتعدّدة في نعمة الرّوح القدس. غير أنّ هذا التّعدُّد لا يمكن أن يتحقّق إلاّ في الوَحدة. فالحياة في المسيح طريقٌ يقود من تعدُّد الفساد إلى وحدة طبيعةٍ نقيّة، قدِ اقتناها المسيح بدمه الكثير الثّمن، حيث يظهر تعدُّدٌ جديد، هو تعدُّد الأشخاص المتّحدين بالله في الرّوح القدس. هذا هو بالتّحديد مفهوم الوَحدة

والتّنوّع في الكنيسة الّتي تُتمّم التّدبير الثّالوثيّ، وتُعلن الآب في عمل الابن والرّوح القدس[١٦٤].

- **جامعيّة الكنيسة**

لذلك نُردّد في قانون إيماننا "وبكنيسةٍ واحدةٍ، جامعة، مقدّسة، رسوليّة". أودّ أن أتوقّف قليلاً عند مفهوم كلمة الكنيسة الجامعة وباليونانيّة "كاثوليكيّة – Καθολικήν". إنّ أوّل مَن استعمل هذه اللّفظة كصفةٍ للكنيسة هو القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ الّذي قال: "حيث يسوع المسيح فهناك الكنيسة الكاثوليكيّة الجامعة"[١٦٥]. من هنا تتّخذ هذه الصّفة بُعدَين: بُعدًا لاهوتيًّا وآخر جغرافيًّا. فاللّفظة اليونانيّة تعني "في الملء، حسب الملء، في الكلّ، شامل"، مِمّا يجعل البُعد اللّاهوتيّ يعني اشتراكَ المسيحيّين في ملء حياة المسيح، حيث يتمحور هذا البُعد على ملء الحياة الإلهيّة الّتي تشترك فيها الكنيسة. فالكنيسة الجامعة إذًا هي الكنيسة الّتي حافظت على حياة المسيح فيها وعلى ملء الإيمان المسيحيّ. أمّا البُعد الثّاني فيؤكّد امتداد الكنيسة الجغرافيّ وانتشارها في كلّ مكانٍ من العالم الأرضيّ.

- **الوَحدة الإفخارستيّة**

ولكن، كيف تُحقّق الإفخارستيا وَحدة الكنيسة؟ إنّ اللّقاء الإفخارستيّ يحقّق الوَحدة، وهذه الجماعة الواحدة بالقلب والفكر والرّوح تشترك بالخبز الواحد، وهذه الأعضاء المتنوّعة الّتي تعبّر عنها "حبّات القمح المبعثرة"، تجتمع فتصير قربانًا واحدًا يصبح تقدمة المسيح الواحدة إذ هو المقدِّم والتّقدمة، من أجل رجاء الكنيسة وتجدّدها: فالإفخارستيّا تجعل الكنيسة واحدةً جامعةً مقدّسةً رسوليّة، وهي تساعد الكنيسة على أن تجيب باستمرار "نعم" لدعوة عروسها من خلال الفضائل الّتي تجسّدها وهي: الإيمان والرّجاء والمحبّة. فالكنيسة تطلب دومًا أن تزداد إيمانًا وثباتًا في هذا الإيمان؛ وهي الّتي تتجدّد بالرّجاء، فتكون شاهدةً لفرح القيامة في احتفالها وفي رسالتها؛ وتنمو بالمحبّة،

---

١٦٤) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٥٣.
١٦٥) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ١٥٣.

وهي المدعوّة لأن تشهد للمحبّة داخل الجماعة القربانيّة وخارجها بحيث إنّ رسالتها تغدو تواصلاً للاحتفال القربانيّ من خلال محبّة الأخوة.

٤. **لأجل هذا البيت المقدّس. والدّاخلين إليه بإيمان وورع ومخافة الله. إلى الرّبّ نطلب**

عندما يدخل المرء إلى الكنيسة فإنّه يدخل السّماء في حضرة الله، وهناك على المؤمن أن يتّصل مع الله بإيمان وورع، لأنّ الخدمة هنا هي خدمة الله العليّ خالقنا ومخلّصنا. إنّ قداسة الكنيسة ليست نابعةً منّا، إنّها قداسة المسيح الّذي "أحبّ الكنيسة" والّذي "أسلم نفسَه لأجلها... لكي يحضّرها لنفسه كنيسةً مجيدةً لا دنس فيها" (أفسس ٥: ٢٥-٢٧). فالكنيسة هي سرّ جسد المسيح، إنّها، وقبل كلّ شيء، تلك الفرصة المُعطاة للمسيحيّين، والواجب عليهم انتهازها ليكونوا الكنيسة: "أمّا أنتم فإنّكم ذُريّةٌ مُختارة وجماعةٌ الملك الكهنوتيّة وأمّةٌ مقدّسة وشعبٌ اقتناه الله" (١ بطرس ٢: ٩)، وليُعلنوا وجود المسيح وملكوته في العالم، ويعترفوا به.

إنّ الطّلبة الحاضرة تُركّز على "كيفيّة" دخول المؤمنين إلى بيت الله من خلال صفاتٍ ثلاث هي: الإيمان، والورع، ومخافة الله. فكلّ دخولٍ إلى الكنيسة يجب أن يكون مقرونًا بهذه الصّفات الثلاث الّتي تجعل من الكنيسة مكانًا مقدّسًا يشعر فيه المؤمن بالهَيبة والمَهابة: "فاستَيقظ يعقوب من نومه وقال: حقًّا، إنّ الرّبّ في هذا المكان، وأنا لا أعلم. فخاف وقال: ما أرهب هذا المكان! ما هذا إلاّ بيتُ الله! هذا باب السّماء!" (تكوين ٢٨: ١٦-١٧). فالإيمان المنشود من الإنسان المسيحيّ هو الثّبات والفهم، المعرفة والفعل، انطلاقًا من آيةٍ كتابيّة من سفر أشعيا النبيّ: "إنْ لم تؤمنوا (إنْ لم تتمسّكوا بيهوه) لن تَثبُتوا" (أشعيا ٧: ٩). إنّ جذر الكلمة "أمن" يعني: الحقيقة، الصّلابة، السّند المتين؛ ويعني أيضًا: الأمانة، الوثوق، الاتّكال على، الاستناد إلى، آمَنَ. هكذا يعني الإيمانُ بالله الالتصاقَ به، فيكسب الإنسان، بفضل هذا الالتصاق، سندًا ركينًا يدعّم حياته. أي إنّ الإيمان هو التّوطُّد، وهو الاستناد بثقةٍ إلى الأساس الّذي يؤلّفه كلام الله.

٥. لأجل أبينا ورئيس كهنتنا (فلان) الموقَّر. وكهنته المكرّمين. والشّمامسة الخدّام بالمسيح. وجميع الإكليروس والشّعب. إلى الرّبّ نطلب

إنّ الموضوع الأساس في هذه الطّلبة يُشير إلى التّسلسل الهرميّ للكنيسة والسّلطة الكنسيّة. تحتضن هذه الطّلبة كنيسة المسيح الجامعة، الّتي لا تتكوّن من الرّعاة "**الكنيسة المعلّمة**" فحسب، بل إنّما أيضًا من جماعة المسيحيّين "**الكنيسة الصّاغية**" أو "شعب الله". فقد كان القدّاس الإلهيّ يبدأ في الفترة الأولى من العصر البيزنطيّ بالدّورة الصّغرى كما نعرفها اليوم في القدّاس، فكانت أوّل حركة ليتورجيّة هي دخول الأسقف إلى الكنيسة ويتبعها ارتداؤه الحلّة الكهنوتيّة في وسط الكنيسة كما يحصل في القدّاس الحَبريّ اليوم وقبل البدء بالقدّاس الإلهيّ. عمليّة لبس الأسقف حلّته تُصوِّر حدث تجسُّد الكلمة الّذي لَبسَ طبيعتنا البشريّة الفاسدة وجعلها طبيعةً مؤلّهةً نقيّة. إنّ اللّاهوت الكنسيّ يجعل من الأسقف ممثّلاً للمسيح، إذ إنّه أيقونة السَّيِّد الحيّة في وسط الجماعة. وهذا ما أكّده القدّيس إغناطيوس الإنطاكيّ بقوله المأثور: "**حيث الأسقف، هناك الكنيسة**". هذا ما أعاد صياغته بتعابيرَ مختلفة البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني بقوله: "**إنّ الأسقف هو المبدأ المنظور وأساس الوَحدة في كنيسته المحليّة**"[١٦٦].

إنّ لبس الأسقف حلّته تُشير أيضًا إلى زفّة العروس. وفي بعض الطّقوس الشّرقيّة وبخاصّةٍ السّريانيّة منها، يُلبَس الأسقف الجديد طرحةً بيضاء على وجهه كطرحة العروس، ويقوم الشّعب مع الكهنة بزفّه كزفّة عروسٍ داخل الكنيسة. هذا ما يؤكّده البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني بقوله: "إنّ المسيح هو أيقونةُ الآب الأصليّة واعتلانُ حضوره الرّحيم ما بين البشر. ويصبح الأسقف، في الكنيسة الموكولة إليه، بتصرّفه في شخص المسيح نفسه وباسمه، علامةً حيّةً للرّبّ يسوع، وراعيًا للكنيسة **وعريسًا**، ومعلّمًا لها وحَبرًا"[١٦٧].

---

١٦٦) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ٣٩.

١٦٧) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***إرشاد رسوليّ" رعاة القطيع"***، عدد ٧، ص. ٥.

٦. لأجل حكامنا ومساعديهم وجنودهم. ولأجل مؤازرتهم في كل عملٍ صالح. إلى الرّبّ نطلب

نطلب من الله تعالى أن يفتح عقولهم وقلوبهم ليعملوا كلّ ما هو صالح للكنيسة وللعالم أجمع، وبخاصّةٍ أن يكونوا رسلَ السّلام والمحبّة والمؤتمنين على إحقاق العدل والعدالة في العالم والمجتمعات. إنّ الغاية من هذه الطّلبة كما فهمها المسيحيّون الأوّلون هي للصّلاة لأجل القيّمين والسّاهرين على الإمبراطوريّة الرومانيّة الّتي تحوّلت إلى إمبراطوريّةٍ مسيحيّة، وقد كان الإمبراطور يعتبر نفسه نائب المسيح على الأرض وكان يترأس بنفسه المجامع الكنسيّة الّتي كانت تتداول في أمورٍ كنسيّةٍ ولاهوتيّةٍ وعقائديّة. ولكنّنا، في هذا المضمار، نستشهد بما قاله بطرس والرّسل لرئيس الكهنة ومجلسه: "الله أحقُّ بالطّاعة من النّاس" (أعمال ٥: ٢٩).

إنّ الصّلاة من أجل الحكّام المدنيّين لا تعني موقفًا خانعًا أو تعبيرًا عن ولاءٍ أعمًى من قِبَل المسيحيّين – الّذين ما فتئوا يتشبّهون بمعلّمهم الإلهيّ الّذي اعترف في محاكمته اعترافًا حقيقيًّا بالسّلطة القضائيّة الكاملة المخوّلة لبيلاطس من قِبَل الإمبراطور الرّومانيّ. غير أنّه يضع لها في ذات الحين حدودًا بقوله إنّ سلطةً مخوَّلةً كهذه لم تكن لبيلاطس من عنده هو، بل جاءته "من فوق" (يوحنّا ١٩: ١١). ويحرّف بيلاطس سلطته، وبذلك سلطة الدّولة في تلك اللّحظة الّتي لم يَعُد يمارسها على أنّها إدارةٌ أمينةٌ لنظامٍ أعلى متعلّقٍ بالحقيقة، بل استخدمها لصالحه – أو تأييدًا لميولٍ ومواقف وأيديولوجيّة سياسيّة، أو هي من مخلّفات البيزنطيّين. بل إنّها على العكس تمامًا من ذلك، لأنّها **صلاة الكنيسة لخلاص أولئك الّذين يتمتّعون بالسّلطة**، وبولس الرّسول نفسه وجّه المسيحيّين الأوّلين للصّلاة من أجل حكّامهم: "فأسأل قبل كلّ شيءٍ أن تُقام أن يُقام الدُّعاء والصّلاة والابتهال والشّكر من أجل جميع النّاس ومن أجل الملوك وسائر ذوي السّلطة، لنحيا حياةً سالمةً مُطمئنّةً بكلّ تقوى ورَصانة. فهذا أمرٌ حَسَنٌ ومرضِيٌّ عند الله مخلّصنا" (١ تيموثاوس ٢: ١-٣)، وأيضًا: "ذكّرهم أن يخضعوا للحُكّام وأصحاب السّلطة ويُطيعوهم، ويكونوا متأهّبين لكلّ عملٍ صالح" (تيطس ٣: ١).

إنّ هذا الموقف المسيحيّ تجاه السّلطة المدنيّة يأتي مستندًا على نصّين رسائليّين: الأوّل، جاء على لسان بولس الرّسول في رسالته إلى الرّومانيّين (١٣: ١-٦) وفيه يُظهر أنّ الخضوع للسّلطات يجب ألاّ يكون بالإكراه، إنّما انطلاقًا من الضّمير؛ والثّاني، جاء على لسان بطرس الرّسول في رسالته الأولى، وفيه يُعلن أنّ الخضوع للسّلطات الشّرعيّة هو "**لأجل الرّبّ**" فقط (٢: ١٣-١٧). فلا بولس ولا بطرس يُعبّران هنا عن تمجيدٍ أعمى للدّولة الرومانيّة. إنّهما بالقدر الّذي يُصرّان فيه على **المصدر الإلهيّ للنّظام القانونيّ للدّولة**، هما بالقدر نفسه بعيدان كلّ البُعد عن تأليه الدولة. ولأنّهما يريان حدود الدّولة، لهذا السّبب بالذّات، يعرفان أنّها ليست اللّه وأنّه لا يحقّ لها أن تحكم وكأنّها اللّه، وكلاهما يعترف بوظيفتها كحافظةٍ للنّظام وبصفتها الأخلاقيّة"[١٦٨]. وهكذا "يتّضح أنّ المسيحيّين يُصلّون <u>من أجل</u> الملك والسّلطات لقضاء حياةٍ هادئةٍ ومُطمَئِنّة، لكنّهم لا يُصلّون <u>إلى</u> الملك، إذ إنّ الدولة تُعنى، في نظر المسيحيّين، بالسّلام الدّاخليّ والخارجيّ واحترام فرادة الإنسان وحريّته التّعبُّديّة"[١٦٩].

حتّى الصّلاة من أجل الجنود لا يمكنها إلاّ أن تدخل في هذا المعنى العامّ الّذي اشرنا إليه سابقًا. إنّها صلاة الكنيسة لبلوغ أولئك الجنود الخلاص الأبديّ في الحياة العسكريّة المليئة بالأخطار المُحدقة بالنّفس والجسد، وأنّهم قد لا ينسَوا مصيرهم النّهائيّ"[١٧٠]. إنّ صلاة الكنيسة من أجل الجنود تجد صدًى لها في الإنجيل المقدّس، حين سأل بعض الجنود يوحنّا المعمدان قائلين: "ونحن ماذا نعمل؟" فكان جوابه: "لا تتحاملوا على أحدٍ ولا تظلموا أحدًا" (لوقا ٣: ١٤).

وهكذا، فإنّ المعنى الأصليّ لهذه الطّلبة لا يتخطّى كونها صلاةً كنسيّةً من أجل ملكوت المسيح، ومن أجل سلام اللّه، ومن أجل خلاص النّفوس.

---

١٦٨) الكاردينال جوزف راتزنغر (البابا الحاليّ بندكتوس ١٦)، <u>***قيم في أزمنة التّحوّل***</u>، ص. ٢٤.
١٦٩) **المرجع نفسه**، ص. ٢٦.
١٧٠) Meletius Solovey, <u>***The Byzantine Divine liturgy***</u>, p.155.

٧. لأجل هذه المدينة، وكلّ مدينةٍ وقريةٍ، والمؤمنين السّاكنين فيها، إلى الرّبّ نطلب

تحمل هذه الطّلبة بُعدَين هامّين هما:

البُعد الأوّل، يُبرز الطّابع الكونيّ "الجامعيّ" للكنيسة في صلاتها لأجل جميع مكوّنات المدينة أو القرية على مختلف انتماءاتهم الدّينيّة أو العرقيّة أو الأيديولوجيّة... إنّها تحمل جميع النّاس في صلاتها على مثال معلّمها الإلهيّ الّذي جاء لكي يَهَبَ الخلاص للبشريّة كافّة. إنّ الكنيسة تظهر، من هذا المنظار، على أنّها بيت الله الجامع الّذي لا يُفرّق بين إنسانٍ وإنسان، بل يحتضن الإنسان كإنسانٍ مخلوقٍ على صورة الله ومثاله. هذه النّظرة تؤكّدها مقولة القدّيس مكسيموس المعترف: "المحبّة الكاملة تجود على كلّ البشر بالتّساوي".

البُعد الثّاني، يُشير إلى أنّ المسيحيّين المنتشرين في كلّ أصقاع العالم هم مرتبطون بعضهم ببعض برباطٍ مقدّس هو الرّأس يسوع المسيح. يُصلّون لأجل بعضهم البعض، يؤازرون بعضهم البعض بروح أخويّةٍ بنّاءة. فما يحدث على المسيحيّين في بلدٍ أخرى، يجب أن يكون في صُلب اهتمامات كافّة المسيحيّين: نحمل همومهم، نتضرّع إلى الله من أجلهم ليكونوا في سلام، مُعافَين وأقوياء بنعمة الرّبّ، نلتمس أن يسكب الرّبّ عليهم نِعَمَه السّماويّة، نصوم ونصلّي في كلّ حين لتكون يمين الرّبّ ممدوةً لهم لمؤازرتهم ومعاضدتهم. ما يجمعنا هو شخص يسوع المسيح نفسه، الحاضر في وسط جماعته، يشجّعها، يحضّها، يمنحها سلامه ومحبّته وبركته. شخص المسيح هو القاسم المشترك الثّمين بين جميع المسيحيّين في مَحَجّهم من هذه الفانية إلى الأخرى الأبديّة.

هذا هو السّبب الجوهريّ الّذي يجعلنا نصلّي من أجل المدينة الّتي نعيش فيها ومن أجل كلّ مدينةٍ وقريةٍ أخرى تتواجد فيها الجماعة المسيحيّة. إنّ رغبة معظم المسيحيّين تكمن في أن يعيشوا بسلامٍ وانفتاح على الآخر بغَيريّته واختلافه الدّينيّ والاجتماعيّ والعِرقيّ، ومساواةٍ في الحقوق المدنيّة وبحريّة العبادة الدّينيّة في وطنهم الأمّ بارتباطهم بالأرض الّتي عاش فيها آباؤهم وأجدادهم وبخاصّةٍ أرض المسيح الّتي رواها بقطرات دمه المقدّس الّذي افتدى البشريّة قاطبةً من الموت. فالمسيحيّ يؤمن إيمانًا راسخًا وعميقًا بجغرافيّته

المقدّسة وتاريخه المُشرق انطلاقًا من إيمانه الثّابت بيسوع النّاصريّ كشخص تاريخيّ "يسوع التّاريخيّ".

هذا هو سبب ارتباطنا بالأرض المقدّسة، وهذه هي قيمة أرضنا من ناحية روحيّة. إذن، ارتباطنا بالأرض ليس ارتباطًا جغرافيًّا وتاريخيًّا فحسب، إنّما هو ارتباطٌ روحيٌّ أيضًا، ذلك أنّ كلّ هذه الأبعاد المذكورة تجد اكتمالها وتحقيقها في شخص يسوع المسيح. من هنا لا بدّ من العمل الحثيث على تربية جيلٍ جديدٍ واعٍ لقيمة التّاريخ المقدّس الّذي دخل من خلاله الله بواسطة الكلمة الإلهيّ المتجسّد يسوع المسيح تاريخنا الخاصّ، ولكنوز الجغرافيا المقدّسة أي الأماكن الّتي عاش فيها السّيّد له المجد والإكرام وداسها برجلَيه المقدّستَين مبشّرًا ومعلّمًا عن اقتراب تحقيق ملكوت الله في البشريّة المُهمّشة وتحويل هذه الأرض إلى مُلكٍ إلهيّ تسوده مملكة الله. لذلك، لا عجب في أن تُدعى **فلسطين بالإنجيل الخامس**، أو "**الإنجيل التّاريخيّ والجغرافيّ**" للمسيحيّين أجمعين، إذ إنّها احتوت تاريخ الخلاص من جهة، ومكان تجسيد هذا الخلاص من جهةٍ أخرى. إنّ موضوع لاهوت الأرض هو من المواضيع الهامّة جدًّا والّتي يجب طرحها بجِديَّةٍ ومسؤوليّة مسيحيّة من خلال أبحاث ودراسات شاملة، تُبيِّن للمسيحيّين أهميّة تعلُّقهم بالأرض كإرثٍ مقدّسٍ وكنعمةٍ إلهيّةٍ أُعطِيَت لهم وعليهم استثمارها.

٨. **لأجل اعتدال الأهوية ووفرة غلال الأرض وأزمنةٍ سلاميَّة. إلى الرّبِّ نطلب**

نلاحظ تفكير الكنيسة هنا بكلّ شخصٍ بمفرده أينما وجد وفي أيّ حالٍ كان، حيث ترغب الكنيسة بالتّوجُّه إلى كلّ واحدٍ على حِدةٍ، وتصلّي من أجله ومن أجل أن يوفّر الله له كلّ وسائل الحياة المرضيّة والهانئة. فالخالق ومنذ أن جبل بيدَيه المقدّستَين الإنسان لم يمنحه الخيرات الإلهيّة والرّوحيّة فحسب، بل أغدق عليه بالخيرات الأرضيّة والزّمنيّة، حين منح الإنسان سلطةً على جميع خلائقه (تكوين ١: ٢٧-٢٩). وعليه، فإنّنا نُدرك أنّ الكنيسة تُعطي اهتمامًا بالغًا للبيئة السّليمة والمجتمع الزّراعيّ من خلال تعبيرَي "اعتدال الأهوية ووفرة غلال الأرض".

إنّ هذه الطّلبة قائمة في أساسها على البركة الإلهيّة الممنوحة للإنسان من فوق، من الله الخالق، ليكون المستَخدِم الرّئيس لهذه العطيّة الإلهيّة المجّانيّة. إذًا، إنّ كيفيّة تعاطي الإنسان مع العالم هو الأمر الّذي يُحدّد نجاح أو فشل علاقته مع الله، ذلك أنّ العالم ليس كيانًا مستقلاً عن علاقة الإنسان بالله، بل على العكس تمامًا، إنّه الموضوع والمادّة الّتي يعبّر فيها الإنسان وبواسطتها عن مفهومه للعلاقة مع الله: الخليقة هي مُلكٌ لله، والإنسان مؤتَمَنٌ عليها. لذا، فإنّ هذه الطّلبة "تُعبّر عن إيمانٍ غير متزعزع في العناية الإلهيّة"[١٧١].

تتحدّث الطّلبة الحاضرة عن ثلاثة أنواع من الإيكولوجيا "بيئة" هي:

- **الإيكولوجيا الطّبيعيّة** "اعتدال الأهوية"؛
- **الإيكولوجيا الزّراعيّة** "وفرة غلال الأرض"؛
- **الإيكولوجيا الإنسانيّة** "أزمنة سلاميّة"، والمقصود بالسّلام هنا هو السّلام المألوف الخالي من الحروب وآثارها الكارثيّة ونتائجها المدمّرة.

بناءً على الأنواع الثّلاثة المذكورة في الطّلبة الحاليّة، سنُسلّط الأضواء في النّقاط التّاليّة على الإيكولوجيا من وُجهة نظر كنسيّة:

أ. **الإيكولوجيا الأسراريّة والإفخارستيّة**

تلعب البيئة الزّراعيّة دورًا هامًّا في الإفخارستيّا، إذ نُقدّم فيها من ثمار الأرض كالخبز والخمر اللّذين سيتحوّلان إلى جسد ودم الرّبّ. إنّ الحنطة المزروعة في الأرض تصبح خبز الإنسان وتتحوّل في الكنيسة إلى جسد ابن الله، وكذلك ثمر الكرمة إلى دمه. الخلق يصير إفخارستيّا، أي أنشودة شكر. إذًا، ثمرة عمل الإنسان تصير مسيحًا. لم تَعُدْ هذه الثّمار علامةً على وجود الله، وأداةً موصلةً لنعمته فحسب، إنّما أخذت منحًى جديدًا هو المنحى الأسراريّ الّذي من خلاله تتحوّل إلى جسد ابن الله ودمه، إلى حياةٍ أبديّة. وهو المعنى نفسه لزيت سرّ مسحة المرضى، ولزيت سرّ الميرون المقدّس الممزوج بعطرٍ ومواد عطريّةٍ كثيرة (يتكوّن زيت الميرون من زيت الزّيتون الخالص، ومن خمر العنب الصّرف، مع خمسة وثلاثين نوعًا من أنواع الطّيوب والأزاهير والبزور والرّياحين والحشائش ذات الرّوائح الطّيّبة).

---

١٧١) **Ibid**, p.156.

وهكذا، تُصبح الإيكولوجيا الزّراعيّة إيكولوجيا أسراريّة بامتياز. فسرّ الإفخارستيّا ما هو إلاّ تحقيقٌ لاستعادة الخليقة كلّها في شخص الكلمة المتجسّد وتجديدها. فبما أنّ آدم الجديد يصير حاضرًا في الخبز والخمر، في منتوجات الأرض، ليستعيد ليس فقط الإنسان، بل أيضًا الطّبيعة والكون... فالمسيح يستعيد في ذاته كلّ شيءٍ مُفتديًا إيّاه، ويجمع السّماء والأرض في الإنسان، إذ قدِ استعادهما في ذاته، ويُلخّص في شخصه كلّ نظام الخلاص، وبالتّالي كلّ شيء على الإطلاق: "نحن أعضاؤه، ونتغذّى بواسطة الخليقة... فالكأس المُستقاة من الخليقة، قد أعلنها دمَه الّذي به يتقوّى دمُنا؛ والخبز المتَّخذ من الخليقة، قد أعلنه جسدَه الّذي به تتشدّد أجسادُنا"[172].

ب. الإيكولوجيا اللّيتورجيّة

إنّ اللّيتورجيّا هي تبادل العالم مع الله في "علاقةٍ إفخارستيّة"؛ لذلك، إذا كانت كلمة ليتورجيّا بالأصل اللّغويّ اليونانيّ للكلمة تعني "عمل الشّعب"، فهذا يريد أن يقول، كما أنّ "عمل الله" كان وما زال الخلق والمحبّة، فإنّ "عمل الشّعب" هو استخدام عطيّة الله في شكرٍ – إفخارستيّ. وهذا ما تعنيه تمامًا التّقدمات من "الخبز والخمر والزّيت". إنّها حركة إعادة العالم (في رموزه) إلى الله ليكون تسبحةً شكريّة، إذ إنّ القدّاس الإلهيّ ليس لحظةً ننسى فيها العالم، بل تمامًا اللّحظة الّتي نُقدّم فيها العالم من جديدٍ إلى الله خالقه ومُبدعه. وهذا هو الكهنوت الملوكيّ العامّ الّذي يحمله كلّ إنسانٍ معمَّد. وهكذا، يُصبح الإنسان كائنًا شُكريًّا – إفخارستيًّا بامتياز. إنّ الله لا يرفض تقدماتِنا وعالمَنا، لكنّه لا يتركه كما هو؛ فعندما تُقدَّم الأشياء في اللّيتورجيّا، فإنّها تُقدَّم كما هي حتّى لا تبقى كما هي، بل لتتحسّن. نُقدّم "ما هو" ليصير بالتّوبة والنّعمة "ما يجب". وهكذا، يتجلّى العالم في اللّيتورجيّا كخليقةٍ حَسَنَةٍ، لا بل حسنةٍ جدًّا؛ هذه هي "التّوبة البيئيّة" القائمة على الاستخدام الصّالح والصّحيح (مسؤوليّة الرّعاية) من قِبَل الإنسان لهديّة الله الكونيّة.

---

172) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٣١٣.

ت. الإيكولوجيا الكنسيّة: مسؤوليّة الكنيسة الرّعائيّة

للكنيسة مسؤوليّة تجاه الخليقة وتشعر بواجب ممارستها حتّى في الحقل العام للدّفاع عن الأرض والمياه والهواء الّتي وهبها الله الخالق للجميع، وقبل كلّ شيء، لحماية الإنسان من خطر القضاء على ذاته. فلا يمكن أن نطلب إلى النّاس أن يحترموا البيئة إن لم يجدوا المساعدة داخل أسرهم وفي مجتمعاتهم على احترام أنفسهم: فكتاب الطّبيعة واحدٌ أكان في ما يتعلّق بالبيئة أم بالخلقيّة الشّخصيّة، العائليّة والاجتماعيّة. تتأتّى الواجبات تجاه البيئة من واجبات الشّخص تجاه نفسه وفي علاقته مع الآخرين ومع الله نفسه. إنّ الكنيسة بالتّالي تشجّع التّربية على مسؤوليّة إيكولوجيّة تصون "**الإيكولوجيا الإنسانيّة**" الأصيلة وتؤكّد باقتناع متجدّدٍ عدم المساس بالحياة الإنسانيّة في مختلف مراحلها وظروفها، كرامة الشّخص ورسالة الأسرة اللّابديل لها حيث التّربية على محبّة القريب واحترام الطّبيعة. لا بدّ من حماية الإرث البشريّ للمجتمع، إرث القيم الّذي يجد أصوله في الشّريعة الأدبيّة الطّبيعيّة، أساس احترام الشّخص البشريّ والخليقة.

ولا غرو بأنّ الطّبيعة كانت دربًا إلى الله، حتّى إنّ الآباء والعلماء يعتبرونها "كتاب الوحي الإلهيّ الّذي لم يُكتب بأيدٍ"، فهي تشارك في تسبيح الخالق وتمجيده، وهذا ما نقرأه في الكتاب المقدّس حيث يقول في سفر المزامير، الّذي يربط بعرًى وثيقةٍ بين تسبيح الله والإيكولوجيا الكونيّة، والطّبيعيّة، والإنسانيّة: "سبّحوا الربّ من السّموات... سبّحوه يا جميعَ ملائكته، سبّحيه يا جميع قوّاته. سبّحيه أيّتها الشّمسُ والقمرُ... سبّحيه يا سماءَ السّموات، ويا أيّها الماء الّذي فوق السّموات... النّار والبَرَد، الثّلج والجليد، الرّيح العاصفة المُقيمة كلمته... الجبال وجميع التّلال، الشّجر المثمر وجميع الأرْز... ملوك الأرض وجميع الشّعوب، الرّؤساء وجميع قُضاة الأرض. الشُّبّان والعذارى، الشّيوخ مع الفتيان. فليُسبّحوا اسم الربّ..." (١٤٨: ١-١٤).

٩. لأجل المسافرين في البحر والبرّ والجو. والمرضى والمُتعبين والأسرى. ولأجل خلاصهم. إلى الرّبّ نطلب

أ. المسافرون

من أجل فهمٍ أفضل لهذه الطّلبة، علينا أن نرجع إلى الزّمان الّذي أنشأت فيه هذه الطّلبة. فمنذ زمن بعيد، لم يكن السّفر عن طريق البحر أو البرّ مريحًا وممتعًا وآمِنًا كما هو الحال في أيّامنا الحاليّة، بل كان مليئًا بالأخطار. يُصلّي الكاهن باسم الكنيسة جمعاء على نية المسافرين من أبناء رعيّته بحرًا وبرًّا وجوًّا، إذ لا ضمانة للمسافر في أن يصل إلى وُجهته دون أن يُصاب بأذًى نفسيٍّ أو جسديّ، وذلك لأنّ الطّبيعة البشريّة مُعرَّضةٌ في أيّ وقتٍ للخطأ الّذي يُهدِّد حتّى المسافر الأكثر حذرًا[١٧٣]. إنّ الأذى أو الموت يأتي كالسّارق في ساعةٍ لا نتوقّعها: "وأنتم تعلمون أنّه لو عَرَفَ ربّ البيت في أيّة ساعةٍ يأتي السّارق، لم يَدَعْ بيته يُنقَب. فكونوا أنتم أيضًا مستعدّين، ففي السّاعة الّتي لا تتوقّعونها يأتي ابن الإنسان" (لوقا ١٢: ٣٩-٤٠)؛ وقال القدّيس بولس أيضًا: "إنّ يوم الرّبّ يأتي كالسّارق في اللّيل" (١ تسالونيكي ٥: ٢). وحدها يد الله قادرةٌ على إيقاف أخطار البَرّ، والبحر، والجوّ. أمّا بالنّسبة لأولئك الّذين لم يتمكّنوا من بلوغ رحلتهم على الأرض وُجهتها المطلوبة، فالخلاص هو المنشود في هذه الحالة ("ولأجل خلاصهم").

ب. المرضى: علاقة الإفخارستيّا بسرّ مسحة المرضى

"كنتُ مريضًا فعُدتُموني" (متّى ٢٥: ٣٦)

كذلك يُصلّي الكاهن أيضًا على نيّة أبناء رعيّته الّذين يُعانون من مختلف الأمراض الجسديّة والرّوحيّة المستحوذة عليهم. وكما يقول يعقوب الرّسول: "إنّ صلاة الإيمان تُخلّص المريض، والرّبّ يُعافيه. وإذا كان قد ارتكب الخطايا غُفِرَت له. فليَعترف بعضُكم لبعضٍ كي تُشفَوا. صلاةُ البارّ تعمل بقوّةٍ عظيمة" (يعقوب ٥: ١٥-١٦). ويُشير يعقوب الرّسول في الرّسالة عينها وفي المقطع عينه إلى سرّ مسحة المرضى الّذي يقوم به الكاهن باسم الرّبّ عبر الكنيسة المقدّسة من

---

١٧٣) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.347.

أجل شفاء المرضى، وهو سرٌّ قلّما يُفهَم في إطاره الصّحيح من قِبَل الكثيرين من المسيحيّين، الّذين يُفكِّرون أنّ مسحة الزّيت المقدّس، الّتي يمنحها الكاهن للمريض، إنْ في المستشفى أو في البيت، هي المسحة الأخيرة قبل الموت. إنّ هذا التّفكير خاطئٌ من أساسه، ذلك أنّ المسحة تُعطَى لكلّ إنسانٍ مريضٍ محتاجٍ إلى صلاة الشّفاء والتّعزية مهما كان نوع المرض وشدّته: "هل فيكم مريض؟ فليَدْعُ شيوخ الكنيسة، وليُصلُّوا عليه بعد أن يمسحوه بالزّيت باسم الرّبّ" (يعقوب ٥: ١٤). كما يُصلّي الكاهن على الزّيت المُزمع أن يُمسَح به المريض، قائلاً:

"أيُّها الرّبُّ الشّافي برأفته ومراحمه نفوسَنا وأجسادَنا المُنسحقة... قدّس هذا الزّيت، لكي يُصبح للممسوحين به واسطةً للعافية والشّفاء من كلّ الآلام والأمراض الجسديّة، ومن كلّ أدناس الجسد والرّوح ومن كلّ الأسواء"؛ وأيضًا: "أيّها الآب القدّوس، يا طبيب النّفوس والأجساد، يا مَن أرسل ابنه الوحيد يسوع المسيح شافيًا كلّ مرضٍ ومنقذًا من الموت، إشفِ عبدك هذا أيضًا من الأمراض النّفسيّة والجسديّة المستحوذة عليه، وأحيه بنعمة مسيحك بحسب ما يُرضيك، ليّقدّم لك الشُّكر الواجب بأعماله الصّالحة...".

نلاحظ من خلال هذين الإفشينَين أنّ مسحة المريض بالزّيت المقدّس هي صلاةٌ تضرُّعيّةٌ وتوسُّليّةٌ إلى الله القدير، أبي المراحم وإله كلّ تعزية، ليمنح المريض بواسطة هذا الزّيت الشّفاء والعافية والخلاص من المرض المستحوذ عليه، وذلك بقدرة ابن الله الشّفائيّة وسلطانه الخلاصيّ.

ت. المُتعَبون

تذكر الكنيسة أيضًا المُتعَبين نفسًا وجسدًا، مذكِّرةً إيّاهم أنّ السَّيِّد الإلهيّ هو تعزيتُهم انطلاقًا من آلامه الّتي عاناها لأجل البشريّة، وهو، في الوقت عينه، شفاؤهم إذ يؤمن المسيحيّون أنّ المسيح هو طبيب النّفوس والأجساد، وهذا ينطبق على قول السَّيِّد المسيح في الإنجيل الشّريف: "فتعالَوا إليّ، يا جميع المُتعبين تحت ثقل أحمالكم وأنا أوتيكُمُ الرّاحة. خذوا نيري عليكم وتتلمذوا لي،

لأنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجدوا الرّاحة لنفوسكم. أجل، إنّ نيري ليّنٌ، وحِملي خفيف" (متّى ١١: ٢٨-٣٠).

ث. الأسرى

- **الأسرى في السّجون: "كنتُ سجينًا فجئتم إليّ" (متّى ٢٥: ٣٦)**

إنّ الكنيسة ترى في موضوع "الأسرى" جانبًا مهمًّا في حياة الإنسان وكرامته البشريّة والإلهيّة، بحيث لا يمكن لأيّ إنسان أن يحجز حريّة إنسانٍ آخر، لأنّ الحريّة هي نعمةٌ من الله وُهِبَت للإنسان. فنجد أنّ هناك بعض الأنظمة الّتي لا تحترم شُرعة حقوق الإنسان وبخاصّةٍ حريّة التّعبير عن الرّأي وحريّة العبادة الدّينيّة، مِمّا يجعل من كلّ مطالِبٍ بحقّه المشروع أسيرًا لهذه الأنظمة. فيُصبح الإنسان ذئبًا لأخيه الإنسان، دون النّظر إلى الكرامة الّتي خصّه الله بها بأن يكون على "صورته ومثاله". هذا ما يختصّ بالجانب الإنسانيّ والاجتماعيّ بالأسرى والمعتقلين، وكما رأينا فهو جانبٌ غيرُ مُفرَغ من بعض الأساسات الرّوحيّة أيضًا.

- **أسرى الخطيئة وفِديَة يسوع**

أمّا الجانب الرّوحيّ الصّرف لموضوع الأسرى، فيُعبِّر عنه بولس الرّسول في رسالته إلى أهل رومة، بتأكيده أنّ الإنسان أصبح أسيرًا ومعتقلاً في سجون العبوديّة المُرّة للخطيئة الّتي سقط فيها وشوّهت صورة الله في الإنسان، وكيف حرّرنا الكلمة الإلهيّ يسوع المسيح من هذا الأسر الّذي كنّا في حوزته أرقّاء للخطيئة وعبيدًا لها، يقول: "**لَمّا كُنتم** عبيدًا للخطيئة، كُنتم أحرارًا من جهة البرّ، فأيّ ثمر حملتم حينذاك؟ إنّكم تخجلون الآن من تلك الأمور لأنّ عاقِبَتَها الموت. **أمّا الآن**، وقد أُعتِقتم من الخطيئة وصرتم عبيدًا لله، فإنّكم تَحمِلون الثّمر الّذي يقود إلى القداسة، وعاقِبَتُه الحياةُ الأبديّة، لأنّ أجرة الخطيئة هي الموت، وأمّا هِبَةُ الله فهي الحياة الأبديّة في يسوع المسيح ربّنا" (٦: ٢٠-٢٣). نستشفّ من هذه الآيات المقدّسة أنّ الإنسان المسيحيّ وقد كان مستَعبَدًا وأسيرًا للخطيئة والموت، أصبح إبنًا للحريّة الحقيقيّة ووارثًا للحياة الأبديّة بشخص الابن يسوع المسيح، أي أنّ **المسيحيّ يُصبح ابنًا لله في الابن يسوع المسيح وبقدرة الرّوح القدس**، وهذه هي الحريّة الحقّة، أنّنا أصبحنا

كمسيحيّين معمَّدين أبناء الله، إذ قد منحنا الآب نعمة التّبنّي من جديدٍ بتجسُّد ابنه الوحيد: "فلست بعدُ عبدًا، بل ابنٌ، وإذا كنتَ ابنًا فأنتَ وارثٌ بفضل الله" (غلاطية ٤: ٧).

١٠. لأجل نجاتنا من كل ضيقٍ وغضبٍ وخطرٍ وشدّة، إلى الرّبّ نطلب

تجد هذه الطّلبة صدًى كتابيًّا لها في سِفر صفنيا النّبيّ الّذي تنبّأ للشّعب عن غضب الله الّذي سيقع عليهم كعقابٍ على خطاياهم المتمثّلة في عدم أمانتهم ووثنيّتهم، فيقول: "يوم ضررٍ وضيق. يوم إبادةٍ وإتلاف. يوم ظُلمةٍ ودَيجور. يوم غمامٍ وضباب" (١: ١٥). إنّ الكنيسة ومن خلال هذه الطّلبة تُذكّر المؤمنين أنّ الخطيئة تجعلهم غير مستحقين لأنْ يسمع الله صلواتهم وتضرّعاتهم، فيكونون، بالتّالي، معرَّضين لغضب الله. ولذلك، فإنّ الكاهن، باسم كلّ الجماعة المشتركة في اللّيتورجيّا الإلهيّة، يتضرّع إلى الله برحمته اللّامتناهية، ليُنقذنا من كلّ محنةٍ وبؤسٍ وألمٍ وعوَز، ويتوسّل إليه ألاّ يُعاقبنا بغضبه، بل أن يُعاملنا برحمته الأبويّة: "الرّبّ رؤوفٌ ورحيم. طويل الأناة وكثير الرّحمة. ليس على الدّوام يغضب. ولا إلى الأبد يَحقِد. لا على حسب آثامنا عامَلَنا. ولا على حسب خطايانا جازانا. بل بمقدار ارتفاع السّماء عن الأرض. عظَّم الرّبّ رحمته على الّذين يتّقونه. بمقدار بُعد المشارق عن المغارب. أبعد عنّا آثامنا. كما يرأف الأب ببنيه. رَئِفَ الرّبّ بالّذين يتّقونه" (المزمور ١٠٢: ٨-١٣).

١١. أعضدنا وخلِّصنا وارحمنا واحفظنا يا الله بنعمتك

تقع هذه الطّلبة تحت تأثير سفر المزامير الّذي يُعلن فيه كاتبه قائلاً: "إلتمستُ الرّبّ فأجابني. ومن جميع مضايقي نجّاني... كثيرةٌ مضايق الصّدّيقين. ومن جميعها يُنجّيهم الرّبّ" (٣٣: ٥، ٢٠). فإذا ما قرأنا هاتين الآيتين من سفر المزامير قراءةً كتابيّةً تفسيريّةً، لوجدنا أنّهما تتكلّمان عن الله الّذي يقوم بحماية البارّ المتوكِّل عليه ويكتنفه برحمته الإلهيّة (راجع مزمور ٣١: ١٠)، وهذه الحماية الإلهيّة ما هي إلاّ دخولٌ للنّعمة الإلهيّة في حياة الإنسان الصّدّيق.

أ. الله حامي الكنيسة

إنّها طلبةٌ موجَّهةٌ إلى الله لكي يكون حاضرًا دائمًا في وَسْط الجماعة، يعضدُها ويخلِّصها ويرحمُها ويحفظُها من كلّ مكايد إبليس وملائكته ومن

الأمواج العاتية الّتي تُحاول إغراق الكنيسة وهي في وُجهتها نحو الملكوت الأبديّ. هذا ما عناه القدّيس بولس بقوله: "إنّ اللّه أمينٌ فلن ياذن أن تُجرَّبوا بما يفوق طاقتكم، بل يُؤتيكم مع التّجربة وسيلة الخروج منها بالقدرة على تحمُّلها" (١ كورنثس ١٠: ١٣). ما دُمنا نعيش في العالم، فنحن بحاجةٍ إلى مساعدته، وإلى نعمته، وهو مَن قال لنا في الإنجيل المقدّس: "لأنّكم، بمَعزلٍ عنّي، لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا" (يوحنّا ١٥: ٥)، إذ كما يقول القدّيس بولس: "ليس أنّنا كُفاةٌ من أنفسنا أن نفتكر شيئًا كأنّه من أنفسنا، بل كِفايتُنا من اللّه" (٢ كورنثس ٣: ٥)، وأيضًا يقول: "فإنّ اللّه هو الّذي يعمل فيكمُ الإرادة والعمل في سبيل رضاه" (فيلبّي ٢: ١٣).

ب. النّعمة الإلهيّة

بيد أنّ ثمّة مصطلحًا لاهوتيًّا وكتابيًّا حاضرًا في هذه الطّلبة وهو "النّعمة الإلهيّة". إنّ النّعمة، كما يُعرِّفها معجم اللّاهوت الكتابيّ، هي "عطيّةٌ من اللّه تحوي كلّ العطايا، أي هِبَة ابنه (رومة ٨: ٣٢). ولكنّها تعني أكثر من مجرّد الهبة. فهي هِبَةٌ تشعّ بسخاء المُعطي وتغمر بهذا السّخاء الخليقةَ الّتي تحظى بها. فيمنح اللّه عطاياه بفضل نعمته ويجد مَن ينالها حظوةً ورضًى أمامه تعالى"[١٧٤]. إنّها تجمع دائمًا بين اللّه الّذي يعطي والإنسان الّذي ينال. فهي رحمة اللّه الّتي تعطف على شقاء شعبه، وأمانته وحنانُه الّذي يفيض عليهم، وثباته في تعهّداته لهم، وبرُّه الّذي لا يَنضُب. هذه النّعمة هي مبادرةٌ مجّانيةٌ قائمةٌ على محبّة اللّه، وأمانته لوعوده وتعهّداته، لا يمكن أن "تُشترى" بأيّ عملٍ كان، كيف تُشترى وهي الّتي تُمثِّل غنى الطّبيعة الإلهيّة بقدر ما تُعتلَن للنّاس. حصول الإنسان على النّعمة في العهد الجديد يقوم في انضمامه إلى يسوع المسيح وعندها يصير ابنًا للّه بالتّبنّي، بحيث يتمّ هذا التّبنّي بالرّوح القدس.

ففي الرّوح القدس وحده نستطيع أن ندعو اللّه "أبّا أيُّها الآب" (غلاطية ٤: ٦)، "والرّوح نفسه يشهد لأرواحنا أنّنا أولاد اللّه" (رومة ٨: ١٦). وهكذا غدت النّعمة هي محبّة اللّه الّتي أُفيضت في قلوبنا بالرّوح القدس الّذي أُعطيناه (رومة ٥: ٥).

---

١٧٤) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٨٠٧.

من هذا المنظار نَصِل إلى ذروة مفهوم النّعمة في العهد الجديد، ألا وهي: **الله نفسه في عطائه ذاته لنا بيسوع المسيح في الرّوح القدس**، وهي على هذه الأرض شَركةٌ في حياة الثّالوث، تلك الشَّركة ستجد كمالها في البُعد السّماويّ الَّذي هو ميراث الإنسان الَّذي يصبح ابنًا لله.

لذلك، يصف اللّاهوت النّعمة على أنّها بدء الحياة الأبديّة، وتذوُّقها المُسبَق، واستباقُ رؤية الله، وهذا طبعًا من ناحية علاقتها مع الإنسان. وعليه، فإنّ العطايا الإلهيّة المذكورة في الطّلبة أعلاه: "أعضدنا، وخلّصنا، وارحمنا، واحفظنا"، تدلّ على أنّ الله تعالى فتح بلا تحفُّظٍ خزينة السّخاء الإلهيّ الَّذي لا يَنضُب على الإنسان (أفسس ١: ٧؛ ٢: ٧). وهكذا نُدرك أنّ النّعمة هي عطيّةٌ مجّانيّةٌ من الله، تُعبّر عن جودته ورحمته الإلهيّة نحو الإنسان صنيعه، وهي أيضًا عطيّةٌ ضروريّةٌ للخلاص والحياة الأبديّة. فلا يمكن للإنسان أن يستحقّ النّعمة أو أن يحصل عليها بقوّته الذّاتيّة وموارده الطّبيعيّة (راجع رومة ١١: ٦)، لأنّها فائقة الطّبيعة[١٧٥].

١٢. لنذكر سيدتنا الكاملة القداسة، الطّاهرة، الفائقة البركات المجيدة، والدة الإله الدّائمة البتوليّة مريم، وجميع القدّيسين. ولنودع المسيح الإله ذواتنا وبعضنا بعضًا وحياتنا كلّها

أ. ذكر والدة الإله والقدّيسين

إنّ المسيح إلهنا هو، بشكلٍ ثابت، في المركز، المخلّص والوسيط الوحيد، الَّذي عليه يستند كلّ شيءٍ آخر. بجانب المسيح تقف "أمُّنا السّماويّة العزيزة، أمّ الله وملكة السّماء"[١٧٦]، الأكثر رفعةً بين خلائق الله، "الأكرم من الشّيروبيم والأرفع مجدًا بغير قياسٍ من السّيرافيم"، كما تصفها اللّيتورجيّا البيزنطيّة. ولكن، وبمقدار تعظيمها، فهي دائمًا مكرّمةٌ مع المسيح وتاليةٌ له؛ إنّها ليست أبدًا لوحدها باستقلالٍ عن ابنها. يسوع هو مخلّصها وفاديها، مخلّص وفادي كلّ الجنس البشريّ. من نقطة الانطلاق هذه تأتي الطّلبة الحاضرة لتعنيَ أنّنا نطلب معونة والدة الإله وجميع القدّيسين لكي نستطيع أن نودع حياتنا وذواتنا للرّبّ،

---

١٧٥) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.349.

١٧٦) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.158.

وكما نذرت العذراء ذاتها هكذا لنتمثّل نحن بها واضعين ذواتنا كعبيدٍ في خدمة تدبير الله الخلاصيّ للبشريّة: "أنا أَمَةُ الرّبّ" (لوقا ١: ٣٨).

تذكر الكنيسة أيضًا القدّيسين الّذين جاهدوا الجهاد الحَسَن وحفظوا وديعة الإيمان وضحّوا بحياتهم وأنفسهم في سبيل المسيح والإيمان المسيحيّ. وبالقديم كانت الهياكل تُقام وتُبنى على أضرحة الشّهداء الأبرار الّذين سُفِكَت دماؤهم من أجل المسيح والكنيسة (راجع رؤيا ٦: ٩)، تكريمًا ووفاءً من الكنيسة لهؤلاء الّذين اعتبروا كلّ شيءٍ نُفايةً ليربحوا المسيح (فيلبّي ٣: ٨) ولم يحسبوا حسابًا للموت، ذلك أنّ الموت أصبح في نظرهم الباب الملوكيّ الّذي من خلاله يدخلون إلى السّعادة الأبديّة الخالدة، مردّدين مع بولس الرّسول: "لأنّ الحياة لي هي المسيح، والموت لي ربح" (فيلبّي ١: ٢١).

ب. الثّقة البنويّة

إنّ وَعينا لثِقَل خطايانا الكثيرة وضُعُفاتنا البشريّة يُحتّم علينا الانتقال إلى أولئك الّذين يقفون أمام عرش الله لنطلب منهم التّوسُّط والتماس الرّحمة الإلهيّة لنا. نذكر هنا والدة الإله والقدّيسين لأنّهم سُفَراؤنا أمام الله. إنّ هذه الطّلبة لا تُشدّد على القوّة التّوسُّطيّة لوالدة الإله والقدّيسين فحسب، ولكنّها تكشف أيضًا الثّقة الّتي لا حدود لها للجماعة المؤمنة في شخص الرّبّ يسوع المسيح، وسيطنا بين السّماء والأرض[١٧٧]. وكعربونٍ لهذه الثّقة، نقوم بتقديم "أنفسنا وبعضنا بعضًا وحياتنا كلّها" بطواعيّةٍ كاملةٍ لمشيئته الإلهيّة. ليس هناك أفضل من أن يضع الإنسان ثقته الكاملة في الله في الصّلاة، ويُسلّم نفسه للمسيح، ويضع كلّ احتياجاته عند قدَمَيه، وكلّ همومه الأرضيّة ومشكلاته، لا بل أن يضع حياته كلّها بين يدَيه، مُستَسلِمًا بكلّيّته لعنايته الإلهيّة.

وهنا تعليمٌ فريدٌ أن نودع بعضنا بعضًا، **لأنّ كلّ إنسانٍ مؤمنٍ مسؤولٍ عن الآخر**، لأنّه علينا أن نطلب الخير للآخرين كما لأنفسنا بحسب ما تعلّمناه من المسيح.

---

١٧٧) **Ibid**, p.157.

ت. الألقاب المريميّة

إنّ الألقاب المذكورة في هذه الطّلبة تُلخّص بمجملها "عقيدة الكنيسة المريميّة". إنّ هذه الألقاب لم تكن نعوتًا وهميّةً صاغها بعض الرّهبان الأتقياء، ولكنّها حقائقُ لاهوتيّةٌ قائمةٌ على عمقٍ في المعنى، مستمّدَةٌ من الوضوح العقائديّ الخاصّ بوَحدة أُقنوم (شخصه) ابنها، وطبيعتَيه الإنسانيّة والإلهيّة. وهكذا، عندما هاجمت الهرطقات والبدع، خلال القرون الثّلاثة الأولى للمسيحيّة، إنسانيّة المسيح، قام آباء الكنيسة بالدّفاع بقوّة عن العقيدة الصّحيحة بإصرارهم على الحقائق الّتي تؤكّد أنّ ابن الله قد تجسّد فعلاً، بجسدٍ حقيقيّ كالآخرين، وأنّه وُلِدَ من مريم العذراء.

- سيّدتنا

إنّه اللّقب الأوسع استعمالاً للعذراء في اللّيتورجيّا البيزنطيّة الّتي تدعوها "بالسَّيِّدة" كلقبٍ مرادفٍ للقب المسيح "السَّيِّد".

- الكاملة القداسة

إنّ الكنيسة ترى في مريم الكمال الأسمى للقداسة في شخص بشريّ، النّموذج والمثال لِما يكوّن، بنعمة الله، الإنسان الحقيقيّ. إنّها الكاملة القداسة، لأنّها المثال الأعلى للتّآزر والتّعاون بين مشيئة الله الخلاصيّة وحريّة الإنسان. إنّ الله الّذي يحترم دائمًا حريّة إرادة الإنسان، قد أصبح متجسِّدًا من خلال موافقة مريم الحرّة الّتي اختارها أُمًّا له. كان يمكنها أن ترفض العرض الإلهيّ، ولكنّها لم تفعل. وبالتّالي، "فإنّ عُقدة عصيان حوّاء القديمة قد حُلّت من خلال طاعة حوّاء الجديدة"[١٧٨]، على حدّ تعبير القدّيس إيريناوس. فالكنيسة تستند في إعلانها قداسة مريم إلى تحيّة الملاك جبرائيل: "السّلام عليكِ يا ممتلئةً نعمةً الرّبّ معك" (لوقا ١: ٢٨). وتعني لفظة "ممتلئة نعمة" أنّ مريم كاملة البرارة وكاملة القداسة.

---

١٧٨) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.354.

- **الطّاهرة**

إنّ مريم، بحسب لاهوت الكنيسة، بريئةٌ من أيّة خطيئة؛ فلقد آمنت الكنيسة الجامعة منذ لحظات تكوينها الأولى بأنّ مريم هي عذراء نقيّة ليس فقط بجسدها، بل بروحها أيضًا، وهي بالتّالي، أصبحت بطهارتها الرّوحيّة والجسديّة "كنيسة الرّوح القدس وهيكله"[179]. **فالقدّيس صفرونيوس بطريرك أورشليم** (+ ٦٣٨م) يتغنّى بالفادي الّذي "ولج أحشاء مريم المتألّقة طُهرًا، المعصومة من كلّ لوثةٍ في النّفس والجسد والعقل، البريئة من كلّ دنس"؛ وكذلك يقول **القدّيس أوغسطينوس**: "إكرامًا للرّبّ، أرفض أيّ تساؤلٍ حول إمكانيّة وقوع القدّيسة مريم العذراء في الخطيئة".

- **الفائقة البركات المجيدة**

إنّها فائقة البركات لأنّها نالت "حُظوةً عند الله" (لوقا ١: ٣٠)، حيث أعلنت موافقتها، بطوعيّةٍ لا مثيل لها وبملء حريّتها، على أن تبنيَ "حكمة الآب الأقنوميّة لها "بيتًا"، وهو جسد العذراء الطّاهرة الّذي اتّخذه الكلمة"[180]. ولقد رأى آباء الكنيسة اللّاهوتيّون في مريم شخصًا مخلوقًا جَمَعَ في ذاته كلّ الكمالات المخلوقة وغير المخلوقة، وتحقيقًا مطلقًا لجمال الخليقة. "إنّها تزوّد النّاس بالخيرات الأبديّة. بها ينال النّعمةَ البشرُ والملائكة. لا تُعطى موهبةٌ في الكنيسة إلاّ بمساعدة والدة الإله، باكورةِ الكنيسة الممجَّدة"[181].

- **والدة الإله**

لقد أصبح هذا اللّقب المريميّ الهامّ الأكثر شيوعًا في الكنيسة في أوائل القرن الرّابع الميلاديّ. لقد تعرّضت أمومة مريم الإلهيّة للهجوم في القرن الخامس الميلاديّ نتيجةً للهجوم الّذي تبنّاه نسطوريوس بطريرك القسطنطينيّة آنذاك وأتباعه على تعليم الأقنوم الواحد في يسوع المسيح. وقدِ ادّعى نسطوريوس أنّ في المسيح شخصَين اتّحدا معًا، وهما الله الابن (الكلمة) والإنسان يسوع. وأنّ مريم قد وَلَدَتْ يسوع الإنسان فقط، وهي، بالتّالي، ليست الثيوطوكس

---

١٧٩) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١١٧.

١٨٠) **المرجع نفسه**، ص. ١١٦-١١٧.

١٨١) **المرجع نفسه**، ص. ١٦٢.

(والدة اللّه). ولقد أكّد المجمع المسكونيّ الثّالث المنعقد في أفسس عام ٤٣١م أنّ مريم هي "والدة الإله"، وقام بتحديد أمومتها الإلهيّة كعقيدةٍ إيمانيّة، وأعلن أنّ للأقنوم الإلهيّ، الّذي اتّخذ جسدًا ووُلِدَ من مريم، طبيعتَين، إنسانيّة والهيّة: إنّه إلهٌ وإنسانٌ على حدٍّ سواء. إنّ طبيعته الإلهيّة هي من صُلب جوهره لأنّه اللّه الكلمة (يوحنّا ١: ١-٢)، وهو نفسه قدِ اتّخذ من مريم طبيعته البشريّة فقط (يوحنّا ١: ١٤؛ غلاطية ٤: ٤-٥؛ فيلبّي ٢: ٦-٧). ولقد عبّر القدّيس غريغوريوس النّزينزيّ (اللّاهوتيّ) عن هذه الحقيقة الكتابيّة واللّاهوتيّة قائلاً: "إنْ لم يعتقد أحدٌ أنّ القدّيسة مريم هي والدة الإله، فهو مفصولٌ عن الألوهة"[١٨٢].

- **الدّائمة البتوليّة مريم**

تؤمن الكنيسة إيمانًا ثابتًا وراسخًا بأنّ بتوليّة العذراء هي بتوليّةٌ دائمة، أي أنّها بتولٌ قبل الولادة، وقد حافظت على بتوليّتها في الولادة، وقد استمرّت بتولاً بعد الولادة. لذلك نرى التّقليد الإيقونوغرافيّ للكنيسة البيزنطيّة يضع ثلاث نجماتٍ ذهبيّةٍ للعذراء في كلّ أيقونةٍ تتواجد فيها: على جبينها، وعلى كتفها اليمين، وعلى كتفها اليسار علامة البتوليّة الدّائمة. لقد آمن المسيحيّون منذ البداية ببتوليّة مريم الدّائمة، إلاّ أنّها أُعلِنَت رسميًّا كبندٍ من بنود الإيمان في المجمع المسكونيّ الخامس المُنعقد في القسطنطينيّة في العام ٥٥٣م (القسطنطينيّة الثّاني، ذلك أنّه عُقِدَ في العام ٣٨١م مجمعٌ مسكونيٌّ في القسطنطينيّة هو مجمع القسطنطينيّة الأوّل).

وعليه نقول إنّ مريم هي نموذجنا ومثالنا، المرآة الّتي فيها نشاهد وجهنا الأصليّ الصّافيّ. فإذا أردنا فهم الأبعاد الكاملة للشّخصيّة الإنسانيّة، ننظر، قبل كلّ شيءٍ، إلى المسيح آدم الثّاني، وبعد ذلك، بجانب المسيح، ننظر إلى مريم حوّاء الجديدة.

---

١٨٢) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٥٢٦.

ث. جواب الكنيسة: "لك يا ربّ"

إنّ جواب الكنيسة على هذه الطّلبة: "لك يا ربّ" يُشير، فضلاً عن ثقة الإنسان البنويّة في الله، إلى رغبته الحقيقيّة في أن **يعيش**، جنبًا إلى جنب، مع هذه الثّقة الإلهيّة، لتصيرَ أساسًا متينًا لحياته الأرضيّة في محجّتها نحو حياته السّماويّة. لك، يا ربّ، نُقدّم طَلِباتنا وصلواتنا؛ عند قدمَيك نضع ابتهالاتنا وأدعيتنا؛ لك، نُودع أنفسنا دون تحفُّظ، ونُعيد حياتنا وكلّ ما أعطيتنا إيّاه؛ وفيك، نضع كلّ ثقتنا عالِمين أنّك لن تُخيِّب آمالنا برحمتك ومحبّتك!

الباب الرّابع

رتبة الأنديفونات

١) جذور الأنديفونات الكتابيّة

إنّ الأنديفونات هي مزامير مستمَدّةٌ من خِدَم المجمع اليهوديّ، وقد أصبحت بعد ظهور الطّريق الجديدة (أعني بها "المسيحيّة") جزءًا لا يتجزّأ من الخِدَم اللّيتورجيّة المسيحيّة. إنّ أقدم الوثائق الّتي تشهد على استعمال المزامير في الخِدَم المسيحيّة تأتي من القدّيس بولس في رسالتَيه إلى الأفسسيّين والكولسّيّين: "واتلُوا معًا مزامير وتسابيح وأناشيدَ روحيّة. رتّلوا وسبِّحوا الرّبّ في قلوبكم" (أفسس ٥: ١٩)، وأيضًا: "رتّلوا للّه من صميم قلوبكم شاكرين بمزامير وتسابيح وأناشيد روحيّة" (كولسّي ٣: ١٦). إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثّاني في "دستور في اللّيتورجيّا المقدّسة" عبّر بطريقةٍ بليغةٍ عن حضور المسيح في اللّيتورجيّا: "إنّه [المسيح] حاضرٌ في كلمته، فإنّه هو المتكلّم إذا قُرئَتِ الكتب المقدّسة في الكنيسة، إنّه حاضرٌ أخيرًا عندما تُصلّي الكنيسة، وتُرتّل المزامير"[١٨٣]. وفي توصيفه لعلاقة الكتاب المقدّس باللّيتورجيّا، يقول المجمع الفاتيكانيّ الثّاني في الدّستور عينه: "للكتاب المقدّس في احتفالات اللّيتورجيّا أهميّةٌ كبيرةٌ جدًّا. فمنه النّصوص الّتي تُقرأ وتُفسّر في المَوعظة، ومنه المزامير الّتي تُرتَّل، ومن وَحيه ودَفقه تَنهل الصّلوات والأدعية والأناشيد الطّقسيّة، ومنه تستقي الأعمال والرّموز معانيها"[١٨٤].

---

١٨٣) ***<u>المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دستور في اللّيتورجيّا المقدّسة</u>***، ص. ١٥١.

١٨٤) **المرجع نفسه**، ص.١٥٧.

٢) رمزيّتها اللّيتورجيّة

إنّ أنديفونات اللّيتورجيّا الّتي نُرتّلها قبل الشّروع بدورة الإنجيل المقدّس هي رؤى الأنبياء المبشّرة بحضور ابن الله من خلال حدث التّجسُّد الإلهيّ: "... والكلمة صار بشرًا، فسكن بيننا، فرأينا مجده، مجدًا من لدن الآب لابن وحيد، مِلؤه النّعمة والحقّ" (يوحنّا ١: ١٤). إنّها، إذًا، آياتٌ ماخوذةٌ من المزامير الحادي والتّسعين (١، ٢، ٦)، والثّاني والتّسعين (١، ٥)، والرّابع والتّسعين (١-٩)، وكلّها تُشير إلى تجسّد كلمة الله، يسوع المسيح، وإلى مجيء ابن الله إلى العالم ودخوله التّاريخ البشريّ[١٨٥].

٣) صلوات الأنديفونات الثّلاثة

١. صلاة الأنديفونا الأولى

أيّها الرّبُّ إلهنا، الّذي لا تُمثّل عزّته. ولا يُدرَك مجده. ولا تُقاس رحمته. ولا يفي وصفٌ بمحبّته للبشر. أنت أيّها السَّيّد. اطّلع بتحنُّنك علينا وعلى هذا البيت المقدّس. واجعل مراحمك ورأفتك غزيرةً علينا وعلى المصلّين معنا

تبدأ صلاة الأنديفونا هذه بالتّأمّل بقدرة الله الكلّيّة، وبرحمته ومحبّته للإنسان. وهي تُشير أيضًا إلى اعتراف المؤمنين بإيمان الكنيسة، إذ إنّ معرفة الله لا تُقاس ومجده لا يُدرَك ورحمته لا تُحدّ ومحبّته للبشر لا توصف[١٨٦]. فهو [الله] أكبر من أن يُحدّ في تعابيرنا ومفاهيمنا وترديداتنا، وفي هذا صدق صاحب المزامير بقوله: "باركي الرّبّ يا نفسي، ويا جميع ما في داخلي اسمَه القدّوس. باركي الرّبّ يا نفسي، ولا تَنسَي جميع إحساناته" (مزمور ١٠٢: ١-٢). إنّها صلاةٌ يتلوها الكاهن باسم الجماعة كلّها مُشيدًا بعظائم الله وإحساناته وأعماله الّتي صنعها حبًّا ورحمةً بالجنس البشريّ والّتي مهما بلغت لغة الإنسان بليغةً وفصيحةً، لن تَفي ولو بالقليل. إنّها صلاة عرفان الجميل والشّكر على جميع الأعمال الخلاصيّة الّتي أنجزها الله الآب بواسطة ابنه الوحيد يسوع المسيح الكلمة الإلهيّ المتجسّد، الّذي، كما يقول القدّيس باسيليوس الكبير في ليتورجيّته

---

١٨٥) Paul Meyendorff, ***Germanus of Constantinople***, p.44.

١٨٦) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ٨٥.

وبخاصّةٍ في صلاة الشّكر الّتي تُقال قبل التّسبيح الملائكيّ، "صورةٌ لصلاحك، وختمٌ يمثّلك أكمل تمثيل، ويُظهرك في ذاته". إنّها، إذًا، صلاةٌ من أجل الكنيسة لكي تبقى محفوظةً في ملء نعمة الله والحياة[187].

تُختَم صلاة الطّلبة السّلاميّة الكبرى بمجدلةٍ موجَّهَةٍ إلى الثّالوث القدّوس:

لأنّه لكَ ينبغي كلّ مجدٍ وإكرامٍ وسجود، أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

وهنا يَظهر جوهر الصّلاة اللّيتورجيّة الّتي تبدأ وتنتهي بتمجيد الثّالوث القدّوس.

٢. صلاة الأنديفونا الثّانية

أيّها الرّبّ إلهنا. خلّص شعبك وبارك ميراثك. إحفظ كمال كنيستك بسلام. قدّس المحبّين بهاء بيتك. أنت عوّضهم مجدًا بقدرتك الإلهيّة. ولا تُهملنا نحن المتوكّلين عليك. لأنّ لك العزّة. ولكَ المُلك والقدرة والمجد. أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

تدلّ صلاة الأنديفونا الثّانية على انتماء الكنيسة إلى الله. إنّها صلاةٌ تُعبّر بلسان الكاهن باسم الجماعة عن الرّغبة العميقة في تحقيق الخلاص الفرديّ والجماعيّ باعتبار أنّ شعب الله الجديد "المسيحيّين" هو ميراث الله على الأرض، ونيل البركة الإلهيّة من لدن الآب السّماويّ ("تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح. فقد باركنا كلّ بركةٍ روحيّةٍ في السّماوات في المسيح"، أفسس ١: ٣)، وفي الوقت نفسه، طلب تقديس كلّ الّذين عندهم الغَيرة على كنيسة المسيح (يقول صاحب المزامير: "إنّ غَيرة بيتك أكَلَتني"، مزمور ٦٨: ١٠؛ راجع أيضًا مزمور١١٨: ١٣٩)، وهُمُ الّذين يسخَون بما مَنّ الله عليهم من أجل أن يبقى بيت الله جميلاً وبهيًّا. من هنا يتّضح أنّ الغَيرة على بيت الله تأتي من التّقوى ومخافة الرّبّ والسّعي لإكرامه (راجع تيطس ٢: ١٤).

---

١٨٧) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.173.

٣. صلاة الأنديفونا الثالثة

يا مَن أنعم علينا بأن نُقيم هذه الصّلوات المشتركة المتّفقة. ووعد بأنّه متى اتّفق اثنان أو ثلاثة باسمه. يمنحهم ما يسألون. أنتَ الآن تمّم لعبيدك سؤلهم بحسب ما يوافقهم. واهبًا لنا في الدّهر الحاضر معرفة حقّك، ومُنعِمًا علينا في الآتي بالحياة الأبديّة. لأنّك إلهٌ صالحٌ ومحبٌّ للبشر. وإليك نرفع المجد. أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

إنّ هذه الصّلاة هي صلاةٌ من أجل الكنيسة الّتي تجتمع لإقامة صلاةٍ مشتركةٍ وموحَّدة. يستذكر الكاهن وعد المسيح في الإنجيل المقدّس: "إذا اتّفق اثنان منكم في الأرض على طلب أيّ حاجةٍ كانت، حَصلا عليها من أبي الّذي في السّموات، فحيثما اجتمع اثنان أو ثلاثةٌ باسمي، كنتُ هناك بينهم" (متّى ١٨: ١٩-٢٠). تتمركز صلاة الكاهن هذه حول طلبتين أساسيّتين تكمن الأولى في أنّ الله يمنح الكاهن والمؤمنين معرفة الحقّ، والثّانية يُغدِق عليهم نعمة التّأمّل فيه في السّماوات وجهًا لوجه من خلال **الرّؤية الطّوباويّة**. هذا ما تُعبِّر عنه بوضوح صلاة الشّكر الأولى بعد التّناول الإلهيّ: "وهكذا. متى انتقلتُ من هذا العالم. على رجاء الحياة الأبديّة. أصيرُ إلى الرّاحة الدّائمة. حيث لا ينقطع ترنيم المعيِّدين. ولا تزولُ لذّةُ المشاهدين جمال وجهك المُعجز البيان. فإنّك أنتَ حقًّا أُمنيّة مُحبّيك وسرورهم الّذي لا يوصف...".

تُشدِّد هذه الصّلاة أيضًا على أنّ معرفة الحقّ أُعطِيَت في هذا الدّهر إلى البشريّة الجديدة المتّحدة بالله، وأنّ الحقّ هو مصدر الحياة الأبديّة. بالإضافة إلى أنّ هذه الصّلاة تكشف لنا أنّ **اللّيتورجيّا الإفخارستيّة هي سرّ الجماعة**[١٨٨]. فعندما أقول أنّني ذاهبٌ إلى الكنيسة، فهذا يعني أنّني ذاهبٌ إلى جماعة المؤمنين **لأؤلّف معهم الكنيسة**، الّتي ليست مجموعًا تراكميًّا للخطأة ولغير المستحقّين الّذين يؤلّفونها، بل إنّها جسد المسيح: "أمّا أنتم [الجماعة المسيحيّة] فإنّكم ذريّةٌ مختارة وجماعةُ الملك الكهنوتيّة وأمّةٌ مقدّسةٌ وشعبٌ اقتناه الله للإشادة بآيات الّذي دعاكم من الظّلمات إلى نوره العجيب" (١ بطرس ٢: ٩).

---

١٨٨) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ٣٤.

- **الحياة الأبديّة: حياة الله في الإنسان**

ورد في ختام هذه الصّلاة تعبيرٌ بالغ الأهميّة بالنّسبة إلى رسالة المسيح الخلاصيّة، ولحياتنا المسيحيّة الأرضيّة أيضًا في محجّتها نحو الحياة السّماويّة، حياة الاتّحاد بالله: إنّه "الحياة الأبديّة". ما هي الحياة الأبديّة؟ نرى من خلال مطالعتنا للكتاب المقدّس أنّ الحياة الأبديّة هي أساس علاقة الله الخالق بالإنسان المخلوق، ذلك أنّنا نؤمن بأنّ الله هو إله الأحياء وليس إلهَ الأموات (مرقس ١٢: ٢٧)، وأنّه منح الإنسان نعمة القداسة الأصليّة، وهي الاشتراك في الحياة الإلهيّة[١٨٩]. إلاّ أنّ الخطيئة جعلت من الإنسان كائنًا خاضعًا للموت (راجع رومة ٥: ١٢)، وبالتّالي، كان لا بدّ من آدم جديدٍ يُعيد الحياة الإلهيّة المفقودة لآدم القديم (راجع ١ كورنثس ١٥: ٢٠-٢٢؛ ٤٤-٤٩). وقد أعلن يسوع، مرارًا وتكرارًا، في الإنجيل المقدّس، أنّ الهدف من وراء رسالته الخلاصيّة هي أن يجلب النّاس إلى اختبارٍ حاضرٍ لحياة المستقبل: "وأمّا أنا فإنّما أتيتُ لتكون للخراف الحياة، وتكون لها وافرة" (يوحنّا ١٠: ١٠). لقد نزل من السّماء ليُعطيَ حياةً للعالم (يوحنّا ٦: ٣٣)، ولإشباع جوع العالم الرّوحيّ وعطشه (يوحنّا ٦: ٣٥)[١٩٠].

أمّا الإنجيليّ يوحنّا، فقد ربط الحصول على الحياة الأبديّة بالإيمان بشخص يسوع وبكلامه الإلهيّ المُحيي (٣: ٣٦؛ ٦: ٦٣؛ ١٢: ٢٥)، ذلك أنّ كلامه يأتي من الآب الّذي أعطاه وصيّة ماذا يقول، ووصيّة الآب هي حياةٌ أبديّة (١٢: ٤٩-٥٠)؛ إنّها مُقيمةٌ في شخصه، أي من صُلب كيانه (٥: ٢٦)؛ ثمّ يُعلن الإنجيليّ يوحنّا هدف إنجيله الأساس: أنّ الآيات "إنّما دُوِّنَت لتؤمنوا بأنّ يسوع هو المسيح، ابنُ الله، فتكون لكم، إذا آمنتم، الحياة باسمه" (٢٠: ٣١)؛ وبالشّرب من الماء الحيّ (٤: ١٤)، ومن الدّم المُحيي (٦: ٥٤)؛ وأيضًا بالطّعام الّذي يُعطيه المسيح (٦: ٢٧)؛ وبالأكل من جسده المقدّس الطّاهر (٦: ٥١، ٥٣-٥٤، ٥٨). إنّ هذه الأمثلة الإنجيليّة اليوحنّاويّة تَشدُّ أنظارنا واهتمامنا إلى إعلان يسوع عن نفسه: "أنا هو الحياة" (يوحنّا ١١: ٢٥؛ ١٤: ٦).

---

١٨٩) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٣٧٥، ص. ١٢٩.

١٩٠) George Eldon Ladd, ***A theology of the New Testament***, p.293.

فالبُعد المستقبليّ للحياة الأبديّة يشمل قيامة الأجساد، إذ إنّ يسوع هو "القيامة والحياة" (راجع يوحنّا ٦: ٤٠، ٥٤). وهكذا، فإنّ هذه الحياة لا تتميّز بكونها حياةً وقتيّةً وزمنيّةً، دُنيويّة وزائلة، بل إنّها حياةٌ أبديّةٌ وإلهيّةٌ لا تُحدّ لا بزمانٍ ولا بمكان؛ إنّها حياة الشّركة والمحبّة مع الله الثّالوث القدّوس؛ إنّها حالة السّعادة الفائقة والنّهائيّة: "إنّ ما لم تَرَه عين، ولا سمعت به أذُن، ولا خَطَر على قلب بشر، ما أعدّه الله للّذين يُحبّونه" (١ كورنثس ٢: ٩). وهكذا نُدرك أنّ الحياة الأبديّة هي حياة ملكوت الله (راجع مرقس ١٠: ٢٣) الّتي ستُورَث في الدّهر الآتي (مرقس ١٠: ٣٠؛ راجع أيضًا متّى ٢٥: ٤٦)؛ **إنّها تعني أن يعيش الإنسان في الله الأبديّ أو في أبديّة الله ليوم**[١٩١]. وهذا بالتّالي يعني أنّ **هذه الحياة لا تنتهي، طالما أنّ الرّبّ القائم حيٌّ في الإنسان** (راجع يوحنّا ١١: ٢٥-٢٦).

٤) الأنديفونات[١٩٢] الثّلاثة

سنُلاحظ خلال دراستنا للأنديفونات أنّها تتألّف من قسمين أساسيَّين: الأوّل، يتكوّن من مزمور الأنديفونا؛ والثّاني، يتألّف من لازمة الأنديفونا.

١. الأنديفونا الأولى

أ. مزمور الأنديفونا

إنّ مزمور الأنديفونا الأولى هو المزمور الحادي والتّسعون. يُشير هذا المزمور إلى أنّ الرّبّ يستحقّ عبادتنا المتواصلة والثّابتة. أمّا الكافرون الّذين يُطلق عليهم صاحب المزامير تسميّة "أعداء الله"، وهم أولئك الّذين لا يريدون معرفة الله، فلسوف يُعاقَبون من قِبَله. من هنا نُدرك أنّ هدف ترنيم الجماعة لهذا المزمور هو حمد الله وإجلاله وتمجيده، وبالتّالي، هو مَن سيجعل الجماعة المُصلّيّة تعلو وترتفع "مثل أرز لبنان" (٩١: ١٣)، وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ للحياة السّماويّة الّتي يحيا فيها أبناء الله. فلا زمن يُحدّد تمجيد الله، إنّه تمجيدٌ في الصّباح كما في المساء، في كلّ لحظة وكلّ ظرف. إنّ الدّافع الكامن وراء تكريم الله

---

(١٩١) Ibid, p.294.

(١٩٢) الأنديفونة كلمةٌ يونانيّةٌ مركّبةٌ من "أندي" و "فوني" وتعني الردّة أو اللّازمة وهي في الاستعمال اللّيتورجيّ لازمةٌ قصيرةٌ من المزامير أو نشيد قديم. في القديم كان يُتلى المزمور كاملاً. أمّا اليوم فيُكتفى بآيتين أو ثلاث منه.

وتمجيده هو رحمته وعدله. إنّ هدف حياتنا هو أن نخدمه، لأنّه إلهنا وخالقنا. له وحده يليق التّرنيم والتّهليل "صباحًا ومساءً"، إذ إنّ حياتنا ينبغي أن تكون نشيدًا تسبيحيًّا للرّبّ الإله. يُشير هذا المزمور، إذًا، إلى صلاةٍ شخصيّةٍ مُفعمَةٍ بالثّقة والشّكر.

ب. اللّازمة: "بشفاعة والدة الإله يا مخلّص خلصنا"

في هذه التّرنيمة تعليمٌ عقائديٌّ عن شفاعة والدة الإله، نطلب شفاعة والدة الإله العذراء مريم لكي يخلّصنا يسوع (طلبة الأم لها قوّة عظيمة على استعطاف السَّيِّد) مع التّأكيد على أنّ الخلاص يأتي من المسيح الإله، أمّا مريم العذراء والقدّيسون فهم يتشفَّعون بنا أمام السَّيِّد، القدّيسون ليسوا وسطاء بالمعنى الحرفيّ للكلمة: "لأنّ اللّه واحد، والوسيط بين اللّه والنّاس واحد، الإنسان، المسيح يسوع" (١ تيموثاوس ٢: ٥). المسيح هو الوسيط الوحيد ولكنّ القدّيسين مَجارِحيَّة، بها تتدفّق نعمة الفادي الوحيد.

إنّ شفاعة القدّيسين تستمدّ حقيقتها من الشّركة الّتي تجمع المؤمنين - أعضاء جسد المسيح - فكما أنّ الأعضاء تخدم بعضها البعض في وَحدة الجسد (١ كورنثس ١٢)، هكذا المؤمنون بالصّلاة، كما كتب الرّسول يعقوب في رسالته: "... لأنّ صلاة البارّ الحارّة لها قوّةٌ عظيمة" (يعقوب ٥: ١٦). العذراء مريم صارت أمّنا لأنّها ولدت المسيح الّذي ارتضى أن يصير بجسده أخًا لكلّ واحدٍ منّا، ولأنها أمُّنا تنظر إلى حاجتنا وترفعها إلى السَّيِّد، لذلك تدعى بحقٍّ الشّفيعة الحارّة وملجأ العالم. تطرح هذه الأنديفونا موضوعًا بالغ الحساسيّة للجماعات البروتستانتيّة الّتي لا تؤمن بمفهوم الشّفاعة للعذراء مريم وللقدّيسين.

للجواب عن هذا التّساؤل نقول إنّ لاهوت الكنيسة ميّز بين نوعَين مختلفَين من الشّفاعة هما:

- الشّفاعة الكفّاريّة

تنطلق هذه الشّفاعة من الآيات الكتابيّة التّالية ذكرها، وترتكز في مضمونها اللّاهوتيّ على ذبيحة المسيح على الصّليب كفّارةً عن خطايانا:

- "فلذلك أجعل له نصيبًا بين العظماء، وغنيمةً مع الأعزّاء، لأنّه أسلم نفسه للموت، وأحصِيَ مع العُصاة، وهو حمل خطايا الكثيرين، **وشَفَعَ** في معاصيهم" (النّشيد الرّابع لعبد يهوه المتألّم، أشعيا ٥٣: ١٢)؛
- "ومَن الّذي يُدين؟ المسيح يسوع الّذي مات، بل قام، وهو الّذي عن يمين اللّه والّذي **يشفع** لنا" (رومة ٨: ٣٤؛ راجع أيضًا رومة ٣: ٢٥؛ ٤: ٢٤-٢٥)؛
- "لأنّ اللّه واحد، **والوسيط** بين اللّه والإنسان واحد، وهو إنسان، أي المسيح يسوع" (١ تيموثاوس ٢: ٥)؛
- "فهو لذلك قادرٌ على أن يُخلِّص الّذين يتقرّبون به إلى اللّه خلاصًا تامًّا لأنّه حيٌّ دائمًا أبدًا **ليشفع** لهم" (العبرانيّين ٧: ٢٥)؛
- "فهناك شفيعٌ لنا عند الآب، وهو يسوع المسيح البارّ" (١ يوحنّا ٢: ١).

- **الشّفاعة التّوسُّليّة**

وهي خاصّة بالملائكة والقدّيسين الّذين يشفعون فينا ويُصلُّون إلى اللّه من أجلنا. كما وتدخل شفاعة العذراء الطّاهرة في هذا الإطار (راجع يوحنّا ٢: ٣-٥). ففي العهد القديم أمثلةٌ كثيرة تخصّ هذه الشّفاعة التّوسُّليّة، نذكر منها:

- شفاعة إبراهيم من أجل سدوم وعمورة (تكوين ١٨: ١٦-٣٣)؛
- صلاة ابراهيم إلى اللّه من أجل أبيملك (تكوين ٢٠: ١٧-١٨)؛
- تَشَفُّع موسى إلى الرّبّ الإله أن يَعدُلَ عن غضبه بشأن عبادة بني إسرائيل لعجل الذهب الّذي صنعوه واتّخذوه إلههم وبنَوا مذبحًا أمامه وأصعدوا محرقاتٍ وقرّبوا ذبائح سلاميّة (خروج ٣٢: ١١-١٤)؛
- صلاة أيّوب من أجل أصدقائه الثّلاثة أليفاز التّمانيّ، وبلدَدُ الشُّوحيّ، وصُوفَر النَّعماتيّ (أيّوب ٤٢: ٧-١٠).

نستشفّ من هذه الأمثلة المذكورة من كتب العهد القديم أنّ الشّفاعة التّوسُّليّة الّتي قام بها مختارو اللّه وأنبياؤه تعني الإلحاح والالتماس والتّضرُّع والتّوسُّل والتّوسُّط، وقد استجاب الرّبّ الإله لندائهم والتماسهم وتضرُّعهم. ننتقل الآن إلى كتب العهد الجديد لنرى كُنه هذه الشّفاعة:

- "فأخرج بطرس النّاس كلّهم، وجثا وصلّى ثمّ التفت إلى الجثمان وقال: طابيثة، قومي! ففتحت عينَيها، فأبصرت بطرس، فجلست" (أعمال ٩: ٤٠)؛
- "أقيموا كلَّ حينٍ أنواعَ الصّلاة والدُّعاء في الرّوح، ولذلك تنبّهوا وأحيُوا اللّيل مواظبين على الدُّعاء لجميع القدّيسين" (أفسس ٦: ١٨)؛
- "فأسأل قبل كلّ شيءٍ أن يُقام الدُّعاء والصّلاة والابتهال والشُّكر من أجل جميع النّاس" (١ تيموثاوس ٢: ١)؛
- "إنّ صلاة الإيمان تُخلّص المريض، والرّبّ يُعافيه" (يعقوب ٥: ١٥)؛
- "كان إيليّا بشرًا مثلنا فصلّى طالبًا بإلحاحٍ ألاّ ينزل المطر، فلم ينزل على الأرض ثلاث سنواتٍ وستّة أشهر. ثمّ عاد إلى الصّلاة فمطَرَتِ السّماء وأخرجتِ الأرض غلّتها" (يعقوب ٥: ١٧-١٨)؛
- "ولمّا أخذ الكتاب، جثا الأحياء الأربعةُ والشّيوخ الأربعةُ والعشرون أمام الحمل، وكان مع كلّ واحدٍ منهم كِنّارةٌ وأكوابٌ من ذهبٍ مُلِئَت عطورًا هي صلوات القدّيسين" (رؤيا ٥: ٨)؛
- "وجاء ملاكٌ آخر، فقام على المذبح ومعه مجمرةٌ من ذهب، فأعطِيَ عُطورًا كثيرةً ليُقرّبها مع صلوات جميع القدّيسين على المذبح الذهب الّذي أمام العرش. وتصاعد من يد الملاك دُخان العطور مع صلوات القدّيسين أمام اللّه" (رؤيا ٨: ٣-٤).

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة الّتي تُحدّد مفهوم الشّفاعة التّوسُّليّة على أنّها صلاةٌ ودُعاءٌ إلى اللّه من أجل القدّيسين، أي الجماعة المسيحيّة المؤمنة. من هنا نقول إنّ شفاعة العذراء هي شفاعةٌ توسُّليّةٌ بمعنى أنّها تُصلّي إلى اللّه من أجل المسيحيّين ليثبتوا في دعوتهم المقدّسة بالصّلاة والتّوبة والشّهادة الحيّة والأعمال الصّالحة وكم نادت العذراء الطّاهرة بوَحدة الكنيسة والمسيحيّين.

٢. الأنديفونا الثّانية

أ. مزمور الأنديفونا

إنّ مزمور الأنديفونا الثّانية هو المزمور الثّاني والتّسعون. يُعظِّم هذا المزمور الله على أنّه ملك الكون القادر على كلّ شيء والمُدافع القويّ عن الشّعب المختار. إنّ كلمات هذا المزمور تُعبّر عن سيادة الله على جميع المخلوقات، إذ إنّه خالق الكون، ويحمل كلّ شيءٍ بيدَيه، وهو الأمين والصّادق لوعود عهده. ينبغي للمؤمنين أن يُسبِّحوا الرّبّ، بشكلٍ وطيدٍ ودائم، في كنائسه ("بيوته") "طوال الأيّام". يُشير بيت الرّبّ هنا إلى هيكل أورشليم، حيث كان يُعبَد الله من قِبَل اليهود.

ب. اللّازمة: "يا ربّ، بشفاعة قدّيسيك خلّصنا"

إنّ وجود القدّيسين في الكنيسة يُعبِّر عن قوّة الشّهادة الحيّة الّتي قدّمها أولئك من أجل المسيح وهم مَن استشهدوا في سبيل الدّفاع عن العقيدة المسيحيّة الصّحيحة في وجه الأباطرة الرومان والهراطقة الّذين حاولوا إدخال مفاهيم لاهوتيّةٍ خاطئةٍ إلى العقيدة الصّحيحة. لقد جاهد أولئك القدّيسون في الإيمان الجهاد الحسن وحفظوا وديعة الإيمان وتكلّلوا بإكليل المجد الإلهيّ وفازوا بالحياة الأبديّة (راجع ١ تيموثاوس ٦: ١٢). لقد تميّز قدّيسو الكنيسة بغزارة كتاباتهم اللّاهوتيّة، والرّوحيّة، والعقائديّة، والكتابيّة، وبغَيرتهم الوُقّادة على خلاص النّفوس وبناء الكنيسة بشقّيها البشريّ والحجريّ. إنّهم أمثلةٌ حيّةٌ لأناس اعتياديّين تحوّلت حياتهم بفضل نعمة المسيح إلى تجلٍّ ثالوثيٍّ، فوَسَمَ نور المسيح حياتهم وقلبهم وطريقهم، فساروا وهم يردِّدون كلمات صاحب المزامير: "ما أحبّ مساكنك يا ربّ الأكوان، تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الرّبّ، ويهتزّ قلبي وجسمي للإله الحيّ" (مزمور ٨٣: ٢-٣).

إنّ ذِكر القدّيسين ليتورجيًا لا يعني التّذكُّر النّفسانيّ، بل الدّخول سريًّا في شركةٍ معهم: مع فضائلهم وقوّة حياتهم والرّوح القدس الّذي فيهم. لأنّ المعنى الأخير للقداسة في سائر أشكالها إنّما هو إعلان الله: ظهور الرّبّ وتمجيده تمجيدًا كليًا: "عجيبٌ الله في قدّيسيه". إنّ القدّيس أعطى ذاته كلّيًّا للمسيح

ليحلّ فيه وينيره. فذِكرنا للقدّيسين إنّما هو إنماءٌ وتعميقٌ لشركتنا بالمسيح نفسه، وفي الوقت ذاته، هو ربطنا بنظام الخليقة الجديد الّذي هو القداسة.

لقد قال القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ إنّ "قدّيسي الله" ملكوا على وضبطوا أهواءهم وحفظوا المثال لصورة الله سالمًا حسب الصّورة الّتي خُلِقوا عليها، إنّهم اتّحدوا، بإرادتهم الحرّة، بالله وقبلوه في مسكن قلبهم؛ وبما أنّهم قبلوه في الشَّركة، بالنّعمة، أصبحوا بذات طبيعتهم مشاركين له. "فيهم يرتاح الله". فأصبحوا "كنوزًا ومساكن طاهرة لله". وفي هذا قد تمّ السّرّ. لأنّه كما قال الآباء القدماء: "لقد صار إبن الله إنسانًا حتّى يؤلّه البشر، حتّى يصير أبناء البشر أبناء الله". وقد تمّ هذا الملئ من النّموّ و"التّشبُّه" للمسيح في الأبرار الّذين بلغوا إلى الحبّ: "لقد امتلأ القدّيسون في حياتهم الزّمنيّة من الرّوح القدس"، يتابع القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ، "وعندما ماتوا كانت نعمة الرّوح القدس ما تزال حاضرةً مع أرواحهم وفي أجسادهم في القبور وفي صورهم وفي إيقوناتهم المقدّسة، ليس بسبب طبيعتهم، وإنّما بسبب النّعمة وعملها... إنّ القدّيسين هم أحياءٌ وبجرأةٍ يَمْثُلون أمام الله، إنّهم ليسوا أمواتًا... إنّ موت القدّيسين هو شبيهٌ برقاد النّوم أكثر منه بالموت"، لأنّهم "يُقيمون في يد الله" أي في الحياة والنّور... وبعد أن حُسِبَ بين الأموات ذلك الّذي هو الحياة نفسها والّذي هو ينبوع الحياة، لم نَعُدْ نعتبر الّذين رقدوا على رجاء القيامة والإيمان فيه كأموات".

إنّ الرّوح القدس يُعلِّم كلّ مؤمنٍ أن يصلّي إلى القدّيسين المجيدين ليس فقط من أجل الحصول على المعونة والشّفاعة فحسب، ولكن أيضًا لأنّ استدعاءهم هذا بواسطة الشَّركة في الصّلاة يُعمّق الوعي للوَحدة الجامعة الّتي للكنيسة، الأرضيّة والسّماويّة. ففي تضرّعنا إلى القدّيسين، يظهر معيارنا للحبّ المسيحيّ كما يتجسّد شعورٌ حيٌّ بالوفاق التّامّ وبقوّة وَحدة الكنيسة.

٣. الأنديفونا الثّالثة

أ. مزمور الأنديفونا

إنّ مزمور الأنديفونا الثّالثة هو المزمور الرّابع والتّسعون. إنّه فعل تكريمٍ لله، ودعوةٌ لإظهار توقيرنا وخضوعنا له. إنّ كاتب المزامير يُشجّع شعبه ليكونوا مُخلِصين وأوفياء للرّبّ الأقوى من جميع الآلهة والأصنام. إنّه خالق كلّ شيء، وهو الرّاعي لجميع الشّعوب، وبالتّالي، فيجب على الجميع أن يسمعوا صوته هو، وليس إلى صوت الرّعاة الغُرباء.

ب. اللّازمة: "خلّصنا يا ابن الله يا من هو عجيبٌ في قدّيسيه"

في الآحاد: "...................... يا مَن قام من بين الأموات"

ترتيلةٌ عقائديّةٌ نعلن فيها أنّ يسوع المسيح هو ابن الله، وأنّ الخلاص يحقّقه فقط لنا ابن الله القائم من بين الأموات، لأنّ الّذي سوف يأتي ويدين العالم هو المسيح ابن الله قاهر الشيطان بموته وقيامته. ويُشير نشيد الأنديفونا الخاصّ بأيّام الآحاد إلى قيامة المسيح، ذلك أنّ الكنيسة المقدّسة تُكرّس يوم الأحد ليكون ذكرى القيامة.

كان العهد القديم يقدّس يوم السّبت ويخصّصه للرّبّ "لأنّ الرّبّ في ستة أيّامٍ خلق السّموات والأرض والبحر وجميع ما فيها، وفي اليوم السّابع استراح، ولذلك بارك الرّبّ يوم السّبت وقدّسه" (خروج ٢٠: ١٠-١١). أمّا في العهد الجديد، فنخصّص للرّبّ يوم الأحد لأنّه ذكر قيامة المسيح. **فالخليقة الأولى توقّفت يوم السّبت، أمّا الخليقة الجديدة المخلّصة فقد بدأت يوم الأحد بقيامة المسيح،** الّذي منحنا بقيامته حياةً جديدة.

إنّ خروج الشّعب المختار من عبوديّة مصر كان رؤيةً مُسبقةً لقيامة المسيح وانتصاره وشعبه المختار الجديد على قوى الظّلام وعبوديّة الموت والشّيطان: إنّه انتصارٌ للنّفوس المُخلّصة بموت وقيامة يسوع المسيح. فنحن، المخلّصون، نُرنّم الحمد للعناية الإلهيّة ولقدرة الله الكلّيّة الّتي ظهرت في قيامة ابنه، وفي الوقت عينه، ستظهر في قيامتنا نحن أيضًا. لذا، فإنّ نشيد القيامة الظّافرة هذا ما هو إلاّ **إعلانٌ إيمانيٌّ ودليلٌ قاطعٌ على ألوهيّة المسيح، من جهة، وهو التماسٌ من**

أجل الخلاص[١٩٣]. فقيامة المسيح، إذًا، هي الحصاد الوافر الَّذي تعتمد عليه حياتنا الأبديّة، لأنّ قيامة الرّبّ هي الضّمانة لقيامتنا نحن ولحياتنا الأبديّة. هذا ما حدا بالقدّيس بولس أن يُعلِن قائلاً: "وإن كان المسيح لم يَقُم، فتبشيرنا باطلٌ وإيمانكم أيضًا باطِل" (١ كورنثس ١٥: ١٤).

- **بُنُوّة يسوع المسيح الإلهيّة: "إبن الله"**

يرتكز هذا النّشيد على لقب "ابن الله" الَّذي يُعتبر من الألقاب الهامّة جدًّا ليسوع في الإنجيل المقدّس. لذلك، فإنّي أرى أنّه من الضّروريّ إطلاع القارئ عن بعض المعلومات الإنجيليّة الأساسيّة الخاصّة بهذا اللّقب. إنّه اللّقب الكريستولوجيّ (المسيحانيّ) الأهمّ في عمليّة الكشف الذّاتيّ ليسوع. إنّ هذا التّعبير يُشير، في تاريخ الفكر اللّاهوتيّ، إلى أساس ألوهيّة يسوع المسيح. إنّه ابن الله، الله الابن، الأقنوم الثّاني من الثّالوث الإلهيّ. يُميِّز اللّاهوتيّون الكتابيّون أربع طُرُقٍ مختلفةٍ لاستعمال تعبير "ابن الله"، وتأتي على الشّكل التّالي:

- **المعنى الأوّل: أبوّة الله**

يُمكن أن تُسمَّى خلائق الله أولاد الله بمعنى الولادة، إذ إنّها تَدين بوجودها إلى العمل الخَلقيّ المباشر لله. فلقد دُعِيَ آدم "ابن الله" بالمعنى التّقريبيّ نفسه الَّذي فيه دُعِيَ شيت ابن آدم (راجع لوقا ٣: ٣٧). وهذا يجعلنا نتذكّر نصّ سفر الخروج حيث يتكلّم الله عن إسرائيل كابنه البكر: "إسرائيل ابنيَ البكر" (٤: ٢٢؛ راجع أيضًا ملاخي ٢: ١٠). فمن المحتمل، إذًا، في هذا المعنى، أن يُدعى يسوع ابن الله بحسب الإنجيليّ لوقا ١: ٣٥، لأنّ مولده ناشئٌ عن فعلٍ خَلقيٍّ مباشرٍ من الرّوح القدس في جسد مريم. هنا يظهر **لاهوت أبوُّة الله الشّاملة**، الَّتي تجعل من جميع النّاس المخلوقين من إلهٍ واحد، أُخوةً وأخوات.

- **المعنى الثّاني: بُنوّة الإنسان**

إنّ تعبير "ابن الله" قد يُستَعمل لتعزيز علاقة الإنسان بالله باعتباره موضوعًا مميّزًا لإظهار محبّته ورعايته. فإسرائيل، وبحسب النّصّ السّابق للخروج، ليس أُمّةً

---

١٩٣) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.373.

أُخرجت إلى حيّز الوجود بقوّةٍ اللّه فحسب، بل إنّها الابن البكر للّه، الموضوع الخاصّ لمحبّته الأبويّة. إسرائيل هي شعب اللّه المختار. لقد وُصِفَتِ العلاقة بين اللّه وإسرائيل، مرارًا وتكرارًا طوال العهد القديم، بتعابيرَ تدلّ على البنوّة الإلهيّة لإسرائيل. وفي العهد الجديد، دُعِيَ المسيحيّون أبناء اللّه عن طريق التّبنّي الإلهيّ لهم من خلال الابن (راجع يوحنّا ١: ١٢-١٣؛ ٣: ٣؛ رومة ٨: ١٤، ١٩؛ غلاطية ٣: ٢٦؛ ٤: ٥).

- **المعنى الثّالث: مسيحانيّ**

يُلقَّب الملك الدّاودي (نسبة إلى الملك داود) "بابن اللّه"، وذلك بحسب ما ورد في سفر صموئيل الثّاني: "أنا [اللّه] أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا" (٧: ١٤). يَجِدُ هذا البُعد جذوره أيضًا في الوعد الإلهيّ للملك داود أنْ من نسله سيأتي من يخلفه على عرش مملكة إسرائيل، وهذا الملك المسيحانيّ سيكون ابن اللّه: "قال لي: أنت ابني، وأنا اليوم وَلَدتُك" (مزمور ٢: ٧)، وأيضًا: "يدعوني قائلاً: أنتَ أبي، وإلهي وصخرةُ خلاصي... أجعل نسله إلى الأبد، وعرشه مثل أيّام السّماء" (مزمور ٨٨: ٢٧، ٣٠).

- **المعنى الرّابع والأخير: لاهوتيّ**

لقد حاز تعبير "ابن اللّه" على أهميّةٍ كُبرى في وحي العهد الجديد، وبعد ذلك في اللّاهوت المسيحيّ، وذلك لأنّ يسوع هو اللّه الابن ويشترك في الطّبيعة الإلهيّة. إنّ هدف الإنجيل اليوحنّاويّ يكمن في إظهار حقيقة أنّ يسوع هو "المسيح"، وهو، في الوقت عينه، "ابن اللّه". إنّ ما يُريد الإنجيليّ يوحنّا إبرازه بوضوح في مقدّمة إنجيله، أنّ يسوع هو ابن اللّه والكلمة، وهو يتمتّع بحضورٍ شخصيٍّ أبديّ، وأنّه هو نفسه اللّه الّذي تجسّد بهدف كشف اللّه للبشر. وهذا ما عناه القدّيس بولس الرّسول حين قال إنّ اللّه أرسل ابنه الوحيد في شبه جسد الخطيئة ليُحقّق للإنسانيّة ما لم تستطع الشّريعة تحقيقه من قبل، الخلاص (رومة ٨: ٣؛ غلاطية ٤: ٤).

٥) أنديفونات التّيبيكا

وفي وقتٍ لاحقٍ ضِيفت أنديفونات التّيبيكا، وهي عبارة عن مزامير يُمكن ترنيمها في الآحاد والأعياد الكبرى بدلاً من الأنديفونات المألوفة المذكورة سابقًا. فبدلاً من الأنديفونا الأولى، يُمكننا التّرنيم بزمور التّيبيكا الأوّل: "باركي يا نفسيَ الرّبّ. مباركٌ أنت يا ربّ..." (١٠٢)؛ ومزمور التّيبيكا الثّاني: "سبّحي يا نفسيَ الرّبّ..." (١٤٥) بدلاً من الأنديفونا الثّانية؛ والتّطويبات (متّى ٥: ٣-١٦؛ لوقا ٢٣: ٤٢) بدلاً من الأنديفونا الثّالثة[١٩٤].

- **خلاصة رتبة الأنديفونات**

من تحليلنا لمضمون الأنديفونات ولاهوتها، نستطيع أن نختم أنّه وبالرّغم من أنّها تتألّف من مزامير عدّة، إلاّ أنّ ما يجمعها هو موضوعٌ مشترك يكمن في **تمجيد الجماعة المُصلّية للكمال الإلهي: قوّته، عَظَمَته، جماله، صلاحه، رحمته وعِنايته**. إنّنا نلاحظ أنّ كاتب المزامير يُعيد في كلّ أنديفونا الفكرة عينها: **تسبيح الرّبّ والتّهليل له، تقديم واجب الإجلال والتّكريم والوَفاء له، لأنّه ملكُنا وإلهُنا**. بتعابير أخرى، إنّ كلّ الأنديفونات هي تعبيرٌ عن العبادة الإلهيّة.

لاحظنا أيضًا أنّ الأنديفونات لا تخلو من الرّمزيّة اللّيتورجيّة، فهي تستعرض كلّ نبوءات العهد القديم المتعلّقة بمجيء المسيح إلى العالم، لأنّه مُكمِل هذه النّبوءات في شخصه: "لا تظنُّوا أنّي جئتُ لأبطِلَ الشّريعة أو الأنبياء: ما جئتُ لأبطِل، بل لأكمِل" (متّى ٥: ١٧).

---

١٩٤) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة***، ص.٦٣-٦٧.

٦) نشيد الكلمة المتجسّد

يا كلمة الله الابن الوحيد. الّذي لا يموت. لقد رضيت من أجل خلاصنا. أن تتجسّد من والدة الإله القدّيسة. مريمَ الدّائمة البتوليّة. فتأنّست بغير استحالة. وصُلِبت أيّها المسيح الإله. وبالموت وطِئت الموت. أنت أحدُ الثّالوث القدّوس. الممجّد مع الآب والرّوح القدس. خلّصنا

١. كاتب النّشيد

يعود تأليف هذا النّشيد إلى أوائل القرن السّادس حوالي العام ٥٢٦م. وقد قام بتأليفه الإمبراطور يوستنيانوس الأوّل (سنوات جلوسه على العرش الإمبراطوريّ امتدّت من عام ٥٢٧ حتّى عام ٥٦٥) بمناسبة حلول البطريرك ساويرس الأنطاكيّ ضيفًا عليه[١٩٥].

٢. الظّروف المُحيطة بتأليفه

فمن القسطنطينيّة، انتشر هذا النّشيد في الكنائس الأخرى في الشّرق. إلاّ أنّ الحرب الّتي أعلنها الإمبراطور يوستنيانوس على أتباع الكنائس اللّاخلقيدونيّة، منعت الكنائس المونوفيزيّة الّتي رفضت مقرّرات مجمع خلقيدونية (٤٥١م) الّتي تؤكّد أنّ في المسيح طبيعتَين متميّزتين إلهيّة وبشريّة، بينما تُشير المونوفيزيّة إلى أنّ في المسيح طبيعةً واحدةً فقط هي الطّبيعة الإلهيّة، وأنّ الطّبيعة البشريّة امتزجت بالطّبيعة الإلهيّة. فالكنائس اليونانيّة الملكيّة في أنطاكيا والإسكندريّة وَجدَته مُستَحسَنًا بسبب مضمونه العقائديّ الّذي تؤمن به، ولأنّ يوستنيانوس هو مؤلّفه. وقد رفضته أيضًا الكنائس النّسطوريّة لأنّه مخالِفٌ لعقيدتها الخارجة عن العقيدة الصّحيحة، خصوصًا في ما يتعلّق بطبيعتَي المسيح، إذ إنّ النّشيد يُشدّد بشكلٍ واضح لا يقبل الشّكّ، أنّ المسيح في جوهره مساوٍ لله الآب والرّوح القدس، كما نُعلن في اللّيتورجيّا الإلهيّة: "بالآب والابن والرّوح القدس، الثّالوث الواحد في الجوهر، وغير المنفصل"، وبوالدة الإله. فقد شدّد نسطوريوس "على التّمييز ما بين الطّبيعة البشريّة في المسيح والطّبيعة الإلهيّة"، وادّعى أنّ "مريم ولدت إنسانًا"،

---

١٩٥) Casimir Kucharek, ***The Byzantine- Slav liturgy***, p.373.

وهذا كان سببًا كافيًا لكي يرفض نسطوريوس دعوة مريم بوالدة الإله (Θεοτόκος)، ويُفضّل بالتّالي "أن تُدعى والدة المسيح الإنسان (Χριστότοκος)"[١٩٦]. ولتفسير تعليمه الخاصّ بالمسيح، ادّعى نسطوريوس أنّ المسيح إنسانٌ كامل، وأنّ لطبيعته البشريّة وجودٌ خاصّ، واستقلاليّةٌ خاصّة، وبالتّالي، شخصيّةٌ خاصّة. وأكمل ادّعاءاته فأعلن أنّ ابن الله سَكَنَ في جسد المسيح كما في هيكل. إنّ هذا الادّعاء هو تأكيدٌ على أنّ نسطوريوس قام بتجزئة شخص المسيح الّذي يظهر للعيان واحدًا، بينما هو في الحقيقة شخصان مختلفان[١٩٧].

٣. مكانته اللّيتورجيّة

لقد تألّف هذا النّشيد ليكون ترنيمة الدّخول، إذ إنّه حتّى القرن السّابع كان القدّاس الإلهيّ يبدأ بدخول (إيصوذون) الإنجيل الشّريف وكان الكاهن يرتدي حلّته الكهنوتيّة في المكان الّذي تحفظ فيه أدوات الكنيسة، من هناك يأخذ الإنجيل ويدخل مع المؤمنين إلى صحن الكنيسة والأسقف يرتدي حلّته أمام المؤمنين ثم يدخل الهيكل.

٤. مضمونه اللّاهوتيّ

سنرى أنّ هذا النّشيد هو نشيدٌ عقائديٌّ-دفاعيٌّ ضدّ البدع والهرطقات الّتي برزت في الكنيسة في القرنين الرّابع والخامس الميلاديّين (وبخاصّةٍ النّسطوريّة والمونوفيزيّة). إنّه ملخَّصَ العقيدة الأرثوذكسيَّة (المستقيمة الرأي) المتعلّقة بطبيعة المسيح، والتّجسّد (التّأنسُن)، والصّليب، والموت، والقيامة، والتّمجيد؛ وتلك المتعلّقة أيضًا باللّاهوت المريميّ كما تؤمن به الكنيسة المقدّسة.

- **الولادات الثّلاث للابن/الكلمة**
- **الولادة الأولى: "يا كلمة الله، الابن الوحيد، الّذي لا يموت"**

هي ولادته من الآب قبل كلّ الدّهور، أعني بها، أزليّة الكلمة. إنّ خروجه من الآب ليس حدثًا زمنيًّا: "فقال لهم يسوع: الحقّ أقول لكم: قبل أن يكون

١٩٦) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص.٦٣١.

١٩٧) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.374.

إبراهيم، **أنا كائن**" (يوحنّا ٨: ٥٨)، إذ إنّ الآب هو المصدر للإبن، وهو يستعلن لذاته منذ الأزل بالولادة الأزليّة للابن المساوي له في الجوهر، ذلك أنّ الابن هو إعلانٌ موجزٌ وواضحٌ لطبيعة الآب: "فلو كنتم تعرفوني لعرفتم أبي أيضًا. منذ الآن تعرفونه وقد رأيتموه... مَن رآني رأى الآب" (يوحنّا ١٤: ٧، ٩). إنّ الابن، إذًا، هو الّذي يجعل طبيعة الآب السّريّة مرئيّةً، وهذا ما حدا بالقدّيس باسيليوس الكبير إلى القول: "إنّ الابن يُظهر في نفسه الآب كلّه متألّقًا بمجده ببهاء"[١٩٨]. إنّ ابن الله، الكلمة الأزليّ (اللّوغس)، لم يسكن في جسد المسيح كما في هيكل: فالمسيح هو كلمة الله، وهو ابن الله، كما صرّح القدّيس يوحنّا الإنجيليّ بوضوح في مقدّمة إنجيله قائلاً: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله" (١: ١). يتضمّن مصطلح "الكلمة" الرّسالة الإنجيليّة بأكملها: فمن خلال "الكلمة" سيكون في الاستطاعة إعلان التّدبير الإلهيّ الخلاصيّ الّذي بواسطته يكشف الله عن خلاصه في الكنيسة وفي العالم.

- **الولادة الثّانية**: "لقد رضيت من أجل خلاصنا. أن تتجسّد من والدة الإله القدّيسة. مريم الدّائمة البتوليّة"

- **حكمة الله تدخل مسيرة التّاريخ كشخص**

إنّها الولادة الّتي تمّت في الزّمن، في ما يدعوه بولس الرّسول "ملء الزّمان" (غلاطية ٤: ٤). وهنا لا يسعنا إلاّ أنّ نتكلّم عن "التّخلّي عن الذّات" (إفراغ الذّات الإلهيّ) الّذي مارسه الابن، والّذي أعلنه بولس الرّسول في رسالته إلى أهل فيلبّي (٢: ٦-١١). إنّه التّخلّي عن مشيئته الخاصّة لإتمام مشيئة الآب مطيعًا إيّاه حتّى الموت، حتّى الصّليب. ولئن "صار الكلمة جسدًا"، إلاّ أنّ هذه الصّيرورة لم تؤثّر إطلاقًا بالطّبيعة الإلهيّة. يقول القدّيس ثيوفيلوس البلغاريّ (القرن الثّاني عشر الميلاديّ): "**إنّ الكلمة صار ما لم يكن، مع بقائه ما كان**"[١٩٩]. وهذا ردٌّ كنسيٌّ واضحٌ على البدع والهرطقات الّتي طالت شخص يسوع المسيح.

---

١٩٨) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص.٧٠.

١٩٩) **المرجع نفسه**، ص.١١٦.

- **التّجسُّد بين ألوهيّة الابن وإنسانيّته**

فالنّشيد الحاليّ يُشدِّد بوضوح على حقيقة أنّ المسيح حين أصبح إنسانًا، كان لا يزال الله الابن، الّذي بتجسُّده، بصيرورته إنسانًا، لم يطرأ على ألوهته أيّ تغيير. فالكلمة المتجسِّد، إذًا، هو **العلّيقة المُلتهبة الحقيقيّة**. مَن يقترب منه يلمس جسده ولكنّ هذا الجسد هو "جسدٌ إلهيّ". مَن ينظر إليه يرى مائتًا مثله، ولكنّ هذا المائت هو "وجه الحياة" الحقيقيّ، هو إنسانٌ حقّ وإلهٌ حقّ. شُعلة ألوهته لا تحرق ناسوته، بل تُنيره من الدّاخل وتتجلّى من خلاله. لقد تجسّد الّذي ترتعد قوّات الشّيروبيم والسّيرافيم من النّظر إليه وارتضى أن يأخذ صورة عبدٍ مَن خلق الكلّ بكلمةٍ منه، يسوع المسيح ارتضى أن يسكن أحشاء والدة الإله متأنّسًا منها كي يحقّق لنا النّصر على الشّيطان الشّرير لنتغلّب على الشّرير والشَّرّ والموت. لقد قام المسيح بعمليّة التّدبير الإلهيّ من تجسُّدٍ وموتٍ وقيامةٍ دون أن يتخلّى عن مجده الإلهيّ، دون أن يترك الألوهيّة.

- **العذراء الطّاهرة، كنيسة الرّوح القدس وهيكله**

ففي ولادة الرّبّ عينها من العذراء القدّيسة، تحقّق تأليهُ الطّبيعة البشريّة وتحريرُها من الخطيئة على نحو سرّيٍّ إلهيّ. فإنّ الرّبّ، لمّا تجسّد واتّخذ هيئة عبد، ألّه طبيعة البشر المائتة ومجّدها بوساطة نفسه ومع ذاته. وإذ رغب في تأليه الإنسان، الّذي كان قد فسُد من زمان، صار إنسانًا. إنّ ذاك الّذي وُلدَ من العذراء كان هو الإله، وقد وُلد من العذراء ليؤلّه البشر المائتين. فإنّنا نحن نتألّه بوساطة والدة الإله لأنّها ولدت، في الجسد، الإله الكلمة. فقط والدةُ الإله ألّهت النّاس من حيث إنّها ولدت الكلمة المتجسّد. فإنّه لمّا رَغِبَ الإله الكلمة في تأليه الإنسان برمّته، اتّحد، بكليّته، بالعذراء بكليّتها، فنجم عن ذلك سرٌّ يفوق العقل: العذراء تلد وتلبث عذراء والله يتراءى في الجسد. الله يصير إنسانًا ابتغاء تأليه البشريّة. في هذا يقوم التّدبير الإلهيّ الإنسانيّ للخلاص بالكامل في أنّ الله تجسّد وصار إنسانًا ليؤلّهنا. فبطاقة التّأليه، كلّ الطّبيعة البشريّة محتواة، بشكلٍ سرّيٍّ خفيّ، في لحظة الحبل بالمخلّص في العذراء القدّيسة: المسيح يأتي ليقيم في والدة الإله القدّيسة ويؤلّه الطّبيعة البشريّة بأسرها.

هذا ما حدا بالقدّيس أثناسيوس الإسكندريّ على القول:

"فقد تجسّد كلمة الله ليُعيد معرفة الله ويُبطل الخطيئة، ويؤلّه الإنسان ويوحّدَه بالله بموهبة الرّوح القدس، ويمنحَه الخلود. فالتجسّد يهدف إلى الفداء. الكلمة يتجسّد ليُعيد الإنسان إلى أصله، فالإنسان خُلِقَ على صورة الله"[٢٠٠].

- **الولادة الثّالثة: "وصُلِبت أيّها المسيح الإله. وبالموت وَطِئت الموت"**

إنّها ولادة الإبن المتألّم، المصلوب، الميت والمدفون. المسيح الّذي صلبه اليهود، قد أقامه الآب في اليوم الثّالث. إنّ قيامة الابن هي أيضًا عمل الآب، عملٌ تمّمه من جديدٍ بواسطة الرّوح القدس الّذي حلّ في هيكله الأبديّ، جسد المسيح النّاهض من القبر. إنّ هذه الولادة هي ما ندعوها في لاهوتنا "بالسّرّ الفصحيّ"، لأنّها قمّة عمل البنوّة الإلهيّة. ولقد شدّد بولس الرّسول على حقيقة الموت والقيامة كحدث ولادة المسيح، فيقول في مطلع رسالته إلى الرّومانيّين: "في شأن ابنه الّذي وُلِدَ من نسل داود بحسب الطّبيعة البشريّة، وجُعِلَ ابن الله في القدرة، بحسب روح القداسة، بقيامته من بين الأموات، ألا وهو يسوع المسيح ربّنا" (١: ٣-٤).

- **"أنت أحد الثّالوث القدّوس"**

يعود بنا النّشيد هنا إلى تأكيد حقيقة شخص الكلمة المتجسّد الإلهيّة: إنّه الأقنوم الثّاني من الثّالوث القدّوس. فعلى الرّغم من أنّ هذا الأقنوم الإلهيّ قد تنازل متّخذًا صورة عبدٍ، وصائرًا رجل الآلام الّذي تكلّم عنه النّبيّ أشعيا (٥٣: ٣)، إلاّ أنّ اللّيتورجيّا البيزنطيّة تُشدّد وبقوّةٍ على الطّابع الملكيّ للمسيح الّذي أتى إلى العالم ليغلب الموت ويُعتق المأسورين. فحتّى الآلام وحتّى الموت على الصّليب والدّفن، كلّها تتّسم بطابع الغَلَبَة، حيث جلال المسيح الإلهيّ متمّمًا سرّ خلاصنا من خلال صورة التّخلّي.

---

٢٠٠) ***<u>تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة</u>***، ص. ٤٦١.

- **تمجيده الابن: "المُمجّد مع الآب والرّوح القدس، خلّصنا"**

يتضمّن النّشيد قسمَين: الأوّل، تسبيح الإله-الإنسان وتمجيده مع الآب والرّوح القدس؛ والثّاني، طلبةٌ مقتضبةٌ للخلاص "خلّصنا". يشدُّنا القسم الأوّل نحو اتّجاهٍ تصاعديّ، نحو الله. نحن نُعطي شيئًا. نُعطي تسبيحًا ومجدًا لله المتجسّد وللثّالوث القدّوس. ثمّ نسأل شيئًا، الخلاص؛ بينما يتحرّك القسم الثّاني وكأنّه خطوةٌ من السّماء إلى الأرض: مبادرةٌ إلهيّةٌ سماويّةٌ نحو الأرض، لأنّ الخلاص لا يأتي إلاّ من السّماء. بهذا المنطق نستطيع أن نفهم ما قاله الإنجيليّ يوحنّا: "فما من أحدٍ يصعد إلى السّماء، إلاّ الّذي نزل من السّماء، وهو ابن الإنسان... لتكون به الحياة الأبديّة لكلّ مَن يؤمن" (٣: ١٣-١٥؛ راجع أيضًا أفسس ٤: ٩-١٠). تُشكّل آلام المسيح وموته على عود الصّليب، من وُجهة النّظر الكتابيّة واللّاهوتيّة، الباب الملوكيّ الّذي عبره المسيح نحو القيامة (راجع ١ كورنثس ١٥: ٣-٤) والجلوس عن يمين الله والتّمجيد مع الآب والرّوح القدس. إنّ المجد، إذًا، هو إكليل الآلام الّتي عاناها يسوع لأجل الإنسانيّة قاطبة[٢٠١]، حيث نقرأ: "نُشاهده مكلّلاً بالمجد والكرامة لأنّه عانى الموت، وهكذا بنعمة الله ذاق الموت من أجل كلّ إنسان" (عبرانيّين ٢: ٩). من هنا فإنّ الكنيسة المقدّسة ومن خلال هذه النّصوص الجليلة تذكّر المؤمنين بتجربتهم الإيمانيّة الأساسيّة وهي مشاهدة المسيح الممجّد مشاهدةً مبنيّةً على الإيمان (راجع عبرانيّين ١: ٥-١٤)، وتذكّرهم أيضًا بدرب الآلام الّذي سلكه يسوع للوصول إلى ذلك المجد (راجع أيضًا عبرانيّين ٢: ٥-١٨)، بحيث يشعر المسيحيّون بأنّهم على صلةٍ حيّةٍ بالمسيح القائم من الموت والجالس عن يمين الله.

(٢٠١) ألبير ڤانوا اليسوعيّ (الأب)، ***دراسة في الرّسالة إلى العبرانيّين***، ص. ٣٧.

- **خلاصة: النّشيد قانون إيمان ليتورجيّا الموعوظين**

إنّ هذا النّشيد في قدّاس الموعوظين (الّذين لم ينالوا سرّ المعموديّة بعد) قبل الإنجيل يشبه قانون الإيمان في قدّاس المؤمنين الّذي يُتلى قبل الكلام الجوهريّ والمناولة، وهنا يبرز التّشابه بين قدّاس الموعوظين المرتكِز على الكلمة المحكيّة والمعلَنة وبين قدّاس المؤمنين المرتكِز على الكلمة المتجسّد في الإفخارستيّا.

الباب الخامس

الدّخول الصّغير

أو

الدّخول بالإنجيل المقدّس

١) معناه الأصليّ: الدّخول الصّغير

تُشير الوثائق اللّيتورجيّة المؤرّخة قبل القرن الثّامن الميلاديّ إلى أنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة كانت تبدأ بالدّخول الصّغير، الّذي لم يكن في أساسه زياحًا للإنجيل المقدّس. وهذا يبدو واضحًا في كتابات الرّحّالة إثيريا الّتي أعطت أوّل توصيفٍ مفصّلٍ لمثل هذا الدّخول. فأثناء زيارتها للقدس في العام ٣٩٠م، وصفت هذه الأخيرة دخول الأسقف إلى كنيسة القيامة – دخولاً متعمّد التّأخير حتّى يأخذ جميع النّاس أماكنهم، من أجل أن يدخل الكنيسة بزياح في وسط الجماعة. إنّ مناسبة الدّخول لم تكن في الواقع احتفالاً إفخارستيًّا، بل واحدةً من الخِدَم اليوميّة[٢٠٢]. إذًا، إنّ الدّخول الصّغير كان دخول الأسقف إلى الكنيسة. فلقد اعتبرت الكنيسة الأولى الأسقف بمثابة ممثّلٍ للمسيح والمُحتفل الاعتياديّ للّيتورجيّا الإلهيّة (بحيث كان لكلّ رعيّةٍ أسقف هو بمثابة الرّاعي)، فرأت أنّ دخوله إلى الكنيسة هو بالتّحديد دخول المسيح رئيس الكهنة إلى كنيسته. ومع انتشار المسيحيّة في أرجاء المسكونة تضاءلت أعداد الأساقفة، ولم يَعُدْ لكلّ جماعةٍ كنسيّةٍ أسقفٌ خاصٌّ بها،

---

٢٠٢) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.383.

فوُكِلَت مَهمّة الرّعاية إلى الكاهن كممثّلٍ شخصيٍّ وقانونيٍّ وكنسيٍّ للأسقف. وبالتّالي، فقد أصبح الكاهن يقوم بالدّور الّذي كان يقوم به الأسقف في اللّيتورجيّا الإلهيّة. إلاّ أنّ دخول الكاهن إلى الكنيسة لا يوازي بأهميّته دخول الأسقف إليها، دخول المسيح رئيس الكهنة بشخص الأسقف، فأصبح من المعتاد أن ينظر المؤمنون إلى كتاب الإنجيل كرمزٍ للمسيح. ولقد حافظت الكنيسة على بعض مقوّمات الدّخول الصّغير في القدّاس الحَبريّ الّذي يرأسه الأسقف الّذي يبدأ اللّيتورجيّا الإلهيّة فعلاً بالدّخول الصّغير. فبالرّغم من حضوره أثناء الطّلبة السّلاميّة الكبرى ورتبة الأنديفونات، إلاّ أنّه يبقى خارج الهيكل جالسًا على عرشه المخصّص له في صحن الكنيسة، لابسًا التّاج وحاملاً العصا الرّعائيّة. "وعندما يَصِل الطّواف إلى وسط الخورس، يقدّم الكاهن (أو الشمّاس إن وُجِد) الإنجيل المقدّس لرئيس الكهنة ليقبّله، ثم يهتف متّجهًا نحو الباب المقدّس: "الحكمة – لنقف". فيُرنّم رئيس الكهنة ترنيمة الدّخول ويدخل إلى الهيكل وراء الكاهن الحامل الإنجيل"[٢٠٣].

٢) معناه المُجدَّد: الدّخول بالإنجيل المقدّس

وفي القرن الثّامن الميلاديّ – وهو قرن التّغيير الكبير في القسم الأوّل من اللّيتورجيّا الإلهيّة، تغيّر مفهوم الدّخول ليُصبح **الدّخول بالإنجيل المقدّس**، انطلاقًا من تبجيل المؤمنين لهذا الكتاب الإلهيّ وإحاطته بالمَهابة والوقار، من جهة، ومن كونه تمثيلاً رمزيًّا للمسيح، المعلّم الإلهيّ، الّذي يأتي إلى الكنيسة، من خلال حضوره السّرّيّ في كتاب الإنجيل، ليعلّم المؤمنين حقائق الإنجيل، من جهةٍ أخرى. فالشّعب اليوم، وبناءً على رمزيّة كتاب الإنجيل الّتي أشرنا إليها سابقًا، بات يستقبل المسيح نفسه ويُكرّمه. وهكذا، فإنّ المغزى الأصليّ للدّخول الصّغير قد تغيّر: إنّه اليوم دخول الإنجيل المقدّس – الّذي يرمز إلى المسيح – إلى الكنيسة، وليس دخول الأسقف إليها. إنّ الإنجيل بالنّسبة إلى الكنيسة إذًا هو بمثابة أيقونةٍ ناطقةٍ تحكي اعتلان المسيح وسُكناه في ما بيننا. إنّه وقبل كلّ شيءٍ أيقونة قيامته، إذ إنّ معنى هذا الدّخول هو "إعلان

---

٢٠٣) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة***، ص.٢٧.

المسيح القائم من بين الأموات"[٢٠٤] بناءً على وعده الإلهيّ لتلاميذه بأنّه "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثةٌ باسمي، كنتُ هناك بينهم" (متّى ١٨: ٢٠).

٣) ليتورجيّا الدّخول ورمزيّته

أثناء ترنيم نشيد الكلمة المتجسّد (يا كلمة الله) يتمّ الزّياح، فيسجد الكاهن ثلاث مرّاتٍ أمام المائدة المقدّسة ويقبّل الإنجيل المقدّس ويطوف به في زياح ويتّجه نحو الباب المقدّس في الهيكل، تتقدّمه الشّموع والصّليب. هذا الدّخول يسمّى الإيصوذون (دخول) أو الدّخول الصّغير الّذي يُمثّل **مجيء ابن الله ودخوله في العالم**. إنّه صورةٌ عن مجيء المسيح إلى العالم ليكون هو نور العالم كارزًا ببشارة الملكوت الّتي إن قبلناها نعود إلى الملكوت.

عندما يصل الكاهن أمام الباب المقدّس يبارك الهيكل راسمًا علامة الصّليب ويقول: "مباركٌ الدّخول إلى أقداسك كلّ حين..." إشارةً إلى دخول شعب الله إلى الملكوت. الفرادة في هذه البركة هو "الدّخول إلى الأقداس" لأنّ السّيّد المسيح قد دعانا لكي نكون قدّيسين كما هو قدّوس وهذا ما فهمه بولس الرّسول وخاطب به المؤمنين في كنائس ورسائل عديدة "إلى القدّيسين الّذين في أفسس" (١: ١). من هذا المنطلق البولسيّ نُشير إلى أنّ كلمة "قدّيس" تعني كلّ إنسانٍ مسيحيٍّ مؤمنٍ مختارٍ من الله ليكون وارثًا لملكوته السّرمديّ.

يرمز الدّخول أيضًا إلى دخول إنجيل الرّبّ يسوع المسيح إلى قلب كلّ مؤمن. ويعني الإعلان: "**الحكمة**" أنّ الإنجيل هو الحكمة الفائقة، هو الحكمة الإلهيّة المُعلَنة والّتي تتجاوز، بما لا يقاس، كلّ معرفةٍ بشريّة، ويشير الطّلب: "**فلنقف**" إلى الإجلال العظيم الّذي ينبغي أن نتقبّل به كلمة السّيّد. ثم إنّ إبراز الإنجيل للمؤمنين دعوةٌ لسماع كلمة المعلّم والعمل بها بجعلها مسلكيّةً حياتيّةً يوميّة. ثمّ يقول الكاهن "القطعة الخاصّة بالدّخول"، وهي في الأيّام العاديّة والآحاد: "هلمُّوا نسجد ونركع للمسيح..." (وهي تختلف باختلاف العيد الّذي نقيمه[٢٠٥]).

---

٢٠٤) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا، سرّ الملكوت***، ص.١٠٤.

٢٠٥) للإطّلاع على ترانيم الدّخول الخاصّة بالأعياد السّيّديّة الثّابتة والمنتقلة، أنظر "كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة"، ص. ٧٢-٧٤.

من بين الرّموز العديدة الّتي قرأتها حول الدّخول الصّغير، استوقفتني رمزيّة رائعة الوصف، كتبها القدّيس سمعان التّسالونيكيّ تؤكّد أنّ الدّخول الصّغير يرمز إلى صعود المسيح إلى السّموات. إنّ الأسقف، بدخوله إلى الهيكل، هو المسيح نفسه، الّذي بعد قيامته، صَعِدَ إلى السّموات. أمّا الكهنة المساعدون فهم يمثّلون الرّسل الاثني عشر، والشّمامسة يمثّلون الملائكة الّذين كانوا حاضرين أثناء صعود المسيح. ومن ثمّ، فالأبواب المقدّسة الّتي كانت مُغلقة حتّى هذه اللّحظة، تُفتح أمام المسيح ليدخل. يرمز الهيكل إلى السّماء، والكنيسة إلى العالم. بعد دخوله، يُبخّر الأسقف المائدة المقدّسة والهيكل، مِمّا يدلّ على نزول الرّوح القدس على الرّسل بعد صعود المسيح المجيد[٢٠٦].

إنّ هذا القسم الأوّل من ترنيمة الدّخول مأخوذٌ من كتاب المزامير: "هلمُّوا نسجُدُ ونركعُ له، نجثو أمام الرّبّ صانعنا" (٩٤: ٦)، وهو يُشير إلى السّجود للمسيح، الكلمة المتجسّد، الّذي جاء من السّماء ليُخلّصنا. إنّ الكهنة الّذين يُرنّمون ترنيمة الدّخول هذه يرمزون إلى تلاميذ المسيح الأوّلين، الّذين أعلنوا بفرح: "وجدنا المشيح، ومعناه المسيح... الّذي كتب في شأنه موسى في الشّريعة وذكره الأنبياء، وَجَدناه" (يوحنّا ١: ٤١، ٤٥). لهذا السّبب بالذّات يحمل الكاهن الإنجيل ويرفعه عاليًا إلى جبهته، ليُعلن أنّ المسيح هو كلمة الله المتجسّد في الإنجيل المقدّس.

عودٌ على بدء نقول في ما يختصّ بالدّخول الصّغير إنّ هذا الأخير جمع بين ثلاثة أبعادٍ جوهريّة هي:

- إستهلال الافخارستيّا بدخول الجماعة؛
- كمال هذا الدّخول كصعود الكنيسة إلى الهيكل السّماويّ (الصّعود إلى المائدة وترنيم التّريصاجيون "قدّوس الله...")؛
- كمال استهلال الافخارستيّا في سرّ الكلمة الإلهيّة[٢٠٧].

---

٢٠٦) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.182.

٢٠٧) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٠٣.

٤) رمزيّة الشّمعة

ترمز الشّمعة الّتي تُحمَل في هذه الأثناء أمام الإنجيل المقدّس إلى نور المسيح المنير الجميع الّذي علّمنا كيف نؤمن ونسلك لنصل مملكة النّور الأزليّ: "أنا نور العالم: مَن يتبعني لا يمشي في الظّلام، بل يكون له نور الحياة" (يوحنّا ٨: ١٢؛ راجع أيضًا ١٢: ٤٦). كما أنّها تُشير أيضًا إلى **يوحنّا المعمدان السّراج الموقد المنير**، الّذي أعدّ الطّريق لمجيء المخلّص. وقد وصفه الإنجيل المقدّس "الشّاهد للنّور الحقيقيّ"، الكلمة المتجسّد، يسوع المسيح: "جاء شاهدًا للنّور، فيؤمن عن شهادته جميع النّاس. لم يكن هو النّور، بل جاء ليشهد للنّور" (يوحنّا ١: ٦-٨).

إنّ الشّموع المحترقة ترمز إلى حكمة السّابق الإلهيّة، الّتي تُنير طريق البشر في محجّتهم من هذه الحياة إلى الأبديّة. فكأنّ دور السّابق بدأ بالتّلاشي عندما جاء المسيح وبدأ بكرازته. وهنا نتذكّر كلام المعمدان حين قال: "وله ينبغي أن ينمو، ولي أنا أن أنقص" (يوحنّا ٣: ٣٠)؛ كذلك يفعل حاملو الشّموع، الّذين يمثّلون السّابق، بمكوثهم خارج الإيقونستاس عندما يدخل الكاهن إلى الهيكل.

٥) صلاة الدّخول الصّغير

حين ينتهي الطّواف إلى الخورس، يقف الكاهن أمام الباب المقدّس، ويتلو سرًّا إحدى الصّلاتَين التّاليتَين مُنحنيًا:

١. صلاة الدّخول الأولى

أيّها السّيّد الرّبّ إلهنا. يا مَن أقام في السّماوات. طغماتٍ وجيوشًا من الملائكة ورؤساء الملائكة. لخدمة مجده. أصحِبْ دخولنا بدخول ملائكةٍ قدّيسين. يُشاركوننا في الخدمة وفي تمجيد صلاحك. لأنّه لكَ ينبغي كلّ مجدٍ وإكرامٍ وسجود. أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

كما رأينا سابقًا، فإنّ الدّخول يعني إرتقاء الكاهن من الأرضيّات إلى ملكوت الله، ليكون الصّلة بين الله والشعب، وفي كلّ دخولٍ ندخل إلى الملكوت لنرتقيَ إلى الله "إجعل دخولنا مقرونًا بدخول الملائكة القدّيسين الّذين

يشاركوننا في الخدمة ويمجّدون معنا صلاحك". إنّ مضمون صلاة الدّخول هذه يؤكّد أنّها أنشأت حين كان الدّخول الصّغير لا يزال دخول الأسقف إلى الهيكل وبداية اللّيتورجيّا الإلهيّة، وليس الدّخول بالإنجيل المقدّس. تهتمّ صلاة الدّخول هذه بإبراز الدّور الّذي يُميّز الملائكة ورؤساء الملائكة والّذي يكمن في تسبيح الله بلا انقطاع ودون توقّف. فالله خلق الملائكة ليُقدّموا له باستمرارٍ "ذبيحة تسبيح وحَمد". والكاهن، الّذي هو على وشك الدّخول إلى الهيكل، يطلب أيضًا الخدمة الدّائمة الّتي يُقدّمها الملائكة ورؤساء الملائكة لله. مع وعيه لعدم استحقاقه وأهليّته، يلتمس الكاهن من الله أن يجعل دخوله إلى الهيكل مقرونًا بدخول الملائكة أنفسهم. وهكذا تُظهر هذه الصّلاة الطّابع السّماويّ للدّخول أي إلى مشاركة القوّات السّماويّة والملائكيّة في الخدمة. فالخبرة الإفخارستيّة الأولى الّتي يشهد عليها ترتيب القدّاس الإلهيّ نفسه، تبيِّن أنّنا نرتقي إلى حيث هو المسيح منذ صعوده وأنّ طبيعة الاحتفال هي طبيعةٌ سماويّة. من هنا فإنّنا نؤكّد أنّ ليتورجيّتنا هي ارتفاعٌ إلى الهيكل السّماويّ أو العرش السّماويّ وعودةٌ إلى "العالم الحَسَن الّذي خلقه الله" لنشهد "بما لم تره عين ولا سَمِعَت به أذُنٌ ولا خَطَرَ على قلب بشر، ذلك ما أعدّه الله للّذين يُحبّونه" (١ كورنثس ٢: ٩).

٢. صلاة الدّخول الثّانية

وقد وضعتِ الكنيسة المقدّسة عبر ترتيباتها اللّيتورجيّة تنوُّعًا غنيًّا بالصّلوات، كإمكانيّةٍ بديلةٍ في حال أراد الكاهن التّنويع:

> أيّها الرّبّ المُحسِن. يا صانع الخليقة كلّها. أنتَ اقبل الكنيسة المتقدّمة إليك. واصنع ما هو صالحٌ لكلّ واحد. إحمِل الجميع إلى الكمال. وأهّلنا لملكوتك. بنعمة ابنك الوحيد ورحمته ومحبّته للبشر. الّذي أنت مباركٌ معه ومع روحك القدّوس. الصّالح والمُحيي. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

تعترف هذه الصّلاة بأنّ الله هو الخالق والخير الأسمى الّذي صنع كلّ شيءٍ بجماليّةٍ إلهيّةٍ، بدت جليّةً في التّعبير الكتابيّ التّكوينيّ: "ورأى الله أنّ ذلك حَسَنٌ" (تكوين ١: ٣، ١٠، ١٢، ١٨، ٢١، ٢٥)، وفي نهاية عمله الخَلقيّ، يُعلن سفر

التّكوين قائلاً: "ورأى الله جميع ما صنعه إذا هو حَسَنٌ جدًّا" (١: ٣١). إنّ دخول الكاهن بالإنجيل المقدّس إلى الهيكل يعبّر عن حركة الكنيسة بصفتها معبرًا من القديم إلى الجديد، من "هذا العالم" إلى "العالم الآتي"، إذ إنّ الكنيسة هي "المعبر" إلى السّماء وهي الدّخول إلى الهيكل السّماوي"[٢٠٨]. يتطلّب هذا الدّخول قُدسيّةً وكمالاً، لكي نكون مستحقّين الولوج إلى خدر عرسه الإلهيّ في الملكوت السّماويّ. وفقًا لِما تمّ ذكره آنفًا نقول "إنّ صلاة الدّخول الأولى تعني دخول الكهنة الهيكل. ويستدلّ على ذلك من ذكر الملائكة الّذي يربطه القدّيس مكسيموس المعترف بالهيكل، في تعليقه على القدّاس. ولكنّ المُراد من الدّخول أساسًا، هو دخول الجماعة والكهنة الكنيسة: دخول الكنيسة البشر الكنيسة البناء"[٢٠٩]، وهذا هو المعنى المُراد من صلاة الدّخول الأخرى.

٦) أناشيد العيد (الطّروباريّات)

١. نشأة التّرانيم الكنسيّة

بوصفه وليمة الأغابي في أيّامه، يُخبرنا ترتليانس أنّ كلّ إنسان كان يُدعى ليأتيَ إلى الأمام ويرنّم نشيد تسبحةٍ للرّبّ، مستخدمًا إمّا نصوصًا كتابيّةً أو نشيدًا من إنشائه الخاصّ، يُعبّر من خلاله عن اختباره الإيمانيّ الشّخصيّ مع الرّبّ. ففي القرنين الأوّلين للميلاد، فضّلت الكنيسة التّأليف الحرّ للأناشيد والتّرانيم المقدّسة كعنصر من عناصر الانسجام التّعبُّديّ مع روح ذلك العصر، عصر الاضطهاد والاستشهاد. وفي وقتٍ مبكّرٍ من القرن الثّالث للميلاد، بدأت الكنيسة تَحُدّ من تأليف الأناشيد بسبب ظهور الرّوح الهرطوقيّة. فإذا لم يكن النّشيد مستندًا على مقطع كتابيّ، كانت الكنيسة تستبعده من الاستعمال اللّيتورجيّ؛ وفي القرن الرّابع للميلاد، وضع الشّعراء الكنسيّون طروباريّةً واحدةً لكلّ عيد، عُرفت بطروباريّة اليوم. ولعلّ أقدم ما انتهى إلينا منها طروباريّة عيد القيامة: "المسيح قام من بين الأموات، ووطئ الموت بالموت، ووهب الحياة للّذين في

---

٢٠٨) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٤٥.

٢٠٩) المطران لطفي لحّام (البطريرك الحاليّ غريغوريوس الثّالث)، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، في الإصلاح اللّيتورجيّ***، ص. ٢٦.

القبور"[210]؛ وفي أوائل القرن الخامس للميلاد، ظهرت أناشيد صلاةٍ قصيرةٍ مكتوبةٍ بطريقةٍ شعريّةٍ تُتلى بعد كلّ آيةٍ من المزامير، دُعِيَت "طروباريّة". وتُرتَّل هذه القطع بين الآيات الثّلاث، أو الأربع، أو السّت، أو العشر الأخيرة من المزمور. إلاّ أنّها اقتصرت في اللّيتورجيّا البيزنطيّة على صلاة الغروب والسَّحر.

لقد أُدخِلَت الطّروباريّات إلى اللّيتورجيّا الإلهيّة بهدف إرشاد المؤمنين وتعليمهم وحثّهم على تبنّي فضائل المسيح، وأمّه، والقدّيسين. إنّ هذه الأناشيد تُشكّل أيضًا العقيدة اللّاهوتيّة للكنيسة البيزنطيّة، حيث يُعبِّر اللّاهوتيّون عن العقيدة الصّحيحة من خلال الشّكل الشّعريّ. إلى جانب كونها تجعلنا كأناشيدَ كنسيّةٍ نشارك في أحداث حياة المسيح الأرضيّة على صعيدٍ أعمق من صعيد الأحداث التّاريخيّة، وذلك لأنّنا في الكنيسة لم نَعُدْ متفرّجين من الخارج، ولكنّنا شهودٌ مستنيرون بالرّوح القدس.

٢. ترتيبها اللّيتورجيّ

- **يوم الأحد:** وتُخصِّصه الكنيسة البيزنطيّة كسائر الكنائس الأخرى للاحتفال بالسّرّ الفصحيّ، بقيامة الرّبّ يسوع من بين الأموات.
- **يوم الأسبوع:** تضع الكنيسة في كلّ يومٍ من الأسبوع تذكارات لقدّيسين مختلفين: الإثنين، للملائكة؛ الثّلاثاء، للقدّيس يوحنّا المعمدان؛ الأربعاء، للصّليب والسَّيِّدة؛ الخميس، للرّسل القدّيسين والقدّيس نيقولاوس؛ الجمعة، للصّليب؛ والسّبت، للقدّيسين والرّاقدين.
- **قدّيس النّهار:** تُكرِّس الكنيسة البيزنطيّة ضمن إطار السّنة اللّيتورجيّة كلّ يومٍ من السّنة لقدّيسٍ معيّن.

٣. الأناشيد، تعبيرٌ عن انتصار الكنيسة بالمسيح

طروباريّة كلمةٌ يونانيّة تعني ترنيمة أو نشيد، وهي مشتقّة من "تروبوس"، أي أسلوب لحن. وقيل إنّها مشتقّةٌ من "تروبايون"، أي النّصر. فيكون معناها تسبحة النّصر؛ لأنّها تُبَيِّن انتصار السَّيِّد على الموت والجحيم، وانتصار القدّيسين على أعداء الخلاص. بحسب المعنى الأوّل، تُطلَق كلمة "طروباريّة" على كلّ

---

٢١٠) المطران ناوفيطوس إدلبي، *كتاب الصّلاة*، ص.٤٣-٤٤.

ترنيمة وجيزة. والتّرنيمات الكنسيّة أخذت تُسمّى بهذا الاسم منذ أيّام القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، الّذي ألّف ورتّب ترنيماتٍ كثيرةً لتُرتَّل في الزّياحات، أي الدّورات الاحتفاليّة بالصّلبان حول الكنائس.

٤. ترتيب الأناشيد في اللّيتورجيّا الإلهيّة

بعد الدّخول ترتّل الجوقة نشيد القيامة، أي نشيد النّصر والظّفر على الموت، وذلك بحسب لحن الأسبوع (هناك ثمانية ألحان في الطّقس البيزنطيّ)، أو نشيد العيد أو القدّيس المحتفى به ونشيد شفيع الكنيسة الّذي نطلب شفاعته دائمًا في كلّ قدّاس، وتُختَتم هذه الأناشيد بقنداق الختام لأيّام الآحاد وأيّام الأسبوع العاديّة وهو للعذراء الطّاهرة: "يا نصيرة المسيحيّين الّتي لا تُخزى...".

٧) النّشيد المثلّث التّقديس[٢١١] (التّريصاجيون)

١. صلاة التّريصاجيون

أ. تاريخيّتها

لقد أصبحت هذه الصّلاة جزءًا من اللّيتورجيّا الإلهيّة في الوقت الّذي أُدخِل فيه النّشيد المثلّث التّقديس إليها، أي حول منتصف القرن الخامس للميلاد[٢١٢].

ب. مضمونها اللّاهوتيّ

تُعبّر الصّلاة الشّرقيّة دائمًا عن التّواضع العميق والعاطفة الجيّاشة للخاطئ، دون إغفال أيضًا الثّقة المُفعمة بالرّجاء والتّفاؤل برحمة الله وعنايته. فبتأمُّله العميق، يُدرك المسيحيّ الشّرقيّ إثمه وبؤسه، إلاّ أنّه، في الوقت عينه، يُدرك بوضوح أكثر أنّ عدل الله يَلين مع رحمته الغنيّة، وأنّ مشاعر الله تجاهنا نحن

---

(٢١١) في عيدَي الميلاد والظّهور وثانيهما ووداعهما (إلاّ إذا اتّفق هذا الوداع يوم أحد)، وفي سبت لعازر وسبت النّور، وأحد الفصح وأسبوعه ووداعه، وأحد العنصرة وثانيه ووداعه، يُبدل النّشيد المثلّث التّقديس بالنّشيد التّالي: "أنتم الّذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم، هلّلويا"؛ وفي عيد رفع الصّليب المُحيي وخدمته ووداعه، والأوّل من آب (الطّواف بالصّليب الكريم المُحيي)، والأحد الثّالث من الصّوم (السّجود للصّليب الكريم المُحيي)، يُرنَّم بالنّشيد التّالي: "لصليبك يا سيّدنا نسجد، ولقيامتك المقدّسة نُمجّد". راجع كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، ص. ٨٢، ٨٤).

(٢١٢ Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.184.

الخطأة لا تخلو من الرّأفة، والحنان، والمحبّة (راجع مَثل الابن الضّالّ، لوقا ١٥: ١١-٣٢).

- **الخدمة السّماويّة للملائكة**

يتشابه مضمون هذه الصّلاة مع صلاة الدّخول الصّغير، حيث تُشير إلى الملائكة وخدمتهم السّماويّة أمام عرش الله، القائمة في أساسها على تسبيحه وتمجيده:

أيّها الإله القدّوس. المستريح في الأقداس. الّذي يسبّحه السّيرافيم بنشيدٍ مثلّث التّقديس. ويُمجّده الشّيروبيم. وتسجد له كلّ قوّةٍ سماويّة

- **الخلق**

ثمّ يذكر الكاهن عمل الله الخَلقيّ من العدم، وخلق الإنسان على صورته ومثاله (تكوين ١: ٢٦):

يا مَن أخرج الأشياء كلّها من العدم إلى الوجود. وخلق الإنسان على صورته ومثاله. وزيّنه بجميع نعمه

نجد فكرة الخلق من العدم للمرّة الأولى في الكتاب المقدّس في سفر المكابيّين الثّاني، حيث لدينا أمٌّ تحثّ ابنها على تحمّل الاستشهاد من أجل الإيمان قائلةً له: "أسألكَ يا ولدي أن انظر إلى السّماء والأرض، وإذا رأيتَ كلّ ما فيهما، فاعلم أنّ الله صنعهما من العدم، وأنّ جنس البشر هو كذلك" (٧: ٢٨). إنّ الخلق الّذي قام به الله هو صُنع شيءٍ لم يكن له وجودٌ سابقٌ، لا في حدّ ذاته، ولا مجرّد إمكانٍ لأن يكون، لأن يصبح شيئًا. إنّ العبارة "كلّ الأشياء" تشمل كلّ شيءٍ محدود، منظورٍ وغير منظور، إذ إنّ الفعل الإبداعيّ يُعزى حصرًا إلى الله، الّذي أخرج كلّ شيءٍ إلى حيّز الوجود. هذا ما نُفصح عنه في قانون إيماننا، حين نُعلن إيماننا بالله قائلين: "أومن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكلّ. خالق السّماء والأرض. كلّ ما يُرى وما لا يُرى". وإيمان الكنيسة هذا يُناقض العديد من التّيارات الفكريّة الّتي قالت بالوجود الذّاتيّ للأشياء، واعتبرت أنّ الله ليس إلهًا خالقًا، لكنّه بالأحرى منظّمٌ للكون، صانع، عاملٌ من عوامل الكون. وصانع الكون هذا يخلق الأشياء عن طريق إعطاء المادة الّتي لا شكل لها شكلاً مرتّبًا.

تلك المادة الموجودة منذ الأزل خارجًا عنه، ولها القابليّة لأن تتّخذ كلّ شكلٍ ممكنٍ وكلّ صفةٍ ممكنة (كالنّشوئيّة والماديّة والطّبيعيّة).

إنّ ما يُميّز كلمات الكاهن هذه هو العطاء الإلهيّ. الآب يبذل كلمته وروحه، وكلّ شيءٍ يُدعى للوجود. كلّ شيءٍ هو عطيّةٌ منه واعتلانٌ لمجده. إنّه يَهَب ذاته في كلّ ما هو كائن. وكلّ ما هو كائنٌ هو كائن، لأنّ اللّه يهب ذاته فيه. هو "قال فكان الخلق وأمر فوُجِد" (مزمور٣٢: ٩). وهو يُحِبّ، وإذا المحبوب حَسَن. هو مَن يعطي ذاته، وإذا العطيّة جميلةٌ وآيةٌ في الجمال. في هذا البدء، يحيا اللّه الحيّ أوّل "تجرُّدٍ" أو "إخلاء ذات"، فيه يكشف الحبّ الإلهيّ عن ذاته، ومن فيض محبّته هذه يُعطي الوجود لجميع الكائنات. من هذا المنطلق قرّر اللّه أن يصنع الإنسان "على صورته ومثاله" (تكوين ١: ٢٦). فهل هناك أعظم من أن ترى اللّه غير المنظور من خلال الإنسان المنظور الّذي هو هيكل اللّه؟ وهنا لا يسعنا إلاّ أن نُردّد مع صاحب المزامير: "أحمدُكَ لأنّكَ أعجزتَ فأدهشتَ. عجيبةٌ أعمالك" (مزمور ١٣٨: ١٤).أمّا النّعم الّتي خصّه اللّه بها وهي كثيرةٌ، فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: كرامة الإنسان الملكيّة، والعقل المفكّر، حريّة الاختيار والقرار (راجع تثنية ٣٠: ١٩)، والشّركة مع اللّه، والمشاركة في الكائن الإلهيّ "التّألُّه"، ومَلَكَة السّلطة الذّاتيّة من خلال إرادةٍ تُنفّذ، وقدرة الإنسان على أن يسود ويتسلّط...

- **الحكمة والفهم**

يُتابع الكاهن صلاته، فيطلب من اللّه أن يُنعم عليه بروح الحكمة والفهم:

يا مَن يمنح مَن يسأله حكمةً وفهمًا

هذا بالتّحديد ما طلبه الملك سليمان، حين قال: "لذلك صلّيتُ فأتيتُ الفِطنة، ودعوتُ فأتاني روح الحكمة" (حكمة ٧: ٧). إنّها ليست حكمةً بشريّةً، بل هي حكمةٌ إلهيّةٌ، أعني بها، الرّوح القدس، على حدّ تعبير القدّيس يعقوب في رسالته: "... أمّا الحكمة الّتي من فوق فإنّها أوّلاً نقيّةٌ، ثمّ مسالِمةٌ، حكيمةٌ، سهلة الانقياد، مليئةٌ رحمةً وثمارًا صالحة" (٣: ١٧). وهذا الرّوح عينه الّذي تكلّم عنه أشعيا النّبيّ قائلاً: "ويحلّ عليه روح الرّبّ، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوّة، روح المعرفة وتقوى الرّبّ" (١١: ٢)؛ إنّها أيضًا خبرة الرّسل

القدّيسين بعد حلول الرّوح القدس عليهم في يوم الخمسين، حيث أصبحوا أداةً طيّعةً لروح الله، الّذي صيّرهم من صيّادي سمكٍ إلى صيّادي بشر، ومن أناسٍ جهّالٍ إلى أناسٍ حكماء وبُلغاء (راجع أعمال ٢: ٥-١٣).

- **الكنيسة هي كنيسة التّائبين**

فبعد دخول الكاهن الهيكل، يصلّي وقوفًا أمام المائدة المقدّسة إلى الله لكي يجعلَه مستحقًّا لأنْ يُسبّحه ويمجّده على مِثال الملائكة القدّيسين بالنّشيد المثلّث التّقديس، الّذي ما هو إلاّ إعلانٌ احتفاليٌّ بقداسة الله وسيادته على الجميع. تحمل هذه الصّلاة في طيّاتها توبةً شخصيّةً وانسحاقًا وضيعًا من قِبَل الكاهن، الّذي يتضرّع إلى الله بقلبٍ نقيٍّ وشفتَين طاهرتَين أن يغفر خطاياه الاختياريّة وغير الاختياريّة، وأن يقدّس نفسه وجسده، أي أن يهبَه الطّهارة الرّوحيّة والنّقاوة الجسديّة، جاعلاً إيّاه هيكلاً حيًّا لله (أنظر ٢ كورنثس ٦: ١٦).

... ولا يُعرض عن الخاطئ، بل يضع التّوبة للخلاص. يا مَن أهّلَنا نحن عبيدَه الحقيرين غير المستحقّين، لأنْ نقف في هذه السّاعة أمام مجد مذبحه المقدّس، ونقدّم له السُّجود والتّمجيد الواجبَين. أنت أيُّها السّيّد، تقبّل من أفواهنا نحن الخطأة النّشيد المثلّث التّقديس، وافتقدنا بجودتك، وتجاوز عن كلّ ذنوبنا الاختياريّة وغير الاختياريّة. قدّس نفوسنا وأجسادنا...

تُذكّرنا هذه الكلمات بأنّ الرّسالة الخلاصيّة الّتي جاء بها الرّبّ المخلّص هي عودة الخاطئ عن خطيئته بتوبته الحقيقيّة الّتي ما هي إلاّ فتح صفحةٍ جديدةٍ في العلاقة بين الإنسان والله. وقد وَصَفَ الرّبّ يسوع مرارًا وتكرارًا في أمثلةٍ متعدّدةٍ في الإنجيل المقدّس، وبخاصّةٍ إنجيل الرّحمة (إنجيل لوقا) فرح السّماء وملائكة الله "بخاطئٍ واحدٍ يتوب أكثر منه بتسعةٍ وتسعين من الأبرار لا يحتاجون إلى التّوبة" (لوقا ١٥: ٧، ١٠). فالتّوبة هي عودةٌ إلى الله نابعةٌ من الإيمان بأنّ معنى الوجود الإنسانيّ يكمن في أحضان الله، وأنّ انعطاف الله إلينا يفوق انعطافنا نحو شهواتنا. التّوبة هي ثمرة اللّقاء مع الله، ذاك اللّقاء الّذي يطبع الحياة بكلّ نواحيها ويُضفي عليها اليقين بأنّ حقيقة الله تفوق أيّ حقيقةٍ أخرى. التّوبة هي اعترافٌ بأنّ الإنسان يحيا بمقدار ما يغتذي من الحبّ الإلهيّ، وبأنّه اتّخذ الموت سبيلاً لملاقاة وجه السّيّد، الّذي أقامنا مسمّرًا الموت

على الصّليب وواهبًا الجميع قوّة القيامة. هذا ما اختبره العديد من شخصيّات التّوبة في العهد الجديد، كالمرأة السّامريّة، والمرأة الزّانية، وزكّا العشّار، واللّصّ اليمين... التّوبة الحقيقيّة ثورةٌ تهزّ أعماق الكيان الدّاخليّ الإنسانيّ وتبدّله بشكلٍ جذريّ، فيصبح اللّه محور حياة الإنسان "الألف والياء، البداية والنّهاية" (رؤيا ١: ٨)، وتصير بذلك شريعة اللّه نابعةً من داخل الإنسان وليس فرضًا خارجيًّا عليه.

٢. نشيد التّريصاجيون

أ. أهميّة النّشيد في اللّيتورجيّا البيزنطيّة

إنّ صلاة التّريصاجيون ما هي إلاّ تحضيرٌ وتقدمةٌ للنّشيد المثلّث التّقديس: "قدّوسٌ اللّه. قدّوسٌ القوي. قدّوسٌ الّذي لا يموت ارحمنا". إنّ هذا النّشيد يلعب دورًا هامًّا ليس في اللّيتورجيّا الإلهيّة وحسب، بل إنّما أيضًا في كلّ الخِدَم الإلهيّة الأخرى، إذ إنّ كلّ الصّلوات الليتورجيّة الخاصّة بالطّقس البيزنطيّ تبتدئ بهذا النّشيد (الغروب، السّحر، السّاعات...). لقد أصبح جزءًا لا يتجزّأ من الصّلوات الافتتاحيّة للخِدَم الكنسيّة والصّلوات اليوميّة للمؤمنين.

ب. مضمون تعبير "قدّوس"

إنّ كلمة "قدّوس" تتضمّن قسمَين أساسيَّين في العقيدة الإيمانيّة المسيحيّة هما: الاعتراف بقداسة اللّه وأنّه مصدر كلّ قداسة: "إنّي أنا الرّبّ إلهكم، فتقدّسوا وكونوا قدّيسين، فإنّي أنا قدّوس" (أحبار ١١: ٤٤، ٤٥؛ ١٩: ٢)؛ والصّلاة من أجل صيرورة المؤمنين قدّيسين أي الاشتراك في هذه القداسة؛ هذا ما عبّر عنه بالتّحديد القدّيس بطرس قائلاً: "بل، كما أنّ الّذي دعاكم هو قدّوس، فكذلك كونوا أنتم قدّيسين في سيرتكم كلّها، لأنّه مكتوب: كونوا قدّيسين، لأنّي أنا قدّوس" (١ بطرس ١: ١٥-١٦). ترد لفظة قدّوس في هذا النّشيد ثلاث مرّاتٍ وهي الاسم الحقيقيّ للّه، لا لإله العلماء والفلاسفة، بل للإله الحيّ بالإيمان. والألفاظ: اللّه - القويّ - الّذي لا يموت هي لداود النّبيّ القائل: "ظَمِئَت نفسي إلى اللّه إلى الإله القويّ الحيّ" (مزمور ٤١: ٣). جمعت الكنيسة المزمور والتّسبيح الملائكيّ وأضافت طلبتها "ارحمنا" لتُظهر التّناغم بين العهدين القديم والجديد، من جهة، وكيف أنّ الملائكة والبشر أصبحوا يؤلّفون

كنيسةً واحدةً وجوقًا واحدًا، من جهةٍ أخرى. نخلص إلى القول بأنّ لفظة "قدّوس" تحوي كلّ المضمون الأبديّ لتسبيح الملائكة الّذي نستعدّ للمشاركة فيه في هذه السّاعة المقدّسة. وهكذا نتبيّن بأنّ هذا النّشيد هو نشيدٌ سماويٌّ يُرتَّل على الأرض ويشهد على مصالحة الأرض والسّماء وعلى استعلان الله للبشر، وعلى أنّه أعطانا أن "ننال نصيبًا من قداسته" (عبرانيّين ١٢: ١٠).

ت. ارحمنا

إنّ كلمة "ارحمنا" الّتي أضافتها الكنيسة تعني أنّ موقفنا أمام الثّالوث القدّوس هو موقفُ ذعرٍ روحيٍّ لأنّنا لا نطيقُ مجده. فابراهيم (تكوين ١٨) وأيّوب (٤٢) وأشعيا (٦) قد ارتعدوا أمام اعتلان الله لهم واعتبروا أنفسهم أرضًا ورمادًا ودودًا ونجاسةً وعدم استحقاق. لذلك نشعر بحاجةٍ قاطعة إلى غنى مراحمه، فنصرخ: "ارحمنا".

ث. تفسير الآباء

إنّ القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ ولاهوتيّين آخرين ومفسّرين للّيتورجيّا البيزنطيّة يسعَون جاهدين لتفسير لماذا ندعو في هذا النّشيد الآب الله، والابن القويّ، والرّوح القدس الّذي لا يموت. إنّنا ندعو الآب "الله" لأنّه هو منبع أبديّة الابن والرّوح القدس ومبدأها؛ وندعو الابن "القويّ" لأنّ المسيح هو الّذي خلّص الإنسان من عبوديّة الشّيطان؛ وندعو الرّوح القدس "الّذي لا يموت" لأنّه مصدر النّعمة الإلهيّة والحياة الأبديّة. إنّ هذا النّشيد إذًا يَصِف كلّ شخص إلهيٍّ من الثّالوث القدّوس، ذلك أنّ هؤلاء الأقانيم الثّلاثة يتشاركون في الطّبيعة الإلهيّة نفسها، بالتّساوي والجوهر المقدّس، والقويّ، والّذي لا يموت. بتعابير أخرى، إنّ هذه النّعوت الثّلاثة يُمكنها أن تُنسَب لكلّ شخص إلهيّ، للآب، وللإبن، وللرّوح القدس. وربما هذا هو السّبب الّذي يجعلنا نُرنّم هذا النّشيد ثلاث مرّاتٍ. بهذه الطّريقة نستطيع أن نَنسب هذه التّقديسات الثّلاثة لكلّ الأشخاص الإلهيّين معًا، ولكلّ واحدٍ بمفرده أيضًا.

يفسّر القدّيس جرمانوس هذا النّشيد قائلاً:

"قدّوس الله، أي الآب؛ قدّوس القوي، أي الابن والكلمة وهي مأخوذةٌ من سفر أشعيا النّبيّ الّذي يُبشّر بولادة المخلّص فيقول: "لأنّه قد وُلدَ لنا ولدٌ وأُعطِيَ لنا ابنٌ، فصارت الرئاسة على كتفه، ودُعِيَ اسمُه عجيبًا مُشيرًا، إلهًا جبّارًا، أبا الأبد، رئيس السّلام" (٩: ٥)، ولأنّه قيّد الشيطان المستقوي علينا وأبطل بالصّليب مَن له عزّة الموت ومنحنا الحياة والقوّة والسّلطان لكي ندوسه؛ قدّوس الّذي لا يموت، أي الرّوح القدس الّذي نقول عنه في قانون الإيمان "الرّبّ المُحيي" وهو الّذي يمدّ الخليقة كلّها بالحياة".

فمع القوّات الملائكيّة نرفع نحن البشر الخطأة الضّعفاء التّسبيح ذا الثّلاث تقديسات. كم هي عظيمةٌ هبات المسيح! فوق في السّماء، تمجّده المراتب الملائكيّة. وأسفل، في الكنائس المقدّسة يُرتّل البشر مثل الملائكة. وفي السّماء السّيرافيم يرتّلون هذا التّسبيح. وعلى الأرض، حشد المؤمنين داخل الكنائس يرفع النّشيد نفسه. لقد التأم احتفالٌ مشترك، احتفال السّماويّين والأرضيّين، وشكرٌ واحد، وبهجةٌ واحدة، وخدمةٌ واحدة، وفرحةٌ واحدة، هذا المحفل جَمَعَه تنازل المسيح الّذي لا يوصف، وضَبَطَه الرّوح القدس. تجانس ألفاظ بلغ كماله بإرادة الآب. تجانس نشائد هذا المحفل سماويّ، يتحرّك كما لو بلمسةٍ من الثّالوث القدّوس، وترتّل النّغمة المغبطة الطّربة، النّشيد الملائكيّ، التّوافق الّذي لا ينقطع. نجد في صلوات عيد العنصرة شرحًا لهذه الصّلاة:

"هلمّ أيّها الشّعوب نسجد للاهوت المثلّث الأقانيم، الابن في الآب مع الرّوح القدس، لأنّ الآب ولد بلا زمن الابن المساويَ له في الأزليّة والعرش، والرّوح القدس كان في الآب ممجّدًا مع الابن، قوّةٌ واحدة، جوهرٌ واحد، لاهوتٌ واحد. فلنقل ساجدين له كافّةً: قدّوسٌ الله الّذي أبدع كلّ شيءٍ بالابن ومؤازرة الرّوح القدس؛ قدّوسٌ القوي الّذي به عرفنا الآب وأتى الرّوح القدس إلى العالم؛ قدّوسٌ الرّوح المعزّي الّذي لا يموت، المنبثق من الآب المستريح في الابن، أيّها الثّالوث القدّوس المجد لك".

يقول القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم:

"بقولنا هذه التّسبحة نشترك في اللّيتورجيّا السّماويّة إذ لا نعود بعد على الأرض، بل ننطلق إلى السّماء ونكون وسط السّماء ونقف أمام العرش السّماويّ ونترنّم بالتّسبحة المقدّسة".

ويقول القدّيس كيرلّس الأورشليميّ:

"إذ نترنّم بهذه التّسبحة السّماويّة العُلويّة نشارك القوّات العلويّة تسبيحَ الحمد".

الباب السّادس

قراءة الكتب المقدّسة

١) تاريخيّة القراءة البيبليّة أثناء اللّيتورجيّا

١. الإرث اليهوديّ

بسبب إرثها اليهوديّ، كانت الجماعة اليهوديّة-المسيحيّة (اليهود المتنصّرون) تجتمع في الهيكل في أورشليم. هذا ما يؤكّده لنا سفر أعمال الرّسل بقوله: "يُلازمون الهيكل كلّ يومٍ بقلبٍ واحد" (٢: ٤٦). أمّا خارج المدينة المقدّسة أورشليم، فكان المسيحيّون يذهبون إلى المجمع بهدف قراءة الشّريعة والأنبياء، وترنيم المزامير، ولسماع تعاليم الكتب المقدّسة وتفسيراتها. في الواقع، إنّ تعابير "المجمع" و "الذّهاب على المجمع" كانت مُستعملةً من قِبَل الآباء الرّسوليّين والمُدافعين في وقتٍ مُبكّرٍ جدًّا من العصر المسيحيّ للإشارة ليس فقط إلى مكان الاجتماع لليهود الّذين عاشوا بين المسيحيّين، ولكن أيضًا إشارةً واضحةً إلى المجامع المسيحيّة، حتّى بعد الانفصال الدّينيّ النّهائيّ عن اليهوديّة.

٢. الاستقلاليّة الطّقسيّة للمسيحيّين

بعد العام سبعين للميلاد، أصبح اجتماع المسيحيّين في المجمع آخذًا على التّلاشي، لأنّ ذاك العام كان عام دمار هيكل سليمان في أورشليم على يد الجيش الرّومانيّ. بعد هذه الفترة، بدأ المسيحيّون بالاحتفال بخدماتهم الدّينيّة الخاصّة، الّتي قاموا بتعديلها بعض الشّيء مع ما يتناسب وروحانيّة الطّريق الجديد (المسيحيّة)، في مجامعَ خاصّةٍ بهم. لاحقًا، أضفتِ الكنيسة على خدمة الصّلاة هذه صفةً رسميّة، وأطلقت عليها اسم "مجمع التّعليم الدّينيّ"،

الَّذي أُطلِق عليه في ما بعد اسم "قدّاس الموعوظين"، وذلك في القرن الثّالث للميلاد من قِبَل أوريجانس، وقد حذى حذوه كلٌّ من القدّيس كيرلّس الأورشليميّ، وغريغوريوس النّزينزيّ، ويوحنّا الذّهبيّ الفم[٢١٣].

٣. القراءات المقدّسة بين التّاريخ واللّيتورجيّا

إنّ قلب ليتورجيّا الموعوظين هو قراءة الكتب المقدّسة (الأناجيل والرّسائل). إنّ االلّيتورجيّا الإلهيّة كانت تبتدئ قديمًا بدخول الأسقف إلى الكنيسة، بحيث كان يعقبه على الفور قراءاتٌ من الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد. إنّه قلب العِظة التّعليميّة وروحها. وممّا لا شكّ فيه أنّ الكنيسة اقترضت هذه العادة من المجمع اليهوديّ، إذ إنّ القراءات من الكتاب المقدّس لعبت دورًا بالغ الأهميّة في جميع الخِدَم الّتي كانت تُقام في المجمع. وهذا هو السّبب الّذي جعل القراءات البيبليّة تلعب دورًا هامًّا في الخِدَم اللّيتورجيّة المسيحيّة. وبناءً على المراجع المسيحيّة القديمة الكثيرة، فإنّنا نؤكّد أنّ القراءات الكتابيّة قد ابتدأت في القرن الثّاني للميلاد استنادًا إلى دفاع القدّيس يوستينس الشّهيد (١٠٣-١٦٥م):

> "في يوم الشّمس، أي يوم الأحد، يجتمع أولئك الّذين يعيشون في المدن والقرى معًا ويقرأون رسائل الرّسل والأنبياء، طالما سمح الوقت. ثمّ يَعِظُ مترئّس الجماعة الحاضرين ويحثّهم على أن يحفظوا كلّ ما تمّت قراءته على مسامعهم"[٢١٤].

شاهدٌ آخر من تلك الحِقبة التّاريخيّة هو القدّيس ترتليانس، الّذي ذكر قراءة الكتب المقدّسة:

> "نجتمع معًا، نقرأ الكتب المقدّسة من أجل استخلاص عِبرةً تطبيقيّةً للحاضر أو المستقبل. بكلمة الله المقدّسة نؤكّد أنفسنا في الإيمان، ونُغذّي رجاءنا، ونُعزّز ثقتنا"[٢١٥].

---

(٢١٣) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.30.

(٢١٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.189.

(٢١٥) **Ibid**, p.189.

٤. محاولاتٌ لتأسيس نظامٍ ليتورجيٍّ محدَّدٍ للقراءات المقدّسة

إنّ اللّيتورجيّا البكر (الأولى) اعتمدت على اختيار الأسقف الّذي يقود الخِدَم للنّصوص الكتابيّة المُزمع قراءتها، والمتطابقة مع أحداث ذلك الزّمن واحتياجات المؤمنين الرّوحيّة. هذا كان حال القرنَين الأوّلَين للميلاد. في القرن الثّالث للميلاد بُذِلَت محاولاتٌ من أجل وضع نظامٍ موحّدٍ للقراءات. وفي القرنَين الرّابع والخامس للميلاد، بدأ نظامٌ محدَّدٌ بالتّطوُّر.

إنّ القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم، نَصَحَ، في إحدى عظاته، سامعيه بقراءة فصلٍ مُسبقٍ في البيت من الكتاب المقدّس سيُقرأ في الخدمات القادمة في الكنيسة. في هذه الحِقبة التّاريخيّة، لم يَعُد مبدأ اختيار القراءات يعتمد بشكلٍ حصريٍّ على مترئّس الاحتفال الإفخارستيّ، بل كان هناك فعلاً نظامٌ قائمٌ ومحدَّد، بحيث ظهر كتاب القراءات الّذي يشتمل على مقاطعَ وفصولٍ من الكتاب المقدّس، تمّ ترتيبها بحسب نظامٍ كنسيٍّ محدَّد. لكن، وللأسف، لم يتمّ الحِفاظ على هذه الكتب، وبالتّالي، فإنّ معرفتنا لنظام القراءات البيبليّة لذاك الزّمن تبقى نسبيّةً وقليلة. إلا أنّ جُلّ ما نعرفه عن تلك الحِقبة هو ما يُقرأ في أزمنةٍ ليتورجيّةٍ ثلاثة:

- أثناء زمن أسبوع الآلام العظيم المقدّس كانت تُقرأ الفصول الإنجيليّة الّتي تتكلّم عن آلام السّيِّد المسيح.
- خلال الزّمن الفصحيّ، تُتلى أناجيل القيامة.
- طوال الزّمن الخمسينيّ (البندكستاريون، الممتدّ من الفصح حتّى العنصرة)، يُتلى سفر أعمال الرّسل.

٥. تأسيس النّظام اللّيتورجيّ: مبدأ القراءة المتواصلة

إنّ نظام القراءات المتَّبع في كنائسنا البيزنطيّة اليوم يستند إلى مبدأ القراءة المتواصلة. تبتدئ السّنة اللّيتورجيّة للكنيسة البيزنطيّة في الأوّل من شهر أيلول، بينما يفتتح أحد الفصح المجيد سلسلة قراءات العهد الجديد في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ. إنّ مبدأ القراءة المتواصلة وهو مبدأٌ مقترنٌ بالاحتفال اليوميّ للإفخارستيّا المقدّسة، يشرح أُمنية الكنيسة الّتي تُشجِّع المؤمنين،

خلال سنةٍ كنسيّةٍ كاملة، أن يسمعوا قراءة أسفار العهد الجديد. ويدفعنا ذلك إلى القول بأنّ **الاحتفال الإفخارستيّ هو الرّتبة الوحيدة في الكنيسة البيزنطيّة الّتي تتضمّن قراءاتٍ من العهد الجديد بطريقةٍ "إلزاميّة"**.

يُشير التّقليد إلى أنّ القدّيس صفرونيوس الأورشليميّ (القرن السّابع للميلاد) هو الّذي رتّب نظام القراءات المقدّسة، وهو الّذي ثبّت أيضًا نظام المقاطع الكتابيّة. أمّا المرحلة النّهائيّة من تنظيم وتثبيت نظام المقاطع الكتابيّة فجاء في زمن القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ (القرن الثّامن للميلاد) والقدّيس ثيودورس الستوديتيّ (القرن التّاسع للميلاد – دُعِيَ بالستوديتيّ لأنّه كان راهبًا في دير ستوديون في القسطنطينيّة).

٦. اختفاء قراءات العهد القديم من اللّيتورجيّا

إنّ القراءات من العهد القديم اختفت من اللّيتورجيّا البيزنطيّة، مع بداية القرن التّاسع للميلاد، على الرّغم من أنّ هذا الإغفال لم يكن هكذا في الأصل، إذ إنّ الوثائق اللّيتورجيّة من القرن الثّاني إلى القرن الخامس للميلاد تُثبت أنّ قراءات العهد القديم كانت تُقرأ قبل قراءات العهد الجديد. نتيجةً لذلك، اِكتفت اللّيتورجيّا البيزنطيّة بقراءاتٍ منتقاةٍ من العهد القديم في صلاة الغروب الخاصّة بالأعياد السَّيِّديّة الكبرى.

٢) الموكب إلى العرش أو الكرسي العالي (الكاثذرة)

١. الكاثذرة: مكان تعليم كلمة الله وتفسيرها

لقد نشأ هذا الكرسي العالي في المجمع اليهوديّ أوّلاً ثمّ أصبح في ما بعد مستعمَلاً في الكنيسة. إنّها عادةٌ مألوفةٌ بين اليهود أنّ الّذي يُعلِّم الكتب المقدّسة ويُفسِّرها يبقى جالسًا. وفقًا لليهود، أن يجلس المرء على كرسيٍّ عالٍ، فهذا يفترض ضمنًا **سلطة الحكم والتّعليم**. ويروي الإنجيل المقدّس كيف دخل المسيح المجمع يوم السّبت وبدأ يُفسِّر الكتب:

> "وأتى النّاصرة حيث نشأ، ودخل المجمع يوم السّبت على عادته، وقام ليقرأ. فدُفِعَ إليه سِفر النّبيّ أشعيا، ففتح السِّفر فوَجَد المكان المكتوب فيه: روح الرّبّ عليّ، لأنّه مسحني لأبشّر الفقراء، وأرسلني لأعلن للمأسورين

تخلية سبيلهم، وللعميان عودة البصر إليهم، وأُفرّج عن المظلومين، وأُعلن سنة رضًى عند الربّ. ثمّ طوى السِّفر فأعاده إلى الخادم وجلس. وكانت عيون أهل المجمع كلّهم شاخصة إليه. فأخذ يقول لهم: اليوم تمّت هذه الآية بمسمع منكم" (لوقا ٤: ١٦-٢١).

بناءً على ذلك، فإنّ الجلوس على الكرسيّ العالي يرمز إلى **قوّة التّعليم بسلطانٍ كنسيٍّ** أساسه حجر الزّاوية المسيح يسوع (راجع أفسس ٢: ٢٠-٢٢).

٢. موقع العرش في الكنيسة

في كلّ كنيسة بيزنطيّة عرشٌ مزخرفٌ يوضع وراء المائدة المقدّسة في حنيّة الهيكل (فسحةٌ لها شكل نصف دائرة) مقابل الشّعب، يرتقيه البطريرك أو المطران، وتحوط به كراس للكهنة المحتفلين إلى يمين ويسار عرش الأسقف الّذي يكون في الوسط. فالأسقف، كما يراه الأسقف الشّهيد القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ، "يحلّ محلّ الله، إنّه صورة الآب، والكهنة يمثّلون جماعة الرّسل... فليس إلاّ جسدٌ واحدٌ هو جسد سيّدنا، وكأسٌ واحدةٌ لنتّحد بدمه، ومذبحٌ واحد، كما أنّه ليس إلاّ **أسقفٌ واحدٌ يحوّطه كهنته وشمامسته المشتركون في خدمته**"[٢١٦]. إنّ مثل هذه التّرتيبات الكنسيّة تعود إلى الزّمن الّذي فيه كان الأسقف هو المترئّس الشّخصيّ للإفخارستيّا وغيرها من الأسرار المقدّسة: "إنّ الأسقف، بحكم وظيفته، يترأس العِماد والإفخارستيّا والزّواج ويحمي الإيمان"[٢١٧]، أي قبل مجمع نيقية المقدّس (٣٢٥م)، حين كانت الجماعة المسيحيّة تحتفل بالإفخارستيّا في البيوت الخاصّة.

٣. موقعه في اللّيتورجيّا الإلهيّة

عند ترتيل النّشيد المثلّث التّقديس يذهب الأسقف مقتربًا من المذبح وهو يقول "مبارك الآتي باسم الرّبّ" (مزمور ١١٧: ٢٦؛ يوحنّا ١٢: ١٣)، ثمّ يبارك الكاثذرة قائلاً:

---

٢١٦) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص.١٥٢، ١٥٣.

٢١٧) المرجع نفسه، ص.١٥٢.

مبارك أنت على عرش مجد ملكك أيّها الجالس على الشّيروبيم (مزمور٩٨: ١) **كلّ حين، الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين**

إنّ أوّل مخطوطةٍ بيزنطيّة تحتوي على صيغة بركة العرش هذه هي مخطوطة باربيريني في القرن الثّامن للميلاد"[٢١٨].

هناك تعليمٌ أنّنا نصعد بالتّدرّج من العالم إلى داخل الكنيسة إلى الباب المقدّس إلى مكان العرش الّذي يمثّل عرش الله، عرش المسيح، وهناك عادةٌ في بعض الكنائس أن يجلس الأسقف على هذا العرش الكاثذرة مباركًا الشّعب منه، ومصلّيًا كي يتعهّد الله كنيسته، ذلك أنّ الأسقف ولكونه صورة المسيح، فهو يبارك ويطلب ويشفع لدى الرّبّ بدالة. فالعرش، إذًا، **يرمز إلى عرش ملك المجد الّذي يُمثّله الأسقف في الكنيسة**"[٢١٩]. لذا، لا يجوز، من وُجهة نظرٍ لاهوتيّةٍ بيزنطيّة، محفوظةٍ إلى أيّامنا الحاضرة، لأيٍّ كان بأن يجلس على هذا العرش المخصّص للأسقف نفسه، حين يكون مترئّسًا للاحتفال الإفخارستيّ. أمّا بالنّسبة إلى الكاهن، فحتّى لو كان هو المترئّس للّيتورجيّا الإلهيّة، فإنّه يجلس دائمًا على المقعد الّذي بجانب العرش، كما يجلس المسيح بجانب أبيه السّماويّ، والرّسل بجانب المسيح.

٤. رمزيّته الكتابيّة

يُمثّل الموقف المسيح ملك الكلّ مع رسله: "فقال لهم يسوع: الحقّ أقول لكم: أنتم الّذين تبعوني، متى جلس ابنُ الإنسان على عرش مجده عندما يُجدّد كلّ شيء، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر عرشًا، لتدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر" (متّى ١٩: ٢٨) من جهة، ويسوعَ محفوفًا بالشّيوخ الأربعة والعشرين المذكورين في سفر الرؤيا (٤: ١٠؛ ٥: ٨...)، من جهةٍ أخرى"[٢٢٠]. وهذا يعني، تاليًا، المجيءَ الثّاني عندما يأتي المسيح جالسًا على عرش المجد ليدين العالم كما قال النّبيّ: "هناك نُصِبَت عروشٌ للقضاء، عروشُ بيت داود" (مزمور١٢٢: ٥). يقول **القدّيس مكسيموس المعترف**: "إنّ نزول رئيس الكهنة من العرش يُشير بصورةٍ

---

٢١٨) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.407.

٢١٩) **Ibid**, p.407.

٢٢٠) نقولا كاباسيلاس، ***شرح القدّاس الإلهيّ***، ص. ٢٧.

عامّة إلى المجيء الثّاني لربّنا يسوع المسيح من السّماء، ليدينَ البشر، فيُميِّز الخراف من الجداء أي القدّيسين من الخاطئين، ويكافئ كلاًّ منهم بالعدل (متّى ٢٥: ٣١-٤٦).

٣) آيات الرّسالة (البروكيمنن)

١. مفهومها ومضمونها اللّاهوتيّ

من المحتمل أن يكون البروكيمنن من بقايا الطّقس القديم الخاصّ بالقراءات المختارة من العهد القديم الّتي كانت تُشكّل يومًا جزءًا هامًّا من القراءات البيبليّة في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ. البروكيمنن كلمة يونانيّة تعني "الّذي يسبق". إنّه عبارةٌ عن آيتَين أو ثلاث من المزامير الّتي تُرتَّل قبل قراءة فصل الرّسالة فيقول القارئ البروكيمنن لأنّه يدخلنا إلى سرّ الكلمة. **القدّيس جرمانوس** يقول: "إنّه يشير إلى انكشاف الأسرار الإلهية والإنباء السّابق بحضور الملك أي المسيح. لذلك يستخدم كبروكيمنن استيخونات من المزامير لأنّها تحدّثنا عن عظائم الله". كانت آيات الرّسالة قديمًا مزمورًا كاملاً يسبق ترتيلُها القراءةَ من الإنجيل المقدّس. ففي حين أنّ الكتاب المقدّس برمّته يتنبّأ ويتحدّث عن المسيح، كانت خاصيّة المزامير تكمن في أنّ المسيح مُعلَنٌ فيها وكأنّه "حاضرٌ فيها"، وعلى هذا الأساس، أصبحت المزامير صلاة الكنيسة كلّها من أيّام الرّسل والجماعة المسيحيّة الأولى وحتّى يومنا هذا.

تُشكّل آيات الرّسالة إذًا "**المدخل إلى سرّ الكلمة الإلهيّة**"[٢٢١]، الّتي تُخاطب الإنسان بكلّيّته في عمق أعماق كيانه وقلبه الّذي يُعتبر مركز المعرفة الروحانيّة، والّتي، في الوقت عينه، تتطلّب انفتاحَ الذهن والإصغاء والفهم على مثال تلميذي عمّاوس: "حينئذٍ فتح أذهانَهم ليَفهموا الكتب" (لوقا ٢٤: ٤٥). "وبالمقارنة مع ما سبق، تصبح آيات الرّسالة والهلّلويا المزمور النّبويّ لتجلّي المسيح المكتمِل في تلاوة الإنجيل. وهو مجيء الربّ... يكلّمنا ليس من الغمام... بل كإنسانٍ حقيقيّ... وجهًا لوجهٍ وليس بالرّموز. وبالتّالي، فليتورجيّا الكلمة تصبح حضور المسيح المتجسّد حضورًا منظورًا"[٢٢٢].

---

٢٢١) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٠٦.

٢٢٢) أفثيميوس سكاف (الأب)، ***مدخل إلى الهيستوريّة الكنسيّة...***، ص. ٤٧.

٢. لماذا تتلو الكنيسة المزامير؟

تحتلّ المزامير مكانةً مرموقةً في صلاة الكنيسة كونها تُعبِّر، بمظاهرَ شعريّةٍ، عن حالات الإنسان النّفسيّة ومشاعره الشّخصيّة؛ كما أنّها تُعبِّر عن تَوق الإنسان إلى الله. يقول القدّيس أثناسيوس في رسالته إلى مارسيلّينوس: "تتلاقى المزامير في كثير من الأحيان مع العواطف والمشاعر الّتي تختلج في نفوسنا، وقد تُعبِّر بدلاً عنّا، عمّا نشعر به في وقت الصّلاة". فلا غرو إذًا أن تُشكِّل المزامير أساس الصّلاة في الكنيسة، إذ سَبَقَ للمسيح ورسله أنْ ردّدوها مع أهل عصرهم ودينهم في الهيكل وفي البيوت. فأخذت الكنيسة منهم هذا التّقليد واستعملت المزامير في كلّ خدمةٍ كنسيّةٍ يوميّة في الفرض الإلهيّ (صلوات الغروب، والسَّحَر، والسّاعات) وفي اللّيتورجيّا الإلهيّة (القدّاس الإلهيّ).

٤) قراءة الرّسالة (أو ترنيمها)

١. الجهوزيّة الرّوحيّة للإصغاء

فإلى جانب الموكب إلى الكرسيّ العالي، هناك بعض التّعابير الّتي يقولها الكاهن: "**فلنصغ، الحكمة**"، والّتي تهدف إلى توجيه اهتمام المؤمنين إلى لحظةٍ هي من أكثر اللّحظات قُدسيّةً في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ، ألا وهي القراءات الكتابيّة المُزمع تلاوتها على مسامعهم. إنّها تعابيرُ تحريضيّةٌ وتشجيعيّةٌ تدعو المؤمنين إلى التّيقُّظ المستمرّ، والسّهر على الذّات والأفكار، والهدوء الرّوحيّ والقلبيّ، والصّمت الدّاخليّ الّذي يستند إلى التّأمّل بكلمة الله: إنّه موقف انتباهٍ حيٍّ وتيقُّظٍ واصغاء. إذًا، يكمن وراء هذه التّعابير هدفٌ سامٍ يدعونا إلى أن نلزم الصّمت أثناء هذه القراءات المقدّسة، لِنَدَعَ الله وحده يتكلّم فينا. والصّمت الّذي نبتغيه يقوم على عودة الإنسان إلى الذّات، ودخوله إلى غرفة قلبه السّرّيّة، لكي عندما يُصغي إلى كلمة الله الحيّة، يمكنه أن يسمع الكلام غير اللّفظيّ الّذي يُوجّهه إليه خالقه. وهذا ما عناه بالتّحديد الرّبّ يسوع في الإنجيل المقدّس حين قال: "مَن له أُذنان للسّماع فليسمع" (متّى ١١: ١٥). هذا يعني أنّ مَن يريد أن يستمع إلى كلام الرّبّ المُحيي، فليسمع وكيانه مُفعمٌ بالانتباه والتّفكير والفهم.

٢. قراءة الرّسالة بين التّعليم والتّبشير

يقول بولس الرّسول: "أستحلفكم بالربّ أن تُقرأ هذه الرّسالة على الإخوة أجمعين" (١ تسالونيكي ٥: ٢٧)؛ وأيضًا: "فإذا قُرئت هذه الرّسالة عليكم، فاسعَوا أن تُقرأ في كنيسة اللّاذقيّة أيضًا، ولأن تَقرأوا أنتم أيضًا رسالة اللّاذقيّة" (كولسّي ٤: ١٦). تؤخذ الرّسالة من أعمال الرّسل أو الرّسائل، وهذه الرّسالة تحتوي على **التّعاليم العقائديّة والرّوحيّة المُلهَمة من الله**، على حدّ تعبير بولس الرّسول: "لتنزل فيكم كلمة المسيح وافرةً لتُعلّموا بعضكم بعضًا وتتبادلوا النّصيحة بكلّ حكمة" (كولسّي ٣: ١٦)، وتُشكّل، في الوقت عينه، أجوبةً رسوليّةً وكنسيّةً رسميّةً للمشكلات الّتي كانت مطروحةً آنذاك ولا زالت في الجماعة المسيحيّة.

الرّسالة قد تأتي متوافقةً مع حدثٍ أو عيدٍ أو قدّيس نُعيّد له في ذلك اليوم أو تأتي مرتَّبةً حسب الآحاد ومتتالية بترتيبٍ معيّن. وقد رأى اللّيتورجيّون البيزنطيّون في قراءة الرّسائل إشارةً إلى **دعوة الرّسل ورسالتهم القائمة على التّبشير بالإنجيل** في جميع أنحاء العالم؛ ولهذا السّبب بالتّحديد تُقرأ الرّسالة قبل الإنجيل المقدّس، لأنّ المسيح أرسل الرّسل للتّبشير، وبعد ذلك بشّر هو بنفسه. هذا ما يؤكّده لنا الإنجيل المقدّس: "وبعد ذلك، أقام الرّبّ اثنين وسبعين تلميذًا آخرين، وأرسلهم اثنَين اثنَين يتقدّمونه إلى كلّ مدينةٍ أو مكانٍ أوشك هو أن يذهب إليه" (لوقا ١٠: ١).

٥) الهلّلويا

كما أنّ البروكيمنن هو مقدّمةٌ لقراءة الرّسالة، هكذا فإنّ نشيد "هلّلويا" هو مقدّمةٌ لتلاوة الإنجيل المقدّس. كلمة "هلّلويا" هي كلمةٌ عبريّةٌ تُقسَم إلى ثلاثة أجزاء: "هل" وتعني "يأتي ويَظهر"، و"ئيل": الله، و"أويا": سبّحوا وأشيدوا للّه الحيّ. إنّها دعوةٌ لنا كي نسبّح الله ونفرح لأنّنا سنسمع الرّبّ، المعلّم نفسه، يتكلّم معنا من خلال كلمة الإنجيل الّذي سيُتلى على مسامعنا، أي إنّها ردّة الفعل على مجيئه: "إنّ ترتيل هذه الكلمة "الحاملة للّه" هو التّحيّة البَهجَة الّتي يؤدّيها أولئك الّذين يُعاينون مجيء الرّبّ ويذوقون حضوره ويعبّرون عن فرحهم

بقدومه المجيد"[٢٢٣]. إنّها لفظةٌ تحمل في ثناياها غمرةً من الفرح والتّسبيح سببها اعتلان الرّبّ، اعتلان المسيح للكنيسة، وهي تاليًا، ردّة فعلٍ على مجيئه الخلاصيّ. لقد وصف الإنجيليّ يوحنّا في سفر الرّؤيا نشيد "هلّلويا" بأنّه أنشودة شكرٍ وحمدٍ وتسبحة انتصارٍ وغَلَبة، تغنّى بها القدّيسون في السّماء: "سمعتُ بعد ذلك مِثل صوتٍ عظيمٍ لجمعٍ كثيرٍ في السّماء يقول: هلّلويا! الخلاص والمجد والقدرة لإلهنا" (١٩: ١).

وبما أنّ "الهلّلويا" هي نشيد تسبيحٍ وفرح، فهي تحتلّ مكانًا رفيعًا في اللّيتورجيّا، أي قبل تلاوة الإنجيل المقدّس، الّذي ما هو إلاّ الأخبار السّارة لتعليم المسيح ونعمته الإلهيّة، وهو، في الوقت عينه، رمز المسيح الّذي يُحادثنا عبر كلمته الإلهيّة المتجسّدة في الإنجيل المقدّس. لذلك، فإنّ ترتيل نشيد "الهلّلويا" قبل تلاوة الإنجيل المقدّس ليس فقط تعبيرًا عن الفرح الرّوحيّ للمؤمنين، بل وأيضًا تحيّةً إيمانيّةً للمسيح القائم من بين الأموات والمُمجّد في السّموات[٢٢٤].

٦) التّبخير قبل الإنجيل

لم تقبل الكنيسة بسرعةٍ هذا العمل الطّقسيّ، لأنّه كان مشتركًا بين دياناتٍ عدّة خصوصًا الوثنيّة منها، الّتي كانت تُقدّم البخور للأصنام، وما لبث أن أدخل إلى اللّيتورجيّا ليصير ممارسةً طقسيّةً دينيّةً عاديةً جدًّا، فالجمر والبخور المتحوّل إلى رائحةٍ ذكيةٍ ودخانٍ يرتفع إلى السماء كالسّحاب، ناشرًا حوله طيب شذاه. إنّ هذا الدُّخان المتصاعد هو رمز الصّلاة الّتي ترتفع بها النّفس إلى الله. إذن، يخلق البخور في الكنيسة **جوًّا سماويًّا**، منبّهًا الكهنة المؤمنين إلى ضرورة الاستعداد لتقديم الذّبيحة، فيكونون بكلّ كيانهم "نفحة معرفة المسيح" (٢ كورنثس ٢: ١٥). إنّ التّبخير هو أيضًا، كالهلّلويا، تهيئةٌ جوٍّ روحيٍّ للإصغاء إلى تلاوة الإنجيل المقدّس، ويهدف إلى توجيه أفكار المؤمنين إلى السّماء. إنّه علامة الخشوع والإجلال لإنجيل المسيح. إنّ الدّخان المنتشر في كلّ رُكنٍ من أركان الكنيسة يرمز إلى **نعمة الرّوح القدس الإلهيّة**، الّتي

٢٢٣) **المرجع نفسه**، ص. ٤٨.
٢٢٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.199.

تنتشر في جميع أنحاء العالم من خلال الإنجيل المقدّس. وبالتّالي، فإنّ التّبخير هو بمثابة صلاة التماس إلى الرّبّ كي يؤهّب قلوب المؤمنين ونفوسهم لتلقّي كلمته الإلهيّة. وقد قارن بولس الرّسول بين التّبشير بالإنجيل المقدّس ورائحة البخور الطّيّبة، الّتي تنتشر نفسها وتملأ الهواء: "الشّكر لله الّذي يستصحبنا دائمًا أبدًا في نصره بالمسيح. وينشر في كلّ مكانٍ شذا معرفته. فإنّنا عند الله رائحة المسيح الطّيّبة بين الّذين يسلكون طريق الخلاص وطريق الهلاك: لهؤلاء تسير بهم من موتٍ إلى موت، ولأولئك رائحةٌ تسير بهم من حياةٍ إلى حياة" (٢ كورنثس ٢: ١٤-١٦).

٧) صلاة ما قبل الإنجيل

أيّها السّيّد المحبّ البشر، أضئ قلوبنا بصافي نور معرفتك الإلهيّة. وافتح عيون أذهاننا، لنفهم تعاليمك الإنجيليّة. ضَع فينا خَشية وصاياك المغبوطة، حتّى إذا دُسنا جميع الشّهوات الجسديّة، نسير سيرةً روحيّة، مفكّرين وعاملين بكلّ ما يُرضيك. لأنّك أنتَ استنارةُ نفوسنا وأجسادنا، أيّها المسيح الإله، وإليك نرفع المجد وإلى أبيك الأزليّ وروحك القدّوس الصّالح والمحيي.، الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

١. الإنجيل مبدأ الحياة المسيحيّة وأساسها

إنّها صلاةٌ من أجمل صلوات اللّيتورجيّا البيزنطيّة على الإطلاق، إذ إنّها تُعرب عن أهمّيّة الإنجيل في حياتنا المسيحيّة. إنّها طلبةٌ صادقةٌ نابعةٌ من قلب المؤمنين وإيمانهم إلى المسيح ليمنحهم نعمة فهم الإنجيل، بالإضافة إلى نعمة ترجمة مبادئه الرّوحيّة والإنسانيّة إلى أفعالٍ عمليّةٍ ومسلكيّةٍ حياتيّة، تؤسّس لمسيحيّةٍ متأصّلةٍ ومتجذّرةٍ في حياة المؤمنين بالمسيح: إنّ الإنجيل المقدّس يجب أن يُشكّل الأساس المتين والصّلب لفلسفة حياتنا وأخلاقيّاتها. بتعابير أخرى، يكمن معنى هذا الأساس في التّفكير وعمل كلّ الأشياء بناءً على إيماننا بمبادئ الإنجيل، حتّى "إنّ كلام الله هذا يُصبح لنفوس المؤمنين غذاءً، ولحياتهم الرّوحيّة مَعينًا دائم الجريان"[٢٢٥].

---

٢٢٥) ***المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دستورٌ عقائديٌّ في الوحي الإلهيّ***، ص.١٣٧.

٢. الرّوح القدس هو روح فهم الإنجيل وعيشه

إنّ الكنيسة المقدّسة بلاهوتها وعقائدها تُطلق صفة "روحيّ" على الإنجيل المقدّس، لأنّها تؤمن إيمانًا راسخًا بأنّ الرّوح القدس هو مَن ألهم وأوحى للإنجيليّين الأربعة بكتابته. هذا ما أعلنه المجمع الفاتيكانيّ الثّاني بقوله:

> "إنّ الحقائق الّتي أوحى بها الله، وتحملها أسفار الكتاب المقدّس إلى النّاس، قد دُوِّنَت بإلهامٍ من الرّوح القدس... ولهذا فهي من وضع الله، الّذي ولكي يضع هذه الكتب المقدّسة، اختار أناسًا واستعان بهم، عاملاً هو نفسه فيهم وبواسطتهم ليكتبوا كمؤلّفين حقيقيّين استخدموا قواهم وإمكاناتهم، كلّ ما أراده هو ولا شيء سواه"[٢٢٦].

بناءً على ذلك، تحتلّ هذه الصّلاة في سرّ الكلمة الإلهيّة المكانة نفسها الّتي يحتلها استدعاء الرّوح القدس في الأنافورا، يطلب فيها من الآب إرسال روحه القدّوس، ذلك أنّ فهم الكلمة الإلهيّة وتقبّلها غير خاضعين لإرادتنا وحدها فحسب، إذ إنّ الشّرط الأساسيّ للفهم هو: أن تُفتح "عيوننا الرّوحيّة" سرّيًّا وأن يحلّ علينا الرّوح القدس. وتؤكّد هذه الصّلاة بمفاهيمها الرّوحيّة أنّ الرّوح القدس هو الّذي يهب القُرّاء والسُّمَاع، كلاً بحسب استعدادات قلبه، أن يفهموا كلام الله فهمًا روحيًّا.

فمن خلال الأقوال والأعمال والرّموز الّتي تؤلّف حبكة الاحتفال، يضع الرّوح القدس المؤمنين والخَدَمَة في علاقةٍ حيّةٍ بالمسيح، كلمة الآب وصورته، لكي يُفرغوا في حياتهم معنى ما يسمعونه ويتأمّلونه ويفعلونه في الاحتفال، ذلك أنّ **الرّوح القدس هو، في الكنيسة، ذاكرتها الحيّة**: "وأنا سأسأل الآب، فيَهَبُ لكم مؤيِّدًا آخَرَ يكون معكم للأبد، روح الحقّ الّذي لا يستطيع العالم أن يتلقّاه، لأنّه لا يراه ولا يعرفه. أمّا أنتم فتعلمون أنّه يقيم عندكم ويكون فيكم" (يوحنّا ١٤: ١٦-١٧). وهكذا، فإنّ الكتاب المقدّس لا يُقرأ ولا يُفسّر إلاّ في نور الرّوح القدس الّذي في نوره تمّت كتابته على يد الكتّاب المُلهَمين: "بل إنّما بإلهام الرّوح القدس تكلّم رجال الله القدّيسون" (٢ بطرس ١: ٢١).

---

٢٢٦) المرجع نفسه، ص.١٢٩.

٣. أهميّة الرّوح القدس في حياة الكنيسة

وهنا لا يسعنا إلاّ أن نُنوِّه إلى أهميّة الرّوح القدس في حياة الكنيسة وإلى حضوره في قلب كلّ مؤمنٍ عندما يقرأ الكتاب المقدّس. بدون عمل الرّوح القدس، لا يمكن للإنسان أن يفهم كلام الرّبّ. وفي هذا الموضوع يقول القدّيس إيرينيوس: "إنّ أولئك الّذين لا يشتركون بالرّوح القدس، لا ينالون غذاء الحياة الّذي تقدّمه أمّهم الكنيسة، ولا يمكن لهم أن يقبلوا أيّ شيءٍ من النّبع الطّاهر الّذي يتفجّر من جسد المسيح". وبما أنّ كلمة الله تصل إلينا في جسد المسيح، في الإفخارستيا وفي الكتاب المقدّس، بقوّة الرّوح القدس، هكذا أيضًا لا يُمكن للمؤمن أن يقبل كلام الله ويفهمه حقّ الفهم إلاّ بنعمة الرّوح القدس، "الشّمس الإلهيّة"[٢٢٧]، الّتي بدونها لن يكون هناك حياة، أو أيّ نوعٍ من التّقدُّم والنّموّ في الحياة الرّوحيّة. فالرّوح القدس يقرّب السّيّد المسيح من كلّ أذنٍ منفتحةٍ للسّماع ومن كلّ قلبٍ منفتحٍ للإدراك؛ الرّوح القدس هو الّذي يحمل أنغام صوت الرّبّ، وكالهواء النّقيّ بالنّسبة إلى خلايا الجسم، يغمر الإنسانَ حياةً ونورًا وأمانًا.

٤. صلاة المؤمنين هذه دعوةٌ إلى التّغيير والتّيقُّظ

بناءً على كلّ ما تقدّم ذكره نقول إنّ رسالة الإنجيل المقدّس تنطوي على تعاليم إلهيّة تتطلّب من الإنسان تغييرًا جذريًّا في أفكاره وأعماله وحياته. لذلك لا تُعلنها الكنيسة دون التّمهيد لهذا الإعلان بدعوةٍ توجّهها إلى المؤمنين ليكونوا متيقّظين لِما سيُتلى عليهم، ويُدركوا أنّ ما سيَسمعونه ليس كلامًا بشريًّا، بل هو كلام الله، وأنّ ما سيُدعَون إلى القيام به ليس عملاً بشريًّا، بل هو عمل الله. لذلك، هم بحاجةٍ إلى نور الله ليَفهموا تلك "التّعاليم الإلهيّة"، وإلى قدرة روح الله ليسيروا تلك "السّيرة الرّوحيّة".

---

٢٢٧) Meletius Solovey, **The Byzantine Divine liturgy**, p.201.

٨) تلاوة الإنجيل المقدّس (أو ترنيم الإنجيل)

- **مقدّمة**

إنّ الإنجيل المقدّس هو التّجسُّد الثّاني. ففي التّجسُّد الأوّل ابنُ الله صار ابنَ الإنسان، وفي التّجسُّد الثّاني كلمةُ الله صار كلمةَ الإنسان. الإنجيل المقدّس هو حقًّا تجسُّدٌ ثانٍ. فكما أنّ ابن الله المتجسّد هو في آنٍ واحدٌ إلهٌ وإنسان، كذلك الإنجيل المقدّس هو إنسانيٌّ وإلهيّ. إنّه إنسانيٌّ لأنّه مكوّنٌ من كلماتٍ بشريّةٍ تروي أعمالاً وأحداثًا جرت في حياة المسيح. وهو إلهيٌّ لأنّ الله نفسه هو الّذي يتكلّم فيه في شخص ابنه وكلمته، وهو نفسه الّذي يعمل فيه ويمنح العالم الخلاص. هذا ما أكّده المجمع الفاتيكانيّ الثّاني بقوله:

> "ففي الكتاب المقدّس إذن يظهر "تنازلُ" الحكمة الأزليّة، هذا التّنازل العجيب الّذي تبقى فيه حقيقةُ الله وقداسته على ما هما عليه، وبه نقدُر عطف الله الفائق الوصف، الّذي جعله يرفُق بطبيعتنا ويتجاوب معها فيُكيِّف كلامه حسب متطلّباتها، حتّى إنّ كلام الله، وقد نطقت به شفاهٌ بشريّة، صار شبيهًا بكلام البشر، كما أنّ كلمة الآب الأزليّ قد اتّخذ يومًا بالجسد وَهن الطّبيعة البشريّة وصار شبيهًا بالبشر"[٢٢٨].

وعليه، فإنّ الإنجيل المقدّس هو نورنا وحياتنا. فالسّيّد المسيح، عندما يَهَب لنا ذاته وينسكب لأجلنا في كلماتٍ بشريّةٍ وفي أحداث حياته، إنّما ينقل إلينا حياته ونوره الإلهيّين، كما قال عن ذاته: "أنا الحياة... أنا الطّريق... أنا النّور...". فالله الآب أوحى بذاته ملء الوحي في شخص يسوع المسيح الّذي هو صورته (راجع كولسّي ١: ١٥)، كما جاء في الرّسالة إلى العبرانيّين: "إنّ الله، بعد إذ كلَّم قديمًا بالأنبياء مرارًا عديدةً وبشتّى الطّرق، كلّمنا نحن، في هذه الأيّام الأخيرة، بالابن الّذي جعله وارثًا لكلّ شيء، وبه أيضًا أنشأ العالم، الّذي هو ضياء مجده، وصورة جوهره، وضابط كلّ شيء بكلمة قدرته" (١: ١-٣).

---

٢٢٨) ***المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دستور عقائديّ في الوحي الإلهيّ***، ص. ١٣١.

١. **عَظَمَة الإجلال لكتاب الإنجيل المقدّس في الكنيسة**

"إنّ الكنيسة قد أحاطت دومًا الكتب الإلهيّة بالإجلال الّذي أحاطت به جسد المسيح. وهي تتناول دومًا خبز الحياة عن المائدة نفسها الّتي حملت معًا جسد الرّبّ وكلمة الله. إنّها تتناوله وتوزّعه على المؤمنين، لا سيّما عندما تقوم بخدمة اللّيتورجيّا الإلهيّة"[٢٢٩].

بناءً على ذلك، أظهرت الكنائس المسيحيّة كلّها عبر التّاريخ إجلالاً عظيمًا لكتاب إنجيل المسيح، وأخصّ بالذّكر العائلة السّريانيّة - البيزنطيّة، الّتي أعطته شرفًا استثنائيًّا. فإذا ما دخلنا إلى كنيسةٍ بيزنطيّة، فإنّنا نشعر بهذه النّظرة المقدّسة والمُفعمة بالهَيبة والوقار، لمجرّد رؤيتنا لكتاب الإنجيل المقدّس موضوعًا في مركز المائدة المقدّسة، حيث يضطجع جسد المسيح ودمه أثناء الذّبيحة الإلهيّة، فضلاً عن ميزةٍ أخرى تكمن في كونه مُغطًّى بغلافٍ معدنيٍّ مطليٍّ بالذّهب أو الفضّة، والهدف من وراء هذا التّوقير يكمن في كون كتاب الإنجيل المقدّس **يرمز إلى المسيح نفسه.** فكما أنّ الملوك والأباطرة يتزيّنون بثيابٍ من ذهبٍ وحجارةٍ كريمة، هكذا كتاب الإنجيل المقدّس، الّذي هو "ثوب المسيح" ملكنا وإلهنا، يكون دومًا مرصّعًا بفضّةٍ أو ذهبٍ أو حجارةٍ كريمة، أو على الأقلّ مغطًّى بمخملٍ ثمينٍ مزيّنٍ بشرائط ذهبيّة.

وفي سيامة الأسقف يوضع على رأس المرتسم، طيلة صلوات السّيامة المقدّسة، الإنجيل المقدّس مفتوحًا، إشارةً إلى أنّ الّذي يرسم الأسقفَ إنّما هو المسيح وروحه القدّوس الحاضران والعاملان في كتاب الإنجيل. وتقول صلاة وضع اليد الأولى: "إنّ السّيامة لا تتمّ بوضع يد الّذي يرسُم بل بالرّوح القدس والسّيّد المسيح الحاضرَين في كتاب الإنجيل المقدّس".

٢. **الكاهن، إيقونة المسيح الحيّة**

في الدّورة الصّغرى يرفع الكاهن الإنجيل مغطّيًا وجهه به لكي يُظهر للمؤمنين وجه المسيح، والآن بتلاوة الإنجيل المقدّس **يقدّم فمه "للكلمة" حتّى يسمع المؤمنون "الكلمة"**. وهكذا، فعِوض الكاهن يرى النّاس المسيح، وعبر

٢٢٩) المرجع نفسه، ص. ١٣٧.

فمه، نسمع صوته "صوت المسيح". بالإنجيل المقدّس نشاهد المسيح في وسطنا ونسمعه يدعونا إلى ملكوته. هذا ما أكّده القدّيس أوغسطينوس بمقولته المأثورة الّتي تُعبّر عن رأي كلّ المسيحيّين: "ينبغي أن نُصغي إلى الإنجيل وكأنّ الرّبّ نفسه يتحدّث إلينا"[٢٣٠].

٣. الإنجيل في اللّيتورجيّا البيزنطيّة

أ. تلاوة الإنجيل إعلانٌ للبشارة

تصل ليتورجيّا الموعوظين إلى ذروتها بتلاوة الإنجيل المقدّس، بحيث إنّ ما كان يُقرأ في خِدَم المجمع اليهوديّ من التّوراة وشريعة موسى، يُتلى الآن من الإنجيل المقدّس في اللّيتورجيّا الإلهيّة. وهذا ما أكّده الإنجيليّ يوحنّا بقوله في مقدّمة إنجيله: "لأنّ الشّريعة أُعطِيَت عن يد موسى، وأمّا النّعمة والحقّ، فقد أتيا عن يد يسوع المسيح" (١: ١٧). إنّ تلاوة الإنجيل ما هي إلاّ إعلانٌ للنّعمة والحقّ في كلّ ليتورجيّا إلهيّة تحتفل بها الكنيسة المقدّسة، ذلك أنّها تُبشّر بالأخبار السّارّة والفرحة الّتي وهبنا إيّاها الرّبّ والمعلّم، يسوع المسيح. بتعابير أخرى، إنّ تلاوته في الكنيسة تُعبّر عن الرّسالة الخلاصيّة الّتي أوكلها المسيح الحيّ والقائم من بين الأموات لتلاميذه، الكنيسة المُختارة من الرّبّ، بأن ينطلقوا لإعلان البشارة: "إذهبوا في العالم كلّه، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين" (مرقس ١٦: ١٥).

ب. ترتيب الأناجيل في اللّيتورجيّا

- إنجيل يوحنّا

يُخصّص فصل الرّبيع بأكمله لتلاوة هذا الإنجيل، ذلك أنّ الرّبيع هو زمن الحياة الجديدة والرّجاء الجديد، فيه تستيقظ الطّبيعة من سبات الشّتاء، وتتفتّح البراعم مُعلنةً بدء الحياة الجديدة. في هذا الزّمن عينه يقوم المسيح من بين الأموات مانحًا البشريّة والخليقة كلّها دفقًا من الحياة جديدًا. تمتدّ تلاوة إنجيل يوحنّا خمسين يومًا من عيد الفصح إلى عيد العنصرة، عيد حلول الرّوح القدس على التّلاميذ. وطول هذه الفترة، يعيش المسيحيّون في أجواء الفرح والابتهاج،

(٢٣٠ Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.435.

وهم يرنّمون دون مللٍ أناشيد القيامة والانتصار. إنّ النّصّ الإنجيليّ الّذي يُتلى في أثناء ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ الخاصّة بعيد الفصح ليس رواية قيامة المسيح بل رواية **تأليهنا** (يوحنّا ١: ١-١٧)، إذ إنّنا ومنذ اليوم الأوّل من الزّمن الفصحيّ ننتقل إلى أزليّة الله في المسيح القائم من بين الأموات، بحيث يُصبح مصيرنا الحياة الأبديّة الدّائمة في قلب الله مع المسيح كلمة الله.

- **إنجيل متّى**

بعد الرّبيع، زمن تفتّح الحياة الجديدة، يأتي الصّيف زمن نموّ تلك الحياة ونضجها. هكذا أيضًا بعد الاحتفال ببروز الحياة الجديدة من قبر المسيح الواهب الحياة، تحتفل الكنيسة في عيد العنصرة بحلول الرّوح القدس، روح النّموّ والنّضج. والمسيحيّ الّذي يصير في الزّمن الفصحيّ "حامل المسيح"، يصير في زمن العنصرة "حامل الرّوح"، ويعمل بقدرة الرّوح الّذي يملأه على تحقيق دعوته إلى التّألّه.

- **إنجيل لوقا**

في هذا الزّمن تدعو الكنيسة أبناءها إلى أن يفرحوا بالله الآب، ويشكروا له عطاياه، ويتمثّلوا بسخائه، هو "الّذي يُعطي الغذاء لكلّ جسد"، ويوزّع خيراته على كلّ كائنٍ حيّ. ومن خلال إنجيل لوقا يتعلّم المسيحيّ أن يكون "حاملَ الآب".

- **إنجيل مرقس**

إنّ الكنيسة، إذ تتلو على مسامع المؤمنين إنجيل مرقس، تهدف إلى إدخالهم تدريجيًّا في سرّ شخص المسيح ليفهموا رسالته الحقيقيّة ويتمثّلوا بها. فيسوع، في نظر مرقس، هو "المسيح ابن الله". وهذا ما يؤكّده منذ بداية إنجيله حتّى نهايته (راجع ١: ١؛ ١٥: ٣٩). يومًا بعد يومٍ يتعمّق المسيحيّون في معرفة شخص السّيّد المسيح، ابن الله وابن البشر، فيدركون أوّلاً أنّ ابن البشر يتمتّع على الأرض بسلطة الله نفسه (راجع ٢: ٧، ١٠، ٢٨؛ ٤: ٤١). ثمّ يُدرك المسيحيّون أنّ ابن البشر هذا، الّذي له على الأرض سلطة الله نفسه، سيُقدّم ذاته على الصّليب لفداء العالم (راجع ٨: ٣١؛ ١٠: ٣٥-٤٥). وهكذا يتعلّم المسيحيّ كيف يكون

"حامل الجسد"، بعد أن تعلّم كيف يكون "حامل المسيح"، و "حامل الرّوح"، و "حامل الآب".

ت. رمزيّة الإنجيليّين

تستند رموز الإنجيليّين كما تظهر في الفنّ الإيقونوغرافيّ البيزنطيّ (الإيقونات) إلى نصٍّ كتابيٍّ نبويٍّ من العهد القديم (حزقيال ١: ١٠) أعاد يوحنّا قراءته في السِّفر الأخير من الكتاب المقدّس (سفر الرّؤيا)، فقال: "وفي وسط العرش، وحول العرش، أربعة حيواناتٍ ممتلئةٍ عيونًا من الأمام ومن الوراء (تشير كثرة العيون إلى العلم الشّامل والعناية الإلهيّة السّاهرة): فالحيوان الأوّل يُشبه الأسد، والحيوان الثّاني يُشبه العِجْل، والحيوان الثّالث له وجهٌ كوجه إنسان، والحيوان الرّابع يُشبه العُقاب الطّائر" (٤: ٦-٧). فلقد رأتِ الكنيسة من خلال قراءتها لرمزيّة هذه الأشكال الأربعة، أنّها ترمز إلى الإنجيليّين الأربعة:

- فالأسد يرمز إلى مرقس، لأنّه يبدأ إنجيله بكرازة يوحنّا المعمدان في البريّة، حيث تكثر الأسود (١: ٢)؛
- والعِجل يُشير إلى لوقا، لأنّه في مستهلّ إنجيله يروي قصّة زخريّا الكاهن في الهيكل حيث تُقدَّم الذّبائح للرّبّ (١: ٨-٩)؛
- أمّا وجه الإنسان فيرمز إلى متّى، لأنّه يبدأ إنجيله بنسَب يسوع بحسب الجسد (١: ١)؛
- وأخيرًا يُشير العُقاب الطّائر إلى يوحنّا، لأنّه يبدأ إنجيله بالتّحليق في أعالي السّموات ليَصف وجود الكلمة لدى الله منذ الأزل (١: ١).

٤. اللّيتورجيّا البيزنطيّة ليتورجيّةٌ كتابيّةٌ بامتياز

من هنا نؤكّد أنّ اللّيتورجيّا البيزنطيّة متأصّلةٌ في الكتاب المقدّس، ويحتلّ هذا الأخير، المركز الأساسيّ فيها، حتّى يتبيّن أنّه من الصّعب أحيانًا فصل النّصّ اللّيتورجيّ عن النّصّ الكتابيّ، إذ **لا ليتورجيّا بدون الكتاب المقدّس**. ويشكّل الاحتفال الطّقسيّ الواحة الكنسيّة الفُضلى لقراءة "كلمة الله" واعلان "البشرى". واللّيتورجيّا البيزنطيّة، في عمق لاهوتها، بيبليّةٌ، وللكتاب المقدّس مكانةٌ محوريّةٌ فيها؛ فهي تصلّي الكتاب المقدّس وتفكّر فيه وتتأمّله وتفسّره،

وتوزّعه زادًا على المؤمنين، وتجعله ينبوعها ومصدر وحيها ورمزيّتها ونثرها وشعرها، وغايتها الأخيرة. وعليه، فالجماعة البيزنطيّة المصليّة تُعتبر جماعةً كتابيّةً في محوريّة اللّقاء مع "كلمة الله"؛ فيها تفسّر الكلمة وتُعلَن البشارة الّتي تحملها الكنيسة رسالةً حيّةً إلى العالم كلّه.

إنّ الأسفار المقدّسة والليتورجيّا الإلهيّة هما "كتابٌ واحدٌ" ذو دفّتين. فإذا قرأتَ الصّفحة الأولى تكون الثّانية مكمّلةً لها. والكتاب المقدّس يُقرأ في "إطارٍ ليتورجيّ". إنّه مُعطًى لنا في الكنيسة عبر السّنة الطّقسيّة والأزمنة اللّيتورجيّة المختلفة. فالكنيسة تدعونا اليوم إلى فهم الكتاب من خلال اللّيتورجيّا. فعندما أفتح الكتاب المقدّس، وأنا لوحدي أصلّي، أفتحه ليتورجيًّا، لأنّ الكنيسة بأجمعها تقرأ الكتاب من خلالي وبواسطتي. أجل، إنّ اللّيتورجيّا تُعلّمني التّصرّف في حضرة الله الّذي يتكلّم معي. وتُذكّرني أنّ "الأنا" الإنسانيّة هي عضوٌ في جسد المسيح السّرّيّ "الكنيسة". تُعلّمني اللّيتورجيّا أيضًا القراءة الصّحيحة للأسفار المقدّسة، لأنّها تُدخلني، من جديد، في إطار الخلاص. إنّها تجعل الزّمن المؤقّت زمنًا أبديًّا وإلهيًّا محوّلاً إلى زمنٍ خارج حدود الزّمن. فلا غرو إذا قُلنا إنّ اللّيتورجيّا تُحرّر الزّمن الدوريّ لتجعل منه زمن الصّلاة والاتّحاد بالله، إذ إنّ الكنيسة، وفي كلّ عيدٍ ليتورجيّ، تُعلن للملأ: **"اليوم يوم القيامة... اليوم** رأس خلاصنا... **اليوم** عُلّق على خشبة... **اليوم** وُلدَ المسيح في بيت لحم...". هذا ما حدا بآباء الكنيسة أن يرَوا، من خلال قراءتهم للكتاب المقدّس، المسيحَ نفسَه حيًّا يتكلّم معهم. إنّهم كانوا "يأكلون" الكلمة كما كانوا يتناولون الجسد والدّم الإلهيّين.

ولذا، فالنّصّ الكتابيّ كان يدفعهم إلى توثيق روابط الحبّ بينهم وبين المسيح. فلا غرو أنّ أهميّة القراءة الكتابيّة كانت تكمن في واقع راديكاليّ[٢٣١]؛ تقود الكلمة المسموعة دائمًا إلى شخص المسيح. فقد كان آباء الكنيسة يعيشون من الكتاب، ويفكّرون بواسطته ويتكلّمون عنه بطريقةٍ

---

٢٣١) **الرّاديكاليّة**: تعني باللّغة العربيّة حسب المعنى الحرفيّ للكلمة "أصل" أو "جذر"، ويقصد بها عمومًا (مثل كلمة "أصوليّة") العودة إلى الأصول والجذور والتّمسّك بها والتّصرّف أو التّكلّم وَفقها.

عميقة، حتّى إنّهم شابهوا كيانهم مع جوهر الكتاب. وهكذا، فإنّنا نعود إلى ما أعلنه المجمع الفاتيكانيّ الثّاني في دستوره العقائديّ في "الوحي الإلهيّ" حيث يدعو آباء المجمع المقدّس جميع المسيحيّين، إكليروسًا وشعبًا، على قراءة الكتاب المقدّس:

"إنّ المجمع المقدّس يحثّ أيضًا بصورةٍ خاصّةٍ وبقوّة، المسيحيّين جميعَهم... على استكشاف "معرفة المسيح يسوع الفائقة" (فيلبّي ٣: ٨). بالمواظبة على قراءة الكتب الإلهيّة، "لأنّ مَن جَهِلَ الكتب المقدّسة، جهل المسيح". فليُقبلوا، إذًا، عن رضًى على النّصوص المقدّسة نفسِها، سواء عن طريق اللّيتورجيّا المقدّسة المُشبعَة بالكلام الإلهيّ، وإمّا في القراءة الخاشعة... إنّما عليهم أن يتذكّروا أنّه يجب أن يَقرِنُوا الصّلاة بقراءة الكتب المقدّسة، لأنّ بهما [الصّلاة والقراءة] ينشأ الحوار بين الله والإنسان، لأنّنا نتحدّث إلى الله عندما نُصلّي، ولكنّنا نستمع إليه عندما نقرأ آيات الوحي الإلهيّ"[٢٣٢].

٥. علاقة "كلمة الله" بوجود الإنسان

بيد أنّ ثمّة سؤالاً يطرح بظلاله علينا: ما هي العلاقة الّتي تربط "كلمة الله" و"وجود الإنسان"؟ إنّ النّصّ الكتابيّ موجودٌ من أجل قارئ، في سبيل أن يُخاطبه، فيلمسه شخصيًّا، ويُضفي معنًى على حياته واختباراته الإنسانيّة، على ماضيه وحاضره ومستقبله، ويوجّه أعماله وتصرّفاته، فليس الكتاب المقدّس كتابًا يتحدّث عن الله فحسب، بل وعن الإنسان أيضًا. فإنْ كانت كلمة الله موجّهةً إلى الإنسان، في توافُقٍ بينهما، فمصيرها أن تدخل إلى عمق حياته وتوجّهه وتضفي معنًى على حياته، وليس في ذلك أيّ لونٍ من ألوان النّرجسيّة أو الإنغلاقيّة أو الأنانيّة، بل على نقيض ذلك فإنّ كلمة الله هي بمثابة منبرٍ نقديٍّ يدعو الإنسان إلى الاهتداء المستمرّ، وإلى الانفتاح المستديم على الله الّذي يخاطب الإنسان ويعمل لخلاصه، هكذا فإنّ كلمة الله المتسامية كلّ التّسامي والمتميّزة عن الإنسان والخارجة عنه، تُصبح شيئًا فشيئًا كلمة الإنسان

---

٢٣٢) ***المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دستور عقائديّ في الوحي الإلهيّ***، ص. ١٤٠.

الشّخصيّة والمندمجة في عمق كيانه، فليس الإنسان كالشّمع الّذي يتشكّل بأيّ تأثيرٍ خارجيّ، بل إنّه لا يفهم إلاّ ما يستوعبه ويدمجه ويجعله شخصيًّا: فما هو عامٌّ يُصبح خاصًّا، وما هو بعيدٌ يصبح قريبًا، وما هو خارجيٌّ يصبح داخليًّا، وما هو غريبٌ يصبح شخصيًّا. من هنا نقول إنّ العلاقة كلمة الله/وجود الإنسان لا تُمثّل للمسيحيّة مشكلةً، وذلك بفضل التّجسّد، حيث إنّ "الكلمة صار بشرًا" كما قال يوحنّا الإنجيليّ (١: ١٤). هذا ما عبّر عنه العلاّمة أوريجانوس، بقوله:

"القول إنّ الكتاب المقدّس هو كلمة، يعني أنّ هذه الكلمة هي مَدخل إلى الحوار. فهي تتوجّه إلى شخص وتنتظر منه الجواب. الله يُقدّم نفسه من خلال كلمته وينتظر من الإنسان حركة ارتدادٍ وتوبةٍ إليه. ومَن لا يُعطِ أيّ جوابٍ يستحيل عليه إدراك الكلمة"[٢٣٣].

٦. **إعلان تلاوة الإنجيل المقدّس في اللّيتورجيّا الإلهيّة**

- **الحكمة. لِنقف**

هناك بعض الفرضيّات الّتي تُشير إلى أنّ هذه الكلمات أدخلت إلى اللّيتورجيّا البيزنطيّة في القرن الرّابع للميلاد في سوريا. وهذا يظهر جليًّا في الدّساتير الرّسوليّة، الكتاب الثّاني: "بينما يتمّ تلاوة الإنجيل، ينبغي على جميع الكهنة، والشّمامسة، والشّعب كلّه، **الوقوف بصمتٍ عظيم**، لأنّه مكتوب: "أُسكت واسمع يا إسرائيل: إنّك اليوم صرت شعبًا للرّبّ إلهك، فاسمع لصوت الرّبّ إلهك واعمل بوصاياه وفرائضه" (تثنية ٢٧: ٩-١٠)"[٢٣٤]. لم يكن الوقوف لتلاوة الإنجيل المقدّس علامة الاحترام الوحيدة الممنوحة من قِبَل المؤمنين إلى كلمة المسيح الحيّة، بل كان جميع المؤمنين يقفون مكشوفي الرّأس، حتّى الإمبراطور نفسه والأساقفة كانوا يخلعون التّيجان عن رؤوسهم، وهي ممارَسةٌ ما زالت ملحوظةٌ في الطّقس البيزنطيّ حتّى أيّامنا الحاضرة. إنّ الإصغاء المطلوب أثناء القراءات المقدّسة هو أن نؤهّب أنفسنا ليس جسديًّا فحسب، بل روحيًّا.

من هنا نُدرك أنّ حركة الجسد هذه، أعني بها "الوقوف"، ما هي، في الواقع، إلاّ تعبيرٌ خارجيٌّ عن وضعيّة المؤمن الدّاخليّة والقلبيّة. إنّها ثمرةٌ روحيّةٌ حصل

٢٣٣) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٤٠٥.

٢٣٤) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.438.

عليها المؤمن نتيجة زرع بذرة كلمة الله في أرض الرّوح الطّيّبة: "خرج الزّارع ليزرع زرعه. وبينما هو يزرع، وقع بعض الحَبّ على جانب الطّريق، فداسَتْه الأقدام، وأكلَتْه طيور السّماء. ومنه ما وقع على الصّخر، فما إن نبتَ حتّى يبس، لأنّه لم يَجِدْ رطوبة. ومنه ما وقع بين الشّوك، فنبتَ الشّوك معه فخنقه. ومنه ما وقع على الأرض الطّيّبة، فنبتَ وأثمر مائة ضعف. قال هذا وصاح: مَن كان له أذُنان تسمعان فليَسمع" (لوقا ٨: ٥-٨). هذا ما يحدث لأولئك الّذين لا يُصغون إلى قراءة الكتاب المقدّس بانتباهٍ ملائمٍ وخاصّ، وبالتّالي، لا يمكن أن تتجذّر الكلمة في النّفس، بسبب انشغال العقل بالاهتمامات الدّنيويّة، مِما يحول دون أن تحمل الكلمة الثّمار المرجوّة.

فاللّيتورجيّا إذًا تُحذّرنا من مثل هذا الخطر الرّوحيّ الكامن في الاستماع غير المُجدي وغير المُثمر لكلمة الله. لذلك يُصغي المؤمنون إلى تلاوة الإنجيل المقدّس وهم **وقوف**. وهذه عادةٌ قديمةٌ جدًّا في الكنيسة، تُشير إلى الفرح والحريّة والقيامة الرّوحيّة الّتي جاء بها الإنجيل إلى الإنسانيّة. وهي إلى ذلك علامةٌ احترامٍ وانتباه، وكأنّي بالمؤمنين خدّامٌ أُمناء يستمعون لأوامر سيّدهم ويتأهّبون لتنفيذها على الفور. وذلك نكون في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ قد **اقتبلنا في عقولنا "الكلمة الحقّ" قبل أن نقتبل في قلوبنا "الكلمة الذّبيحة"**.

- **ونسمع الإنجيل المقدّس**

إنّ حضور المسيح في الإفخارستيّا هو حضورٌ فاعل، كما أنّ الإنجيل هو "الخبز النّازل من السّماء"، فإنّه كما قال يسوع: "مَن أكل جسدي وشَربَ دمي له الحياة الأبديّة" (يوحنّا ٦: ٥٤)، وقال أيضًا: "مَن سَمِعَ كلامي... فله الحياة الأبديّة" (يوحنّا ٥: ٢٤). كذلك فإنّ المؤمن المشترك في اللّيتورجيّا الإفخارستيّة يجب أن يكون على مثال صموئيل الّذي قال: "تكلّم يا ربّ فإنّ عبدك يسمع" (١ صموئيل ٣: ١٠)؛ وعلى مثال العذراء مريم والدة الإله: "أنا أَمَةُ الرّبّ، فليكن لي بحسب قولك" (لوقا ١: ٣٨). يُجسّد هذان النّموذجان الإنسانيّان استسلام الإنسان الطّوعيّ والاختياريّ بملء الحريّة والإرادة لمشيئة الله الخلاصيّة والعمل بموجبها كنهج حياةٍ يَصِلُ من خلاله الإنسان إلى الاتّحاد بالله.

- **"تكلّم يا ربّ"**

عبارةٌ تدعونا إلى مسيرةٍ روحيّةٍ هدفها المساعدة على البحث عن إرادة الله في مجال حياتنا اليوميّ على ضوء الكتاب المقدّس، المرآة الحقيقيّة للنّفس التّائقة إلى الاتّحاد بالله وعيش الشّركة معه. وهكذا نُدرك أنّ سماع الإنجيل هو احتكاكٌ شخصيٌّ بالرّبّ يسوع، يلتقي به المؤمن ليتشدّد ويتهيأ لسكنى الرّبّ فيه، وهو ليس مجرّد لقاء ألفة وإنّما يلقي بالمؤمن في تيّار التجسُّد المتدفّق ليهب الحياة للعالم. ويشهد الرّوح القدس للكلمة شهادةً حيّة، إذ يفتح ذهن الشّعب لكي يفهم الكُتُبَ بسماع الوعظ، وهو ليس مجرّد تفسيرٍ للإنجيل، بل ليعيش ما عاشه تلميذا عمّاوس: "أمَا كان قلبُنا مُتَّقدًا في صدرنا، حين كان يُحدّثنا في الطّريق ويشرح لنا الكُتُب؟" (لوقا ٢٤: ٣٢).

- **"فإنّ عبدك يسمع"**

للفعل "يسمع" معنيان: الأوّل بمعنى "يُصغي" أي يسمع صوتًا أو كلامًا؛ والثّاني بمعنى "يُطيع". فالمعنيان لا يكتملان عبر الإصغاء بالأذن البشريّة الطّبيعيّة، بل يجدان اكتمالهما من خلال الإصغاء بالأذن الرّوحيّة الّتي تشتاق إلى سماع كلمة الله. فغالبيّة البشر لهم آذانٌ سليمة، ولكنّهم لا يرغبون في سماع صوت الله يدعوهم من خلال الكتاب المقدّس إلى عيش الحياة الحقيقيّة، المسيح المخلّص أو طاعة وصاياه. فالطّاعة تقتضي أن نعمل مشيئة الّذي اختارنا وأرسلنا إلى العالم لنكون الخميرة الجيّدة الّتي تُخمِّر العجين، وأن نُردّد مع المسيح: "طعامي أن أعمل بمشيئة الّذي أرسلني وأن أتمّ عمله" (يوحنّا ٤: ٣٤، راجع أيضًا يوحنّا ٥: ٣٠؛ ٦: ٣٨). إنّ طاعة المسيح لإرادة الآب السّماويّ بلغت به إلى الموت، الموت على الصّليب، ذلك أنّ الطّاعة لا تخلو من التّواضع والانسحاق أمام مخطّط الله الخلاصيّ في حياة الإنسان الشّخصيّة (أنظر طاعة ابراهيم في سفر التّكوين ١٢: ١-٤؛ ١٧: ١؛ ٢٢: ٢-١٨)، على مثال المسيح الّذي "وضع نفسه [تجرّد من ذاته] (فيلبّي ٢: ٧) وأطاع حتّى الموت، موت الصّليب" (فيلبّي ٢: ٨)، وبالتّالي، أصبح سبب خلاص أبديٍّ لجميع الّذين يُطيعونه (عبرانيّين ٥: ٩).ويذهب بولس الرّسول إلى أبعد من هذا ليُعلن أنّ الإيمان لا يكتمل إلاّ بسماع كلامٍ عن المسيح، وهو مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالإصغاء إلى كلمة الله: "... فقد قال أشعيا: يا ربّ، مَن

الّذي آمن بما سَمِعَ منّا؟ فالإيمان إذًا من السّماع، والسّماع يكون سماعَ كلامٍ على المسيح" (رومة ١٠: ١٦-١٧). وتجدر الإشارة هنا إلى مريم أخت لعازر الّتي تركت أختها مرتا تخدم وتهتمّ بأمور العالم الدّنيويّة حين زار بيتهما يسوع، وجلست هي عند قدمَيه تُصغي إلى كلامه: "وكان لها أختٌ تُدعى مريم، جلست عند قدَمَي الرّبّ تستمع إلى كلامه" (لوقا ١٠: ٣٩)، وهو كلام النّعمة الخارج من فمه (لوقا ٤: ٢٢)، وهو الحياة الأبديّة: "أجابه سمعان بطرس: يا ربّ، إلى مَن نذهب وكلام الحياة الأبديّة عندك" (يوحنّا ٦: ٦٨).

- **تحيّة السّلام: السّلام لجميعكم**

مئات السّنين قبل تجسُّد الله الابن، يسوع المسيح، شَهِدَ النّبيّ أشعيا أنّ المسيح هو "رئيس السّلام" (٩: ٦)، وأنّ سلامه هو سلامٌ أبديّ: "لنموّ الرّئاسة ولسلامٍ لا انقضاء له" (٩: ٧)؛ وفي ميلاده، رنّم الملائكة السّلام (لوقا ٢: ١٤)؛ والسّلام هو الرّسالة العظيمة لإنجيله: "ما أجمل أقدام المُبشّرين بالسّلام المُبشّرين بالخيرات" (رومة ١٠: ١٥). بناءً على ذلك، فإنّ السّلام الّذي يُعلنه الكاهن للجماعة هو اسم المسيح، لا بل إنّ المسيح هو السّلام عينه. تَسبق هذه التّحيّة السّلاميّة كلّ قسمٍ جديدٍ من اللّيتورجيّا الإفخارستيّة: فهي تُعطى قبل قراءة الكلمة الإلهيّة والقُبلة السّلاميّة المقدّسة وتوزيع الأقداس، لتُذكِّرَنا كلَّ مرّةٍ أنّ المسيح "بيننا" يرأس هو بنفسه قدّاسنا الإلهيّ، لأنّه هو المقرِّب والمقرَّب، القابل والموزَّع. إنّها تحيّةٌ ليتورجيّةٌ تبنّتها اللّيتورجيّا من الرّبّ نفسه الّذي خاطب تلاميذه بعد قيامته من بين الأموات بهذه الكلمات: "السّلام لكم" (يوحنّا ٢٠: ١٩)؛ إنّه سلام المسيح القائم والحيّ والحاضر في وسط كنيسته للأبد (راجع متّى ٢٨: ٢٠).

إنّ الكاهن بإعطائه هذه التّحيّة السّلاميّة للمُصلّين يُعبّر عن رغبته بأن تُصغي الجماعة إلى كلمة الله في سلام، وأنْ يكون الله حاضرًا، بسلامه هذا السّماويّ، في قلب الإنسان أثناء قراءة كلمته الإلهيّة المُحيية. إنّ هذا السّلام الّذي يُعطيه الكاهن باسم المسيح للشّعب يُشير أنّه في "المسيح يعود الإنسان إلى الله وفيه [المسيح] يأتي الله إلى الإنسان. يقودنا المسيح إلى الله من حيث هو آدم الجديد والإنسان الكامل، يُعلن لنا الآب ويُصالحنا مع الله لأنّه الإله المتجسّد

وهو سلامُنا، مصالحتُنا مع الله، يمدّ لنا عفو الله ويُدخلنا في شَركَةٍ معه"[٢٣٥]. من هنا، فإنّ السّلام الّذي يعلنه الكاهن ويسبغه علينا هو السّلام الّذي أقامه المسيح بين الله وعالمه، والّذي إليه نحن، الكنيسة، قد دخلنا. بينما يصلّي الشعب الّذي يقبل بركة السّلام من الكاهن لأجله "**ولروحك**"، فهو الأب والرّاعي وذلك كي يجني هو أيضًا سلام الله.

- **فلنصغ**

قبل أن يبدأ الكاهن (أو الشّماس الإنجيليّ في حال وجوده) تلاوة الإنجيل المقدّس "بنغمٍ كنسيٍّ وصوتٍ هادئٍ واضح"[٢٣٦]، يدعو المؤمنين إلى الإصغاء إلى كلمة الله، ليس بآذانهم الطّبيعيّة فحسب، بل من خلال آذان قلوبهم، بقوله: "فلنصغ"، إذ إنّ الإصغاء إلى الإنجيل المقدّس هو بحدّ ذاته إصغاءٌ إلى كلمة الحياة الأبديّة، الكلمة الّتي تجعل من الإنسان المُصغي والمتفاعل معها إنسانًا جديدًا وخليقةً جديدةً في المسيح يسوع. إنّه لَمِن الأهميّة الكبيرة تذكير مرتّل الإنجيل أنّه ينقل رسالةً إلهيّة، وأنّ ترتيله، أكان بسيطًا أم منمّقًا، يجب ألاّ يهدف، في الأساس، إلى إبراز جمال صوته وما توصّل إليه من فنٍّ في الأداء، بل أن يوصل إلى المستمعين جمال النّصّ المقدّس وما يتّسم به من سماتٍ إلهيّة، ويخلق فيهم الشّعور بالمجد والفرح لكونهم في حضرة الله.

- **جواب المؤمنين**

أمّا جواب المؤمنين "المجد لك يا ربّ، المجد لك" قبل تلاوة الإنجيل المقدّس وبعده، فيرتبط ارتباطًا وثيقًا بإيمان الكنيسة ولاهوتها بأنّ كتاب الإنجيل يُمثّل المسيح نفسه، كلمة الله المتجسّد في صفحات هذا الكتاب الإلهيّ. إنّها أيضًا تعبيرٌ عن الابتهاج الرّوحيّ والإشادة بالمعلّم الإلهيّ الّذي كشف ذاته للإنسان. إنّ هذه الصّيغة تعود إلى القرن الثّامن للميلاد، وهي كثيرًا ما توجَد في المخطوطات اللّيتورجيّة اللّاحقة[٢٣٧].

---

٢٣٥) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٤٧.

٢٣٦) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة***، ص. ٩٢.

٢٣٧) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.439.

٧. عادة إضاءة الشّموع أثناء تلاوة الإنجيل المقدّس

عادةٌ قديمةٌ كان يتميّز بها الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة، حيث كان المؤمنون يحملون شموعًا مُضاءةً أثناء تلاوة الإنجيل المقدّس ترمز إلى أنّ الإنجيل المقدّس، كلمة الله الحيّة، هو النّور الحقيقيّ الّذي يُنير حياتنا ودربنا (راجع يوحنّا ١: ٩). لقد آمن المسيحيّون على مرّ العصور إيمانًا لا يقبل الجدل بأنّ كلمة الله هي النّور الإلهيّ الّذي يُنير عتمات حياتهم ويُضيئها، انطلاقًا من خبرة كاتب المزامير الّذي قال: "كلمتك مصباحٌ لِخُطايَ، ونورٌ لسبيلي" (مزمور ١١٨: ١٠٥). يُصرّح القدّيس جيروم قائلاً:

"في كلّ الكنائس الشّرقيّة، تُضاء الشّموع قبل تلاوة الإنجيل المقدّس، حتّى خلال النّهار عندما تكون الشّمس ساطعة. إنّها لا تُضاء بهدف إزالة الظّلمة، بل إنّها علامة الإجلال والفرح"[٢٣٨].

إنّ هذا الإجلال والفرح يُشيران إلى أنّ المسيح يظهر بيننا ويتحدّث معنا كما فعل يومًا في شخصه مع اليهود والرّسل. أمّا في أيّامنا الحاضرة، فيُكتفى بحاملي الشّمعدانين، إشارةً إلى أنّ نور المسيح هو الّذي يُضيء جميع المؤمنين. نجد ذكرًا لهذه العادة منذ القرن الرّابع للميلاد لدى القدّيس إيرونيموس الّذي قال:

لدى قراءة الإنجيل المقدّس، تُضيء الكنائس الشّرقيّة الشّموع، تعبيرًا عن فرحها للبشرى الصّالحة الّتي يُعلنها الإنجيل المقدّس من جهة، وكوسيلةٍ حسيّة، من جهةٍ أخرى، تُشير إلى النّور.

٨. عادةٌ كنسيّةٌ أخرى

يذكر الرّاهب القدّيس إيسيذوروس البيلوسيّ (من مواليد الإسكندريّة في مصر، في منتصف القرن الرّابع للميلاد) عادةً كنسيّةً أخرى تدخل في منظومة العمل اللّيتورجيّ والطّقسيّ، وهي تخصّ ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ في حال وجود الأسقف، يقول:

عندما يظهر الرّاعي الحقيقيّ ورئيس الكهنة الأعظم لدى فتح الإنجيل المقدّس، إذّاك يقف الأسقف ويضع جانبًا كلّ شارات سلطته ورتبته

٢٣٨) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.202.

الأسقفيّة، مشيرًا بذلك إلى أنّ الرّبّ نفسه، واضعَ الوظيفة الرّعويّة، إلهه وسيّده، قد حضر الآن.

واليوم أيضًا، لدى ترتيل الإنجيل المقدّس، ينزع الأسقف عن رأسه تاجه الأسقفيّ، ويضع جانبًا عصاه الرّعائيّة وكلّ شارات سلطته الأسقفيّة، إشارةً إلى الحضور الشّخصيّ للسّيّد المسيح من خلال الإنجيل المقدّس.

٩) العِظَة

١. العِظَة موهبةٌ من مواهب الرّوح القدس

إنّ العِظَة الحقيقيّة ليست في أن يشرح شخصٌ كَفوءٌ نصًّا إنجيليًّا ما، أو في أن ينقل الواعظ معلوماتٍ لاهوتيّةٍ إلى الحضور، ولا في تأمُّلٍ في موضوع الدّرس، إذ إنّ الموهبة الحقيقيّة للكلمة والبشارة الإنجيليّة لا "تنبع" من داخل الواعظ ولا من غزارة علومه اللّاهوتيّة وشهاداته الأكاديميّة، بل هي "**موهبةٌ من الرّوح القدس تُعطى للكنيسة في الكنيسة**، لأنّ الاجتماع في الكنيسة هو اجتماعٌ حقيقيٌّ في الرّوح القدس، اجتماعٌ يفتح فيه الرّوح القدس نفسُه الشّفاهَ للوعظ والأذهان لتقبُّل العِظة"[٢٣٩]. على الواعظ أن يَكفُر بنفسه وأن يتخلّى عن كلّ ما هو منه وحتّى عن موهبته الشّخصيّة، لأنّ سرّ التكلُّم بالإلهيّات في الكنيسة يأتي **بقوّة الله** وخلافًا للبلاغة البشريّة البحتة (١ كورنثس ٢: ١-٥).

من هنا نؤكّد أنّ هدف العِظة الأساسيّ هو الشّهادة بيسوع المسيح انطلاقًا من عمل الرّوح القدس (١ يوحنّا ٥: ٦). إنّ قوّة العظة لا تكمن في استخدام أساليب الخطابة واللّغة القويّة، بقدر ما هي في قوّة الكلمة الإلهيّة المبشّر بها. فالفاعل هو نعمة الرّوح القدس والأداة هي قوانين الوعظ. هنا تكمن النّقطة الفصل بين الوعظ والخطابة. فالواعظ باللّغة الكنسيّة هو **مبشّرٌ وليس خَطيبًا في النّاس**. دور الواعظ إيصال الكلمة الإلهيّة وليس تعليم كلمته البشريّة بحسب قول المزمور "يا ربّ افتح شفتيّ فيُذيع فمي بتسبيحك". هكذا كان القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ يستهلّ مقدّمته التّمهيديّة لدرس العقيدة المسيحيّة بهذه العبارة:

---

٢٣٩) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا، سرّ الملكوت***، ص. ١١٣.

"إنّي خاطئٌ حقير. أفتح فمي الثّقيل والبطيء اللّسان، واثقًا في أنّ اللّه يهبني روح الحكمة، نظرًا إلى اتّضاع الّذين طلبوا منّي الكلام، ومنفعة المُستمعين"[٢٤٠].

٢. صفات العِظة الأساسيّة

أ. كتابيّة

من حيث أنّ الكتاب هو نبع الكشف الإلهيّ ومصدره، وهو الطّريق الّتي تسير بنا إلى حفظ الوصيّة الإلهيّة وعيشها. هكذا يشكّل الكتاب بالوقت ذاته "أداةً" للوعظ، ولكن أيضًا غايةً من غاياته. فتفسير الكتاب بحدّ ذاته يعني إيصال الكشف الإلهي للنّاس. من ناحيةٍ أخرى، يمتلك الكتاب المقدس عصمةً في قلوب النّاس تُعطي الوعظ مصداقيّته ووَحيه الإلهي. لذا كلّما استوحت العظة أو احتوت من الآيات الكتابيّة كلّما حملت روحًا وامتلكت ثقة المستمعين. من أجمل ما في عظات القدّيسين هو كيفيّة ربطهم لأحداث الكتاب في المواضيع المطروحة.

- محوريّة المسيح أنّه الطّريق والحقّ والحياة

الإنجيل كروايةٍ عن حياة المسيح ووصاياه وعمله وأقواله هو أداتنا لكشف الحقّ. وهذا الحقّ حين نكتشفه يجعلنا "نحيا به" فيصير هو الحياة. فالمسيح بالإنجيل هو أداة الواعظ والمسيح من الإنجيل هو غاية الواعظ. يجب ألاّ يقع الوعظ في فخ التّعليم الأخلاقيّ فيقلب المسيحيّة إلى علم اجتماع. بولس الرّسول يعرِّف إنجيله (بشارته) بكلماتٍ محدَّدة أنّ "الرّبّ يسوع مات وقام". إذا كان دور الواعظ هو إيضاح الكشف الإلهيّ، فبحسب ما قال يسوع لأندراوس: "مَن رآني فقد رأى الآب"، يكون عمل الواعظ هو إظهار الابن في محبّته ومصالحتنا به مع الآب. المسيح هو المعلّم وهو الواعظ بفم الواعظ وهو الموعوظ به. هو ملء الزمان "وإكمال النّاموس وهو يملأ قلوبنا فرحًا. المسيح كلمة اللّه وتعبير إرادته، فهو الكلمة المشروحة والكلمة المدلول عليها. المسيح هو "الكلّ في الكلّ" (١ كورنثس ١٥: ٢٨).

---

٢٤٠) __*تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة*__، ص. ٦٦٧.

ب. آبائيّة

يشكّل التّفسير الآبائيّ تفسيرًا حيًّا للإنجيل. التّقليد والإرث الآبائيّ هو الإنجيل في التّاريخ مُفسّرًا ومُعاشًا. بالرّوح القدس قرأ الآباء الكتاب وبهذا الرّوح فسّروه وبهذا الرّوح عينه كتبوا وأجابوا على مشاكل وأسئلة زمانهم. لا يشرح الكتاب إلاّ الكنيسة، والمتمثّلة بآبائها القدّيسين، فكما أنّ مصدر الوحي في الكنيسة هو الرّوح ومادة الوحي هي الكتاب، فإنّ مصدر التّفسير هم الآباء. يقدّم لنا الأدب الآبائيّ أمرَين، أولاً التّفسير الصحيح، أي كيف تقرأ الكنيسة الإنجيل والكتاب عمومًا، وثانيًا نماذج في الرعاية والوعظ مثاليّة تؤمّن لنا مصدرًا ومرجعًا للوعظ غنيًّا جدًّا.

ت. ليتورجيّة

بالأساس اللّيتورجيّا هي الإطار الأساسيّ للوعظ، زمنًا ومكانًا. وتحتوي اللّيتورجيّا على أهم أُسُس العقيدة والتّفسير الكتابيّ. اللّيتورجيّا هي بالنّهاية "عملُ الجماعة الكنسيّة" الّتي تسمع الكلمة وتتأمّل بها. فالكلمة تقود إلى اللّيتورجيّا واللّيتورجيّا تُحيي الكلمة. لذلك غاية الوعظ ليست تفسير الكلمة وحسب، وإنّما استخدام هذا التّفسير لتقود المؤمن إلى اللّيتورجيّا. الوعظ يهيّئ إلى المشاركة في اللّيتورجيّا. فالوعظ يهيّئ للمعموديّة، والوعظ يهيّئ لسرّ الشّكر الإلهيّ. والوعظ سيجعل المؤمنين يمارسون كلّ الأسرار الكنسيّة بوعي ومعرفةٍ روحيّة.

ث. عملانيّة

من حيث أنّ المسيحيّة هي علمٌ تطبيقيٌّ وليست دينًا نظريًا، فإنّ ممارسة الوعظ يجب أن تمسّ حياة النّاس في حاجاتها ومشاكلها ورجائها.

ج. كلمة تعزية

الكلمة اللّاهوتيّة هي الّتي تَصِلُ الإنسان بالله. والعظة الحقيقيّة هي الّتي تنقل الإنسان إلى الله وتنقل نعمة الله إليه. الواعظ وسيطُ سلامٍ بين الموعوظ و"إله السّلام إله كلّ تعزية" (٢ كورنثس ١: ٣). ويفترض أن يكون استخدام الكلمة الإلهية بالواقع صحيحًا ومعزيًّا. لأنّ هذه هي أداة الله المعبّر عنها

بالكلمة "أنّ جميع النّاس يخلصون". لهذا يُفضَّل أن يبتعد الوعظ عن لغة التّهديد والتّأنيب، وأن يلتزم لغة التّهذيب والوداعة. إنّ قوّة العظة وفاعليّتها ودعوتها للتّوبة تكمن في قوّة الكلمة الإلهيّة وليس في قساوة التّعبير. ويجب ألاّ يخلط الواعظ بين تأنيب الخطيئة وتأنيب الخاطئ. غاية العظة هي رفع قدرة المستمعين على التزام الحياة المسيحيّة، وأن تسكب في قلوبهم النّعمة الّتي تقودهم إلى التّوبة والرّجاء. الواعظ ليس حاكمًا، بل "معزّيًا". من الجيّد أن نتذكّر دائمًا أنّ الشّعب الحاضر في الكنيسة جاء إليها ينتظر تعزيّة ولا يطلب شيئًا آخر. والعظة جانبٌ أساسيٌّ من الطّقس اللّيتورجيّ يمكنها أن تقدّم الكثير من خلال شرح الكلمة والأسرار الإلهيّة.

٣. التّعليم والوعظ في حياة الكاهن

عودٌ على بدء نقول إنّه لا يمكن أن يكون الكاهن كاهنًا حقيقيًّا دون أن يعلّم ويبشّر بالكلمة، فهو المدرّب والمعلّم قبل كلّ شيء. الكلمة الإلهيّة هي مادّة عمل الكاهن الأولى. الكاهن هو "فم المسيح" لأنّ على فمه دائمًا "الكلمة"، إنّه لا يَعِظُ بكلامه الشّخصيّ بل هو كالنّبيّ يُعلن كلمة الله ويشرحها ويحثّ على تطبيقها (راجع ١ كورنثس ٢: ١١-١٤). مَن يترك الكلمة يكون قد تخلّى عن الهُويّة الأساسيّة لكهنوته. للتّعليم دوران مهمّان، الأوّل: هو تنشئة أبناء الرّعيّة على ماء الكلمة الإلهيّة الحيّ؛ والثّاني: هو تأديبيّ، بحيث يَفرز ويَدحض على أساسها المسيئين للكنيسة والهراطقة والتّعاليم الدّهريّة غير الإنجيليّة. الكلمة الإلهيّة هي المعيار لحياة الكنيسة. التّعليم ليس دائمًا تنشئة بل وأحيانًا تأديب، لأنّ القيمة والكرامة هي في عين الله وليست في عين النّاس. الواعظ والمعلّم هو قائدٌ للنّفوس إلى التّوبة والحياة مع الله كبولس الرّسول. "التّعليم" هو "الزّرع" في عمل الكاهن الّذي يُشبَّه بالزّارع. الكاهن هو أيضًا نهر ماءٍ جارٍ يسقي الأشجار على طرفيه. الكاهن هو طبيبٌ يحمل أطيب وأقوى دواء أي كلمة الله. أخيرًا، الكاهن هو "نحلة" يقطف الأريج من أزهار الكتاب المقدّس ليقدّمه للنّاس عسلاً شهيًّا للمأكل.

الكاهن في الكنيسة، على مثال سيّده، يكهن بذاته ويقدّمها على مذبح المسيح. التّعليم نبويّ، لهذا يجب أن يخرج من فم الكاهن متميّزًا أوّلاً بالقوّة

وبالمبادرة، وصادرٌ من القلب من خبرةٍ ذاتيّة، وبقناعةٍ شخصيّةٍ لدى الكاهن أنّ كلمة الله نداءٌ قويٌّ وقوّةٌ فاعلة. يرفض الكاهن مديح سامعيه عندما يعجبون بكلمة الله الصّادرة من فمه، لأنّ الهدف هو بناء حياتهم الرّوحيّة وليس المجد الذّاتيّ. يجب أن يكون التّعليم أورثوذكسيًا (مستقيم الرّأي، صحيح العقيدة)، ثم منوّعًا يشمل كلّ جوانب حياة أبناء رعيّته بحسب تنوّعهم، ثم مُلِمًّا حتّى يرى حياة أبنائه موافقةً للتّعليم الموعوظ به: "إنّ إلحاحي وتكرار التّعليم ليس لحاجةٍ منّي، بل هو رعايةٌ، وحنانٌ، ومحبّةٌ، وحفاظٌ على هذه الكلمات لئلاّ تضيع سُدًى". عندما كان البعض يشكّكونه قائلين لِما كلّ هذا الوعظ ولِمَن، كان يجيبهم، أنّه "إن لم يسمع الجميع سيَسمع نصفُهم، وإن لم يسمع النّصف سيَسمع الرّبع... وإن لم يسمع عديدون سيَسمع ولو واحدٌ وهذا كافٍ. كلمة الله إلهيّةٌ وبالتّالي فاعلة".

على الكاهن ألاّ يتردّد عن الوعظ مهما كان الواقع يدعو لليأس أو مهما كانت لامبالاة سامعيه أو تعليقاتهم مسيئة. التّعليم والوعظ هما مسؤوليّة الكاهن وعمله، وذلك بغضّ النّظر عن النّتائج. فرح الكاهن يأتي من إتمام دوره هذا أمام الله ولا يَهُمُّه أن ينتظر الثّمار، إذ إنّ "الخطيئة ليست ألاّ تقنع الآخر بل ألاّ تَعِظَه". **نبويّة التّعليم تقتضي، مرّاتٍ عديدة، التّوبيخ والتّأديب، في حالات الخطيئة. لكنّ التّأديب صعبٌ خاصّةً عندما يُقابَل بمعارضة الآخرين. الكاهن معرَّضٌ لأحد احتمالَين وكمعلّم، الأوّل: ألاّ يؤدّب بل يستمرّ في المديح ويربح رضا الجميع؛ والثّاني: أن يكون خادمًا صادقًا للكلمة ويعلنها كما هي دون رياء، عندها سيخسر محبّة البعض وسيتعرّض لعداوة آخرين.** إنّ المعلّم يعرف حاجة أبنائه فلا يخضع لرغباتهم عندما تسيئُ هذه إلى تنشئتهم. لكنّ التّفسير، والشّرح، والتّعليم سيجلب أكثر نتائج سلاميّة ويذلّل الخلافات بالرّأي.

التّعليم النّبويّ يجب أن يُرفَق **بالمحبّة الصّادقة**، عندها على الأرجح سيصير مقبولاً ولو كان قاسيًا. يوبّخ المعلّم الخطيئة، لكنّه يحترم ويُحِبّ الخاطئ. قوّة التّعليم يجب أن تترافق مع الوداعة. المعلّم النّبويّ صارم ولكنّه أيضًا بالوقت ذاته حنون.

٤. قبول الجماعة لتعاليم المسيح

في خِتام العِظة الّتي ما هي إلاّ شرحٌ لإيمان الكنيسة على ضوء كلمة الله المتجسِّدة في الإنجيل المقدّس، يُعلن المؤمنون قبولهم بهذه الحقائق الإيمانيّة الّتي أعلنها الرّوح القدس نفسُه عبر فم الواعظ: "آمين". إنّها تأكيدٌ على أنّ جماعة المؤمنين قبلت الكلمة الإلهيّة، من جهة، وهي إثباتٌ على أنّها واحدٌ في الرّوح مع الواعظ، من جهةٍ أخرى. وهكذا، فإنّنا نُدرك بناءً على ما تقدّم أنّ الرّوح القدس الّذي يحلّ على الكنيسة جمعاء، يجعل منها "**كنيسةً معلّمة**" تكمن فيها مَهمّة الأسقف أو الكاهن الوعظ والتّعليم، و "**كنيسة متعلّمة**" تكمن فيها مَهمّة جماعة المؤمنين تقبُّل هذا التّعليم.

١٠) الطّلبة الملحّة (الإكتاني)

ظهرت الطّلبة الملحّة أوّلاً في المخطوطات اللّيتورجيّة للقرن الثّاني عشر للميلاد، وبحلول القرن الخامس عشر للميلاد، ظهرت هذه الطّلبة بصيغتها المألوفة في الوقت الحاضر[٢٤١]. إنّها "مجموعة طلباتٍ نجدها في القسم الثّاني من صلاتي الغروب والسّحر وفي القدّاس الإلهيّ بعد الإنجيل. تبدأ الطّلبات الثّلاث الأولى الّتي تُحرِّض المؤمنين على الصّلاة الملحّة والمتواصلة "من كلّ قلوبنا وكلّ أذهاننا" على نيّاتٍ مختلفةٍ ولأجل فئاتٍ مختلفةٍ من جماعة المؤمنين. فيُجيب الشّعب بهُتاف "يا ربّ ارحم" عدّة مرّات. وهذا هو الإلحاح في الطّلبة الّذي يهدف إلى "إخضاع"، إنْ صحّ التّعبير، الانتباه الإلهيّ. أمّا اليوم فيُكتَفى بثلاث مرّات "يا ربّ ارحم" بعد كلّ طلبة"[٢٤٢].

تكمن أهميّة الطّلبة الملحّة هذه في أنّها "تُعبِّر عن نيّات الكنيسة المحليّة والآنية. فهي إذن تجسيدٌ رائعٌ لروح المشاركة في اللّيتورجيّا"[٢٤٣]؛ تتميّز هذه الطّلبة بأنّها تعلّم المؤمنين الإلحاح في الصّلاة الّذي ما هو إلاّ مثابرةٌ إيمانيّةٌ

---

(٢٤١) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.204.

(٢٤٢) المطران لطفي لحّام (البطريرك الحاليّ غريغوريوس الثّالث)، ***كتاب الصّلوات الطّقسيّة***، المجلّد الرّابع، ص. ٢٠٢٣.

(٢٤٣) المطران لطفي لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، في الإصلاح اللّيتورجيّ***، ص. ٢٧.

واستمراريّةٌ كنسيّةٌ وجهادٌ روحيٌّ واستشهادٌ يوميٌّ في سبيل بناء إنسانٍ مسيحيٍّ مثاليّ وحياةٍ مسيحيّةٍ حقيقيّةٍ قائمةٍ على وَحدة الإنسان مع المسيح في الصّلاة. والصّلاة الّتي تبتغيها هذه الطّلبة هي الصّلاة النّابعة من أعماق كيان الإنسان، وكأنّها صرخةٌ موجّهةٌ من الإنسان إلى الله، كما يقول صاحب المزامير: "من الأعماق صرختُ إليك يا ربّ، يا ربّ استمع صوتي. لتكن أذناك مُصغيتين إلى صوت تضرّعي" (مزمور ١٢٩: ١-٢). إنّ الموضوع الرّئيس في الطّلبات الثّلاث الأولى هو طلب رحمة الله. هذا ما أكّده النّبيّ ميخا قائلاً: "بماذا أتقدّم إلى الرّبّ وأنحني لله العليّ؟ أبمحرقاتٍ أتقدّم إليه وبعجولٍ حَوليّة؟ أيرضى الرّبّ بألوف الكِباش، وربوات أنهار الزّيت؟... قد بيَّن لكَ أيّها الإنسان ما هو صالح، وما يطلب منك الرّبّ. إنّما هو أن تُجريَ الحكم وتُحِبّ الرّحمة، وتسير بتواضع مع إلهك" (٦: ٦-٨).

إنّها تتضمّن أيضًا طلباتٍ وابتهالاتٍ من أجل الحجارة الحيّة الّتي تتكوّن منها الكنيسة الأرضيّة "الوجه الأرضيّ للكنيسة"، من سلطةٍ كنسيّةٍ (البطريرك والمطران)، وإكليروس (الكهنة والشّمامسة)، ومكرّسين ومكرّسات (الرّهبان والرّاهبات)، ومن العلمانيّين المؤمنين بالمسيح. جميع الّذين ذكّرناهم سابقًا يُشكّلون معًا وسويةً أخوةً لبعضهم البعض في المسيح الّذي من خلاله تبنّانا الله الآب ومنحنا حقّ البنوّة الإلهيّة في ابنه الوحيد والحبيب يسوع المسيح. ثمّ نصلّي من أجل جميع الّذين يسكنون في البلدة أو المدينة الّتي نقيم فيها اللّيتورجيّا الإلهيّة على مختلف أطيافهم ومذاهبهم، من أجل أن تحلّ عليهم بركات الله الرّوحيّة، ومن أجل أن ينعموا بالسّلام والعافية والخلاص؛ نصلّي أيضًا من أجل الّذين ساهموا بإنشاء الكنيسة الّتي نحتفل فيها، ومن أجل جميع الرّاقدين على الإيمان القويم "الأرثوذكسيّ" في كلّ مكانٍ من العالم أجمع؛ وأخيرًا، نصلّي من أجل الّذين يُقدّمون الثّمار، والمرنّمين الّذين وهبهم الله وزنةً ونعمةً خاصّةً وفريدةً لكي يُساعدوننا في تمجيد الله وتسبيحه، ومن أجل كلّ الشّعب الحاضر في اللّيتورجيّا الإلهيّة والمنتَظِر من لدن الله الرّحمة العظيمة الوافرة.

الفصل الثّالث

ليتورجيّا المؤمنين

أو

ليتورجيّا الذّبيحة الإفخارستيّة

الباب الأوّل

ملاحظات أوّليّة

١) أهميّة ليتورجيّا المؤمنين

إنّ قلب ليتورجيّا المؤمنين هو الذّبيحة الإفخارستيّة، أعظم فعلٍ يُعبِّر عن الحبّ الإلهيّ الّذي أظهره الآب السّماويّ للإنسان من خلال تقدمة ابنه الوحيد، يسوع المسيح، ذبيحةً قُربانيّةً وكَفّاريّةً على خشبة الصّليب المُحيي لخلاصه وفدائه (راجع يوحنّا ٣: ١٦-١٧). إنّ جوهر ليتورجيّا المؤمنين الّذي يكمن في الذّبيحة غير الدّمويّة، والاستحالة (أي تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح بقوّة الرّوح القدس وحلوله)، والمناولة المقدّسة، قد أسّسه المسيح نفسه. من هنا نُدرك أنّ الذّبيحة الإفخارستيّة، مثل المسيح نفسه، تُشكّل كلّ شيءٍ في حياة شعب الله المقدّس. إنّ الطّقوس والشّعائر الّتي تُزيِّن اللّيتورجيّا الإفخارستيّة هي الإيقونة الّتي من خلالها تظهر محبّة الإنسان للرّبّ في كلّ وسيلةٍ ابتكرتها عبقريّة الإنسان[٢٤٤].

٢) خصائص ليتورجيّا المؤمنين اللّاهوتيّة واللّيتورجيّة

إنّ هذا القسم من اللّيتورجيّا الإلهيّة يختلف اختلافًا جوهريًّا عن القسم السّابق منها، أعني ليتورجيّا الموعوظين أو الكلمة، من ناحية الأصل، والبُنية، والتّطوّر، والأسلوب، والمضمون والهدف.

---

٢٤٤) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.467.

١. ليتورجيّا القدّيسين

إنّ أوّل نقطة اختلاف تكمن في الاسم نفسه. إنّ هذا الإسم لا يُمكن أن يُفهَم فهمًا كاملاً إلاّ من خلال خلفيّته التّاريخيّة. إنّ اسم "ليتورجيّا المؤمنين" كاسمٍ مختلفٍ عن "ليتورجيّا الموعوظين" كان مُبرَّرًا في الممارسة المسيحيّة القديمة والنّظام الكنسيّ واللّيتورجيّ، ذلك أنّ هذا القسم من اللّيتورجيّا الإلهيّة كان مُخصَّصًا للمؤمنين فقط، بحيث لم يُسمَح بتاتًا لمشاركة غير المعمّدين، لدرجة أنّ النّظام الكنسيّ آنذاك، أي في زمن الكنيسة الأولى، كان يمنع أيضًا مشاركة المؤمنين المعمّدين الواقعين في الخطيئة العلنيّة، أو الممسوسين بالأرواح النّجسة، أو التّائبين الّذين ما زالوا في فترة تهيئتهم للنّدامة والتّوبة، أو حتّى المؤمنين الّذين تأثّروا بفكر الهرطقات والبدع الّتي عَصِفَت بالكنيسة في العقود الأولى وما زالت حتّى يومنا هذا.

بناءً على ذلك نستخلص أنّ قانون الكنيسة الأولى كان صارمًا ومتشدّدًا ليس فقط حِيال غير المعمّدين، وأعني بهم "الموعوظين"، بل حيال أولئك المؤمنين المعمَّدين أيضًا الّذين لم يكونوا أعضاء في الكنيسة فحسب، بل كانوا في حالة النّعمة والقدرة على المشاركة في الوليمة الإفخارستيّة، أي تناول جسد المسيح ودمه، وقد أصبحوا، بسبب أعمالهم البعيدة عن روح الإيمان المسيحيّ، غير مستحقّين هذه النّعمة العظيمة، نعمة الاشتراك في الأسرار المقدّسة. وهكذا يتّضح أنّ **ليتورجيّا المؤمنين هي ليتورجيّا القدّيسين والمُستحقّين**. بتعابير أخرى، **إنّها ليتورجيّا المؤمنين بالمعنى الكامل الّذي تحمله كلمة "المؤمنين"**.

٢. ليتورجيّا الذّبيحة

تختلف ليتورجيّا الموعوظين عن ليتورجيّا المؤمنين من حيث الصّبغة والهدف. فليتورجيّا الموعوظين هي ليتورجيّا توجيهيّةٌ وتعليميّة؛ بينما ليتورجيّا المؤمنين هي ليتورجيّا تقديم الإفخارستيّا إلى الله، أي الذّبيحة غير الدّمويّة، الّتي تُعتبر ميزتها الجوهريّة. في ليتورجيّا المؤمنين هذه، يحدث تغييرٌ إعجازيّ (أعجوبيّ) للعناصر الإفخارستيّة، الخبز والخمر، بحيث يتمّ تحويلها إلى جسد يسوع المسيح ودمه، وذلك بقوّة الرّوح القدس. بتعابير لاهوتيّةٍ أخرى، إنّ

ليتورجيّا المؤمنين هذه تحتفل ليتورجيًا بتقدمة يسوع المسيح السّريّة لله[٢٤٥]؛ إنّها احتفال الكنيسة جمعاء باستسلام الكلمة المصلوب الجذري لمشيئة الآب؛ **إنّها تجديدٌ واستمرارٌ لذبيحة المسيح الّتي تمّت في مكان الجمجمة (الجُلجثة)، الشّاهد الحيّ على حدث الصّلب وتقديم الذّات ذبيحةً قربانيّةً بطريقةٍ دمويّةٍ على خشبة الصّليب المُحيي فداءً للبشريّة جمعاء.** أمّا طبيعة الذّبيحة الإفخارستيّة – الّتي هي تذكارٌ حقيقيٌّ لموت المسيح – فتكمن في كونها ذبيحةً حقيقيّةً غير دمويّة، يُقدّم المسيح فيها نفسَه حَمَلاً ذبيحًا فصحيًّا (راجع ١ كورنثس ٥: ٧؛ ١ بطرس ١: ١٩) تحت أعراض الخبز والخمر، المتحوّلَين إلى جسده ودمه المقدّسَين.

٣. ليتورجيّا الإتّحاد بالمسيح

لقد رأينا سابقًا أنّ هدف ليتورجيّا الموعوظين يكمن في إعلان كلمة الله من خلال القراءات المقدّسة والعِظَة؛ بينما يكمن هدف ليتورجيّا المؤمنين في تأوين حدث الفداء والخلاص، من خلال اشتراك المؤمنين في الذّبيحة الإفخارستيّة. يتكلّم المسيح مع المؤمنين بواسطة الإنجيل المقدّس في ليتورجيّا الموعوظين، بينما يظهر في ليتورجيّا المؤمنين من أجل أن يُقدّم نفسه غذاءً للمؤمنين، من أجل أن يتّحد بالإنسان[٢٤٦]. إنّ الطّعام الّذي يقدّمه المسيح لنا في ليتورجيّا الموعوظين هو كلمة الله؛ أمّا طعام ليتورجيّا المؤمنين فهو المسيح نفسه، الّذي أتى إلى العالم كي يُضحّي بنفسه من أجل الإنسان، ويدخل في علاقة اتّحادٍ سرّيٍّ معه، وهذا هو هدف ليتورجيّا المؤمنين: الاتّحاد بالله عبر الكلمة المصلوب بقوّة الرّوح القدس. وهكذا نُدرك إدراكًا لا يقبل الشّكّ أنّ التّدبير الخلاصيّ الّذي أتمّه المسيح جعل من طبيعتنا البشريّة طبيعةً لم تَعُدْ منفصلةً عن الله من جرّاء الخطيئة: إنّها طبيعةٌ جديدة، خليقةٌ مجدّدة تظهر في العالم، جسدٌ جديدٌ حرٌّ من كلّ أثرٍ للخطيئة، وذلك بدم المسيح الثّمين: "إنّها الكنيسة، المكان النّقيّ وغير القابل للفساد، الّذي فيه نبلغ الاتّحاد بالله"[٢٤٧].

---

٢٤٥) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.212.

٢٤٦) **Ibid**, p.213.

٢٤٧) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص.١٢٩.

٣) بُنية ليتورجيّا المؤمنين

- **القسم الأوّل هو التّحضير للذّبيحة الإفخارستيّة.** يشتمل هذا القسم على صلوات المؤمنين، طقس الدّخول الكبير، صلاة التّقدمة، قُبلة السّلام، وقانون الإيمان.
- **القسم الثّاني هو الذّبيحة الإفخارستيّة نفسها**، ويُعرَف باسم "الأنافورا" أو "الصّلاة الإفخارستيّة". يتضمّن هذا القسم الحوار الإفخارستيّ، صلاة الشّكر، كلمات التّقديس الإفخارستيّ ("خذوا كلوا... إشربوا من هذا كلّكم...")، الذّكر، استدعاء الرّوح القدس، وذكرانيّات القدّيسين، الأحياء والأموات.
- **القسم الثّالث هو الاحتفال بطقس الوليمة الإفخارستيّة: المناولة المقدّسة.** يتألّف هذا القسم من الصّلوات التّحضيريّة للمناولة المقدّسة، طلبة السّؤالات، صلاة الأبانا، طقس المناولة المقدّسة، صلوات الشّكر بعد المناولة المقدّسة، والحلّ الكبير.

الباب الثّاني

التّحضير للذّبيحة الإفخارستيّة

(القسم الأوّل من ليتورجيّا المؤمنين)

١) إفتتاح ليتورجيّا المؤمنين

تنتهي ليتورجيّا الموعوظين بصرفهم إلى خارج الكنيسة، ثمّ تبدأ ليتورجيّا المؤمنين بهذه الكلمات: "أمّا نحن المؤمنين جميعًا. فأيضًا وأيضًا بسلامٍ إلى الرّبّ نطلب". ثمّ يقوم الكاهن بفتح الإيلِتون (Eileton) الّذي يحتوي على الأنديمنسيون، وهو غطاء المذبح يُنسَج من الكتّان الصّافي، ذاك الّذي وُضِعَ فيه جسد يسوع عندما أُنزل عن الصّليب ووُضع في القبر، كفعلٍ رمزيٍّ يفتتح قسمًا جديدًا من اللّيتورجيّا الإلهيّة هو ليتورجيّا المؤمنين.

١. صلاة المؤمنين الأولى

نشكرك أيّها الرّبّ إله القوّات. الّذي أهّلنا لأن نَمثُل الآن لدى مذبحه المقدّس. ونَجثوَ مُستعطفين رأفته على خطايانا وجهالات الشّعب. فتقبّل اللّهمّ طلبتنا. وأهّلنا لأن نُقدّم لك طلباتٍ وابتهالاتٍ وذبائحَ غير دمويّة. لأجل شعبك كلّه

وبقدرة روحك القدّوس. إجعلنا نحن الّذين أقمتَهم لخدمتك هذه كُفاةً لأن ندعوَك في كلّ زمانٍ ومكان. بلا دينونةٍ ولا عثرة. وبشهادة ضميرنا الصّالحة. فتسمعنا وتكون لنا غفورًا بوفرة صلاحك

يُشير مضمون هذه الصّلاة إلى أنّها صلاةٌ كهنوتيّةٌ بامتياز، إذ إنّها تعبيرٌ عن نداءٍ إيمانيٍّ صادقٍ من قِبَل الكاهن بأن يمنحه الله نعمة روحه القدّوس لتقديم الذّبيحة الإفخارستيّة غير الدّمويّة باستحقاق، وللحصول على الخيرات الرّوحيّة منها.

تُذكّرنا الجملة الأولى من الصّلاة الحاليّة بالشّيوخ الأربعة والعشرين "الجالسين على عروشهم بين يدَي الله سقطوا على وجوههم وسجدوا لله قائلين: نشكرك أيّها الرّبّ الإله القدير، الّذي هو كائنٌ وكان، لأنّك أعملتَ قوّتك العظيمة ومَلَكت" (رؤيا ١١: ١٦-١٧)، بحيث تنتهي الجملة بإظهار السّبب الّذي يجعل الكاهن يُقدِّم صلاته وذبيحته على المذبح: "على خطايانا وجهالات الشّعب". وهذا هو السّبب الحقيقيّ الّذي جعل رئيس الكهنة في الشّريعة القديمة يُقدِّم الذّبيحة في اليوم العظيم من التّكفير: "وأمّا الخيمة الأخرى فإنّ عظيم الكهنة وحده يدخلها مرّةً في السّنة، ولا يدخلها بلا دمٍ، الدّم الّذي يُقرِّبه عن مجاهله ومجاهل شعبه" (عبرانيّين ٩: ٧). في المقابل، نرى أنّ كهنة الشّريعة الجديدة يُسمح لهم بتقديم الذّبيحة الأكثر قُدسيّة، وهي ذبيحة ابن الله نفسه!

بينما يتوجّه الكاهن في القسم الثّاني من الصّلاة إلى الله طالبًا منه أن يجعله مستحقًّا، بقوّة روحه القدّوس، لأداء هذه العبادة المقدّسة السّامية في كلّ الأوقات والأمكنة "بلا دينونةٍ ولا عثرة"، أي وبتعابير بولس الرّسول: "ليُحافظوا على سرّ الإيمان في ضميرٍ طاهر" (١ تيموثاوس ٣: ٩).

٢. صلاة المؤمنين الثّانية

نجثو لك أيضًا وتكرارًا. ونطلب إليك أيّها الصّالح المحبّ البشر. أن تنظر إلى طلبتنا. وتُطهّر نفوسنا وأجسادنا من كلّ أدناس الجسد والرّوح. وتُعطيَنا أن نَمثُل لدى مذبحك المقدّس بلا لومٍ ولا دينونة

أنعم اللّهمّ على المُصلّين معنا بالنّموّ في الحياة والإيمان والفهم الرّوحيّ. أعطهم أن يعبدوك كلّ حين بخشيةٍ ومحبّة. وأن يشتركوا في أسرارك المقدّسة بلا لومٍ ولا دينونة. وأهّلهم لملكوتك السّماويّ

إنّها صلاةٌ كنسيّةٌ بامتياز، بحيث لا تُشكّل هذه الصّلاة صلاةً من أجل احتياجاتٍ متعدّدةٍ للجماعة المؤمنة الحاضرة في اللّيتورجيّا الإلهيّة، بل إنّها تعبيرٌ عن صلاةٍ التماسيّةٍ يتلوها الكاهن باسمه أوّلاً، ثمّ باسم الكنيسة المجتمِعَة، وتطال صعيدَين أساسيَّين: يكمن الأوّل في طلب الكاهن من الله أن يمنحه نعمة الاستحقاق للاحتفال بالذّبيحة الإلهيّة (القسم الأوّل من الصّلاة)؛ بينما يُشير الثّاني إلى طلب الكاهن من الله أن يمنح المؤمنين اشتراكًا جديرًا بالاستحقاق في الوليمة الإفخارستيّة (القسم الثّاني من الصّلاة).

إنّ عبارة "أن تنظر إلى طلبتنا" في القسم الأوّل من الصّلاة مُقتبسٌ من خطاب الملك سليمان عند تكريس الهيكل في أورشليم: "إلتفت إلى صلاة عبدك وتضرُّعه أيّها الرّبّ إلهي واسمع الهُتاف والصّلاة اللّذين يُصلّي بهما عبدُك أمامك اليوم" (٣ ملوك ٨: ٢٨)، إذ إنّ الملك سليمان حين قام بهذا الدّعاء كان جاثيًا أمام مذبح الرّبّ على رُكبتَيه ويداه مبسوطتان نحو السّماء (٣ ملوك ٨: ٥٤).

أمّا عبارة "وتُطهّر نفوسنا وأجسادنا من كلّ أدناس الجسد والرّوح" فهي مستوحاةٌ من تحريض بولس الرّسول الكورنثيّين إلى وجوب التّطهُّر من كلّ أنواع الخطيئة: "ولمّا كانت لنا، أيّها الأحبّاء، هذه المواعد، فلنُطهّر أنفسنا من أدناس الجسد والرّوح كلّها، متمّمين تقديسنا في مخافة الله" (٢ كورنثس ٧: ١)، ذلك لأنّهم أصبحوا جزءًا لا يتجزّأ من الكيان الإلهيّ: إنّهم "هيكل الله الحيّ". هذا ما عناه بولس الرّسول أيضًا في معرض كلامه عن قُدسيّة الجسد وطهارته بارتباطه بالرّبّ والرّوح القدس، قائلاً: "أما تعلمون أنّ أجسادكم هي أعضاء المسيح؟... ومَن اتّحد بالرّبّ فقد صار وإيّاه روحًا واحدًا... أوَما تعلمون أنّ أجساكم هي هيكل الرّوح القدس، وهو فيكم قد نلتموه من الله، وأنّكم لستم لأنفسكم؟ فقدِ اشتُريتم وأُدّيَ الثّمن. فمجّدوا الله إذًا بأجسادكم" (١ كورنثس ٦: ١١-٢٠).

بينما تؤكّد عبارة "أنعم اللّهمّ على المُصلّين معنا" في بداية القسم الثّاني من الصّلاة، على وَحدة **الكاهن مع المؤمنين، شعب الله**، ذلك أنّ المؤمنين سيُقدّمون الذّبيحة الإلهيّة جنبًا إلى جنبٍ مع الكاهن، فيتوجّب عليهم، تاليًا، أن يكونوا مستحقّين الوقوف أمام مذبح الله المقدّس. إنّ قداسة الكنيسة واستحقاقها تعتمدان إلى حدٍّ كبيرٍ على قداسة أعضائها واستحقاقهم. إنّ المقياس الّذي من

خلاله ستكون هذه الذّبيحة المقدّمة من الكاهن والمؤمنين مقبولة لدى الله، سيتوقّف، في الأساس، على مدى **قداستهم الشّخصيّة**[٢٤٨]. هذا هو السّبب الجوهريّ الّذي يجعل الكاهن يُصلّي من أجل نموّ الإيمان والفهم الرّوحيّ عنده وعند المؤمنين، لكي يكونوا أهلاً للاشتراك في الملكوت السّماويّ: "... لأنّ إيمانكم ينمو نموًّا شديدًا ومحبّة كلٍّ منكم جميعًا للآخرين تزداد بينكم... وفي ذلك دليلٌ على قضاء الله العادل لتؤهَّلوا لملكوت الله" (٢ تسالونيكي ١: ٣-٥).

٣. الأنديمنسيون

الأنديمنسيون كلمةٌ يونانيّةٌ تعني "**عوضًا عن المائدة**" وهي تُذكّرنا بزمن اضطهاد الكنيسة حيث لم يكن من هياكل ولم يكن المؤمنون يستطيعون نقل المائدة معهم من مكانٍ إلى آخر، فكان بدلاً منها يأخذ المؤمنون هذه القطعة إلى حيث ستُقام الخدمة؛ إنّه كناية عن قطعة قماش مستطيلة عليها إيقونة المسيح وهو في الرّمس[٢٤٩]، وحول الصّورة تُكتب طروباريّة الجمعة العظيمة: "إنّ يوسف الوجيه أنزل من الخشبة جسدَك الطّاهر..."، إذ إنّ الذّبيحة الّتي ستوضع على الأنديمنسيون ليست سوى صورةً لذبيحة الصّليب الّتي قدّم فيها الرّبُّ نفسَه فداءً عن البشر أجمعين. وغالبًا ما يوضع في وسط الأنديمنسيون ذخيرةً مقدّسةً من رفات أحد القدّيسين، ذلك أنّه في القرون الأولى للمسيحيّة، كانت تقام الذّبيحة الإلهيّة على أضرحة القدّيسين الشّهداء الّذين قدّموا دمهم وحياتهم ثمنًا لإيمانهم بالرّبّ يسوع (راجع رؤيا ٦: ٩).

ويقوم البطريرك عادةً بتكريس الأنديمنسيون عبر التّوقيع عليه، وذلك للدّلالة على التّفويض الّذي يمنحه البطريرك للأساقفة والكهنة، والّذي يسمح لهم بموجبه بإقامة الذّبيحة الإلهيّة. كذلك يأتي توقيع البطريرك كعلامة طاعةٍ للرّبّ من خلال البطريرك الّذي هو صورةٌ للمسيح رئيس الكهنة الأوحد، ورمزٌ للشّركة الكنسيّة والوَحدة الإيمانيّة الّتي تجمع الأسقف والكاهن والرّعيّة.

---

٢٤٨) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.473.

٢٤٩) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٣٨.

عندما يَفُضّ الكاهن الأنديمنسيون ويبسطه على المائدة المقدّسة لتحضير الذّبيحة الإفخارستيّة ويقبّل توقيع البطريرك عليه، "تكتمل" هذه المائدة. فلا تعود مائدة "هذه" الجماعة المحليّة المحدودة، بل تتجاوزها لتصير المائدة الوحيدة لكنيسة الله، ولتصير مكان تقدمة كلّ المسيح، ومكان حضور كلّ المسيح وسُكناه في ما بيننا حيث نكون جميعًا جسده؛ حيث يغلب الكلّ انقسامات الأجزاء؛ وحيث تُمنح هبة الحياة الجديدة بكلّ كمالها.

٢) الدّخول الكبير (الإيصوذن الكبير)

١. ميزته وأصله التّاريخيّ

لقد فهمت اللّيتورجيّا البيزنطيّة الدّخول الكبير، بالمعنى الدّقيق للكلمة، على أنّه طقس نقل القرابين المقدّسة من مذبح التّقدمة إلى المائدة المقدّسة. إنّ الدّخول الكبير شبيهٌ إلى حدٍّ كبير بالدّخول الصّغير في ليتورجيّا الكلمة. أثناء الدّخول الصّغير تجري دورة الإنجيل المقدّس، في حين أنّه في الدّخول الكبير تجري دورة القرابين المقدّسة. كِلا الدّخولين يكشفان معناهما الأساسيّ: الدّخول الصّغير بالإنجيل المقدّس يُشير إلى الطّابع التّعليميّ والمواعظيّ لليتورجيّا الموعوظين، بينما يُشدّد الدّخول الكبير بالقرابين المقدّسة على الصّبغة الإفخارستيّة والطّابع القربانيّ لليتورجيّا المؤمنين؛ تمامًا كما أنّ الإنجيل المقدّس هو رمز ليتورجيّا الموعوظين، كذلك أيضًا القرابين المقدّسة هي رمز ليتورجيّا المؤمنين؛ يُغطّي الكاهن وجهه خلال الدّخول الصّغير بالإنجيل المقدّس، علامةً على مجيء المسيح ليُعلن كلمته الإلهيّة الخلاصيّة، ويُغطّي الكاهن وجهه أيضًا خلال الدّخول الكبير بالقرابين المقدّسة، دلالةً على كون المسيح حملاً مذبوحًا على خشبة الصّليب.

إذا عُدنا إلى الأصل التّاريخيّ لهذا الطّقس اللّيتورجيّ لوجدنا أنّه لم يكن يبدأ بالنّقل المَهيب للقرابين المقدّسة إلى المائدة المقدّسة، بل كان يبدأ في اللّحظة الّتي يُحضر فيها المسيحيّون المؤمنون تقادمهم. وعليه، فإنّ المكان الأصليّ لطقس تهيئة القرابين كان، تاريخيًّا، في بداية ليتورجيّا المؤمنين. وقد حافظت اللّيتورجيّا البيزنطيّة على هذا التّرتيب حتّى حوالي القرن السّابع أو

الثّامن للميلاد، حيث انتقل هذا الطّقس إلى بداية اللّيتورجيّا الإلهيّة[٢٥٠]، ومنذ ذلك الوقت، فقد الدّخول الكبير معناه الأصليّ وميزته: من طقسٍ تُقدّم فيها القرابين لتهيئتها للذّبيحة غير الدّمويّة، إلى طقس نقل القرابين المقدّسة من مذبح التّقدمة إلى المائدة المقدّسة، وهو الطّقس المعمول به في أيّامنا الحاضرة.

٢. أوجه التّشابه بين ليتورجيّا التّقدمة وطقس الدّخول الكبير

أ. الصّلوات الافتتاحيّة

إنّ صلاة الدّخول الكبير: "ليس أحدٌ من المقيَّدين بالشّهوات والملاذّ الجسديّة أهلاً لأن يتقدّم إليك..." تُعتبر تفصيلاً لصلاة الكاهن قبل دخوله إلى الهيكل في بداية اللّيتورجيّا الإلهيّة: "يا ربّ أرسل يدك من عُلُوّ مسكنك. وقوّني على خدمتك الّتي أنا مقبلٌ عليها. لكي اقف في هيكلك بلا دينونة...". إنّ القاسم المشترك بين هاتين الصّلاتين يكمن في الاحتفال باستحقاقٍ بالذّبيحة غير الدّمويّة، إذ إنّ كلتيهما توحيان بالرّوح عينه وهو عدم استحقاق الكاهن من الدُّنُوّ من هيكل الله.

ب. غسل اليدَين

بَقِيَ الكاهن يغسل يدَيه قبل الدّخول الكبير، أي قبل أن ينقل القرابين المقدّسة إلى المائدة المقدّسة، حتّى القرن الثّالث عشر أو الرّابع عشر للميلاد، الزّمن الّذي فيه تمّ نقل هذه العادة الطّقسيّة لتُصبح مباشرةً بعد ارتداء الحلّة الكهنوتيّة، قبل بداية اللّيتورجيّا الإلهيّة، وبالتّحديد، قبل الشّروع في تهيئة الذّبيحة المقدّسة. ولأنْ طقس تهيئة القرابين كان يُقام مباشرةً قبل الدّخول الكبير، قبل القرن الثّامن للميلاد، فقد كان هذا الدّخول يُشكّل، تاليًا، الوقت الطّبيعيّ لغسل اليدَين.

إلاّ أنّ هذه العادة الطّقسيّة باتت في أيّامنا الحاضرة محفوظةً للأسقف الّذي يترأس اللّيتورجيّا الإلهيّة الحَبريّة، بحيث يقوم بغسل يدَيه، دلالةً على الطّهارة والنّقاوة الدّاخليّة والخارجيّة، وذلك قبل الدّخول الكبير.

---

٢٥٠) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.224.

ت. تهيئة القرابين

لقد تكلّمنا عن هذه النّقطة سابقًا، ولكنّنا نودّ أن نُضيف عليها أنّ طقس تهيئة القرابين ما زال معمولاً به حتّى يومنا الحاليّ في بعض الكنائس الأرثوذكسيّة، وهو محفوظٌ للأسقف في القدّاس الحَبريّ، حيث يذهب إلى مذبح التّقدمة ويقوم هو نفسه بتقطيع الأجزاء القربانيّة ووضعها على الصّينيّة المقدّسة، ذاكرًا الأحياء والأموات، ومبخّرًا القرابين المقدّسة، وقائلاً صلاة التّقدمة، ولكن ليس أثناء طقس التّهيئة المعروف في بداية ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ، بل خلال الدّخول الكبير، مباشرةً قبل نقل القرابين المقدّسة؛ بكلماتٍ أخرى، إنّ الأسقف يكمّل طقس التّهيئة أثناء الدّخول الكبير، تمامًا كما كان يُحتَفَل به في القرن الثّامن للميلاد.

ث. طقس التّبخير وصلاة التّقدمة

فضلاً عن طقس التّبخير الّذي يقوم به الكاهن في الخِدمتَين، وفي أثنائه يتلو الكاهن أيضًا المزمور الخمسين؛ وأخيرًا، التّشابه في صلاة التّقدمة الخاصّة بليتورجيّا التّهيئة: "يا الله إلهنا. يا مَن أرسل ربّنا وإلهنا يسوع المسيح الخبز السّماويّ..."، وصلاة التّقدمة الّتي يتلوها الكاهن أثناء طلبة التّضرُّع والابتهال، مباشرةً بعد الدّخول الكبير: "أيّها الرّبّ الإله القدير القدّوس وحدك...".

٣. النّشيد الشّيروبيميّ أو نشيد الملائكة (الشّيروبيكون)

إنّ هذا النّشيد هو من أجمل الأناشيد في اللّيتورجيّا البيزنطيّة. إنّه ترتيلة التّقدمة أو ما يُعرَف "بالتّسبيح الشّيروبيمي": "أيّها الممثّلون الشّيروبيم سريًّا...". أُنشئ هذا النّشيد في القرن السّادس للميلاد. إنّ أوّل مَن نوّه إلى ترنيم الشّيروبيكون أثناء الدّخول الكبير هو إفتيخيوس، بطريرك القسطنطينيّة (٥٥٢-٥٦٥م)، وذلك في القرن السّادس للميلاد[٢٥١]. وفي هذا السّياق عينه، كتب المؤرّخ البيزنطيّ سيدرينوس من القرن الحادي عشر للميلاد، أنّ تاريخ الشّيروبيكون يعود إلى السّنة التّاسعة لحكم الإمبراطور البيزنطيّ

---

٢٥١) Ibid, p.226.

يوستنيانوس الثّاني (٥٦٥-٥٧٨م)، أي في العام ٥٧٤م، وهو الّذي أمر بأن يُدخل هذا النّشيد كجزءٍ من اللّيتورجيّا الإلهيّة[٢٥٢].

إنّ غاية هذا التّسبيح الشّيروبيميّ تكمن في تهيئة المؤمنين للاشتراك في الأسرار المقدّسة. إنّه دعوةٌ لهم لكي يتشبّهوا بالملائكة المحيطين بالعرش الإلهيّ المسبّحين باستمرار: "قدّوس قدّوس قدّوس ربّ الصباؤوت" (أشعيا ٦: ١-٦). وتدعونا هذه التّرنيمة إلى التّشبُّه بالشّيروبيم (وهم فصيلةٌ من الملائكة) وترنيم تسبيح الملائكة والتّجرّد والتّرفُّع عمّا هو دنيويٌّ ماديّ، ووضع الرّبّ دائمًا نصب أعيننا كما تفعل الملائكة. لذلك، فإنّ **اللّيتورجيّا الإلهيّة ما هي إلاّ انعكاسٌ للّيتورجيّا السّماويّة، اللّيتورجيّا الملائكيّة**. إنّ ملك الكلّ وربّ الجميع سيأتي سريًّا ويحضر بيننا على المائدة المقدّسة فيجب علينا الاهتمام به فقط "لأنّ الحاجة إلى واحد" (لوقا ١٠: ٤٢). وبما أنّنا شركاء الملائكة في الخدمة وممثّلون لهم بصورةٍ سريّةٍ صوفيّة، فعلينا أن نجرّد نفوسنا من اهتمامات الأرض ونوجّهها نحو الله، لأنّنا مزمعون أن نستقبل ملك الكلّ والّذي تحفّ به الطّغمات الملائكيّة. فالموكب جليل، يتطلّب منّا انتباهًا كاملاً يجرّدنا من هموم العالم الأرضيّة، ويجذبنا نحو عشقٍ إلهيٍّ يدمجنا مع الله. إذًا، نستطيع القول بأنّ **ليتورجيّتنا لا تجري على الأرض، بل في السّماء**.

فنشيد الملائكة هذا يُمثّل دخول جميع القدّيسين والأبرار أمام القوّات الشّيروبيميّة وجنود الملائكة، وهي تتقدّم بشكلٍ غير منظورٍ الملك العظيم المسيح المنطلق إلى ذبيحته السّرّيّة، تنقله أيادٍ ماديّة (أيادي الكهنة)، يرافقه الرّوح القدس إلى الذّبيحة غير الدّمويّة والعقليّة. ويُلاحظ الرّوح روحيًّا في النّار والبخور والعبق والهواء المعطّر: لأنّ النّار تُشير إلى لاهوته والعبق العَطِر إلى مجيئه غير المنظور. ونزيد فنقول إنّ القوّات الرّوحيّة وأجناد الملائكة، لدى رؤيتها مقاصد العناية الإلهيّة مُكتَمِلةً بصلب المسيح وموته وانتصاره على الموت، وبانحداره إلى الجحيم وقيامته في اليوم الثّالث، تُنشد معنا: هلّلويا. إنّ نشيد الملائكة هذا هو إذًا توسُّلٌ سرّيٌّ إلى الله من أجل أن يمنح المؤمنين المشاركين في الذّبيحة الإلهيّة اشتراكًا مستحقًّا في الوليمة الإفخارستيّة،

---

(٢٥٢) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-slav liturgy***, p.482, 483.

ذلك أنّ هدفه الرّئيس يكمن في تهيئة المؤمنين لتقبُّل يسوع المسيح، الخبز السّماويّ، في المناولة المقدّسة.

بعدها يسجد الكاهن ثلاثًا أمام المائدة المقدّسة ويقبّل الإنديمنسي، ويقف في الباب المقدّس حانيًا رأسه وطالبًا المغفرة من الشّعب. وهذا تصرّفٌ رائعٌ جدًّا بحدّ ذاته أوّلاً، ولمنفعة الشّعب ثانيًا، إذ يتعلّم المؤمنون من كاهنهم التّواضعَ وطلبَ المسامحة. ثم يتناول الكاهن المبخرة ويبخّر حول المائدة والمذبح والإيقونات والشّعب. أثناء دورته حول المائدة يتلو الكاهن المزمور الخمسين "ارحمني يا الله بعظيم رحمتك" الّذي يعبّر عن توبة داود الملك. **فالموقف هو موقفُ سجودٍ وتوبةٍ واستغفار، إذ إنّ المرحلة تمثّل انتقال جسد المسيح من الجلجلة إلى القبر.**

٤. صلاة النّشيد الشّيروبيميّ

ليس أحد من المقيَّدين بالشّهوات والملاذ الجسديّة، أهلاً لأن يتقدّم إليك، أو يدنوَ منك، أو يخدمك يا ملك المجد (لقبٌ مقتبسٌ من مزمور ٢٣: ٧). فإنّ خدمتك عظيمة ورهيبة. حتّى لدى القوّات السّماويّة. لكنّك لمحبّتك للبشر. الّتي لا توصف ولا تُقدَّر. قد صرتَ إنسانًا. ولم يلحق بك تغيُّرٌ ولا تحوُّل. ومُسِحت رئيس كهنتنا. وبما أنّك سيّد الجميع. قد سلّمت إلينا خدمة هذه الذّبيحة الكهنوتيّة غير الدّمويّة.

فإنّك أنت وحدك تسود ما في السّماء وما على الأرض. أيّها المستوي على العرش الشّيروبيميّ. يا ربّ السّيرافيم وملك إسرائيل. أيّها القدّوس والمستريح في المقادس وحدك. إليك أتضرّع، أيّها الصّالح السّميع وحدك، فانظُر إليّ أنا عبدك الخاطئَ البطّال ("أمّا الجابي فوقف بعيدًا لا يُريد ولا أن يرفع عينَيه نحو السّماء، بل كان يقرعُ صدره ويقول: اللّهمّ ارحمني أنا الخاطئ!"، لوقا ١٨: ١٣)، وطهّر نفسي وقلبي من كلّ نيّةٍ شرّيرة ("إغسلني كثيرًا من إثمي، ومن خطيئتي طهّرني... إنضَحني بالزّوفى فأطهُر. إغسلني فأبيضّ أفضل من الثّلج"، مزمور ٥٠: ٤، ٩).

وبقدرة روحك القدّوس، اجعلني أنا اللّابس نعمة الكهنوت، جديرًا بأن أقف لدى مائدتك هذه المقدّسة، وأُقرّبَ جسدك المقدّس الطّاهر

ودمك الكريم. فإنّي إليك أتقدّم حانيًا عُنُقي ("لأنّي أنا عارفٌ بإثمي، وخطيئتي أمامي في كلّ حين"، مزمور ٥٠: ٥)، وإليك أطلب ألاّ تصرف وجهك عنّي ("أسرع استجب لي يا ربّ، فقد تلاشت روحي. لا تصرف وجهك عنّي، فأشابه الهابطين في الجُبّ"، مزمور ١٤٢: ٧)، ولا ترذلني من بين بنيك ("هَبْ لي الحكمة الجالسة معك إلى عرشك، ولا تنبذني من بين أبنائك"، حكمة ٩: ٤). بل ارتضِ بأن أُقدّم لك هذه القرابين أنا عبدك الخاطئَ غير المستحقّ ("حينئذٍ ترتضي بذبيحة البرّ"، مزمور ٥٠: ٢١). فإنّك أنت المقرِّب والمقرَّب. والقابل والموزِّع. أيّها المسيح إلهنا. وإليك نرفع المجد. وإلى أبيك الأزليّ وروحك القدّوس الصّالح والمُحيي. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين.

أ. صلاة الانسحاق الكهنوتيّ

خلال ترنيم النّشيد الملائكيّ (الشّيبروبيكون) **يتلو الكاهن بصمتٍ كلاميٍّ وبصوتٍ قلبيٍّ** هذه الصّلاة، لأنّها صلاةٌ نابعةٌ من قلب الكاهن إلى قلب الله الغفور والعَطوف. إنّ هذه الصّلاة تُدعى في المخطوطات اللّيتورجيّة اليونانيّة القديمة "الصّلاة الّتي فيها يُصلّي الكاهن من أجل نفسه، بينما يقوم بالدّخول مع القرابين المقدّسة". إنّها على خلاف جميع الصّلوات الّتي يتلوها الكاهن المُحتفل خلال اللّيتورجيّا الإلهيّة، تتميّز هذه الصّلاة بكونها **صلاةً شخصيّة**، يطلب فيها الكاهن مساعدةً عُلويّةً ليحتفل باستحقاقٍ في الذّبيحة غير الدّمويّة، ويردم من خلالها أيضًا الهُوّة اللاّنهائيّة بين قداسة الله وخطيئة الإنسان؛ إنّها **صلاةٌ غفرانيّةٌ** مُفعَمةٌ بالعاطفة الإيمانيّة الشّخصيّة، وبعِظَم الانسحاق القلبيّ والدّاخليّ الّذي يجب أن يتحلّى به كاهن الله الّذي سيقوم بتقديم ذبيحة العهد الجديد.

إنّها تُشير بكلماتٍ هادفةٍ إلى **عقيدة الكهنوت الأبديّ للمسيح واستمراريّتها في كهنوت العهد الجديد، ذلك أنّ الكنيسة تؤمن أنّ المسيح هو الكاهن الفعليّ الّذي يحتفل باللّيتورجيّا الإلهيّة**، وبالتّالي، فإنّ المسيح يرفع الكاهن جاعلاً إيّاه شريكًا في كهنوته الأبديّ. بناءً على ذلك نقول بتعابير لاهوتيّةٍ إنّ الكاهن الإنسان ما هو إلاّ أداةٌ مرئيّةٌ للمسيح الكاهن غير المنظور.

يعلن الكاهن في هذه الصّلاة الرّائعة المعاني على الصّعيد الرّوحيّ عدم استحقاقه لخدمة الأسرار الإلهيّة المقدّسة، ويعترف أمام الرّبّ القدير أنّه إنسانٌ خاطئٌ ويطلب منه أن يطهّره من كلّ خطاياه الاختياريّة وغير الاختياريّة، ويجعله مستحقًّا للوقوف أمامه بالرّوح القدس المعطى له بسرّ الكهنوت. يعي الكاهن أنّ ما سيحمله بيديه البشريّتين (الجسد والدم الإلهيّين) هو فوق استحقاق البشر، لذلك يطلب عون الرّبّ لأداء هذه الخدمة؛ وأيضًا يُدرك أنّ المسيح هو الّذي يقرّب الذّبيحة الّتي قرّبها مرّةً وما زال يقرّبها. يشعر الكاهن هنا بالرّعدة في داخله، لذا، نراه يطلب المعونة من العلاء لكي يكون السّرُّ فاعلاً في قلوب المؤمنين وحياتهم.

إنّ هذه الصّلاة البديعة تتضمّن مجموعةً وسلسلةً من أسئلةٍ مصيريّة ووجوديّةٍ يطرحها الكاهن على نفسه، مُصلّيًا إلى الله كي يجعله أهلاً للاقتراب من المائدة المقدّسة الّتي لا تستطيع حتّى القوّات السّماويّة الملائكيّة الدُّنُو منها، متضرّعًا إلى المسيح أن يُقوّي عجزه الإنسانيّ أمام واقع إلهيٍّ مقدّس، باكيًا على ذنوبه وخطاياه الكثيرة، ومُلتمِسًا أن يجعله الرَّبّ جديرًا لتقديم جسده المقدّس ودمه الكريم بقدرة الرّوح القدس. **تُبرز هذه الصّلاة استدعاءً شخصيًّا وتضرُّعًا للرّوح القدس كي يَحِلّ على شخص الكاهن.** كيف لا تخالجه كلّ هذه الأحاسيس ولا يستنزل المعونة من لدن الله في أثناء إتمامه السّرّ الإفخارستيّ، عندما تأتي ساعةٌ، يصير الكاهنُ فيها المسيحَ؛ ساعةٌ يتبوّأ فيها في الكنيسة والكون بأسره المكانة الّتي يعتليها المسيح وحده دون سواه؛ ساعةٌ يعمل فيها المسيح من خلال يديه هو، وصوته هو، وكيانه هو؛ إنّها عطيّةٌ من النّعمة الإلهيّة.

يصف كباسيلاس دُعاء الكاهن الّذي يشعر أكثر من غيره من المؤمنين في الكنيسة أنّه غيرُ أهلٍ وغيرُ جديرٍ للاقتراب من الله، إذ إنّ الإنسان كلّما اقترب من نور الله، اكتشف كم هو يعيش في الظّلمة، وكلّما دنا من نبع الحياة، أحسّ بالموت الّذي يحياه في بُعده وغربته عن الله مصدر الحياة الحقيقيّة، قائلاً:

> "لَمّا ظهر الله لموسى كان الظّهور محفوفًا بحوادثَ خارقةٍ جدًّا، حتّى إنّ موسى قال: "إنّي خائفٌ مرتعد"، لأنّ "المنظر" كان "هائلاً" (راجع خروج ١٩؛ ٢٠؛ عبرانيّين ١٢: ١٨-٢٩). ومع هذا الهول الّذي يضرب الملائكة

والبشر، ارتضى يسوع بفائق محبّته للبشر أن ينحدر إلينا، متنازلاً، منسحقًا، متواضعًا ليأخذ صورة عبدٍ ويصيرَ إنسانًا مثلنا، ما عدا الخطيئة (راجع فيلبي ٢: ٥-٩؛ عبرانيّين ٤: ١٥). ولكنّ انسحاقه هذا لا يبدّل لاهوته. فهو إنسانٌ وإلهٌ بدون استحالة ولا تغيير... وقد أقام يسوع الكهنة خدّامًا يخدمون هذه الذّبيحة الكهنوتيّة غير الدّمويّة. فهو نفسه أوصى تلاميذه بإقامة العشاء السّرّيّ لذكره "إصنعوا هذا لذكري" (لوقا ٢٢: ١٩).

إنّ ذبيحة الصّليب هي ذبيحةٌ دمويّة، انفجر فيها الدّم من جسم يسوع بالمسامير والحربة وإكليل الشّوك وحتّى بالجلدات. أمّا ذبيحتنا فهي غير دمويّة. لا نذبح فيها، إنّما الصّلوات تلتمس من الآب السّماويّ حلولَ الرّوح القدس على القرابين ليتمّ تحويل الخبز والخمر إلى جسد الرّبّ ودمه... إنّ الكاهن لابسٌ نعمة الكهنوت الّتي تُخوّله القيام بالخدمة، ولكنّه يلتمس قوّة الرّوح القدس ليكون واقفًا بجدارةٍ واستحقاق، لأنّه ليس بخادمٍ للأشياء الأرضيّة، بل لجسد يسوع ودمه. ويدعم طلبه لدى الله بحني عنقه والالتماس. فحنيُ العنق يدلّ على الخشوع والتّواضع والطّاعة. يلتمس التفاتة الرّبّ وهو تائبٌ كالعشّار، وشاعرٌ بعدم استحقاقه مثل قائد المئة (لوقا ٧: ١-١٠)[٢٥٣]...

وهكذا، فإنّ الكاهن بصلاته الاستغفاريّة يتضرّع إلى الله بكلّ قواه الرّوحيّة والإنسانيّة أن يخلق فيه قلبًا طاهرًا مجدّدًا بنعمة الرّوح القدس، وذلك لأنّ "الذّبيحة للّه روحٌ مُنسَحِق، لا يرذلُ الله قلبًا مُنسحِقًا ومتواضعًا" (مزمور ٥٠: ١٩). بين سطور هذه الكلمات التّكفيريّة الشّخصيّة، أورد نشيدًا تلاه القدّيس أفرام السّريانيّ عن "القلب النّقيّ"، قال:

"اللّهمّ اخلقْ فيّ قلبًا نقيًّا، عفيفًا، طاهرًا، بسيطًا، لا يُفكّر بالشّرّ، ولا تأوي إليه الشّهوات. قلبًا نقيًّا، لا يعرف الثّلب ولا يغتابُ قريبه. قلبًا نقيًّا، يملأه الحبّ دائمًا، وفي كلّ حين يبتغي الأمان والسّلام لكلّ إنسان. قلبًا نقيًّا، يُحبّ الصّوم والصّلاة والسّهر وإذلال الجسد والعمل والتّعب دائمًا. قلبًا نقيًّا يبتغي التّواضع ويلزم السّكينة والبشاشة مع الجميع. قلبًا نقيًّا أكلته

---

٢٥٣) نقولا كاباسيلاس، *شرح القدّاس الإلهيّ*، ص. ٣٤-٣٥.

غَيرة بيتك، ولا يقعد عن مناصبة مخالفي شريعتك. قلبًا نقيًّا يُحبّ الصّدقات ويوزّعها، ويُشفق على ذوي الحاجة ويرأف ببني جِلدته. يا مُحِبّ البشر، ضع فيّ مِثل هذا القلب، واغرُس فيه مخافتك كالغرسة النّامية"[٢٥٤].

إنّ الكاهن في نظر الكنيسة هو المُعدّ والمدعو والمؤسّس لتأكيد أنّ المسيح في هذه اللّحظة الحاسمة من القدّاس الإلهيّ هو الّذي يقرّب هذا القربان ("فإنّك أنت المقرّب")، وأنّ هذا القربان هو الذّبيحة نفسُها الّتي قرّبها مرّةً والّتي ما زال يقرّبها ("والمقرّب") وإعلان هذه الحقيقة وإتمامها في سرّ الإفخارستيّا. فالكهنوت الّذي لبسه الكاهن عند سيامته الكهنوتيّة ليس كهنوته "هو"، بل هو كهنوت المسيح غير القابل للتّجزئة، ولأنّ كهنوت المسيح إنّما هو أيضًا إفراغُ ذاته للّه والبشر، بمعنى **الرّعاية** (يوحنّا ١٠: ١١)؛ فما يُميّز طابع خدمة الكاهن هو أنّه دُعِيَ ورُسِمَ في الكنيسة، جسد المسيح، ليكون صورة رأس هذا الجسد، أي ليكون صورةً للمسيح وليكون ذاك الّذي بواسطته تستمرّ الخدمة الشّخصيّة للمسيح وتفعل. بناءً على ذلك، فإنّ هذه الصّلاة تؤكّد أنّ المسيح نفسه الّذي هو المقرّب الأوّل للذّبيحة الإفخارستيّة، هو نفسه الّذي قرّب ذبيحة الصّليب، ودور الكاهن في هذه الذّبيحة الإفخارستيّة دورٌ فعّال، إذ إنّه ممثّل المسيح. إنّ هذا التّفكير الكنسيّ كان حاضرًا في تعليم البابا بيوس الثّاني عشر الّذي قال: "عندما يريد الكاهن، الّذي يُمثّل شخص يسوع المسيح المقدّس، أن يُمارس سلطته الكهنوتيّة، فإنّه يُعير المسيح لسانَه ويُعطيه المقدرة على استخدام يدَيه"[٢٥٥] ليكون الكاهن وسيلةً يتجلّى من خلالها عمل المسيح القربانيّ والأسراريّ. وتُبيّن الصّلاة أيضًا أنّ المسيح الّذي هو ضحيّة الصّليب، هو نفسُه الضّحيّة المقدّمة في الذّبيحة الإفخارستيّة. إلاّ أنّ المسيح في الذّبيحة الإفخارستيّة، ليس الضّحيّة في حالته الطّبيعيّة، بل في حالته الأسراريّة تحت أعراض الخبز والخمر.

---

٢٥٤) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٥٦٣.

٢٥٥) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.480.

على ضوء كلّ ما تقدّم نقول إنّنا في الإفخارستيّا نُقدّم ذبيحتين: الذّبيحة الأولى هي ذبيحة جسد الرّبّ ودمه؛ **وأنا ككاهنٍ أقدّم ذاتي ذبيحةً لأجل الرّبّ، ذبيحة عبادة، ذبيحة صلاةٍ وتسبيح، ذبيحة توبةٍ وندامةٍ واستغفار، ذبيحة عملٍ روحيّ، ذبيحة عملٍ رعويٍّ في عمقه، ذبيحة موتٍ عن الشّهوات الخاصّة والملّذات والأهواء الجسديّة، إذ إنّي، في كلّ مرّةٍ أحتفل بها بليتورجيّا القدّاس الإلهيّ، أبدأ بدايةً جديدة، تقوم على خلاص النّفس الّتي ستُشكّل حافزًا إيجابيًّا لخلاص النّفوس أيضًا**، وامتلاك الفكر الخلاصيّ الّذي هو في المسيح يسوع.

ب. **محبّة الله الخلاصيّة للإنسان: "لكنّك لمحبّتك للبشر، الّتي لا توصَف ولا تُقدَّر، قد صرتَ إنسانًا، ولم يلحق بكَ تغيُّرٌ ولا تحوُّل"**

- **خلق الإنسان على الصّورة والمِثال الإلهيّين**

"لكنّك لمحبّتك للبشر، الّتي لا توصَف ولا تُقدَّر"

إنّ محبّة الله للإنسان تجلّت أوّلاً في خلقه على صورة الله ومثاله ("وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا" تكوين ١: ٢٦)، ومَنْحِه، في الوقت نفسه، سلطةً على كافّة الخلائق لإخضاعها ("وقال [الله] لهم: انمُوا واكثُروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلّطوا..." تكوين ١: ٢٨). إلاّ أنّ الإنسان بقرارٍ شخصيٍّ، واعٍ ومسؤولٍ وحرّ، أراد أن يسير عكس ما خطّطه الله له من شركة حبٍّ وحياة معه إلى تعاهدٍ مع قوى الظّلام والشّرّ (الخطيئة)، ليدخل بالتّالي الموت، كنتيجةٍ حتميّةٍ للخطيئة والمعصية، إلى حياة الإنسان المخلوق لحياةٍ أبديّةٍ خالدة (راجع رومة ٥: ١٢) فيُحوّله إلى إنسانٍ مائتٍ ليس على الصّعيد الجسديّ فقط (الموت)، إنّما على الصّعيد الرّوحيّ (العلاقة مع الله) أيضًا.

بناءً على هذه الحالة المستجَدّة، ظهرت محبّة الله من جديدٍ كنورٍ ساطع الضّياء في غُربة الإنسان ومنفاه وعبوديّته، تمنحه الأمل والرّجاء بقيامةٍ جديدةٍ هي من تدبير الله، وهذا ما سمّاه اللاّهوت "تدبير الله الخلاصيّ"، أي أنّ الله وضع مخطّطًا جديدًا سيُنفذّه عندما يحين ملء الزّمان الله الابن الكلمة الإلهيّ المتجسّد، يسوع المسيح (راجع غلاطية ٤: ٤-٧) وهو [المخطّط الإلهيّ] يهدف إلى إعادة الإنسان إلى الاشتراك في حياة الله الثّالوث.

إنّ الكتاب المقدّس هو الأكثر تعبيرًا عن هذه المحطات الخلاصيّة. فالعهد القديم عبّر عن مسيرة الله مع شعبه لكي يهيّئه للعهد الجديد (يسوع المسيح)، والعهد الجديد (يسوع المسيح) هو مركز دعوة الله للإنسان بأن يدخل في حياته الإلهية، إلى أن يعيش الإنسان والله في الملكوت الأبديّ في الحياة الأبديّة في أورشليم السّماويّة (راجع رؤيا ٢١-٢٢: ٥). من هنا نُدرك أنّ محبّة الله قد تجلّت في تاريخنا البشريّ حين أرسل الله ابنَه الوحيد خلاصًا للبشريّة قاطبةً والمفتداة بدم الحمل (راجع يوحنّا ٣: ١٦-١٧). لقد عبّر بشكلٍ بارزٍ القدّيس يوحنّا الحبيب في رسالته الأولى عن هذه المحبّة الإلهيّة الخلاصيّة والمجّانيّة، قال: "ما ظهرت به محبّة الله بيننا هو أنّ الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لنحيا به. وما تقوم عليه المحبّة هو أنّه لسنا نحن أحببنا الله، بل هو أحبّنا فأرسل ابنه كَفّارةً لخطايانا" (١ يوحنّا ٤: ٩-١٠).

- **التّجسّد علامة الحبّ الإلهيّ الخلاصيّ للإنسان**

"قد صرتَ إنسانًا، ولم يلحق بكَ تغيُّرٌ ولا تحوُّل"

يبقى السّؤال المحوريّ في هذه النّقطة الّذي يطرح بظلاله علينا هو الآتي: هل يسوع المسيح هو إنسانٌ كاملٌ فقط، أم إنّه إلهٌ كامل وإنسانٌ كامل؟ إنّ التّجسّد، وبحسب آباء الكنيسة اليونانيّين، هو عملُ المشيئة الإلهيّة وسرّ الحبّ الإلهيّ. فحتّى لو "صار الكلمة جسدًا" (يوحنّا ١: ١٤)، إلاّ أنّ هذه "الصّيرورة" لم تؤثّر إطلاقًا بالطّبيعة الإلهيّة. يقول القدّيس ثيوفيلوس البلغاريّ (القرن ١٢) إنّ "الكلمة صار ما لم يكن، مع بقائه ما كان". هذا كلّه يدخل في منظومة التّخلّي الّذي قام به الابن، إفراغ الذات الإلهيّ. يقول القدّيس كيرلّس الاسكندريّ إنّ "**كلّ سرّ التّدبير يكمن في إفراغ ابن الله لذاته وتنازله**". إنّه التّخلّي عن مشيئته الخاصّة لإتمام مشيئة الآب مطيعًا إيّاه حتّى الموت، حتّى الصّليب (راجع فيلبّي ٢: ٦-٨). فالمشيئة الإلهيّة في المسيح كانت إذًا المشيئة المشتركة للثّالوث: مشيئة الآب – مصدر المشيئة؛ مشيئة الابن – الطّاعة؛ ومشيئة الرّوح القدس – التّحقيق.

إذًا، نختم فنقول إنّ يسوع المسيح، بحسب لاهوت الكنيسة وآبائها القدّيسين، هو إلهٌ كاملٌ وإنسانٌ كامل، وهذا ما نفهمه بشكلٍ واضح في كلمات هذه

الصّلاة: "قد صرتَ إنسانًا، ولم يلحق بكَ تغيُّرٌ ولا تحوُّل"، أي أنّ التّنازل الإلهيّ، وهذا القول للقدّيس مكسيموس، لم يكن إفقارًا للاهوت، بل تنازلاً لا يوصف للابن الّذي صار على "صورة عبد" من دون أن يَكفَّ عن كونه إلهًا تامًّا.

ت. يسوع المسيح رئيس كهنة العهد الجديد الأبديّ

"ومُسِحت رئيس كهنتنا"

"أنتَ كاهنٌ للأبد على رتبة ملكيصادَق" (مزمور١٠٩: ٤)

تجد هذه الكلمات جذورًا كتابيّةً عميقةً في رسالة بولس الرّسول إلى العبرانيّين، والّتي يُبيِّن فيها الرّسول **كهنوت المسيح الأبديّ** انطلاقًا من بعض كتابات وشخصيّات العهد القديم وأخصّ بالذكر ملكيصادق الّتي ذكرها سفر التّكوين ١٤ وسفر المزامير ١٠٩: ٤ والّتي شكّلت بالنّسبة إلى كاتب الرّسالة إلى العبرانيّين، صورةً نبويّةً عن المسيح وكهنوته الأبديّ. فالقدّيس بولس يركّز اهتمامه على دور المسيح الشّخصيّ في تقدمة هذه الذّبيحة الّتي يراها ذبيحة الكفّارة (٩: ١-١٤؛ راجع رومة ٣: ٢٥-٢٥)، وذبيحة العهد (٩: ١٤-٢٨)، وذبيحة عبد الرّبّ (٩: ٢٨)[٢٥٦].

إنّ المقطع الأوّل من الرّسالة إلى العبرانيّين (٧: ١- ٢٨) يحدّد نوعيّة كهنوت المسيح الممجَّد. فهو كاهنٌ لا على مثال هارون بل على مثال ملكيصادق (٧: ١١)، وهو كاهن، لا لأنّه ينتمي إلى أسرةٍ كهنوتيّةٍ أرضيّة، بل لأنّه ابن الله؛ ويتوقّف المقطع الثاني من الرّسالة عينها (٨: ١- ٩: ٢٨) عند موضوع الذّبيحة الّذي جعل من المسيح الحَبر الكامل الّذي جلس عن يمين الله. ويقابل الكاتب اللّيتورجيّا الحديثة مع عبادة العهد القديم الّتي تضمّنت فقط ذبائحَ حيواناتٍ في هيكلٍ أرضيٍّ وطقوسًا خارجيّةً غير فاعلة. أمّا ذبيحة المسيح فكانت ذبيحةً شخصيّةً أدخلته السّماء وجعلت منه الوسيط الحقيقيّ، لأنّها تنفع من أجل تنقية الضّمائر؛ ويتوسّع المقطع الثّالث من الرّسالة عينها (١٠: ١- ١٨) في هذه الفكرة الأخيرة فيشدّد على عجز الشّريعة القديمة عن تطهير الضّمائر رغم معاودة تقديم الذّبائح، وعلى فاعليّة كهنوت المسيح الّذي "بقربان واحدٍ جعل

---

٢٥٦) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٦٨٣.

المقدّسين كاملين أبد الدّهور" (١٠: ١٤)، أي بذبيحة صليبه. وبعد هذا العرض التّعليميّ يَردُ تحريض (١٠: ١٩- ٣٩) يعبّر عن علاقة التّعليم بالحياة فيدعو السّامعين إلى الدّخول في القدس على خطى المسيح الكاهن الأعظم، والعيش في الإيمان والرّجاء والمحبّة، ويحذّرهم من السّقوط.

وهكذا، فإنّ كلّ رموز الكهنوت في العهد القديم (ملكيصادَق، كهنوت اللّاويّين والكهنوت الهارونيّ) تكتمل في المسيح يسوع، الحَبر الّذي دعاه اللّه وحده "عظيمَ كهنة للأبد على رتبة ملكيصادق" (عبرانيّين ٥: ١٠؛ ٦: ٢٠)، حَبرًا "قدّوسًا بريئًا نقيًّا" (عبرانيّين ٧: ٢٦). لماذا كلّ هذا الاهتمام بشخصيّة ملكيصادَق من قِبَل القدّيس بولس الّذي تكلّم مرارًا في رسالته إلى العبرانيّين عن هذه الشّخصيّة الكهنوتيّة وربطها بشخصيّة المسيح الكهنوتيّة؟ يذكر كاتب الرّسالة في مواضعَ مختلفةٍ شخصيّة ملكيصادَق على أنّها ظِلٌّ للشّخصيّة الحقيقيّة، يسوع المسيح، رئيس كهنة العهد الجديد الأبديّ:

- "إلى حيث دخل يسوع من أجلنا سابقًا لنا وصار عظيم كهنةٍ للأبد على رتبة ملكيصادَق" (٦: ٢٠)؛
- "فإنّ ملكيصادَق هذا هو ملك شليم وكاهن اللّه العليّ، خرج لملاقاة إبراهيم عند رجوعه، بعدما كسر الملوك، وبارَكه" (٧: ١)؛
- "وله أدّى إبراهيم العُشر من كلّ شيء. وتفسير اسمه أوّلاً ملك البرّ، ثمّ ملك شليم، أي ملك السّلام" (٧: ٢)؛
- "وليس له أبٌ ولا أمٌّ ولا نَسَب، وليس لأيّامه بداية ولا لحياته نهاية، وهو على مثال ابن اللّه... ويبقى كاهنًا أبد الدّهور" (٧: ٣)؛
- "لأنّ الشّهادة الّتي أُدِّيَت له هي: أنتَ كاهنٌ للأبد على رتبة ملكيصادَق" (٧: ١٧).

إنطلاقًا من هذه الآيات المقدّسة من الرّسالة إلى العبرانيّين نقول إنّ ملكيصادَق حين التقى بإبراهيم أبي الآباء قدّم له "خبزًا وخمرًا، لأنّه كان كاهنًا للّه العليّ" (راجع تكوين ١٤: ١٨) ولم يُقدِّم له ذبائح حيوانيّة كعادة اليهود، وبذلك رمزٌ "للكهنوت الإفخارستيّ" الّذي أسّسه السَّيِّد المسيح.

فكما قدّم ملكيصادَق كاهن الله العليّ الخبز والخمر لإبراهيم وهما رمزٌ لجسد ودم المسيح، كذلك قام المسيح نفسه وهو الكاهن الأعظم بتقديم الخبز والخمر لتلاميذه أثناء العشاء السّرّيّ الأخير في عليّة صهيون على أنّهما جسده ودمه، مُطالبًا إيّاهم بصُنع هذا لذكره. أمّا قول الرّسول بولس بأنّ ملكيصادَق "ليس له أب ولا أمٌّ ولا نَسَب"، فهذا يعني أنّه ظهر في تلك الحِقْبة كشخصيّة توراتيّة ليؤدّيَ رسالةً ما وليكون رمزًا للمسيح، فهو [بولس] "يعتمد صمت كتاب التّكوين حول نَسَب الملك-الكاهن، كدليلٍ على أزليّة ابن الله"[٢٥٧]؛ بالإضافة إلى أنّ خدمة ملكيصادَق الكهنوتيّة المذكورة في التّوراة والّتي لا نعرف متى بدأت ومتى انتهت، فهي خدمةٌ تُشبه تمامًا كهنوت المسيح الّذي ليس لكهنوته بداية ولا نهاية، لأنّه **الملك السّماويّ السّرمديّ** (منذ الأزل – وإلى الأبد). من هذا المنطلق نُدرك ما جاء في المزمور على لسان داود: "أقسَمَ الرّبّ ولن يندم، أنْ أنتَ كاهنٌ للأبد على رتبة ملكيصادَق" (١٠٩: ٤).

٥. الدّخول الكبير (الإيصوذن الكبير)

أ. طقسيّة الدّخول الكبير

أثناء ترنيم النّشيد الشّيروبيميّ وانتهاء الكاهن من صلاته الشّخصيّة، يسجد أمام المائدة المقدّسة قائلاً سرًّا النّشيد الشّيروبيميّ، ثمّ يبخّر الإيقونات والشّعب من الباب المقدّس (بما أنّ الكاهن يتلو أثناء التّبخير أناشيد توبة وندامة شخصيّة، فينبغي بالتّالي أن يكون <u>التّبخير هادئًا خشوعيًا</u>) – للتّبخير هنا المعنى نفسه الّذي ظهر في الأقسام الأخرى من اللّيتورجيّا، أعني **التّنقية والتّقديس** – قائلاً سرًّا المزمور الخمسين "إرحمني يا الله..." بصوتٍ خافتٍ خاشع (تشير الوثائق اللّيتورجيّة إلى أنّ تاريخ تلاوة مزمور التّوبة يعود إمّا إلى القرن الثّالث عشر أو الرّابع عشر للميلاد)، وما شاء من أناشيد التّوبة ثمّ ينحني مستغفرًا مَن في الهيكل والشّعب، قائلاً: "**إغفروا أيّها الآباء والإخوة القدّيسون، وسامحوني أنا الخاطئ**"، فيجيبونه قائلين: "**يغفر الله لكَ أيّها الأب القدّيس**"، ثمّ يذهب إلى مذبح التّقدمة. فيبخّره الكاهن ويسجد ثلاثًا قائلاً في ذاته كلّ مرّة: "ألّلهمّ اغفر لي أنا الخاطئ وارحمني"[٢٥٨].

---

٢٥٧) **المرجع نفسه**، ص. ٦٨٣.

٢٥٨) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***<u>كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة</u>***، ص.١٠٧-١٠٨.

ثمّ يأخذ الكأس والصّينية عن المذبح في تطوافٍ مَهيبٍ داخل الكنيسة ويضعها على المائدة المقدّسة.

ب. التّوبة

وكما رأينا سابقًا، فإنّ الكلمات والحركات الطّقسيّة، كمزمور التّوبة الّذي يتلوه الكاهن أثناء التّبخير، وأناشيد التّوبة، والسّجود أمام المائدة المقدّسة ومذبح التّقدمة، وطلب المغفرة الموجّه إلى الله، وللكهنة المشاركين في الهيكل، وللشّعب، تكشف جميعها مشاعر الكاهن التّكفيريّة والغُفرانيّة الخاصّة بسرّ الإفخارستيّا المقدّس[٢٥٩]، وتدلّ، في الوقت عينه، على أنّ اقترابه من المذبح المقدّس ما هو إلاّ تعبيرٌ عن اعترافه بخطاياه وعودته إلى الله الآب على مِثال الابن الضّالّ أو الشّاطر (راجع لوقا ١٥: ١١-٣٢). بمثله الكهنوتيّ هذا، يدلّ الكاهن المؤمنين على طريق التّوبة. إنّ الكاهن، وهو إيقونة الصّابغ (السّابق يوحنّا المعمدان)، يُهيّئ "طريق الرّبّ" (متّى ٣: ٣)، الطّريق الّتي سوف تؤدّي إلى المسيح. وهذه الطّريق هي التّوبة. وهذا ما عنَيناه بالتّحديد حين قلنا إنّ الكاهن هو إيقونة الصّابغ، أي إنّه يفتتح معموديّة التّوبة. وبالتّالي، فإنّ الكاهن يجب أن يكون على مثال المعمدان صوتًا صارخًا في البريّة يُعلن كلمة الحقّ ويُهيّئ النّاس لاستقبال حمل الله، الّذي سيُذبح على خشبة الصّليب غُفرانًا للعالم وكَفّارةً عن خطايانا جميعًا، بالتّوبة الحقيقيّة: "توبوا، قدِ اقترب ملكوت السّماوات" (متّى ٣: ٢).

ت. الذّكرانيّات

إنّ هذه القرابين هي قرابيننا الّتي قدّمناها عن أنفسنا وعائلاتنا، ويجب علينا أن نقدّم قبل كلّ قداس إلهيٍّ تقدماتنا، لكي نرفع صلاتنا جميعًا، مشتركين معًا، كجسدٍ واحدٍ للمسيح، في الصّلاة من أجل الجميع. الكاهن يحمل قرابيننا ويرفعها إلى الهيكل السّماويّ ويدخل معها إلى الملكوت لنجلس إلى مائدة الرّبّ في ملكوته ونشترك جميعًا في ذبيحة المسيح.

---

٢٥٩) Greogorio, ***La divine liturgia***, p.158.

أثناء التّطواف يعلن الكاهن: "**يذكر الرّبّ الإله جميعَنا في ملكوته كلّ حين...**"، ثمّ يذكر الأحياء والأموات الّذين قُدّمت على اسمهم القرابين المقدّسة. نستودع مَن نذكرهم الله؛ نذكر الأحياء والأموات معًا إذ لا شيء يفصل في الكنيسة بين مَن رقد ومَن ما زال حيًّا. الجميع، أحياءً وأمواتًا، أحياء في المسيح يسوع، لأنّ المسيح "ما كان إلهَ أموات، بل إلهُ أحياء" (متّى ٢٢: ٣٢). على هذا الأساس الرّوحيّ العميق، **يذكر الكاهن أسماء الرّاقدين** على رجاء القيامة للحياة الأبديّة، قائلاً: "قدّس نفوسهم: لأنّك تعلم كلّ شيء، قدّس جميع النّفوس، وامنحها الرّاحة في الرّبّ، وأحصها مع القوّات المقدّسة خاصّتك، وأنعم عليها بمكانٍ ومسكنٍ في ملكوتك"، ثمّ **يذكر أسماء الأحياء**، قائلاً:

> "تلقّى أيضًا الشّكر من الشّعب، وبارك أولئك الّذين قدّموا هذه القرابين الشّكريّة، وامنحهم الصّحّة والسّلامة والابتهاج، وترفُّع النّفس والجسد، من خلال ابنك الوحيد يسوع المسيح في الرّوح القدس، الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين"[٢٦٠].

إلى جانب هذه الذّكرانيّات للأحياء والرّاقدين، تظهر **ذكرانيّة شخصيّة** خاصّة بكلّ مسيحيٍّ مشتركٍ في الذّبيحة الإلهيّة؛ فبينما يعبر المسيح بجانبنا، أثناء موكب نقل القرابين، واذ نحن لا نرتدي لباس العرس لنفرشه على طريق الجلجثة، نفرش جسدنا: نسجد إلى الأرض طالبين مثل اللّصّ: "أذكرني يا ربّ في ملكوتك" (لوقا ٢٣: ٤٢)؛ نسأله أن "يذكرنا"، أي أن يرفعنا من النّسيان ويضعنا في "الحقّ"، لنستطيع نحن أيضًا أن "نتذكّره" بسرّ تذكاره. فلقد "منح الله الإنسان عطيّة الذّاكرة طاقةً قادرةً على تحويل الحبّ إلى حياةٍ فمعرفةٍ فشركةٍ فاتّحاد. فصارت ذاكرة الإنسان حبًّا يبادل به حبّ الله له، حبًّا ارتقى ليسمو إلى منزلة لقاءٍ بل اتّحادٍ بالله حياة الحياة"[٢٦١]؛ فاللّيتورجيّا هي مدخل الكنيسة إلى الزّمن الجديد للخليقة الجديدة الّتي استعادتها ذاكرة المسيح والّتي تحوّلت فيه إلى حياةٍ وعطيّة حياة. فالدّخول الكبير الّذي توضع فيه القرابين الإفخارستيّة على المائدة المقدّسة، يجعلنا نُدخل مَن لا نزال نحفظ

---

(٢٦٠) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.95.

(٢٦١) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٨٦.

ذكراه في ذاكرة المسيح المُحيية الّتي هي نقطة التقاء ذاكرة الإنسان في قلب الله بذاكرة الله في قلب الإنسان. **عندما نستودع هؤلاء الله نؤكّد أنّ مَن نذكرهم والّذين تُقدَّم القرابين من أجلهم هم أحياء لأنّهم باقون في ذاكرة الله.**

ث. يوسف الوجيه

في ختام الذّكرانيّات، يدخل الكاهن إلى الهيكل عبر الباب المقدّس، ويضع القرابين المقدّسة، الّتي ترمز هنا إلى جسد المسيح المائت، على المائدة المقدّسة، كأنّما في قبر، ويُغطّيها بالسّتر الكبير، إشارةً إلى **تكفين جسد الرّبّ**: "فأخذ يوسف الجثمان ولفّه في كتّان خالص" (متّى ٢٧: ٥٩)، وإلى **دحرجة الحجر على باب القبر الّذي وضع فيه المسيح**: "ثمّ دحرج [يوسف] حجرًا كبيرًا على باب القبر" (متّى ٢٧: ٦٠)، وإلى ختمه بطلبٍ من عظماء الكهنة والفريسيّين: "فذهبوا وحَفِظوا القبر، فختموا الحَجَر وأقاموا عليه حرّاسًا" (متّى ٢٧: ٦٦).

في هذه اللّحظات المقدّسة، يتلو الكاهن نشيدًا مأخوذًا من الجمعة العظيمة، يتعلّق بإنزال يوسف الوجيه جسد يسوع عن الصّليب، ولفّه بالكتّان النّقيّ، وتحنيطه بالطّيوب، وإضجاعه في القبر، وظهور الملاك مبشّرًا النّسوةَ بقيامة يسوع، ونزول يسوع إلى الجحيم مُبيدًا وإقامته الأمواتَ وسط تسبيح الملائكة لجلاله. وقد تمّ إدخال هذا النّشيد إلى اللّيتورجيّا الإلهيّة في القرن الرّابع عشر للميلاد. ثمّ يقوم الكاهن بتبخير جسد المسيح المغطّى بالسّتر الكبير (أي القرابين المقدّسة)، رامزًا بذلك إلى الحنوط الّذي طيّب به يوسف ونيقوديمس جسد يسوع المائت: "وكان معه [نيقوديمس] خليطٌ من المُرّ والعود... فحملوا [يوسف ونيقوديمس] جثمان يسوع ولفّوه بلفائف مع الطّيب" (يوحنّا ١٩: ٣٩-٤٠)، قائلاً الآيتين الأخيرتين من المزمور الخمسين: "أحسن يا ربّ برضاك إلى صهيون. وابن أسوار أورشليم. حينئذٍ ترتضي بذبيحة البرّ. بتقدمةٍ ومُحرقات. حينئذٍ يُقرّبون على مذابحك العجول". وقد أكّد اللّيتورجيّون على أنّ هاتين الآيتين اللّتين يتلوهما الكاهن تُعبّران عن صلاته من أجل الجماعة المسيحيّة في أورشليم؛ فعندما يضع الكاهن القرابين المقدّسة على المائدة المقدّسة، فإنّ أفكاره تعود به إلى أنّ "صهيون" العهد القديم المذكورة في المزمور أعلاه، قد أصبحت في

العهد الجديد "كنيسة المسيح"، وأنّ "أسوار أورشليم" المذكورة أيضًا، هم الأساقفة والكهنة، الأسوار الحيّة والمتينة للكنيسة، الّذين يحمونها من الأعداء المنظورين وغير المنظورين، بقوّة صليب المسيح الواهب الحياة، و"ذبيحة البرّ بتقدمةٍ ومحرقات" تُشير بوضوحٍ إلى ذبيحة يسوع المسيح في اللّيتورجيّا الإلهيّة.

لا نغفل هنا أيضًا عن ذكر عادةٍ قديمةٍ شكّلت جزءًا من اللّيتورجيّا الإلهيّة في الكنائس البيزنطيّة هي عادة إغلاق الباب المقدّس (أو تُسدَل ستائرها) الّتي ترمز إلى إغلاق القبر على جسد الرّبّ المائت وختمه؛ إلاّ أنّ هذه العادة قد تلاشت في كنيستنا الملكيّة.

وهكذا نُدرك أنّ الكاهن يُتمّم العمل المقدّس الّذي قام به يوسف مع نيقوديمس وهو دفن المخلّص؛ لنتأمّل، في هذه السّاعة، رثاء يوسف للمسيح المائت على خشبة الصّليب، وهو الرّثاء الّذي تُنشده الكنيسة البيزنطيّة في خدمة التّنزيل عن الصّليب، الّتي تُقام في صبيحة الجمعة العظيمة المقدّسة، يقول: "أيّها اللّابس النّور كالثّوب، لمّا أنزلك يوسف ونيقوديمس عن الخشبة، وشاهدك ميْتًا عُريانًا غير مدفون، طَفِقَ يبكي راثيًا لك بنحيبٍ وقائلاً: وَيحي! يا يسوع الجزيل الحلاوة، الّذي لمّا شاهدته الشّمس على الصّليب معلّقًا، إلتحفت بالظّلام، والأرض تزلزلت جزعًا، وحجاب الهيكل انشقّ متمزّقًا. ها إنّي أراك الآن محتملاً لأجلي الموت طوعًا. فكيف أُجهّزك يا إلهي؛ أم كيف أضعك في الأكفان؛ بأيّة يدين ألامس جسدك الطّاهر؛ أم أيّة مراثٍ أُنشد لتجنيزك يا رؤوف. فأعظّم آلامك وأُسبّح دفنك وقيامتك، هاتفًا: يا ربّ المجد لك". إنّ ما قام به يوسف الرّامي تجاه جسد المسيح المائت آنذاك، من تجهيزٍ وتكفينٍ وتطييبٍ، يقوم به الكاهن اليوم في اللّيتورجيّا الإلهيّة تجاه القرابين المقدّسة، الّتي ترمز إلى جسد المسيح المائت، من تجهيزٍ عبر المائدة المقدّسة (قبر المسيح)، وتكفينٍ من خلال السّتر الكبير، وتطييبٍ بواسطة التّبخير. وكما وقف يوسف الرّامي أمام هذا الحدث العظيم برهبةٍ ودهشة، كذلك يقف الكاهن في اللّيتورجيّا الإلهيّة أمام هذا السّرّ العظيم، سرّ موت المسيح، بنفس الرّهبة والدّهشة.

ج. أبعاد الدّخول الكبير اللّيتورجيّة والرّمزيّة

يتضمّن الدّخول الكبير ثلاثة أبعادٍ رئيسيّةٍ هي:

- **البُعد الأوّل: اشتراك المؤمنين**

يُصبح الحاضرون في الجوّ الرّوحيّ لاستقبال "ملك الكلّ" ممثّلين للطّغمات الشّيروبيميّة الملائكيّة. من هنا نُدرك أنّ المطلوب من المؤمنين الدّخول روحيًّا إلى حضور المسيح، وهذا لن يتحقّق بقُوى المؤمنين الشّخصيّة، بل بقدرة الله ونعمته، بالقوّة الرّوحيّة الّتي سنرتفع بها فوق كلّ أمرٍ عابرٍ ومنظور: إنّها محبّة الله؛ فإذا ما التهب أحدهم في داخله بمحبّة الله، فإنّه لا يحتمل بعدُ ما يقع تحت ناظرَيه الحسّيّين. بل، إذ قد اكتسب ناظرين آخرين، أقصد عين الإيمان، فهو على الدّوام مستغرقٌ في الأمور السّماويّة وإليها ينجذب فكره. وبينما يسير على الأرض، يبدو وكأنّه يعيش في السّماء، وهو في كلّ شيءٍ يفعل ويتصرّف على هذا النّحو... وإذ يحدوه الشّوق في أن يرتفع من الأرض إلى السّماء، يتخلّى عمّا هو منظور، حتّى يكون بمقدوره الصّعود إلى القمّة نفسها.

- **البُعد الثّاني: رمزيّة الدّخول الكبير**

يشتمل هذا البُعد على رمزين يُكمّل أحدهما الآخر. يُشير الرّمز الأوّل إلى **دخول المسيح الانتصاريّ إلى أورشليم في أحد الآلام** (أو ما نُسمّيه بالمصطلحات اللّيتورجيّة "أحد الشّعانين")، الّذي ما هو إلاّ بداية مسيرة الآلام الخلاصيّة الّتي بلغت ذروتها في حدث الصّلب. بناءً على هذه الرّمزيّة، أُدرِجَت الكلمات الكتابيّة الّتي تُعبّر عن دخول يسوع أورشليم، "تبارك الآتي باسم الرّبّ" (يوحنّا ١٢: ١٣) كجزءٍ من الدّخول الكبير أثناء القرن الرّابع عشر للميلاد[٢٦٢]. إنّ هذه الرّمزيّة تقود، بطبيعة الحالّ، إلى إضفاء الطّابع الاحتفاليّ للدّخول، من خلال ما نراه من أبهّةٍ وفخامةٍ للموكب الّذي يتقدّم نقل القرابين المقدّسة من مذبح التّقدمة إلى المائدة المقدّسة؛ ونستطيع أن نفهم المقصود بالطّابع الاحتفاليّ عند اشتراكنا في قدّاسٍ حبريٍّ يترأسه الأسقف، فنرى حينذاك طوافًا مَهيبًا، حسب التّرتيب التّالي: "حامل التّاج الأسقفيّ، رافع العصا الرّعائيّة، حَمَلَة الشّموع

---

٢٦٢) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.499.

والمراوح والصّليب، الكاهن حامل الأموفوريون، حامل المُثنّى "الذّيكيري" والمبخرة الأولى، الشمّاس الأوّل حاملاً الصّينيّة مُغطّاة، عاليًا، الكهنة حاملو الأواني المقدّسة، حامل المثلّث "التّريكيري" والمبخرة الثّانية، الكاهن حامل الكأس"[٢٦٣].

بينما يُشير الرّمز الثاني إلى نقل جسد المسيح من الصّليب إلى القبر؛ وبما أنّ المائدة المقدّسة هي رمزٌ لقبر المسيح، فإنّ وضع القرابين المقدّسة عليها يرمز، بالتّالي، إلى وضع جسد المسيح المائت في القبر. وهكذا يُصبح الدّخول الكبير علامة على دفن المسيح. إنّ تقليد الكنيسة البيزنطيّة الأصيل المتعلّق بتحضير القرابين في ليتورجيّا التّقدمة يُمثّل آلام المسيح وموته. إنّها بمثابة استباقٍ للموت غير الدّمويّ للمسيح الّذي يأتي في وقتٍ لاحقٍ في الذّبيحة الإفخارستيّة؛ إنّها زمن التّحضير للسّرّ العظيم، سرّ موت المسيح الخلاصيّ، كفعلٍ قربانيٍّ على خشبة الصّليب.

- **البُعد الثّالث: اللّيتورجيّا تحقيقٌ لرمزيّة الدّخول الكبير**

بناءً على ذلك، نُشير إلى أنّ رمزيّة آلام المسيح وموته يستمرّان حتّى بعد الدّخول الكبير. تتّخذ الصّينيّة وظيفةً تجعل منها يدَي يوسف ونيقوديموس اللّذين قاما بمراسيم الدّفن السّيّديّ (راجع يوحنّا ١٩: ٣٨-٤١)؛ والكأس، الوعاء الّذي تقبّل الدّم والماء الفائضَين من الجنب الطّاهر المطعون بالحربة (هناك إيقونةٌ بيزنطيّةٌ رائعة الجمال يظهر فيها ملاكٌ يحمل كأسًا يضعها تحت الجنب الطّاهر ليملأها من دم المسيح المصلوب)؛ ووضع القرابين المقدّسة على المائدة المقدّسة يرمز إلى الدّفن السّيّديّ؛ بينما يرمز التّبخير إلى تطييب جسد المسيح المائت؛ وأخيرًا، يرمز السّتر الكبير الّذي يُغطّي القرابين المقدّسة إلى الحجر المدحرج على باب القبر.

حينئذٍ يُصلَب المسيح، والحياة تُدفَن، والقبر يُحرَس، والحَجَر يُختَم. ويدنو الكاهن في شركةٍ مع القوّات الملائكيّة، بحيث لم يعد واقفًا على الأرض، بل

---

٢٦٣) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، قواعد الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة المقدّسة***، الجزء الأوّل، ص.٣١-٣٢.

حاضرًا في الهيكل السّماويّ، أمام عرش الله، متأمِّلاً سرّ الله العظيم، الَّذي لا يوصف ولا يُسبَر غوره. وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم رمزيّة الدّخول الكبير كما وصفها القدّيس مكسيموس المعترف (+٦٦٢م)، قائلاً:

إنّ الدّخول بالقرابين المقدّسة يعني بداية حياة المجد في السّماوات، والكشف عن خلاص الله.

٣) صلاة التّقدمة

أيّها الرّبّ الإله القدير القدّوس وحدك. القابل ذبيحة التّسبيح من الَّذين يدعونك بكلّ قلوبهم. تقبّل منّا أيضًا نحن الخطأة طلبتنا. وقُدنا إلى مذبحك المقدّس. واجعلنا جديرين بأن نُقدّم لك قرابين وذبائح روحيّة. عن خطايانا وجهالات الشّعب. وأهّلنا لأن نُصيب حظوةً في عينيك. فتكون ذبيحتنا مرضيّةً لك. ويستقرّ روح نعمتك الصّالح علينا. وعلى هذه القرابين المقدّمة. وعلى شعبك كلّه. برأفة ابنك الوحيد. الَّذي أنتَ مبارَكٌ معه. ومع روحك القدّوس. الصّالح والمُحيي. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

إنّها صلاةُ تضرُّع والتماس يتلوها الكاهن باسمه الشّخصيّ وباسم المسيحيّين جميعًا، ويدعو الله بكلّ قلبه وكيانه ونفسه أن يجعله أهلاً للاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة، وأن يتقبّل ذبيحته هذه غير الدّمويّة الَّتي يُقدّمها عن خطاياه الشّخصيّة (راجع أحبار ٤: ١-٣) وجهالات الشّعب (راجع أحبار ٤: ١٣-١٤). وهنا لا بدّ أن نذكر ما كتبه بولس الرّسول في رسالته إلى العبرانيّين، قائلاً: "... وأمّا الخيمة الأخرى فإنّ عظيم الكهنة وحده يدخلها مرّةً في السَّنة، ولا يدخلها بلا دمٍ، الدّمِ الَّذي يُقرّبه عن **مجاهله ومجاهل شعبه**" (عبرانيّين ٩: ٧)، هذا ما كان يحدث في العهد القديم؛ أمّا في العهد الجديد، فالدّم لم يكن دمَ التّيوس والثّيران، بل دم المسيح الخاصّ الَّذي به نلنا نحن المؤمنين باسمه فداءً أبديًّا. فهو عظيم الكهنة الَّذي قرَّب دمه الخاصّ المهراق من على خشبة الصّليب، "ليُطهِّرَ ضمائرنا من الأعمال المَيْتة لنعبد الله الحيّ" (عبرانيين ٩: ١١-١٤).

من هنا نُدرك أهميّة الذّبيحة الكهنوتيّة غير الدّمويّة الّتي يقرِّبها الكهنة عن أنفسهم وعن شعب الله المقدّس، الأمّة الملوكيّة. فالكاهن وهو

عارفٌ حقّ المعرفة عدم أهليّته ولا استحقاقه على الصّعيد الشّخصيّ، وهو يعترف بأنّه إنسانٌ خاطئ "تقبّل منّا أيضًا نحن الخطأة طلبتنا"، يتضرّع إلى الله أن يجعله أهلاً ومستحقًّا الاقتراب من مذبحه المقدّس، ليُقرّب هذه الذّبيحة الرّوحيّة. نجد في هذه الصّلاة البليغة بعض التّعابير الّتي تُظهر أنّ الكاهن بدون نعمة الله وبركته واعتماده على إرادته الإلهيّة في حياته والاتّكال عليها، سيبقى غيرَ جدير بتتميم هذه الذّبيحة العظيمة المقدّسة. إنّ إرادة الله الخلاصيّة تبقى إرادةً نظريّة ما لم تحصل على تجاوب الإنسان مع هذه الإرادة لتُصبح موضع التّنفيذ العمليّ، وهذا ما يصلّي الكاهن من أجله، أن تتناغم إرادته مع إرادة الله ومشيئته.

إنّ الحُظوة الّتي يطلبها الكاهن في عينَي الله هي ذاتها الحُظوةُ الّتي نالتها العذراء الطّاهرة في البشارة، حين أعلن لها الملاك جبرائيل قائلاً: "لا تخافي، يا مريم، فإنّكِ قد نِلتِ حُظوةً عند الله" (لوقا ١: ٣٠). هذا ما يرغب الكاهن في نيله، ولكن، ليس من مُرسل الله الملاك جبرائيل، إنّما من الله نفسه. ما أرهب هذه اللّحظات الّتي فيها يتجلّى الله للكاهن المُزمع أن يُقدّم المسيح، الحمل الفصحيّ الذبيح على المائدة المقدّسة. ولينال الكاهن هذه الحُظوة الإلهيّة، عليه أن يكون مُظلّلاً بقدرة العليّ والرّوح القدس، فلا ينظر المؤمنون المشتركون في الذّبيحة الإلهيّة إلى إنسانيّة الكاهن الضّعيفة والمحدودة والخاطئة، بل ينظرون إلى هذه القدرة الإلهيّة الّتي جعلت من الكاهن إنسانًا متألّه العقل، مُشعًّا بالأنوار الإلهيّة. بكلماتٍ أخرى، يُصبح الكاهن على الهيكل المسيحَ نفسَه، وهذه هي عظمة سرّ الكهنوت المقدّس. وهنا تجدر الإشارة إلى إحدى الصّلوات الرّائعة الّتي تُتلى في صلاة زيت التّائبين، الّتي تُقام في صبيحة خميس الأسرار العظيم المقدّس، وهي تختصر بطريقةٍ بليغةٍ ما تقدّم ذكره عن دور الكاهن في هذه الذّبيحة الإلهيّة:

"... يا مَنْ دعاني أنا عبدَه الذّليلَ الخاطِئَ غيرَ المُستحقّ. المُشتبكَ بخطايا كثيرةٍ. المُتمرّغ في أهواءِ المَلذّات. إلى درجة الكهنوت السّامية المُقدّسة. لأدخُلَ إلى داخل الحِجاب. إلى قدس الأقداس. الّذي يشتهي الملائكة القدّيسون أن يتطلّعوا إليه. وأسمَعَ صوتَ بشارةِ الرّبِّ الإله. وأرى رؤيةَ العين وجه التّقدمة المُقدّسة. وأتمتّعَ بالخدمة الطّاهرة الإلهيّة.

يا مَن أهّلني أن أخدُمَ أسرارَهُ السّماويّة. وأقرّب له قرابينَ وذبائحَ. عن خطايانا وعن جهالاتِ الشّعب. وأشفعَ في خرافه النّاطقة. لكي يُقيلَ عثراتِهم. بمحبّته الواسعة الّتي لا يَحْصُرُها لِسانٌ..."

بناءً على الفقرة الأخيرة من صلاة التّقدمة "ويستقرّ روح نعمتك الصّالح علينا..."، تجدر الإشارة إلى أنّ الكاهن يطلب من الله أن يُرسل روحه القدّوس عليه أوّلاً، ثمّ على القرابين المقدّمة، وأخيرًا على المؤمنين الحاضرين؛ فالكاهن بحاجةٍ إلى نعمة الرّوح القدس ليحتفل، باستحقاقٍ وبكفاءة، باللّيتورجيّا الإلهيّة؛ فمن خلال عمل الرّوح القدس ستتحوّل القرابين المقدّمة إلى جسد يسوع المسيح الطّاهر ودمه الكريم. أمّا من جانب المؤمنين، فإنّ مساعدة الرّوح القدس تظهر بيّنةً من خلال حصول المؤمنين على النِّعَم الوافرة من الذّبيحة الإفخارستيّة. بتعابير أكثر ليتورجيّة، إنّ صلاة التّقدمة هذه تُشكّل استدعاءً مسبقًا للرّوح القدس[٢٦٤].

٤) القُبلة الأخويّة وتلاوة قانون الإيمان

١. المحبّة إيقونة الله الكاملة

بعد انتهائه من تلاوة صلاة التّقدمة، يقف الكاهن في الباب المقدّس، ويمنح السّلام والبركة للشّعب قائلاً:

السّلام لجميعكم

يمنحنا الكاهن سلام الله، إذ علينا كمؤمنين أن نكون في حالة سلامٍ مثلّث الأبعاد، مع الله ومع الآخرين ومع أنفسنا في هذه اللّحظات المقدّسة.

ثمّ يعلن الكاهن:

لنحبّ بعضنا بعضًا لكي نعترف بنيّةٍ واحدة

ويجيب الشّعب:

بالآب والابن والرّوح القدس. الثّالوث الواحد في الجوهر. وغير المنفصل

---

٢٦٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.243.

أثناء ترنيم هذا النّشيد، يقوم الكاهن بثلاث سجداتٍ أمام القرابين المقدّسة الموضوعة على المائدة المقدّسة، قائلاً بعد كلّ سجدةٍ (مطانية): "أحبّك يا ربّ. يا قوّتي. الرّبّ ثباتي وملجإي ومُنقذي" (مزمور١٧: ٢-٣). إنّ الدّعوة إلى المحبّة بيننا تفتتح الكلام الجوهري الّذي نستعد فيه للمناولة، إذ إنّ المحبّة ليست موضوعًا نظريًّا، بل عملاً يترجم بأفعالٍ على أرض الواقع، على حدّ تعبير يوحنّا الإنجيليّ: "يا بَنِيّ، لا تكن محبّتُنا بالكلام ولا باللّسان، بل بالعمل والحقّ" (١ يوحنّا ٣: ١٨)، نؤكّد فيها للعالم أنّنا فعلاً جسدٌ واحدٌ هو جسد المسيح، وأنّ المسيح حاضرٌ بالحقيقة معنا وفيما بيننا.

- لِنُحبّ بعضنا بعضًا

إنّها وصيّة المسيح الجديدة الّتي وهبها لتلاميذه كوديعةٍ مقدّسة: "أُعطيكم وصيّةً جديدة: أحِبُّوا بعضُكم بعضًا، كما أحببتُكم، أحبُّوا أنتم أيضًا بعضكم بعضًا. إذا أحَبّ بعضُكم بعضًا، عَرَفَ االنّاس جميعًا أنّكم تلاميذي" (يوحنّا ١٣: ٣٤-٣٥). إنّ المحبّة كما نفهمها في قاموسنا المسيحيّ هي انطلاقةٌ نحو الآخر الّذي هو على صورة الله ومثاله. يدعونا الكاهن إلى أن نُحبّ بعضنا بعضًا قبل بداية القسم الأكثر أهميّةً في اللّيتورجيّا الإلهيّة، قسم الذّبيحة الإفخارستيّة، إذ إنّ **المحبّة هي العنصر الأساس في تقدمة يسوع القربانيّة في العشاء السّرّيّ ومشهد الصّلب.** تتجذّر محبّتنا لبعضنا البعض من الإيمان بيسوع المسيح، ذلك أنّه محبّة الله الّتي تجلّت للعالم، ونحن بدورنا إذ نتبنّى هذه المحبّة الإلهيّة، ننطلق بها إلى الآخر لنتوحّد معًا كأعضاءَ مقدّسةٍ في جسد المسيح تحت رأسٍ واحدٍ هو المسيح المحبّة (راجع ١ يوحنّا ٤: ٧-٥: ٤). **ومسيح المحبّة هذا لن يتجلّى في حياتنا إلاّ إذا قدّمنا ذواتِنا قُربانًا وذبيحةً من أجل الآخرين على مثاله:** "سيروا في المحبّة على مثال المسيح الّذي أحبّنا وجاد بنفسه لأجلنا قربانًا وذبيحةً للّه طيّبة الرّائحة" (أفسس ٥: ٢). وهذا ما يطلبه أيضًا بولس الرّسول من الكنيسة المحليّة في روما، قائلاً: "ولتكن المحبّة بلا رياء... لِيَودّ بعضكم بعضًا بمحبّةٍ أخويّة" (رومة ١٢: ٩-١٠). فعلى الإنسان المسيحيّ، بالتّالي، أن ينتظر عطاءَ المحبّة؛ ولا يمكن أن نتقبّل المحبّة على غير أنّها عطاء. وليس من شأننا أن نبلغ المحبّة بواسطة ذواتنا في معزلٍ عن

الآخرين. ولا يمكن أن نُصبح بشرًا تامّين إلاّ في كوننا نُحِبّ ونستسلم للمحبّة. فالله حين تجلّى وشاء أن يُبيِّن حقًّا ما هو عليه، تجلّى محبَّةً وحنانًا ودَفقًا من الذّات ورضًى لامتناهيًا بسواه وتعلُّقًا وتبعيّةً؛ لقد تجلّى الله مُطيعًا حتّى الموت.

من هنا نَعي بأنّ فضيلة المحبّة الّتي يمنحها الرّوح القدس هي عطيّةٌ غيرُ مخلوقة، قوّةٌ إلهيّةٌ ومؤلِّهة، نشارك بواسطتها فعلاً في طبيعة الثّالوث القدّوس ونصير شركاء الطّبيعة الإلهيّة. يقول القدّيس يوحنّا: "إنّ المحبّة من الله" (١ يوحنّا ٤: ٧). غير أنّ هذه المحبّة العطيّة الإلهيّة تفترض استعدادًا خاصًّا لدى الطّبيعة المخلوقة، وزرعًا للمحبّة في الكائن البشريّ المدعوّ إلى بلوغ كماله في المحبّة. ومحبّة القريب سوف تكون الدّلالة على اقتناء محبّة الله الحقيقيّة الّتي يجد فيها كلُّ شخصٍ بشريٍّ كمالَه: "فإذ قد طهّرتم أنفسكم بطاعة الحقّ، لأجل محبّةٍ أخويّةٍ لا رئاء فيها، أحبُّوا بعضكم بعضًا محبّةً قلبيّةً حارّة، ولا سيّما وقد وُلدتم ثانيةً لا من زرعٍ فاسدٍ بل من زرعٍ غير فاسد، بكلمة الله الحيّة الخالدة" (١ بطرس ١: ٢٢-٢٥).

إنّ إعلان الكاهن، إذًا، يُعبِّر عن ذاك الحبّ الإلهيّ الّذي سكبه الله في قلوبنا. هو الحبّ مضمون إفخارستيّا المسيح. فقط بالحبّ نقدر أن نَلِجَ الإفخارستيّا ونصير فيها مشاركين. إنّه الحبّ الّذي أعطانا إيّاه المسيح هِبَةً، والهبة كانت الكنيسة. بالحبّ تكوّن الكنيسة ذاتها، وإنّها الشّاهدة على هذا الحبّ في العالم، تمثّله وتجعله حاضرًا. فالجديد هنا أنّ العهد الجديد دعا الإنسان إلى أن يُحبّ محبَّةً إلهيَّةً بعدما تحوّلت بفعل محبّة المسيح إلى محبّةٍ إلهيّة-إنسانيّة؛ **إنّها عطيّةٌ إلهيَّةٌ على الإنسان المسيحيّ أن يتقبّلها بقوّة الرّوح القدس لينموَ فيها**، هذا ما عبّر عنه بولس قائلاً: "... لأنّ محبَّة الله أُفيضت في قلوبنا بالرّوح القدس الّذي وُهِبَ لنا" (رومة ٥: ٥)، وهذا ما يعني بالتّحديد **الثّبات في المسيح** (يوحنّا ١٥: ٤، ٥، ٩). كلّ هذا يذكّرنا بالعظة الّتي ألقاها يوم الجمعة العظيمة فيلاريت مطران موسكو واصفًا طبيعة هذه المحبّة، قال: "**محبّة الآب الّتي تصلِب، ومحبّة الإبن المصلوبة، ومحبّة الرّوح القدس المنتصرة بقوّة الصّليب**"[٢٦٥].

---

٢٦٥) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٥١-١٥٢.

- **لكي نعترف بنيّة واحدة**

إنّ غاية المحبّة هي أن نُقيم في الله وأن يُقيم الله فينا، في داخلنا، وفي قلوبنا، وفي حياتنا، وفي عائلاتنا وبيوتنا، أي أن يُصبح الله كُلاً في الكلّ. فمنذ انطلاقة الكنيسة والمسيحيّون الأوّلون واظبوا على الصّلاة بقلبٍ واحد (أعمال ١: ١٤)، ولازموا الهيكل بقلبٍ واحد (أعمال ٢: ٤٦)، واستطاعوا بنعمة الرّبّ القائم أن يكوّنوا جماعةً واحدة (أعمال ٢: ٤٤). فاعتراف المسيحيّين بإيمانهم ومحبّتهم ومشاركتهم بعضهم بعضًا، جعلتهم ينالون "حُظوةً عند الشّعب كلّه" (أعمال ٢: ٤٧): هذه هي الشّهادة الحقيقيّة، أن نشهد في عالمنا ومجتمعنا ومحيطنا أنّنا واحدٌ في المسيح ومع المسيح ولأجل المسيح.

- **بالآب والابن والرّوح القدس. الثّالوث الواحد في الجوهر. وغير المنفصل**

الأمر الثّاني المهمّ في هذا الإعلان هو ارتباط إعلان محبّتنا لبعضنا **بإقرار إيماننا بالثّالوث القدّوس**. لقد وَعَتِ الكنيسة أنّ الشّرط الأساسيّ للفكر الواحد، الّذي يطلبه منّا المسيح، هو المحبّة الّتي هي على صورة محبّة المسيح لنا (يوحنّا ١٣: ١، ٣٤؛ أفسس ٥: ٢)، على صورة محبّة الثّالوث الأقدس الّذي نعلن إيماننا به. المحبّة والإيمان بالثّالوث الأقدس مرتبطان؛ فكما أنّ الثّالوث هو في وَحدةٍ نابعةٍ من محبّةٍ سرمديّة، هكذا، يجب أن نكون في محبّة بعضنا كما الثّالوث لنصير واحدًا في المسيح؛ وكما أنّ المحبّة شرطٌ أساسيٌّ لاشتراكنا بالذّبيحة الإلهيّة، كذلك إيماننا المشترك الواحد بالثّالوث هو شرطٌ أساسيٌّ لهذه المشاركة. الإيمان المشترك الواضح هو الرّكيزة الأساسيّة للمناولة المشتركة لذا يأتي تشديدنا على وَحدة الإيمان في الكنيسة قبل المناولة المشتركة. **المناولة المشتركة مع الآخرين هي تتويجٌ لعمليّة الوَحدة الإيمانيّة** وليست وسيلةً للوصول إلى الوَحدة.

٢. القبلة الأخويّة: قبلة السّلام والمصالحة

أ. المصدر الكتابيّ للقبلة المقدّسة

إنّها عادةٌ كنسيّةٌ مصدرها أوّلاً ما جاء على لسان المسيح في الإنجيل المقدّس: "فإذا كنتَ تُقرّب قربانَكَ إلى المذبح وذكرتَ هناك أنّ لأخيكَ عليكَ شيئًا، فدَعْ قربانَكَ هناك عند المذبح، واذهب أوّلاً فصالح أخاك، ثمّ عُدْ فقرّب قربانَكَ" (متّى ٥: ٢٣-٢٤)؛ وأيضًا: "وإذا قمتم للصّلاة، وكان لكم شيءٌ على أحدٍ فاغفروا له، لكي يغفر لكم أيضًا أبوكم الّذي في السّموات زلّاتكم" (مرقس ١١: ٢٥)؛ وثانيًا، ما جاء في كتابات الرّسل القدّيسين في رسائلهم الموجّهة للجماعات المسيحيّة، وبخاصّةٍ رسائل بولس الرّسول: "سلّموا بعضكم على بعضٍ بقُبلةٍ مقدّسة" (رومة ١٦: ١٦؛ ١ كورنثس ١٦: ٢٠؛ ٢ كورنثس ١٣: ١٢؛ ١ تسالونيكي ٥: ٢٦؛ ١ بطرس ٥: ١٤).

بناءً على ذلك نقول إنّ قبلة السّلام هي تعبيرٌ عن المحبّة المسيحيّة الغُفرانيّة، والشّركة الرّوحيّة (شركة الرّوح القدس) والكنسيّة بين المسيحيّين، ووَحدة الجماعة المسيحيّة في المحبّة، محبّة المسيح الّتي تجلّت على الصّليب ينبوع المصالحة (مصالحة الإنسان مع الله، الإنسان مع أخيه الإنسان، والإنسان مع نفسه) والتّضحية الباذِلة في سبيل الآخرين. أخيرًا نؤكّد أنّ **المحبّة الأخويّة تسير جنبًا إلى جنبٍ مع محبّة الله.** وهكذا، فإنّنا نؤكّد أنّ القبلة المتبادلة بين المؤمنين ليست رمزًا ليتورجيًّا بسيطًا، بل عملاً شريفًا؛ إنّها خبرة ليتورجيّة.

القبلة اللّيتورجيّة ليست صورةً عن المحبّة الّتي توحّد المؤمنين وحسب، بل خبرة هذه الوحدة: إنّها مصالحة أولئك الّذين يقدّمون العبادة الّتي تربطهم بعضهم ببعض، وبكلمة الله. هذا الإلتئام الإلهيّ، إلتئام الكلّ حول المسيح، والاشتراك في جسد المسيح الواحد، يعبَّر عنه بقبلة المحبّة: "فلنتذكّر إذًا... يا أحبّاء، القبلات المقدّسة والتّقبيل الرّهيب بين بعضنا البعض. لأنّ هذا التّقبيل يوحّد أذهاننا ويجعل منّا جميعًا جسدًا واحدًا؛ والتّقبيل اللّيتورجيّ هو إظهارٌ للمحبّة: "التّقبيل علامةٌ على أنّ النّفوس اتّحدت معًا، وأنّها أقصت كلّ ذكرٍ للسّوء". بتبادل القبلة، نتنعّم بمحبّة إخوتنا، ذلك أنّ القبلة الإلهيّة هي تعبيرٌ

عن تماهي كلّ عضوٍ من أعضاء جماعة المؤمنين مع الآخر، وقبل كلّ شيء، كلّ واحدٍ مع نفسه ومع الله. وهذا التّماهي يرتكز على العزم الواحد والهاجس الواحد والمحبّة الواحدة. المحبّة، كما يقول الذّهبيّ الفم، "تبني، تجمع الكلّ، وتجعل تجانسًا بينهم". العزم الواحد مع التّوافق، يعبَّر عنه بقبلة المحبّة، إذ إنّ القبلة الرّوحيّة المتبادلة بين الجميع، هي رسمٌ سابقٌ لتوافق الجميع في ما بينهم، وتعبيرٌ عن الهاجس الواحد والفكر الواحد. هذا الرّسم سيتحقّق في زمن استعلان الخيرات المستقبليّة الّتي يتعذّر وصفها... بهذا التّطابق، أي التّوافق في الفكر الواحد، يجعل المؤمنون كلمة الله مقيمةً فيهم"، على حدّ تعبير بولس الرّسول الّذي ناشد كنيسة كورنثس قائلاً: "... كونوا على وئامٍ تامّ، في روح واحدٍ وفكرٍ واحد" (١ كورنثس ١: ١٠).

ب. رُكنا القبلة: المحبّة والغفران

من هنا نتبيّن جانبًا جوهريًّا من جوانب الإيمان: الإيمان يتضمّن، ويجب أن يتضمّن **الغفران**، لأنّه [الإيمان] يريد البلوغ بالإنسان إلى الإقرار بكونه لا يتمكّن من تحقيق ذاته إلاّ بتلقّي الغفران وبمنحه للآخرين، وهو في حاجةٍ إلى هذا الغفران، حتّى من أجل أروع مآثره وأنقاها. وعليه، فإنّ "القُبلة السّلاميّة" بالنّسبة إلى المسيحيّين لا تعني مجرّد رمزٍ للمحبّة ولا حتّى تذكيرًا بها، بل كانت **عملاً أسراريًّا وعلامةً مرئيةً وطقسًا تنسكب فيه المحبّة الإلهيّة في قلوب الجميع ليلبس كلٌّ منهم وكلّهم جميعًا محبّة المسيح**؛ ففي يسوع تتغلغل طاقة الحبّ كلّها في الطّاقة البشريّة في "مسحةٍ" ترفع وتُحيي. في يسوع، يهب الآب ذاته كلّيًّا، والابن يقتبله، وفيه يُقدّم كلّ ما هو بشريّ للآب ليحلّ الآب فيه ويتمدّد بقوّة الرّوح القدس.

ت. القبلة المقدّسة في اللّيتورجيّا الإلهيّة

إنّ قبلة السّلام حاضرةٌ في ذهن كلّ اللّيتورجيّات الشّرقيّة في مرحلة ما قبل الأنافورا. أمّا اللّيتورجيّا اللّاتينيّة فتقف وحدها في وجود هذه القبلة قبل المناولة المقدّسة. خلال القرن الرّابع للميلاد، كان الشّمّاس، في بعض الكنائس الشّرقيّة، يُحذّر المؤمنين أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يكون في قلبه أيّة

علامات سوءٍ أو ضغينةٍ أو عُدوانيّة (كراهيّة) ضدّ الآخر، ولا ينبغي أيضًا أن نُعطي بعضُنا بعضًا القُبلة برياءٍ ونفاق[٢٦٦].

يُعلن الكاهن للمؤمنين قائلاً:

المسيح في ما بيننا

فيجيبونه قائلين:

كائنٌ وسيكون

حينئذٍ يُقبّل الكهنة بعضهم البعض في الهيكل قائلين العبارة نفسها؛ بينما يتصافح المؤمنون في ما بينهم مُعلنين سلام المسيح ومصالحته. إنّها ليست مجرّد كلماتٍ ترديديّةٍ بين الكاهن والمؤمنين، بل إنّما هي كلماتٌ عمليّةٌ تتطلّب من كلّ مؤمنٍ الاحتفال بالمصالحة الّتي حقّقها يسوع المسيح على الصّليب: مصالحة الإنسان مع ذاته، ومصالحته مع الآخر، ومصالحته مع الله؛ إنّها كلماتٌ تدعونا إلى المبادرة والتّوجُّه إلى النّاس الّذين لا نتّفق معهم، لا نبادلهم الآراء نفسها، وهي، في الوقت عينه، تدعونا إلى انتزاع الحقد والضّغينة والكراهية من قلوبنا لننال سلام المسيح الحقيقيّ الّذي يفوق كلّ سلامٍ أرضيٍّ ودنيويّ.

- **الأبواب. الأبواب**

بعد قبلة السّلام وقبل تلاوة قانون الإيمان، كانت هناك عادةٌ طقسيّةٌ في الكنيسة البيزنطيّة، يُعلن خلالها الشّمّاس أو الكاهن قائلاً: "**الأبواب. الأبواب**"، وذلك قبل أن تتلو جماعة المؤمنين قانون الإيمان. ها قد أغلقت أبواب الكنيسة بعد صرف الموعوظين. ومن هذه السّاعة يقف الشّمامسة ومساعدوهم عند الأبواب بحيث لا يتركون مجالاً، ساعة الأنافورا المقدّسة، للمؤمنين للخروج من الكنيسة، ولا يسمحون لغير المؤمنين والهراطقة بالدّخول إليها. ونقرأ في كتاب الدّساتير الرّسوليّة: "لتُحرس أبواب الهيكل، لربّما دخل مَن هو غير مؤمن. وإذا حضر أحد الإخوة أو الأخوات من منطقةٍ أخرى حاملاً رسالة توصية، فليفحص الشّمّاس بشأنهم... لربّما كانوا مدنَّسين بهرطقةٍ ما"، إذ، في الذّبيحة الإفخارستيّة، يُسمَح فقط لأعضاء الكنيسة المعمَّدين بالاشتراك.

---

٢٦٦) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.532.

من الواضح أنّ كلمات "الأبواب. الأبواب" فقدت معناها الأصليّ، إذ ليس هناك من موعوظين في الكنيسة اليوم لإغلاق الأبواب قبل بدء الذّبيحة الإفخارستيّة. إلاّ أنّها، ومع ذلك، يُمكن أن يكون لها معنًى رمزيّ، يجعل منها نداءً أخيرًا للمؤمنين بأن يُغلقوا أبواب قلوبهم على العالم الخارجيّ، لتكون نقيّةً من "كلّ الاهتمامات الأرضيّة"؛ إنّها دعوةٌ للمؤمنين إلى التّأمّل وفحص الضّمير والعودة إلى الذّات، تعكس ما إذا كانوا مستحقّين البقاء في الكنيسة للاشتراك في الذّبيحة؛ عليهم أن يسألوا أنفسهم إذا كانوا أفضل وأقدس وأكثر استحقاقًا من غير المؤمنين، أو، على العكس من ذلك، إذا كانوا من المؤمنين الإسميّين. بحسب القدّيس مكسيموس، إغلاق أبواب الكنيسة يعني إغلاق الحواسّ وابتعاد الذّهن عن الأفكار الأرضيّة.

هكذا إذ يتحرّر الإنسان من حقائق عالمٍ هارب، يبلغ إلى مشاهدة الحالات الإلهيّة. "الكلمة" تقود النّفس نحو "مشاهدة العقليّات". وضمن المنظار الأخرويّ للعالم، إغلاق الأبواب "يكشف عن واقع الماديّات العابر وعن ولوج المؤمنين المستحقّين إلى العالم العقليّ، أي إلى خدر الختن، خدر المسيح، الّذي سيحصل بعد ذاك الفصل الرّهيب (فصل الخراف عن الجداء)، وقرار القاضي الصارم" (راجع متّى ٢٥: ٣١-٤٦).

٣. قانون الإيمان

عند الإنتهاء من ترنيم نشيد الثّالوث القدّوس: "بالآب والابن والرّوح القدس..."، يُعلن الكاهن: "بحكمةٍ فلنُصغ"، الّتي تُشير إلى وجوب الانتباه الشّديد لحقائق الإيمان الّتي سنتلوها في قانون الإيمان، ثمّ يتلو الشّعب كلّه قانون الإيمان النّيقاويّ-القسطنطينيّ: "أومن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكلّ...".

أ. نشأة قانون الإيمان التّاريخيّة واللّاهوتيّة

من هنا يتّضح أنّ أصول المُجاهرة بالإيمان ترجع إلى الأيّام الأولى للمسيحيّة؛ فقبل أن يدخل مُعتنق المسيحيّة الجديد إلى الكنيسة بواسطة المعموديّة، كان يجب عليه أن يتوب ويقبل كلّ الحقائق الإيمانيّة للكنيسة. في العهد الجديد، هناك دلالة على وجود تعليمٍ منظّم: "... ولكنّكم أطعتم بصميم

قلوبكم أصول التّعليم الّذي إليه وُكِلتم" (رومة ٦: ١٧)، لا يرتكز فقط على الإيمان الصّادق، بل يحثّ الإنسان المسيحيّ على الشّهادة لله بالفم والقلب والعمل: "إنّ الكلام بالقرب منك، في فمك وفي قلبك. وهذا الكلام هو كلام الإيمان الّذي نبشّر به. فإذا شهدتَ بفمك أنّ يسوع ربّ، وآمنتَ بقلبك أنّ الله اقامه من بين الأموات، نلت الخلاص. فالإيمان بالقلب يؤدّي إلى البرّ، والشّهادة بالفم تؤدّي إلى الخلاص" (رومة ١٠: ٨-١٠). في وقتٍ مبكّرٍ من القرن الثّاني للميلاد، كان تأكيد الإيمان الواضح بالأقانيم الثّلاثة للثّالوث القدّوس شرطًا مسبقًا للمعموديّة؛ وهكذا ارتبط قانون الإيمان بصورةٍ إجماليّةٍ مع احتفالات سرّ المعموديّة المقدّس إبّان القرنَين الثّاني والثّالث الميلاديَّين[٢٦٧]، ذلك أنّ أساس قانون الإيمان الكتابيّ يكمن في الآية المتّاويّة الّتي جاءت على لسان الرّبّ يسوع القائم من بين الأموات، حين قال لتلاميذه: "فاذهبوا وتَلمِذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس" (متّى ٢٨: ١٩).

وبالتّالي، فإنّ "قانون الإيمان هو أوّلاً "القانون العماديّ"، وبما أنّ المعموديّة تُمنَح "باسم الآب والابن والرّوح القدس"، فحقائق الإيمان المُعتَرَف بها إبّان المعموديّة مرجعها إلى الأقانيم الثّلاثة في الثّالوث الأقدس"[٢٦٨]؛ وقد كانت تُطرَح على المزمع أن يعتمد ثلاثةُ أسئلة: "هل تؤمن بالله الآب الضّابط الكلّ؟ هل تؤمن بيسوع المسيح ابن الله؟ هل تؤمن بالروح القدس؟". فيُجيب عن كلّ واحدٍ من هذه الأسئلة بقوله: "أومن"؛ وفي كلّ مرّةٍ من هذه المرّات يُغطَّس في الماء؛ أي إنّ أقدم شكلٍ من أشكال قانون الإيمان يتألّف من حوارٍ مثلّث الأجزاء يواكب الاحتفال برتبة سرّ العِماد المقدّس. ويخاطب أوغسطينوس الموعوظين (الّذين لم ينالوا سرّ العِماد بعد وهم ما زالوا في طَور التّحضير لاقتباله) بقوله: "حان الوقت لكي نسلّمكم القانون الّذي يحوي بكلماتٍ قليلةٍ كلّ ما ينبغي أن تؤمنوا به لتنالوا الخلاص الأبديّ".

لم يؤلَّف قانون الإيمان النّيقاويّ-القسطنطينيّ لتلاوته في اللّيتورجيّا الإلهيّة، بل كإعلان إيمانٍ قبل المعموديّة؛ وفي وقتٍ لاحق، أصبح قانون الإيمان امتحانًا

---

٢٦٧) الكاردينال جوزيف راتزنغر، *مدخل إلى الإيمان المسيحيّ*، ص. ٤٨.

٢٦٨) *التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة*، عدد ١٨٩، ص. ٨٣.

واعلانًا إيمانيًّا ولاهوتيًّا لجميع المؤمنين الحقيقيّين الّذين لم يتأثّروا بالمعتقدات الخاطئة والهرطقات[٢٦٩]. وهكذا، فإنّ قانون الإيمان يُعبِّر عن موقف الكنيسة اللّاهوتيّ الرّسميّ ويأتي، في الوقت عينه، ردًّا على الهرطقات وأصحابها الّذين شوّهوا بأفكارهم ومعتقداتهم صورة الإيمان الصّحيح؛ فمجمع نيقية المنعقد في العام ٣٢٥م، جاء ردًّا على بدعة **آريوس** – الّذي قال إنّ الابن أدنى من الآب وهو مخلوق، وبذلك نزع آريوس عن الابن طبيعته الإلهيّة - حيث أعلن المجمع المقدّس أنّ "الابن مولودٌ غير مخلوق، وأنّ له الجوهر نفسه الّذي للآب"[٢٧٠]، ومجمع القسطنطينيّة المنعقد في العام ٣٨١م، وجاء ردًّا على بدعة **أبوليناريوس** أسقف اللّاذقيّة – الّذي قال إنّ طبيعة المسيح البشريّة غير كاملة، إذ ليس فيها نفسٌ بشريّة – حيث أعلن المجمع المقدّس أنّ المسيح إنسانٌ كاملٌ وإلهٌ كامل؛ وردًّا، في الوقت عينه، على بدعة **مكدونيوس** بطريرك القسطنطينيّة – الّذي أعلن أنّ الرّوح القدس مخلوق[٢٧١] – وبالتّالي أنكر مكدونيوس وأتباعه ألوهيّة الرّوح القدس، حيث أكّد المجمع المقدّس ألوهيّة الرّوح القدس، وثبّت قانون الإيمان النّيقاويّ وأكمله[٢٧٢].

إنّ إدخال قانون الإيمان هذا إلى ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ في بدايات القرن السّادس الميلاديّ، كان ناتجًا عن النّزاعات العقائديّة الّتي دارت في القرنين الخامس والسّادس للميلاد. إنّ أوّل مَن أدرجه في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ هو البطريرك الأنطاكيّ المونوفيزيّ بطرس القصّار (+٤٧١م)، واقتدى به البطريرك تيموثاوس، بطريرك القسطنطينيّة (٥١٠-٥١٨م)، الّذي أمر بأن يُتلى قانون الإيمان النّيقاويّ غير المُكتمل – ذلك لأنّه اكتمل في مجمع القسطنطينيّة – في كلّ احتفالٍ باللّيتورجيّا الإلهيّة:

---

٢٦٩) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.542.

٢٧٠) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٤٤٦.

٢٧١) إنّ المكدونيّين لا يدعون الرّوح "ربًّا"، كما أنّهم يرفضون أن يُمجَّد مع الآب، فهو عندهم ليس "عاملاً مع الله"، لأنّه لا يخلق ولا يُعطي الحياة، وهو مثل الملائكة "خادمٌ" لله وأداةٌ له. ومع ذلك فلا يُعتبر ملاكًا، ولا أحد المخلوقات. وهو ليس مشابهًا للآب والابن، إذ إنّه "إلهيٌّ" ولكنّه ليس "إلهًا". هذه الكلمات هي زُبدة الفكر المكدونيّ عن الرّوح القدس.

٢٧٢) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٤٤٦.

نؤمن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكلّ، خالق كلّ شيء، ما يُرى وما لا يُرى؛ وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله، المولود الوحيد من الآب أي من جوهر الآب، إلهٍ من إله، نورٍ من نور، إلهٍ حقّ من إلهٍ حقّ، مولودٍ غير مخلوق، له الجوهر نفسُه الّذي للآب، به كان كلّ شيء، ما في السّماء وما في الأرض، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السّماء وتجسّد وصار إنسانًا، وتألّم وقام في اليوم الثّالث وصعد إلى السّماء، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات؛ وبالرّوح القدس[٢٧٣].

ثمّ أمر الإمبراطور يوستنيانوس الثّاني (٥٦٧-٥٧٨م) بأن يُتلى قانون الإيمان القسطنطينيّ، الّذي نستعمله إلى يومنا هذا، عوضًا عن قانون إيمان نيقية المقتضب. وهو يُتلى في اللّيتورجيّا البيزنطيّة بعد قبلة السّلام، علامةً على أنّ الإيمان يُشكّل شرطًا أساسيًّا وضرورةً حتميّةً لا مفرّ منها للاشتراك الفعّال في الذّبيحة الإفخارستيّة، إذ إنّ المسيح قدّم ذاته بالكلّيّة للإنسان في الإفخارستيّا المقدّسة، وبالتّالي، ينبغي للإنسان بأن يُقدّم ذاته كلّيًّا للمسيح من خلال إعلان الإيمان هذا؛ ويستطيع الإنسان أن يُقدّم ذاته للمسيح عبر رفض الشّيطان وأعماله وملائكته، وقبول المسيح فاديًا ومخلّصًا شخصيًّا لحياته.

ب. قانون الإيمان في الاحتفال اللّيتورجيّ الإفخارستيّ

إنّ الكنيسة تعي أنّ وَحدة الإيمان بين الجماعة الكنسيّة أمرٌ بديهيٌّ لا بدّ منه، وأنّ هذه الوَحدة شرطٌ أساسيٌّ للمناولة المشتركة. هكذا يتّضح لنا وصف **القدّيس أغناطيوس الأنطاكي** لسرّ الكنيسة على أنّها سرُّ الوَحدة بالإيمان والمحبّة. لذا، لا عملٌ إفخارستيٌّ ولا أسراريٌّ ولا حتّى كنسيٌّ بدون الإيمان الّذي ما هو إلاّ علاقةٌ شخصيّةٌ حيّةٌ اختباريّةٌ للمسيح، كما أكّد ذلك القدّيس يوحنّا الإنجيليّ بقوله: "ذاك الّذي كان منذ البدء، ذاك الّذي سمعناه، ذاك الّذي رأيناه بعَينَينا، ذاك الّذي تأمّلناه، ولمسته أيدينا، من كلمة الحياة" (١ يوحنّا ١: ١-٤)، وبالتّالي، تصبح هذه العلاقة اتّحادًا شخصانيًّا بالمسيح، كما أكّد ذلك القدّيس بولس الرّسول بقوله: "فما أنا أحيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ. وإذا كنتُ أحيا الآن حياةً بشريّة، فإنّي أحياها في الإيمان بابن الله

٢٧٣) المرجع نفسه، ص.٤٤٥.

الّذي أحبَّني وجاد بنفسه من أجلي" (غلاطية ٢: ٢٠). فإعلان الإيمان هذا في الكنيسة يُشكِّل جزءًا لا يتجزّأ من هذه المسلكيّة الرّوحيّة الّتي يجب على المسيحي أن يسلكها ويحياها. من هنا نُدرك أنّ الإيمان هو لقاءٌ بالآخر وتحوُّلٌ نحوه، به يخرج الإنسان من الحدود الّتي ترسمها له "أناه" ليُحدِث انقلابًا جذريًّا في علاقته مع نفسه.

ت. إيمان الفرد وإيمان الجماعة

بيد أنّ ثمّة سؤالاً يطرح بظلاله علينا: لماذا تُركِّز الكنيسة في قانون الإيمان على الصّيغة الفرديّة أي "الأنا – أومن" وليس كما هو شائعٌ في كنائسنا ورعايانا والّتي تستخدم فيها الجماعة المصلّية الصّيغة الجماعيّة "نؤمن"؟ إنّ الكنيسة المقدّسة وضعت قانون الإيمان للتّعبير عن إيمان المسيحيّ الشّخصيّ ضمن إطار إيمان الجماعة المؤمنة ككلّ، ليكون هذا الإيمان اشتراكًا إيمانيًّا شخصيًّا في تدبير الله الخلاصيّ الّذي تمّ بالابن يسوع المسيح من أجل كلّ إنسانٍ باسمه الخاصّ. إنّه، إذًا، تعبيرٌ كنسيٌّ عن إيمان الفرد بكلّ الأحداث الخلاصيّة الّتي تنبّأ عنها الكتاب المقدّس وتمّت في مدى تاريخنا وجغرافيّتنا؛ وهو، في الوقت عينه، اعتراف الفرد بعقيدة الكنيسة وإيمانها الصّحيح، ذلك أنّ الإيمان المسيحيّ يقتضي إلتزام الفرد على أن يكون من أجل الجماعة لا من أجل نفسه. من هنا نستطيع أن نفهم بعمقٍ معنى ذراعَي المسيح المصلوب الممدودتَين على خشبة الصّليب. إنّهما تعبيرٌ عن التّضحية الكليّة من أجل البشر. وبهذا نُعلن، أنْ نكون مسيحيّين، يعني أساسًا الانتقال من الكينونة (الوجود، الحياة) لذاتها إلى الكينونة من أجل الآخرين. وهذا هو الهدف الّذي نصبو إلى تحقيقه في إعلان الإيمان هذا، أن يَعبُرَ المسيحيّ من مركزيّة الذّات تاركًا عُزلة "أناه" وخارجًا من ذاته متّبعًا المصلوب القائل "مَن أراد أن يتبعَني، فليَزهَد في نفسه، ويحملْ صليبه ويتبعْني" (متّى ١٦: ٢٤) فيضع صليبًا على "أناه" ويحيا من أجل الآخرين، ذلك أنّ المسيحيّين مدعوّون إلى الخروج المستمرّ في ما يتعلّق بتجاوز ذواتِهم: "مَن يَقُل "أومن" يَقُل "أعتنقُ ما نؤمن به". الشّركة في الإيمان تقتضي لغةً للإيمان مشتركة، ينتظم بها الجميع ويتّحدون في الاعتراف الواحد بالإيمان"[٢٧٤].

---

٢٧٤) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ١٨٥، ص. ٨٣.

ث. الأنا الشّخصيّ والأنا الكنسيّ

وما إعلان الإيمان الشّخصيّ هذا إلاّ تهيئةٌ لانتقالٍ آخر، يَعبُر من خلاله "**الأنا الشّخصيّ**" بعد أن يكون قد تحوّل عبر مسيرةٍ روحيّةٍ إلى "**أنا شخصيٌّ كنسيٌّ حيّ**" ليكون جزءًا لا يتجزأ من "**النّحن الكنسيّ**"، أي الكنيسة البشريّة، جماعة المؤمنين بالمسيح، مع الحفاظ على خصوصيّة الأنا الكنسيّ في الاختبار الإيمانيّ الشّخصيّ المعاش، إذ إنّ هذا الاختبار يتفاوت من إنسان إلى آخر. وهذا ما يُشير بعمق إلى أنّ هناك تواصلاً وثيقًا بين إيمان الأنا، أي الإيمان الشّخصيّ، وإيمان النّحن، أي إيمان الكنيسة المحليّة ومن خلالها إيمان الكنيسة الجامعة برمّتها. بكلماتٍ أخرى، يعمل قانون الإيمان هذا على توحيد إيمان الأنا الشّخصيّ مع إيمان الجماعة جاعلاً منهما كنيسةً واحدةً موحّدةً بإيمانها ومعتقداتها وعقائدها.

ج. فحوى الإيمان الأنثروبولوجيّ (الإنسانيّ)

إنّ الإنسان، من حيث طبيعته، لا يستطيع رؤية إلاّ ما ليس الله. هذا ما جعل الله غيرَ مرئيٍّ أساسًا بالنّسبة إلى الإنسان، بل هو خارج مجال رؤيته، وسيبقى كذلك دائمًا[٢٧٥]. فكلمة "**أومن**" تعني أنّ الإنسان لا يحسب أنّ كلّ قدرته محصورةٌ في السّمع والبصر واللّمس، بل يبحث عن شكلٍ ثانٍ من أشكال النّفاذ إلى الوجود، هو الشّكل عينه المسمّى إيمانًا، حيث يكتشف حتّى رؤيته الحقيقيّة للعالم بطريقةٍ حاسمة. وهذه الكلمة تؤكّد أيضًا أنّ غير المنظور، وهو ما يمتنع بلوغه على بصرنا من حيث المبدأ، ليس شيئًا وهميًّا البتّة، إنّما هو الّذي يؤلّف الكينونة الحقيقيّة الّتي تكوّن أساس جميع الكائنات الأخرى وجذرها، إذ إنّ الإنسان سيكتشف أنّ ما يتّبعه هو مجرّد وهم، إذا ما ظلّ متّكلاً على الملموس وحده.

---

٢٧٥) الكاردينال جوزيف راتزنغر (البابا الحاليّ بندكتوس ١٦)، ***مدخل إلى الإيمان المسيحيّ***، ص. ٢٥.

ح. موضوع الإيمان الجوهريّ

إنّ موضوع الإيمان المسيحيّ لا ينحصر فقط، بما هو أبديّ، أي بما قد يظلّ خارج عالمنا كليًّا وخارج الزّمن؛ بل إنّ الموضوع المباشر للإيمان هو الله الّذي دخل في التّاريخ، أي الله الّذي صار بشرًا (يوحنّا ١: ١٤). هكذا يُثبت الإيمان المسيحيّ أنّه قادرٌ على ردم الهُوّة الفاصلة بين ما هو أبديٌّ وما هو زمنيّ، وبين المنظور وغير المنظور، بفعل تمكينه إيّانا من لقاء الله بصفته إنسانًا، واطّلاعنا على الموجود الأبديّ بصفته كائنًا خاضعًا للزّمن: "الله لم يره أحدٌ قطّ، فالإله، الابنُ الوحيد، الّذي هو في حضن الآب، هو الّذي كشف عنه" (يوحنّا ١: ١٨).

فالإيمان، إذًا، هو **انفتاحٌ على كائنٍ شخصيّ**، إذ إنّ العبارة المركزيّة لقانون الإيمان المسيحيّ تقول: "أومن بك". إنّها كنايةٌ عن لقاءٍ مع الإنسان يسوع، وهي تكتشف، من خلال هذا اللّقاء، أنّ معنى العالم هو شخص. وهذا الشّخص هو شاهدٌ لله بفعل حياته في الآب وبفعل علاقاته المباشرة والكثيفة معه تعالى؛ فيه أصبح من الممكن لمس الموجود الأعلى غير الملموس، وبه أصبح الأعلى اللّامتناهي البُعدِ (خبرة إسرائيل في العهد القديم، أنْ لا أحد يستطيع أن يرى وجه الله. راجع خروج ٣٣: ٢٠) قريبًا غاية القرب[٢٧٦] (وهذه هي خبرة إسرائيل الجديد، الكنيسة المقدّسة بأنّها رأتِ الله في شخص يسوع المسيح الكلمة الإلهيّ المتجسّد. راجع يوحنّا ١: ١٤). إنّه حضور الأبديّ بالذّات في هذا العالم؛ حضورُ الحبّ الّذي يجعل الحياة تستحقّ منّي أن أتحمّل عناءها بفعل هذه الهبة الفائقة الإدراك، المتمثّلة في حبٍّ لا تهدّده نهاية ولا تعكّره الأنانيّة.

وهكذا، ففعل "آمن" يُشير إلى العثور على الـ"أنت" الّذي عليه يقوم وجودي والّذي يَعِدُني بحبٍّ سرمديٍّ، وهو حبٌّ لا يكتفي فقط بالتّوق إلى الدوام الأبديّ، بل يؤمّن هذه الدّيمومة الأبديّة بالفعل. **الإيمان إذًا هو خيارُ اكتشاف الله في وجه الإنسان يسوع النّاصريّ.** وبالتّالي، يُصبح هذا القانون علامةً لوديعة الإيمان الّتي سلّمها الرسل إلى خلفائهم، يَعرف بها المعتمد الّذي يعترف أنّه هو وسائر المعمّدين، ينتمون إلى المسيح الواحد والكنيسة الواحدة وأنّ لهم الإيمان الواحد، وأنّ عليهم الحفاظ على وديعة الإيمان هذه: "يا تيموثاوس، إحفظِ

---

٢٧٦) المرجع نفسه، ص. ٤٦.

الوديعة" (١ تيموثاوس ٦: ٢٠). من هنا يتّضح أنّ قانون الإيمان هو مجموعة حقائق الإيمان الرّئيسيّة وهو من ثمّ المرجع الأوّل والأساسيّ للكرازة؛ إنّه ليس تعدادًا جافًّا لحقائق يجب الإيمان بها وحسب، بل هو خصوصًا تعبيرٌ متماسكٌ عن تدبير الله الخلاصيّ الّذي ينبع ويفيض من الثّالوث الأقدس.

خ. الإيمان الحقيقيّ والشّعور الدّينيّ

يختلط الإيمان في كثيرٍ من الأحيان بالشّعور الدينيّ الّذي لا يُعبّر دائمًا عن أصالة الإيمان الكنسيّ الصّحيح، فيغدو بطابعه هذا دخيلاً على ما يجب على المسيحيّ المؤمن أن يعيشه ويحياه. إذا كان الشّعور الدّينيّ نابعًا من إيمان ذي جذورٍ عميقة، فهذا هو الهدف المنشود، ولكن، إذا كان هذا الشّعور نابعًا من مجرّد طقوسٍ وشعائرَ دينيّةٍ مُفرغةٍ من معانيها الرّوحيّة، فهنا تكمن المشكلة، إذ إنّ هذا الشّعور يكون مجرّد عاطفةٍ زمنيّةٍ عابرة، تذهب مع الرّيح (راجع لوقا ٨: ٤-٨، ١١-١٥)، إذ لا أساس روحيّ لها. هذا هو خوفنا من أن تتحوّل ليتورجيّتنا إلى أدوارٍ يؤدّيها الإكليروس والعلمانيّون، ويُصبح سرّ الإفخارستيّا عبارةً عن سرٍّ فارغ من مضمونه وأبعاده العلائقيّة بالمسيح الذّبيحة والقربان.

إنّ هذا النّوع من الشّعور الدّينيّ يُظهر غَيرةً عمياء في التّمسّك بالطّقوس والعادات والتّقاليد وشتّى الأشكال الخارجيّة لحياة الكنيسة، وبالتّالي، فقد تتحوّل احتفالاتنا اللّيتورجيّة الكنسيّة إلى عبادة أصنامٍ تُشوّه مفهوم عبادة الله "بالرّوح والحقّ" (يوحنّا ٤: ٢٣-٢٤).

الباب الثّالث

الذّبيحة الإفخارستيّة المقدّسة

(القسم الثّاني من ليتورجيّا المؤمنين)

١) التّطوُّر التّاريخيّ والليتورجيّ للأنافورا[٢٧٧] (التّقدمة)

١. إرتباط الأنافورا بالوليمة اليهوديّة

نودّ في هذه النّقطة أن نُسلّط الأضواء على إحدى الولائم اليهوديّة الّتي كانت سائدةً في زمن المسيح، ولائم المحبّة والصّداقة "Chabûrah"، والّتي كان لها تأثيرٌ واضحٌ على وليمة الأغابي المسيحيّة، الّتي سنأتي على ذكرها لاحقًا. في بداية الوجبة الرّئيسيّة، يغسل كلّ شخص كلتا يديه، يبدأه رئيس المائدة ويتلو أثناء غسل يديه صلاةً خاصّة. كان هناك عادة "الماء الأوّل" للغسل قبل تناول الطّعام، و"الماء الأخير" بعد تناوله. ثمّ يأخذ ربّ البيت أو مترئّس الجماعة خبزًا ويكسره بينما ينطق ببركة الخبز المألوفة:

مباركٌ أنتَ أيّها الرّبّ إلهنا، ملكُ العالم، الّذي أعطانا الخبز من ثمر الأرض

ثمّ يتناول هو نفسه قطعةً منه، ويُوزّع الأجزاء من الخبز المكسور لكلّ المشتركين في الوليمة، فترتبط المجموعة كلّها معًا في وحدة، في شركةٍ واحدة، من خلال البركة وتقاسم الخبز الواحد. يقوم المترئّس أيضًا ببركة الكأس للجميع، إذ إنّهم أصبحوا الآن جماعةً واحدة:

---

٢٧٧) كلمةٌ يونانيّةٌ تعني "**التّقدمة**" أو "**الرّفع إلى العلاء**". فكلّ احتفالٍ ليتورجيٍّ هو تقدمةٌ لأنّه اشتراكٌ في الحركة الرّاهنة دائمًا، حركة صعود الرّبّ.

مباركٌ أنتَ أيّها الرّبّ إلهنا، الملك الأبديّ، الّذي خلق ثمرة الكرمة

أثناء الوجبة الرّئيسيّة الّتي تعقب بركة الخبز، يستطيع الجميع أكل ما يريدون، ولكن كلّما تمّ إحضار أنواع مختلفة من الطّعام لأوّل مرّة، فإنّ المترئّس سوف يباركها باسم الحاضرين جميعًا. وإذا تمّ ملء الكؤوس خلال هذه الدّورة حسب الحاجة، فيتلو كلّ فردٍ حينئذٍ بركة الخمر المألوفة الّتي ذكرناها سابقًا. عندما ينتهي الجميع من الأكل، يتمّ جلب ماء ومنشفة، ليتسنّى للجميع أن يغسلوا أيديهم. وفي بعض الأحيان، يُحضرون طيبًا (عطرًا). في الخِتام، يتلو ربّ البيت أو المترئّس، بإسم جميع الّذين شاركوا في أكل الوليمة، صلاةً طويلةً نوعًا ما تُدعى "صلاة البركة" أو "صلاة الأدعيّة"، وتُتلى على كأس خمرٍ خاصّة، تُدعى "كأس البركة". تبدأ بدعوةٍ للشّرب من هذه الكأس، من قِبَل ربّ البيت أو المترئّس:

المترئّس: "دعونا نحمد الله ربّنا".

الضّيوف: "تبارك اسم الرّبّ من هذا الوقت وإلى الأبد".

المترئّس: "بموافقة جميع أولئك الحاضرين، سنُبارك الّذي من فضله وسخائه شاركنا".

الضّيوف: "تبارك الّذي من فضله وسخائه شاركنا، والّذي من خلال خيره نحن نعيش".

ثمّ يتلو ربّ البيت أو المترئّس صلاة البركة الختاميّة:

"مبارَكٌ أنت أيّها الرّبّ إلهنا، الملك الأبديّ، الّذي أشبع العالم كلّه من خيره، ونعمته، ومحبّته العطوفة، ورحمته اللّينة. أنتَ أعطيتَ غذاءً لكلّ لحمٍ (البشر)، وذلك بسبب محبّتك العَطوفة الّتي تدوم إلى الأبد. إنّ الغذاء الّذي أعطيتناه بصلاحك العظيم، سيبقى متوفّرًا إلى الأبد، من أجل اسمك العظيم، لأنّك تُغذّي وتُحافظ على جميع الكائنات الحيّة، وتصنع الخير للجميع، وتُوفّر الغذاء لجميع خلائقك الّتي خلقتها أنت.

مباركٌ أنتَ أيّها الرّبّ، مانح الغذاء للجميع. نشكرك أيّها الرّبّ إلهنا، لأنّكَ أعطيتَ آباءنا الأبرار أرضًا جيّدةً ووافرةً كميراثٍ لهم، ولأنّكَ

أخرجتنا، أيّها الرّبّ إلهنا، من أرض مصر، وحرّرتنا من بيت العبوديّة؛ نشكرك لأجل عهدك الّذي ختمتَه في أجسادنا، وشريعتك الّتي علّمتنا إيّاها، وقوانينك الّتي جعلتها لنا؛ نشكرك أيضًا لأجل الحياة، والنّعمة، والمحبّة العَطوفة الّتي أفضتَها علينا، ولأجل الغذاء الّذي تُعطينا إيّاه بشكلٍ متواصلٍ ودائمٍ، كلّ يومٍ، في كلّ موسمٍ، وعند كلّ ساعة. من أجل هذه كلّها، نشكرك، أيّها الرّبّ إلهنا، ونباركك. تبارك اسمك بواسطة فم كلّ الكائنات الحيّة، باستمرارٍ وإلى الأبد. وكما هو مكتوب: "فتأكلُ وتشبعُ وتُباركُ الرّبّ إلهَك لأجل الأرض الطّيّبة الّتي أعطاكَ إيّاها" (تثنية ٨: ١٠).

مباركٌ أنتَ أيّها الرّبّ، لأجل الغذاء ولأجل الأرض. ترحّم، أيّها الرّبّ إلهنا، على شعبك إسرائيل، على مدينتك أورشليم، على صهيون المكان الثّابت لمجدك، على مملكة بيت داود الّذي مسحتَه، وعلى البيت العظيم والمقدّس الّذي دُعِيَ باسمك. يا إلهَنا وأبانا، أطعمنا، غذِّنا، تحمّلنا وادعمنا وخفِّف عنّا، وامنحنا، سريعًا، أيّها الرّبّ إلهنا، عونك لنستطيع أن نتخلّص من كلّ عنائنا وبلايانا. نحن نتوسّل إليك، أيّها الرّبّ إلهنا، لا تدعنا نكون في حاجةٍ إلى هدايا البشر ولا إلى قروضهم، ولكن فقط من يد العون هذه الممدودة، والكاملة، والمفتوحة، والمقدّسة، والوافرة، بحيث لا يعود يُعوزنا أيّ شيءٍ إلى أبد الآبدين".

على الرّغم من أنّ هذا النّصّ السّابق لربّما قد تمّ توسيعه وتنقيحه، منذ القرن الأوّل للميلاد، إلاّ أنّ العلماء اليهود يتّفقون عمومًا على أنّ المقطعَين الأوّلين من الصّلاة يُشكّلان جوهريًّا الصّلاة نفسها الّتي كانت مستعملةً في فلسطين خلال زمن المسيح[٢٧٨]. وفي الختام، يُرنِّم الجميع مزمورًا، ثمّ يفضّون الاجتماع. هذا كان الطّابع الدّينيّ للعشاء اليهوديّ الرّسميّ، وبصورةٍ خاصّةٍ وليمة السّبت، الّتي تُقام يوم الجمعة مساءً، أل "Chabûrah".

---

٢٧٨) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.23-24.

٢. إرتباطها بوصيّة المخلّص: "إصنعوا هذا لذكري"

تُعتبر "الصّلاة الإفخارستيّة"، أو "الأنافورا"، جوهر اللّيتورجيّا الإلهيّة. إنّها تتكوّن أساسًا من فعل الطّاعة لوصيّة المسيح لتلاميذه في ليلة العشاء السّرّيّ قائلاً لهم: "إصنعوا هذا لذكري" (لوقا ٢٢: ١٩)، ماذا يفعلون بالتّحديد؟ يفعلون ما قد فعله المسيح بالضّبط: أخذ خبزًا، شكر، باركه وكسره، قائلاً كلام التّأسيس (خذوا فكلوا. هذا هو جسدي...)، ووزّعه على التّلاميذ؛ وبطريقة مماثلة صنع على كأس الخمر. فالرّسل وخلفاؤهم قاموا بتقليد المسيح في تقديم الذّبيحة الإفخارستيّة. بتذكّرهم وصيّته (إصنعوا هذا لذكري)، هم، مثله، بدأوا الذّبيحة بصلاة تسبيح وشكر، يُقدّمون من خلالها الشّكر لله على عمل الفداء والخلاص؛ ثمّ كانوا ينطقون بكلمات التّقديس على الخبز والخمر. فلقد كان الاحتفال الإفخارستيّ البدائيّ في عهد الرّسل والمسيحيّين الأوّلين، أي في القرن الأوّل للميلاد، متّصلاً بوليمة دعاها بولس الرّسول "عشاء الرّبّ". وفي وصفه لهذه الوليمة، نُدرك سريعًا الانتهاكات الجسيمة لممارسة الكورنثيّين لها، ما حدا ببولس الرّسول إلى أن يوبّخهم على قلّة وعيهم وإدراكهم لمعنى الاحتفال الإفخارستيّ، قائلاً:

"وأنتم، إذا ما اجتمعتم معًا، لا تتناولون عشاء الرّبّ، فإنّ كلّ واحدٍ منكم يُبادر إلى تناول عشائه الخاصّ. فإذا أحدكم جائعٌ والآخر سكران. أفليس لكم بيوتٌ تأكلون فيها وتشربون، أم إنّكم تزدرون كنيسة الله وتُهينون الّذين لا شيء عندهم؟ فماذا أقول لكم؟ أأثني عليكم؟ لا، لستُ أثني عليكم بذلك" (١ كورنثس ١١: ٢٠-٢٢).

"فإنّي تسلّمتُ من الرّبّ ما سلّمته إليكم، وهو أنّ الرّبّ يسوع في اللّيلة الّتي أُسلم فيها أخذ خبزًا، وشكر، ثمّ كسره وقال: هذا هو جسدي، إنّه من أجلكم. إعملوا هذا لذكري. وصنع مثل ذلك على الكأس من بعد العشاء وقال: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي. كلّما شربتم فاعملوه لذكري" (١ كورنثس ١١: ٢٣-٢٥).

إنّ بولس الرّسول في الجزء الأوّل من المقطع الرّسائليّ يؤنّب الكورنثيّين على تصرّفهم غير المسيحيّ، إذ خلطوا بين عشاء الرّبّ وعشائهم الخاصّ؛ بينما يُذكّرهم في الجزء الثّاني من المقطع الرّسائليّ بتأسيس الإفخارستيّا في العشاء السّرّيّ ومفهومها الرّوحيّ والكنسيّ في حياة جماعة المؤمنين. وفي الأصل، فإنّ الرّبّ يسوع نفسه كان قد احتفل بالعشاء السّرّيّ مع تلاميذه في إطار وليمة، فما كان من المسيحيّين الأوّلين إلاّ أن وجدوا فيها حالةً طبيعيّةً ليدمجوا الاحتفال الإفخارستيّ بوليمة (وليمة الأغابي)؛ وبما أنّ الرّسل وغالبيّة المُنضمّين الأوّلين إلى المسيحيّة كانوا يهودًا، فهُم، في بداية الطّريق، كانوا ملتزمين إلى حدٍّ كبير بالولائم الدّينيّة اليهوديّة، الخاصّة بالسّبوت والأعياد.

٣. وليمة الأغابي– المحبّة

على الرّغم من أنّ عمليّة فصل الإفخارستيّا عن الولائم المشتركة كان تدريجيًّا، إلاّ أنّها تحقّقت على الأرجح في معظم إنْ لم يكن في جميع الكنائس خلال النّصف الأوّل من القرن الثّاني للميلاد. هذا لا يعني أنّ الوليمة المشتركة أُلغيت تمامًا، ولكنّها أصبحت تُقام بشكلٍ منفصلٍ عن الإفخارستيّا. حتّى كمستقلّة، وكمأدبةٍ شبه دينيّة، استمرّت الوليمة المشتركة لتكون مرحلةً هامّةً في الحياة المسيحيّة لقرونٍ عدّة. يُعطي التّقليد الرّسوليّ بوضوح صورةً شاملةً للوليمة المشتركة، الّتي احتفظت بكلّ ملامح أل "Chabûrah" المسيحيّة، حتّى بعد فصل الإفخارستيّا عنها:

> وهو [الأسقف]، بعد كسر الخبز، يجب أن يتذوّق دائمًا منه، ويأكل مع المؤمنين الحاضرين. وقبل أن يأخذ كلّ واحدٍ خبزه الخاصّ، يتعيّن عليهم أن يأخذوا من يد الأسقف كِسرة خبزٍ من الرّغيف، لأنّ هذا هو الخبز المبارَك. إنّه، مع ذلك، ليس خبز الإفخارستيّا، أي جسد الرّبّ. وقبل أن يشربوا، يأخذ كلّ واحدٍ من الحاضرين كأسًا، يُقدّم شكرًا ثمّ يشرب؛ وبالتّالي، يأكل المعمّدون وليمتهم. بينما يُعطى الموعوظون من خبزٍ طاهر (يُصلّي عليه الأسقف ليكون بمثابة إعلانٍ لجحد الشّيطان)، ويتعيّن عليهم أن يُقدّموا كأسًا لأجل أنفسهم. على الموعوظ ألاّ يجلس على مائدة عشاء الرّبّ. وإذا كان ينبغي على المؤمنين حضور عشاء الرّبّ

بغياب الأسقف، ولكن بوجود كاهن أو شمّاس، ينبغي أن يُشاركوا بالمثل بطريقة منظَّمة. دع الجميع، مع ذلك، ليكونوا شديدي الحرص على أن يأخذوا الخبز المبارَك من يد الكاهن أو الشمّاس؛ وينبغي للموعوظين أن يتلقَّوا الخبز الطّاهر بنفس الطّريقة عينها.

إذا كان الحاضرون علمانيّين فقط، بغياب الإكليروس، دعوهم يأكلون، دون أن يغفلوا عن إدراك أنّ العلمانيّ لا يستطيع أن يصنع خبزًا مبارَكًا. ولكن، بعد تقديم الشّكر، على كلّ واحدٍ أن يأكل باسم الرّبّ"[٢٧٩].

إنّ الكنيسة البيزنطيّة لا تزال تحتفظ حتّى يومنا هذا ببقايا طقس الأغابي كجزءٍ حيٍّ من صميم الإفخارستيّا متمثّلٌ في **خبز البركة** (الأنديذورون) الّذي يُوزِّعه الكاهن بيده في آخر القدّاس للمؤمنين، ليصل إلى كلّ بيتٍ، وخصوصًا للمرضى والضّعفاء والّذين تعذّر عليهم الحضور للتّناول من الإفخارستيّا. وبينما يُوزّع الكاهن خبز البركة يقول: "بركة الرّبّ ورحمته تَحِلّان عليك".

٤. الإفخارستيّا في تعليم الرّسل الإثني عشر (الدّيذاخي) (٨٠-١٠٠م)

أ. تسمية الدّيذاخي وبُنيته

يُطلَق على الدّيذاخي عنوانان، الأوّل مقتضب: "تعليم الرّسل الاثني عشر"، والثّاني مطوّل: "تعليم السّيّد للأمم لواسطة الرّسل الاثني عشر".

"تقع الدّيذاخي في ستّة عشر فصلاً، تُقسَم إلى خمسة أقسام: القسم الأوّل (١-٦) **أخلاقيّ**، يتكلّم عن الطّريقين: طريق الحياة وطريق الموت؛ القسم الثّاني (٧-١٠) **ليتورجيّ**، يتكلّم عن العِماد والصّوم والصّلاة وصلوات "كسر الخبز" أو "مأدبة المحبّة"؛ القسم الثالث (١١-١٣) **ترتيبيّ**، يتكلّم عن معاملة الرّسل والأنبياء الجوّالين والمعلمين؛ القسم الرّابع (١٤-١٥) يتكلّم عن **الحياة الجماعيّة**؛ القسم الخامس (١٦) **إسخاتولوجيّ**، يحرّض على السّهر لاقتراب عودة المسيح"[٢٨٠].

---

٢٧٩) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.47.

٢٨٠) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص.١٩٧.

ب. الإفخارستيّا في الدّيذاخي

نُشير إلى أنّ هذه الولائم الدّينيّة الّتي مررنا على ذكرها آنفًا، قد استمرّت بين المسيحيّين الأوّلين بعد أن أُجريَت عليها التّعديلات المناسبة لتُصبح صالحةً للاستخدام المسيحيّ. يدعم كتاب الدّيذاخي هذه النّظريّة في فصلَين متتاليَين (التّاسع والعاشر)، بحيث يُثبت أنّ المسيحيّين كانوا يُقيمون مأدباتٍ شبه دينيّة تلتقي بأسلوب وليمة "Chabûrah" اليهوديّة. إنّ أوجه التّشابه بين النّمط اليهوديّ والنّمط المسيحيّ تبدو واضحةً وجليّة:

- **الفصل التّاسع**

- "أمّا عن الإفخارستيّا فباركوا هكذا:
- أوّلاً على الكأس: نباركك يا أبانا من أجل كرمة فتاك داود المقدّسة الّتي كشفتها لنا بيسوع فتاك. لك المجد إلى الدّهور.
- أمّا عن الخبز المكسور: نباركك يا أبانا من أجل الحياة والمعرفة اللّتين كشفتهما لنا بيسوع فتاك. لك المجد إلى الدّهور.
- وكما أنّ هذا الخبز المكسور المزروع فوق التّلال قد جُمِعَ وصار واحدًا، كذلك فلتجتمع كنيستك من أقاصي الأرض في ملكوتك. فإنّ لك المجد والقدرة بيسوع المسيح إلى الدّهور.
- لا يأكل أو يشرب من عشائكم إلاّ المعمّدون باسم الرّبّ"[٢٨١].

- **الفصل العاشر**

- بعد أن تشبعوا، أشكروا هكذا:
- نشكرك أيّها الأب القدّوس، من أجل اسمك المقدّس الّذي سكن في قلوبنا ومن أجل المعرفة والإيمان والخلود، الّذي عرّفتنا بواسطة يسوع ابنك، فلك المجد إلى الدّهور.
- أنت أيّها السّيّد الكُلّيّ القدرة جبلت الكلّ من أجل اسمك، أنت الّذي أعطيت الغذاء والشّراب للبشر للبهجة ليشكروك، ووهبت لنا غذاءً وشرابًا روحيًّا

---

٢٨١) المرجع نفسه، ص.٢٠٢.

وحياةً أبديّةً بابنك يسوع (يشكر المسيحيّون الله على النّعم الأرضيّة، وكذلك يفعل اليهود؛ أمّا ما يُميّز شكر المسيحيّين، فهو أنّهم يُقدّمون الشّكر على الغذاء والشّراب الرّوحيّ، وهو ما يعني الإفخارستيّا، النّقطة المحوريّة للعهد الجديد؛ بينما نجد أنّ اليهود يُقدّمون الشّكر على العهد القديم، الّذي تكمن نقطته المركزيّة في الشّريعة والختان).

- قبل كلّ شيء، نشكرك لأنّك قويٌّ، فلك المجد إلى الأبد.
- أذكر، أيّها السّيّد، كنيستك لتخلّصها من كلّ شرٍّ وتكمّلها بمحبّتك؛ واجمعها من الرّياح الأربعة إلى الملكوت الّذي أعددته لها، فلك المجد إلى الأبد (يُصلّي المسيحيّون للكنيسة "صورة الملكوت السّماوي"[٢٨٢]، بينما يُصلّي اليهود للشّعب اليهوديّ وللأرض).
- فلتأتِ النّعمة وليُطوى هذا العالم، هوشعنا لإله داود! مَن كان قدّيسًا فليُقبل، ومن لم يكن فليَتُب. مارانا تا! (تعال أيّها الرّبّ يسوع) آمين.

٥. الأنافورا في اللّيتورجيّا الإلهيّة الحاليّة

في وصفه للّيتورجيّا، والّذي يتكلّم فيه باختصارٍ عن الأنافورا، يقول القدّيس يوستينس (القرن الثّاني للميلاد):

> "يُقدّم الخبز والكأس المملوءة بالخمر والماء إلى مترئّس الجماعة، الّذي يأخذ هذه التّقادم، ويُسبّح أب الجميع، من خلال الابن والرّوح القدس، ويُقدّم شكرًا حارًّا من أجل هذه التّقادم، وهو الّذي تكرّم ومنحنا إيّاها. وحين يختتم صلوات التّسبيح والشّكر، تُعلن الجماعة: آمين"[٢٨٣].

تُقسَم الأنافورا اليوم إلى ثمانية أجزاء: (١) الحوار الإفخارستيّ؛ (٢) صلاة التّسبيح والشّكر؛ (٣) نشيد الظّفر "النّشيد السّيرافيميّ" (قدّوس، قدّوس، قدّوس...)؛ (٤) الصّلاة الإفخارستيّة (التّقديس)؛ (٥) صلاة الذّكر "Anamnesis"؛ (٦) استدعاء الرّوح القدس "Epiklesis"؛ (٧) الذّكرانيّات الإفخارستيّة؛ (٨) المجدلة. من بين كلّ هذه العناصر، يأتي عنصران فقط مباشرةً من المسيح: صلاة التّسبيح والشّكر، والتّقديس الإفخارستيّ. أمّا الأقسام الأخرى فهي إضافاتٌ وُضِعَت من قِبَل الكنيسة.

---

٢٨٢) **المرجع نفسه**، ص.١٥٢.

٢٨٣) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.254.

إنّ الإنجيليّين الإزائيّين (متّى، مرقس ولوقا) والقدّيس بولس قد سجّلوا كلمات يسوع المسيح التّقديسيّة: "خذوا فكلوا، هذا هو جسدي"، "إشربوا من هذا كلّكم، هذا هو دمي للعهد الجديد". إلاّ أنّهم لم يعطوا، بالتّالي، وصفًا دقيقًا لمضامين صلاة التّسبيح والشّكر الّتي قالها ربّنا حالاً قبل تقديس الخبز والخمر. لقد ذكروا فقط حقيقة أنّ المسيح "شكر" و "بارك" قبل أن يُحوّل الخبز والخمر إلى جسده ودمه. لقد أعرب المسيح بالتّأكيد من خلال صلاة الشّكر عن امتنانه لأبيه السّماويّ لكلّ الأفعال العظيمة الّتي أنجزها للشّعب المختار، وخصوصًا الخلاص للبشريّة الّذي سيتمّ بموته على الصّليب.

لقد أسّس المسيح اللّيتورجيّا الإلهيّة في إطار العشاء الفصحيّ للعهد القديم، الّذي خلاله يتلو ربّ العائلة صلاة التّسبيح والشّكر من أجل تحرير الشّعب اليهوديّ من عبوديّة مصر؛ والمسيح، بكونه رأس شعب الله الجديد، متمسّكٌ بالطّقوس اليهوديّة، يُرجع إلى الآب السّماويّ كلمات التّسبيح والشّكر على الأعمال العظيمة الّتي قام بها من أجل البشريّة. وهكذا، وبناءً على كلّ ما تقدّم ذكره سابقًا، فإنّ الأنافورا مستمّدةٌ من **العشاء السّرّيّ**، ونلحظ، في الوقت عينه، أنّ تطوُّر عناصرها المتكاملة واقعٌ تحت التّأثير الكبير **للطّقس اليهوديّ**. إنّ هاتين الحقيقتين يجب أن تُؤخذا في الاعتبار عند معالجة هذا القسم من اللّيتورجيّا الإلهيّة.

٢) الحوار الإفخارستيّ بين الكاهن والجماعة

بعد الانتهاء من تلاوة قانون الايمان يعلن الكاهن:

لنقف حسنًا. ولنقف بتهيُّبٍ. فلنصغ لنقدّم بسلامٍ القربان المقدّس

في هذه اللّحظات الرّهيبة علينا أن نكون في حالة استعدادٍ وخشوع ورهبة، نفسًا وجسدًا، لنقدّم القربان المقدّس. يجب أن نقف وقفة استعدادٍ شاخصين نحو الملك السّماويّ وقائلين: "قلبي مُستَعِدٌّ يا الله" (مزمور ٥٦: ٨)، ومردّدين مع بطرس الرّسول على جبل ثابور: "يا ربّ، حَسَنٌ أن نكون ههنا" (متّى ١٧: ٤). فالرّبّ يتجلّى لنا في القدّاس الإلهيّ عبر جسده ودمه الكريمين. إنّ دعوة الشّعب إلى الوقوف برهبةٍ وخوفٍ يُشير إلى بداية قانون الشّكر أي القسم الرّئيس من القدّاس الإلهيّ، الّذي فيه تتحوّل المواد الإفخارستيّة، أي الخبز والخمر، إلى جسد المسيح

ودمه. وهذا يتطلّب من المؤمن المصلّي موقفًا روحانيًّا داخليًّا، يعيشه بلحظاتٍ مليئة بالصّمت والتّأمّل ووضع الذّات في حضرة الله، من أجل الحصول على إدراكٍ روحيٍّ يمكّنه من فهم حقيقة هذا التّحوّل، الّذي لا يستطيع العقل البشريّ بمحدوديّته أن يُدركه.

تُعطي اللّيتورجيّا السّريانيّة أجمل تفسير لهذا القسم الأوّل من الحوار الإفخارستيّ:

"لنقف بإيمان، لنقف بخوف، لنقف بنقاوةٍ وتواضع وقداسة قلب! لنقف، أيّها الإخوة، بإيمانٍ صحيح، بخوفٍ أمام الله، ولنتأمّل في هذه الذّبيحة الرّهيبة والمقدّسة، الّتي هي على وشك أن تتمّ، وهي على وشك أن تُقدَّم لأجلنا إلى الآب، ربّ الكون، على يدَي الكاهن، من أجل خلاصنا وكذبيحة تسبيح"[٢٨٤].

ردًّا على تنبيه الكاهن لتقديم الذّبيحة المقدّسة بانتباهٍ ويقظة، ليس فقط على الصّعيد الرّوحيّ، وإنّما على الصّعيد الجسديّ أيضًا، يجيب الشّعب:

رحمة سلامٍ. ذبيحة تسبيح

يتلقّى المؤمنون من خلال هذه الذّبيحة المقدّسة رحمة السّلام، الّتي ما هي إلاّ مصالحةٌ مع الله، وبدوره، يتلقّى الله من المؤمنين "ذبيحة التّسبيح"، ذلك أنّ للذّبيحة الإفخارستيّة غايتين رئيسيّتين هما: الأولى: إعطاء التّسبيح والتّمجيد لله؛ والثّانية: إلتماس المغفرة عن آثام الإنسان ومصالحته، بالتّالي، مع الله عموديًّا، ومع أخيه الإنسان أفقيًّا، من خلال تقدمة المسيح الذّاتيّة وذبيحته الكفّاريّة على الصّليب. وفي هذا السّياق، يرى القدّيس أغسطينوس أنّ الصّليب يتكوّن من عارضتين: عارضةٌ عموديّةٌ وأخرى أفقية، الأولى تمثّل مصالحة الإنسان مع الله، بينما تمثّل الثّانية مصالحته مع أخيه الإنسان. بناءً على هذا التّفسير نستطيع القول إنّ هذه الكلمات تُشكّل صدًى رنّانًا لِما قاله الرّبّ في الإنجيل المقدّس: "أريد رحمةً لا ذبيحة" (متّى ٩: ١٣؛ راجع أيضًا هوشع ٦: ٦)؛ فالذّبيحة بدون رحمةٍ لا معنى لها، إذ إنّ الذّبيحة المرضية لله هي تلك

---

٢٨٤) **Ibid**, p.258.

الصّادرة عن القلوب المملوءة رحمةً ومحبّةً وسلامًا. ولنكون مستعدّين لتقديم القرابين المقدّسة، نحن بحاجةٍ إلى النّعمة الإلهيّة، الموهبة غير المخلوقة، والّتي تدلّ على حضور الثّالوث القدّوس في المؤمن لتقديسه ومساعدته على أن يكون إنسانًا روحيًّا متحرّرًا من استعباد الخطيئة. وهذا ما يمنحنا إيّاه الكاهن بالتّحديد عندما يباركنا باسم الثّالوث القدّوس قائلاً:

نعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّة الله الآب وشركة الرّوح القدس فلتكن مع جميعكم (٢ كورنثس ١٣: ١٣)

إنّ الكاهن بهذه الكلمات يلتمس بركات الله لتحلّ على المؤمنين من كلّ أقنومٍ من الثّالوث القدّوس: من الله الآب: المحبّة؛ من الله الإبن: النّعمة؛ ومن الله الرّوح القدس: الوَحدة والشّركة، ويُعلن أيضًا مساهمة كلٍّ من الأقانيم الثّلاثة في العمل الخلاصيّ، استنادًا إلى النّعم الإلهيّة الّتي ذُكِرَت سابقًا: فالآب من أجل **محبّته** للبشر أرسل ابنه الوحيد لخلاص العالم (راجع يوحنّا ٣: ١٦-١٧)، والابن بتجسُّده وصلبه وموته وقيامته وصعوده أعطانا **نعمة** الفداء (راجع أفسس ٢: ٥، ٨)، الّتي تُعطى لنا بالرّوح القدس الّذي يسكن فينا بالمعموديّة والأسرار الأخرى ويجعل بيننا وبينه **شركة**، إذ يجعلنا هياكل له (راجع ١ كورنثس ٦: ١٩؛ ٢ كورنثس ٦: ١٦). يقول بولس الرّسول إنّنا في المسيح يسوع حصلنا على الخلاص الّذي به "لنا سلام مع الله... والّذي به أيضًا صار لنا الدّخول بالإيمان إلى هذه النّعمة" (رومة ٥: ١-٢).

إنّ الشّركة الّتي يتكلّم عنها بولس الرّسول في رسائله هي شركة الرّوح القدس الّتي تُوحّدنا بالآب بواسطة المسيح. **إنّها اشتراك المؤمنين في الحياة الإلهيّة**، والمكان الّذي تبرز فيه هذه الشّركة هو الكنيسة الّتي هي بحدّ ذاتها "شركةٌ ومحبّة": إنّها سرُّ الشّركة الإلهيّة الّذي يجمع شمل أبناء الله المشتَّتين. من هنا نَعي أنّ هذا السّلام هو بمثابة اعترافٍ يشهد بأنّ الكنيسة مجتمعةٌ في المسيح وبأنّها فيه تُقدّم الإفخارستيّا. ويبدأ هذا السّلام الإفخارستيّ بذكر المسيح، إيمانًا من الكنيسة بأنّ المؤمنين قد أُعطوا معرفة الله – الّتي هي جوهر الحياة الأبديّة – والمصالحة والشّركة معه والوَحدة فيه بالخلاص في المسيح، أي في ابن الله الّذي صار ابن البشر، والّذي به "... حصلنا على السّلام مع

اللّه بربّنا يسوع المسيح، وبه أيضًا بلغنا بالإيمان إلى هذه النّعمة..." (رومة ٥: ١-٢)؛ فالإيمان المسيحيّ برمّته قائمٌ في أساساته على اللّقاء الشّخصيّ بالمسيح واقتباله ابنًا للّه يكشف لنا الآب ومحبّته. هذا القبول للإبن وهذا الاتّحاد به مع الآب يولّدان خلاصًا لنا وحياةً جديدةً ويرتقيان بنا إلى الملكوت السّماويّ في وَحدة الرّوح القدس. فالافخارستيّا هي سرّ بلوغنا إلى اللّه واتّحادنا به؛ إنّها الينبوع الحيّ والمُحيي للمعرفة الّتي للكنيسة عن الثّالوث القدّوس. وهذه المعرفة ليست معرفةً مجرّدةً تتجسّد من خلال العقائد فقط، بل هي **تَعَرُّفٌ مستمرٌّ وثابت، هي لقاءٌ وخبرةٌ وتاليًا اتّحادٌ بالحياة الأبديّة.**

فيُجيب المؤمنون قائلين:

ومع روحك

إنّ هذا الجواب يُشير إلى رغبة المؤمنين في أن ينال الكاهن أيضًا البركات نفسها الّتي التمسها من الثّالوث القدّوس لأجلهم. إنّها بركاتٌ ضروريّةٌ وأساسيّةٌ وخصوصًا للكاهن الّذي ممثّل اللّه وسط جماعة المؤمنين.

ثمّ يحثّنا الكاهن:

لنرفع قلوبنا إلى العلاء

إنّ الكاهن يدعو الشّعب كما فعل مرّةً النّبيّ إرميا: "لنرفع قلوبنا مع الأيدي إلى اللّه في السّموات" (مراثي ٣: ٤١). إنّ هذه الكلمات تستدعي أيضًا كلمات بولس الرّسول: "إرغبوا في الأمور الّتي في العُلى، لا في الأمور الّتي في الأرض" (كولسّي ٣: ٢). بتعابير أخرى، إنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة تحثّ المؤمنين مرّةً أخرى، كما فعلت خلال النّشيد الشّيروبيميّ، على نسيان كلّ ما هو أرضيّ، لرفع أفكارهم فوق الأفكار الدّنيويّة؛ على تذكُّر الأمور السّماويّة الأبديّة، ليضعوا جانبًا كلّ الاهتمامات الزّمنيّة الزّائلة. إنّها دليلٌ ملموسٌ على أنّ سرّ الإفخارستيّا الّذي نحتفل به لا يتمّ على الأرض بل في السّماء (راجع أفسس ٢: ٥-٦)، إذ إنّ الكنيسة من منظورنا الإيمانيّ هي باب السّماء وعرش اللّه وهيكل الحمل: إنّها السّماء المتجلّية على الأرض. وهنا أستشهد بكلماتٍ بديعةٍ نَطَقَ بها القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم، قال: "ما حاجتي إلى السّماء عندما أستطيع أن أتأمّل سيّد

السّماء وعندما أصير أنا نفسي سماءً؟"[285] ؛ "ويرى جرمانوس في دعوة المؤمنين إلى رفع قلوبهم إلى العلاء دعوةً للتأمّل في سرّ الثالوث في أورشليم السّماويّة، بوجهٍ مكشوفٍ أمام مجد الله: الآب غير المولود والابن المولود والرّوح المنبثق"[286]. إنّ دعوة الكاهن هذه تقودنا بالنّعمة إلى رفع قلوبنا وأذهاننا ونفوسنا نحو خالقنا، وهي دعوةٌ لا تخلو من توجيهنا إلى أن نكنزَ لنا الكنوز الإلهيّة التي لا تَفنى ولا تفسُد، بدل من أن نلتهيَ بقشور هذا العالم ومغرياته الدّنيويّة الزائلة، إذ إنّ القلب هو مركز العلاقة الإيمانيّة بين الله المؤمن: "يا بُني أعطني قلبك" (أمثال ٢٣: ٢٦). **الإفخارستيّا هي الأنافورا أي رفعُ تقدمتنا ونفوسنا إلى العَلاء؛ إنّها صعود الكنيسة إلى السّماء.**

لماذا كلّ هذا التّركيز على القلب؟ لأنّ القلب هو مكان اللّقاء الأصيل الحقيقيّ مع الذّات ومع الغير، وبخاصّةٍ مع الله الحيّ. القلب هو مكان القرار، وهو اللّحظة الشّخصيّة للنَعَم أو اللّا. إنّه، جوهريًا، الإنسان، صورةُ شركة الثّالوث، والسّاعي ليصير المثال، أي ليصير على مثال هذه الشّركة الإلهيّة"[287]. إنّ رفع القلب إلى العلاء دليلٌ واضحٌ على قيامة الرّبّ من بين الأموات، إذ ينزل الحيُّ إلى قبرنا وجحيمنا لينتشلنا من براثن الموت، إنّه نزول النّور إلى أعماق ظلماتنا. فالقلب الّذي لا يزال متعلّقًا بالأمور الجسديّة والأرضيّة، هو قبرٌ مُظلمٌ خالٍ من حضور الرّبّ القائم؛ أمّا القلب الحقيقيّ المطلوب في اللّيتورجيّا الإلهيّة، فهو القلب المتحرّر بنعمة الرّبّ القائم من قبضة تلك الأمور، بحيث يجد مجاله الحقيقيّ في الحدث المتواصل، حدث صعود المسيح.

يجيب الشّعب على هذه الدّعوة:

ها هي عند الرّبّ

إنّ جواب المؤمنين يؤكّد، قبل كلّ شيء، على أنّهم تحرّروا من عبوديّة الأمور الجسديّة والأرضيّة، وأنّ أفكارهم أصبحت موجّهةً نحو السّماء، نحو الأمور الرّوحيّة، كما تتطلّب الذّبيحة المقدّسة. في هذه اللّحظة الرّهيبة، يجب على

---

٢٨٥) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٥٤.

٢٨٦) أفثيميوس سكاف (الأب)، ***مدخل إلى الهستوريّة الكنسيّة...***، ص. ٥٠.

٢٨٧) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجيّة الينبوع***، ص.٢٣٦.

النّفس أن يكون قلبها موجّهًا نحو اللّه وليس نحو الاهتمامات الأرضيّة. إنّ الإنجيليّ يوحنّا الحبيب بيّن في رسالته الأولى أهميّة أن يكون الإنسان متحرّرًا من قيود العالم ومتعلّقًا بمشيئة اللّه، قائلاً: "لا تُحبّوا العالم وما في العالم. مَن أحبّ العالم لم تكن محبّة الرّبّ فيه، لأنّ كلّ ما في العالم، من شهوة الجسد وشهوة العين وكبرياء الغنى، ليس من الآب، بل من العالم. العالم يزول هو وشهواته. أمّا مَن يعمل بمشيئة اللّه، فإنّه يبقى مدى الأبد" (٢: ١٥-١٧). **يختار** المؤمنون، إذًا، وبناءً على كلمات الإنجيليّ الحبيب، أن يطرحوا عنهم كلّ خطيئةٍ واهتمامٍ أرضيٍّ مجاله الزّمن والعالم، ليرتفعوا بقلوبهم إلى اللّه الّذي مجاله الحقيقيّ غير مرتبطٍ بمحدوديّة الزّمان والمكان، بل إنّه، في الواقع، مرتبطٌ بالخلود والأبديّة. إنّه اختيارُ مريم أخت لعازر حين أرادت أن تتركَ كلّ الاهتمامات الأرضيّة وتجلسَ عند أقدام المسيح تسمعُ وتُصغي وتتفاعلُ مع كلامه الإلهيّ الذي ما هو إلاّ حياةٌ أبديّة، وكما يقول لنا الإنجيليّ لوقا، أنّها "اختارت النّصيب الصّالح الّذي لا يُنزع منها" (لوقا ١٠: ٣٨-٤٢). لقد اخترنا بهذا الردّ على دعوة الكاهن أن نكون من أبناء اللّه ومن سكّان السّماوات، وهذا يعني أنّنا نسير في الاتّجاه الصّحيح نحو وطننا الأوّل بعد نفي مرّ، وما زلنا حتّى يومنا هذا عطشى إلى العودة إليه والحياة فيه.

ويردف الكاهن قائلاً:

لنشكرنّ الرّبّ

ألا يُسمّى القدّاس الإلهيّ سرَّ الشّكر! فالذّبيحة هي ذبيحة شكرٍ للّه على كلّ ما أعطانا (راجع لوقا ١٢: ٢٢-٣٤)، ذلك **أنّ الشّكر هو عملٌ يُجدّد الإنسان ويَلِده ثانية**. وهذا بالتّحديد ما قد وصل إليه المؤمنون، حين وضعوا أنفسهم وقلوبهم بخدمة مشيئة اللّه الّتي ولدتهم ثانيةً للحياة الحقيقيّة الإلهيّة.

ويجيب الشّعب على هذه الدّعوة بالقول:

واجبٌ وحقّ

إنّ معرفة اللّه تستحيل علينا دون شكره. فبعدما تمّ كلّ شيء، أي بعد منح غفران الخطايا وكسر شوكة الموت، لم يبقَ أمام الإنسان إلاّ أن يُسبّح ويشكر،

وكأنّنا مُنحنا الشّكر عرفانًا من اللّه وفرحًا فردوسيًّا. من هنا نُدرك أنّ الإفخارستيّا (أو الشّكر) هي حال الإنسان الكامل؛ إنّها حياةُ الفردوس؛ إنّها الجواب الوحيد الكامل والأصيل الّذي يُعطيه الإنسان عن خلق اللّه، وعن فدائه وهبة السّماء. فبالمسيح وحده تمّ كلّ ما أعطاه اللّه للإنسان، وفيه وحده أُعيد الإنسان إلى السّماء. وحده المسيح هو الكائن الإفخارستيّ الكامل. فجواب الجماعة المصلّية "واجبٌ وحقّ" يُعبّر بقوّةٍ إيمانيّةٍ عن "**التّسليم غير المشروط للّه**" مصدر النّعم والبركات كلّها[٢٨٨].

٣) صلاة الشّكر الإفخارستيّة

ثم يتلو الكاهن صلاة الشّكر الإفخارستيّة التّالية:

واجبٌ وحقٌّ أن نسبّحك ونباركك، ونُشيد لك ونشكرك، ونسجد لك في كلّ مواضع سيادتك. فإنّك أنت الإله الّذي لا يفي به وصفٌ ولا يحدُّه عقلٌ. ولا يُرى ولا يُدرَك. الدّائم الوجود. والكائن هو هو. أنت وابنُك الوحيد وروحك القدّوس. أنت أخرجتنا من العدم إلى الوجود. وبعد أن سقطنا عُدتَ فأقمتنا. وما زلتَ تصنع كلّ شيءٍ حتّى أصعدتنا إلى السّماء. وأنعمتَ علينا بمُلكك الآتي. فمن أجل هذه كلّها نشكرك. ونشكر ابنك الوحيد وروحك القدّوس. كما نشكر كلّ ما نلنا من إحساناتك. المعروفة والمجهولة. الظّاهرة والخفيّة. ونشكر لك أيضًا هذه الخدمة. الّتي ارتضيتَ أن تقبلها من أيدينا. مع أنّ ألوفًا من رؤساء الملائكة. وربواتٍ من الملائكة. ماثلون لديك. الشّيروبيم والسّيرافيم ذوي الأجنحة السّتّة. والعيون الكثيرة. مُحلّقين وطائرين

تتضمّن هذه الصّلاة الشّكريّة أهمّ مواضيع العقيدة المسيحيّة: **عظمة اللّه الخالق**، أزليّته ووجوده السّرمديّ، **خلق الإنسان من العدم**، **السّقوط** (إنّ الخطيئة هي سقوط الإنسان لا بالنّسبة إلى اللّه فحسب، بل بالنّسبة إليه هو نفسه أيضًا وبالنّسبة إلى طبيعته الحقيقيّة وكرامة دعوته العُليا الّتي خطّها له اللّه)، **القيامة** (الخلاص، التّرميم) **والصّعود إلى السّماوات** أي إعادة الإنسان السّاقط

---

٢٨٨) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٥٥.

والغارق في ليلٍ حالكٍ من الجهل إلى وطنه الأمّ الفردوس، عمل الله الثّالوث الأقدس في الخلاص وأخيرًا الخدمة اللّيتورجيّة هذه الّتي تُقرّبنا من الله. يتلو الكاهن هذه الصّلاة باسم المؤمنين بحيث يشكر الله فيها لأنّه أخرجنا من العدم إلى الوجود، ورغم سقوطنا بالخطيئة منحنا الخلاص. ونشكره على كلّ إحساناته إلينا الظّاهرة وغير الظّاهرة. الإنسان المسيحيّ هو العبد الشّكور والّذي يؤمن دومًا بأنّ الله يريد خيره وإن كان هو يجهل كيف يعمل الله، ويؤمن بأنّ كلّ عطيّةٍ صالحةٍ هي من لدن الله. فالشّكر الّذي تُقدّمه هذه الصّلاة هو تذوُّق الفردوس واختباره، إذ إنّ تذوّق طعم الخبرة الفردوسيّة وانتظارها يشكّلان المعنى الأوّل والأعمق للقدّاس الإلهيّ؛ إنّه علامة وجود الله وحضوره والفرح به وملء معرفته على أنّها لقاءٌ وشركةٌ واتّحاد. فما سرّ الإفخارستيا الّذي به تصير الكنيسة خليقةً جديدةً وجسدًا للمسيح وشركةً بملكوت الدّهر الآتي، سوى سرّ معرفة الآب وسرّ القدوم والإرتقاء إليه في ابنه الوحيد.

إنّ الشّكر بالتّالي يعود بنا إلى عرش الملكوت ويسمح لنا بمعاينة وجه الله وخليقته في سمائها وأرضها، وتحقيق مجده، إذ إنّه [الشّكر] قوّة حياةٍ وتَوقٍ ورضًى ومحبّةٍ تحوّل كلّ الأشياء الّتي منحنا إيّاها الله في العالم إلى معرفةٍ لله وشركةٍ معه، وعندها تَظهر لنا الخطيئة على حقيقتها، أي على أنّها سقوط المحبّة ورفض الاعتراف بجميل الله. من هنا نتأكّد بأنّ الإفخارستيّا هي ذبيحة شكر للآب، وبركةٌ بها تُعرب الكنيسة عن امتنانها لكلّ أفضاله وكلّ ما حقّقه لنا بالخلق والفداء والتّقديس. فلقد جمعت الكنيسة بصلاةٍ واحدةٍ الرّدّ البشريّ اللّائق على كلّ أعمال الله ورحمته وعنايته بالإنسان. ولذلك أصبحت الإفخارستيّا مركز كلّ العبادة على الأرض كلّها، وقلب كافّة الصّلوات، وقمّة التّعبير الصّادق عن علاقة الله بالإنسان، وردّ الإنسان بالشّكر المستمرّ والمستديم على تدبير الله القائم والدّائم للخليقة كلّها والعالم. الإفخارستيّا، في مفهومها الأوّل، هي "شكر". وانطلاقًا ممّا تقدّم يستطيع المرء أن يُميّز أربعة دوافعَ أساسيّةٍ لصلاة الشّكر هذه:

- **عَظَمَة الله وقوّته الّتي لا تُضاهى.** وأنّه، بالتّالي، يستحقّ التّسبيح والشّكر والإجلال، ذلك أنّ طبيعته وسِماته الإلهيّة هي الدّوافع الأولى الّتي تُحفّز

الإنسان على تمجيده وشكره: "الَّذي لا يوصف"، "لا يُحَدّ"، "لا يُرى"، "لا يُدرَك"، "الدّائم الوجود"، "غير القابل للتّغيير".

- **عمل الخلق** الَّذي يؤثّر على الإنسان مباشرة، إذ إنّ الله قد خلقه على صورته ومثاله (راجع تكوين ١: ٢٦): "أنت أخرجتنا من العدم إلى الوجود".
- **خلاص الإنسان** الَّذي أُنجز بالابن الوحيد المتجسّد، يسوع المسيح: "وبعد أن سقطنا عُدتَ فأقمتنا. وما زلت تصنع كلّ شيءٍ حتّى أصعدتنا إلى السّماء. وأنعمتَ علينا بمُلكك الآتي.
- **خدمة إتمام اللّيتورجيّا الإلهيّة والذّبيحة غير الدّمويّة**، من خلال **يدي الكاهن** "الَّتي ارتضيتَ أن تقبلها من أيدينا"، وهي خدمةٌ لم تُعطَ ولا حتّى للملائكة. ترد هذه الفكرة أيضًا في صلاة النّشيد الشّيروبيميّ، صلاة الكاهن من أجل نفسه: "... أو يخدمك يا ملك المجد. فإنّ خدمتك عظيمةٌ ورهيبةٌ. حتّى لدى القوّات السّماويّة... وبما أنّك سيّد الجميع، قد سلّمت إلينا خدمة هذه الذّبيحة الكهنوتيّة غير الدّمويّة". تُبرز هذه الفكرة الطّابع القُدُسيّ لسرّ الكهنوت المقدّس، الَّذي ما هو إلاّ خدمةٌ ("Διακονία - ذياكونيّة") وُهِبَت مجّانًا من الله؛ إنّه هبةٌ سماويّة. لهذا السّبب، الكهنوت أكرم من كلّ الخدمات الأخرى الدّنيويّة، خدمةٌ تعمل على الأرض، لكنّ غايتها وثمارها في السّماء.

أخيرًا نقول إنّ صلاة الشّكر هذه هي دعوةٌ لخدمة الله بفرح، وبمجّانيّة، وبحماس إيمانيٍّ طوال حياتنا بأكملها. إنّها دعوةٌ لشكر الله على جميع البركات والنّعم الَّتي أغدقها علينا نحن صُنع يديه، العظيمة والصّغيرة، المعروفة والمجهولة، الظّاهرة والخفيّة. عندئذٍ، تجد هذه الصّلاة الشّكريّة صداها في رسالة القدّيس بولس إلى أفسس، يقول: "أشكروا الله الآب كلّ حينٍ على كلّ شيءٍ باسم ربّنا يسوع المسيح" (أفسس ٥: ٢٠)؛ وأيضًا في رسالته الأولى إلى تسالونيكي: "أشكروا على كلّ حال، فتلك مشيئة الله لكم في المسيح يسوع" (٥: ١٨). لذا، فإنّنا كمؤمنين مشتركين في اللّيتورجيّا الإلهيّة، نُشكِّل معًا "**الكنيسة الإفخارستيّة**"، نشكر الله الآب من خلال ابنه الوحيد ربّنا يسوع المسيح.

٤) التّسبيح السّيرافيميّ الملائكيّ: نشيد الظّفر

إذًا، بعد أن تشكر الكنيسة للآب، بالمسيح وفي الرّوح القدس، كلّ صنائعه الّتي عدّدناها للتوّ، تنضمّ الجماعة كلّها إلى الكنيسة السّماويّة، الملائكة وجميع القدّيسين، ويرفعون معًا، الكنيسة الأرضيّة والكنسية السّماويّة، إلى الله المثلّث التّقديس نشيد حمدٍ متواصل:

قدّوس. قدّوس. قدّوس. ربّ الصباؤوت [القوات السّماويّة] **السّماء والأرض مملوءتان من مجدك. هوشعنا في الأعالي. مباركٌ الآتي باسم الرّبّ. هوشعنا في الأعالي**

١. مقدّمة تاريخيّة

يُدعى هذا النّشيد في اللّيتورجيّا "نشيد الظّفر"، هذا هو، "نشيد انتصار الله". لم يكن هذا النّشيد معروفًا في وصف القدّيس يوستينوس (القرن الثّاني للميلاد)، ولا في الصّيغة القديمة للأنافورا الإفخارستيّة للقدّيس هيبوليتس (القرن الثّالث للميلاد). من هنا يتّضح أنّ أوّل شاهدَين على استعمال هذا النّشيد في اللّيتورجيّا هما القدّيس كيرلّس الأورشليميّ والقدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم. لقد ظهرت للمرّة الأولى في إفخولوجي سيرابيون أسقف تاميس[٢٨٩] (منتصف القرن الرّابع للميلاد)، وفي ليتورجيّا الدّساتير الرّسوليّة (أواخر القرن الرّابع للميلاد). وهكذا نستنتج أنّ هذا النّشيد أُدخل إلى اللّيتورجيّا الإلهيّة بين منتصف القرن الثّالث للميلاد ومنتصف القرن الرّابع للميلاد[٢٩٠].

٢. تركيبة النّشيد

يُقسَم هذا النّشيد، وفقًا لمضمونه، إلى قسمين مختلفين في الأصل والمعنى: القسم الأوّل، "قدّوس، قدّوس، قدّوس ربّ الصّباؤوت..." من النّشيد يذكّرنا

---

٢٨٩) إنّ إفخولوجي سيرابيون له أهميّة كبرى من النّاحية اللّيتورجيّة. يحتوي على ثلاثين إفشينًا (صلاة) وهو الإفخولوجي المسيحيّ الأوّل. يحتوي على أفاشين سرّ الشّكر، السّيامات، المعموديّة، الميرون، الزّيت المقدّس، وإفشين خاصّ لتقديس الزّيت والخمر. راجع الأسقف يوحنّا يازجي، ***مدخل إلى الأشكال اللّيتورجيّة***، ص.١٧.

٢٩٠) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.263.

بالتّسبيح السّيرافيميّ الملائكيّ الّذي سمعه أشعيا النّبيّ (أشعيا ٦)، عندما دعاه الله إلى الاستحقاق النّبويّ، حيث شاهد، برؤيا إلهيّة، الله يجلس على عرشٍ عالٍ، والسّيرافيم يحيطون به ويسبّحونه على الدّوام؛ بينما يلتقي تسبيح الملائكة هذا في قسمه الثّاني، "هوشعنا في الأعالي، مباركٌ الآتي باسم الرّبّ..."، مع هتاف أطفال أورشليم وهم يستقبلون الرّبّ في دخوله الانتصاريّ إلى أورشليم، قبل انطلاقه نحو مسيرة الآلام الطّوعيّة: "هوشعنا في الأعالي مباركٌ الآتي باسم الرّبّ" (متّى ٢١: ٩). إنّ الكلمات الأخيرة من النّشيد هي تحيّة إكرامٍ للمسيح، الّذي دخل إلى أورشليم الجديدة، كحمل الله، وهو الّذي على وشك أن يُقدِّم ذاته مرّةً أخرى إلى الآب السّماويّ لأجل شعبه. فبعد لحظاتٍ قليلة، ستتحوّل القرابين الإفخارستيّة إلى جسده ودمه. لذلك، فإنّ الكنيسة تستقبل المسيح كما استقبله يومًا الشّعب عند دخوله إلى مدينة أورشليم. كلّ ليتورجيّا، كلّ تقديس، هو تجلٍّ جديد، مجيءٌ جديدٌ للمسيح.

٣. الملائكة وتسبيح الله

إنّ هذا النّشيد الّذي ترنّمه الملائكة أزليًّا وبلا انقطاع أمام عرش الله في السّموات حاضرٌ في ذهن الكُتّاب المُلهَمين للكتاب المقدّس، وبخاصّةٍ ما ورد ذكره في سفر أشعيا النّبيّ وفي سفر الرّؤيا. فقال أشعيا: "من فوقه سَرافون قائمون، ستّة أجنحةٍ لكلّ واحد، باثنَين يستر وجهه وباثنَين يستر رجلَيه وباثنَين يطير. وكان هذا يُنادي ذاك ويقول: قدّوسٌ قدّوسٌ قدّوس، ربُّ القوّات، الأرض كلُّها مملوءةٌ من مجده" (٦: ٢-٣)؛ وقد ورد في سفر الرؤيا الوصف التّالي: "ولكلٍّ من الأحياء الأربعة ستّة أجنحةٍ رُصِّعَت بالعيون من حولها ومن داخلها، وهي لا تنفكّ تقول نهارًا وليلاً: قدّوسٌ قدّوسٌ قدّوس، الرّبُّ الإله القدير، الّذي كان هو كائنٌ وسيأتي" (٤: ٨). نستشفّ مِمّا تقدّم أنّ النّشيد يُبرز طبيعة وعمل هذه القوّات السّماويّة العادمة الأجساد، الّتي ليست هنا للزّينة والإلهام، بل إنّها تُمثّل السّماء، تُمثّل ذاك السُّمو المجيد وما هو أبعد من عقولنا ولا نعرف عنه سوى أنّه يصدح أزليًّا بتسبيح العزّة الإلهيّة وقداسة الله.

نستشهد هنا ببعض الآيات الكتابيّة من العهدَين القديم والجديد الّتي تُبيّن أنّ حياة الملائكة قائمةٌ في أساسها على تسبيح الله الّذي يُشكّل بدوره رُكنًا

من أركان الحياة المسيحيّة في المسيح: "سبِّحوا الرّبّ من السّماوات، سبّحوه في الأعالي. سبِّحوه يا جميع ملائكته، سبِّحيه يا جميع قوّاته" (مزمور ١٤٨: ١-٢)؛ وفي إعلان بُشرى الميلاد للرعاة، نقرأ: "وانضمّ إلى الملاك بغتةً جمهور الجند السّماويّين يُسبِّحون الله فيقولون: المجد لله في العلى! والسّلام في الأرض للنّاس فإنّهم أهل رضاه!" (لوقا ٢: ١٣-١٤)؛ ونقرأ في رؤيا القدّيس يوحنّا الإنجيليّ: "وتوالَت رُؤيايَ فسمعتُ صوت كثيرٍ من الملائكة حول العرش والأحياء والشّيوخ، وكان عددهم ربواتٍ ربواتٍ وألوفٍ ألوف، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم: الحمل الذّبيح أهلٌ لأن ينال القدرة والغنى والحكمة والقوّة والإكرام والمجد والتّسبيح" (٥: ١١-١٢).

٤. السّماء والأرض مملوءتان من مجدك

إنّ ملء السّماء من مجد الله أمرٌ مفروغٌ منه، فهو قائمٌ بالخدمة الملائكيّة. الحاجة أشدّ الحاجة لنا نحن البشر إلى أن تمتلئ الأرض من مجد الله، هذا هو عمل الإنسان الصّالح، أن تمتلئ الكنيسة من مجد الله بالعطاء والشّهادة وبالخدمة الصّالحة، أن يمتلئ كلّ ديرٍ من مجد الله بالتّسبيح والانسحاق والتّفاني في المحبّة الإلهيّة، أن يمتلئ كلّ بيتٍ من مجد الله بالتّعاون والطّاعة والقدوة الصّالحة. وهذا وذاك لن يتأتّى إلاّ من خلال إنكار الذّات على مستوى الكنيسة والدّير والأسرة لإفساح الطّريق للشّهادة المطلقة لله حتّى تمتلئ الأرض حقًّا من مجد الله وحده. في هذا النّشيد، تتشارك السّموات (الملائكة) والأرض (المؤمنون) في ترنيم نشيد تسبيح لله القدير. فالمراتب السّماويّة والأرضيّة تتّحد في جوقةٍ واحدة، سمفونيّةٍ واحدةٍ تكريمًا لاسم الله، تمجيدًا له، لمنحه الإجلال، لتسبيحه وشكره.

٥. هوشعنا

أمّا كلمة "**هوشعنا**" المذكورة في النّصّ اللّيتورجيّ فهي كلمةٌ عبريّة وتعني "**خَلِّصنا يا مَن في الأعالي**". نصرخ نحو الآب متضرِّعين أن يمنحنا الخلاص مقرِّين معترفين ومباركين المسيح الآتي باسمه الَّذي سوف نستقبله على المائدة المقدّسة بعد قليل، بل وسنستقبله كالأطفال في داخلنا ونتّحد به عبر المناولة. دمج النّشيد الملائكيّ مع البشريّ إشارة إلى أنّ السّماء والأرض اتّحدتا

بتجسّد المسيح. في القدّاس الإلهيّ ندخل الملكوت، والملائكة تخدم معنا ونحن نردّد تسبيحهم كالأطفال بقلوبٍ نقيّةٍ طاهرة، لأنّه إنْ لم نعد كالأطفال فلن ندخل ملكوت السّماوات (متّى ١٨: ٣)؛ **في القدّاس الإلهيّ تصير الكنيسة سماءً على الأرض.**

٦. اللّيتورجيّا الأرضيّة جسرٌ حيٌّ نحو اللّيتورجيّا السّماويّة

لذلك، فإنّ صلاة الافخارستيّا هذه تتميّز على أنّها ارتقاءٌ يسمو بالكنيسة إلى السّماء أمام عرش الله في مجد ملكوت السّماوات، عند إعلان التّسبيح الملائكيّ. وكما ورد في مقدّمة كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، فإنّنا "في القدّاس نعيش بنوع خاصّ، ونحن بَعدُ على الأرض، ليتورجيّا السّماء، حيث ربوات الملائكة ترفع الحمد والتّسبيح للثّالوث القدّوس الواحد في الجوهر قائلة: "قدّوس، قدّوس، قدّوس ربُّ الصبؤوت. السّماء والأرض مملوءتان من مجدك" (راجع أشعيا ٦: ١-٣). نشيد السّماء هذا نسمع صداه يتردّد في قلب الكنيسة، وقد أضفنا إليه نشيد الأرض وهي تستقبل ملكها الآتي إلى أورشليم ليخلّصها: "هوشعنا! هوشعنا في الأعالي، مباركٌ الآتي باسم الرّبّ. هوشعنا في الأعالي" (راجع يوحنّا ١٢: ١٣). اللّيتورجيّا الإلهيّة تحملنا إلى السّماء، إذ تفتح أمامنا البُعد الآخِريّ (الإسخاتولوجيّ)، وتجعلنا نتذوّق مسبّقًا ليتورجيّا السّماء، المحتفَل بها في أورشليم الجديدة والّتي نتوق إليها كمسافرين"[٢٩١]، حيث يجلس المسيح إلى يمين الله خادمًا للأقداس والمسكن الحقيقيّ: "ورأس الكلام في هذا الحديث أنّ لنا عظيم كهنةٍ هذا هو شأنه: جلس عن يمين عرش الجلال في السّماوات، خادمًا للقدس، والخيمة الحقيقيّة الّتي نصبها الرّبّ لا الإنسان" (عبرانيّين ٨: ١-٢؛ راجع أيضًا كولسّي ٣: ١؛ رؤيا ٢١: ٢). **وهكذا تُصبح الأرض سماءً، وتُصبح الحياة، في النّظرة المسيحيّة، ليتورجيّا إلهيّة كونيّة شاملة. ولذا قيل: اللّيتورجيّا الإلهيّة هي السّماء على الأرض.**

---

٢٩١) البطريرك غريغوريوس الثّالث، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة***، ص.٥-٦.

٧. الكنيسة الفردوس الأرضيّ

إنّ الملائكة هم في خدمة مشروع الله الخلاصيّ، وهم خدّامٌ للمسيح. فحضور الملائكة في كلّ إفخارستيّا هو علامةٌ تأكيديّةٌ على أنّ الكنيسة اتّسعت أبعادها الرّؤيويّة وصارت بالفعل استعلانًا سماويًّا بالحقّ، والله مُتراءٍ. الشّعب يتهلّل ويصرخ مشاركًا الملائكة في التّسبيح أمام الله كأنّه في السّماء تمامًا ويردّد مع الشّيروبيم والسّيرافيم تسبحة الغَلَبَة والظّفر والخلاص. "الكنيسة هنا خليقةٌ جديدةٌ بالفعل، والنّفوس البسيطة تفرح وتُهلّل تهليلاً ملائكيًّا، أمّا ذوو العيون المكشوفة (المؤمنون) فينبهرون إذ يتجاوزون حتّى الملائكة في بهجتهم، لأنّ الإفخارستيّا تتجاوز بهم حدود الوقوف قدّام الحضرة الإلهيّة وتدخل بهم إلى داخل الحجاب إلى وليمة الأخصّاء، إلى الجسد والدّم، إلى أسرار الطّبيعة الإلهيّة غير المنطوق بها؛ فيعودون من هذه الرّحلة السّماويّة والدَهَشُ يملأ عقولهم، محمّلين بعطايا ومواهب روحانيّة وعلى رؤوسهم ابتهاجٌ وفرحٌ أبديٌّ وعلى لسانهم بُشرى ورسالةٌ مُفرحةٌ للعالم المتألّم"[٢٩٢].

٥) صلاة تأسيس الإفخارستيّا

١. الحبّ الخلاصيّ

> **فمع هذه القوّات المغبوطة. نهتف نحن أيضًا أيّها السّيّد المحبّ البشر ونقول؛ قدّوسٌ أنت وكامل القداسة. أنت وابنك الوحيد وروحك القدّوس. قدّوسٌ أنت وكامل القداسة. وعظيمٌ جلال مجدك. لقد أحببت عالمك، حتّى إنّك بذلت ابنك الوحيد. لكي لا يهلك كلّ مَن يؤمن به. بل تكون له الحياة الأبديّة. فهذا أتى وأكمل كلّ ما دبّرته عنايتك بشأننا**

يتلو الكاهن هذه الصّلاة باسم كلّ الشعب الواقف حوله يُقِرُّ فيها ويعترف بقداسة الله ومجده. هذا التّذكُّر لِما صنعه الله معنا ليس مجرّد عرضٍ بسيطٍ للأحداث الخلاصيّة كفيلمٍ سينمائيّ، إنّما هو إحياءٌ لهذه الأحداث وكأنّها

---

٢٩٢) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٥١.

حاصلةٌ الآن ونشكّل جزءًا منها. لذلك يكرّر الكاهن في كلّ قدّاسٍ هذا التّذكُّر لكي نحياها في كلّ قدّاسٍ إلهيّ.

وبما أنّ القوّاتِ السّماويّة الملائكيّة العادمة الأجساد، خُدّام المجد الإلهيّ، يشتركون في الذّبيحة الإلهيّة المحتفَل بها في الكنيسة الأرضيّة، يُعلن الكاهن أنّه مع هذه القوّات المغبوطة، الواقفة أمام عرش الله تُسبّحه بلا انقطاع بنشيدٍ مثلّث التّقديس "قدّوس، قدّوس، قدّوس"، نهتف نحن أيضًا، الكنيسة البشريّة، جماعة المؤمنين المحتفلين بهذه اللّيتورجيّا الإلهيّة، وقد دُعينا لنكون على مثال الملائكة في تسبيح الله وتمجيده على الدّوام، بقداسة الله الثّالوث "قدّوسٌ أنت وكامل القداسة، أنتَ وابنُك الوحيد وروحُك القدّوس"، وبقبولنا بطاعةٍ ملائكيّة تدبير الله الخلاصيّ الّذي تمّ في التّاريخ من أجلنا بالابن المتجسّد يسوع المسيح، والّذي [تدبير الله الخلاصيّ] سيجد اكتماله في حدث الصّليب، ذبيحة المسيح الكَفّاريّة. تحمل هذه الصّلاة في طيّاتها دعوةً إلى اشتراك المؤمنين في قداسة الله ليُحقّقوا في ذواتهم وحياتهم مشيئة الله الخلاصيّة وليكونوا مُشعّين بفضائله الإلهيّة ومتوهّجين بنوره الإلهيّ السّاطع الضّياء.

تشرح هذه الصّلاة أيضًا سببَ تجسُّد الابن وتدبيره الخلاصيّ الّذي قام به من أجل حياة العالم. فتُبيّن أنّ سبب التّجسُّد الجوهريّ هو محبّة الله اللّامتناهية للإنسان خليقته وصُنع يدَيه: "لقد أحببتَ عالمك، حتّى إنّك بذلتَ ابنَك الوحيد، لكي لا يهلكَ كلّ مَن يؤمن به، بل تكونَ له الحياة الأبديّة" (راجع يوحنّا ٣: ١٦). ولأنّ المسيح أيضًا "أحبّ خاصّته الّذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده" (يوحنّا ١٣: ١)، قَبلَ الابن الوحيد إرادة الله الآب وقدّم لنا ذاته ذبيحةً كفّاريّةً فداءً عن خطايانا وجهالاتنا ومعاصينا... وهو، كما قال النّبيّ أشعيا في النّشيد الرّابع لعبد يهوه المتألّم، مَن "أسلمَ نفسه للموت، وأُحصِيَ مع العُصاة، وهو حمل خطايا الكثيرين، وشَفَعَ في معاصيهم" (أشعيا ٥٣: ١٢). فهذا الحبّ الكامل، والفاعِل، والباذِل والمُضحّي قد وضعه الابن يسوع المسيح موضع التّنفيذ والتّطبيق بقَبوله بطاعةٍ لامتناهيةٍ أن يأخذ على عاتقه مسؤوليّة افتداء الخروف الضالّ وإعادته إلى الحظيرة الأبويّة الّتي طُردَ منها نتيجةً لخطيئته

"فهذا [يسوع] أتى وأكمل كلّ ما دبَّرَته عنايةُ الآب بشأننا". إنّه "أتى" أي تجسّد في أحشاء مريم البتول بقدرة الرّوح القدس وذلك عندما حان ملء الزّمان كما يقول بولس الرّسول في رسالته إلى أهل غلاطية (٤: ٤-٥)؛ و"أكمل" أي أنّه حقَّق في شخصه، كإنسانٍ وكإله، ذبيحته الكَفّاريّة على خشبة الصّليب، تلك المسيرة الّتي ابتدأت بالعشاء السّرّيّ الأخير في عليّة صهيون وتابعت مسيرتها لتصل إلى قمّة التّدبير الإلهيّ، الصّليب. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى طاعة المسيح للّه الآب، وقد عبّر عنها بولس الرّسول أيضًا في رسالته إلى أهل فيلبّي، واصفًا إيّاها بالطّاعة التّجرديّة والمُنسحقة: **"تجرّد من ذاته متَّخذًا** صورة العبد، وصار على مِثال البشر... **فوضع نفسه** وأطاع حتّى الموت، موت الصّليب" (٢: ٧-٨).

٢. لاهوت كلام التّأسيس

وفي اللّيلة الّتي أسلم فيها. أو بالحريّ أسلم ذاته لأجل حياة العالم. أخذ خبزًا بيدَيه المقدّستين الطّاهرتين اللّتين لا عيب فيهما. فشكر وبارك وقدّس وكسر وأعطى تلاميذه الرّسل القدّيسين قائلاً:

خذوا فكلوا. هذا هو جسدي. الّذي يُكسَر لأجلكم. لمغفرة الخطايا

وكذلك الكأس من بعد العشاء قائلاً:

إشربوا من هذا كلّكم. هذا هو دمي للعهد الجديد. الّذي يُهراق عنكم وعن كثيرين. لمغفرة الخطايا

نحن الآن فعلاً على مائدة العشاء السّرّيّ، مائدة الملكوت، مع الرّبّ ورسله ونسمع صوت الرّبّ يقول: "خذوا كلوا... خذوا إشربوا". بهذه الكلمات العظيمة غيّر يسوع في لحظةٍ كلّ معالم ولائم العشاء اليهوديّة التّقليديّة عند بني إسرائيل، وأوقف مفهوم الفرح والسّرور بالأكل والشّرب، وجمّد كلّ المشاعر المتّجهة نحو أمجاد مملكةٍ أرضيّة، وحطّم كلّ الطّموح الكهنوتيّ لدى الشّعب من جهة مجد هيكل سليمان. فها هو الملك الأبديّ يموت، والكاهن الأعظم يُذبَح، والعهد الجديد يتأسّس بدمٍ في كأس.

لقد كانت كأس البركة القديمة تمتدّ بذهن إسرائيل الماديّ لتربطه بأمجاد مستقبلٍ كلّها أرضيّة زمانيّة للعظمة العنصريّة، وكان لا بدّ من الماسيّا

(أي المسيح) **أن يكون هو مُحقّق هذه الآمال الموعودة. وهوذا الآن المسيح، ماسيًا الصّليب والجروح والمسامير وكلّ الآلام والأحزان المُدركة وغير المُدرَكة، يمدّ يده بالكأس ليُعطينا من داخلها سرّ الماسيّا الحقيقيّ، الّذي ذُبِحَ ليملك بالصّليب، سرّ المجد الحقيقيّ، الّذي دُفِنَ في الأرض ليقوم بمجد الآب، سرّ التّهليل والتّسبيح بروح الكهنوت المغسول "بدم المسيح الّذي بروحٍ أزليٍّ قدّم نفسه للّه بلا عيب، يُطهّر ضمائركم من أعمالٍ مَيْتَةٍ لتخدموا (الكلمة اليونانيّة "**λατρεύειν – **لاتريفين"** وهي كلمة طقسيّة تفيد خدمة الكهنوت) **اللّه الحيّ!" (عبرانيّين ٩: ١٤).**

تتباين التّفاصيل في الأناجيل في ما إذا كان العشاء السّرّيّ هو مائدةٌ فصحيّة، وهو ما توحي به الأناجيل الإزائيّة، أو اجتماع الرّبّ مع تلاميذه في مائدةٍ عامّةٍ قبل الفصح بيوم، كما يشير إنجيل يوحنّا. ولكن من المؤكّد أنّه كان آخر عشاءٍ أرضيٍّ له، وكانت له صفةٌ خاصّةٌ تمامًا، فبواسطته تأسّست الإفخارستيّا، إنّه العهد الجديد المُبرَم بالكلمة والمُثبَّت بالدم المهراق والموطّد عراه بطعام الشّركة. في اللّيلة الّتي أسلم فيها، كان المسيح يعرف بأنّ هذا هو عشاؤه الأخير، ذلك العشاء الّذي أتمّه قبل صعوده عن تلاميذه. هذا المجتمع الصّغير الّذي كوّنه مع تلاميذه في حياته الأرضيّة سيدخل في مرحلةٍ جديدةٍ من كيانه، فالتّلاميذ سيَكسرون الخبز ويُباركون الكأس بعد موت الرّبّ وقيامته، والخبز الّذي سيكسرون هو ذلك الخبز الّذي كسره المسيح في العشاء السّرّيّ، والكأس الّتي سيُباركون مثل الكأس الّتي باركها المسيح. من هنا نُدرك أنّ الإفخارستيّا الّتي يُتمّمها التلاميذ هي متّصلةٌ بموته وقيامته كما كان العشاء السّرّيّ (١ كورنثس ١١: ٢٦).

ففي عتمة ليل العالم السّاقط والقابع تحت نير الخطيئة والموت، كشف لنا العشاءُ السّرّيّ النّورَ الإلهيّ الفائق العالم الّذي لملكوت السّماوات. هذا العشاء هو إعلانٌ لملكوت المحبّة الّذي خُلِقَ العالم من أجله، هذا العالم الّذي لا يتمّ إلاّ في هكذا ملكوت: إنّه [العشاء السّريّ] **اكتمال المحبّة الّتي هي في جوهر رسالة المسيح وخدمته وكرازته وعجائبه، والّتي بواسطتها يبذل نفسه على أنّه المحبّة عينها. لم يؤسّس المسيح سرّ الإفخارستيّا في العشاء السّريّ منفصلاً عن تأسيسه،**

في ذات الوقت، الكنيسة، ذلك أنّ سرّ الإفخارستيا تأسّس على أنّه سرّ الكنيسة وارتقاؤها إلى السّماء وتحقيقها لِذاتها على مائدة المسيح في الملكوت (لوقا ٢٢: ٢٩-٣٠)؛ إنّه ملكوت محبّة الآب للإبن ومحبّة الإبن للآب، وإنّه، في الوقت نفسه، عطيّةٌ هذه المحبّة للمؤمنين في الرّوح القدس.

ولا يغيب عن بالنا البتّة ارتباط العشاء السّرّيّ بحدث الصّليب الّذي أصبح سلاح الظّفر والغَلبة والانتصار على الخطيئة والموت. وكلّ هذا تمّ من خلال محبّة المسيح، هذه المحبّة الإلهيّة الّتي كشفها المسيح حول المائدة المقدّسة جوهرًا لمجد ملكوت الله. فمشهد العشاء السّرّيّ يأتي مصحوبًا بمشهدَين: الأوّل، عتمة ليل الخيانة في الخارج (اجتماع الرّؤساء على الرّبّ وعلى مسيحه، خيانة يهوذا، الثّلاثون من الفضّة، الشّعب العبرانيّ الّذي صرخ بكلّ قواه "اصلبه. اصلبه. ارفعه"؛ والثّاني، نور المحبّة البهيّ الّذي يُشعّ من عليّة صهيون مكان تناول المسيح العشاء الفصحيّ مع تلاميذه.

في المشهد الأوّل، يبدو يهوذا الاسخريوطيّ نظير آدم، إذ نراه يخرج من الفردوس عينه ويهرب منه ليُطرد منه خارجًا بعد أن رأى ملكوت الله بأمّ عينَيه وسمعه بأذنَيه ولمسه لمس اليدَين، وبعدما أعطاه المسيحُ ذاته في خبز المحبّة (راجع يوحنّا ١٣: ٣٠-٣٢)؛ وفي المشهد الثّاني، خروج المسيح من العليّة بعد الانتهاء من العشاء السّرّيّ نحو بستان الزيتون (راجع يوحنّا ١٤: ٣١؛ ١٨: ١، ٤) هو خروج الملكوت السّماويّ إلى ليل "هذا العالم" ليُصبح هذا الأخير مكانًا ليس إمارةً للشّيطان والخطيئة والموت، بل تجلّيًا لملكوت المحبّة على خشبة الصّليب الواهب الحياة. فلقد كان ذاك المساء فجرًا مُشرقًا للكنيسة في وسط ليل العالم المُظلم، أنار لنا فيه المسيح طريقَ الخلود وسط تعثُّرات الدنيا. أعطانا فيه ثقةً أكيدةً بالدّخول إلى الأقداس العليا بالمغفرة وبالتّطهير بدم العهد الّذي أقامه بالسّرّ قبل أن يُقيمَه بالصّليب، أطعَمَنا فيه وبيدَيه الطّاهرتين والمقدّستين الخبز الحيّ النّازل من السّماء الّذي كلّ مَن يأكل منه لا يجوع إلى العالم ولا يموت بالخطيئة، بل يستوطن السّماء.

وعليه يجدر بنا القول إنّ المسيح الرّبّ وقد جاء مذبوحًا على مائدة المحبّة اليهوديّة جاعلاً من خبز وخمر الوليمة العتيقة فصحًا مسيحيًّا جديدًا، صار

خبزها شهادةً دائمةً على موت الرّبّ، وكأسها خَبَرًا مجسّمًا حيًّا للصّليب الَّذي سال فيه الدّم الفصحيّ للعهد الجديد. من هنا نَعي أنّ الإفخارستيّا هي خَبَر موت الرّبّ، وذلك من واقع تقدمتها، فالخبز فيها جسدٌ مكسور، والكأس فيها دمٌ مسفوك. إنّها إخبارٌ بموت الرّبّ الَّذي لا يعني هنا بشارةً منطوقةً بالفم فقط، بل وشركةً في الموت. لأنّ الخبر هنا يختصّ بأكل جسدٍ مكسور وشُرب دمٍ مسفوك. فهو إذن عملٌ مساوٍ لعمل المسيح الَّذي عمله في نفسه. فنحن، في القدّاس الإلهيّ، نقول ما قاله المسيح ونعمل ما عمله المسيح؛ ثمّ نأكل الجسد ونشرب الدّم، فالموت الَّذي أجراه المسيح في نفسه في جسده ودمه نُجريه نحن ونشترك فيه. لذلك، فكلّ إفخارستيّا نُقيمها هي عشاء الرّبّ وهي موت الرّبّ، ليست لمجرّد ذكرى، لأنّنا نشترك في الموت وننال كلّ المتحصّلات منه، أي الخلاص والغفران. وهكذا، فإنّ الكنيسة بإقامتها الإفخارستيّا تعمل **عمل الكرازة** على أعلى مستوى، وحتّى بين السّماويّين: "فاطّلَعَ أصحاب الرّئاسة والسّلطان في السّماوات، **عن يد الكنيسة**، على حكمة الله الكثيرة الوجوه، وَفقًا لتدبيره الأزليّ، ذلك الَّذي حقّقه بالمسيح يسوع ربّنا" (أفسس ٣: ١٠-١١).

٣. كلام التأسيس في تكوين الكنيسة

وإنّه لمن المؤكّد "أنّ تأسيس الإفخارستيّا في العليّة يشكّل برهةً حاسمةً في تكوين الكنيسة، فيها أوكل يسوع المسيح إلى الكنيسة التّأوين المستديم للسّرّ الفصحيّ. عندما يتلفّظ الكاهن بكلمات التّقديس: "هذا هو جسدي... هذا هو دمي..." يضع فمه وصوته في تصرّف يسوع الَّذي لفظ هذه الكلمات في العليّة والَّذي أراد أن يجددها من جيل إلى جيل، جميع الَّذين في الكنيسة، يشاركون بالخدمة في كهنوته. فالكاهن ينطق بكلمات التّأسيس بصيغة الشّخص الأوّل "الأنا"، وكأنّه هو المسيح، الكاهن الأعظم، نفسه. في هذه اللّحظة المقدّسة، يتكلّم المسيح، الكاهن الأبديّ، من خلال فم الكاهن، الَّذي ما هو إلاّ أداةٌ بيد المسيح. لقد رأى القدّيس مكسيموس المعترف في الكاهن "صورة الله نفسه"، وآخرون أنّه "شفتا المسيح".

إنّ الكنيسة تحيا بالمسيح الإفخارستيّ وبه تتغذّى وتستنير، الإفخارستيّا سرّ إيمان، وفي الوقت عينه، سرٌّ نورانيٌّ وفي كلّ مرّةٍ نحتفل بالإفخارستيّا، يستطيع

المؤمنون أن يحيَوا من جديد، نوعًا ما، اختبار تلميذي عمّاوس: "فانفتحت أعينهما وعرفاه" (لوقا ٢٤: ٣١). فقد تسلّمت الكنيسة الإفخارستيّا من المسيح ربّها، كعطيّة بامتياز، عطيّة شخصيّة في إنسانيّته المقدّسة وعطيّة تدبيره الخلاصيّ. عندما تحتفل الكنيسة بالإفخارستيّا، ذكرى موت ربّنا وقيامته، يصير هذا الحدث حاضرًا. فنحن فيه حاضرون وكلّ مؤمن يستطيع أن يشارك فيها ويتذوّق ثمارها بطريقة لا تنضب. هذا هو الإيمان الّذي أحيى الأجيال المسيحيّة على مرّ القرون[٢٩٣].

أستشهد، كخلاصة، بما قاله الأب جان كوربون في هذا الصّدد:

"ففي هذا الجسد يُبذَل الله بذلاً كاملاً من أجل الإنسان، وفيه يُستَرَدّ الإنسان إلى الله إلهه. "فأكون لكم إلهًا وتكونون لي شعبًا": لقد اكتمل العهد الجديد. جسد المسيح يحقّق من أجلنا ذبيحة الحبّ الّتي تفيض منذ الأزل وإلى الأبد في شركة الأقانيم الثّلاثة الّتي تُكرّس الآن لمجد الآب كلّ ما شوّهته خطيئة الإنسان. "هذا هو جسدي المهزول من أجلكم... هذا هو دمي المراق من أجل الكثيرين". الجسد والدّم؟ يقول لنا القدّيس إيريناوس: "حينئذٍ غُلِبَ الموت". ويقول القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ: "هذا هو علاج الخلود"[٢٩٤].

٦) الذّكر (Anamnesis)

بعد كلام التّأسيس "خذوا كلوا هذا هو جسدي... إشربوا من هذا كلّكم، هذا هو دمي..."، يقول الكاهن:

فنحن. إذ نذكر وصيّة المخلّص هذه. وكلّ ما جرى لأجلنا. الصّلب. والقبر. والقيامة في اليوم الثالث. والصّعود إلى السّماوات. والجلوس عن اليمين. والمجيء الثّانيَ المجيدَ أيضًا

لقد أشرنا مُسبَقًا في مقدّمة هذا الفصل تحت عنوان "مملكة الثّالوث" تدبير الله الثّالوثيّ في تحقيق الخلاص من خلال أزمنة ثلاثة تندرج تحت عناوين

---

٢٩٣) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ١.

٢٩٤) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، ص. ١٧٤-١٧٥.

كبرى هي زمن الآب، أي التّحضير المباشر الّذي قام به في العهد القديم، وزمن الابن، أي دخول الكلمة الإلهيّ المتجسّد في التّاريخ البشريّ، وزمن الرّوح القدس، أي زمن حلول الرّوح القدس على الرّسل وتأسيس الكنيسة. السّؤال الّذي يطرح نفسه في هذا الوقت من الاحتفال الإفخارستيّ هو التّالي: كيف يبلغ العمل اللّيتورجيّ ذروته في الكنيسة من خلال هذه الأزمنة الخلاصيّة الثّلاثة؟ في هذه الأزمنة الثّلاثة، المُشار إليها سابقًا، يكتمل كلّ عملٍ ليتورجيٍّ إذ هو ذِكرٌ أي استحضارٌ لكلّ التّدبير الخلاصيّ انطلاقًا من الحاضر الاحتفالي؛ ومن هذا الحاضر الاحتفاليّ تعود الكنيسة وتعيش مسيرة التّاريخ الخلاصيّة بكلّ مراحلها، أيّ تعود إلى الماضي الّذي يرتكز على الحدث الأقوى وهو الفصح: موت المسيح وقيامته، ومنه إلى الحاضر الّذي هو اشتراكٌ آنيٌّ بحدث الموت والقيامة ومنه تنفتح نحو اكتمال هذا الخلاص في المستقبل؛ وهنا يأتي البعد الإسكاتولوجيّ الّذي هو اكتمالُ ما سبق وتحقّق، مرورًا باحتفال الكنيسة الحالي لهذا الخلاص. هناك إذًا حاضرٌ احتفاليّ- ماضٍ خلاصيّ، وحاضرٌ خلاصيّ- مستقبلٌ اسكاتولوجيّ.

وهنا لا بدّ من ذِكر ما كتبه الأب جان كوربون في مقدّمة كتابه الفريد "ليتورجية الينبوع" حول مفهوم الاستذكار في الكنيسة، يقول: "تتذكّر الكنيسة في الاحتفال اللّيتورجيّ، أحداث الخلاص الّتي صنعها الله في التّاريخ، والّتي اكتمل تحقيقها في صليب المسيح وقيامته. إلاّ أنّ هذا الحدث الفصحيّ، الّذي حصل في التّاريخ مرّةً واحدة، قد أصبح الآن معاصرًا لكلّ لحظةٍ من حياتنا: فالمسيح، لأنّه قام من بين الأموات، اخترق جدار الزّمن المائت. فالمقصود إذن تذكارٌ من نوع جديدٍ تمامًا: فنحن مَن يتذكّر، إلاّ أنّ الحقيقة الّتي نتذكّرها لم تَعُد في الماضي، بل هي حاضرة. وهكذا تُصبح ذاكرة الكنيسة حضورًا. وهذه هي واقعيّة حدث اللّيتورجيا"[٢٩٥]. من هنا نقول إنّ الذّبيحة الّتي نقدّمها هي امتدادٌ وتذكارٌ لِما فعله الرّبّ من أجلنا لكي يخلّصنا، كما أنّها استباقٌ لِما سيحدث في المستقبل أي اشتراكنا في مائدة الملكوت والمجيء الثّاني المجيد. في هذا الإطار يقدّم الكاهن القرابين باسم الشّعب

٢٩٥) المرجع نفسه، ص. ١٢.

الواقف حوله. هذه الذّبيحة، كما ذكرنا سابقًا، نقدّمها للّه لكي نشكرَه على كلّ ما أعطانا. الخبز الّذي هو عنصرُ الحياة نقدّمه للرّبّ رمزًا لتقديم حياتنا له لكي يقدّسَنا وندخل الملكوت. فعبارة "كلّ ما جرى لأجلنا" في غايةٍ من الأهميّة، إذ إنّها تُلخّص لنا كلّ التّدبير الخلاصيّ وسرّ محبّة المسيح المسكوبة على العالم بأسره والمُعطاة لنا مجّانًا والهادفة إلى ارتقائنا إلى الملكوت السّماويّ، للاشتراك في ذبيحة الحمل الفصحيّة أمام عرش اللّه.

ثمّ يُعلن الكاهن وهو يُمسك الصّينيّة بيمينه، والكأس بيساره، مخالِفًا يدَيه بهيئة صليب واضعًا اليمنى فوق اليسرى، وراسمًا بهما علامة الصّليب فوق الأنديمنسيون:

ما لك ممّا هو لك. نُقرّبه لك عن كلّ شيءٍ. ومن أجل كلّ شيء

لدى مطالعتنا للكتاب المقدّس، نجد أنّ هذه الكلمات تحمل طابعًا بيبليًّا (كتابيًّا) في الأصل، مأخوذًا من سفر الأخبار الأوّل، حين بارك الملك داود اللّه شاكرًا، بعد بناء الهيكل، قال: "ولكن ما أنا وما شعبي حتّى نستطيع أن نتبرّع هكذا؟ وإنّما كلّ شيءٍ منك، ومن يدك أعطيناك" (٢٩: ١٤). إنّ هذه الكلمات تختتم رسميًّا فعل التّقدمة من جانب الكنيسة. تمامًا كما أنّ الكاهن الّذي هو أداةٌ بيد المسيح وهو "شفتاه"، يُمثّل المسيح حين ينطق بكلمات التّأسيس، فكذلك، هو يُمثّل الكنيسة الجامعة عندما يُقدّم إلى الآب السّماويّ القرابين المقدّسة. إنّ هذه الكلمات تكشف اشتراك الكنيسة في فعل تقدمة الذّبيحة، ودور الكاهن يكمن في أن يُمثّلها. "إنّ العطاء في وليمة الملكوت هذه هو عطاءٌ متبادَل وكلّي: أنا لم أعُد لذاتي بل للّذي أحبّني وبذل ذاته من أجلي. ما هو لي فهو له"[٢٩٦]. نحن لا نملك شيئًا، فنحن له وهو للآب، وسنحيا به كما هو يحيا بالآب.

في اللّه فقط يكمن معنى كلّ شيء وتكمن قيمته الفريدة. لا معنى للعالم إلاّ إذا كان سرَّ الحضرة الإلهيّة. فكلّ الأشياء الّتي نتعامل معها، كأشياء في ذاتها، تقضي على ذاتها لأنّه لا حياة لها إلاّ في اللّه. هذا هو المعنى العميق لتقريبنا ذواتنا وتقدماتنا وكلّ شيءٍ يخصّنا من أجل اللّه وفي اللّه: الحياة، إذ إنّ

---

٢٩٦) المرجع نفسه، ص. ١٧٨.

العالم غير قادرٍ على إعطاء الحياة إلاّ في الظّاهر، بينما الله هو الوحيد القادر على إعطاء الإنسان حياةً جديدةً أبديّة. إنّنا نقدّم العالم وأنفسنا إلى الله. لكنّنا نفعل ذلك في المسيح وتذكارًا له. نفعل ذلك في المسيح لأنّ المسيح سبق فقدّم كلّ ما يمكن تقديمه لله. لقد أدّى المسيح هذه الإفخارستيا مرّةً وإلى الأبد. لم يترك شيئًا إلاّ قدّمه. فيه كانت الحياة، وهذه الحياة، الّتي هي حياتنا جميعًا، قدّمها إلى الله: "وحينما أعطانا جسده ودمه في الإفخارستيّا، وَهَبَنا القوّة والقدرة ومفتاح السّرّ المخفيّ المؤدّي إلى طريق الأقداس لنعبر به من العالم – بالخبز والخمر – بل بالجسد والدّم، إلى السّماء، إلى الله! لقد أعطى لنا بركة الإفخارستيّا الجديدة الّتي تُهيّئنا لا لكي نستوطن الأرض ونحوّل لعنتها إلى بركةٍ كالعهد القديم، بل لأنْ نحصل على وطنٍ أفضل – أي سماويّ – بجسد يسوع المسيح. وفي الإفخارستيّا نقدّم أنفسنا والعالم كلّه لله، في ذبيحة المسيح، ليُحوّل الكلّ ويجمع الكلّ إلى ملكوته"[٢٩٧].

ويُجيب الشّعب:

إيّاك نُسبّح. إيّاك نُبارك. لك نشكر يا ربّ. وإليك نطلب يا إلهنا

إنّها عطاياك، أيّها الله الآب، لقد أعطيتنا الخبز والخمر للحفاظ على حياتنا. فلقد اختار ابنك الوحيد، من كلّ خيراتك الّتي لا تُعدّ ولا تُحصى، الخبز والخمر لكي يُقدّم، تحت هذه الأنواع، جسده ودمه في العشاء السّرّيّ كذبيحة العهد الجديد. وباتّباعنا وصيّته، نُقدّم نحن الآن أيضًا جسد ودم يسوع المسيح كذبيحة شكرٍ على الصّليب، الدّفن، القيامة، الصّعود، الجلوس عن يمين الآب، والمجيء الثّاني إلى العالم. أيّها الآب السّماويّ! نشكرك بعد كلّ هذه النّعم، ونُمجّدك، أنت الكائن الأسمى والكمال الأعظم، وبالأناشيد، نُمجّدك أنت الخالق الكلّيّ الحكمة والقوّة وربّ كلّ الخلائق. نشكرك، يا ربّ، أنت الرّحيم والمُحسن، على تقدمتك ابنك الوحيد، ليكون عربون خلاصنا. من هنا ندرك أنّ جواب الجماعة ما هو إلاّ شكرٌ على ما ورد في صلاة الذّكر، أي، إنّه صلاة شكرٍ متواصلٍ لله على تدبيره الخلاصيّ الّذي حقّقه الابن يسوع المسيح.

---

٢٩٧) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيا***، ص. ٢١٥.

٧) إستدعاء الرّوح القدس (Ἐπίκλησις)

ثمّ يتلو بعدها الكاهن صلاة استدعاء الرّوح القدس، وهي الصّلاة الّتي يضرع بها الكاهن إلى الله أن يُرسل روحه القدّوس ليُحوّل القرابين إلى جسد المسيح ودمه، وليصير المؤمنون الّذين يتناولون منهما قربانًا حيًّا لله:

نُقرّب لكَ أيضًا هذه العبادة الرّوحيّة غير الدّمويّة. ونبتهل ونطلب ونتضرّع. فأرسل روحك القدّوس علينا. وعلى هذه القرابين الحاضرة. واجعل هذا الخبز جسد مسيحك الكريم. وما في هذه الكأس دم مسيحك الكريم. محوّلاً إيّاهما بروحك القدّوس. آمين. آمين. آمين

١. حلول الرّوح القدس على الجماعة الإفخارستيّة

إنّ هذه الصّلاة تتوّج ما كنّا نعدّ له في القدّاس عبر اجتماعنا مع بعضنا وقراءة الإنجيل والرّسالة وإعلان إيماننا ومحبّتنا... وما يميّز هذه الصّلاة هو استدعاء الرّوح القدس "علينا" وعلى القرابين الموضوعة. علينا أن نصير هياكل للرّوح القدس، أي أن يكون "الله الكلّ في الكلّ" (١ كورنثس ١٥: ٢٨). إنّ دعوة الرّوح القدس للحلول على المؤمنين أوّلاً قبل القرابين تؤكّد أنّهم عندما يتغيّرون ويتقدّسون هم أوّلاً يستطيعون أن يستعلنوا بالإيمان المُستنير ظهور الجسد والدّم وحضور المسيح.

إذًا، فرحلة المؤمنين إلى السّماء وهم مزدحمون حول الإفخارستيّا ليست باستعداداتٍ بشريّة، بل باستعداد القلب والفكر لحلول الرّوح القدس عند ندائه للتّغيير والتّقديس حتّى يُظهر الأقداس للقدّيسين ويُستعلَن الجسد بالإيمان ويُرى المسيح حاضرًا في الإفخارستيّا عندما يصرخ الشّعب كلّه بعد حلول الرّوح القدس: "آمين، آمين، آمين" أي "أومن حقًّا". هنا تكون الكنيسة كلّها في حالة استعلان والشّعب في مواجهة المسيح، والمستحقّون للعرس يدخلون، ومائدة الملكوت تكون قد تهيّأت بقدساتها للقدّيسين"[٢٩٨]. وهكذا فالكنيسة، أي الجماعة الإفخارستيّة، هي موضع الولادة الجديدة بالرّوح القدس: "إنّها جسد المسيح ومكان العنصرة، حيث يحلّ الرّوح القدس ويحوّل الخبز والخمر إلى جسد

---

٢٩٨) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٥٠.

المسيح ودمه، **كما يحوّل المؤمنين إلى مُسَحاء آخرين**، ويحوّل الخليقة كلّها إلى هيكلٍ للّه الحيّ"[299]. إنّ طاقة الرّوح القدس إذًا هي أن يُحوّلنا إلى "مسيح"، فيجعلنا "نعكس صورة مجد الربّ بوجوهٍ مكشوفةٍ كما في مرآة، فنتحوّل إلى تلك الصّورة، ونزداد مجدًا على مجد، وهذا من فضل الربّ الّذي هو روح" (١ كورنثس ٣: ١٨).

الكنيسة تصلّي إلى الآب ليُرسل الرّوح القدس فيجعل من حياة المؤمنين تقدمةً حيّةً للّه ويُحوِّلهم إلى صورة المسيح، ويجعلهم يهتمّون بوَحدة الكنيسة ويشتركون في رسالتها بشهادة السِّيرة وخدمة المحبّة. هذا ما يؤكّده القدّيس كيرلّس الاسكندريّ بقوله: "الرّوح يجعلنا صورةً مطابقةً للمسيح، وذلك بقدرته التّقديسيّة. إنّه على وجهٍ ما، صورةُ المسيح مخلّصنا، وهو يطبع فينا المشابَهة الإلهيّة"[300]. هذا الحدث هو قمّة البركة في العهد الجديد. فاللّه نفسه تجلّى في شخص يسوع المسيح، ويسوع المسيح نفسه تجلّى في جسدٍ نورانيٍّ ووجهٍ يلمع كالشّمس، لكي بهذا الجسد الّذي أعطانا إيّاه في سرّ الإفخارستيّا تتجلّى الخليقة فينا وعلى أيدينا، وتتجلّى معها، فيرتسم نور وجه الله علينا تحقيقًا للطّلبة: "فأرسل روحك القدّوس علينا وعلى هذه القرابين"، وندخل إلى حضرة اللّه، ونعيش في ملكوته كعربونٍ لعودتنا إليه يومًا لنحيا معه إلى الأبد. وفقًا لكلّ ما تقدّم نشير إلى أنّ هدف استدعاء الرّوح القدس على المؤمنين يكمن في أن يُصبحوا "كيانًا جديدًا"، على حدّ تعبير القدّيس بولس: "فإذا كان أحدٌ في المسيح، فإنّه خلقٌ جديد. قد زالتِ الأشياء القديمة وها قد جاءت أشياء جديدة" (٢ كورنثس ٥: ١٧). فالرّوح القدس يُحقّق فينا فصح المسيح أي عبوره من هذا العالم إلى حياة الآب. هو لا يخلق من العدم بل **يُحوّل**: إنّه **يؤلّه**: "سيُغيّر هيئة جسدنا الحقير فيجعله على صورة جسده المجيد" (فيلبّي ٣: ٢١).

وهذه هي غاية الإنسان الأخيرة، بحسب اللّاهوت الشّرقيّ، **الاتّحاد باللّه أو التّألُّه**. ولبلوغ الاتّحاد باللّه، بالمقدار الممكن هنا على الأرض، ثمّة حاجةٌ إلى

---

٢٩٩) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة***، ص. ٦.

٣٠٠) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٦٣٥.

جهدٍ متواصلٍ وحرص دائمٍ على أن يصمد كمال الإنسان الدّاخليّ، واتّحاد القلب والذّهن، أمام كلّ هجمات العدوّ وكلّ نزوات الطّبيعة السّاقطة. وهذا لا يمكن بلوغه ما دُمنا خارج إطار الامتلاء من الرّوح القدس. وعليه، "فإنّ الرّوح القدس الّذي، في سرّ التّجسّد، كوّن جسد المسيح في أحشاء مريم العذراء، هو الّذي في الإفخارستيّا يحلّ على القرابين ليجعل منها جسد المسيح ودمه، وهو أيضًا الّذي يحلّ على المؤمنين الّذين يتناولون جسد المخلّص ودمه، ليجعل منهم الكنيسة جسد المسيح"[٣٠١].

وهكذا يتّضح أنّ "الهدف الأخير لهذا التّحوُّل الإفخارستيّ هو اتّحاد البشر بالمسيح لتقديس نفوسهم وأجسادهم. وهذا الاتّحاد لن يتمّ إلاّ بالرّوح القدس. فالرّوح القدس هو الّذي يجعل المؤمن يضطلع بسرّ المسيح الخلاصيّ، ويجعل الّذي يتناول جسد المسيح ودمه يتّحد بكيان المسيح اتّحادًا عضويًّا"[٣٠٢].

٢. حلول الرّوح القدس على القرابين

في هذه الصّلاة نصل إلى أهمّ لحظات القدّاس الإلهيّ وأدقّها حيث سيتحقّق تحويل القرابين إلى جسد المسيح ودمه. فالإستدعاء يقوم في عُمقه على الطّلب إلى الآب أن يُرسل روحه القدّوس على ما نقدّمه إليه، لكي يُحوّل تقدماتنا إلى حقيقة جسد المسيح. وكلمة استدعاء توحي بالفراغ المقدَّم، لا بالملء الّذي به نمتلئ. إنّها تُترجم الأنين الصّارخ، لا الحبّ الصّامت المُجيب. ذلك أنّ المظاهر تبقى قائمةً ما دُمنا باقين في عالم الموت هذا، ولكنّ حقيقة تقدماتنا هي الّتي تغيّرت، لأنّها أصبحت في ملء المسيح. ولقد أكّد الآباء القدّيسون إيمان الكنيسة بفعل كلام المسيح وعمل الرّوح القدس في عمليّة التّحويل هذه، فصرّح القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم بقوله: "ليس الإنسان هو الّذي يحوّل القرابين إلى جسد المسيح ودمه، بل المسيح نفسه الّذي صُلِبَ لأجلنا. الكاهن، صورة المسيح، ينطق بهذه الكلمات ولكنّ بالفعل والنّعمة هما من الله"[٣٠٣].

---

٣٠١) المطران كيرلّس بسترس، ***مقالات في الأخلاق والحياة المسيحيّة***، ص.١٥٨.

٣٠٢) **المرجع نفسه**، ص.١٦١.

٣٠٣) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ١٣٧٥، ص. ٤١٦.

إنّ القدّاس الإلهيّ يُقام على الأرض أي في زمن هذا العالم ومكانه. ومع أنّه يُقام هنا، إلاّ أنّه يتمّ في السّماء في الزّمن الجديد للخليقة الجديدة، أي في زمن الرّوح القدس، ذلك أنّ حلول الرّوح القدس على الكنيسة في اليوم الخمسين، طوى صفحة الزّمن القديم، وافتتح صفحة الزّمن الجديد. **فالقدّاس الإلهيّ من أوّله إلى آخره هو استدعاءٌ للرّوح القدس**، ذلك أنّ هدف الإفخارستيّا ليس تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح فقط، بل الشّركة معه إذ قد صار هو غذاؤنا وحياتنا: هذا هو إعلان الكنيسة جسدًا للمسيح. ولا يستطيع المؤمنون تحقيق هذه الشّركة في حياتهم إلاّ من خلال الإيمان وحده: "أنا أومن أيضًا أنّ هذا هو جسدك الطّاهر وهذا هو دمك الكريم" (من صلاة التّحضير للمناولة).

هذا ما يؤكّده القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ بقوله:

"تتساءلُ كيف يصيرُ الخبزُ جسدَ المسيح، والخمرُ دمَ المسيح؟ أنا أقول لك: إنّ الرّوح القدس يَهبّ بغتةً ويحقّق ما يفوق كلّ كلامٍ وكلّ فكر. وحسبك أن تسمع أنّ هذا من عمل الرّوح القدس، كما أنّ الرّبّ، بذاته وفي ذاته، قد اتّخذ جسدًا من العذراء القدّيسة بقوّة الرّوح القدس"[٣٠٤]. ويُكمل الدّمشقيّ كلامه قائلاً: "إنّ كلّ ما صنعه الله، إنّما صنعه بفعل الرّوح القدس. وهو الآن يعمل كذلك بفعل الرّوح القدس ما هو فوق الطّبيعة، وما لا يُمكن أن يقبلَه إلاّ الإيمان وحده. تقول العذراء القدّيسة: كيف يكون لي هذا، وأنا لا أعرف رجلاً؟ فيجيبها جبرائيل رئيس الملائكة: الرّوح القدس يحلّ عليك، وقدرة العليّ تُظلّلك. وتتساءل أنت الآن: كيف يصير الخبز جسد المسيح، ويصير الخمر دم المسيح؟ وأنا أقول لك: يحلّ الرّوح القدس ويصنع ما يفوق النّطق والعقل "[٣٠٥].

هذا يعني أنّ الأسرار والطّقوس المقدّسة الّتي تتمّ في الكنيسة تحمل مشيئتَين وفعلَين يُمارَسان معًا: "يستدعي الكاهن الرّوح القدس مباركًا الخبز والخمر اللّذَين على المائدة، أمّا السّرّ الإفخارستيّ فالرّوح القدس هو الّذي يُتمّمه.

---

٣٠٤) **المرجع نفسه**، عدد ١١٠٦، ص. ٣٤٤.

٣٠٥) المطران كيرلّس بسترس، ***مقالات في الأخلاق والحياة المسيحيّة***، ص.١٥٧-١٥٨.

يَلفُظ الكاهن المعرِّف كلمات الحلّ، أمّا الخطايا فتغفرها مشيئة الله. يضع الأسقف يدَيه على المرسوم، أمّا النّعمة الكهنوتيّة فيمنحها الرّوح القدس"[٣٠٦].

٣. عَظَمة الكاهن بتواضعه وانسحاقه

في القدّاس الإلهيّ الخاصّ بالقدّيس باسيليوس الكبير تَوَسُّلٌ مليءٌ بالتّواضع والانسحاق وتضرُّعٌ لطلب الغفران من الله القدير، يتلوه الكاهن وهو يقرع صدره نادمًا على جميع خطاياه، يقول:

أذكر يا ربّ حقارتي أنا أيضًا بكثرة رأفتك الغزيرة، واغفر لي كلّ زلّة اقترفتُها، عمدًا أو سهوًا. ولا تمنع، من أجل خطاياي، نعمة روحك القدّوس عن هذه القرابين الموضوعة

يا لها من لحظاتٍ رهيبةٍ يقف فيها الكاهن متأمّلاً بخشوع في سرّ هذه الذّبيحة الإلهيّة، ذلك أنّ إنسانًا مثل الكاهن يقوم بعملٍ ترتعش وترتجف أمامه القوّات السّماويّة الملائكيّة، بتحويل الخبز والخمر إلى جسد الرّبّ ودمه. هذه هي عظمة سرّ الكهنوت المقدّس، أنّ نعمة الرّوح القدس هي الّتي تؤازر ضعف الكاهن جاعلةً منه إناءً مقدّسًا وطاهرًا للاقتراب من المذبح الإلهيّ وتقديس القرابين.

٤. ثمار الاستحالة على الصّعيد الشّخصيّ

ويتابع الكاهن الصّلاة مؤكّدًا أنّ هدف استحالة جسد الرّبّ المقدّس ودمه الطّاهر يُعطي ثمارًا لائقةً على صعيد المسلكيّة الرّوحيّة والكنسيّة والأخلاقيّة تتجسّد في "عفاف النّفس، وغفران الخطايا، وشركة الرّوح القدس، وكمال ملكوت السّماوات". نقدّم القرابين للآب ويحوّلها لجسد ابنه ودمه لكي تتجدّد حياتنا ونتألّه باقتبالنا مصدر الحياة. فالرّوح الّذي يجمع أبناء الله في جسد المسيح الواحد هو عينُه الرّوح الّذي يُحوّلهم إلى شَركةٍ تبدأ الآن على الأرض وتكتمل في الملكوت السّماويّ.

---

٣٠٦) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٥٦.

- **خلاصة**

وعليه، فإنّي أستشهد بالأب ألكسندر شميمن الّذي قال:

"وهكذا فإنّ الرّوح القدس في الإفخارستيّا هو ختمٌ وتثبيتٌ لصعودنا إلى السّماء. يُحوِّل الكنيسة إلى جسد المسيح، إذًا يكشف عناصر قربانا كشركةٍ في الرّوح القدس. هذا هو التّكريس"[٣٠٧].

تُشدِّد صلاة الاستدعاء هذه على دور الرّوح القدس في اللّيتورجيّا الإلهيّة. يقول القدّيس غريغوريوس النّيصيّ:

"إنّ كلّ عملٍ مصنوع من الله يأتي من الآب، عبر الابن ولا يجد اكتماله إلاّ بالرّوح القدس"[٣٠٨].

من هنا يتّضح أنّ الاستدعاء هو نزول جديد للرّوح القدس على القرابين المقدّسة وعلى المؤمنين. فكما كان نزول الرّوح القدس على التّلاميذ في اليوم الخمسين اكتمالاً لتدبير الله الخلاصيّ، كذلك أيضًا مجيء الرّوح القدس أثناء الأنافورا، إذا جاز التّعبير، يُكمِّل الذّبيحة الإفخارستيّة.

٨) الذّكرانيّات الإفخارستيّة: القدّيسون الرّاقدون على الإيمان، العذراء الطّاهرة، الرّاقدون على رجاء القيامة، والسّلطة الكنسيّة

١. القدّيسون الرّاقدون على الإيمان

ثمّ يذكر الكاهن بعدها القدّيسين الرّاقدين الّذين تُوفُّوا على الإيمان:

نُقرِّب لك أيضًا هذه العبادة الرّوحيّة. لأجل الّذين تُوفُّوا على الإيمان: الأجداد. والآباء. ورؤساء الآباء. والأنبياء. والرّسل. والكارزين. والمبشّرين. والشّهداء. والمعترفين. والنّسّاك. وروح كلّ صدّيقٍ تُوُفِّيَ على الإيمان

يؤكّد هذا الذِّكر أنّ الكنيسة المقدّسة لا تعرف فئةً واحدةً من القداسة، بل فئاتٍ متعدِّدةً كما هو مبيَّنٌ أعلاه. يُشير بولس الرّسول في رسائله إلى هذا

---

٣٠٧) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٦٤.

٣٠٨) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.283.

التّنوّع المواهبيّ للقداسة الّذي هو عمل الرّوح القدس وعمل المسيح في آنٍ معًا، قائلاً:

- **١ كورنثس ١٢: ٧-١١**

"لكلّ واحدٍ يوهَب ما يُظهر الرّوح لأجل الخير العامّ. فلأحدهم يوهَب بالرّوح كلام حكمة، وللآخر يوهَب وَفقًا للرّوح نفسه كلام معرفة، ولسواه الإيمان في الرّوح نفسه، وللآخر هِبَة الشّفاء بهذا الرّوح الواحد، ولسواه القدرة على الإتيان بالمعجزات، وللآخر النّبوءة، ولسواه التّمييز ما بين الأرواح، وللآخر التّكلُّم باللّغات، ولسواه ترجمتها".

- **أفسس ٤: ١١-١٢**

"وهو الّذي أعطى بعضًا أن يكونوا رسلاً، وبعضًا أنبياء، وبعضًا مبشّرين، وبعضًا رعاةً ومعلّمين؛ منظّمًا هكذا القدّيسين لأجل عمل الخدمة في سبيل بُنيان جسد المسيح".

استنادًا إلى ما جاء في هذين النّصّين الرّسائليّين من بولس الرّسول نؤكّد أنّ حضور القدّيسين في الحياة الكنسيّة هو أمرٌ في غاية الأهميّة، بحيث إنّ الكنيسة المقدّسة لا تنأى تذكر أولئك الّذين كان المسيح حيًّا فيهم؛ أولئك الّذين التهبت قلوبهم بالعشق الإلهيّ، الّذي من خلاله حقّقوا ما يُستحيل تحقيقه.

إنّهم القدّيسون الّذين عاشوا ملكوت الله على الأرض، ودخلوا إلى حياة المسيح القياميّة. إنّ الكنيسة تكرّم هؤلاء الّذين عاشوا سرّ التّبنّي أي تصرّفوا كأبناءٍ لله. نحتفل بهؤلاء الّذين وصلوا إلى أعلى الدّرجات ووصلوا إلى قمّة فرح القيامة، وأعطوا بذلك شهادةً سلاميّةً منعكسةً من داخلهم نحو العالم أجمع من حولهم، ذلك أنّ القداسة هي ملء الحياة بالمسيح، هي العيش المشترك بين الله والإنسان. فلقد تميّز كلّ هؤلاء بالحياة المسيحيّة المثاليّة والفاضلة، وبالحفاظ والدّفاع والشّهادة طيلة حياتهم بالقول والفعل عن الإيمان القويم والعقيدة الكنسيّة الصّحيحة، وحتّى التّضحية بالذّات من خلال الاستشهاد في سبيل الإيمان بالمسيح...

وعليه نقول إنّ القدّيسين يشكّلون التّعليق الأهمّ على الإنجيل، وهم تجسيدٌ للإنجيل في الحياة اليوميّة، بحيث إنّ كلًّا منهم يعكس، بطريقته الخاصّة، نور قداسة الله: إنّهم طيف النّور الإلهيّ، وزهرة الرّبيع الجديدة في الكنيسة والعالم. إنّهم، بالتّالي، الّذين فضّلوا عار المسيح على جميع كنوز العالم، فصحّ بهم قول بولس الرّسول: "بالإيمان موسى، لمّا كبر، أبى أن يُدعى ابنًا لابنةٍ لفرعون، واختار المشقّة مع شعب الله على التّمتّع الوقتيّ بلذّة الخطيئة، عادًّا عار المسيح ثروةً أعظم من كنوز مصر، لأنّه كان ينظر إلى الثّواب" (عبرانيّين ١١: ٢٤-٢٦). هذا هو الأساس الّذي جعل القدّيسين على مختلف فئاتهم يتركون العالم وما فيه من مغرياتٍ وطيّباتٍ من أجل الإيمان بيسوع المسيح، الّذي وعد كلّ أتباعه وعدًا إلهيًّا في الإنجيل المقدّس، بأنّهم سينالون مئة ضعفٍ ويرثون الحياة الأبديّة (متّى ١٩: ٢٩).

٢. مريم المرأة الإفخارستيّة

يستأنف الكاهن شكره لله على النّعم الغزيرة الّتي منحنا إيّاها عبر الأنبياء والرّسل والقدّيسين، كما نشكره "خصوصًا من أجل والدة الإله..."، إذ إنّ الكنيسة تحتفل باللّيتورجيّا الإلهيّة متّحدةً بالعذراء مريم الفائقة القداسة ومنوّهةً بذكرها، لأنّه كما عند أقدام الصّليب، كذلك في الإفخارستيّا، تتّحد الكنيسة مع مريم، في تقدمة المسيح وشفاعته. "فوالدة الإله هي حاضرةٌ دائمًا، هي **كنيسة زيارة الله للبشر**"[٣٠٩]. ثمّ يُرنّم الكاهن هذا الذّكر بصوتٍ عالٍ ليُظهر، على وجه التّحديد، أسبقيّة والدة الإله مريم وتفوّقها بين جميع القدّيسين، ذلك أنّها "باكورةُ الكنيسة الممجّدة"[٣١٠]، على حدّ تعبير القدّيس غريغوريوس بالاماس؛ بينما، حين يتلو الكاهن الذّكرانيّات الأخرى، فإنّه يتلوها في نفسه، وليس على مسامع المؤمنين. كما ويقوم الكاهن بالتّبخير أثناء إعلانه ذكر العذراء الطّاهرة، رمزًا إلى إجلالها وتكريمها:

> خصوصًا سيّدتنا الكاملة القداسة الطّاهرة، الفائقة البركات المجيدة، والدة الإله الدّائمة البتوليّة مريم

---

٣٠٩) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، ص. ٣٠٠.

٣١٠) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص.١٦٢.

فيُرنِّم الخورس بهذا النّشيد المريميّ الرّائع، الّذي يُبيِّن أسباب تكريمنا وإجلالنا لهذه الأمّ العظيمة، أمّ الله الكلمة وأمّ الكنيسة المقدّسة، جسد المسيح السّرّيّ؛ وفي هذا النّشيد أيضًا اعترافٌ كنسيٌّ من قِبَل المؤمنين ببتوليّة مريم الدّائمة قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة:

إنّه واجبٌ حقًّا أن نُغبِّطك، يا والدة الإله الدّائمة الغبطة، والمنزّهة عن كلّ عيبٍ، وأمّ إلهنا. يا مَن هي أكرم من الشّيروبيم، وأمجد بلا قياسٍ من السّيرافيم. يا مَن وَلَدَتِ الله الكلمة ولَبِثت بتولاً. إنّك حقًّا والدة الإله، إيّاكِ نُعظّم

حَظِيَت مريم العذراء بمكانةٍ مرموقةٍ في حياة الكنيسة العقائديّة، واللّيتورجيّة والرّعويّة، وذلك كلّه ناتجٌ من تأمّلات الكنيسة بأحداثٍ خلاصيّةٍ تمّت في الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد. نستطيع القول إذن إنّ إيمان الكنيسة وعقيدتها حول هذه الشّخصيّة الأنثويّة الّتي لعبت دورًا أساسيًّا في وضع تدبير الله الخلاصيّ موضع التّنفيد والتّطبيق. انطلاقًا من هذا الدّور الخلاصيّ، تغنّت الكنيسة بأمجاد مريم الّتي أعلنت بعد بشارتها من قِبَل الملاك جبرائيل وقبولها الإراديّ لمشيئة الله في حياتها وعند زيارتها لنسيبتها أليصابات أنّ الله "نظر إلى أمَتِه الوضيعة. سوف تُهنّئني بعد اليوم جميع الأجيال" (لوقا ١: ٤٨) وذلك لأنّ "القدير صنع إليّ أمورًا عظيمة" (لوقا ١: ٤٩).

فلقد تغنّى الملاك المُرسَل من قِبَل الله بهذه العذراء، فقال لها وهو في حالةٍ من الذّهول والدّهشة: "إفرحي، أيّتها الممتلئة نعمةً، الرّبّ معك" (لوقا ١: ٢٨)؛ وصنعت مثله أيضًا أليصابات والدة المعمدان الّتي ما إنْ سمعت صوت سلام مريم حتّى امتلأت من الرّوح القدس، "فهتفت بأعلى صوتها: مباركةٌ أنت في النّساء! ومباركةٌ ثمرةُ بطنكِ! من أين لي أن تأتيني أمُّ ربّي؟ (لوقا ١: ٤٢-٤٣). وفي سياقٍ متّصلٍ، أعلن البابا يوحنّا بولس الثّاني في رسالةٍ بابويّةٍ عن الإفخارستيّا، قائلاً:

"طوبى للّتي آمنت" (لوقا ١: ٤٥)؛ في سرّ التّجسّد، استبقت مريم إيمان الكنيسة الإفخارستيّ. ففي أثناء الزّيارة إلى أليصابات، عندما حملت في حشاها الكلمة المتجسّد أصبحت، نوعًا ما، "خباءً" (بيت قربان) – أوّل بيت قربانٍ في التّاريخ – فيه قُدّم ابن الله، الّذي لم تره بعد أعين البشر،

لتعبده أليصابات، كأنّ نوره "يشعّ" عبر عينَي مريم وصوتها. ونَظَرُ مريم المفعم بالإعجاب، وهي تتأمّل وجه المسيح المولود للتوّ والّذي تضمّه بين ذراعيها، أليس مثالاً للحبّ اللّامتناهيّ الّذي يجب أن يُلهم كلاً من مناولاتنا الإفخارستيّة؟"[٣١١].

إنّ أمجاد مريم ليست من صُنع بشريٍّ أو من بلاغةٍ خطابيّةٍ عند بعض آباء الكنيسة، إنّما هي أمجادٌ مُستقاةٌ من الكتاب المقدّس الّذي تنبّأ عن أنّ المسيح المخلّص سيأتي عندما يحين ملء الزمان من امرأةٍ ليفتدي الّذين تحت النّاموس ويمنحهم الحياة الحقيقيّة الأبديّة. وبالفعل، فقد كرّمت الكنيسة وأبناؤها هذه العذراء الأرحب من السّموات الّتي حملت في أحشائها مَن لا يسعه مكان، في كلّ احتفالٍ ليتورجيّ، إيمانًا منها بأنّ دور العذراء لم ينته عند ولادتها المخلّص بل سيستمرّ إلى أن نبلغ الملكوت المُنتَظر، إذ إنّ مريم هي الأمّ الرّوحيّة لجميع المؤمنين باسم ابن الله يسوع المسيح، وهذه الأمومة لا تتوقّف بل تستمر في حياة أبنائها، توجّههم وتؤازرهم وتُرشدهم وتقودهم إلى المخلّص الإلهيّ لا إلى نفسها.

بناءً على ذلك، كرّمت الكنائس الشّرقيّة منذ القِدم العذراء مريم في الطّقوس الكنسيّة والصّلوات اللّيتورجيّة، والآباء الشرقيّون يشيدون بقداسة العذراء مريم، حيث يقول **القدّيس أفرام السريانيّ** (+٣٧٣) أنّ العذراء مريم هي التّابوت المقدّس، والمرأة الّتي سحقت رأس إبليس، والطّاهرة وحدها نفسًا وجسدًا، والكاملة القداسة، وإذ يقابل بينها وبين حوّاء، يقول:

> "كلتاهما بريئتان، وكلتاهما قد صُنِعتا متشابهتَين من كلّ وجه، ولكنّ إحداهما صارت من بعد سبب موتنا والأخرى سبب حياتنا"، وأيضًا: "في الحقيقة، أنت، يا ربّ، وأمّك جميلان وحدكما من كلّ وجهٍ وعلى كلّ صعيد، إذ ليس فيك، يا ربّ، ولا وصمة، وليس في أمّك دنس ما البتة".

---

٣١١) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ٥٥.

ويُعلن القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ (+ ٧٤٩) قائلاً:

"إنّ مريم قدّيسةٌ طاهرة إذ إنّها حرصت على نقاوة النّفس والجسد كما يليق بمَن كانت مُعدّة لتتقبّل الله في أحشائها. واعتصامها بالقداسة مكنّها أن تصير هيكلاً مقدّسًا رائعًا جديرًا بالله العليّ". ومريم طاهرةٌ منذ الحبل بها: "يا لَغبطة يواكيم الّذي ألقى زرعًا طاهرًا! ويا لَعظمة حنّة الّتي نمت في أحشائها شيئًا فشيئًا ابنةً كاملة القداسة".

لذا، فإنّنا نقول إنّ مَن يُكرّم أمّ المسيح، يُكرّم المسيح نفسَه. وإنّ إكرام الأمّ لهو وصيّةٌ إلهيّةٌ نجدها في الوصايا العشر الّتي أعطاها الله لموسى: "أكرم أباك وأمّك، لكي تطول أيّامُكَ في الأرض الّتي يُعطيك الرّبّ إلهك إيّاها" (خروج ٢٠: ١٢؛ تثنية ٥: ١٦)، وجاء بولس الرسول ليؤكّد أيضًا هذه الوصيّة، فقال: "أكرم أباك وأمّك، تلك أولى وصيّةٍ يرتبط بها وعدٌ وهو: لتنال السّعادة ويطول عمرُكَ في الأرض" (أفسس ٦: ٢).

فالكنيسة لا تعبد العذراء لأنّ العبادة هي لله وحده، ولكنّها تقوم بواجب تكريم أمّ المخلّص الّتي لولا طاعتها وخضوعها لَما تحقّق الوعد الإلهيّ بالخلاص (راجع تكوين ٣: ١٥)، إذ إنّ رغبة الله الخلاصيّة كانت ستبقى مجرّد رغبةٍ نظريّة عاجزةٍ عن التّطبيق والتّنفيذ.

٣. الرّاقدون على رجاء القيامة

واذكر جميع الّذين سبقوا فرقدوا على رجاء القيامة للحياة الأبديّة (ويذكر مَن يشاء من الرّاقدين). وأرحهم حيث يُشرف نور وجهك.

تشير الكنيسة البيزنطيّة في صلواتها الى الموت "كرقاد"، لأنّها تؤمن "بالوجود الشّخصيّ بعد الموت"، وهي ترجو لجميع الرّاقدين النّهوض (القيامة من بين الأموات) عندما يبزغ النّهار "الّذي لا يعروه مساء"، وفي ما تَذْكُرهم في كلّ ذبيحة إلهيّة، تتضرّع الى الله الآب أن يرحمهم: "حيث يُشرف نور وجهك". إنّ الذّبيحة الإفخارستيّة تُقرّب من أجل الموتى المؤمنين الّذين رقدوا في المسيح ولم يحظَوا بعد بملء الطّهارة ليستطيعوا الولوج في نور المسيح وسلامه. وتذكر الكنيسة الرّاقدين في صلواتها وطقوسها لتأكيد فكرة القيامة أيضًا: إعلان

الايمان بالقيامة، حتّى لا يظنّ النّاس أنّه لا قيامة بعد الموت. فالرّاقد على رجاء القيامة هو أيضًا عضوٌ في الكنيسة، جسد المسيح السّرّيّ، إذ إنّ "ذكر الصدّيق يدوم إلى الأبد" (مزمور ١١١: ٧). وأخيرًا، تذكر الكنيسة الرّاقدين لأجل تعزية الأحياء الّذين يتألّمون لانتقال الأحبّاء وطلب الصّبر لهم.

تجد الصّلاة من أجل الأموات صدًى كتابيًّا لها في سفر المكابيّين الثّاني، تحت عنوان "الذّبيحة على الأموات"، يقول: "لأنّه [يهوذا الباسل] لو لم يكن يرجو قيامة الّذين سقطوا، لكانت صلاته من أجل الموتى أمرًا سخيفًا لا طائل تحته. وإن عَدَّ أنّ الّذين رقدوا بالتّقوى قد اُدُّخر لهم ثوابٌ جميل، كان في هذا فكرٌ مقدّسٌ تَقَويّ. ولهذا قدّم ذبيحة التّكفير عن الأموات، ليُحلُّوا من الخطيئة" (١٢: ٤٤-٤٥). إنّ هذه الآيات لهي دليلٌ ساطعٌ على أنّ صلاتنا لأجلهم من شأنها أن تُساعدهم وتجعل شفاعتنا فيهم مُستجابةً عند الله. "إنّ الموت انفصالٌ ولكنّه ليس في الحقيقة انفصالاً. ذلك أنّ الأحياء والأموات ينتمون إلى عائلةٍ واحدة. وهُوّة الموت لا يستحيل اجتيازها، ما دُمنا نستطيع أن نلتقيَ معًا حول المذبح"[٣١٢].

وفي هذا الاتّجاه كتبت المؤلّفة الرّوسيّة يوليا دي بوسوبر (١٨٩٣-١٩٧٧) أنّ "الكنيسة هي نقطة التقاء الأموات والأحياء والّذين لم يولدوا بعد، الّذين بمحبّتهم بعضهم لبعضٍ يجتمعون حول صخرة المذبح ليُعلنوا حبّهم لله"[٣١٣]. وبالتّالي، فإنّ الأساس المقبول والوحيد لشركتنا مع الأموات هو الشركة في الصّلاة وخاصّةً في القدّاس الإلهيّ. فنصلّي من أجلهم ونحن على ثقةٍ، في الوقت ذاته، أنّهم يتضرّعون من أجلنا؛ وبهذه الشّفاعة المتبادِلة نجتمع معًا متخطّين حدود الموت في رباط الوَحدة الوثيق الّذي لا يعروه فساد. يقول رئيس الأساقفة الأنجليكانيّ وليام تامبل: "نحن لا نُصلّي من أجلهم [الرّاقدين] مخافة أن يُهملهم الله إذا لم نَقُم بذلك، بل إنّنا نصلّي لهم لأنّنا نعلم أنّه يُحبّهم ويعتني بهم، ولذلك نحن نطلب في هذه الطّلبة الخاصّة أن تتّحد محبّتنا لهم بمحبّة الله لهم"[٣١٤].

---

٣١٢) كاليستوس وير، ***الملكوت الدّاخليّ***، ص. ٣٧.

٣١٣) **المرجع نفسه**، ص. ٣٧.

٣١٤) **المرجع نفسه**، ص. ٤١.

وعليه نقول إنّ الموت الأرضيّ أي انفصال النّفس عن الجسد، لا يقطع الرابط بين المؤمنين ولا يفرّق ولا يَفصُل بين الأعضاء المشتركين في المسيح ولا يُقصي الميت من حدود الكنيسة وبُنيتها. في الصّلاة من أجل الرّاقدين وفي قانون الدّفن، نحن نصلّي للمسيح "ملكنا وإلهنا الّذي لا يموت" أن يُرسل نفوس الرّاقدين إلى مساكن القدّيسين، "إلى مساكن الصدّيقين"، "إلى أحضان إبراهيم" حيث يستريح جميع الأبرار. وبدلالةٍ بالغةٍ خاصّةٍ في صلوات الانفصال هذه، نتذكّر ونستدعي محفل الأبرار ووالدة الإله وقوّات السّماوات والشّهداء القدّيسين وجميع القدّيسين كما نستدعي مواطنينا الّذين هم في السّماء إلى الكنيسة. إنّه من غير الممكن أن يُفصَل المؤمنون الّذين بلغوا إلى وَحدةٍ حقيقيّةٍ مع المسيح نفسه في جهادهم وفي "الأسرار" المُخلِّصَة بالموت. "طوبى للرّاقدين في الرّبّ- نفوسهم في الخيرات تسكن". فالصّلوات من أجل الرّاقدين هي شاهدٌ ومعيارٌ لوعي الكنيسة الجامع.

وفي أثناء قراءتي لسيرة حياة القدّيس أفرام السّريانيّ (٣٠٦-٣٧٣)، أدهشني ما طلبه هذا الأخير في وصيّته الأخيرة:

"ثلاثين يومًا بعد وفاتي تُقدّمون الذّبيحة المقدّسة من أجلي، لأنّ الأموات تُفيدهم الذّبائح الّتي يُقدّمها الأحياء"[٣١٥].

إنّه إيمانٌ عميقٌ بقدرة سرّ الإفخارستيّا على خلاص المؤمنين. وهكذا، فإنّ السّبب الّذي تدعو الكنيسة فيه أعضاءها إلى الصّلاة من أجل الرّاقدين ما هو إلاّ تعبيرٌ جوهريٌّ عن الكنيسة كمحبّة، حيث إنّنا نطلب من الله أن يذكر الّذين نذكرهم، ونحن نذكرهم لأنّنا نحبّهم. وإذ نصلّي من أجلهم فنحن نلقاهم في المسيح الّذي هو محبّة، والّذي بما أنّه محبّة يغلب الموت الّذي هو ذروة الانفصال واللّامحبّة. في المسيح لا فرق بين الأحياء والأموات لأنّ الجميع هم أحياءٌ فيه. إنّه الحياة وهذه الحياة هي نور النّاس. وإذ نُحِبّ المسيح، فنحن نُحِبّ جميع الّذين فيه، وإذ نُحِبّ الّذين فيه، فنحن بالتّالي نُحِبّ المسيح. هذا هو أساس صلاة الكنيسة من أجل الرّاقدين على رجاء القيامة: المسيح المحبّة.

---

٣١٥) *تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة*، ص. ٥٦٤.

٤. السّلطة الكنسيّة

أ. روح السّلطة في المسيحيّة روحُ خدمة

إنّ السّلطة وكما أرادها المعلّم الإلهيّ يجب أن تكون سلطة خدمة نابعة من قلبٍ مؤمن وصادق، وتواضع منسحق، وعطاءٍ مجّانيٍّ دون شروطٍ أو مقابل، وخروج من الذّات في سبيل الآخرين عامّة والمؤتمنين على رعاية شؤونهم الرّوحيّة خاصّة. إنّها، تاليًا، شهادةٌ حيّة على فهمنا لشخصيّة المسيح الّذي أعلن لتلاميذه بعد طلب يعقوب ويوحنّا ابنَي زبدى "أن يجلس أحدُنا عن يمينك، والآخرُ عن شِمالك في مجدك" (مرقس ١٠: ٣٧)، قائلاً: "تعلمون أنّ الّذين يُعدُّون رؤساء الأمم يسودونها، وأنّ أكابرها يتسلّطون عليها. فليس الأمر فيكم كذلك، بل مَن أراد أن يكون كبيرًا فيكم، فليكن لكم خادمًا. ومَن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لأجمعكم عبدًا. لأنّ ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدُم ويفدي بنفسه جماعة النّاس" (مرقس ١٠: ٤٢-٤٥). كيف لا ونحن ما زلنا نتأمّل خاشعين وصامتين حتّى يومنا الحاضر في ما صنع يسوع نفسه عندما غسل أرجل تلاميذه، قائلاً لهم: "إذا كنتُ أنا الرّبَّ والمعلّم قد غسلتُ أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضًا أن يغسل بعضُكم أقدام بعض. فقد جعلتُ لكم من نفسي قُدوةً لتصنعوا أنتم أيضًا ما صنعتُ إليكم" (يوحنّا ١٣: ١٤-١٥).

استنادًا إلى هذه النّصوص الإنجيليّة نُحدِّد "الطّبيعة نفسها للسّلطة الكنسيّة: إنّها مشارَكة في رسالة المسيح، يجب أن تُعاش وتمارس في التّواضع ومع تضحيّة وبروح الخدمة. إنّ تعزيز سلطان الأسقف لا يعني أن تُعطى أهميّة لِما هو خارجيّ، بل أن يُتعمَّق في المعنى اللّاهوتيّ والرّوحيّ والخلقيّ لخدمته، المرتكز على موهبة الرّسوليّة... وفيما يتذكّر كلماتِ يسوع تلك (المذكورة أعلاه)، يسوس الأسقف بقلب الخادم الوديع والرّاعي المملوءِ حبًّا، الّذي يقود قطيعه وهو يَنشد مجدَ الله وخلاصَ النّفوس (راجع لوقا ٢٢: ٢٦-٢٧). إنّ إسلوب إدارة الأسقف، إذا ما عاشها على هذا النّحو، تبدو حقيقةً فريدةً في العالم"[٣١٦].

---

٣١٦) البابا يوحنّا بولس الثّاني، *إرشاد رسوليّ: رعاة القطيع*، عدد ٤٣، ص. ٣٣.

ب. مفهوم السّلطة في القانون الكنسيّ

ثمّ يذكر الكاهن السّلطة الكنسيّة ممثّلة بالحبر الرومانيّ بابا روما، وهو رأس الكنيسة الجامعة؛ إنّه وبحسب مجموعة قوانين الكنائس الشّرقيّة "رأسُ جماعة الأساقفة، ونائب المسيح، وراعي الكنيسة جمعاءَ على هذه الأرض"[٣١٧]؛ والبطريرك (كلمة يونانيّة تعني"أب"): "هو أسقفٌ له سلطانٌ على جميع الأساقفة... وعلى المؤمنين الآخَرين من الكنيسة الّتي يرئسُها"[٣١٨]؛ ورئيس الكهنة مطران الأبرشية، هو رأس الكنيسة المحليّة: "الأبرشيّة هي جزءٌ من شعب الله يُعهَد برعايته إلى أسقفٍ يعاونه كهنةٌ بحيث يؤلّف بالتآمه مع راعيه، الّذي يجمعه الرّوح القدس، بالإنجيل والإفخارستيّا، كنيسةً خاصّةً تكون فيها وتعمل على وجهٍ صحيح كنيسةُ المسيح الواحدة المقدّسة الجامعة الرّسوليّة"[٣١٩]؛ "إنّه يسوسُها كنائبٍ ومندوبٍ للمسيح"[٣٢٠]. وبالتّالي، يجب على الأسقف أن يقتَنِ شخصيًّا النّعمة الإلهيّة وأن يكون ذهنه مستنيرًا بالرّوح القدس، ليتصرّف بموجب السّلطان الإلهيّ، بعيدًا عن التّصرّف وَفقًا لدوافعَ بشريّةٍ محضة؛ ويجب ألاّ يتعارض أيضًا تصرّف الأسقف في إدارة شؤون أبرشيّته مع القوانين، أي مع مشيئة الكنيسة.

يطلب الكاهن من الله أن يبقَوا حافظين كلمة الله الّتي هي الحقّ والحياة ومعلّمين لها. إنّ هذا الذِكر يُعبّر عن احترام السّلطة الكنسيّة كسلطةٍ لم تأتِ من تلقاء نفسها، بل أُعطيت أن تسوس الكنيسة الأرضيّة بأمرٍ إلهيٍّ. فالحَبر الرّومانيّ هو رأس الكنيسة الجامعة؛ والبطريرك هو رأس الكنيسة البطريركيّة؛ والأسقف بدوره رأس الكنيسة المحليّة. يقول القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ في معرض كلامه عن التّراتبيّة في السّلطة الكنسيّة: "علينا أن ننظر إلى الأسقف نظرنا إلى السَّيِّد"، وكتب في الطّاعة يقول: "طيعوا الأسقف طاعة يسوع المسيح للآب"[٣٢١]. ويؤكّد البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس

٣١٧) ***مجموعة قوانين الكنائس الشّرقيّة***، ق.٤٣، ص. ٤٠.

٣١٨) **المرجع نفسه**، ق.٥٦، ص. ٤٨.

٣١٩) **المرجع نفسه**، ق.١٧٧، بند١، ص. ١١٤.

٣٢٠) **المرجع نفسه**، ق.١٧٨، ص. ١١٤.

٣٢١) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ١٣٣.

الثّاني في رسالته عن الإفخارستيّا، هذه الحقيقة الإكليزيولوجيّة (الكنسيّة) في معرض كلامه عن الشّركة الكنسيّة بين السّلطة الكنسيّة والجماعة الإفخارستيّة، قائلاً:

"إنّ شركة الجماعة الإفخارستيّة الكنسيّة هي شركةٌ مع أسقفها ومع الحبر الرّومانيّ. لأنّ الأسقف هو مبدأ الوَحدة الظّاهرة وأساسها في كنيسته الخاصّة. إذًا، إنّه من غير المنطقيّ كلّيًّا أن يُحتفل بالسّرّ الأمثل لوحدة الكنيسة بدون شركةٍ حقيقيّةٍ مع الأسقف. ولقد كتب في ذلك أغناطيوس الأنطاكيّ: "لتُعتبر وحدها شرعيّةً تلك الإفخارستيّا الّتي يُحتفل بها برئاسة الأسقف أو برئاسة من عهد إليه بذلك". وبالطّريقة عينها، بما أنّ الحبر الرّومانيّ، بصفة كونه خليفة بطرس، هو المبدأ الدّائم المنظور والأساس للوحدة الّتي تربط الأساقفة، وتربط بين جمهور المؤمنين، فالشّركة معه هي متطلّبٌ جوهريٌّ للاحتفال بالذّبيحة الإفخارستيّة"[٣٢٢].

٩) خاتمة الأنافورا

وأعطنا أن نُمجّد ونسبّح. بفمٍ واحدٍ وقلبٍ واحد. اسمك الجدير بكلّ كرامةٍ والعظيم الجلال. أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

ممّا لا شكّ فيه أنّ أصل هذه الكلمات موجودٌ في وصيّة بولس الرّسول القائل: "ومهما فعلتم، فافعلوا كلّ شيءٍ لمجد الله" (١ كورنثس ١٠: ٣١). إنّه لَمِنَ الطّبيعيّ، تاليًا، أن يختتم المسيحيّون الذّبيحة الإفخارستيّة بتمجيد الله وتسبيح اسمه القدّوس "بفمٍ واحدٍ وقلبٍ واحد". فبعد أن اتّحدت نفوس المؤمنين جميعها في الله بقبلة السّلام والمحبّة والمصالحة، أصبحوا يؤلّفون معًا، على حدّ تعبير بولس الرّسول، "رأيًا واحدًا ومحبّةً واحدةً وقلبًا واحدًا وفكرًا واحدًا" (فيلبّي ٢: ٢). إنّها من أعظم الثّمار الرّوحيّة الّتي يقتنيها المؤمنون باشتراكهم في الذّبيحة الإفخارستيّة، أن يكونوا "جماعةً واحدةً" (أعمال ٢: ٤٤) في الإيمان بيسوع المسيح، حمل الله الذّبيح.

---

٣٢٢) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ٣٩.

ثمّ يُعلن الكاهن:

ولتكن مراحم إلهنا العظيم. ومخلّصنا يسوع المسيح. مع جميعكم

تُجيبه الجماعة:

ومع روحك

تُشكّل هذه الكلمات دليلاً قاطعًا على أنّ الذّبيحة الإفخارستيّة ليست فقط "ذبيحة تسبيح"، بل إنّما أيضًا "رحمة سلام". إنّ موضوع الذّبيحة الإفخارستيّة يكمن في كشف رحمة الله الّتي ظهرت بوضوح تامٍّ في محبّة الله الآب الّذي أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لخلاصه من الهلاك. إنّ الذّبيحة الإفخارستيّة هي إذًا تذكارٌ لتدبير الله الخلاصيّ.

وبالتّالي، إلى هذه الصّلوات الختاميّة للأنافورا، تلتقي كلّ غايات الذّبيحة الإفخارستيّة، الّتي تُسمّى "**ثمار الذّبيحة**".

فالذّبيحة الإفخارستيّة هي:

- ذبيحة تسبيح.
- ذبيحة شكر.
- مصالحة.
- التماس وطلب.

هنا، حمل الله نفسه يُسبّح، ويشكر، ويُصلّي معنا. إنّه يُقدّم نفسه للذّبح على المائدة المقدّسة "كرحمة سلامٍ" و"ذبيحة تسبيح".

الباب الرّابع

طقس المناولة المقدّسة

(القسم الثّالث من ليتورجيّا المؤمنين)

مقدّمة

يُشكّل طقس المناولة المقدّسة القسم الأخير من ليتورجيّا المؤمنين، إذ إنّ المناولة المقدّسة هي الاكتمال الطّبيعيّ للذّبيحة الإفخارستيّة؛ إنّها، وفقًا لعقيدة الكنيسة، مصدر النّعمة والحياة الإلهيّة؛ من خلالها يتقبّل المؤمن جسد المسيح ودمه، وبذلك يُصبح مشاركًا في الحياة الإلهيّة؛ إنّها أيضًا غذاء النّفس، المنّ السّماويّ الّذي يدعم حياتنا الرّوحيّة؛ إنّها منبع الحياة الفائقة الطّبيعة.

تُقسَم بُنية طقس المناولة المقدّسة إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة هي:

١) الاستعداد للمناولة المقدّسة.

٢) طقس المناولة المقدّسة.

٣) صلوات الشّكر الّتي تلي المناولة المقدّسة.

١) الاستعداد للمناولة المقدّسة

١. طلبة الاستعداد للمناولة

بعد أن ذكرنا جميع القدّيسين. أيضًا وأيضًا بسلامٍ إلى الرّبّ نطلب

تتّصل هذه الطّلبة بشكلٍ مباشرٍ بالذّكرانيّات الخاصّة بالأنافورا، الّتي فيها تذكارٌ عامٌّ لكلّ القدّيسين.

لأجل هذه القرابين الكريمة المقدّمة والمقدّسة. إلى الرّبّ نطلب

إنّ الموضوع الأساس لهذه الطّلبة لا يكمن في تقديس القرابين الّتي قد قُدِّسَت فعلاً قبلاً حين استدعاء الرّوح القدس عليها، بل يكمن في **تقديس المؤمنين أنفسهم بواسطة هذه القرابين المقدّسة**، ذلك أنّ للّيتورجيّا الإلهيّة غايتين أساسيّتين هما:

- تقديس القرابين الإفخارستيّة.
- تقديس المؤمنين من خلال المناولة المقدّسة.

حتّى إنّ إلهنا المحبّ البشر. الّذي قبلها على مذبحه المقدّس السّماويّ العقليّ. رائحة طيبٍ روحيّ. يُسبغ علينا عِوَضًا منها النّعمة الإلهيّة. وموهبة الرّوح القدس. نطلب

في هذه اللّحظة بالذّات، يقبل الله القرابين المقدّسة على أنّها الذّبيحة غير الدّمويّة للعهد الجديد. إنّها ذبيحةٌ مرضيّةٌ لديه، لأنّ الكاهن المقرِّب والضّحيّة المقرَّبة هو ابنه الوحيد، الإله-الإنسان، يسوع المسيح. تقارن اللّيتورجيّا قبول الله للذّبيحة غير الدّمويّة بعبير البخور. فكما أنّ الرّائحة العَطِرَة والطّيّبة للبخور حسنة القبول والإرضاء بشكلٍ طبيعيٍّ بالنّسبة لنا، كذلك أيضًا الذّبيحة غير الدّمويّة، من حيث طبيعتها، تُعطي مجدًا لامتناهيًا للآب السّماويّ، ومصالحةً كاملةً للإنسان مع الله.

ثُبيّن هذه الطّلبة أيضًا أنّ ثمار القرابين الّتي قبلها الله وقدّسها هي النّعمة الإلهيّة ومواهب الرّوح القدس الّتي نتلقّاها في المناولة المقدّسة كمصدرٍ لنعمته وتقديسنا.

نجد في الكتاب المقدّس تقدمة ذبائحَ وقرابين منذ بدءِ الكيان البشريّ، مع ذبائح قايين وهابيل. فمن خلالها ينفتح الإنسان على ملاقاة الله؛ لكن، كي تكون الذّبيحة مرضيَّة، يجب على الإنسان التحلّي بقلبٍ طاهرٍ وضميرٍ نقيّ، وفقًا للقاعدة الّتي تشمل كلّ التّدبير الخلاصيّ. ويأخذ ذلك الشّرط ملئَه الكامل في العهد الجديد، عندما يقدّم المسيح "في الحقّ" عبادةً وذبيحةً يرضيان الله، وعندما، باسمه، يكرّر الرّسلُ والكنيسةُ عَمله. الجلجلة هي الينبوعُ الوحيد وقمّةُ الذّبيحة الّتي تظهر للعيان في التّقدمة الإفخارستيّة فتغذّي المؤمنين على الدّوام. ويعبَّر أيضًا عن هذا الوضع، تحت أشكالٍ مختلفة، بأصدق التّعابير وإن كانت بسيطة. تحتلّ تقدمة البخور مكانةً مرموقة، بالأخصّ في الكنائس الشّرقيّة؛ فهي تعود بأصولها إلى طقوس العهد القديم، مع استنادٍ خاصّ إلى المزمور ١٤٠: ٢: "لترتفع صلاتي كالبخور أمامك، وليكن رفعُ يديَّ ذبيحةً مسائيّة".

مثل هذه العادات الطّقسيّة يُحافَظ عليها في اللّيتورجيّا المسيحيّة؛ إذ إنّه كما تحافظ الكنيسة على العهد القديم فتقرأه على ضوء إنجيل المسيح، كذلك، بالرّوح عينه، تعود إلى حركاتٍ وطقوسٍ من العهد القديم الّتي تجد ملءَ معناها في الرّبّ يسوع. وقد سبق الرّسول بولس وأشار إلى قيمة البخور الرّمزيّة عندما شرح للأفسسيّين أنّ المسيح "قدّم نفسه لله ذبيحةً، رائحةً طيّبة" (٥: ٢)، وللفيليبيّين أنّ تقادمهم هي "عطرٌ طيّبُ العَرف وذبيحةٌ مقبولةٌ لدى الله، مَرْضيّة" (٤: ١٨)؛ كان يُظهر لهم أنّ تقدمة البخور تعني ذبائح الإيمان وقرابينه، (راجع فيلبّي ٢: ١٧). يلاحظ هكذا أنّ العبادة الحقيقيّة، في نظر المسيحيّ، هي عيشة يحياها بحسب الله.

٢. طلبة السّؤالات

إنّها طلباتٌ شخصيّةٌ تتناول موضوع الاستعداد المباشر لسرّ المناولة المقدّسة، وهي، في الوقت عينه، ذات طابع إسكاتولوجيّ (نُهيويّ). إنّها مجموعة نوايا وتضرّعاتٍ تهدف إلى إحياء الحياة المسيحيّة وانعاشها روحيًّا في قلب كلّ مؤمنٍ يطمح بنعمة الرّبّ أن يعيش قداسة السِّيرة الشّخصيّة من خلال الكمال، والقداسة، والسّلام، وغفران الخطايا، والتّوبة.

أن يكون يومنا كلّه كاملاً مقدّسًا سلاميًّا وبلا خطيئة. الرّبّ نسأل

تُشير الطّلبة الأولى إلى أنّ الإنسان المسيحيّ يُصلّي أوّلاً لكي يكون يومه مقدّسًا وبلا خطيئة؛ ونفهم أنّ المقصود من تعبير "اليوم" هو حياة الإنسان بأكملها على أن تكون حياةً روحيّةً مُفعمةً بالحرارة الإيمانيّة والشّهادة الحيّة للمسيح وانجيله.

ملاك سلامٍ. مرشدًا أمينًا. حارسًا نفوسنا وأجسادنا. الرّبّ نسأل

هنا يُطلَب من الله أن يُعطيَ الإنسان ملاكًا حارسًا ليس فقط ليومٍ واحد، بل لمدى الحياة. يُبيّن بولس الرّسول دور الملائكة في حياة الإنسان المسيحيّ قائلاً: "أمَا هم كلّهم أرواحٌ مُكلَّفون بالخدمة، يُرسَلون من أجل الّذين سيرثون الخلاص؟" (عبرانيّين ١: ١٤). إنّ هذه الطّلبة هي، في الواقع، استمراريّةٌ للطّلبة الأولى، إذ إنّهم مع مساعدة الملاك حارس النّفس والجسد، ومرشد المؤمنين إلى ميناء الخلاص، سيتمكّنون، بالتّالي، من قضاء كلّ حياتهم في القداسة والطّهارة. تُبيّن هذه الطّلبة أيضًا إيمان الكنيسة الأولى بوجود الملائكة الحُرّاس، الّذين تمّ تعيينهم لكلّ إنسان مسيحيٍّ لحمايته من الأخطار الّتي تتعرّض لها النّفس والجسد.

هذا ممّا جعل "الكنيسة تُكرّم الملائكة الّذين يساعدونها في مسيرتها الأرضيّة، والّذين يحرسون كلّ كائنٍ بشريّ"[٣٢٣].

من هنا نُدرك أنّ الله يُقيم لكلّ إنسانٍ ملاكًا حارسًا، يحميه من الأعداء المنظورين وغير المنظورين، يُرشده إلى الطّريق الصّحيح، أي يُسدّد خطواته إلى السّماء، ويكون، في الوقت عينه، حارسًا لنقاوة نفوسنا وطهارة أجسادنا الّتي بُنيت على حجر الزّاوية يسوع المسيح نفسه، ومن خلاله نصير مسكنًا لله في الرّوح، على حدّ تعبير القدّيس بولس الرّسول (أفسس ٢: ٢٠-٢٣)؛ وقد كتب في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس أيضًا قائلاً: "أوَما تعلمون أنّ أجسادكم هي هيكل الرّوح القدس، وهو فيكم قد نلتموه من الله، وأنّكم لستم لأنفسكم؟ فقد اشتُريتم وأُدّيَ الثّمن. فمجّدوا الله في أجسادكم" (٦: ١٩-٢٠).

---

٣٢٣) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٣٥٢، ص. ١٢٣.

المسامحة بخطايانا، وغفران ذنوبنا

تُوجِّه هذه الطّلبة انتباه المؤمنين إلى العدوّ الرّئيسيّ الّذي يمنع الإنسان من تمضية اليوم في القداسة، أعني، "الخطيئة"، الّتي تُشكِّل عقبةً أساسيّةً للمسيحيّ في سعيه لتحقيق القداسة والكمال. لذلك يطلب المسيحيّ من الله أن يغفر له خطاياه وذنوبه، حتّى يتخلّى عن الخطيئة وينبذها ويشنّ حربًا ضدّ هذا العدوّ الأكبر بقوّة المسيح وسلاحه، أعني، الصّليب. وعليه، فإنّ المعونة الأولى الّتي يجب أن يحصل عليها المؤمن من المسيح هي النّعمة الإلهيّة، الّتي بدونها ستكون جهوده عقيمةً وغير مُجدية.

الخيرات الموافقة لنفوسنا، والسّلام للعالم، الرّبّ نسأل

أمّا "الخيرات الموافقة لنفوسنا" والّتي تذكرها طلبة السّؤالات، فهي تعني: إقتناء المؤمنين لمواهب الرّوح القدس، مشاركتهم في الأسرار الكنسيّة وبخاصّةٍ سرّ الإفخارستيّا الّذي يُغذّي حياة الإنسان الرّوحيّة وينمّي شركته في الرّوح القدس، نموّهم في شركة المحبّة بين بعضهم البعض، وبالتّالي، الحصول على بركة الله الرّوحيّة، وهو الّذي "باركنا كلّ بركةٍ روحيّةٍ في السّماوات في المسيح" (أفسس ١: ٣).

عطيّةٌ أخرى من العطايا الإلهيّة الثّمينة للإنسان هي **التّبرير**. إنّها عطيّةٌ متأصّلةٌ في داخل الكيان الإنسانيّ، وممنوحةٌ للإنسان بواسطة النّعمة المقدِّسة أو المؤلِّهة الّتي تُشير إلى كلّ غنى الطّبيعة الإلهيّة في انتقالها للإنسان، الّذي يُصبح بدوره شريكًا بالطّبيعة البشريّة المجدَّدة في المسيح، أي شريكًا في جسده السّرّيّ، أعني الكنيسة. بتعابير أخرى، إنّ هذه النّعمة تُعطينا المقدرة على أن نولد من جديدٍ لحياةٍ فائقة الطّبيعة، نتلقّى من خلالها الفضائل الإلهيّة الثّلاثة: الإيمان والرّجاء والمحبّة. هذا ما عبّر عنه بوضوح بولس الرّسول قائلاً: "والرّجاء لا يُخيِّب صاحبه، لأنّ محبّة الله أُفيضَت في قلوبنا بالرّوح القدس الّذي وُهِبَ لنا" (رومة ٥: ٥). إنّ هذه الخيرات الإلهيّة والنّعم الرّوحيّة الّتي يتلقّاها الإنسان كنتيجةٍ حتميّةٍ لإيمانه الحيّ بالرّبّ يسوع وبقوّة الرّوح القدس مانح هذه العطايا الفائقة الطّبيعة، كلّها طرقٌ إلهيّةٌ تقودنا إلى الأبديّة السّعيدة.

إنّ السّلام الّذي تُصلّي من أجله الكنيسة هنا هو سلامٌ أرضيٌّ قائمٌ في أساسه على نبذ الحروب بين الشّعوب وإحلال العدل والسّلام في العالم أجمع، خصوصًا تلك البلدان الّتي تُعاني من الحروب الأهليّة والمجاعات والاضطهادات...

أن نقضي الزّمن الباقيَ من حياتنا. بسلامٍ وتوبة. الرّبّ نسأل

تقع هذه الطّلبة تحت التّأثير الكتابيّ بارتباطها الوثيق بسفر المزامير، حيث يُعبِّر كاتب المزامير عن اختباره للحياة الأرضيّة الّتي تمرّ بطُرفة عين (وقتيّة الحياة)، وعن رغبته في الحصول على الحكمة الإلهيّة الّتي تضيف على أيّام الإنسان قيمةً نوعيّةً، قائلاً: "أيّام سنينا سبعون سنة. وعلى الأكثر ثمانون سنة. ورَغدُها إنّما هو تعبٌ ووجع وقد مرّت بنا سريعًا مرور الطّير... علِّمنا [الله] أن نَعُدّ أيّامنا هكذا. فنُوجِّه قلبنا إلى الحكمة" (مزمور ٨٩: ١٠، ١٢). وهذا هو صُلب التّعليم الّذي تُظهره الكنيسة من خلال هذه الطّلبة: أن يطلب الإنسان المسيحيّ ما هو إلهيُّ المنشأ، أعني، السّلام، وما هو شخصيُّ المَنبع، أعني، التّوبة، وكلاهما، السّلام والتّوبة، يُعبِّران معًا عن مسيرة الإنسان نحو اقتناء الأبديّة. إنّ ما أشرنا إليه سابقًا يُظهر أنّ مصير الإنسان الأبديّ سيعتمد على مثابرته في الجهاد الرّوحيّ من خلال مؤازرة الرّوح القدس، ومواظبته على تعاليم المسيح المتجسّدة في الكتاب المقدّس، وصلابته في الإيمان الحيّ بالصّلاة والصّوم. إنّ الكنيسة تعتبر هذه الفضائل من أعظم الهبات الّتي يمنحها الله للإنسان؛ بناءً على ذلك تستحثّ الكنيسة المسيحيّين طلبها والصّلاة من أجل الحصول عليها. هذا ما يؤكّده لنا السّيّد المسيح في الإنجيل المقدّس قائلاً: "والّذي يثبت إلى النّهاية فذاك الّذي يَخلُص" (متّى ٢٤: ١٣).

أن تكون أواخر حياتنا مسيحيّةً سلاميّةً. بلا وجع ولا خزي. وأن نؤدّيَ جوابًا حسنًا لدى منبر المسيح الرّهيب. الرّبّ نسأل

تتلخّص النّظرة المسيحيّة لموضوع الموت والحياة في البُعدين الأساسيّين اللّذين يؤلّفان هذه الطّلبة:

- **البُعد الأوّل: الموت المقدّس**

يُشير البُعد الأوّل: "أن تكون أواخر حياتنا مسيحيّةً سلاميّةً. بلا وجع ولا خزي" إلى **الموت المقدّس** للإنسان المسيحيّ كامتدادٍ واستمراريّةٍ لحياةٍ مقدّسةٍ قضاها المسيحيّ بخوف الله ومحبّته. إنّ هذه الفكرة تأتي من كوننا كمسيحيّين نؤمن أنّ الموت هو انتقالٌ إلى الحياة (راجع يوحنّا ٥: ٢٤) الّتي أعدّها الله للّذين يُحبّونه ويتّقونه (راجع ١ كورنثس ٢: ٩). وهذا الانتقال ناتجٌ عن قُدسيّة الحياة الّتي عاشها المسيحيّ أثناء إقامته المؤقّتة على الأرض، الّتي ما هي إلاّ محجّته إلى غايته المقدّسة، الوطن السّماويّ. وتكمن الأطُر الّتي تجعل حياتنا مسيحيّةً مقدّسة، بحسب لاهوت القدّيس يوحنّا الإنجيليّ، في سماع كلام المسيح والإيمان بمَن أرسله، بحيث تكون النّتيجة اقتناء المسيحيّ للحياة الأبديّة (راجع ٥: ٢٤). بناءً على ذلك نُشير إلى أنّ هذا البُعد من الطّلبة يرتكز على فكرتين رائدتين هما: الحياة المسيحيّة المقدّسة والموت المقدّس للإنسان المسيحيّ، الّذي يؤمن أنّ الحياة السّعيدة تكمن في الجلوس عند أقدام المسيح، على مثال مريم أخت لعازر (راجع لوقا ١٠: ٣٩، ٤٢).

ومع اختيار مريم لهذا النّصيب الصّالح الّذي لا يُنزَع منها، ألهب المسيح ابن الله، أثناء مسيرته المُحيية نحو قبر لعازر، قلب مرتا المفجوعة على موت أخيها لعازر، حين أعلن، بكلماتٍ عميقةٍ لا تقبل الشّكّ والجدل، عن رسالته الخلاصيّة القائمة في أساسها على تحرير كلّ إنسان، إذا آمن باسمه، من قبضة العدوّ الموت (إنّه تعبيرٌ بولسِيٌّ بامتياز حين أعلن قائلاً: "وآخر عدوٍّ يُبيدُه هو الموت"، ١ كورنثس ١٥: ٢٦)، قائلاً لها: "أنا القيامة والحياة: مَن آمن بي، وإنْ مات، فسيحيا، وكلّ مَن يحيا ويؤمن بي لن يموت أبدًا" (يوحنّا ١١: ٢٥-٢٦). إنّ هذا الكلام الأخير يؤكّد على **الكينونة المسيحيّة**: فكونك مسيحيًّا مؤمنًا حتّى النّهاية، فهذا سيجلب لك، بالتّالي، **رجاءً عظيمًا بمستقبلٍ سعيدٍ أبديّ**، عبّر عنه بولس الرّسول قائلاً: "ما لم تره عينٌ ولا سَمِعَت به أذنٌ ولا خطر على قلب بشر، ذلك ما أعدّه الله للّذين يُحبّونه" (١ كورنثس ٢: ٩).

- **البُعد الثّاني: البُعد الاسكاتولوجيّ**

إنّ هذه الجملة الأخيرة تُشكّل صلة الوصل بين البُعد الأوّل والبُعد الثّاني: "وأن نؤدّيَ جوابًا حسنًا لدى منبر المسيح الرّهيب" الّذي يأتي ليُشير إلى **البُعد الإسكاتولوجيّ** (الأخرويّ، النّهيويّ) المتضمّن في فكرة "الدّينونة" الّتي فيها سيلتقي الإنسان مع الدّيّان العادل، والقائمة في أساسها على رجاء الإنسان المسيحيّ برحمة الله اللّامتناهية، وعلى المكافأة الإلهيّة لحياته المتلألئة مع المسيح على الأرض بكونه **الوكيل الأمين لسيّده**، السّاهر والمستعدّ والمُتمّم الدّائم لمشيئته (راجع لوقا ١٢: ٣٥-٤٨). لهذه الدّينونة بُعدان لا ثالث لهما: فإمّا أن يقف الإنسان أمامه بكلّ جرأةٍ وشجاعةٍ لأنّه واثقٌ في أنّه عاش مسيحيّته كما يجب أن تُعاش، وساعتئذٍ سيسمع صوت الرّبّ يقول له: "تعال، يا مَن باركه أبي، فرثِ المُلك المُعَدّ لك منذ إنشاء العالم" (متّى ٢٥: ٣٤)؛ وإمّا أن يقف خازيًا وخجلاً أمامه لأنّه لم يُدرك معنى مسيحيّته وأهميّتها في خلاص نفسه، وساعتها سيسمع صوت الرّبّ يقول له: "إليك عنّي، أيّها الملعون، إلى النّار الأبديّة المُعدّة لإبليس وملائكته" (متّى ٢٥: ٤١)؛ وهذا بالتّحديد ما نعنيه بالجملة الأخيرة من الطّلبة: "وأن نؤدّيَ جوابًا حسنًا لدى مِنبر المسيح الرّهيب"، الّتي ترتكز على أساسٍ كتابيٍّ من وحي ما كتبه بولس الرّسول الّذي قال: "سنمثل جميعًا أمام محكمة الله... إنّ كلّ واحدٍ منّا سيُؤدّي إذًا عن نفسه حسابًا لله" (رومة ١٤: ١٠-١٢)، وفي رسالةٍ أخرى له أردف قائلاً: "لأنّه لا بدّ لنا جميعًا من أن يُكشَف أمرُنا أمام محكمة المسيح لينال كلٌّ واحدٍ جزاء ما عَمِلَ وهو في الجسد، أخَيرًا كان أم شرًّا" (٢ كورنثس ٥: ١٠).

٣. **وَحدة الإيمان وشركة الرّوح القدس**

لنسأل الوَحدة في الإيمان، وشَركة الرّوح القدس، ولنودع المسيح الإله ذواتنا، وبعضُنا بعضًا وحياتنا كلّها

- **الوَحدة في الإيمان**

إنّ المعنى الملموس لعبارة "الوَحدة في الإيمان" يتضمّن فكرة "الجامعيّة" الّتي تحوي ليس فقط الوَحدة بل أيضًا التّعدّديّة؛ إنّها تجعل من الكنيسة جامعيّةً في كلّيّتها كما في كلٍّ من أجزائها على السّواء. فمهما تنوّعت العائلات

الكنسيّة، إلاّ أنّها مدعوّةٌ إلى الوَحدة في التّنوّع، لأنّ ما يجمعها بعضها ببعض هو رأس الكنيسة، المسيح يسوع. هذا ما حدا بالقدّيس بولس الرّسول إلى حثّ الجماعات المسيحيّة على الوَحدة في رسالته إلى أهل أفسس، قائلاً: "فهناك جسدٌ __واحدٌ__ وروحٌ __واحدٌ__، كما أنّكم دُعيتم دعوةٌ رجاؤها __واحد__. وهناك ربٌّ __واحدٌ__ وإيمانٌ __واحدٌ__ ومعموديّةٌ __واحدة__، وإلهٌ __واحدٌ__ أبٌ لجميع الخَلق وفوقهم جميعًا، يعمل بهم جميعًا وهو فيهم جميعًا" (٤: ٤-٦).

إنّ هذه الآيات تتكلّم عن بُعدَين أساسيَّين لمفهوم الوَحدة: وَحدةٌ جسديّة قِوامها ما جاء على لسان القدّيس بولس الرّسول: "وإذا عَمِلنا للحقّ بالمحبّة نَمَونا وتقدَّمنا في جميع الوُجوه نحو ذاك الَّذي هو الرّأس، نحو المسيح: فإن به إحكامَ الجسد كلِّه والتحامَه، والفضل لجميع الأوصال الَّتي تقوم بحاجته، ليُتابع نُمُوَّه بالعمل المُلائم لكلٍّ من الأجزاء ويبني نفسه بالمحبّة" (أفسس ٤: ١٥-١٦)؛ وأخرى روحيّةٌ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالوَحدة الجسديّة، إذ لا يمكن لأحدٍ أن يكون في المسيح إلاّ بالرّوح القدس. والقدّيس كيرلّس الاسكندريّ يُصوِّر هذا جيّدًا في ختام تعليقاته على صلاة المسيح الكهنوتيّة (يوحنّا ١٧: ٢٠-٢١)، يقول: "لذلك، فكلُّنا واحدٌ في الآب والابن والرّوح القدس؛ "واحدٌ" بحسب وضع محدَّدٍ للذّهن والجسد، وأيضًا بالتّماثل مع حياة البرّ، وفي شركة الجسد المقدّس للمسيح، وفي شركة الرّوح القدس، الّذي هو واحد، كما سبق وقلنا".

وعليه نُشير إلى أنّ هذه الوَحدة لا تتحقّق إلاّ في الحياة الكنسيّة الأسراريّة، ذلك أنّ "الكنيسة ليست فقط الطّبيعة الواحدة في أُقنوم المسيح، بل هي أيضًا الأقانيم المتعدِّدة في نعمة الرّوح القدس"[٣٢٤]. وبالتّالي، فإنّ سرّ الكنيسة يكمن في أنّها واحدةٌ في المسيح ومتعدّدةٌ في الرّوح القدس؛ طبيعةٌ بشريّةٌ واحدةٌ في أُقنوم المسيح، وأقانيمُ بشريّةٌ كثيرةٌ في نعمة الرّوح القدس. يقول بولس الرّسول في رسالته إلى أهل أفسس: "بُنيتم على أساس الرُّسل والأنبياء، وحجرُ الزّاوية هو المسيح يسوع نفسُه. فيه يُحكَم البناء كلُّه ويرتفع ليكون هيكلاً

---

٣٢٤) فلاديمير لوسكي، ***__بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق__***، ص١٥٢.

مقدَّسًا في الرّبّ، وبه أنتم أيضًا تُبنَون معًا لتصيروا مسكنًا لله في الرّوح" (٢: ٢٠-٢٣).

وهكذا نستطيع أن نقول إنّ الكنيسة بوجهها المسيحانيّ هي جسد المسيح؛ وبوجهها الرّوحانيّ، أي في تدبير الرّوح القدس بخصوص الأشخاص البشريّين، فللكنيسة طابعٌ ديناميكيّ، يجعلها تمتدّ نحو غايةٍ أخيرة، نحو اتّحاد كلّ شخص بشريٍّ بالله. إنّ كلّ هذا المجد الّذي نناله في المسيح، هو بسبب الذّبيحة الّتي لم يكن البشر قادرين على تقديمها لأنّها ملوّثة بخطاياهم، لكنّ المسيح قدّمها في نفسه قربانًا طاهرًا للآب، وهو هنا يُعطي الرّوح القدس لتلاميذه الّذين اتّحدوا في وَحدةٍ روحيّةٍ بعطيّة الرّوح. فأولئك الّذين اتّحدوا في هذه الوَحدة الرّوحيّة يُشاركون في ثمار ذبيحة المسيح، لأنّهم اتّحدوا جسديًّا بالمسيح، آدم الثّاني، واتّحدوا مع بعضهم البعض في الإفخارستيّا. وهكذا، فإنّ رئاسة آدم الثّاني هي دائمًا مرتبطةٌ بالجسد الّذي صار إليه المؤمنون بسبب الإفخارستيّا. وعليه، فإنّنا نلاحظ أنّ هذه الطّلبة وهي تُقال عادةً قبل المناولة المقدّسة تعني أنّ الشّركة في الجسد الإفخارستيّ للمسيح هي الّتي تُكوّن الكنيسة جسد المسيح. فالكنيسة في المفهوم اللّاهوتيّ والواقع المسيحيّ ليست مؤسّسةً بشريّةً قائمةً بذاتها، إلاّ بانعقادها والتئامها حول جسد المسيح والتّناول منه، حينئذٍ يُستعلَن جسد المسيح السّرّيّ.

- شركة الرّوح القدس

عبارةٌ أخرى لا تقلّ أهميّةً عن سابقتها هي "شركة الرّوح القدس" ترد أربع مرّاتٍ في اللّيتورجيّا الإلهيّة. فماذا تعني إذًا شركة الرّوح القدس؟ وكيف تتحقّق عمليًّا وفعليًّا في حياة الإنسان المسيحيّ؟ يشرح القدّيس كيرلّس الإسكندريّ مفهوم شركة الرّوح القدس بقوله: "جسد الكلمة نفسه هو واهب الحياة، من حيث إنّ كلمة الله جعله جسده الخاصّ باتّحاد حقيقيٍّ يفوق أفهامنا وقدرتنا على التّعبير. وبنفس الطّريقة، فإنّنا حينما نتقدّم لنشترك في جسده ودمه الأقدسَين، فإنّنا نتسربل بالحياة بالتّمام والكمال، لأنّ الكلمة صار يسكن فينا، سواء بطريقةٍ إلهيّةٍ من خلال الرّوح القدس، أو بطريقةٍ بشريّةٍ من خلال الجسد الأقدس والدّم الثّمين. هذا التّحوُّل إلى الخليقة الجديدة يجب أن لا

نظن أنّه يتم آليًّا (بمجرّد ممارسة التّناول من الجسد المقدّس والدّم الكريم). فالشّركة في الرّوح القدس هي أمرٌ مطلوبٌ جنبًا إلى جنبٍ مع الشّركة في الجسد الإفخارستيّ للمسيح"[٣٢٥]. لذلك، فمن خلال الشّركة في الاثنين: الشّركة في الرّوح القدس، والشّركة في جسد المسيح، يرتفع المسيحيّون إلى مستوًى جديدٍ من الوجود. ولو لم يكن كلمة الله قد ألّه فعلاً بالطّبيعة الجسد الّذي أخذه عند التّجسُّد، ما كان في مقدور المسيحيّين أن ينالوا نعمة "التّأليه" بواسطة تبنّي الله لهم، وما كان في مقدورهم أيضًا أن يكونوا "شركاء الطّبيعة الإلهيّة" كما وصفها القدّيس بطرس الرّسول (٢ بطرس ١: ٤).

٤. **صلاةٌ تحضيريّةٌ للمناولة المقدّسة**

أيّها السّيّد المحبّ البشر. إيّاك نودع كلّ حياتنا ورجائنا. وإليك نبتهل ونطلب ونتضرّع. فأهّلنا لأن نتناول <u>بضمائرَ نقيّةٍ</u> أسرارك السّماويّة الرّهيبة. أسرار هذه المائدة المقدّسة الرّوحيّة. لغفران الخطايا والمسامحة بالزّلات. ولشركة الرّوح القدس. وميراث ملكوت السّماوات. للدّالّة لديك. لا للقضاء علينا أو للدّينونة

يُصلّي الكاهن باسمه الخاصّ، وباسم جماعة المؤمنين، ويلتمس من الله أن يجعلهم جميعًا مستحقّين الاشتراك في تناول جسد الرّبّ ودمه، متوسّلاً إليه أن يُزيل من نفوسهم كلّ ما من شأنه عرقلة عمل السّرّ الإلهيّ. أودّ هنا أن أسلّط الأضواء على العبارة الأكثر أهميّةً ومركزيّةً في هذه الصّلاة: "**الضّمير النّقيّ**"، الّذي يجب أن يتمتّع به كلّ مسيحيٍّ يرغب في التّناول من جسد المسيح القربانيّ، على حدّ تعبير القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم، الّذي كان يُحرّض المؤمنين قائلاً:

> "وأنا أيضًا، أرفع الصّوت، وأضرع، وأصلّي، وأتوسّل إليكم ألاّ تقتربوا من هذه المائدة المقدّسة بضمير ملطّخ فاسد. لأنّ مثل هذا الوضع لن يُسمّى البتّة مناولة، حتّى ولو تناولنا ألف مرّة جسد الرّبّ، بل بالأحرى يُسمّى دينونةً وعذابًا ومزيدًا من العقوبات"[٣٢٦].

---

٣٢٥) مُقتبَسة من موقع دير القدّيس العظيم أنبا مقار الإلكترونيّ، تحت عنوان "سرّ الفداء".

٣٢٦) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***<u>الإفخارستيّا حياة الكنيسة</u>***، عدد ٣٦.

فما هو الضّمير بحسب لاهوت الكنيسة؟

إنّه ناموسٌ حفره الله في قلب الإنسان. والضّمير هو المركز الأشدّ عمقًا وسريّة في الإنسان، والهيكل الّذي ينفرد فيه إلى الله، ويسمع فيه صوت الله[٣٢٧]. كمسيحيٍّ، أعطاك الله القدرة أن تسلك أمامه بضميرٍ طاهر. وهذا هو امتيازك اليوميّ وسرُّ فرحك وسلامك الدّاخليّ، كما يُعبّر عنه القدّيس بولس أمام الوالي والجمع المشتكي عليه: "لذلك أجتهد، أنا أيضًا، في أن يكون لي دائمًا ضميرٌ بلا عيبٍ أمام الله، وأمام النّاس" (أعمال ٢٤: ١٦). هذا التّدريب أن يكون لك دائمًا ضميرٌ بلا عثرة، هو عملٌ شاقٌّ بلا شكّ، ولكنّ النّتيجة المترتبة عليه ستشهد بأنّ لك مصدرًا مضمونًا هو الضّمير السّويّ، والحسّاس، والطّاهر النّقيّ الّذي يحفظ لك علاقة دائمة مع الله في طريق البرّ. ومظاهر هذا التّدريب تبدو في عدّة ممارسات: سرّ الاعتراف المقدّس، المغفرة، الأعمال الّتي تليق بالتّوبة والتّأمّل في كلمة الله.

لذا يُشير البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني بوضوح إلى التّرابط الأسراريّ بين الإفخارستيّا والتّوبة، فيقول:

> "إنّ الإفخارستيّا والتّوبة سرّان مترابطان ارتباطًا وثيقًا. فإذا كانت الإفخارستيّا تجعل ذبيحة الصّليب الفدائيّة حاضرةً ومستمرّةً سرّيًا، فذلك يعني أنّه، عن هذا السّرّ، ينجم **تطلُّبٌ دائمٌ إلى التّوبة**، وجوابٌ شخصيٌّ إزاء التّحريض الّذي وجّهه القدّيس بولس إلى مسيحيّي كورنثس: "نناشدكم بالمسيح: أن تصالحوا مع الله! (٢ كورنثس ٥: ٢٠). إذا كانت خطيئة ثقيلة تُرهق ضمير المسيحيّ، فطريق التّوبة، من خلال سرّ المصالحة، يصبح الممرّ الواجب سلوكه للبلوغ إلى شركةٍ كاملةٍ في ذبيحة الإفخارستيّا"[٣٢٨].

---

٣٢٧) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ١٧٧٦، ص.٥٣٠.

٣٢٨) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ٣٧.

٥. الصّلاة الرّبّيّة

ثمّ يُعلن الكاهن بصوتٍ جهير يُعبّر عن ثقةٍ بنويّةٍ قائلاً للشّعب:

وأهّلنا أيّها السّيّد، لأن نجسر بدالّةٍ وبلا دينونة، على أن ندعوَك أبًا، أنت الإله السّماويّ، ونقول:

نستشفّ من هذه الكلمات أنّ هناك واقعًا جديدًا وبُعدًا جديدًا في العلاقة بين الله الآب والإنسان من خلال الابن يسوع المسيح. فالواقع الجديد هو واقع التّبنّي الإلهيّ للإنسان (أنظر غلاطية ٤: ٤-٧)، الّذي تلقّى بفضل امتيازات ربّنا يسوع المسيح، أخينا البكر، "روح التّبنّي" (رومة ٨: ١٥)، أي نعمة أن نُصبح أبناءه بالتّبنّي، الّذي فرض بدوره بُعدًا جديدًا في العلاقة بين الخالق والخليقة يتمثّل في علاقة المحبّة والحريّة اللّتين تنفيان الخوف والخضوع. وقد عبّر القدّيس يوحنّا الإنجيليّ عن هذه المحبّة، فقال: "ونحن عرفنا المحبّة الّتي يُظهرها الله بيننا وآمنّا بها. الله محبّة، فمَن أقام في المحبّة أقام في الله وأقام الله فيه... لا خوف في المحبّة بل المحبّة الكاملة تنفي عنها الخوف" (١ يوحنّا ٤: ١٦-١٨)؛ بينما تكلّم القدّيس بولس الرّسول عن الحريّة، فقال: "لم تتلقَّوا روح عبوديّةٍ لتعودوا إلى الخوف، بل روحَ تَبَنٍّ به ننادي: أبّا أيّها الآب!" (رومة ٨: ١٥). هناك خوفٌ واحدٌ يلازم الابن وهو خوفُ فقدان البنوّة.

من هنا يتّضح أنّ "الصّداقة والبنوّة تُعطيان الحريّة للنّفس لتتحدّث بدالّةٍ وحريّةٍ مع الله... فهاتان الدالّة والبنوّة تؤهّلانا أيضًا للدّخول، بثقةٍ، إلى قدس الأقداس، لا لنشاهد فيه القدرة الإلهيّة، بل لنُشاركها باتّحادنا بها اتحادًا فائق الطّبيعة"[٣٢٩].

أبانا الّذي في السّماوات، ليتقدّس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السّماء كذلك على الأرض. أعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لِمَن أساء إلينا، ولا تُدخلنا في التّجارب، لكن نجّنا من الشّرّير

---

٣٢٩) تيودور حلاّق (الأب)، ***اللاّهوت الصّوفيّ حسب القدّيس غريغوريوس النّيصيّ***، ص. ٣٠.

أ. تاريخيّة استعمال الصّلاة الرّبّيّة في أسرار الكنيسة

صلاة الأبانا، أو الصّلاة الرّبّيّة، كما سمّاها لأوّل مرّةٍ القدّيس كبريانوس (+٢٥٨)، هي الّتي علّمها يسوع لتلاميذه بحسب إنجيل متّى ٦: ٩-١٣ ولوقا ١١: ٢-٤. إنّ أوّل مَن شرح الأبانا بإسهابٍ هو ترتليانوس (+٢٢٠)، في أوائل القرن الثالث. ومنذ ذلك الوقت أُدخلت في ممارسة سرّ العماد المقدّس. وقد اعتبرها هذا العلاّمة "مختصر الإنجيل كلّه"[٣٣٠]. وبعده القدّيس كبريانوس القرطاجيّ أي في النّصف الثّاني من القرن الثّالث. لقد كان كبريانوس يطلب من الموعوظين (وهم وثنيّون ويهود آمنوا بالرّبّ يسوع وكانوا يستعدّون لتقبُّل سرّ المعموديّة) حفظها غَيبًا وتلاوتها علنًا أمام الكنيسة أثناء قبولهم المعموديّة. كما شرح الأبانا أيضًا معظم آباء القرن الرّابع الميلاديّ أمثال أغسطينوس وأمبروسيوس، فأدرجوا هذه الصّلاة في خدمة الذّبيحة الإلهية "القدّاس الإلهيّ". ففي كنيسة أورشليم، مثلاً، كان القدّيس كيرلّس الأورشليميّ (+٣٨٧) يشرحها أثناء الخدمة الإلهيّة، ويطلب من المؤمنين تلاوتها قبل أن يتقدّموا من المناولة المقدّسة، وهذا ما يفعله المؤمنون اليوم.

ب. ماهيّة الصّلاة

إنّ الصّلاة الرَّبِّيّة هي مختصرٌ بديعٌ لعقيدة الفداء وللحياة المسيحيّة. فلقد استعمل ربّنا هذه الكلمات الوجيزة وكأنّه يريد أن يقول إنّ الصّلاة لا تقوم بالكلام، بل بالممارسة والحبّ وفعل الخير، لأنّ الّذي يميل إلى الخير عليه أن يحيا حياته كلّها في الصّلاة في سبيل تحسين السلوك. إذن، تفرض الصّلاة الرَّبِّيّة على الإنسان الّذي يرغب في عيش مسيحيّته على أصولها مسلكيّةً روحيّةً وأخلاقيّةً وإنسانيّةً شخصيّةً وداخليّةً (أي قلبيّة) وليست ظاهريّةً فقط. إنّ الصّلاة الّتي يطلبها منّا الرّبّ يسوع اليوم ليست ثرثرةً كلاميّةً سفسطائيّة، إذ إنّه قال في الإنجيل الشّريف: "وإذا صلّيتم فلا تُكرِّروا الكلام عَبَثًا مثل الوثنيّين، فهُم يَظُنُّون أنّهم إذا أكثروا الكلام يُستجاب لهم. فلا تتشبّهوا بهم، لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" (متّى ٦: ٧-٨).

---

٣٣٠) جان پويّي، ***الله أبونا، الكشف عن الله الآب والصّلاة الرّبّيّة***، ص. ٥.

إنّ الصّلاة إذًا وانطلاقًا من هذه الآيات الإنجيليّة المقدّسة هي حوارٌ صامتٌ مع اللّه، حيث ينفتح فيها القلب بصمتٍ أمام اللّه؛ إنّها حوارٌ قلبيٌّ لذاك الّذي يسكن قلوبنا وحياتنا؛ إنّها الجلوسُ في حضرة اللّه بخشيةٍ ومَهابةٍ وتقوى، إذ إنّها وقتُ الإصغاء إلى صوت اللّه وكلمته الّتي ما هي إلاّ حياةٌ أبديّة، كما عبّر عن ذلك رأس الرّسل القدّيس بطرس، حين أعلن خبرته الإيمانيّة الشّخصيّة بالرّبّ يسوع المسيح، بعد أن تركه كثيرٌ من تلاميذه بسبب كلامه عن خبز الحياة من خلال تقديم جسده ودمه مأكلاً ومشربًا لأتباعه: "أجابه سمعان بطرس: يا ربّ، إلى مَن نذهب وكلام الحياة الأبديّة عندك؟ ونحن آمنّا وعرَفنا أنّك قدّوس اللّه" (يوحنّا ٦: ٦٨-٦٩)؛ إنّها، بالتّالي، بعيدةٌ كلّ البُعد عن مفهوم الطّلبات الشّخصيّة، ذلك أنّ الآب السّماويّ يعلم ما نحن نريد، وهو مَن يختار الوقت المناسب ليتدخّل بسلطانه الإلهيّ ويستجيب صلاتنا ودُعانا؛ إنّها اشتياقُ الإنسان إلى اللّه، وهي تَفَرُّغ القلب للّه. فهي إذن خلوة النّفس مع اللّه، هي لقاءٌ مع اللّه، لقاء حبّ؛ هي التصاقٌ باللّه، ذلك أنّها تلامس قلب الإنسان مع قلب اللّه وتمتّع النّفس باللّه. وفي هذا قال داود النّبيّ: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ" (مزمور ٣٣: ٩)، وقال أيضًا: "ولي أنا يطيب التّقرُّب إلى اللّه" (مزمور ٧٢: ٢٨).

وعليه، فإنّ الصّلاة هي "رباطٌ شخصيٌّ بين الإنسان واللّه، ذلك أنّ فضيلة الصّلاة، وهذا القول للقدّيس غريغوريوس بالاماس، تتمّم سرّ اتّحادنا باللّه، لأنّها رباطُ الخلائق العقليّة بخالقها"؛ "ففي الصّلاة، يقول القدّيس إسحق السّريانيّ أيضًا، يلتقي الإنسان باللّه شخصيًّا، يعرفه ويُحبّه". هذا ما يجعل من الصّلاة صِلَةً حقيقيّةً وعلاقةً حيّةً وشَركةً روحيّةً مع اللّه الآب السّماويّ بابنه يسوع المسيح كلمة اللّه المتجسّد بقوّة الرّوح القدس وفعله وعمله الخلاّق في الإنسان، إذ إنّ الصّلاة الرّبّيّة ليست عقيدةً، إنّما هي حضور اللّه يتجلّى من خلال عيشنا لهذا الحضور.

تبدأ الصّلاة بالطّلبات. إنّها، بحسب القدّيس إسحق السّريانيّ، "صلاةُ التّضرّع" المهمومة والمُفعمَة بانشغال البال والمخاوف. ما هذه الصّلاة سوى استعداد للصّلاة الحقيقيّة، "للصّلاة الرّوحيّة"، وارتفاع تدريجيّ نحو اللّه، وجهاد وسَعْي. لكنّ النّفس تتركّز وتستجمع ذاتها شيئًا فشيئًا، فتتلاشى الطلبات الشّخصيّة، ذلك

لأنّ اللّه يستجيب الصّلاة بكشفه عنايته الّتي تشمل كلّ شيء. نَكُفُّ عن الطّلب لأنّنا نتّكل كُلّيًّا على مشيئة اللّه. تُسمّى هذه الحالة "الصّلاة النّقيّة"[331] الهادفة إلى اتّحاد المشيئة الإنسانيّة بالمشيئة الإلهيّة. لقد سمّى الآباء القدّيسون هذه الحالة حالة السّلام المُطلَق والهدوء والصّمت[332]، **إذ إنّ الإنسان لم يَعُدْ لذاته بل للّه، ولا يحكم بعدُ ذاته، بل الرّوح القدس هو الّذي يقوده.** فكلّ حضورٍ للإنسان أمام وجه اللّه صلاةٌ، ميزتها الأساسيّة الاستمراريّة كالتّنفّس وكخفقان القلب. إنّ مَهمّة الصّلاة الرئيسيّة تكمن في الوقوف أمام اللّه، والصّراخ إليه من أعماق القلب، ذلك أنّ اللّه ينظر إلى القلب. وهكذا نرى أنّ ممارسة الصّلاة الروحيّة تقوم على إتاحة الفرصة للقلب لأنْ يضطرم بالنّعمة ساهرًا بلا انقطاع على نقاوته الدّاخليّة. من هنا يتّضح "أنّ الصّلاة، بجوهرها، يقول القدّيس غريغوريوس النيصيّ، حديثُ صداقةٍ وبنوّةٍ مع اللّه"[333]، وهذا هو ما سنكتشفه بالتّحديد في الصّلاة الرَّبّيّة.

ت. لاهوت الصّلاة الرَّبّيّة الكتابيّ

- **أبانا الّذي في السّماوات**

هذه الصّلاة أروعُ مثالٍ للصّلاة الكاملة. واستهلالُها بدعوة اللّه "أبانا" دليل التّطوير الجذريّ للإنسان في علاقته مع اللّه وانتقاله من حالة العبد إلى حالة الابن، ومن الانفراديّة إلى معنى الجماعيّة والشّمول، حيث جميعُ النّاس إخوةٌ في كنف أبوّة اللّه الجامعة. إنّ الصّلاة الرَّبّيّة في متّى ٦: ٩-١٣ تعرض شعورًا باعثًا على الثّقة عن معرفة اللّه المسبقة والتزامه الأبويّ تجاه الإنسان[334]. ومن المفهوم أن يكون اللّه أبًا (في السّماوات) للشّعب اليهوديّ. إلاّ أنّهم، وفي بعض الأحيان فقط، أعلنوا اللّه كأب: "وبارك داود الرّبّ على عيون كلّ الجماعة، وقال داود:

---

٣٣١) فلايمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٧٣.

٣٣٢) "عندما تُصلّي يجب أن يصمت أناك... دع الصّلاة تتكلّم". أو بالأحرى دع اللّه وحده يتكلّم. على الإنسان أن يلزم الصّمت دائمًا وأن يترك اللّه يتكلّم. وعليه، فإنّ الصّلاة تعني الانتقال من صلاتي أنا إلى صلاة اللّه الّذي يعمل فيّ". راجع كاليستوس وير، ***الملكوت الدّاخليّ***، ص. ١٢٧.

٣٣٣) تيودور حلاّق (الأب)، ***اللّاهوت الصّوفيّ حسب القدّيس غريغوريوس النّيصيّ***، ص. ٣٠.

٣٣٤) John Nolland, ***The Gospel of Matthew***, NIGTC, p.285.

مباركٌ أنت، أيّها الرّبّ، إله إسرائيل **أبينا**، من الأزل وللأبد" (١ أخبار ٢٩: ١٠)؛ "لكنّ عِنايتك، **أيّها الآب**، هي الّتي تُدبّره..." (حكمة ١٤: ٣)؛ "**أيّها الرّبّ الآب** يا سيّد حياتي... أيّها الرّبّ الآب يا إله حياتي" (يشوع بن سيراخ ٢٣: ١، ٤)[٣٣٥]. الله، في العهد القديم، هو "أب"[٣٣٦]، وهذه الأبوّة الإلهيّة تستند إلى الاختيار الّذي هو فعل ولادة هذا الشّعب الصّغير، وإلى علاقة العهد (خروج ١٩-٢٤)[٣٣٧]، وهذا الاختيار يبيّن محبّته وحمايته شعبَهُ ويفترض، تاليًا، طاعة الشّعب وأمانته لله. إلاّ أنّنا نشهد في الواقع أنّ إسرائيل أجاب على عهد الله بنكران الجميل وخيانة حبّ الله الأبويّ، وهذا يظهر بارزًا في كتابات النّبيّ هوشع الّذي أعلن على لسان الله: "لَمّا كان إسرائيل صبيًّا أحبَبْتُه، ومن مصر دعوت ابني. يدعونهم لكنّهم يُعرضون عنهم، ذابحين للبَعل ومُحرقين البخور، أنا درّجتُ أفرائيم وحملتُهم على ذراعي، لكنّهم لم يعلموا أنّي اهتَمَمتُ بهم. بحبال البشر، بروابط الحبّ اجتذبتُهم وكنتُ لهم كمَن يرفع الرّضيع إلى وَجنتَيه، وانحنَيتُ عليه وأطعمتُه" (هوشع ١١: ١-٤).

إنّ المقطعَين الكتابيَّين اللّذين يُشيران بطريقةٍ بارزةٍ إلى أبوّة الله في العهد القديم هما: (١) أشعيا ٦٣: ١٦: "فإنّك أنت **أبونا**، إبراهيم لم يعرفنا، وإسرائيل لم يعلم بنا، أنت يا ربّ **أبونا**، منذ الأزل اسمك فادينا"؛ (٢) طوبيّا ١٣: ٤: "وهناك أرانا عظمته. أشيدوا به أمام كلّ حيّ، فهو ربُّنا وهو إلهنا وهو **أبونا**، وهو الإله أبد الدّهور". من هنا يتّضح معنى أبوّة الله: "فالله هو أبٌ لشعبه إسرائيل: فالله هو أبو إسرائيل السّماويّ، والفرد يدرك أنّه عضوٌ في شعب الله"[٣٣٨]. إنّ العبرانيّين، في كلّ حال، ما كانوا يجترئون على التّلفّظ باسم الله أو مناداته بدالّة في صلواتهم الشّخصيّة (فهذا عندهم يسيء إلى تسامي الله). وهذا ما عبّر عنه بوضوح يشوع بن سيراخ في كتابه، قال: "لا تُعوِّد فمك الحَلْف، ولا تألَفِ

---

٣٣٥) جان يوبّي، ***الله أبونا، الكشف عن الله الآب والصّلاة الرّبّيّة***، ص. ١٥-١٦.

٣٣٦) أمّا أشعيا الثّاني والثّالث، فيربطان أبوّة الله بالعلاقة الزوجيّة (العريس/العروس) وبالأمومة (علاقة الأمّ برضيعها)، ذلك أنّ الله يتعامل مع شعبه بحنان يُشبه حنان الأمّ، يُحيط شعبه بحبٍّ أموميّ (أشعيا ٤٩: ١٥؛ راجع ٤٢: ١٤ب؛ ٦٦) **المرجع نفسه**، ص. ٢٤.

٣٣٧) **المرجع نفسه**، ص. ٢٢.

٣٣٨) **المرجع نفسه**، ص. ٣٤.

التّلفُّظ باسم القدّوس" (٢٣: ٩). نظرًا إلى أصل عبارة "أبّا"، فإنّ استخدامها في صلاةٍ يهوديّةٍ لم يكن مسموحًا بها، إذ "إنّ مناداة الله بلقبٍ يعكس أُلفةً كهذه كانت تُعتبر، بالنّسبة إلى عقليّةٍ يهوديّةٍ، قلّة احترام، لا بل أمرًا غير معقول.

فأنّ يكون يسوع قد جرؤ واتّخذ مبادرة التحدّث إلى الله كما يتحدّث طفلٌ إلى أبيه، بكلّ بساطةٍ وبألفةٍ حميمةٍ، ومن دون خوف... فذلك شيءٌ جديد، شيءٌ فريدٌ ومدهش"[٣٣٩]. فلقد أتى يسوع ابن الله الوحيد ليحرّرنا من العبوديّة وينتشلنا من كلّ بُعدٍ وجفافٍ وخوف، فقد علّم أتباعه أن ينادوا أباه[٣٤٠] بحرّيّةٍ ودالّة: "أبانا الّذي في السّماوات"، وذلك أنّه أراد أن يكشف أنّ الله هو أبٌ حنونٌ ومترئفٌ لا بإسرائيل فحسب، ولكن بالبشر جميعًا. لقد فتح يسوع باب الملكوت لجميع البشر، وألغى كلّ مسافةٍ وعرقٍ وجنسٍ ولغة، وذلك لأنّ السّماء لا تظلّل أناسًا دون غيرهم، وأكّد، تاليًا، أنّ ما يطلبه الله من البشر جميعًا هو أن يثقوا برحمته وقدرته وأن يحيوا أخوةً مع البشر كافّة.

نلاحظ أنّ الإنجيل الأوّل، متّى، يُردّد بغزارةٍ عبارة "أبانا الّذي في السّماوات" كعنوانٍ تأكيديٍّ عن الله، فنقرأ: "هكذا فليُضئ نوركم للنّاس، ليرَوا أعمالكم الصّالحة، فيُمجّدوا **أباكم الّذي في السّماوات**" (متّى ٥: ١٦)؛ "لتصيروا بني **أبيكُمُ الّذي في السّماوات**" (متّى ٥: ٤٥)؛ "إيّاكم أن تعملوا برّكم بمرأى من النّاس لكي ينظروا إليكم، فلا يكون لكم أجرٌ عند **أبيكم الّذي في السّماوات**" (متّى ٦: ١). وما أجمل أن نوجّه الصّلاة إلى الله باعتباره "الآب"، إذ قد دخلنا معه في هذه العلاقة العجيبة السّامية "علاقة الأب بالابن". فلفظة "أبانا" تفيد المحبّة والصّلاح، ثم إنّ عبارة "الّذي في السّماوات" تفيد القوّة والإمكانيّة؛ الرّفعة والسّلطان. فهو أبٌ لا نظير لمحبّته ولصلاحه، وإلهٌ لا حدود لقوّته وإمكانيّاته. إننا إذ نخاطب الله "أبانا"، فإنّنا نعرف أنّه يسكن السّماء، لأنّ "إلهنا في السّماء. صنع كلّ ما شاء" (مزمور ١١٥: ٣) ولهذا فإنّنا نرفع عيوننا نحو السّماء حيث الله ساكن؛ من حيث تأتي البركة، ومن حيث يأتي العون. ونحن إذ نقترب

---

٣٣٩) **المرجع نفسه**، ص. ٤٠-٤١.

٣٤٠) لقد ظهرت لفظة "أب" على لسان يسوع ١٧٠ مرّة في الأناجيل: ٤٢ مرّة في إنجيل متّى، ٤ مرّات في إنجيل مرقس، ١٥ مرّة في إنجيل لوقا، و١٠٩ مرّات في إنجيل يوحنّا.

إلى إلهنا هكذا فإنّنا نقترب إليه واثقين من محبّته الأبويّة، مقدّرين لعظمته السّماويّة باعتباره فوق كلّ الخليقة، وكلّ الكون.

علينا، كمسيحيّين، أن نتذكّر، عندما ندعو الله "أبانا"، أن نسلك سلوك أبناء الله، ذلك أنّنا لا نستطيع أن ندعو أبانا إلهَ كلّ صلاح، إذا احتفظنا بقلبٍ قاسٍ وغير إنسانيّ[٣٤١]. إنّها نظرةٌ إلى الله وحده، ونارُ حبٍّ عظيمة. فتذوب النّفس وتغوص في المحبّة المقدّسة، وتُحادِث الله كأبيها الخاصّ، بدالّة، في حنانٍ وتقوى متميّزَين. إنّ الاسم "أبانا" يبعث فينا في آنٍ واحدٍ الحبَّ والتعلّق في الصّلاة، وأيضًا رجاءَ الحصول على ما سنطلبه. فماذا يستطيع أن يرفض لصلوات أولاده بعدما سبق وسمح لهم أن يكونوا أولاده؟ ما أجمل ما قام به القدّيس كبريانس عندما ربط **أبوّة الله بأمومة الكنيسة**، قائلاً هذا القول الرّائع: "**لا يمكن أحدًا أن يكون الله أبًا له <u>إنْ لم تكن الكنيسة أمًّا له</u>**"[٣٤٢].

أمّا تعبير "الّذي في السّماوات" والّذي مررنا على ذكره سابقًا عند الإنجيليّ متّى، "فهذا التّعبير الكتابيّ لا يعني مكانًا وإنّما نمطَ وجود"[٣٤٣]. إنّ رمز السّماوات يُعيدنا إلى سرّ العهد الّذي نعيشه عندما نصلّي إلى أبينا. إنّه في السّماوات، وهي مسكنه، وبيت الأب هو إذن "وطننا". فالخطيئة إنّما نَفَتنا من أرض العهد (راجع تكوين ٣)، وتوبة القلب (راجع إرميا ٣: ١٩-٤: ١؛ لوقا ١٥: ١٨، ٢١) إنّما تُعيدنا إلى الآب، إلى السّماء. ومصالحة السّماء والأرض إنّما تمّت في المسيح، لأنّ الابن "نزل من السّماء" وحده، وهو يُصعدُنا إليها معه بصليبه وقيامته وصعوده (راجع يوحنّا ١٢: ٣٢؛ ١٤: ٢-٣؛ ١٦: ٢٨؛ ٢٠: ١٧؛ أفسس ٤: ٩-١٠؛ عبرانيّين ١: ٣؛ ٢: ١٣). لذا نقول "إنّ المسيحيّين هم في الجسد، ولكنّهم لا يعيشون بمقتضى الجسد. يقضون حياتهم على الأرض، ولكنّهم مواطنو السّماء"[٣٤٤]: "وأقامنا [الله] معه [المسيح] وأجلسنا معه في السّماوات في المسيح يسوع" (أفسس ٢: ٦؛ راجع أيضًا ٢ كورنثس ٥: ٢)، ذلك أنّ السّماء، وهي بيت الآب، هي الوطن الحقيقيّ الّذي نسعى إليه في مسيرة محجّنا من أورشليم الأرضيّة نحو أورشليم السّماويّة، على حدّ تعبير القدّيس بولس: "لأنّه

٣٤١) ***<u>التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة</u>***، عدد ٢٧٨٤، ص. ٧٨٢.
٣٤٢) ***<u>تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة</u>***، ص. ٣٦٧.
٣٤٣) ***<u>التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة</u>***، عدد ٢٧٩٤، ص. ٧٨٤.
٣٤٤) *المرجع نفسه*، عدد ٢٧٩٦، ص. ٧٨٥.

ليس لنا هنا مدينةٌ باقيةٌ، وإنّما نسعى إلى مدينةِ المستقبل" (عبرانيّين ١٣: ١٤)، وأيضًا: "أمّا نحن [المؤمنون باسم ابن الله] فموطنُنا في السّماوات ومنها ننتظر مجيء المخلّص الرّبّ يسوع المسيح الّذي سيُغيّر هيئةَ جسدنا الحقير فيجعلُه على صورة جسده المجيد بما له من قدرةٍ يُخضع بها لنفسه كلّ شيء" (فيلبّي ٣: ٢٠-٢١).

وهكذا، فإنّ عبارة "الأب الّذي في السّماوات" كانت، في التّقليد العبريّ، في زمن يسوع، تدلّ - رغم ندرة استعمالها - على تسامي الله وتعاليه، وعلى قدرته وسلطانه في الأرض وعلى كلّ السّاكنين فيها (راجع مزمور ٢٣: ١). وعليه، فإنّ السّماوات تدلّ على "المكان" الخاصّ بالله: "إنّما السّماء سماءُ الرّبّ" (مزمور ١١٥: ١٦)، ومن ثمّ أيضًا "السّماء" الّتي هي المجد الإسكاتولوجيّ (الأخرويّ). وأخيرًا تدلّ "السّماء" على "مكان" الخلائق الرّوحيّة – الملائكة – الّتي تُحيط بالله[٣٤٥].

- **ليتقدّس اسمك**

"إنّ الاسم، في المفهوم الكتابيّ، هو الشّخص ذاته"[٣٤٦]. إنّ اسم الله، في الواقع، متعلّقٌ بسُمعته بين النّاس والّتي، تؤيّد في الأساس، الله نفسَه، ذلك أنّ النّاس يتحدّثون عن الله بالتّكريم والتّبجيل اللّائقَين. وينبغي هنا أيضًا بأن نلفت الانتباه إلى أنّ فكرة القدرة والقوّة كانت مرتبطةً بهذا الاسم الإلهيّ. ذلك بأنّ الله أظهر، على مدى تاريخ إسرائيل، أنّه كائن، عبر أفعال خلاصٍ تجاه شعبه، جاعلاً قداسةَ اسمه تتجلّى وتشعّ، وكاشفًا عن كونه لا مثيل له[٣٤٧]. وهكذا، يتّضح أنّ اسم الله في العهد القديم كان جديرًا بالمحبّة (مزمور ٥: ١٢)، والتّسبيح (مزمور ٧: ١٨)، والتّقديس (أشعيا ٢٩: ٢٣). إنّه اسمٌ رهيب (تثنية ٢٨: ٥٨)، وأبديّ (مزمور ١٣٤: ١٣). وهو "نظرًا لاسمه العظيم" (يشوع ٧: ٩)، ولأجل اسمه (حزقيال ٢٠: ٩)، يعمل لصالح إسرائيل، ومعنى هذا أنّه يعمل لمجده لكي يعترف النّاس بعظمته وقداسته[٣٤٨].

---

٣٤٥) **المرجع نفسه**، عدد ٣٢٦، ص. ١١٧.

٣٤٦) جان پويّي، ***الله أبونا، الكشف عن الله الآب والصّلاة الرّبّيّة***، ص. ٥٩.

٣٤٧) I. Howard Marshall, ***The Gospel of Luke***, NIGTC, p.457.

٣٤٨) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٧٢.

نجد جذور هذا الفكر في كلٍّ من أشعيا وحزقيال. ففي أشعيا، نقرأ: "قدِّسوا ربّ القوّات، وليكُن هو خوفكم وفزعَكم" (٨: ١٣)؛ "متى رأوا أعمال يدي في وسطهم، فإنّهم يقدّسون اسمي، ويقدّسون قدّوس يعقوب، ويخشَون إله إسرائيل" (٢٩: ٢٣)؛ "لذلك يعرف شعبي اسمي في ذلك اليوم لأنّي أنا المتكلّمُ: هاءنذا حاضر" (٥٢: ٦). ونقرأ في حزقيال: "فأُقدِّس اسميَ العظيم الَّذي دُنِّس في الأمم الَّتي دنّستموه فيما بينها، فتعلمُ الأمم أنّي أنا الرّبّ، يقول السَّيِّد الرّبّ، حين أتقدّس فيكم على عيونها" (٣٦: ٢٣). من هنا يتبيّن أنّ التّقديس هو حصرًا عملٌ إلهيّ. إنّ الله، في العهد القديم، يقدّس اسمه عندما يكشف عن ذاته وقدرته: "أظهر لهم قداسته في ما بينهم" (عدد ٢٠: ١٣؛ انظر حزقيال ٢٨: ٢٢ ،٢٥، ٣٦: ١٦-٣٨، ٣٨: ١٨-٢٣). وهذا ما يدفع الإنسان إلى أن يلتفت نحو الله ويعترف بقداسته فيلتزم عبادته ويمدحه ويسجد له (عدد ٢٧: ١٤؛ تثنية ٣٢: ٥١؛ أشعيا ٨: ١٣). والله، تاليًا، يدلّ على قداسته حين يشرك الإنسان فيها، يقول: "كونوا قدّيسين كما أنّي أنا قدّوس" (أحبار ١١: ١٤)، وهذا من باب كبير أيضًا يكشف قداسة القدّوس الواحد.

إذا ما أمعّنا النظر في كتابات العهد الجديد نجد أنّ اسم الله يتردّد في نصوص أخرى من الإنجيل والرسائل. ففي زيارة مريم لنسيبتها أليصابات، أعلنت في نشيدها: "لأنّ القدير صنع إليّ أمورًا عظيمة: قدّوسٌ اسمُه" (لوقا ١: ٤٩)؛ وفي صلاة يسوع الكهنوتيّة، أعلن يسوع قائلاً: "أظهرتُ اسمك للنّاس الَّذين وهبتَهم لي من بين العالم" (يوحنّا ١٧: ٦)؛ وأيضًا: "أمّا الوثنيّون فيُمجّدون الله على رحمته، كما ورد في الكتاب: من أجل ذلك سأحمدُك بين الوثنيّين وأُرتّل لاسمك" (رومة ١٥: ٩)؛ وأيضًا: "فلنُقرّبْ لله عن يده ذبيحة الحمد في كلّ حين، أي ما تلفِظُه الشّفاه المسبّحة لاسمه" (عبرانيّين ١٣: ١٥)؛ وأخيرًا ما جاء في سفر الرّؤيا: "مَن تُراه لا يَخافُ اسمك لا يُمجّدُه يا ربّ؟ فأنتَ وحدك قدّوس. وستأتي جميع الأمم فتَسجدُ أمامك" (رؤيا ١٥: ٤). من المحتمل، في نهاية المطاف، أن يكون مرتبطًا بأهميّة الاسم الشّخصيّ لله الَّذي كشفه هو نفسه لموسى: "فقال موسى لله: ها أنا ذاهبٌ إلى بني إسرائيل، فأقول لهم: إلهُ آبائكم أرسلني إليكم. فإنْ قالوا لي: ما اسمُه، فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أنا هو مَن هو. وقال: كذا

تقول لبني إسرائيل: أنا هو أرسلني إليكم. وقال الله لموسى ثانيةً: كذا تقول لبني إسرائيل: الرّبُّ إلهُ آبائكم، إلهُ إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي للأبد وهذا ذكري من جيلٍ إلى جيل" (خروج ٣: ١٣-١٥). من هنا نقول إنّ اسم الله يُشير إلى هُويّته الشّخصيّة الخاصّة كما ظهرت من خلال أعماله ووحيه الخاصّ. وبالتّالي، فإنّ تقديس اسمه سيَشمل، على وجه التّخصيص، تنفيذ وصاياه في طاعةٍ واعية.

إنّ الله، في العهد الجديد، يكشف عن ذاته بصفته أبًا قدّوسًا (وهذا أكمل كشوفاته في التّاريخ)، هو أبٌ لابنٍ وحيدٍ أرسله من أجل أن يخلّص الإنسان الّذي انفصل عنه بارتكابه الإثم، وأن يهبه التبنّي ويعيده إليه، وذلك أنّ "مشيئة الله إنّما هي تقديسُكم" (١تسالونيكي ٤: ٣)، وهذا يعني أنّه يريد (ويعمل من أجل) أن يلتفت النّاس إليه، بمحبّةٍ كليّة، وأن يُعلّوا قداسته بقبولهم عطاياه في كلّ أقوالهم وأعمالهم (راجع أفسس ١: ٣-٤)، وأنّه يريدهم، تاليًا، أن ينشروا قداسته في الأرض، أو، كما يقول القدّيس كيرلّس الإسكندريّ في شرحه هذه الطلبة، أن "يشفعوا من أجل كلّ سكّان الأرض". ويسوع هو قدّوس الله، وقد قدّس الكنيسة لَمّا مات عنها (يوحنّا ١٧: ١٩؛ أفسس ٥: ٢٦؛ عبرانيّين ٩: ١٣؛ ١٠: ١٠، ١٤، ٢٩؛ ١٣: ١٢). ولَمّا وهبها الرّوح القدس خصّصها لله إلى الأبد (فعل " قدّس" يعني، في اللغة العبريّة حرفيًّا: "فصل"، "ميّز"، أو أيضًا "كرّس")، فالرّوح نفسه هو الّذي يقودها، في التّاريخ، لتثمر القداسة ولتكون "جماعةً كهنوتيّةً مقدّسة" (١ بطرس ٢: ٥)، "ومملكةً كهنة" (رؤيا ٥: ١٠)، وتعلن قداسة الله بلا انقطاع: "... وهي لا تنفكّ تقول نهارًا وليلاً: قدّوسٌ قدّوسٌ قدّوس، الرّبُّ الإله القدير، الّذي كان هو كائنٌ وسيأتي" (رؤيا ٤: ٨).

يوازي تقديس اسم الله تمجيده (علمًا أنّ الفعلين غير مترادفين). يقول القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم: "جديرٌ بالّذي يدعو الله أبًا أن يصلّيَ لا ليطلب شيئًا قبل مجد أبيه، بل أن يحسب كلّ الأشياء ثانويةً بالنّسبة إلى عمل تسبيحه"، ويتابع بقوله: "إنّ السَّيّد يأمر من يصلّي أن يطلب تمجيد الآب أيضًا بحياته". وهذا عينه ما أوحى به ثيودورس أسقف مصيصة في تعليقه على هذه الطّلبة، إذ قال: "قبل كلّ شيءٍ افعل ما يُوفّر المديح لله أبيك". وهذا الكلام يوسّع آفاق التّمجيد،

ذلك لأنّ الصّلاة تُظهر صدقها حياةُ النّاس الشّاهدين للحقّ (الأمينين حتّى الدمّ) فهي [الصّلاة] ليست كلامًا فحسب، ولكنّها أيضًا سلوكٌ وإخلاص. والله يستعمل هذا الإخلاص ليأتي بالعالم البعيد عن الحقّ إلى تمجيده، وفق قول السّيّد المبارَك في عظة الجبل: "هكذا فليضئ نوركم (أي إخلاصكم لله الّذي تعيشونه في شركة الكنيسة) للنّاس، ليَرَوا أعمالكم الصّالحة، فيمجّدوا أباكم الّذي في السّماوات" (متّى ٥: ١٦).

انطلاقًا من هنا، يتعلّق تقديس اسم الله بين الأمم بحياتنا وصلاتنا دون انفصال[٣٤٩]. فإذا عشنا عيشة حسنة يبارَك الاسم الإلهيّ. ولكن إذا عشنا عيشة سيّئة جُدِّف عليه بحسب كلام بولس الرّسول: "فقد ورد في الكتاب: يُجدَّف باسم الله بين الوثنيّين وأنتم السّبب" (رومة ٢: ٢٤؛ راجع أيضًا حزقيال ٣٦: ٢٠-٢٢). فنحن نصلّي لنستحقّ أن يكون في نفوسنا من القداسة بمقدار ما هو اسم إلهنا قدّوس.

- **ليأتِ ملكوتك**

"إنّ ملكوت الله في داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١)

تتضمّن هذه الطّلبة بُعدًا إسكاتولوجيًا (أخرويًّا) يُركِّز بمضمونه وأبعاده على سيادة الله، ذلك "أنّ حكم الله يعني نهاية حُكم الشّيطان والشّرّ"[٣٥٠]. من هنا نُدرك أنّ هذه الطّلبة تلتمس من الله أن يعمل من خلال إقامة حُكمه. هذا ما ورد في صلاة القادش اليهوديّة: "لكي يَدَعَ [الله] ملكوته يسود في حياتكم وفي إيّامكم وفي حياة كلّ بيت إسرائيل على وجه السّرعة وقريبًا". إنّ النّصوص اليهوديّة القديمة لا تحتوي على فكرة "مجيء" الملكوت، بينما نجد أنّ فكرة "مجيء" يوم الرّبّ شائعةٌ في أسلوب كتابات العهد القديم: "وَلولوا فإنّ يوم الرّبّ قريب، قادمٌ قدوم اجتياح من لدن القدير" (أشعيا ١٣: ٦)؛ وأيضًا: "أُنفُخوا في البوق في صهيون، واهتِفوا في جبل قُدسي، وليَرتَعِدْ جميع سكّان الأرض، فإنّ يوم الرّبّ آتٍ وهو قريب" (يوئيل ٢: ١)؛ وأخيرًا: "هاءنذا أُرسل إليكم إيليّا النّبيّ

---

٣٤٩) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٢٨١٤، ص. ٧٨٩.

٣٥٠) I. Howard Marshall, ***The Gospel of Luke***, NIGTC. p.457.

قبل أن يأتيَ يوم الرّبّ العظيم الرّهيب" (ملاخي ٣: ٢٣). نلاحظ أنّ هذه النّصوص الكتابيّة تتمحور حول الطّابع الإسكاتولوجيّ لمجيء يوم الرّبّ بارتباطه الوثيق بالدّينونة والخلاص.

مع يوحنّا المعمدان، أخذ موضوع ملكوت الله طابعًا آخَرًا متأصّلاً في التّوبة، إذ ظهر يُنادي في بريّة اليهوديّة فيقول: "توبوا، قدِ اقترب ملكوت السّماوات" (متّى ٣: ١). وهي الحقيقة نفسُها الّتي أعلنها يسوع عند بدء كرازته العلنيّة ببشارة الله: "حان الوقت واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالبشارة" (مرقس ١: ١٥). إنّ الصّلاة الرّبّيّة، ومن خلال هذين النّصّين الإنجيليّين، تضع ملكوت الله في متناول اليد، إذ يظهر كتحقيقٍ لوعود الله الّتي تمّت بشخص يسوع المسيح، وهي منذ يوم العنصرة، من عمل روح الرّبّ. لذلك، عبّر بولس الرّسول عن مفهوم هذا الملكوت، فقال: "فليس ملكوت الله أكلاً وشُربًا، بل برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الرّوح القدس" (رومة ١٤: ١٧).

للقدّيس أوغسطينوس مقولةٌ مأثورة: **"مَن هي مدينة الله، إن لم تكن الكنيسة المقدّسة؟"**. هل تتطابق الكنيسةُ مع ملكوت الله؟ يؤكّد القدّيس أوغسطينوس "أنّ الكنيسة هي بالفعل الآن ملكوت المسيح وملكوت السّماوات على الأرض". إنّ القدّيس **توما الإكويني** لا يتكلّم شيئًا مختلفًا عن ما تكلّم به القدّيس أوغسطينوس، فيقول: "إنّنا نتحدّث عن ملكوت الله بمعنًى مزدوج: الأوّل، كمجموعةٍ من الّذين يسيرون في الإيمان، وفي هذه الحالة تُدعى **الكنيسة المناضلة والمجاهدة** "ملكوت الله"؛ وبعد ذلك أيضًا، كجمهورٍ من الّذين بلغوا بالفعل هدفهم وهو الاتّحاد بالله، وفي هذا المعنى تُسمّى **الكنيسة المنتصرة** أيضًا "ملكوت الله""[٣٥١].

إنّ مفهوم "الملكوت" يُشير إلى بُعدٍ إسكاتولوجيٍّ (أُخرويّ). إلاّ أنّ هذا البُعد الّذي ينتمي في المقام الأوّل إلى النّظام النّوعيّ، قد دخل الزّمن، الزّمن البشريّ، بيسوع المسيح الكلمة الإلهيّ المتجسّد. من زمن المسيح فصاعدًا، دخلت الكنيسة كلّها نهاية الزّمن: إنّها الإسكاتولوجيا (الأخرويّة) بحدّ ذاتها. فبما

---

٣٥١) Christoph Sch., ***From death to life: The Christian journey***, p.76.

أنّ الكنيسة سماويّة، لأنّها هناك حيث المسيح كائن، وبما أنّها جسده، فهي ليست مكوَّنة فقط من المؤمنين الّذين ما زالوا يعيشون اليوم على الأرض، إنّما أيضًا من المؤمنين الّذين عاشوا قبلنا، والّذين سيأتون من بعدنا حتّى نهاية الزّمن. فهي إذن، حضور ملكوت الله الإسكاتولوجيّ على الأرض والمؤشّر إليه. لقد دعا المجمع الفاتيكانيّ الثّاني الكنيسة بأنّها سرّ الملكوت. في قلب الكنيسة الحاجّة، يحضر ملكوت الله بالفعل إلى الوجود، يُصبح واقعًا محسوسًا وملموسًا؛ إنّها [الكنيسة]، كما يقول القدّيس أوغسطينوس، العالم المتصالح؛ إنّها بالفعل الخليقة الجديدة. فمن أجل إنجاز مشيئة الآب، أسّس المسيح ملكوت السّماوات على الأرض، حيث حقّق فداء الجنس البشريّ من خلال طاعته، كما عبّر عن ذلك القدّيس بولس بقوله: "أطاع حتّى الموت، موت الصّليب" (فيلبّي ٢: ٨).

إنّ الكنيسة، ملكوت المسيح، وهي موجودةٌ بالفعل في السّرّ، تنمو بشكلٍ جليٍّ في العالم من خلال قوّة الله. لقد استهلّ يسوع رسالته بإعلانه الخبر السّار (الإنجيل)، عنَيت به مجيء ملكوت الله الّذي وعد به الله شعبه في الكتب المقدّسة: "حان الوقت واقترب ملكوت الله" (مرقس ١: ١٥؛ راجع أيضًا متّى ٤: ١٧). إنّ حضور الملكوت يكون ملموسًا في الأقوال والأعمال، ولكنّ الأهم من ذلك في الشّخص، في المسيح نفسه. فرسالة المسيح الخلاصيّة هذه مستمرّةٌ في الكنيسة من جيلٍ إلى جيل وحتّى منتهى الزّمن، إذ إنّها تسلّمت هذه الرسالة من الرّبّ القائم من بين الأموات لتُعلن من خلالها ملكوت الله وملكوت المسيح بين جميع الشّعوب. إنّها بالتّالي "تُمثّل بذرة هذا الملكوت وبدايته على الأرض"[٣٥٢]؛ وهي، في الوقت عينه، تتأمّل وتتوق إلى أن تكون في حالة اتّحادٍ روحيٍّ بمَلَكِها في المجد السّماويّ. إنّها تسير على طول كافة المسارات في محجّتها الأرضيّة، مستترةً مع المسيح في الله حتّى تظهر في المجد، متّحدةً بعريسها: "فأمّا وقد قُمتم مع المسيح، فاسعَوا إلى الأمور الّتي في العُلى حيث المسيح قد جلس عن يمين الله. إرغبوا في الأمور الّتي في العُلى، لا في الأمور الّتي في الأرض، لأنّكم قد مُتّم وحياتكم مُحتجبة مع المسيح في الله. فإذا ظهر المسيح الّذي هو حياتكم، تظهرون أنتم أيضًا عندئذٍ معه في المجد" (كولسّي ٣: ١-٤).

---

٣٥٢) **Ibid**, p.79.

إنّ الكنيسة الحاجّة هي الملكوت الَّذي يَنبت ويَنمي إلى أن يحين وقتُ الحصاد (راجع مرقس ٤: ٢٦-٢٩)، بحيث تكون الكنيسة في المجد السّماويّ هي الملكوت الكامل، الهدف النّهائيّ لمحجّة شعب الله المسيحانيّ من الكنيسة الأرضيّة المجاهدة إلى الكنيسة السّماويّة المنتصرة، من أورشليم الأرضيّة إلى أورشليم السّماويّة: إنّه اكتمال الزّمن البشريّ في أبديّة الله والملكوت. إنّ كلمة الله هي مثل بذرة زُرعَت في حقل (راجع مرقس ٤: ١٤-٢٠): أولئك الَّذين يسمعون كلمة الله في الإيمان ويُحسَبون ضمن القطيع الصّغير للمسيح ("لا تخف أيّها القطيع الصّغير، فقد حَسُنَ لدى أبيكم أن يُنعِم عليكم بالملكوت" لوقا ١٢: ٣٢) هم الَّذين اقتبلوا الملكوتَ نفسَه. فالقدّيسون يكشفون لنا كيف أنّ الكنيسة هي حقًّا الملكوتُ المقتبَل في الإيمان. في حياتهم، يكشف الله للإنسان بطرقٍ حياتيّةٍ عمليّةٍ حضورَه وملامحَه. إنّه [الله] يتكلّم فيهم ومن خلالهم معنا ويُعطينا مؤشّرًا على ملكوته الَّذي نحن منجذبون بقوّةٍ نحوه كأنّنا مُحاطون بغمامةٍ عظيمةٍ من الشّهود، ومدعوون، في الوقت عينه، إلى الشّهادة الشّخصيّة المتعلّقة بحقيقة الإنجيل، والمبنيّة على صخرة الإيمان بالرّبّ القائم، رغم كلّ الصّعوبات والعقبات الَّتي قد نواجهها في إعلان الشّهادة هذه: "لذلك فنحن الَّذين يُحيط بهم هذا الجمُّ الغفير من الشّهود، فلنُلق عنّا كلّ عبءٍ وما يُساورنا من خطيئة ولنَخُض بثباتٍ ذلك الصّراع المعروض علينا" (عبرانيّين ١٢: ١).

إنّ الكنيسة هي ملكوت الله على الأرض لأنّها الوسيلة الحيّة والأكثر حميميّة للدّلالة على اتّحاد البشريّة قاطبةً بالله. فمن خلالها وفيها، يدعو المسيح جميع النّاس لنفسه: بجلوسه عن يمين الآب، يعمل المسيح باستمرار في العالم ليقود النّاس أجمعين إلى الكنيسة وليجعلهم متّحدين على نحو أوثق وأعمق مع نفسه من خلالها [الكنيسة]. "نحن نعترف، وهذا الكلام للبابا بولس السّادس، أنّ ملكوت الله يبدأ هنا على الأرض في كنيسة المسيح"[٣٥٣]. فالملكوت هو بالفعل على الأرض، والكنيسة هي حقًّا في السّماء.

---

٣٥٣) **Ibid**, p. 83.

- **لتكن مشيئتك، كما في السّماء كذلك على الأرض**

"طعامي أن أعمل بمشيئة الّذي أرسلني وأن أُتِمّ عمله"

(يوحنّا ٤: ٣٤)

يتجلّى مفهوم مشيئة الله بارتباطها بتدبير الله الخلاصيّ في كلمات بولس الرسول القائل: "فإنّه [الله] يُريد أن يَخلُص جميع النّاس ويبلغوا إلى معرفة الحقّ" (١ تيموثاوس ٢: ٤). إنّها رغبةُ الله في خلاص الإنسان، صُنع يدَيه، بهدف إعادته إلى هُويّته الحقيقيّة الّتي هي حياة الشّركة مع الله في الفردوس، وطنه الأمّ. ولقد سطع ضياء مشيئة الله في شخص الابن الوحيد يسوع المسيح الّذي أتمّها بكمالها ولمرّةٍ واحدةٍ ونهائيّة، وقد أعلن مرارًا كثيرةً عن أنّه جاء لا ليعمل بحسب مشيئته، بل بمقتضى مشيئة الآب: الخلاص والحياة الأبديّة. هذا ما يبدو جليًّا في ما قاله يسوع في الإنجيل الرّابع: "فقد نزلتُ من السّماء، لا لأعمل بمشيئتي، بل بمشيئة الّذي أرسلني. ومشيئةُ الّذي أرسلني ألاّ أُهلِك أحدًا من جميع ما أعطانيه، بل أُقيمُه في اليوم الأخير. فمشيئةُ أبي هي أنّ كلّ مَن رأى الابن وآمن به كانت له الحياةُ الأبديّة، وأنا أُقيمُه في اليوم الأخير" (يوحنّا ٦: ٣٨-٤٠).

انطلاقًا من هذه الآيات المقدّسة، نخلص إلى القول إنّ يسوع هو الوحيد القادر على أنّ يعمل دائمًا مشيئة الله دون تردُّد، وهو القائل: "إنّ الّذي أرسلني هو معي، لم يتركْني وحدي، لأنّي أعمل دائمًا أبدًا ما يُرضيه" (يوحنّا ٨: ٢٩). حتّى إنّ يسوع نفسه، وهو الابن المساوي للآب في الجوهر الإلهيّ، ورغبة منه بتحقيق وعود الله للإنسان بالخلاص، أخلى ذاته، تجرّد من ذاته، خرج من ذاته "مُتّخذًا صورة العبد، وصار على مثال البشر، وظهر في هيئة إنسان، فوضع نفسه وأطاع حتّى الموت، موت الصّليب. لذلك رفعه الله إلى العُلى، ووهب له الاسم الّذي يفوق جميع الأسماء..." (فيلبّي ٢: ٦-١١). لذلك يسوع "جاد بنفسه من أجل خطايانا ليُنقذَنا من دُنيا الشّر هذه عملاً بمشيئة إلهنا وأبينا" (غلاطية ١: ٤).

وبالتّالي، ووَفقًا لإتمامه مشيئة الله الخلاصيّة هذه "صرنا مقدّسين بالقربان الّذي قُرّب فيه جسد يسوع المسيح مرّةً واحدة" (عبرانيّين ١٠: ١٠). وعليه، فإنّ مصطلح "لتكن مشيئتك" يعني أنّ على الإنسان المسيحيّ أن يتمثّل بالمسيح

فيجعل من مشيئة الله الخلاصيّة مشيئةً خاصّةً شخصيّةً لحياته بالطّاعة، والاستسلام، والاختيار، انطلاقًا من الآية الإنجيليّة الّتي قالها يسوع نفسه في صلاته الأخيرة على جبل الزّيتون: "... ولكن لا مشيئتي، بل مشيئتك!" (لوقا ٢٢: ٤٢). وهنا لا بدّ من الإشارة إلى شخصيّة مريم العذراء في تقبُّلها بطاعةٍ إيمانيّةٍ عظيمةٍ لمشيئة الله الخلاصيّة في حياتها من أجل حياة العالم كلّه، حين أعلنت للملاك المرسَل من الله لتبشيرها بالتّجسّد الإلهيّ قائلةً: "أنا أَمَةُ الرّبّ، فليكن لي بحسب قولك" (لوقا ١: ٣٨). إنّ مشيئة الله لا تتمّ في الأرض كلاميًّا فحسب، ولكن بالفعل أيضًا، أي بطاعة الحياة الّتي تعني الاستسلام والخضوع بتواضع لهذه المشيئة الإلهيّة الخلاصيّة. هذا كلّه يعني التّخلّي عن المشيئة الشّخصيّة الخاصّة. وذلك لأنّ مَن يتخلَّ عن مشيئته فهو قدّيس، كما يقول القدّيس يوحنّا السلّميّ. وهذا التّخلّي لا يعني أن نكون بلا مشيئة، ولكن أن تصبح مشيئة الله هي إيّاها مشيئتنا. يقول القدّيس كيرلّس الإسكندريّ: "أولئك الّذين يتوسّلون في صلواتهم أن تتمّ مشيئة الله على الأرض، ينبغي بالضرورة أن يَحيَوا هم أنفسهم بلا لوم، وألاّ يبالوا بالأمور الأرضيّة، بل أن يتحرّروا من كلّ دنس، ويقفزوا خارجًا من حفرة الإثم "مكمّلين القداسة في خوف الله" (راجع ٢ كورنثوس ٧: ١).

إنّ المسيحيّ "بالصّلاة يستطيع أن يُميِّز ما مشيئة الله"[٣٥٤]: "ولا تتشبّهوا بهذه الدّنيا، بل تحوّلوا بتجدُّد عقولكم لتتبيّنوا ما هي مشيئة الله، أي ما هو صالحٌ وما هو مرضيٌّ وما هو كامل" (رومة ١٢: ٢)، "فإيّاكم أن تكونوا من الأغبياء، بل افهموا ما هي مشيئة الرّبّ" (أفسس ٥: ١٧) ويحصل على الثّبات حتّى يعمل بها: "وإنّ بكم حاجةً إلى الصّبر لتعملوا بمشيئة الله فتحصلوا على الموعد" (عبرانيّين ١٠: ٣٦)، ذلك أنّ يسوع علّمنا أنّ دخول ملكوت السّماوات مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالعمل وليس بالكلام: "ليس مَن يقول لي: يا ربّ، يا ربّ يدخل ملكوت السّماوات، بل مَن **يعمل** بمشيئة أبي الّذي في السّماوات" (متّى ٧: ٢١؛ راجع أيضًا متّى ١٢: ٥٠؛ ١٨: ١٤؛ ٢١: ٣١).

---

٣٥٤) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٢٨٢٦، ص. ٧٩٣.

- **أعطنا خبزنا كفاف يومنا**

"أنا الخبز الحيّ الّذي نزل من السّماء" (يوحنّا ٦: ٥١)

"أعطنا خبزنا الجوهريّ"، ونفكّر طبيعيًّا بالخبز اليوميّ لنا ولجميع البشر. ولكنّ هذا الطلب في الواقع، يحوي معنًى أكثر عمقًا. العبارة اليونانيّة "إبيوسيوس" والّتي نترجمها "الجوهريّ"، يمكنها أن تعنيَ أيضًا الخبز "غير-الماديّ"، خبز الحياة، جسد المسيح "دواء الخلود" الّذي دونه لا حياة لنا في أنفسنا (راجع يوحنّا ٦: ٥٣-٥٦)، خبز "العالم الآتي". هذا ما وضّحه لنا الرّبّ في الإنجيل الشّريف، إذ قال: "لا تعملوا للطّعام الّذي يَفنى، بل اعملوا للطّعام الّذي يبقى فيصيرُ حياةً أبديّة، ذاك الّذي يُعطيكموه ابن الإنسان" (يوحنّا ٦: ٢٧). وفي موضع آخَر من الإنجيل الشّريف، قال يسوع للمجرِّب "الشّيطان": "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تخرج من فم الله" (متّى ٤: ٤).

إنّ بعض آباء الكنيسة لمسوا في ذلك إشارةً للإفخارستيا، خبز الحياة الأبديّة، حياة العالم الجديد الّذي أُعطِيَ لنا في القدّاس، لكيما ابتداء من الآن، يبدأ فينا العالم الآتي. مع الإفخارستيّا تأتي السّماء على الأرض، غد الرّبّ ينحدر في الحاضر وينغمر الوقت في الأبديّة الإلهيّة. من هنا نُدرك أنّ مصطلح "هذا اليوم" هو يوم الرّبّ، يوم وليمة الملكوت الّتي تسبقها وتمثّلها الإفخارستيّا، وهي المقدّمة لتذوّق الملكوت الآتي"[٣٥٥]. لذلك تُشدّد الكنيسة الكاثوليكيّة على الاحتفال اليوميّ باللّيتورجيّا الإفخارستيّة. وعليه، فإنّ كلمة "خبز" في هذه الطّلبة "تعني في آنٍ واحدٍ الخبز الماديّ الّذي يُغذّي الجسد، وبالأخصّ الخبز الرّوحيّ الّذي يُغذّي النّفس بكلمة الله والإفخارستيّا"[٣٥٦]، إذ إنّ أُمنية الإنسان المسيحيّ تكمن في رغبته التّوّاقة في الحصول على "خبز زمن الخلاص"، أي "المنّ السّماويّ"، لأنّه، إلى جانب الجسد، للإنسان روحٌ خالدةٌ تحتاج إلى غذاءٍ روحيٍّ لتبقى حيّة، وهذا الغذاء هو الإفخارستيّا المقدّسة. إنّ الخبز السّماويّ الّذي نطلبه هنا يُعزّز حياتنا الرّوحيّة ويقوّيها، كما يُساعدنا على تحقيق غاية حياتنا هنا على الأرض، الّتي تتمثّل في

---

٣٥٥) **المرجع نفسه**، عدد ٢٨٣٧، ص. ٧٩٥.

٣٥٦) جان بويّي، ***الله أبونا، الكشف عن الله الآب والصّلاة الرّبّيّة***، ص. ٦٩.

تمجيد اللّه، وفي تحقيق ملكوت اللّه على الأرض، من خلال تتميم مشيئته الإلهيّة[٣٥٧].

- **واغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لِمَن أساء إلينا**

إنّها لحظةٌ حاسمةٌ تدعو المصلّي إلى وقفةِ حقٍّ وتأمّلٍ واختلاءٍ بينه وبين نفسه على ضوء السّؤال الّذي يطرح بثقله عليه: هل أعيش الغفران في حياتي مع نفسي ومع الآخرين؟ هل من حدودٍ لهذا الغفران؟ إنّ الإجابة على هذه الأسئلة المِفصليّة سيأتي من الكتاب المقدّس نفسه ومن كلام السَّيِّد المسيح في الإنجيل المقدّس. تُسلِّم اليهوديّة بأنّ مغفرة اللّه حاجةٌ إنسانيّةٌ أساسيّة. فصاحب المزامير سيفرح فرحًا نابعًا من سلامه الدّاخليّ القلبيّ المبني على ثقته البنويّة بأنّ سرعة مغفرة اللّه سببها حنانه وحبّه الأبويّ، فيُعلنها بإيمانٍ راسخ: "لا على حسب آثامنا عاملنا. ولا على حسب خطايانا جازانا. بل بمقدار ارتفاع السّماء عن الأرض. عَظّم الرّبّ رحمته على الّذين يتّقونه. بمقدار بُعد المشارق عن المغارب. أبعد عنّا آثامنا. كما يرأف الأب ببنيه. رَئِفَ الرّبّ بالّذين يتّقونه" (مزمور ١٠٢: ١٠-١٣).

فليس كلُّ مَن يعترف بأنّ اللّه رحيم، هو بالضّرورة يقرّ بأنّه إنسانٌ خاطئ، وبأنّ اللّه، تاليًا، قادرٌ على أن يعيد له مكانته الأولى، أي أن يصنعه جديدًا. وإذا فكّرنا قانونيًّا، فإنّ اعترافنا بذنوبنا يعني أنّنا لا نستحقّ مغفرة اللّه، بل عقابه. ولكنّ محبّة اللّه تمنعنا من أن نفكّر على هذا المنوال، لأنّ منطقه يخالف منطق هذا العالم وقوانينه. فهو يغفر للنّاس لأنّه يحبّهم، وليس لأنّ البشر يستحقّون: "أمّا اللّه فقد دلّ على محبّته لنا بأنّ المسيح قد مات من أجلنا إذ كنّا خاطئين" (رومة ٥: ٨). وهذا الفعل عينه يريدنا الربّ أن نترجمه مع الآخرين، وذلك أنّ مَن يقرّ بخطاياه لا يرى خطايا البشر شيئًا. وليس هذا فقط، ولكن أن نعرف أنّ كلّ شرٍّ يرتكبه أحد بحقّنا، ليس هو بشيءٍ أمام الشّرور الّتي نرتكبها نحن بحقّ اللّه. يقول القدّيس غريغوريوس النّيصيّ في هذا الصّدد:

---

٣٥٧) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.308.

"إنّ ديون إخوتنا لنا، لو قارنّاها بتجاوزاتنا تجاه الله، لبدت وكأنّها بضع قطعة نقديّة لا تذكر، يسهل عدّها، قياسًا بالوزنات التي تلقّيناها من الله، وهي لا تحصى" (أنظر مَثل "العبد غير الشّفوق" في متّى ١٨: ٢٣- ٣٥).

فالله يريدنا أن نغفر للآخرين ذنوبهم كما غفر لنا المسيح: "ليكن بعضُكم لبعضٍ مُلاطِفًا مُشفِقًا، وليَصفح بعضُكم عن بعضٍ كما صَفَحَ الله عنكم في المسيح" (أفسس ٤: ٣٢؛ راجع أيضًا كولسّي ٣: ١٣)، وهو يرتّب غفرانه الأخير على أساس غفران البشر بعضهم لبعضٍ من كلّ قلوبهم. فالتّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة يُعلِّم "أنّ الصّلاة المسيحيّة تبلغ حتّى المغفرة للأعداء (متّى ٥: ٤٣-٤٤). إنّها تغيِّر التّلميذ ليُشابه معلّمه. والمغفرة هي ذروةٌ في الصّلاة المسيحيّة؛ ولا يُمكن أن تُقبَل موهبة الصّلاة إلاّ في قلبٍ متطابقٍ مع الرّأفة الإلهيّة. والمغفرة تشهد أيضًا أنّ المحبّة في عالمنا أقوى من الخطيئة... والمغفرة هي الشّرط الأساسيّ للمصالحة (راجع ٢ كورنثس ٥: ١٨-٢١) بين أبناء الله وأبيهم، وبين النّاس بعضهم مع بعض"[٣٥٨].

فالرّحمة واجبةٌ في كلّ حال، وهي واجبةٌ قبل الذّبيحة. وذلك أنّ الله لا يرضى أن يقف أمامه عابدًا من أظلم قلبَهُ الحقد. يقول الرّبّ: "فإذا كنتَ تقرّب قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، فدعْ قربانك هناك عند المذبح، واذهب أوّلاً فصالح أخاك، ثمّ عُدْ فقرّب قربانك" (متّى ٥: ٢٣-٢٤). وهذا يؤكّد أنّ الشّركة مع الله تمرّ عبر مصالحة القريب، هذه المصالحة الّتي لا يؤجّلها أمر ولا حتّى تقديم العبادة لله نفسه. ومن الثّابت أنّ الرّبّ أعطى المغفرة مكان الصدارة في حياة الجماعة، فنقرأ: "فدنا بطرس وقال له: يا ربّ، كم مرّةً يخطأ إليّ أخي وأغفر له؟ أسبع مرّات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك: سبع مرّات، بل سبعين مرّةً سبع مرّات" (متّى ١٨: ٢١-٢٢). وهذا يجب أن نفهمه في سياق تصرّفات الله معنا. فالله الّذي رحمته كاملةٌ يدعونا إلى الاقتداء به.

٣٥٨) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ٢٨٤٤، ص. ٧٩٨.

- **ولا تُدخلنا في التّجارب**

في الكتب المقدّسة وردت كلمتان متناقضتان بمعنى التّجربة، هما: الامتحان والإغراء. الامتحان، هو طريقةٌ تأديبيّةٌ يمتحن الله فيها الإنسان ليعرف كلّ ما في قلبه (خروج ١٥ :٢٥؛ ١٦: ٤؛ ٢٠: ٢٠؛ تثنية ٨: ٢، ١٦؛ قضاة ٢: ٢٢؛ ٣: ١، ٤؛ ٢ أخبار ٣٢: ٣١)، لينقّيه كما ينقّى الذّهب والفضّة (حكمة ٣: ٦؛ مزمور ٦٦: ١٠)، هو (الامتحان)، إذًا، فرصةٌ تساعد الإنسان على أن يكتشف إيمانه وتقوده إلى أن يحيا لله وحده. وأمّا الإغراء فهو حركةٌ تردُّدٍ في النّفس البشريّة بين النّعمة الإلهيّة والخطيئة. المغري دائمًا هو الشّيطان (أو الشّهوة الّتي في داخل الإنسان)، وهي، بهذا المعنى، دعوةٌ إلى الموت (يعقوب ١: ١٣- ١٥؛ أنظر أيضًا: ١ كورنثوس ٧: ٥؛ رؤيا ٢: ١٠). وهذا (الإغراء الّذي مصدره الشّيطان) هو معنى التّجربة في هذه الطّلبة. تردّ هذه المقدّمة على الّذين يتبادر إلى ذهنهم أنّ الله هو الّذي يجرّب (يغري) النّاس. فالله قدّوسٌ ولا يمكن أن يعمل عمل الشّيطان (يشوع بن سيراخ ١٥: ١١-١٢). هذا ما يؤكّده القدّيس يعقوب في رسالته: "إذا جُرِّب أحدٌ فلا يَقُل: إنّ الله يُجرِّبني. إنّ الله لا يُجرِّبُه الشّرُّ ولا يُجرِّب أحدًا، في حين أنّ لكلّ إنسانٍ شهوةً تُجرِّبُه فتَفتنه وتُغويه. الشّهوة إذا حبلت وَلَدَتِ الخطيئة، والخطيئة إذا تمّ أمرُها خلَّفت الموت" (يعقوب ١: ١٣-١٥). وهذا ما تكلّم عنه أيضًا السَّيِّد المسيح لتلاميذه في بستان الزّيتون: "إسهروا وصلُّوا لئلاّ تقعوا في التّجربة" (متّى ٢٦: ٤١).

نُدرك انطلاقًا من هذا الكلام أنّ المؤمن بطلبته هذه يتضرّع إلى الله بحرارةٍ إيمانيّة فيها رغبةٌ شخصيّةٌ صادقة وقرارٌ جريء بألاّ نسقط في إغراءات التّجربة، وهذا يتطلّب من الإنسان المؤمن استدعاءَ قوّةٍ إلهيّةٍ مؤازِرَةٍ هي قوّة الرّوح القدس الّذي يمنحه التّمييز والمعونة في التصدّي لأهواء التّجربة الّتي أسقطت قديمًا جدَّينا الأوّلين آدم وحوّاء اللّذين وقعا في كذب التّجربة الّتي موضوعها في الظّاهر طيّبٌ ومُتعةٌ للعيون ومُنيةٌ للعقل، بينما ثمرتها في الواقع هي الموت (راجع تكوين ٣: ٦).وعليه، فإنّنا نقول إنّ عدم الدّخول في التّجربة يتطلّب من الإنسان قرارًا نابعًا من عقلٍ ساهر، وفكرٍ حكيم، وقلبٍ قنوعٍ متيّقظ، يكون مبنيًّا على صخرة الإيمان الحقيقيّ بيسوع المسيح، وقائمًا على أساساتٍ متينةٍ هي الصّلاة.

- **لكن نجّنا من الشرّير**

يُعلّم التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة فيقول: "في هذا الطّلب، الشرّ ليس شيئًا مجرّدًا، بل هو يدلّ على شخص: الشّيطان، الشّرّير، الملاك الّذي يُقاوم الله. إبليس (في اليونانيّة ذياڤولس) يعني مَن "يُلقي بذاته ليُعيقَ" قصد الله وعملَه الخلاصيّ الّذي أتمّه المسيح"[٣٥٩]. إنّ الشّيطان، بحسب لاهوت الكنيسة، لم يكن مجرّد كائنٍ خياليّ، بعيدٍ وغير مُهتمٍّ بمصيره، بل إنّه مخلوقٌ شَرس، قريبٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، مخادِع، جذّاب، يُغري الغافلين بالعادات الشّرّيرة، ليَزجّ بهم في الجحيم الأبديّ. هذا ما عبّر عنه القدّيس بطرس في معرض تنبيهاته على المؤمنين، قائلاً: "كونوا قنوعين ساهرين. إنّ إبليس خصمَكم كالأسد الزّائر يَرودُ في طلب فريسةٍ له" (١ بطرس ٥: ٨).

يربط يسوع بين أبوّة الله الحقيقيّة للإنسان من خلال الإيمان به وبكلامه ورسالته، وأبوّة إبليس الكاذبة للإنسان الّذي لا يريد أن يؤمن به ولا بكلامه، فيقول في الإنجيل الرّابع: "... لو كان أبوكم هو الله لأحببتموني لأنّي من الله خرجتُ وجئت. فأنا لم آتِ من نفسي بل هو الّذي أرسلني... فإنّ أباكم أنتم هو إبليس، وشهوات أبيكم تُريدون تنفيذها. إنّه منذ البدء قتّال النّاس، ولم يثبُتْ على الحقّ لأنّه لا حقّ فيه. فإذا تكلّم بالكذب فإنّما يتكلّم بما عنده لأنّه كذوبٌ وأبو الكذب" (يوحنّا ٨: ٤٢-٤٤).

إنّ الطّلبة الحاضرة توجّه أنظار وقلوب المؤمنين إلى طلب التحرُّر من عبوديّة الشّيطان المرّة الّتي ثمارها الخطيئة، والموت، والمعصية، والحزن، والظّلمة... والتماس الحريّة الحقيقيّة الّتي تجعل المؤمن ابنًا لله، حرًّا، وفرحًا، وسائرًا على الدّوام في النّور الإلهيّ الّذي يُنير دروبه ومسيرته الإيمانيّة. كلّ هذا يتطلّب من الإنسان ثورةً وانتفاضةً وانقلابًا على الذات، على عاداتها السّيّئة، على القيم الفاسدة الّتي شوّهت مفهوم العلاقة الصّحيحة مع الله. ساعتئذٍ، يتدخّل الله إلى جانب قرارنا الشّخصيّ هذا ويُزيح الحجر الكبير الّذي وُضِعَ على باب قلوبنا، والّذي جعل منها مكانًا للموت والعبوديّة، مكانًا تفوح منه رائحة الموت النّتِنة،

٣٥٩) **المرجع نفسه**، عدد ٢٨٥١، ص. ٨٠٠.

قبرًا يحوي ذواتنا المنفصلة عن محبّة الله - ("تأتي ساعة – وقد حضرت الآن – فيها يسمع الأموات صوت ابن الله، والّذين يسمعونه يحيَون"، يوحنّا ٥: ٢٥).

وهنا يطرح السّؤال نفسه: مَن هم الأموات؟ إنّهم كلّ إنسانٍ ما زال بعيدًا عن محبّة الله، لم يختبر عِظَم هذه المحبّة الخلاصيّة المجّانيّة، ما زال قابعًا في أنانيّته (مركزيّة الذّات القاتلة)، وكبريائه، وحقده، ونقمته على ذاته وعلى الآخرين) – ومُعلنًا انتصار مخطّط الله الخلاصيّ في حياة المؤمن ومسلكيّته، وبزوغ فجرٍ جديدٍ مُشعٍّ بالأنوار الإلهيّة، هو فجر القيامة، فجر النّهار الّذي لا مساء له. هذا ما عبّر عنه بطريقةٍ بليغةٍ القدّيس بولس في مقارنته بين عبوديّة الخطيئة وحريّة الله، يقول: "لَمّا كنتم عبيدًا للخطيئة، كُنتُم أحرارًا من جهة البرّ، فأيّ ثمرٍ حملتم حينذاك؟ إنّكم تخجلون الآن من تلك الأمور لأنّ عاقبتها الموت. أمّا الآن، وقد أُعتِقتم من الخطيئة وصِرتم عبيدًا لله، فإنّكم تحملون الثّمر الّذي يقود إلى القداسة، وعاقبته الحياة الأبديّة. لأنّ أُجرة الخطيئة هي الموت، وأمّا هِبَةُ الله فهي الحياة الأبديّة في يسوع المسيح ربّنا" (رومة ٦: ٢٠-٢٣).

يشرح القدّيس كبريانس هذه الطّلبة بقوله:

"هذه الطّلبة هي خاتمة الصّلاة، وفيها مُجمَل طلباتنا وابتهالاتنا. فإنّنا بقولنا "نجّنا من الشّرّير"، نشمل كلّ مَن يحرّضهم العدوّ علينا من الخصوم، وننال بتوسّلاتنا من الله حمايةً صادقةً وقوّةً تنصُرُنا عليهم. فمتى قلنا إذن "نجّنا من الشّرّير"، لم يبقَ ما يلزم أن نطلبَه، لأنّنا طلبنا إجمالاً حمايةَ الله من كلّ شرّ، ومتى حصلنا على هذه الحماية، صرنا في أمانٍ من تصرّفات البشر والشّيطان جميعًا. فماذا يخشى من العالم مَن كان الله في العالم حاميَه؟"[٣٦٠].

---

٣٦٠) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص. ٣٧٧.

٦. صلاة حِناية الرّأس

بعد أن يدعونا الكاهن إلى حِناية الرّؤوس "إحنُوا رؤوسَكم للرّبّ"، ونُجيبه "لك يا ربّ"، يصلّي هذه الصّلاة الجميلة، الّتي تُشكّل أيضًا صلاةً تحضيريّةً للمناولة المقدّسة:

نشكرك أيّها الملكُ غير المنظور، يا مَن بقدرته الّتي لا تُقدَّر، أبدع الأشياء كلّها، وبرحمته الوافرة، أخرجها من العدم إلى الوجود. أنت أيّها السّيّد، تطلّع من السّماء إلى الّذين حنَوا لك رؤوسهم. فإنّهم لم يحنوها للحمٍ ودم، بل لكَ أنتَ الإله الرّهيب. فأنت إذن أيّها السّيّد مهّد طرقنا لخير كلّ واحدٍ منّا، وفقًا لحاجته الخاصّة: رافق المسافرين، إشفِ المرضى، يا طبيب نفوسنا وأجسادنا. بنعمة ابنك الوحيد. ورأفته ومحبّته للبشر. الّذي أنت مباركٌ معه. ومع روحك القدّوس الصّالح والمُحيي. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

- **مقدّمة**

نجد هذه الصّلاة في الصّيغة اللّيتورجيّة القديمة لأنافورا القدّيس هيوبليتس في القرن الثّالث للميلاد. كما أنّها موجودةٌ في ليتورجيّا الدّساتير الرّسوليّة أيضًا[٣٦١]. إنّها صلاةٌ موجّهةٌ إلى الله الآب، يطلب فيها الكاهن باسم جماعة المؤمنين بركة الله ونعمته قبل استقبال المناولة المقدّسة.

أ. لماذا حِناية الرّأس؟

إنّ دعوة الكاهن للمؤمنين المشتركين في اللّيتورجيّا الإفخارستيّة الإلهيّة لحِناية رؤوسهم للرّبّ هي دعوةٌ إلى الاستسلام الإيمانيّ والطّاعة الاختياريّة لإرادة الله ومشيئته في حياتهم الخاصّة. إنّ حني الرّأس أثناء هذه الصّلاة هو، إذًا، تعبيرٌ خارجيٌّ عن التّواضع والخضوع لله، فضلاً عن إمتنان المؤمنين العميق لله الّذي هيّأ هذه الوليمة المقدّسة، ودعاهم للاشتراك فيها (راجع متّى ٢٢: ١-١٤). كما يؤكّد الكاهن في الصّلاة اللّيتورجيّة هذه أنّ المؤمنين لا يحنون رؤوسهم "للحمٍ ودم" أي للكاهن، إنّما لله الخالق والمبدع، وفي الوقت عينه، يحنون

---

٣٦١) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.309.

رؤوسهم لجسد ودم الرّبّ يسوع المسيح. ثمّ يذكر الكاهن بنوعٍ خاصٍّ **المسافرين والمرضى**، أولئك الّذين لا يستطيعون الاشتراك والحضور شخصيًّا في الوليمة الإفخارستيّة. تُظهر الكنيسة المقدّسة عميق مواساتها واهتمامها لأولئك الّذين لا يقدرون على تلقّي المناولة المقدّسة. إنّها لا تنسى أولئك الّذين أعاقهم السّفر أو أولئك الّذين هم طريحو الفراش، ولا يستطيعون الاشتراك مع الجماعة في الوليمة الإفخارستيّة. إنّها تذكرهم مباشرةً قبل بدء الوليمة المقدّسة، مناشدةً الله أن "يرافق المسافرين"، و"يشفي المرضى".

يظهر موضوع الصّلاة بوضوحٍ في نصّ ليتورجيّا القدّيس باسيليوس الكبير، حيث يسأل الكاهن الله قائلاً:

> **أيّها السّيّد الرّبّ. يا أبا الرّأفة وإله كلّ تعزية. بارك الّذين حنَوا لك رؤوسهم. قدّسهم. صُنهم. حصّنهم. قوّهم. إجعلهم يبتعدون عن كلّ عملٍ شرّير. ويلزمون كلّ عملٍ صالح. وأهّلهم أن يشتركوا بلا دينونةٍ في أسرارك الطّاهرة المُحيية. لغفران الخطايا وشركة الرّوح القدس**

ب. هل من واجبٍ إنسانيّ لشكر الله؟

تتضمّن هذه الصّلاة شكرًا وعرفانًا لجميل الله الّذي خلق الأشياء كلّها مُخرجًا إيّاها "من العدم إلى الوجود"، وفي هذه الكلمات تلميحٌ بارزٌ لآيات سفر التّكوين، حين خلق الله كلّ شيءٍ بما فيه الإنسان المخلوق على صورته ومثاله: "في البدء خلق الله السّماوات والأرض، وكانت الأرض خاويةً خالِيةً، وعلى وجه الغَمر ظلام، وروح الله يُرفُّ على وجه المياه..." (تكوين ١-٢: ٤).

إنّ القدّاس الإلهيّ يُسمّى "سرّ الشّكر" لأنّه مائدةٌ يشكر فيها الإنسانُ اللّهَ على الخيرات الماديّة والرّوحيّة الموهوبة له. يشكره على الحياة المعطاة له وكلّ ما تحتاجه من مادّةٍ وروح. يبارك الله الإنسانَ بالخيرات الماديّة والنّعم الرّوحيّة، ويبارك الإنسانُ الله أي يشكره على هذه المحبّة، جوابًا على البركة الإلهيّة. وهذه الحركة هي "الإفخارستيّا" أو "سرّ الشكر". فالإنسان مدعوٌّ ليحوّل الكون كلّه وجميع خيراته إلى "تقدمة"، إنّه مدعوٌّ ليتمّ كلّ لحظةٍ ليتورجيّا الكون وإفخارستيّا الخليقة كلّها، ذلك أنّ المسيحيّة دعوةٌ

لسرّ شكرٍ كونيّ. إنّ المسيحيّ، تاليًا، مدعوٌّ وبجدّيةٍ ليستخدم كلّ خيرات الدّنيا ويعطيها شرفها وقيمتها إذ يرفعها إفخارستيًا للّه، كما عبّر عن ذلك القدّيس بولس قائلاً: "اشكروا اللّه الآب كلّ حينٍ على كلّ شيءٍ باسم ربّنا يسوع المسيح" (أفسس ٥: ٢٠). انطلاقًا من كلام القدّيس بولس هذا نؤكّد بأنّ ابن اللّه، الكلمة المتجسّد، يسوع المسيح هو مصدر النّعم الإلهيّة ومحقّقها في حياة الإنسان، ولذلك يشكر الإنسان اللّه على كلّ ما أنعم به عليه بالحبيب يسوع المسيح.

ختامًا نقول إنّ الشّكران هو اعترافٌ بأنّ اللّه أحبّ الإنسان وناداه إلى الوجود وغفر له خطاياه ودعاه إلى الشّركة الكاملة معه من خلال التّبنيّ الإلهيّ للإنسان من خلال الابن يسوع المسيح: "أمّا الّذين قبلوه، وهُمُ الّذين يؤمنون باسمه، فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء اللّه: فهُمُ الّذين لا من دمٍ، ولا من رغبة لحمٍ، ولا من رغبة رجل، بل من اللّه وُلدوا" (يوحنّا ١: ١٢-١٣)؛ وأيضًا ما جاء على لسان القدّيس بولس، قائلاً: "فلمّا تمّ الزّمان، أرسل اللّه ابنَه مولودًا لامرأةٍ، مولودًا في حُكم الشّريعة ليفتديَ الّذين هم في حُكم الشّريعة، فنَحظى بالتّبنّي. والدّليل على كونكم أبناء أنّ اللّه أرسل روح ابنه إلى قلوبنا، الرّوح الّذي يُنادي: يا أبتِ. فلستَ بعدُ عبدًا، بل ابنٌ، وإذا كنتَ ابنًا فأنتَ وارثٌ بفضل اللّه" (غلاطية ٤: ٤-٧). يتبيّن من خلال هذَين النّصَّين الكتابيَّين أنّ نعمة التّبنّي هي من أعظم العطايا الإلهيّة للإنسان والّتي تُحتّم عليه أن يشكر اللّه عليها كلّ حينٍ وبلا انقطاع، بحيث لا يستطيع كلّ إنسان "حتّى لو كان مسيحيًا" أن يُقدّم للّه هذا الواجب الشّكريّ الإفخارستيّ إلاّ إذا اختبر بالإيمان الحيّ والمُعاش بالابن معنى "التّبنّي" وقيمته على الصّعيدَين الرّوحيّ والإنسانيّ.

ت. هُويّة الطّبيب

تتكلّم كتابات العهد الجديد عن طبيبٍ استطاع أن يُجهّل حكمة الحكماء وعلم العُلماء، فكان أملاً ورجاءً لكلّ إنسانٍ فَقَدَ الأمل والرّجاء في شفائه من أمراضه الرّوحيّة والنّفسيّة والجسديّة المستحوذة عليه: إنّه الطّبيب الإلهيّ يسوع المسيح، الّذي جاء إلى عالمنا وتاريخنا ليُقدّم لنا الدّواء الضروريّ اللّازم لشفائنا من آلامٍ كثيرةٍ عرّتنا من شخصيّتنا الحقيقيّة، إنّها آلام غُربتنا، ومَنفانا،

وعبوديّتنا المرّة، وأمراضنا ومعاصينا... فكان الإنسان صاحب الدّاء، وجاء المسيح يُقدّم الدّواء. يتميّز هذا الطّبيب السّماويّ بقدرته الإلهيّة على صُنع ما يعجز عن إتمامه العلم والتكنولوجيا الطّبيّة في إيّامنا الحاضرة؛ يتميّز بلمسته الرّقيقة وشعوره المرهف تجاه الإنسان المعذّب والمريض والمتألّم. هو مَن أقام الموتى من قبورهم وعبّر عن أحاسيسه ومشاعره فبكى وحزن وتألّم وتحنّن (أنظر "إحياء ابن أرملة نائين"، لوقا ٧: ١٢-١٣؛ "إحياء لعازر"، يوحنّا ١١: ٣٤-٣٥، ٣٨)؛ هو مَن أعطى السّمع للّذين لم يسمعوا طيلة حياتهم، فسمعوا صوتًا عذبًا إلهيًّا يُعطيهم إشراقة أملٍ جديدٍ لحياتهم؛ هو مَن وَهَبَ البصر للّذين لم يرَوا شيئًا وعاشوا كلّ حياتهم في ظلامٍ مدلهم (الأعمى منذ مولده)...

لقد جاء هذا الطّبيب ليؤكّد لنا ما سَبَقَ أشعيا النبيّ وتنبّأ عنه في نشيد عبد الله المتألّم الرّابع، إذ قال: "... لقد حَمَلَ هو آلامَنا واحتمل أوجاعَنا... طُعِنَ بسبب معاصينا وسُحِقَ بسبب آثامنا... وبجُرحه شُفينا... لأنّه أسلم نفسه للموت، وأُحصِيَ مع العُصاة، وهو حَمَلَ خطايا الكثيرين، وشَفَعَ في معاصيهم" (أشعيا ٥٢: ١٣-٥٣: ١٢). إنّ القدّيس بطرس هامة الرّسل قد تكلّم في رسالته الأولى عن الدّواء الّذي قدّمه لنا يسوع والّذي به شُفينا نحن من جراحنا ومعاصينا وأمراضنا، يقول: "هو الّذي حَمَلَ خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن خطايانا فنحيا للبرّ. وهو الّذي بجراحه شُفيتم" (١ بطرس ٢: ٢٤). لقد تحنّن المسيح الطّبيب على المرضى وشفاهم من جميع عاهاتهم، وأعطى رسله وكهنة العهد الجديد هذا السّلطان أيضًا بقوله: "اشفوا المرضى" (متّى١٠: ٨)، وأرسلهم مُشركًا إيّاهم بخدمة الرّحمة والشّفاء: "فمضَوا ونادَوا بالتّوبة. وطردوا شياطين كثيرين. ودَهَنوا بالزّيت مرضى كثيرين فشفَوهم" (مرقس ٦: ١٢-١٣). ثم جدّد لهم هذا الإرسال بعد قيامته، قائلاً: "إذهبوا إلى العالم كلّه، وبشّروا بالإنجيل الخليقةَ كلّها. فمَن آمن واعتمد يَخلُص. ومَن لم يؤمن يُحكَم عليه. وها هي ذي الآياتُ الّتي تَصحَبُ الّذين يؤمنون: إنّهم باسمي يطردون الشّياطين، ويتكلّمون ألسنةً جديدة، ويأخذون الحيّات بأيديهم، وإذا شَربُوا سُمًّا قاتلاً لا يؤذيهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيُبرأون" (مرقس ١٦: ١٥-١٨).

هذه هي رسالة الكنيسة الأساسيّة، أن تكون المشفى الّذي يستقبل المرضى ليُبرأوا من أمراضهم وبخاصّةٍ الأمراض الرّوحيّة؛ أن تكون كنيسة الزّيارة – باسم يسوع المسيح للمرضى في المستشفيات والبيوت – الّتي أعلنها هو نفسُه في إنجيل الدّينونة، حين قال: "كنتُ مريضًا فعُدتُموني" (متّى ٢٥: ٣٦، ٣٩، ٤٣-٤٤).

٧. صلاة المناولة

أصغ أيّها الرّبّ يسوع المسيح إلهنا. من مسكنك المقدّس. ومن عرش مجد مُلكك. وهلُمّ لتقديسنا. أيّها الجالس في العلاء مع الآب. والحاضر معنا ههنا غير منظور. وارتض أن تُشركنا. بيدك العزيزة. في جسدك المقدّس ودمك الكريم. وأن تُشرك فيهما بواسطتنا كلّ الشّعب

إنّ هذه الصّلاة، هي على عكس معظم الصّلوات اللّيتورجيّة، موجّهةٌ إلى الرّبّ يسوع المسيح وليس للّه الآب. يطلب الكاهن من المسيح، حمل اللّه والخبز السّماويّ، بركته الإلهيّة من علياء سماواته لبدء العشاء الإفخارستيّ. إنّ المسيح ليس عظيم الكهنة في اللّيتورجيّا والضّحيّة نفسها فحسب، لكنّه هو الموزّع أيضًا. إنّه هو الّذي يُقدّم السّرّ المقدّس نفسه إلى الكاهن، ومن خلال الكاهن إلى جماعة المؤمنين. على الرّغم من أنّ المسيح "يجلس في العلاء مع الآب" على عرش المجد، إلاّ أنّه في الوقت عينه "حاضرٌ معنا ههنا غير منظور".

إنّ غاية مجيء المسيح تكمن في تقديسنا "هلمّ لتقديسنا"، بحيث يشتمل هذا المجيء على تطهير النّفس من الخطيئة ومن الاهتمامات الدّنيويّة، إذ إنّ "القدّيسين" هم القادرون فقط على الاشتراك في القرابين المقدّسة، لأنّ "الأقداس هي للقدّيسين".

٢) طقس المناولة المقدّسة

يتضمّن طقس المناولة المقدّسة هذا العديد من الحركات الطّقسيّة اللّيتورجيّة، أهمّها:

١. رفع الحمل المقدّس عاليًا.

٢. كسر الحمل المقدّس.

٣. التّمازج.

٤. مناولة الكاهن.

٥. مناولة المؤمنين.

١. رفع الحمل المقدّس عاليًا

- **مقدّمة تاريخيّة**

إنّ ممارسة رفع الحمل المقدّس يجب أن تكون قد بدأت في كنيسة القسطنطينيّة خلال القرن السّادس أو السّابع للميلاد، حيث كتب القدّيس مكسيموس المعترف عن هذه الممارسة الطّقسيّة عدّة مرّاتٍ. كاتبٌ آخر من القرن السّابع للميلاد، هو القدّيس أنستاسيوس السّينائيّ، الّذي يُخبرنا أنّ الحمل المقدّس كان يُرفع في الكنيسة السّوريّة-الفلسطينيّة. ومنذ ذلك الحين، انتشرت هذه الممارَسة لتطال تقريبًا جميع كنائس المسيحيّة[٣٦٢].

- **الممارَسة الطّقسيّة الحاليّة**

يسجد الكاهن ثلاث مرّاتٍ أمام المائدة المقدّسة قائلاً صلاة العشّار ثلاث مرّاتٍ متتاليةً، إذ إنّه على وشك أن يحمل الرّبّ بيديه:

أللّهمّ اغفر لي أنا الخاطئ وارحمني

إنّها هذه الآية الإنجيليّة هي دعوةٌ إلى التّواضع وانسحاق النّفس وتوبة القلب أمام الله والقريب (لا يريد أن يرفع عينَيه إلى السّماء، يقرع صدره)، بعيدًا عن الرّوح الفريسيّة المليئة بالكبرياء الأعمى وبمركزيّة الأنا. ثمّ يرفع الكاهن الحمل المقدّس بيدَيه ويُعلن: "**فلنصغ، الأقداس للقدّيسين**". لقد رأى المفسّرون البيزنطيّون في طقس رفع الحمل المقدّس إشارةً واضحةً على رفع المسيح على الصّليب (الصّلب)، استنادًا إلى ما جاء في قول المسيح نفسه في الإنجيل الرّابع: "وكما رفع موسى الحيّة في البريّة، فكذلك يجب أن يُرفع ابن الإنسان، لتكون به الحياة الأبديّة لكلّ مَن يؤمن" (يوحنّا ٣: ١٤-١٥).

---

٣٦٢) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.665.

أمّا عبارة "الأقداس للقدّيسين" فهي تدلّ على النّقاوة والقداسة اللّتين يجب أن يتحلّى بهما كلّ مَن يتقدّم لتناول الأقداس الطّاهرة[٣٦٣].

وكأنّي بالشّعب يُعلن عدم استحقاقه فيُجيب:

قدّوسٌ واحد. ربٌّ واحد. يسوع المسيح. لمجد الله الآب. آمين

إنّها كلماتٌ مُعلنةٌ على لسان بولس الرّسول القائل: "ويعترف كلّ لسانٍ بأنّ يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب" (فيلبّي ٢: ١١؛ راجع أيضًا ١ كورنثس ٨: ٦). إنّ كلمة "قدّوس" لا تعني ما هو "صالحٌ" أو "قدّوسٌ" بحدّ ذاته، ذلك أنّ بولس الرّسول كان قد كتب إلى الكورنثيّين، داعيًا إيّاهم "قدّيسين"، بصرف النّظر عن نزاعاتهم وخلافاتهم: "... إلى المقدّسين في المسيح يسوع المدعُوِّين قدّيسين - ἁγίοις" (١ كورنثس ١: ٢). إنّ الفكرة الّتي يريد بولس الرّسول التّعبير عنها تكمن في كون القدّيسين "ينتمون إلى الله"، وأنّهم "المختارون من الله" أيضًا[٣٦٤]. إنّ "القدّيسين" في تعبير بولس الرّسول هم مَن اعتبروا أنفسهم شعب الله، ليس بسبب أيّ تقديسٍ شخصيٍّ مفترض، ولكن لأنّهم أعضاء في جسد المسيح، وقد تمّ افتداؤهم من قِبَل ابن الله، يسوع المسيح. من هنا نؤكّد أنّ المسيحيّ الّذي يعيش علاقةً شخصيّةً مع المسيح، يُدرك تمام الإدراك ما قاله بولس الرّسول في رسالته إلى أهل أفسس: "ذلك بأنّه اختارنا [الله] فيه [المسيح] قبل إنشاء العالم، لنكون في نظره قدّيسين بلا عيبٍ في المحبّة" (أفسس ١: ٤)؛ فلا يمكن، بالتّالي، أن تُعزى قداستنا إلى أنفسنا، ذلك أنّ القداسة تتجاوز حدود الطّاقة البشريّة، بل إلى ربّنا يسوع المسيح، المقدِّس والمقدَّس. وعليه، فإنّ هذا النّشيد الأخير يُذكّرنا بدخول الخليقة الأخير إلى لُجّة الاتّحاد الإلهيّ.

إنّها دعوةٌ لنا لأن نتيّقظ ونكون حذرين. فالأقداس، أي القرابين المتحوّلة إلى جسد الرّبّ ودمه، يستحقّها القدّيسون فقط. لكنّ هذا الكلام موجَّهٌ لنا نحن المجتمعين حول مائدة الرّبّ في الكنيسة، حول الّذين يسعون للخلاص من خطاياهم ويطلبون رحمة الرّبّ. فالمؤمنون الّذين اشتركوا في الذّبيحة الإلهيّة

---

٣٦٣) المطران ناوفيطوس إدلبي، ***كتاب الصّلاة***، ص. ٣١٠.

٣٦٤) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.663.

الإفخارستيّة وتفاعلوا مع كلمة الله المُعلَنة في الإنجيل المقدّس وعلى لسان الكاهن في عِظَته، وكانوا في حالةٍ صلاةٍ وتَعبُّدٍ ويَقَظَةٍ روحيّةٍ حين استدعاء الرّوح القدس عليهم قبل القرابين، إذ يقول الكاهن: "فأرسل روحك القدّوس علينا..."، أصبحوا مُظلَّلين بنعمة الرّوح الكلّي قدسه وهياكل حيّةً له، أي أنّهم في حالةٍ ساميةٍ من القداسة الّتي تؤهّلهم لاقتبال جسد المسيح الطّاهر ودمه الكريم المُحيي.

٢. كسر الحمل المقدّس

كتابيًّا، في أثناء العشاء السّرّيّ، كسر يسوع الخبز قبل أن يُعطيه لتلاميذه (متّى ٢٦: ٢٦؛ مرقس ١٤: ٢٢؛ لوقا ٢٢: ١٩). ومن الواضح أنّ الخبز يجب أن يُقسَّم، لكي يتمّ توزيعه؛ ومع أنّ هذا الخبز الإفخارستيّ المقدّس يُقسَّم للتّوزيع على المؤمنين، إلاّ أنّه، في الحقيقة، يُعبِّر عن وَحدة جسد المسيح السّرّيّ (الكنيسة)، على حدّ تعبير بولس الرّسول القائل: "فبما أنّ الخبز واحدٌ، فنحن، الكثيرين، جسدٌ واحد؛ لأنّنا جميعًا نشترك في الخبز الواحد" (١ كورنثس ١٠: ١٧).

إنّ هذا الطّقس مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بطقس رفع الحمل المقدّس، حيث يكسر الكاهن الحمل المقدّس إلى أربعة أجزاء، يضعها بشكل صليبٍ على الصّينيّة المقدّسة، هكذا:

	IΣ	
NI		KA
	XΣ	

إنّ جسد ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح الثّمين، المقدّس والطّاهر الّذي يجري تقسيمه في هذه اللّحظات المقدّسة، يُشير إلى أنّ الرّبّ يُعطي ذاته بمجّانيّةٍ طوعيّةٍ من أجل حياة وخلاص العالم. هذا ما أعلنه القدّيس يوحنّا المعمدان في بداية الإنجيل الرّابع، "حين رأى يسوع مقبلاً نحوه فقال: "هوذا حمل الله الّذي يرفع خطيئة العالم" (يوحنّا ١: ٢٩). في هذا التّعبير إشارةٌ إلى الحمل الّذي كان يُذبَح في الهيكل صباحًا ومساءً، عبادةً لله عن الشّعب. فالمسيح هو الحمل الحقيقيّ الّذي فيه رضى الله، وتكفيرٌ كاملٌ عن الخطيئة.

أثناء القيام بذلك، يتلو الكاهن هذه الصّيغة الجميلة:

يُجزّأ ويُقسّم حمل الله. الّذي يُجزّأ ولا ينقسم. ويُؤكَل كلّ حين. ولا ينفَد أبدًا. بل يُقدّس متناوليه

تُشير هذه الكلمات إلى أنّ الحمل المقدّس مكسورٌ ولكنّه غير مقسوم، لأنّ كلّ جزءٍ من الخبز الإفخارستيّ المقدّس يُظهر في ذاته حضور المسيح بكلّيّته: جسده، روحه وألوهيّته؛ فخبز الله هذا يهدف إلى تقديس المؤمنين المشتركين في الوليمة الإفخارستيّة، وبالتّالي، إلى رفعهم إلى المجال السّماويّ، تحويلهم، وتأليههم[٣٦٥]. إنّ كسر الحمل المقدّس يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحادثة تلميذي عمّاوس، اللّذين أدركا الرّبّ عند كسره للخبز: "ولمّا اتّكأ معهما أخذ الخبز وبارك، ثمّ كسره وناولهما. فانفتحت أعينهما. فعرفاه" (لوقا ٢٤: ٣٠-٣١).

٣. **التّبارُك والتّمازُج**

أ. **وضع الجزء الأعلى من الحمل المقدّس في الكأس المقدّسة**

ثمّ يأخذ الكاهن الجزء الأعلى من الحمل المقدّس المنقوش بالحرفين ΙΣ ويرسم به شكل صليبٍ فوق الكأس المقدّسة ويضعه فيها قائلاً:

كمال إيمان الرّوح القدس

كما أنّ الأحداث الخلاصيّة كتجسّد المسيح، آلامه وقيامته قد حدثت من خلال عمل الرّوح القدس، هذا ما يحدث في سرّ الإفخارستيّا أيضًا، الّذي فيه يتحقّق كمال الرّوح القدس. ففي المناولة المقدّسة، لا يتلقّى المؤمنون المسيح الإفخارستيّ فقط، بل والرّوح القدس أيضًا. هذا ما يؤكّده جواب المؤمنين بعد مناولتهم: "لقد نظرنا النّور الحقيقيّ وأخذنا الرّوح السّماويّ". إنّ اكتمال السّرّ يتكوّن تحديدًا في هذا، أنّ الرّوح القدس يقوم بإنجاز عمله الكامن في تقديس المؤمن المتلقّي باستحقاقٍ جسد المسيح ودمه من خلال النّعمة الإلهيّة. إنّ طقس المزج هذا كان يُمارَس في الكنيسة في بداية القرن الخامس للميلاد، وربما في وقتٍ سابق[٣٦٦].

---

٣٦٥) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.315.

٣٦٦) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.679.

إنّ رسم شكل الصّليب فوق الكأس المقدّسة يُشير إلى أنّ الكسر هو رَسْمٌ لموت المسيح على الصّليب؛ بينما يُشير وضع الجزء الأعلى من الحمل المقدّس في الكأس المقدّسة إلى إظهار أنّ جسد المسيح ودمه غير منفصلَين الواحد عن الآخر، بل هما "واحدٌ"، ويمنحان النّعمة نفسها للمؤمنين الّذين سيتلقّونهما في المناولة المقدّسة.

ب. الماء الحارّ (الزّاون)

ثمّ يتناول الكاهن إناء الماء الحارّ (الزّاون) ويقول:

مبارَكةٌ حرارة قدّيسيك كلّ حين. الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّاهرين. آمين

ثمّ يسكب الماء الحارّ في الكأس المقدّسة بشكل صليب، قائلاً:

حرارة الإيمان. المملوءة من الرّوح القدس. آمين

يُعطينا البار نقولا كباسيلاس (+١٣٤١م) تفسيرًا جميلاً يتعلّق بسكب الماء الحارّ في الكأس المقدّسة، يقول: "ما دام هذا الماء السّاخن ليس ماءً فقط، بل يشترك في طبيعة النّار، فهو يرمز إلى الرّوح القدس الّذي يُرمَز إليه أحيانًا بالماء، والّذي نزل على الرّسل بشكل نار"[٣٦٧]. كما أنّ بعض الآباء القدّيسين، كالقدّيس سمعان التّسالونيكيّ (القرن الخامس عشر للميلاد)، قد رأوا في "الزّاون" رمزًا إلى الدّم الحارّ والماء المتدفقين من جنب المسيح المصلوب والمطعون بالحربة[٣٦٨]؛ وهكذا يتّضح أنّ الغاية الأساسيّة من وراء سكب الماء الحارّ في الكأس المقدّسة الحاوية دم المسيح الطّاهر تكمن في هذا، أنّ المؤمنين حين يتناولون من القرابين المقدّسة، يتكوّن لديهم الانطباع بأنّهم يشربون من دم المسيح الحارّ نفسه الّذي تدفّق من جنبه الطّاهر[٣٦٩]؛ ولهذا السّبب بالتّحديد يُقام هذا الطّقس حالاً قبل المناولة المقدّسة لإظهار أنّ حياتنا الفائقة الطّبيعة تتدفّق من جنب المسيح المطعون[٣٧٠].

---

٣٦٧) نقولا كباسيلاس، ***شرح القدّاس الإلهيّ***، ص.١١١.

٣٦٨) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.320.

٣٦٩) **Ibid**, p.320.

٣٧٠) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.684.

٤. ترنيمة المناولة: الكينونيكون

بعد الانتهاء من نشيد "قدّوسٌ واحدٌ. ربٌّ واحدٌ..."، يبدأ المرنّم حالاً بترنيمة المناولة الّتي يجب أن تنتهي في الوقت الّذي فيه يوجّه الكاهن الدّعوة إلى المؤمنين بالتّقدُّم إلى المناولة المقدّسة: "بمخافة الله وإيمان ومحبّةٍ تقدّموا". تتألّف ترنيمة المناولة هذه من آيةٍ من سفر المزامير، تنتهي بهلّلويا المُكرَّرة ثلاث مرّاتٍ. تتغيّر هذه التّرنيمة بحسب اليوم اللّيتورجيّ أو الأعياد السَّيِّديّة الكبرى.

- **اليوم اللّيتورجيّ**

- **الأحد، الاحتفال بقيامة الرّبّ يسوع من بين الأموات:** "سبّحوا الرّبّ من السّموات. سبّحوه في الأعالي. هلّلويا" (مزمور١٤٨: ١).
- **الإثنين، للقوّات السّماويّة العادمة الأجساد "الملائكة":** "الصّانع ملائكته أرواحًا. وخُدّامه لهيب نار. هلّلويا" (مزمور١٠٣: ٤).
- **الثّلاثاء، للنّبيّ الكريم والسّابق المجيد يوحنّا المعمدان:** "ذِكر الصّدّيق يدوم إلى الأبد. ومِن خبر السّوء لا يخاف. هلّلويا" (مزمور١١١: ٦-٧).
- **الأربعاء، للصّليب المُحيي ووالدة الإله:** "كأس الخلاص أقبَل. وباسم الرّبّ أدعو. هلّلويا" (مزمور١١٥: ١٣).
- **الخميس، للرّسل القدّيسين:** "في كلّ الأرض ذاع منطقهم. وإلى أقاصي المسكونة كلامهم. هلّلويا" (مزمور١٨: ٥).
- **الجمعة، للصّليب المُحيي:** "ليرتسم علينا نور وجهك يا ربّ. هلّلويا" (مزمور٤: ٧)؛ أو: "خلاصًا صنعتَ في وَسْط الأرض أيّها المسيح الإله. هلّلويا" (مزمور٧٣: ١٢).
- **السّبت، لجميع القدّيسين والرّاقدين:** "إبتهجوا أيّها الصّدّيقون بالرّبّ. بالمستقيمين يليق التّسبيح. هلّلويا" (مزمور ٣٢: ١)؛ أو: "طوبى لِمَن اخترتهم وقبلتَهم يا ربّ. وذِكرهم يدوم إلى جيلٍ فجيل. هلّلويا" (مزمور٦٤: ٥).

لقد ذُكِرَت عادة ترنيم أناشيدَ كنسيّةٍ خلال المناولة المقدّسة في أنافورا القدّيس هيبوليتس في القرن الثّالث للميلاد؛ وفي ليتورجيّا الدّساتير الرّسوليّة، بينما كان يُقام طقس المناولة المقدّسة، كان يُتلى المزمور الثّالث والثّلاثين: "أُبارك الرّبّ في كلّ وقتٍ. على الدّوام تسبحته في فمي"[371]؛ ثمّ ذكر القدّيس كيرلّس الأورشليميّ أنّه في كنيسة أورشليم كان يُرنَّم خلال المناولة المقدّسة بآيةٍ من المزامير: "ثمّ تسمع صوت المرنّم المنفرد يُنشد المزامير، يدعوك مع النّغم الإلهيّ إلى الاشتراك في الأسرار المقدّسة قائلاً: ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ"[372] (مزمور٣٣: ٩). بالإضافة إلى غايته الأصليّة الكامنة في تهيئة نفوس المؤمنين المشاركين في اللّيتورجيّا الإلهيّة لاستقبال الإفخارستيّا، ثمّة غايةٌ أخرى تكمن في ملء فترة الصّمت الّتي تحدث أثناء القيام بطقس المناولة المقدّسة، خصوصًا تلك الحركات الطّقسيّة الّتي يقوم بها الكاهن على المائدة المقدّسة، ككسر الحمل المقدّس، مناولته الشّخصيّة وأخذ الجزء الأعلى من الحمل المقدّس من الصّينيّة المقدّسة ووضعه في الكأس المقدّسة.

٥. المناولة الكهنوتيّة

أ. مناولة الكاهن

بعد الانتهاء من طقس "الزّاون"، يتلو الكاهن صلوات الاستعداد للمناولة المقدّسة، وهي تتكوّن من عددٍ من الصّلوات الّتي تتناسب جدًّا مع طقس المناولة المقدّسة، والّتي تُعبِّر عن أهمّ المشاعر الّتي معها ينبغي للمؤمنين أن يدنوا من مائدة الرّبّ المقدّسة، كالتّوبة والغفران والنّدامة القلبيّة والانسحاق والإتّضاع.

أنا أومن يا ربّ وأعترف. أنّك أنت حقًّا المسيح ابن الله الحيّ. الّذي أتى إلى العالم ليُخلّص الخطأة. الّذين أوّلهم أنا

---

٣٧١) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.323.

٣٧٢) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.667.

يُعلن الكاهن عبر هذه الصّلاة الاستعداديّة للمناولة المقدّسة اعترافه الإيمانيّ بالمسيح ابن الله، المُستتر تحت مظاهر القرابين الإفخارستيّة المقدّسة. تُسلِّط هذه الصّلاة اللّيتورجيّة الجميلة الأضواء بكلماتها على خبرتين رسوليّتين بطرسيّةٍ وبولسيّة:

- **اعتراف القدّيس بطرس الإيمانيّ بألوهيّة المسيح في قيصريّة فيلبّس، ردًّا** على سؤال المسيح لتلاميذه: "وأنتم، مَن تقولون إنّي هو؟" أجاب سمعان بطرس وقال: "أنت المسيح ابن الله الحيّ" (متّى ١٦: ١٥-١٦).
- **تواضع القدّيس بولس العميق**، الّذي قال: "وما أصدق هذا القول وما أجدره بكلّ قبول: إنّ المسيح يسوع قد أتى إلى العالم ليُخلِّص الخطأة، الّذين أوّلهم أنا" (١ تيموثاوس ١: ١٥).

ثمّ يتناول الكاهن المحتفل (ومساعديه الّذين يُشاركونه الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة من كهنة وشمامسة إنْ وُجِدوا) من الجسد المقدّس والدّم الطّاهر على انفراد؛ فبعد أن يستغفر الكاهن (الكهنة المحتفلين معه إنْ وُجِدوا) الشّعب، يأخذ على كفّ يده اليُمنى جزءًا من الحمل المقدّس وهو المختوم بـ ΧΣ، ويتناوله بورع وكلّ انتباهٍ قائلاً:

جسدُ ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح الكريم والمقدّس. يُعطى لي أنا الكاهن (فلان). لغفران خطاياي وللحياة الأبديّة. آمين

عادةٌ قديمةٌ ميّزت ذات يومٍ الكنيسة البيزنطيّة مفادها أنّ الكاهن يرسم إشارة الصّليب المقدّس على جبينه بالخبز الإفخارستيّ المقدّس قبل تناوله إيّاه[٣٧٣].

ثمّ يأخذ الكاهن الكأس المقدّسة مع المنديل قائلاً:

دم ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح. الكريم والمقدّس. يُعطى لي أنا الكاهن (فلان). لغفران خطاياي وللحياة الأبديّة. آمين

---

٣٧٣) **Ibid**, p.713-714.

ويتناول من الكأس المقدّسة ثلاث جرعات، ثمّ يمسح بالمنديل طرف الكأس وشفتيه ويُقبّل الكأس قائلاً:

ها إنّ هذه قد مسّت شفتيّ. فهي تُزيل آثامي وتُطهّرني من خطاياي (أشعيا ٦: ٧)

ب. مناولة الكاهن في حال وجود أسقف

في حال ترأس الأسقف ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ، وشاركه كهنة كثيرون، فإنّ الأسقف هو مَن يوزّع الخبز المقدّس لهم جميعًا، وأخيرًا يتناول هو، وكلّهم يأكلون الجسد المقدّس معًا بورع. ثمّ يتقدّمون للمناولة من الكأس المقدّسة ومن يد الأسقف أيضًا.

الأسقف:

أيّها الكاهن تقدّموا

فيتقدّم الكاهن من جهة المائدة اليُسرى ويسجد ويقول:

ها أناذا أتقدّم إلى الملك الّذي لا يموت. فأعطني يا سيّد جسد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح. الكريم والمقدّس. لغفران خطاياي وللحياة الأبديّة

فيأخذ الأسقف جزءًا من الخبز المقدّس، ويضعه في كفّ الكاهن اليُمنى، الموضوعة بهيئة صليب على اليُسرى قائلاً:

جسد ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح. الكريم والمقدّس. يُعطى لك أيّها الكاهن (فلان) لغفران خطاياك وللحياة الأبديّة

فيُقبّل الكاهن يد الأسقف، ويذهب وراء المائدة المقدّسة، ويتناول القربان الّذي في كفّه بكلّ ورع. ثمّ يأخذ الأسقف الكأس المقدّسة مع المنديل قائلاً:

أيّها الكاهن تقدّم أيضًا

فيأتي الكاهن من وراء المائدة المقدّسة إلى جهتها اليُمنى ويقول:

ها أناذا أتقدّم أيضًا إلى الملك الّذي لا يموت. فأعطني يا سيّد دم ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح. الكريم والمقدّس. لغفران خطاياي وللحياة الأبديّة

ويأخذ الكاهن الكأس المقدّسة بيُمناه ويضع المنديل تحت ذقنه بيُسراه، فيناوله الأسقف ثلاث جرعاتٍ قائلاً:

دم ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح. الكريم والمقدّس. يُعطى لك أيّها الكاهن (فلان) لغفران خطاياك وللحياة الأبديّة

فيمسح الكاهن طرف الكأس وشفتيه بالمنديل ويقبّله، ويقبّل يد الأسقف، فيما الأسقف يقول له:

ها إنّ هذه قد مسّت شفتيك. فهي تُزيل آثامك. وتُطهّرك من خطاياك

يسري هذا التّرتيب على طقس المناولة المقدّسة في حال كان مشاركًا في اللّيتورجيّا الإلهيّة شمّاسٌ إنجيليٌّ، فيأخذ الكاهن عند ذاك دور الأسقف، والشّمّاس دور الكاهن، كما هو مُبيَّنٌ أعلاه.

٦. مناولة المؤمنين

أ. لاهوت المناولة المقدّسة وطقسها اللّيتورجيّ

بعد أن ينتهي الكاهن من تناوله، يُعلن:

بمخافة الله وإيمان ومحبّة تقدّموا.

الخورس:

آمين. آمين. مبارَكٌ الآتي باسم الرّبّ. الرّبُّ هو الله وقد ظهر لنا

إقبلني اليوم شريكًا في عشائك السّرّيّ. يا ابن الله. فإنّي لا أقول سرّك لأعدائك. ولا أقبّلك مثل يهوذا. بل كاللّصّ أعترف لك: أذكرني يا ربُّ في ملكوتك

ملاحظة: يمكن التّرنيم بترنيمة المناولة أو ببعض المزامير أو الأناشيد الطّقسيّة أو الكتابيّة المناسبة بعد "إقبلني اليوم" لا بدلاً منها (راجع الروبريكا (كلمةٌ أو قسمٌ من نصّ، عادةً ما تُكتب باللّون الأحمر، لتسليط الضّوء عليها) الخاصّة بالمناولة المقدّسة في "كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة"، ص.١٦٤).

الكاهن:

عبد الله (فلان). يتناول [أو: أمة الله (فلانة) تتناول] **جسد ودم ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح. الكريم والمقدّس. لغفران خطاياه** (أو: خطاياها) **وللحياة الأبديّة.**

إنّها اللّحظة الحاسمة والنّقطة المِفصليّة لمسيرة المؤمن الرّوحيّة والّتي ابتدأها أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ، في صلاته الشّخصيّة في كنيسته المنزليّة، الّتي أحضرها معه إلى اجتماع الجماعة المؤمنة في الكنيسة "العائلة الكبرى"، ليصل إلى حالة الاتّحاد المقدّس بالمسيح القربان، ويُصبح معه "جسدًا روحيًّا واحدًا"؛ إنّها، بالتّالي، رمزٌ كنسيٌّ للوَحدة بين المسيح والمؤمنين، وتعبيرٌ عن شركة المؤمنين كأعضاء في جسد المسيح السّرّيّ، الكنيسة. فلقد كان الآباء القدّيسون والمسيحيّون الأوّلون واعين إلى أبعد الحدود لهذا المعنى الكنسيّ للمناولة المقدّسة: "إنّ مناولة المؤمنين، يقول القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ، هي سِمَة أساسيّة للعضويّة في الكنيسة. وقد نبّه إلى ضرورة أن ينال جميع المسيحيّين المناولة المقدّسة، إذ إنّهم بعملهم هذا، يُصبحون مشاركين في جسد المسيح الّذي هو الكنيسة، الفردوس الجديد، فردوس المحبّة الإلهيّة. وكما يتكوّن الخبز من كثيرٍ من حبوب القمح، فكذلك، يُكوّن المؤمنون، الّذين يتناولون من القربان المقدّس، جسدًا واحدًا"[٣٧٤].

يحثّ القدّيس غريغوريوس النّيصيّ غير المعمّدين بهذه الأقوال:

"إتّحِدْ بشعب الله السّرّيّ. سبِّحْ معنا كما يُسبِّح السّيرافيم ذوات السّتّة الأجنحة مع المسيحيّين الأتقياء. إرغبْ في تناول الطّعام الّذي يُقوّي النّفس، أي جسد الرّبّ القدّوس. تذوّق الشّراب الّذي يُبهج القلب، أي دم الرّبّ القدّوس: إنّك كموعوظٍ توجد خارج الكنيسة، خارج الفردوس، أمّا الآن، عن طريق المعموديّة المقدّسة والمناولة الإلهيّة، يُفتح الباب لكي تدخل إلى الفردوس الّذي منه خرجت بعد السّقوط" (مقتطفات من مقالة للأب إفرام كرياكوس عن الكنيسة).

---

٣٧٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.325.

وبذلك، فإنّ المؤمنين الّذين يتناولون من هذا الطّعام الرّوحيّ يُؤلّفون معًا الكنيسة البشريّة المبنيّة من الحجارة الحيّة، المؤمنين. هذا ما عبّر عنه بوضوح القدّيس بولس، قائلاً: "فإنّا أعضاء جسده، من لحمه ومن عِظامه" (أفسس ٥: ٣٠). فلينصت جيّدًا كلٌّ مَن يتقدّم إلى الأسرار إلى ما أقول، لقد قصَدَ الرّبّ أن يجعلنا واحدًا معه، ليس فقط بمشاعر المحبّة، بل وبالفعل الواقعيّ أيضًا، حتّى نصير ممتزجين به في جسدٍ واحد. وقد حقّق ذلك بالمأكل الحقّ الّذي وهبه لنا مجّانًا عن غير استحقاقٍ منّا، مُعبّرًا بذلك عن مقدار محبّته الّتي أحبّنا بها (راجع يوحنّا ١٣: ١). وهكذا، فقد مزج نفسه بنا حتّى جعل جسده يمتزج بأجسادنا لكي نصير معه كيانًا واحدًا، بمثل ما تكون أعضاء الجسد متّصلة بالرّأس. فإنّ هذه هي سمة المحبّة الشّديدة.

وتجدر الإشارة هنا إلى ما قاله القدّيس كيرلّس الأورشليميّ عن اتّحاد المسيح القربان بمتناوليه المؤمنين، مُحقّقين معًا وَحدة جسد المسيح المقدّس:

> "فلنشترك إذًا، بكلّ ثقة، في جسد المسيح ودمه. إنّ جسده يُعطى لك تحت شكل الخبز، ودمه يُعطى لك تحت شكل الخمر. وإذ أنت تشترك في جسد المسيح ودمه، تُصبح جسدًا واحدًا ودمًا واحدًا مع المسيح. وهكذا نُصبح نحن "حاملي المسيح"، بما أنّ جسده ودمه ينتشران في أعضائنا. وبهذه الكيفيّة نُصبح، على حدّ تعبير القدّيس بطرس، "شركاء الطّبيعة الإلهيّة"[٣٧٥] (٢ بطرس ١: ٤).

إنّ سرّ الجسد والدّم تحقيقٌ لوَحدة طبيعتنا مع المسيح ومع كلّ أعضاء الكنيسة في الوقت عينه، ذلك أنّه في الإفخارستيّا تظهر الكنيسة طبيعةً واحدةً متّحدةً بالمسيح. يقول القدّيس سمعان اللّاهوتيّ الحديث:

> "لقد منحتني أيّها السّيِّد أن يتّحد هيكلي هذا الفاسد – أي جسدي البشريّ – بجسدك المقدّس، وأن يمتزج دمي بدمك. فأنا من الآن عضوك الشّفّاف... وأرى نفسي – يا لَلعجب – في الحالة الّتي صرتُ إليها. أخاف من

---

٣٧٥) ***<u>تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة</u>***، ص. ٦٠١.

نفسي وأخجل معًا، وأجلُّك وأخافك، ولا أدري أين أختبئ، ولأيّ غرض أستعمل هذه الأعضاء الجديدة، الرّهيبة والمتألّهة"[٣٧٦].

هكذا يُمجِّد القدّيس سمعان اللّاهوتيّ الحديث في أحد أناشيده الوَحدة الإفخارستيّة الّتي بها تتحقّق عضويّتنا في المسيح. إنّها تُدخل إلى أعماق طبيعتنا "نار اللّاهوت" الّتي لا تنفصل عن جسد المسيح ودمه:

"أتناول النّار وأنا عشب، فيا له من عَجَبٍ غريبٍ إذ إنّي أتندّى بحالٍ لا توصَف بمثابة العلّيقة الملتهبة قديمًا بغير احتراق"[٣٧٧].

يربط الأب جان كوربون بين المناولة المقدّسة واختفاء آدم في الجنّة، بعد أن أكل من شجرة معرفة الخير والشّرّ، وشعر بأنّه أخطأ في حقّ الله وكسر وصيّته، يقول: "آدم أين أنت؟ (تكوين ٣: ٩). إنّ عطش الله الحيّ، الّذي يبحث عن الإنسان في الفردوس الأوّل يرتوي في المناولة. فآدم، رجل الخوف، قد وُجِدَ أخيرًا. ويسوع، آدم الجديد، ينتشله ويبعثه إلى الحبّ الكامل الّذي يُبدّد كلّ خوف. وبعد أن التقانا الابن الوحيد في أعماقنا حملنا معه وأخذنا إلى الآب"[٣٧٨].

بتعابيرَ أخرى، إنّ المناولة المقدّسة تقودنا، بحسب الفكر اللّاهوتيّ للقدّيس أبيفانيوس القبرصيّ، إلى إشراقة فجر القيامة في حياتنا، والتّنعم من جديدٍ في الفردوس المفقود:

"قُم من بين الأموات! قُم ولنمض من ههنا، لأنّك فيّ وأنا فيك. ونحن نؤلّف معًا كائنًا واحدًا غير منقسم... قُم ولنمض من ههنا، من الموت إلى الحياة، من الفساد إلى الخلود، من الظّلمات إلى النّور الأبديّ، من الوجع إلى الحريّة، من سجن الجحيم إلى أورشليم السّماويّة، من القيود إلى الرّاحة، من العبوديّة إلى نعيم الفردوس، من الأرض إلى السّماء!"[٣٧٩].

---

٣٧٦) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٥١.

٣٧٧) **المرجع نفسه**، ص. ١٥١.

٣٧٨) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، ص. ١٧٨-١٧٩.

٣٧٩) القدّيس أبيفانيوس القبرصيّ، مقتطفات من عظةٍ فصحيّةٍ مأخوذةٍ من موقع إلكترونيّ "كتابات الآباء القدّيسين".

تظهر المناولة المقدّسة بناءً على ما تقدّم أنّها استباقٌ لتفجّر القيامة، بحيث تُصعد الكنيسة من خلال الاحتفال الإفخارستيّ فصح الخليقة جمعاء.

ب. مخافة الله ركنٌ أساسٌ من أركان المناولة

أودّ أن أتوقّف مع قارئي الكريم عند عبارة "مخافة الله" ومفهومها في لاهوت الكتاب المقدّس، إذ إنّها تُشكّل موضوعًا محوريًّا في العلاقة بين الله تعالى والإنسان، من جهة، والعلاقة الإفخارستيّة بين السّيّد المسيح والإنسان المؤمن، من جهةٍ أخرى. إنّ كلمة "خوف" مرتبطةً باسم الله، مع كلّ مشتقّاتها (مخافة الله، لا تخف، مخافة الربّ، خائفو الله...) هي عباراتٌ كتابيّةٌ بالدّرجة الأولى. لها في الكتاب المقدّس معانٍ عدّة: فتارةً تعني الرّهبة والرّعدة، وتارةً احترامًا وشكرًا على عظمة الله وقدسيّته، وعندما تكون صفة لأشخاص "خائفي الله" تأخذ معنى تتميم إرادة الله ووصاياه والسّيرة الفاضلة، ويكوّن خائفو الله "الجماعة" الّتي تسبّح الله، كما ويجب أن تُعَلَّم كركن أساس من الدّين، وهي رأس الحكمة، أساسها وقمّتها لمعرفة الله معرفةً حقّة. أمّا تجسيد هذه الحكمة الّتي ترتكز إلى المخافة فهو السّير بثقةٍ في محبّة الله بسلوك أبناء الله.

ففي العهد القديم نجد أنّ "مخافة إسرائيل أمام الظّهور الإلهيّ في سيناء (راجع خروج ٢٠: ١٨-١٩)، كان سببها جلال الله الواحد، تمامًا مثل مخافة يعقوب بعد رؤياه اللّيليّة (تكوين ٢٨: ١٧)، ومخافة موسى أمام العُلّيقة المتّقدة (خروج ٣: ٦)"[٣٨٠]. هذا النّوع من المخافة، أمام الظّهورات والتجلّيات الإلهيّة الرّهيبة، يجعل الأمور مختلطةً أمام الإنسان. فهو، من جهة، يشعره بصغره، لا بل بعدمه أمام قداسة وسموّ الله، مِمّا يدفع بالنّفس إلى الشّعور بضعفها وخطيئتها وبالتّالي إلى الاهتداء والتّوبة؛ ومن جهةٍ أخرى يتحوّل الشّعور بالهيبة لديه إلى شكر وتسبيح وسجود!

إنّ سفر أعمال الرّسل وفي معرض كلامه عن حياة الجماعة المسيحيّة الأولى، بعد عِظة القدّيس بطرس الأولى والّتي اعتمد على إثرها ثلاثة آلاف رجل (٢:

---

٣٨٠) ***معجم اللّاهوت الكتابيّ***، ص. ٧١٨.

٤١) يقول: "واستولى الخوف على جميع النّفوس" (٢: ٤٣). يعلّق الأب متّى المسكين على هذه الآية، قائلاً:

"إنّ الخوف الّذي ملأ نفوس الثّلاثة آلاف الّذين اعتمدوا وواظبوا على تعاليم الرّسل والشّركة وكسر الخبز والصّلوات هو في الحقيقة شهادةٌ حيّةٌ ناطقةٌ بأمانةٍ عبادة وصلاة هؤلاء المؤمنين الجدد، وبرهانٌ صادقٌ على استجابة الله لعبادتهم وصلواتهم، لأنّ هذا الخوف لم ينشأ في قلوبهم من ذاته بل بسبب حضور الربّ وإحساسهم ويقينهم بحضوره"[٣٨١].

وهكذا يتّضح أنّ لموضوع المناولة المقدّسة في إيمان وعقيدة الكنيسة المقدّسة اللّاهوتيّة والكتابيّة أهميّةً كبرى. فالجماعة المسيحيّة الأولى كانت تأخذُ من القربان المقدّس غذاءً لحياتها الرّوحيّة وقد كان المؤمنون يتناولونه بحالةٍ مليئةٍ من الخشوع والرّهبة خوفًا من أن يكونوا غيرَ مستحقّين لاقتبال جسد الرّبّ يسوع ودمِه المقدّسَين. أنظروا بأيّة كلماتٍ باعثة على الرّهبة والخشوع كتب القدّيس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس واصِفًا هذا السّرّ العظيم الّذي تَرهبُه حتّى صفوف الملائكة: "فمَن أكلَ خبزَ الربِّ أو شَربَ كأسَه وما كان أهلاً لهما **يكونُ مُجرمًا** إلى جسد الرّبِّ ودَمِه. **فليَمتَحِنْ كلُّ واحدٍ نفسَه**، ثمّ يأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس" (١ كورنثس ١١: ٢٧-٢٨). وهنا لا بدّ من الإشارة إلى ما قاله القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم عن المتقدّمين إلى سرّ الإفخارستيّا:

"فبأيِّ طهارةٍ فائقةٍ ينبغي أن يتقدّم ذاك الّذي ينال من مثل هذه الذّبيحة، ألا ينبغي أن تكون اليد (المقصود هنا يد الكاهن) الّتي تُقسِّم مثل هذا الجسد الإلهيّ أكثرَ نقاوةٍ من أشعة الشّمس، وذلك الفم الّذي يمتلئ بالنّار الإلهيّة، وذلك اللّسان الّذي يصطبغ بهذا **الدّم الرّهيب**. فانظُر إلى مقدار الكرامة الّتي دُعيت إليها، وإلى سموّ المائدة الّتي ستشترك فيها"[٣٨٢].

---

٣٨١) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٣٧٨.

٣٨٢) من أقوال القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم، في عِظةٍ له عن "معجزة الإفخارستيّا"، تجدونها كاملةً في موقع إلكترونيٍّ يُدعى "كتابات الآباء القدّيسين".

فهذا الدّم إذًا هو لتقديس نفوسنا وخلاصها؛ إنّه يزيدها بهاءً ويُشعلها كالنّار؛ إنّه يُعطينا فهمًا مستنيرًا أكثر من لهيب النّار، ونفسًا لامعةً أكثر من الذّهب. إنّ هذا الدّم لَمَّا سُفِكَ على الأرض، قد جعل السّماء في متناول أيدينا. لقد صار ثمنًا لافتداء العالم: به اقتنى المسيح كنيسته:

"فاحذروا لأنفسكم ولجميع القطيع الَّذي أقامكم فيه الرّوح القدس رعاةً لترعَوا كنيسة الله الَّتي اقتناها بدمه" (أعمال ٢٠: ٢٨)؛ وبه أيضًا قد زيَّنها بكلّ موهبة... إنّ الَّذين يتناولون من هذا الدّم يصيرون ملازمين للملائكة ورؤساء الملائكة والقوّات السّماويّة. بل يكونون لابسين ثوب المسيح نفسه ملكهم وحاملين أسلحة الرّوح، بل إنّي بقولي ذلك لم أعبّر عن الحقيقة العظمى، إنّهم يصيرون لابسين المسيح نفسه ملكهم، هذه هي الحقيقة العظمى والمُدهشة بالحقّ. فإذا ما اقتربتم منها بطهارة، فإنّكم تقتربون من الخلاص[٣٨٣].

ت. المناولة تقديسٌ للحواس

وهنا لا بدّ لنا من أن نُشير إلى ما قاله القدّيس كيرلّس الأورشليميّ، في القرن الرّابع للميلاد، متحدّثًا عن المناولة **كتقديس لحواس المتناولين من القربان المقدّس من كهنة ومؤمنين علمانيّين**. في النّصّ الآبائيّ هذا، يصف الأورشليميّ المناولة في عصره، قائلاً:

عند الاقتراب للمناولة، لا تأتي باسطًا يديك المفتوحتين أو أصابعك، لكن اجعل يدك اليُسرى عرشًا ليدك اليُمنى الَّتي ستتلقّى الملك؛ ثمّ اجعل يدك كالكأس وتلقّى جسد المسيح، قائلاً: "آمين"؛ وعندما تُقدّس عينيك عن طريق لمسهما بالجسد المقدّس، تناوله. لكن، كُن حذرًا لئلاّ تسقط بعض الجزيئات من الخبز المقدّس، إذ إنّ ما ستخسره، سيكون لك كما لو كنتَ فقدتَ بعضًا من أعضائك الخاصّة.

ثمّ، بعد أن تكون قدِ تناولتَ جسد المسيح، اقترب من كأس دمه دون أن تبسُط يديك، بل قِف بانحناءة، وبروح مليئة من العبادة والخشوع،

---

٣٨٣) المرجع نفسه.

كرِّر "آمين" وقدّس نفسك بالتّناول من دم المسيح. وبينما لا تزال شفتاك رطبتين، إلمسهما بيديك وقدّس عينيك وجبينك والحواس الأخرى. ثمّ ابقَ في حالة صلاةٍ واشكر الله الّذي جعلك مستحقًّا لِمثل هذه الأسرار العظيمة"[٣٨٤].

عودٌ على بدء نقول إنّ المناولة الإلهيّة هي الخبز السّماويّ وغذاء حياتنا، ولهذا توصي الكنيسة المقدّسة والآباء القدّيسون بالمناولة المتواترة، إذ إنّ "المناولة، على حدّ تعبير القدّيس ترتليانس، هي غذاءٌ للنّفس: الجسد يتغذّى من جسد المسيح ودمه، لكي تغتني النّفس من الله"[٣٨٥].

من هنا كانت المناولة، في الكنيسة الأولى، عملاً مكمّلاً لكلّ اجتماع إفخارستيّ، ذلك أنّها حاجةٌ حيويّةٌ كتعبيرٍ عن الرّغبة في الحياة والّتي بدونها يتسلّط الموت. ولقد كان الحرمان من ذلك مأساةً عظيمةً بالنّسبة للمؤمنين، لأنّ ذلك يعني الانفصال عن الكنيسة.

ما أجمل وقع الكلمات الّتي نطق بها القدّيس باسيليوس الكبير في هذا الصّدد، حين تساءل عن ميزة المسيحيّ، قال:

"ما ميزة أولئك الّذين يأكلون الخبز ويشربون كأس الرّبّ؟ أن يذكروا أبدًا مَن مات وقام من أجلنا. وما ميزة الّذين لا ينفكّون عن هذه الذّكرى؟ أن لا يحيَوا لأنفسهم في ما بعد، بل للّذي مات وقام لأجلهم" (٢ كورنثس ٥: ١٥)[٣٨٦].

من هذا المنطلق نُشير إلى أنّ "المناولة ليست خبرةً مستيكيّةً (أي صوفيّة)، فنحن نشرب من كأس المسيح الّذي بذل نفسه لأجل حياة العالم. فالخبز على الصّينيّة، والخمر في الكأس، هما لتذكيرنا بتجسّد ابن الله، بالصّليب والموت"[٣٨٧].

---

٣٨٤) **Ibid**, p.691-692.

٣٨٥) ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، ص.٣٤٨.

٣٨٦) **المرجع نفسه**، ص.٥٠٢.

٣٨٧) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص.٦٥.

ث. توصيات الكنيسة بشأن المناولة المقدّسة

إنطلاقًا مِمّا تقدّم ذكره في لاهوت المناولة المقدّسة، نورد بعض التّوصيات الّتي تعتبرها الكنيسة المقدّسة أساسيّةً للمتقدّمين إلى المناولة:

- **القلب النّقيّ الطّاهر**

يملك الإنسان قلبًا نقيًّا وطاهرًا من خلال أليميتانويا "μετανοια" أي "تغيير الفكر" و"تحوُّل الذّهن"، أعني "التّوبة". إنّها "ولادةٌ ثانيةٌ" يمنحها الله بعد المعموديّة، وإمكانُ العودة إلى الآب، والخروجُ الدّائم من الذّات، وفضيلةٌ تؤول إلى تغيير طبيعتنا. إنّها حالةٌ للنّفس منافيةٌ للادّعاء و"التّبرجز الرّوحيّ" (علامة الموت الرّوحيّ) اللّذين لفريسيٍّ أو "بارٍّ" يظنّ أنّه في "حالة النّعمة" لأنّه لا يعرف نفسه (راجع لوقا ١٨: ٩). التّوبة، مثل طريق الارتقاء نحو الله، لا يمكن أن تكون لها نهاية. التّوبة عودةٌ إلى الله، وشفاءُ الطّبيعة السّقيمة، وارتعادُ النّفس أمام أبواب الفردوس، على حدّ قول القدّيس اسحق السّريانيّ. فالمسيح يريد أن يدخل بيتًا نظيفًا مستعدًّا ولائقًا. إنّ الحياة الرّوحيّة الحقيقيّة تبدأ بالتّوبة الّتي ما هي إلاّ "موقف المشيئة الّتي تستدير نحو الله تاركةً العالم... وما ترك العالم سوى دخول النّفس إلى ذاتها، وتركيز، واستعادةٍ للكيان الرّوحيّ الّذي يعود إلى الشّركة مع الله"[٣٨٨]. وعليه، فإنّنا نُدرك أنّ التّوبة إذًا هي جهدٌ مستمرٌّ للمشيئة الّتي جعلت الله وُجهتها.

إنّ للقلب، بحسب اللّاهوت الشّرقيّ، أهميّةً جوهريّةً إذ يُشكّل "مركز الكائن البشريّ، والنّقطة الّتي منها تنشأ كلّ الحياة الرّوحيّة وإليها تعود... وهو، بحسب القدّيس مكاريوس المصريّ، "مستودع البرّ والإثم"[٣٨٩]. وعليه، فإنّ القلب يظهر على أنّه "مركز الطّبيعة البشريّة الّتي ينبغي أن تتألّه"[٣٩٠]. ولا يمكن للطّبيعة البشريّة أن تحظى بنعمة التّألُّه إلاّ إذا مارست توبة القلب الحقيقيّة بالصّلاة بإيمان كاملٍ وفاعِل، والنّدم، والتّطهُّر، والدّموع، والتّخلّي عن العالم ومغرياته وأهوائه لبلوغ حالة "اللّاهوى" الّتي تعني استقلال الطّبيعة البشريّة، بعد أن

---

٣٨٨) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٦٦.

٣٨٩) **المرجع نفسه**، ص. ١٦٧.

٣٩٠) **المرجع نفسه**، ص. ١٦٨.

كانت أسيرة الخطيئة، وعدم خضوعها للأهواء، بعد أن كانت خاضعةً للطّبيعة الفاسدة، حيث ينفتح القلب بصمتٍ أمام الله. وهذا ما ندعوه باللّاهوت الشّرقيّ، "الحديث مع الله الّذي يجري سرًّا"؛ بتعابير أخرى، إنّها بداية الصّلاة التّأمليّة، دونما كلمات: إنّها صلاة القلب الّذي أصبح تجلّيًا لحضور الله ومحبّته في الإنسان.

- **الصّوم الإفخارستيّ الإنقطاعيّ**

ويُفضَّل أن يكون انقطاعًا تامًّا عن كلّ مأكلٍ ومشرب قبل الاحتفال بالّليتورجيّا الإلهيّة، إذ إنّ الصّوم هو خروج الصّائم من الكيان المادّيّ، ودخوله في الكيان الرّوحيّ، ليستطيع المسيحيّ أن يُمارس الأسرار المقدّسة بأهليّةٍ واستحقاق، بالإضافة إلى الصّلاة الشّخصيّة وقراءة الإنجيل المقدّس والتّأمّل بكلمة الله، الّتي تُشكّل مرآة النّفس. لقد اكتسب الصّوم في الكنيسة الأولى بُعدًا اسكاتولوجيًّا هو الانتقال من الحياة الأرضيّة في مسيرة تَخَطٍّ للزّمن نحو عتبة الأبديّة في الإفخارستيا؛ إنّه فرح الكنيسة الظّافرة وهي تُهيّئُ نفسَها لعشاء عرس الحمل. لذا، فإنّ الاشتراك في المناولة الإلهيّة يتطلّب تهيئةً روحيّةً وجسديّة، هو ليس عملاً ميكانيكيًّا، مثل أيّ وجبة طعام، بل هو طعامٌ إلهيّ. والتّهيئة ليست عملاً وليد ساعته يقوم به المؤمن، إنّما هو عملٌ حياتيٌّ مستمرٌّ ودائم. لذلك، فقد شدّدت الكنيسة الشّرقيّة، وبخاصّةٍ الأرثوذكسيّة، على أنّ الصّوم الإفخارستيّ ينبغي أن يمتدّ لتسع ساعاتٍ قبل المناولة (لأنّه لا يجوز، بحسب التّقليد الأرثوذكسيّ المتعارَف عليه، الاحتفال بالّليتورجيّا الإلهيّة إلاّ في ساعات الصّباح من يوم الأحد، ولا وجود، بالتّالي، لليتورجيّة إلهيّة مسائيّة. عندها يبدأ الصّوم في منتصف ليل اليوم السّابق للاحتفال الإفخارستيّ)، في إشارةٍ إلى آلام السّيّد المسيح الّتي امتدّت من السّاعة الثّالثة حتّى السّاعة الثّانية عشرة، وهي ساعة الدّفن؛ ناهيك عن أنّ السّاعة التّاسعة في التّقليد المسيحيّ تُشير إلى موت المخلّص على الصّليب. لذلك، فإنّ الصّوم الإنقطاعيّ تسع ساعاتٍ قبل الإفخارستيّا هو شركةٌ في آلام المسيح وموته.

كان الصّوم يبدأ في الكنيسة الكاثوليكيّة منتصف الّليلة السّابقة للإحتفال الإفخارستيّ. ثمّ جاء البابا بيوس الثّاني عشر ليقول بأنّ شرب الماء لا يقطع الصّوم الإفخارستيّ، فحدّد بعدها الصّوم بثلاث ساعات قبل القدّاس الإلهيّ للأكل، وساعة واحدة لشرب السّوائل. وقام البابا بولس السّادس، في ٢١ تشرين

الثّاني ١٩٦٤، بتقليص الصّوم إلى ساعةٍ واحدةٍ قبل القدّاس، استمرّت إلى يومنا هذا.

- **الحِشمة**

على المؤمنين، رجالاً ونساءً، أن يحافظوا على الحشمة في ملابسهم ومظاهرهم: "لا تَكُنْ زينَتُكُنَّ زينَةً ظاهِرَةً مِن ضَفْرِ الشَّعْرِ والتَّحلّي بالذَّهَب والتَّأنُّق في المَلابس، بلِ الخَفِيُّ مِن قَلْبِ الإنسان، أي زينةٌ بَريئَةٌ مِنَ الفَسادِ لِنَفسٍ وادِعَةٍ مُطمَئِنَّة: ذلك هو الثَّمينُ عِندَ الله" (١ بطرس ٣: ٣-٤).

- **التّقدّم إلى المناولة بخشوع ووقار**

حيث يرسم المؤمن إشارة الصّليب بتقوى مع انحناءة الرّأس قبل المناولة، ويُعيد الفعل نفسه بعد المناولة، حيث يعود إلى مكانه بصمتٍ وهدوءٍ ورَهبة، وقائلاً في نفسه: "**ها إنّ هذه قد مسّت شفتيّ، فهي تُزيل آثامي وتُطهّرني من خطاياي**"؛ هناك طريقةٌ أخرى للمناولة يذكرها كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة في روبريكا خاصّة تقول: "يتقدّم المؤمنون وأيديهم على صدورهم بشكل صليب" (ص. ١٦٤)؛ والشّمّاس عند المناولة يطوي الزّنّار (الأوراريون) الّذي يتمنطق به على شكل صليبٍ أيضًا. كلّ هذا يُشير إلى أنّ ملكوت الله، الّذي ندركه مسبقًا في اللّيتورجيا الإفخارستيّة، ونقتنيه كعطيّةٍ منذ الآن في المناولة الإفخارستيّة، قد بدأ في تجسُّد يسوع المسيح وموته وقيامته. ومن ثمّ، فحضور يسوع المسيح في الإفخارستيا لا يعني حضور شخصه وحسب، بل أيضًا حضور عمله الخلاصيّ، ولا سيّما ذبيحة تقدمة الذّات الشّخصيّة على الصّليب. إنّ قيام المؤمنين من أماكنهم وذهابهم للتّناول يُشير، بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، إلى دخولهم الحقيقيّ إلى السّماء إلى الأقداس العُليا حيث دخل المسيح كسابقٍ من أجلنا بدم نفسه، دخل مرّةً واحدةً إلى الأقداس فوجد فداءً أبديًّا (راجع عبرانيّين ٦: ٢٠؛ ٩: ١٢). ليس هنا تشبيهًا ولا رمزًا، ولكنّه سرٌّ معتلَنٌ بالإيمان، فالمسيح حاضرٌ على المذبح كما في السّماء، بذبيحة نفسه، وبدم نفسه، كما هو أمام الآب، يُعطي جسده المكسور لكلّ مَن يتقدّم ودمه المسفوك يهبه غفرانًا للخطايا وحياةً أبديّةً لكلّ مَن يتناول منه[٣٩١].

٣٩١) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيا***، ص. ٥٠-٥١.

٣) الشّكر بعد المناولة

١. نقل القرابين المقدّسة إلى مذبح التّقدمة

عند الانتهاء من مناولة المؤمنين يقف الكاهن في الباب المقدّس حاملاً الكأس المقدّسة ويقول للشّعب: "ها إنّ هذه قد مسّت شفاهكم، فهي تُزيل آثامكم، وتُطهّركم من خطاياكم". تذكّرنا هذه العبارة بما قاله ملاك الرّبّ لأشعيا النّبيّ: "فطار إليّ أحد السّيرافين، وبيده جمرةٌ أخذها بمِلقطٍ من المذبح ومسَّ بها فمي وقال: ها إنّ هذه قد مسّت شفتَيك، فأزيلَ إثمُكَ وكُفِّرَت خطيئتُكَ" (أشعيا ٦: ٦-٧). عند المناولة نأخذ الجمرة الإلهيّة الحاملة الحياة الّتي تُطهّر الجميع وتحرق غير المستحقّين. يسوع هو وحده القادر على محو خطايانا وهو الّذي قدّم نفسه كَفّارةً عن خطايانا على الصّليب: "إنّه كَفّارةٌ لخطايانا، لا لخطايانا وحدها، بل لخطايا العالم أجمع" (١ يوحنّا ٢: ٢)؛ وأيضًا: "أكتبُ إليكم يا بَنِيَّ: إنّ خطاياكم غُفِرَتْ بفضل اسمه" (١ يوحنّا ٢: ١٢).

ثمّ يُبارك الكاهن المؤمنين بالكأس المقدّسة، قائلاً:

خلّص يا ألله شعبك وبارك ميراثك (مزمور٢٧: ٩)

إنّ لهذه الكلمات معنًى عميقًا، ذلك أنّ المؤمنين يصيرون "شعب الله" من خلال دم المسيح، على حدّ تعبير القدّيس بطرس الرّسول: "عالمين أنّكم لم تُحرَّروا من تصرّفكم الباطل الموروث من آبائكم، بأشياءَ تَبلى، بالفضّة والذّهب، بل بدمٍ كريم، دم المسيح، ذاك الحمل الّذي لا عيب فيه ولا دنس" (١ بطرس ١: ١٨-١٩)؛ وأيضًا: "أمّا أنتم فجيلٌ مختارٌ، كهنوتٌ ملوكيّ، أُمّةٌ مقدّسة، وشعبٌ مُقتنًى لتُشيدوا بحمدِ الّذي دعاكم من الظّلمة إلى نوره العجيب" (١ بطرس ٢: ٩)، ويحصلون على الحقّ في أن يرثوا ملكوت السّموات. إنّ كلّ مناولةٍ مقدّسةٍ هي بمثابة ضمانةٍ محقّقةٍ للحياة الأبديّة، ميراثنا من الآب السّماويّ؛ وهذا يجعل من المناولة أفضل ضمانةٍ للخلاص الأبديّ الشّخصيّ، كما يؤكّد لنا ذلك المسيح نفسه في الإنجيل المقدّس (يوحنّا ٦: ٥١). هذا هو السّبب الّذي جعل القدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ يُشدّد على حقيقة أنّ الخبز الإفخارستيّ هو "دواء

الخلود، والعلاج الّذي سوف يمنع موتنا"[٣٩٢]؛ لقد أصبحنا، بواسطة المناولة المقدّسة، أبناء الله بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، إذ إنّنا وحّدنا أنفسنا برأس هذا الشّعب، ابن الله المتجسّد يسوع المسيح: "أمّا الّذين قبلوه، أولئك الّذين يؤمنون باسمه، فقد آتاهم أن يصيروا أبناء الله، أبناءً لم يولدوا من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رجلٍ، بل من الله" (يوحنّا ١: ١٢-١٣).

فيُجيب المؤمنون على بركة الكاهن هذه بترنيمةٍ مأخوذةٍ من خدمة صلاة غروب عيد العنصرة:

لقد نظرنا النّور الحقيقيّ. وأخذنا الرّوح السّماويّ. ووجدنا الإيمان الحقّ. فلنسجد للثّالوث غير المنقسم. لأنّه خلّصنا

لقد اقتبل المؤمن "النّور الحقيقيّ" في داخله بالمناولة الإلهيّة، فاتّحدت نفسه بالمسيح "شمس العدل". ويتّجه ذهنه الآن نحو الله ويتّحد به فيتلألأ بالنّور الإلهيّ. ويغدو المسيح للمؤمن الّذي تناوله نورًا وسلامًا وفرحًا؛ حياةً، مأكلاً ومشربًا حقيقيّين، لباسًا، وشاحًا، مسكنًا وبيتًا إلهيًّا، شمسًا لا يُدنى منها بالحقيقة، وكوكبًا مضيئًا على الدّوام، مصباحًا مُشرقًا داخل بيت النّفس، فيَضحى المؤمن، كما قال القدّيس بولس الرّسول: "هيكل الله الحيّ" (٢ كورنثس ٦: ١٦). إنّ يسوع المسيح هو النّور والحقّ ونحن عبر المناولة والاتّحاد به نصير في النّور، لا بل نصير أبناء للنّور والحقّ ويسكن فينا الرّوح القدس الّذي يُحيينا ويجعلنا هياكل له. عندها نسجد للثّالوث القدّوس بحقٍّ. ما من أمرٍ يحدث في الكنيسة من دون الرّوح القدس والشّركة معه. ذلك أنّ الكنيسة، وبفضل حلوله، تكشف عن نفسها على أنّها تُحوّل النّهاية إلى بداية، والحياة القديمة إلى حياةٍ جديدة: فالكنيسة هي سرّ الرّوح القدس.

يقول البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني في هذا الصّدد:

"الكنيسة تحيا بالمسيح الإفخارستيّ، به تتغذّى، وبه تستنير. الإفخارستيّا سرُّ إيمان، وفي الوقت عينه، سرٌّ نورانيّ. كلّ مرّةٍ تحتفل

---

٣٩٢) Casimir Kucharek, ***<u>The Byzantine-Slav liturgy</u>***, p.718.

الكنيسة بالإفخارستيّا، يستطيع المؤمنون أن يحيَوا من جديدٍ نوعًا ما، اختبار تلميذَي عمّاوس: فانفتحت أعينهما وعرفاه (لوقا ٢٤: ٣١)"[٣٩٣].

ثمّ يدخل الكاهن إلى الهيكل، ويضع في الكأس المقدّسة ما تبقّى من القرابين الموجودة على الصّينيّة المقدّسة، وهي الأجزاء الباقية من المناولة، ويقول:

إغسل يا ربّ بدمك الكريم خطايا عبيدك المذكورين ههنا بشفاعة والدة الإله وجميع قدّيسيك

وحده الرّبّ قادرٌ أن يمحوَ الخطايا. ذبيحتنا هنا هي استمرارٌ لذبيحة الصّليب الّتي بها محا يسوع خطايانا وسمّرها على الصّليب.

ثمّ يُغطّي الكاهن الكأس المقدّسة، ويضع النّجم والغطاء على الصّينيّة المقدّسة. ثمّ يُبخّر القرابين المقدّسة الموضوعة على المائدة المقدّسة. إنّ عادة تبخير القرابين المقدّسة قبل نقلها إلى مذبح التّقدمة تعود إلى القرن الحادي عشر للميلاد[٣٩٤]. إنّها ترمز إلى نعمة الرّوح القدس الّتي انسكبت على الرّسل القدّيسين في عليّة صهيون بعد صعود الرّبّ إلى السّموات. ويقول:

إرتفع اللّهمّ على السّموات. وليكن مجدك على جميع الأرض (ثلاثًا)

هذه صورةٌ لصعود المسيح إلى السّماء. هذا الصّعود يجري في كلّ مؤمنٍ بالمناولة بصورةٍ سريّة، إذ إنّه باتّحاده بالمسيح أصبح جالسًا معه سريًّا عن يمين الآب ومستقرًّا في قلب الله؛ فعندما تسمع "إرتفع" لا تعتقدنّ أنّه يطلب إلى الله أن ينتقل إلى علوٍّ أكبر... بل يريد أن يرتفع مجده كما في السّموات كذلك على الأرض. يقول القدّيس أثناسيوس الكبير:

"لمّا أحدرت نفسك يا سيّد، طوعًا، لأجل خلاصنا وأفرغتها بالتّجسّد، وصرتَ مطيعًا حتّى الموت (راجع فيلبّي ٢: ٧-٨)، هكذا اصعد مجدّدًا إلى السّموات، فالأرض بعد صعودك ستمتلىء كلّها بمجدك"[٣٩٥].

---

٣٩٣) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيّا حياة الكنيسة***، عدد ٦.

٣٩٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.327.

٣٩٥) الأب المتوحّد غريغوريوس، ***تفسير القدّاس الإلهيّ***، ص.١١٢.

عندئذٍ يأخذ الكاهن الكأس والصّينيّة، ويلتفت بهما نحو الشّعب ويقول:

تبارك إلهنا كلّ حين. الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّاهرين. آمين

ويذهب بهما إلى مذبح التّقدمة، فيضعهما عليه، ثمّ يعود إلى المائدة المقدّسة ويطوي الأنديمنسيون ويضع الإنجيل المقدّس فوقها.

٢. صلوات الشّكر

إنّ التّعبير عن الامتنان للخيرات الرّوحيّة المُعطاة لنا من الله هو ردّة فعلٍ طبيعيّة، جوابٌ عفويٌّ من قلب الإنسان نحو فاعل الخير الأسمى. فإنّه ليس من المستغرب، إذًا، أن نجد في اللّيتورجيّا "صلوات شكر" هي بمثابة إقرارٍ إيمانيٍّ، شخصيٍّ وجماعيٍّ، بالفضل الإلهيّ الّذي منح المؤمنين عطيّة المناولة المقدّسة العظيمة (الغذاء الرّوحيّ الّذي تناولناه على مائدة الرّبّ). ففي الكنيسة الأولى، طبعت صلوات الشّكر الطّقس الإفخارستيّ كلّه، لدرجة أنّ الإفخارستيّا (الشّكر) استمدّت اسمها منها. فهي، بالتّالي، تُشكّل عنصرًا أساسيًّا في اللّيتورجيّا الإلهيّة، بحيث يجب على المؤمنين تلاوتها بعد المناولة المقدّسة، ولا يجوز لهم الخروج من الكنيسة بعد المناولة مباشرةً دون تلاوة صلوات الشّكر.

ولقد كان القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم حادًا جدًّا مع أولئك الّذين يذهبون سريعًا بعد المناولة دون شكر للرّبّ على ما أنعم به عليهم (جسده ودمه المقدّسين)، حيث يتّهمهم بأنّهم كيهوذا الإسخريوطيّ الّذي ترك غرفة العشاء بعد أن أخذ اللّقمة من يد المخلّص: "أمّا ذاك فلمّا تناول اللُّقمة خرج للوقت. وكان ليلٌ" (يوحنّا ١٣: ٣٠)، بدلاً من أن يرنّم نشيد تسبيح وشكر، ثمّ يخرج مع الرّبّ[٣٩٦]: "ثمّ سبّحوا وخرجوا إلى جبل الزّيتون" (متّى ٢٦: ٣٠).

يقول ثيوذورس المبسوسطي في هذا الصّدد أيضًا:

"بعد أن تتقبّل المناولة المقدّسة، عليك أن تُقدّم، بحقٍّ وبعفويّة، تسبيحًا وشكرًا للرّبّ... وابقَ، بحيث تُقدّم أيضًا شكرًا وتسبيحًا مع

---

٣٩٦) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.723.

الجميع، وَفقًا لمبادئ الكنيسة، إذ إنّها مناسَبَةٌ لجميع الّذين تناولوا من الطّعام الرّوحيّ أن يُقدّموا الشّكر للرّبّ علانيّة"[٣٩٧].

أ. النّشيد العَنصَرويّ: "لقد نظرنا النّور الحقيقيّ"

- لقد نظرنا النّور الحقيقيّ

إنّ يسوع المسيح، وبحسب الإنجيل المقدّس، هو النّور الحقيقيّ "الّذي يُنير كلّ إنسان، آتيًا إلى العالم" (يوحنّا ١: ٩)؛ وفي موقع آخر من الإنجيل المقدّس، تكلّم يسوع في عدّة مناسباتٍ عن نفسه كاشفًا عن هُويّته الإلهيّة، بأنّه "نور العالم"، وبخاصّةٍ في إنجيل يوحنّا: "أنا نور العالم، مَن يتبعْني لا يمش في الظّلام، بل يكون له نور الحياة" (يوحنّا ٨: ١٢)؛ "ما دُمتُ في العالم، فأنا نور العالم" (يوحنّا ٩: ٥)؛ "جئتُ إلى العالم نورًا، فكلُّ مَن آمن بي لا يبقى في الظّلام" (يوحنّا ١٢: ٤٦). فكما يلد النُّور ضياء، كذلك كان المسيح ضياء الله الآب. والنُّور الّذي أشعّ به وجه المسيح هو، في الواقع، نُور مجد الله ذاته (راجع ٢ كورنثس ٤: ٦). فبصفته ابن الله "هو شعاع مجده" (عبرانيّين ١: ٣). وعلى هذا النّحو، فإنّه، من خلال المسيح - النُّور، يظهر شيءٌ ما من الجوهر الإلهيّ. يتحدّث ابن العربيّ، من دون قصد، عن طبيعة السّيّد المسيح في وصفه الإنسان الكامل فيقول:

> "إنّ الإنسان الكامل هو الّذي يجمع في ذاته، على نحو تامّ، وفي توافق، السّماء والأرض، ضمن علاقة إدراكٍ لوَحدة الوجود. فهو، في وقتٍ واحد، العين الّتي يرى فيها الشّخص الإلهيّ ذاته، والمرآة الصّافية الّتي تعكس بإتقان النُّور الإلهيّ".

هذا المنطق الصّوفيّ تعبيرٌ رائعٌ عمّا يؤمن به المسيحيّون، كما ورد في العهد الجديد: إنّ يسوع المسيح "هو صورة الله الّذي لا يُرى... فقد حَسُنَ لدى الله أن يَحِلّ به الكمال كلُّه" (كولسّي ١: ١٥-١٩).

---

٣٩٧) Ibid, p.724.

إنّ فعل الرّؤية هنا "نظرنا" لا يُعبّر عن رؤيةٍ جسديّةٍ طبيعيّةٍ للنّور الإلهيّ غير الحسيّ، إنّما يُشير إلى رؤيةٍ روحيّةٍ لهذا النّور الّذي اكتسبه المؤمن بتناوله لجسد الرّبّ ودمه الطّاهرَين. من هنا نُدرك أنّ رؤية النّور الإلهيّ هي نعمةٌ خاصّة من الله للإنسان المؤمن، وهي، في الوقت عينه، اختبارُ المؤمن لحقيقة الحياة الإلهيّة من خلال اتّحاده بالله، الّذي يجعله يتصرّف كابنٍ للنّور. يقول القدّيس بولس: "بالأمس كنتم ظلامًا، أمّا اليوم فأنتم نورٌ في الرّبّ... لأنّ كلّ ما ظَهَرَ كان نورًا. ولذلك قيل: تنبّه أيّها النّائم، وقُمْ من بين الأموات، يُضِئْ لك المسيح" (أفسس ٥: ٨، ١٤). من هنا نستشهد بما قاله القدّيس سمعان اللّاهوتيّ في حديثه عن خبرة النّور وهي الحياة الرّوحيّة الواعية أو "المعرفة"، يقول:

> "نحن لا نتكلّم على أشياءَ نجهلها، بل ما نعرفه نشهد له. ذلك لأنّ النّور يُضيء في الظّلمات، في النّهار وفي اللّيل، في قلوبنا وفي أرواحنا. يُنيرنا، هذا النّور الّذي لا يغيب ولا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يحتجب أبدًا... الله نور، وكلّ الّذين يجعلهم أهلاً لرؤيته يرونه نورًا؛ والّذين قبلوه، قبلوه نورًا. مَن لم يرَوا هذا النّور، لم يروا الله، لأنّ الله نور. ومَن لم يتلقَّ هذا النّور لم يتلقَّ النّعمة بعد، لأنّ مَن يتقبّل النّعمة يتقبّل النّور الإلهيّ والله... إنّ التّوبة هي الباب الّذي يقود من منطقة الظّلمة إلى منطقة النّور، إذ يكره عبيدُ الخطيئة النّور، ويخافون أن يكشف أعمالهم الخفيّة"[٣٩٨] (راجع يوحنّا ٣: ١٩-٢١).

إنّ كمال المعرفة مُعاينة النّور الإلهيّ، نور الثّالوث القدّوس. إنّه الوعي التّام، وهو المجيء الثّاني والدّينونة والدّخول إلى الحياة الأبديّة، الّذي يبدأ، بحسب القدّيس سمعان اللّاهوتيّ الحديث، هنا على الأرض، قبل الموت والقيامة، وذلك في القدّيسين الّذين يحيَون في شركةٍ دائمةٍ مع الله. يتميّز هذا النّور بأنّه نورٌ غيرُ مخلوق، "يكشف الله فيه نفسه، ويمنح ذاته للّذين يتّحدون به"[٣٩٩]. إنّه نورٌ غيرُ ماديٍّ وليس فيه شيءٌ محسوس؛ ولهذا يسمّيه القدّيس سمعان اللّاهوتيّ الحديث "نارًا غير منظورة". إنّه نورٌ لا يستطيع الإنسان أن يراه بعينَيه

---

٣٩٨) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٨٢.

٣٩٩) **المرجع نفسه**، ص. ١٨٤.

الجسديّتين، إذ إنّهما لا يتحمّلان قوّة إشعاعه بتاتًا، بل على الإنسان أن يمتلك عينَين روحيّتَين، أعني بهما الرّوح الكلّي قدسه، ليستطيع أن يختبر بالنّعمة الإلهيّة نور الله المتجلّي.

أمثلة عدّة من شخصيّاتٍ ظهرت في كتابات العهد الجديد واختبرت نور المسيح في حياتها: فالنّور الّذي رآه الرّسل على جبل ثابور هو نور الله بالطّبيعة. ومع أنّ هذا النّور أزليٌّ وأبديٌّ وموجودٌ خارج الزمان والمكان إلاّ أنّه كان يظهر في العهد القديم بمثابة مجد الله: ظهورٌ ترتعد منه الخلائق ولا تستطيع احتماله وذلك لأنّه كان خارج الطّبيعة البشريّة وغريبًا عنها قبل المسيح، وخارج الكنيسة. إنّه النّور الّذي لا يُدنى منه، حيث يسكن الله، كقول بولس الرّسول: "ومسكنُه نورٌ لا يُقترَب منه، وهو الّذي لم يرَه إنسان، ولا يستطيع أن يراه" (١ تيموثاوس ٦: ١٦). إنّه النّور الأزليّ الّذي كان يخترق ناسوت المسيح ويجعل لاهوته ظاهرًا لتلاميذه في حين تجلّيه؛ إنّ بولس على طريق دمشق، إذ لم يكن بعدُ مؤمنًا بالمسيح، أصابه العمى ووقع على الأرض عند رؤيته النّور الإلهيّ للمسيح الحيّ والقائم من بين الأموات والممجَّد؛ لكنّ مريم المجدليّة، استطاعت، بالعكس، أن ترى نور القيامة يملأ القبر ويجعل كلّ ما فيه مرئيًّا، بالرّغم من ظلام اللّيل، إذ إنّ "النّهار الحسيّ" لم يكن قد أنار الأرض بعد؛ ولذا فهذا النّور أتاح لها رؤية الملاكَين والتّحدّث معهما. إنّه النّعمة غيرُ المخلوقة والمؤلِّهة، حظُّ قدّيسي الكنيسة الّذين يعيشون في الاتّحاد بالله.

وهكذا "يظهر النّور الإلهيّ في هذه الدّنيا، في العالم، في الزّمان. يستعلن في التّاريخ، ولكنّه ليس من هذا العالم. إنّه أزليٌّ ويعني الخروج من الوجود التّاريخيّ: إنّه "سرّ اليوم الثّامن"، إنّه بدء المجيء الثّاني في النّفوس القدّيسة، حين يظهر الله للكلّ في نوره الّذي لا يُدنى منه"[٤٠٠]. فللّذين صاروا أبناء النّور وأبناء النّهار الآتي، للّذين يسيرون على الدّوام في النّور، لن يأتي يوم الرّبّ أبدًا، ذلك لأنّهم مع الله دائمًا وفي الله. فيوم الرّبّ لن يظهر إذًا للّذين استناروا بالنّور الإلهيّ، ولكنّه سيُعلَن فجأةً للباقين في ظُلُمات الأهواء، والعائشين بمقتضى هذا الدّهر، مُلتصقين بالخيرات الزائلة، وسيكون لهم يومًا رهيبًا كنارٍ لا يُمكن احتمالُها.

---

٤٠٠) المرجع نفسه، ص. ١٩٤.

وعليه، فإنّنا نستطيع القول إنّ رؤيتنا للنّور الحقيقيّ هي رؤيةٌ أساسُها الإيمان الحقّ، وهي، في الوقت عينه، اشتراكٌ في القوّة الإلهيّة واتّحادٌ بالمسيح النّور الحقيقيّ من خلال النّعمة، أي عمل الرّوح القدس في حياة الإنسان المؤمن: إنّها حياة "الشّركة الّتي لا تنقطع مع الله"[401]. حينئذٍ، يُشعّ الصّدّيقون كالشّمس في ملكوت أبيهم (متى ١٣: ٤٣). وفي الوقت عينه، **تأتي هذه التّرنيمة كشهقةٍ عميقة، بعد فرحة اللقاء ونشوة الاتّحاد وانشراحة التمتّع بالحضور الإلهيّ الحقيقيّ، لتُكمّل آية يوحنّا الإنجيليّ "وقد شاهدنا مجده"** (١: ١٤)[402].

أختم كلامي عن "النّور الحقيقيّ" بقولٍ إنجيليٍّ جاء على لسان السّيّد المسيح في موعظته على الجبل: "طوبى لأنقياء القلب، فإنّهم يُعاينون الله" (متّى ٥: ٨) "الّذي، وهو نور، يسكن فيهم ويُعلن ذاته للّذين يُحبّونه، أحبّائه"، على حدّ تعبير القدّيس غريغوريوس بالاماس[403].

- **وأخذنا الرّوح السّماويّ**

تُذكّرنا هذه الجملة أوّلاً بوعد المسيح لتلاميذه بإعطائهم الرّوح القدس كعطيّةٍ خاصّةٍ من الله الآب نتيجةً لتمجيد يسوع وقيامته من بين الأموات، وهو ما يظهر جليًّا في كلمات يسوع عن الماء الحيّ في إنجيل يوحنّا: "إن عطش أحد فليُقبل إليّ، ومَن آمن بي فليشرب، كما ورد في الكتاب: ستجري من جوفه أنهارٌ من الماء الحيّ. وأراد بقوله الرّوحَ الّذي سيناله المؤمنون به، فلم يكن هناك بعدُ من روح، لأنّ يسوع لم يكن قد مُجّد" (يوحنّا ٧: ٣٧-٣٩)؛ وفي موقع آخر من الإنجيل نفسه، أنبأ يسوع تلاميذه في خطاب الوداع قبل انطلاقه إلى الآلام الطّوعيّة بهذه العطيّة الإلهيّة، المؤيّد الرّوح القدس: "وأنا سأسأل الآب، فيَهَبُ لكم مؤيّدًا آخر يكون معكم للأبد، روحُ الحقّ الّذي لا يستطيع العالم أن يتلقّاه، لأنّه لا يراه ولا يعرفه. أمّا أنتم فتعلمون أنّه يُقيم عندكم ويكون فيكم... ولكنّ المؤيّد، الرّوح القدس، الّذي يُرسله الآب باسمي، هو يعلّمكم

---

٤٠١) **المرجع نفسه**، ص. ١٩١.

٤٠٢) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة***، ص. ٥.

٤٠٣) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللّاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٨٧.

جميع الأشياء، ويُذكّركم جميع ما قلته لكم" (يوحنّا ١٤: ١٦-١٧، ٢٦)؛ وأيضًا: "غير أنّي أقول لكم الحقّ: إنّه خيرٌ لكم أن أذهب. فإنْ لم أذهب، لا يأتِكم المؤيّد. أمّا إذا ذهبتُ فأرسلُه إليكم" (يوحنّا ١٦: ٧).

وبالفعل، فقد حقّق يسوع وعدَه الإلهيّ لتلاميذه بعد قيامته من بين الأموات، حين دخل على التّلاميذ في عليّة صهيون والأبواب مغلقة، مُعلِنًا لهم بُشرى تحقيق الوعد: "قال هذا ونفخ فيهم وقال لهم: خذوا الرّوح القدس" (يوحنّا ٢٠: ٢٢). من هنا نُدرك كلمات القدّيس إيريناوس القائل: "إنّ الرّوح حيث الكنيسة، والكنيسة حيث الرّوح". فالكنيسة جسدٌ لكون المسيح رأسها؛ وهي مِلءٌ لكون الرّوح القدس يُحييها ويملأها بالألوهة (راجع أفسس ١: ٢٣)، جاعلاً من جماعة المؤمنين في الكنيسة مشاركي الطّبيعة الإلهيّة.

- ووجدنا الإيمان الحقّ

الإيمان الحقيقيّ ليس هو مجرّد التّصديق العقليّ أو الإقرار الشّفويّ بعقائدَ معيّنة، ولا هو شيءٌ سطحيٌّ ورائيّ، بل هو عنصرٌ إلهيٌّ حيٌّ يربط النّفس بالله، ومركزه القلب: "فإذا شَهدتَ بفمك أنّ يسوع ربّ، وآمنتَ بقلبك أنّ الله أقامه من بين الأموات، نِلتَ الخلاص. فالإيمان بالقلب يؤدّي إلى البرّ، والشّهادة بالفم تؤدّي إلى الخلاص" (رومة ١٠: ٩-١٠).

وهكذا ندرك أنّ الإيمان الحقيقيّ هو شهادةٌ حيّةٌ ليسوع (مسلكيّةٌ حياتيّةٌ مسيحيّةٌ حقيقيّة) واعترافٌ شخصيٌّ بقيامته من بين الأموات، من جهة، وقيامته في قلوبنا وحياتنا، من جهةٍ أخرى، تكون نتيجته الخلاص الذّاتيّ للإنسان المؤمن. هذا ما يجعل من الإنسان علامةً على القبر الفارغ وإشعاعًا روحيًّا لإشراقة فجر القيامة السّاطع الضّياء، فيتحوّل قلب المؤمن من قلبٍ متحجّرٍ إلى قلبٍ من لحمٍ ودم، ومن قلبٍ مُظلمٍ إلى قلبٍ مُشعٍّ بالنّور الإلهيّ الحقيقيّ: "وأُعطيهم قلبًا آخر، وأنزعُ من لحمهم قلب الحجر وأُعطيهم قلبًا من لحم" (حزقيال ١١: ١٩)؛ إنّه أيضًا إيمانٌ "حيٌّ" و"عامِلٌ" وعطيّةٌ ثمينةٌ من الله. وبه تتفتّح البصيرة الرّوحيّة، فيثق المؤمن بما يَرجى ويوقن بأمورٍ لا تُرى، لمجرّد أنّ الله أعلنها في كلمته، إذ إنّ الإيمان هو مبدأ حياة المؤمن طوال وجوده على الأرض: "لأنّنا نسير في الإيمان لا في العِيان" (٢ كورنثس ٥: ٧).

ويستطيع كلّ مؤمنٍ أن يقول مع الرّسول بولس: "وإذا كنتُ أحيا الآن حياةً بشريّة، فإنّي أحياها في الإيمان بابن الله الّذي أحبّني وجاد بنفسه من أجلي" (غلاطية ٢: ٢٠).

- **فلنسجد للثّالوث غير المنقسم، لأنّه خلّصنا**

إنّ العمل اللّيتورجيّ في اختبار الكنيسة يعكس تدبير الله الآب التاريخيّ- الخلاصيّ؛ من هنا تعكس النّصوصُ اللّيتورجيّة، ولا سيّما الإفخارستيّة منها، "تدبير الآب" أيّ ما نسمّيه "زمن الآب" وهي المرحلة الّتي تبدأ مع الخلق الأول وترسم كلّ تاريخ العهد القديم الّذي يعبّر عن رحمة الآب ومحبّته اللّامتناهية للبشر وتصل ذروة هذه المرحلة إلى "ملء الزّمن" أيّ إلى ما نسمّيه تدبير الابن أو "زمن الابن" وهو دخول كلمة الله في التّاريخ. وهنا تُرسَم كلّ حياة يسوع التّاريخيّة أيّ تدبيره الحياتيّ منذ ولادته وعماده وصومه وحياته، بكلّ أبعادها، وآلامه وموته وقيامته وصعوده إلى السّماء؛ فإنّ كلّ هذه المرحلة خلاصيّة وتأتي لتتوّج تدبير الآب؛ وتكتمل هذه المرحلة بما نسمّيه "تدبير الرّوح" أو "زمن الرّوح" وهو حلول الرّوح القدس على الرّسل والتّلاميذ في العليّة: هذا الرّوح الّذي يختم ويكمّل في الجماعة وفي العالم الخلاصَ الّذي حقّقه الابن؛ هذا الرّوح المنبثق من الآب وهو روح الابن القائم، وهبَه الابن لرسله وحقّق فيهم مشروع التّحوّل: وما زالت الكنيسة تستدعي الرّوح فيأتي ويحلّ ويحوّل.

ب. نشيد الشّكر "لتمتلئ أفواهنا"

> **لتمتلئ أفواهنا من تسبحتك يا ربّ (مزمور ٧٠: ٨). لأنّك أهّلتنا لأن نشترك في أسرارك المقدّسة. الخالدة الطّاهرة. إحفظنا في القداسة. لنُشيد بمجدك. ونهذّ النّهار كلّه ببرّك. هلّلويا، هلّلويا، هلّلويا.**

لقد أدخل هذا النّشيد إلى ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ سرجيوس بطريرك القسطنطينيّة، في حوالي العام ٦٢٤م[٤٠٤].

---

٤٠٤) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.328.

يتضمّن هذا النّشيد تعبيرًا عن التّسبيح والشّكران والعمل الحثيث والمثابرة في الحياة المسيحيّة والجهاد الرّوحيّ في حِفظ المسلكيّة الإيمانيّة للإنسان المسيحيّ سالمةً بلا شائبة. إنّه تسبيحٌ يُعبِّر عن فرحة الإنسان المؤمن بعظمة الله وبجماله، بعمق محبّته وبصواب حكمته، وهو، في الوقت عينه، تعبيرٌ عن الشّكران الّذي ما هو إلاّ اعترافٌ بأنّ الله أحبّ الإنسان وناداه إلى الوجود وغفر له كلّ معاصيه وشفاه من كلّ أمراضه وبخاصّةٍ الرّوحيّة ودعاه إلى الشّركة الكاملة معه، وهذا كلّه يتمّ من خلال سرّ الإفخارستيّا فقط.

يقول البار نقولا كباسيلاس في هذا الصّدد:

"نحن لسنا مستحقّين يا سيّد لأنْ نُقدِّم لك نشيد تسبيح عن الخيرات الّتي منحتنا إيّاها، لكن هبنا هذا أيضًا عندما تملأ أفواهنا بالتّسبيح، وكما أنّك منحتَ نعمة الصّلاة لطالبيها لكي نعرف لماذا وكيف نصلّي، هكذا أيضًا امنح شفاهنا القوّة لتسبيحك"[٤٠٥].

يطلب المؤمنون من خلال عبارة "إحفظنا في القداسة" أن يبقَوا، بمساعدة نعمة الله، في حالة القداسة الّتي انسكبت عليهم في المناولة المقدّسة، إذ إنّ "مشيئة الله أن تُقدّسوا أنفسكم... فيعرف كلٌّ واحدٍ منكم أن يحفظ إناءه في القداسة والكرامة"، على حدّ تعبير بولس الرّسول (١ تسالونيكي ٤: ٣-٤)، ذلك أنّهم يستطيعون أن يتجنّبوا الخطيئة والبرودة الرّوحيّة في خدمة الرّبّ، كي يسيروا، تاليًا، على خُطاه بالعدل والقداسة. بتعابير أخرى، يطلب المؤمنون أن تكون تأثيرات المناولة المقدّسة دائمةً، طالما أنّهم ما زالوا يعيشون الحياة الأرضيّة. وفي نهاية الصّلاة، يهذّ المؤمنون النّهار كلّه ببرّ الله الّذي ظهر بيسوع المسيح، على حدّ تعبير بولس الرّسول الّذي قال: "وأمّا الآن فقد اعتلن برّ الله بمعزلٍ عن النّاموس، مشهودًا له من النّاموس والأنبياء، برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى جميع الّذين يؤمنون" (رومة ٣: ٢١-٢٢)، وأيضًا: "إنّ الّذي لم يعرف الخطيئة، جَعَلَه خطيئةً من أجلنا، لكي نصير نحن به، برَّ الله" (٢ كورنثس ٥: ٢١). وبالتّالي، فإنّنا نلاحظ من خلال هاتين الآيتين البولسيّتين أنّ

---

٤٠٥) نقولا كباسيلاس، *__شرح القدّاس الإلهيّ__*، ص.١١٥.

هذا البرّ ليس برًا ذاتيًا، بل برًا مُكتَسَبًا، لأنّ مَن قام به هو الله في المسيح، ثمّ أُعطِيَ للمؤمنين به هبةً إلهيّة مجّانيّة.

بعد هذا النّشيد يطلب الكاهن من المؤمنين أن يُعبِّروا عن شكرهم للربّ، فيقول:

قفوا! أيّها الّذين اشتركوا في أسرار المسيح الإلهيّة المقدّسة. الطّاهرة. الخالدة. السّماويّة. المُحيية. الرّهيبة. أشكروا الرّبّ شكرًا لائقًا

يدعو الكاهن المؤمنين إلى "الوقوف" الّذي يُشكّل وضعيّة الصّلاة القديمة إلى الله، لتقديم الشّكر اللّائق باستحقاقٍ له لأجل القرابين المقدّسة، جسد ودم يسوع المسيح.

تتضمّن هذه الطّلبة أيضًا العديد من المزايا الرّوحيّة الّتي تبنّتها الكنيسة المقدّسة، من خلال اللّيتورجيّا، لوصف القرابين المقدّسة. فهي:

- "**إلهيّة**"، لأنّ ابن الله نفسه بداخلها، وهي تجعل كلّ مَن يتناولها باستحقاقٍ شريكًا في حياته الإلهيّة، أي، يُصبح المتناول "إلهيًّا" (راجع ٢ بطرس ١: ٤)؛
- "**مقدّسة**"، لأنّها تُقدّس المؤمنين المتناولين منها بإيمان؛
- "**طاهرة**"، لأنّها تُنقّي النّفس من كلّ شوائب الخطيئة ونتائجها؛
- "**خالدة**"، لأنّها تُذكّرنا بوعد المسيح الثّابت في الإنجيل المقدّس: "هذا هو الخبز النّازل من السّماء لكي لا يموت كلُّ مَن يأكل منه... إنْ أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد" (يوحنّا ٦: ٥٠-٥١)؛
- "**سماويّة**"، لأنّ هذا الخبز هو كمَنّ العهد القديم، آتٍ من السّماء (راجع يوحنّا ٦: ٣١-٣٣؛ ٦: ٥٠-٥١)؛
- "**مُحيية**"، لأنّ المناولة المقدّسة تُحافظ على حياتنا الرّوحيّة؛ بدونها، فإنّ الحياة الفائقة الطّبيعة للنّفس سوف تذبل وتموت (راجع يوحنّا ٦: ٥٤)؛
- "**رهيبة**"، لأنّ كلّ مَن يتناول القربان المقدّس بدون استحقاقٍ، إنّما يرتكب خطيئةً عظيمةً تكمن في تدنيس المقدّسات وانتهاك حُرمتها القُدسيّة (راجع متّى ٧: ٦؛ ١ كورنثس ١١: ٢٧).

ت. صلاة الشّكر

نشكر لك. أيّها السّيّد المحبّ البشر. المُحسن إلى نفوسنا. أنّك أهّلتنا في اليوم الحاضر أيضًا. لأسرارك السّماويّة الخالدة. فقوّم طرقنا. ثبّتنا جميعًا في مخافتك. صُن حياتنا. وطّد خطواتنا. بصلوات وتضرّعات والدة الإله المجيدة. مريم الدّائمة البتوليّة. وجميع قدّيسيك. لأنّك أنت تقديسنا. وإليك نرفع المجد. أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّاهرين. آمين

يجب أن تكون المناولة المقدّسة بالنّسبة إلى المسيحيّين طعامًا يُحافظ عليهم في حياتهم اليوميّة وفي المعركة الرّوحيّة ضدّ إبليس والخطيئة[٤٠٦]؛ فغالبًا ما يفقد المؤمنون في هذه المعركة الشّجاعة، ويُصحبون ضعفاء، فيَضحَون بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الطّعام (المناولة الإلهيّة) الّذي يجعلهم يكتسبون القوّة الدّاعمة في سعيهم للانتصار والغَلَبة في معركتهم هذه. وهنا، أودّ أن أقتبس صلاة شكرٍ جميلةٍ جدًّا كان يتلوها **القدّيس سمعان اللّاهوتيّ الحديث**، ليشكر الرّبّ بعد المناولة الإلهيّة، قائلاً:

"أنتَ، يا مَن لا تدركه السّيرافيم، أنتَ، الخالق، المبدع، سيّد الخليقة، لا تراني فقط وتتحدّث إليّ وتغذّيني، بل البَشَرة الّتي هي بشرتك خاصّتك، قد ارتضيت أن تمنحها لي وأن آكلها، وأن أشرب دمك الكلّيّ قدسه الّذي أُهرق من أجلي عندما جرى ذبحك... يتردّد ذهني، ولساني خائر القوى، ولا أجد أقوالاً، يا مخلّص، لأعبّر عن أعمال صلاحك، تلك الّتي صنعتها من أجلي، أنا عبدك، قد اتّحدتَ بي، يا محبّ البشر، برأفةٍ لا تعرف حدودًا، أنت الكلّيّ الطّهارة والقداسة، ذو قوّةٍ لا تقارن، وعظمةٍ لا مثيل لها، قد نزلت من العلوّ، من عليائك الّذي لا يسبر علوّه، على آخر أبواب الجحيم، جحيم خطاياي، وظلام فقري وبيتي المتهدّم من جرّاء معاصيّ الكثيرة وإهمالي الكبير. مُهْمَلٌ بجملته (بيتي) ومدنّس، فأنهضني بادىء ذي بدءٍ من الأرض، وثبّتني على صخرة وصاياك الإلهيّة، وغَسَلتَني وطهّرتني من أوحال رجاساتي، وألبستَني حلّةً أكثر بياضًا من الثّلج،

(٤٠٦ Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.329.

وطهّرت بيتي المدنّس، ولمّا دخلتَ إليه، سكنتَ فيه، أيّها الثالوثُ إلهيّ، ومن ثمّ جعلت منّي عرش ألوهتك الإلهيّ، ومنزل مجدك وملكوتك غير المدركين، وإناءً حاويًا المنّ، مَنّ عدم الفساد، ومصباحًا حافظًا فيه النّور الإلهيّ الّذي لا ينطفىء"[٤٠٧].

ث. صلاة وراء الأمبون

القدّاس الإلهيّ هو مسيرة. مسيرة هدفها ونهايتها اللّقاء بالله والإتّحاد به. هذا الهدف قد سبق وتحقّق. قد بلغنا نهاية مسيرتنا، قد رأينا النّور الحقيقيّ، قد رأينا الربّ متجلّيًا على جبل ثابور، قد تناولنا جسده المقدّس ودمه الكلّيّ الطّهارة. وبينما نتجرّأ ونهمس لمفتقدنا العظيم: "يا ربّ حسنٌ أن نكون ههنا"، تأتي كنيستنا المقدّسة وتذكّرنا أنّ نهاية مسيرتنا اللّيتورجيّة ينبغي أن تشكّل انطلاقةً **لمسيرتنا الشّهاديّة**: "لننطلق بسلام". ينبغي أن نغادر جبل التّجلّي لنعود إلى العالم ونسلك طريق شهادة حياتنا. هذه المسيرة تغدو شهادة المؤمن "للطّريق" و"للحياة" الّتي استضافها داخله.

في القدّاس الإلهيّ اقتبلنا داخلنا المسيح. الآن نحن مدعوّون إلى أن نحمله إلى العالم. أن نغدو شهداء حياة المسيح في العالم: شهداء "الحياة الجديدة". ينبغي أن نخرج من اجتماعنا الشّريف كما لو كنّا نازلين من السّموات نفسها (متّى ١٧: ٢)، كما السّيّدة العذراء منذ اللّحظة الّتي اقتبلت المسيح داخلها قد ظهرت "سماءً لمَن جعل الأرض سماء"، هكذا كلّ مؤمن منذ اللّحظة الّتي تناول فيها المسيح، يغدو سماءً حيّة، شاهدًا لحضور الملك السّماويّ داخل العالم. بعد المناولة الإلهيّة ينبغي أن نخرج إلى العالم حاملين المسيح، حاملين الرّوح القدس. فمن الآن وصاعدًا، يجدر بنا أن **نجاهد** لنحفظ "النّور" الّذي أخذناه غير مُنطفىء، لنحفظ مواهب الرّوح القدس الّتي منحنا إيّاها غير مدنّسة. هذه "الحراسة" تكفي لتفعيل هذه المواهب على نحوٍ خلاصيٍّ في نفوس الأخوة الّذين لم يشتركوا بعد في سرّ الشّكر. فالمؤمن، حامل المسيح، هو الأرض الّتي من ذاتها تأتي بثمر.

---

٤٠٧) الأب المتوحّد غريغوريوس، ***تفسير القدّاس الإلهيّ***. ص.١١٣-١١٤.

إبتدأت ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ "بالسّلام"، وأثناءه مُنحنا سلام اللّه مرّاتٍ عدّة. والآن نحن مدعوّون إلى تقديم السّلام للعالم بمحبّة، السّلام والمحبّة هما أصل القدّاس الإلهيّ وثمره بآن؛ هذا السّلام وهذه المحبّة لا يجعلان هذه الصّلاة مقبولةً فقط، بل يولدان من جديدٍ من هذه الصّلاة، ويتألّقان كتوأمي أشعّةٍ إلهيّين، وينموان ويكتملان.

يُعلن الكاهن للمؤمنين:

لننطلق بسلام

فيُجيبونه:

باسم الرّبّ

الكاهن:

إلى الرّبّ نطلب

يُجيب المؤمنون:

يا ربّ ارحم

يعلن الكاهن نهاية ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ ويصرف المؤمنين بسلام. يصرفهم حاملين سلام الرّبّ في قلوبهم وهم يخرجون إلى العالم، إلى حياتهم اليوميّة ليشهدوا فيها عمّا شاهدوه ونظروه وعاشوه في القدّاس الإلهيّ وليتمّموا في هذه الحياة دعوتهم. فلقد دعانا الكاهن في بداية القدّاس الإلهيّ لأنْ ندخل الملكوت، والآن في نهايته، يدعونا لأنْ نعود إلى هذا العالم لنشهد للملكوت ونحياه في العالم. هذه هي دعوتنا وعلينا أن نتمّمها. **خروجنا من الكنيسة يشبه خروج التّلاميذ إلى البشارة بعد صعود المخلّص إلى السّماء:** "هذه هي وصيّة القدّاس الإلهيّ الأخيرة. ليس عندنا أن نُقيم على قمّة ثابور ولو عرفنا أنّه حَسَنٌ أن نكون هناك. ننصرف إلى العالم من جديد، ولكن، بعد "أن نظرنا النّور الحقيقيّ وأخذنا الرّوح السّماويّ". نتصرّف كشهودِ عيانٍ لهذا النّور، كشهودٍ للرّوح القدس، لنباشر خدمتنا الرّسوليّة، كلّ الأيّام، وإلى منتهى الدّهر. لقد كانت الإفخارستيّا نهاية الرّحلة، نهاية الزّمان، وها هي، الآن، البداية من

جديد. زمن العالم أضحى زمن الكنيسة، زمن الخلاص، زمن الفداء. لقد جعلنا الله أكفاء لأن نكون شهودًا له، نتمّم ما عمله هو وما زال يعمله. هذا هو معنى الإفخارستيّا"[408].

ثمّ يخرج الكاهن من الباب المقدّس، ويقف أمام إيقونة السّيّد، ويتلو جهارًا هذه الصّلاة التّاليّة:

يا مبارك مباركيك. يا ربّ. ومقدّس المتوكّلين عليك. خلّص شعبك وبارك ميراثك. إحفظ كمال كنيستك. قدّس المحبّين بهاء بيتك. أنت عوّضهم مجدًا بقدرتك الإلهيّة، ولا تُهملنا نحن المتوكّلين عليك. هَبِ السّلام لعالمك ولكنائسك. وللكهنة. ولحكّامنا. وللجنود. ولكلّ شعبك. لأنّ كلّ عطيّةٍ صالحة. وكلّ موهبةٍ كاملة. هي من العلاء منحدرة. من لدنك يا أبا الأنوار. وإليك نرفع المجد والشّكر والسّجود. أيّها الآب والابن والرّوح القدس. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

إنّها صلاةٌ وداعيّةٌ وخِتامٌ رسميٌّ للإجتماع الإفخارستيّ. لقد تضمّنت هذه الصّلاة عادةً طقسيّةً قديمةً هي بسط اليدَين على المؤمنين، بحيث كان الأسقف، أثناء قراءة هذه الصّلاة، يبسط يدَيه على المؤمنين، مانحًا إيّاهم البركة "بصليب اليد"، ثمّ يصرفهم بسلامٍ من الكنيسة[409]؛ إنّها صلاةٌ مليئةٌ بالعبارات الكتابيّة واللّاهوتيّة وبالمعاني الرّوحيّة الّتي تستلهم حضور الله الفاعل في حياة الكنيسة الأرضيّة (العالم، الكنائس، الكهنة، الحكّام، الجنود، وكلّ الشّعب) المتّكلة على الله وقدرته الإلهيّة؛ صلاةٌ تتمحور حول أفعالٍ خلاصيّةٍ كَثُرَ استعمالها في الكتاب المقدّس، تدلّ على تدخُّل الله في التّاريخ البشريّ، خاصًّا بالذّكر، الأفعال التّاليّة: خلّص، بارك، إحفظ، قدّس. لقد حقّق الله هذه الأفعال المذكورة بواسطة ابنه الوحيد الكلمة الإلهيّ يسوع المسيح. فالله يريد أن "يَخلُص جميع النّاس" (١ تيموثاوس ٢: ٤؛ راجع أيضًا المرجع نفسه ٤: ١٠) وبناءً على هذه الرّغبة الإلهيّة الخلاصيّة، أرسل الله ابنه

---

٤٠٨) ألكسندر شميمن (الأب)، ***من أجل حياة العالم***، ص. ٦٦-٦٧.

٤٠٩) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.330.

كمخلّصٍ للعالم: "ونحن عايَنّا ونشهد أنّ الآب أرسل ابنه مخلّصًا للعالم" (١ يوحنّا ٤: ١٤).

- **"بارك"**

أمّا الفعل "بارك"، فهو أيضًا يُشير إلى أنّ الله قد باركنا بابنه الإلهيّ "تبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح. فقد باركنا كلّ بركةٍ روحيّةٍ في السّموات في المسيح" (أفسس ١: ٣). وهذه البركة تظهر جليّةً بالاختيار والتّبنّي، ذلك أنّ الله اختارنا لنكون قدّيسين، وفي الوقت عينه، خصّنا ببنوّته الإلهيّة في الابن يسوع المسيح: "أنظروا أيّ محبّةٍ خصّنا بها الآب لنُدعى أبناء الله" (١ يوحنّا ٣: ١).

- **"قدّس"**

ويُطِلّ علينا الفعل "قدّس" ويُشير إلى أنّ الله هو مصدر القداسة ونبعها المتدفّق. ولأنّ إنسان العهد القديم كان غيرَ قادرٍ على رؤية الله، فقد قدّسنا [الله] بواسطة الرّبّ يسوع المسيح ودعانا من خلاله إلى أن نكون قدّيسين: "إلى كنيسة الله في كورنثس، إلى الّذين قُدّسوا في المسيح يسوع بدعوتهم ليكونوا قدّيسين" (١ كورنثس ١: ٢؛ راجع أيضًا رومة ١: ٧).

- **"الميراث"**

يطلب الكاهن في هذه الصّلاة من الله المبارك والمقدّس أن يُبارك ميراثه. فمصطلح "ميراث" يُعتبر من المصطلحات الهامّة في لاهوت الكتاب المقدّس الّذي يُظهر أنّ إسرائيل هو ميراث الله (راجع خروج ٣٤: ٩؛ ١ صموئيل ١٠: ١؛ ٢٦: ١٩؛ ٢ صموئيل ٢٠: ١٩؛ ٢١: ٣) وهذا التّعبير يوحي بعلاقةٍ حميمةٍ بين الله وشعبه، الّذي هو "خاصّته" (خروج ١٩: ٥). أمّا في العهد الجديد، فيتبيّن أنّ المسيح هو الوارث الوحيد. فالعهد القديم كان يحتفظ بصفة الوارث للوعد، أوّلاً لشعب الله وحده. وفيما بعد "لبقيّة" من الأبرار.

وفي العهد الجديد يلاحظ أولاً أنّ هذه البقيّة إنّما هي المسيح الّذي فيه تركّزت سلالة "ابراهيم" (غلاطية ٣: ١٦). ولكونه الابن قد ملك بالمولد حقّ الإرث (متّى ٢١: ٣٨)، وقد جعله الله "وارثًا لكلّ شيء" (عبرانيّين ١: ٢) لكونه قد ورث اسمًا أعظم من اسم الملائكة (١: ٤) و"وهب له [الله] الاسم الّذي يفوق

جميع الأسماء" (فيلبّي ٢: ٩). ولكن حتّى يتولّى المسيح هذا الميراث توليًا فعليًا، كان لا بدّ له أن يجتاز الآلام والموت (عبرانيّين ٢: ١- ١٠، راجع فيلبّي ٢: ٧- ١١)، ذلك أنّه بصليبه نقلنا من حالة العبوديّة إلى حالة البنوّة، وبالتّالي حالة الوراثة (غلاطية ٤: ٥- ٧) وبموته الفدائيّ نلنا نحن المدعوّين الميراث الأبديّ الموعود به (عبرانيّين ٩: ١٥). وعليه، فالمؤمنون المدعوّون هم ورثة في المسيح، إذ إنّهم أبناءُ الله بالتّبنّي، وروح الله يقودهم، فَهُم بهذه الصّفة ورثة الله وشركاء في ميراث المسيح، كما يؤكّد ذلك بولس الرّسول: "إنّ الّذين يَنقادون لروح الله يكونون أبناء الله حقًّا. لم تتلقَّوا روح عبوديّةٍ لتعودوا إلى الخوف، بل روح تَبَنٍّ به نُنادي: أبًا، يا أبتِ!. وهذا الرّوح نفسُه يشهد مع أرواحنا بأنّنا أبناء الله. فإذا كنّا أبناء الله فنحن ورثة: ورثة الله وشركاء في الميراث، لأنّنا، إذا شاركناه في آلامه، نُشاركه في مجده أيضًا" (رومة ٨: ١٤-١٧).

من هنا نُدرك أنّ الميراث المُعدّ من الآب لمختاريه "منذ إنشاء العالم" (متّى ٢٥: ٣٤) هو النّعمة (١ بطرس ٣: ٧)، هو الخلاص (عبرانيّين ١: ١٤)، هو ملكوت الله (متّى ٢٥: ٣٤؛ ١ كورنثس ٦: ٩؛ ١٥: ٥٠؛ يعقوب ٢: ٥)، إنّه أخيرًا الحياة الأبديّة (متّى ١٩: ٢٩؛ تيطس ٣: ٧).

- "إحفظ"

ويأتي الفعل "إحفظ" ليعود بنا إلى صلاة يسوع الكهنوتيّة في الفصل السّابع عشر من إنجيل يوحنّا، حيث يُصلّي الرّبّ يسوع إلى الله الآب قبل انطلاقه الاختياريّ والإراديّ والطّوعيّ إلى الآلام المخلّصة، يُصلّي لكي يحفظ الله باسمه جميع الّذين وهبهم ليسوع، وهو بدوره قد حَفِظَهم باسمه أيضًا (راجع يوحنّا ١٧: ١١-١٢). يلتمس الكاهن من الله أن يحفظ الكنيسة الأرضيّة، جسد ابنه المقدّس، من كلّ البدع والانشقاقات والاضطهادات... وأن يمنح بركته العلويّة لكلّ مَن يُساهم ويُشارك في جمال بيت الله وبهائه، انطلاقًا من قول صاحب المزامير: "لأنّ غَيرة بيتك أكلتني" (مزمور ٦٨: ١٠)، ومن ردّة فعل يسوع في مشهد طرد الباعة من الهيكل، حيث تذكّر التّلاميذ ما كُتِبَ في هذا السّفر المقدّس: "فتذكّر تلاميذه أنّه مكتوب: الغَيرةُ على بيتك ستأكلني" (يوحنّا ٢: ١٧). فغَيرة المؤمنين هذه يجب ألاّ تقتصر على جماليّة بهاء الكنيسة فحسب،

بل تتعدّاها لتكون غَيرةً على عقيدة الكنيسة الصّحيحة وفي الحفاظ على وديعة الإيمان المستقيم. فعندما يطلب الكاهن من الله أن يُقدّس محبّي بهاء بيته المقدّس، نذكر على الفور ما جاء على لسان بولس الرّسول من تأكيدٍ على أنّ هذه القداسة هي العنصرُ الرئيسُ للإنسان الّذي يريد أن يرى الرّبّ: "... والقداسة الّتي بغيرها لا يرى الرّبَّ أحد" (عبرانيّين ١٢: ١٤).

- **"إعتراف"**

في هذه الصّلاة أيضًا اعترافٌ بأنّ كلّ العطايا والخيرات الّتي للإنسان مصدرها بركة سماويّة منحدرة من الحضرة الإلهيّة، ذلك أنّنا نؤمن بأنّ الله هو مصدر الخير والنّعم والصّلاح (يعقوب ١: ١٧). إنّ عطايا الله ومواهبه الّتي أغدقها بجودته على الإنسان تدلّ من منظارٍ كتابيٍّ على سخاء الله تجاه أتقيائه ومختاريه، إذ إنّ الكتاب المقدّس يُشيد بغنى الأشخاص الأتقياء من تاريخ إسرائيل، كإبراهيم (تكوين ١٣: ٢)، واسحق: "وزرع إسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف، **وباركه الرّبّ. فاغتنى** الرّجل وكان يزداد غنًى إلى أن صار غنيًّا جدًّا" (تكوين ٢٦: ١٢-١٣)، ويعقوب (تكوين ٣٠: ٤٣). فالغنى كما جاء في مفهوم كتابات العهد القديم هو ثمرةُ بركةٍ من الله لمتّقيه. أمّا كتابات العهد الجديد، فتُبيّن أنّ الغنى يأتي من السّخاء الإلهيّ نفسه، ولكنّه غنى الخيرات الرّوحيّة (الإيمان، البلاغة، المعرفة، المحبّة، الإحسان. راجع ٢ كورنثس ٨: ٧) وقد اتّخذ منحًى جديدًا: "فأنتم تعلمون جُود ربّنا يسوع المسيح: **فقد افتقر لأجلكم وهو الغنيّ لتَغتنوا بفقره**" (٢ كورنثس ٨: ٩). وما أبلغ كلمات بولس الرّسول في الرّسالة نفسها في ما يتعلّق بموضوع الغنى الرّوحيّ والمادّيّ وارتباطهما بالله: "إنّ الله قادرٌ على أن يُفيض عليكم مختلف النّعم فيكون لكم كلّ حينٍ في كلّ شيءٍ ما يكفي مَؤُونتكم كلّها ويَفضُل عنكم لكلّ عملٍ صالح... فإذا اغتنَيتم في كلّ شيء، جُدتُم كلّ جُودٍ يأتي عن يدنا بآيات الشّكر لله" (٢ كورنثس ٩: ٨، ١١).

ج. ليكن اسم الرّبّ مبارَكًا

ويُجيب الشّعب بالنّشيد الختاميّ:

"ليكن اسم الرّبّ مباركًا، من الآن وإلى الدّهر" وهو نشيدٌ كتابيّ متحدّرٌ من كتاب المزامير الّذي جاء فيه: "هلّلويا! يا عبيد الرّبّ سبّحوا، لاسم الرّبّ سبّحوا، ليكن اسمُ الرّبّ مبارَكًا، من الآن وللأبد. مِن مَشرق الشّمس إلى مَغربها، اسمُ الرّبّ مُسبَّح" (مزمور ١١٢: ١-٣؛ راجع أيضًا أيّوب ١: ٢١).

إنّ الاسم شيءٌ مهمّ، لأنّه يستدعي صاحبه، وهكذا نبارك الرّبّ عبر مباركتنا اسمه. وهذا ما عبّر عنه النبيّ دانيال في نبوءته حين طلب الملك نبوكدنصَّر من حكماء بابل أن يُفسّروا له الحلم الّذي حَلِمَ به (دانيال ٢: ١-١٣) ولم يستطيعوا ذلك. حينئذٍ جاء تدخُّل دانيال وقد طلب من حَنَنيا وميشائيل وعَزَريا أن يلتمسوا "رحمةً من لدن إله السّماء في أمر هذا السّرّ، لئلاّ يُباد دانيال وأصحابه مع سائر حكماء بابل (دانيال ٢: ١٨). يقول الكتاب المقدّس: "حينئذٍ كُشِفَ السّرُّ لدانيال في رؤيا ليل، فبارك دانيال إله السّماء. وأجاب دانيال وقال: تبارك اسم الله من الأزل وللأبد" (دانيال ٢: ١٩-٢٠).

ح. صلاة الخِتام

بعد انتهاء الكاهن من تلاوة صلاة وراء الأمبون، يدخل من الباب المقدّس، ويلتفت نحو مذبح التّقدمة الموضوعة عليه القُدُسات المتبقّية من المناولة، ويقول الصّلاة التّاليّة، الّتي ما هي، في جوهرها، إلاّ صلاة شكرٍ موجَّهةٌ للرّبّ يسوع المسيح:

أيّها المسيح إلهنا. بما أنّك كمال النّاموس والأنبياء. وقد أكملتَ كلّ ما دبّرته عناية الآب. إملأ قلوبنا فرحًا وسرورًا كلّ حين. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

تُظهر كلمات هذه الصّلاة أنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة بكاملها هي تذكارٌ لخلاصنا الّذي أتمّه المسيح لأجلنا. إنّ اللّيتورجيّا الإلهيّة هي، في الحقيقة، تحقيقٌ للنّاموس والأنبياء، تحقيقٌ لوعود الله ولتوقّعات العهد القديم بذبيحةٍ كاملة وصحيحة ولاتّحاد الإنسان مع الله.

نلاحظ أنّ الأفكار المعبَّر عنها في صلاة ليتورجيّا القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم قد فصّلها، بطريقةٍ جميلةٍ جدًّا، القدّيس باسيليوس الكبير في صلاة ليتورجيّته المقدّسة. يقول الكاهن:

لقد تمّ وانتهى. على قدر طاقتنا. سرّ تدبيرك. أيّها المسيح إلهنا. فقد حصلنا على تذكار موتك. ونظرنا رسم قيامتك. وامتلأنا من حياتك الّتي لا نهاية لها. وتمتّعنا بنعيمك الّذي لا ينفد. فارتضِ أن نكون كلُّنا أهلاً له في الدّهر الآتي أيضًا. بنعمة أبيك الأزليّ وروحك القدّوس الصّالح والمُحيي. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

٤) البركة الختاميّة والحلّ الكبير

أخيرًا، قبل انطلاقنا يلتفت الكاهن نحو الشّعب مانحًا إيّاه بركة الله، لأنّه بدون بركة الرّبّ ونعمته ورحمته لا نستطيع عمل شيءٍ أو الاستمرار في دعوتنا:

بركة الرّبّ ورحمته تَحِلاّن عليكم. بنعمته ومحبّته للبشر. كلّ حين. الآن وكلّ أوانٍ وإلى دهر الدّاهرين. آمين

ثمّ يتضرّع إلى المسيح القائم من بين الأموات بشفاعات والدة الإله وجميع الرّسل والقدّيسين، مُختتمًا اللّيتورجيّا الإلهيّة بالحلّ الكبير هكذا:

المجد لك أيّها المسيح الإله رجاؤنا. المجد لك

ليرحمنا المسيح إلهنا الحقيقيّ... [أيّام الآحاد: الّذي قام من بين الأموات. وفي الأعياد السّيّديّة: العبارة الخاصّة بالعيد] **ويُخلِّصنا. بشفاعة أمّه الكاملة الطّهارة. وبتضرّعات القدّيسين المجيدينَ الرّسل الجديرين بكلّ مديح. وأبينا في القدّيسين يوحنّا الذّهبيّ الفم رئيس أساقفة القسطنطينيّة. والقدّيس** (فلان) **شفيع هذه الكنيسة المقدّسة. والقدّيس** (فلان) **الّذي نحتفل بتذكاره اليوم. والقدّيسَين الصّدّيقَين جدّي المسيح الإله يواكيم وحنّة. وجميع القدّيسين. بما أنّه صالحٌ ومحبٌّ للبشر**

لقد كنّا في الملكوت، في شركة الكنيستَين الأرضيّة والسّماويّة، المجاهدة والمنتصرة، وها نحن في هذه الأثناء نخطو نحو خروجنا إلى العالم، والله سوف يعطينا خيرات العالم باتّكالنا عليه وطلبنا لملكوته أوّلاً.

وإنّه لبليغٌ أن تنهي الكنيسة كلّ صلواتها بتضرّع إلى شركة القدّيسين. هذا يعني أنّنا معهم من طبيعةٍ بشريّةٍ واحدة، هي مُمجّدةٌ فيهم، ولا تزال في طريقها للتّمجيد فينا. هذا والعيد الأخير في دور العنصرة اللّيتورجيّ هو عيد جميع القدّيسين: إنّه ازدهار العنصرة في النّاس وختم التّدبير الإلهيّ. إنّ دور التّدبير الإلهيّ ينتهي ببداية البداية، بالتّقديس. فالخدمة اللّيتورجيّة تدعونا إذًا للدّخول في شركة القدّيسين هذه، تدعونا للتّقديس وعالم القداسة.

ثمّ يلتفت الكاهن إلى المائدة المقدّسة ويسجد ويقول:

بصلوات آبائنا القدّيسين. أيّها الرّبّ يسوع المسيح إلهنا. ارحمنا

فيُجيب المؤمنون:

آمين

ثمّ يُقبّل الكاهن المائدة المقدّسة قبل أن يذهب لينزع عنه البدلة الكهنوتيّة. إنّها **قُبلة المحبّة الوداعيّة، الوداع إلى زمن الأبديّة**"[٤١٠]. فلقد قام الكاهن بتقبيل المائدة المقدّسة عند دخوله إلى الهيكل المقدّس قبل أن تبدأ اللّيتورجيّا الإلهيّة؛ وها هو الآن، عند انتهائها، يعود فيقبّل المائدة المقدّسة، كتعبير نهائيٍّ عن امتنانه وشكره ومحبّته لكاهنه الأعظم الأبديّ، يسوع المسيح، خادم اللّيتورجيّا الإلهيّة الأوّل. إنّها القُبلة الوداعيّة الممنوحة من الكنيسة، عروس الحمل، للمسيح، عريسها السّماويّ.

وفي ليتورجيّا **الكنيسة السّريانيّة** يتلو الكاهن صلاةً عند تقبيل المذبح بعد الانتهاء من الذّبيحة الإفخارستيّة، تُعتبر كنزًا كنسيًّا وروحيًّا، يُعبّر من خلالها الكاهن، الّذي حلّق كالنّسر في سماء اللّاهوت، خلال احتفاله بالذّبيحة الإلهيّة، عن اختباره الرّوحيّ الشّخصيّ، الّذي عبّر عنه القدّيس يوحنّا الإنجيليّ في رسالته الأولى، قائلاً: "ذاك الّذي سمعناه، ذاك الّذي رأيناه بعَينَينا، ذاك الّذي تأمّلناه، ولَمَسَته يدانا" (١: ١):

---

٤١٠) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.742.

وداعًا يا مذبح الرّبّ المقدّس، لأنّي لستُ أدري إذا كنتُ سأعود إليك أم لا. فليؤهّلني الرّبّ لرؤيتك في كنيسة الأبكار السّماويّة. إنّني لمتّكلٌ على هذا العهد.

وداعًا أيّها المذبح المقدّس والمبرِّر. ليكن الجسد المقدّس والدّم الغافر اللّذان تناولتهما منك مغفرةً لذنوبي وصفحًا لخطاياي ودالّةً أمام عرش ربّنا وإلهنا الرّهيب إلى الأبد.

وداعًا أيّها المذبح المقدّس مائدة الحياة، إلتمس لي من ربّنا يسوع المسيح دوام ذكري عليك من الآن وإلى أبد الآبدين. آمين

٥) توزيع خبز البركة (الأنديذورون)

الأنديذورون كلمةٌ يونانيّةٌ تعني "**قربانةٌ بدل المناولة**"، أي أنّها تأخذ مكان العطيّة العظيمة واللّامتناهيّة، الإفخارستيّا المقدّسة، حيث تُعطى لأولئك الّذين لم يتمكّنوا من الحصول على المناولة المقدّسة. إنّ الخبز المستعمَل اليوم للأنديذورون مأخوذٌ من ما تبقّى من القربانات الّتي اقتطع منها الكاهن للذّبيحة الإفخارستيّة أثناء ليتورجيّا التّقدمة. يوزّع الكاهن خبز البركة هذا على الشّعب، وهو واقفٌ في الباب المقدّس، قائلاً لكلّ واحد:

بركة الرّبّ ورحمته تحِلاّن عليك

في أثناء توزيع الأنديذورون يُتلى **المزمور الثّالث والثّلاثين**: "أبارك الرّبّ في كلّ وقت..." أو يُرنّم. هذه باقةٌ مُنتقاةٌ من آيات المزمور المذكور، الّتي تتردّد دائمًا في اللّيتورجيّا البيزنطيّة، كرتبة الأقداس السّابق تقديسها (البروجيزمينا) الّتي تُقام خلال الصّوم الأربعينيّ المقدّس، ورتبة الإغربنيّة الّتي يُحتفَل بها أثناء صلاة غروب الأعياد السّيّديّة أو التّذكارات الممتازة: "أبارك الرّبّ في كلّ وقتٍ. على الدّوام تسبحته في فمي... ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ. طوبى للرّجل المتوكّل عليه... الأغنياء افتقروا وجاعوا. أمّا الّذين يبتغون الرّبّ. فلا يُعوزهم من الخير شيء...".

إنّ عادة توزيع خبز البركة يعود في الأصل إلى الولائم المشتركة الّتي كانت تُقام في الكنيسة الأولى، وليمة الأغابي (المحبّة)، الّتي كانت تُمارَس

في القرون الأولى للمسيحيّة؛ فكما حدث في عشاء الربّ السرّيّ، حين بارك الربّ يسوع الخبز، كذلك كان الأسقف يُبارك الخبز، وكان المؤمنون يأخذون من يد الأسقف كِسرَةً من الخبز، لأنّه خبزٌ مبارَك[٤١١].

يقول البارنقولا كباسيلاس في هذا الخصوص:

"ثمّ تُقطَع الخبزة الّتي قُدِّمَت والّتي منها أُخِذَ الحمل المقدّس، إلى قطع صغيرةٍ وتُعطى للمؤمنين إذ تقدّست بتكريسها وتقديمها لله. ويتناولها المؤمنون بورع وهم يُقبّلون اليد [الكاهن] الّتي منذ عهدٍ قريبٍ لامست جسد ربّنا يسوع المسيح الكلّيّ القداسة. اليد الّتي بعد أن تقدّست، يمكنها أن تنقل هذا التّقديس إلى الّذين يلمسونها"[٤١٢].

ولا يغفل عن بالنا ما ورد في العهد القديم أنّ وليمةً كانت تُحضّر من بقايا التّقادم القربانيّة (الذّبائحيّة) بعد ذبائح الشّكر الّتي كانت تُقام عند مدخل الهيكل أو خارجه، والّتي كان يحصل على قسمٍ منها الأحبار وخُدّام الهيكل. إليكم بعض الآيات من سفر تثنية الاشتراع الّتي تتكلّم عن هذه **الوليمة الشّكريّة للرّبّ الإله**: "وتأكلون أمام الرّبّ إلهكم وتفرحون بكلّ ما اكتسبَته أيديكم أنتم وأهل بيوتكم، ممّا باركك فيه الرّبّ إلهك" (١٢: ٧)؛ "وكُلْ أمام الرّبّ إلهم في الموضع الّذي يختاره، ليُحِلّ اسمَه فيه، عُشر قمحك ونبيذك وزيتك وأبكار بقرك وغنمك، لكي تتعلّم كيف تتّقي الرّبّ إلهك كلّ الأيّام" (١٤: ٢٣)؛ "وافرح بكلّ الخير الّذي أعطاه الرّبّ إلهك لك ولبيتك، أنت واللّاويّ والنّزيل الّذي في وَسْطك" (٢٦: ١١).

---

٤١١) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.736.

٤١٢) نقولا كباسيلاس، ***شرح القدّاس الإلهيّ***، ص.١٤٢.

٦) نزع الحلّة الكهنوتيّة

ثمّ يدخل الكاهن الهيكل وينزع حلّته الكهنوتيّة وهو يقول نشيد سمعان الشّيخ، الّذي تلاه حين قدّم الطّفل يسوع أبواه إلى الهيكل، وحمله على ذراعَيه وبارك الله وقال:

الآن تُطلق عبدك أيّها السّيّد. على حسب قولك بسلام. فإنّ عينيّ قد أبصرتا خلاصك. الّذي أعددته أمام وجوه الشّعوب كلّها. نورًا ينجلي للأمم. ومجدًا لشعبك إسرائيل (لوقا ٢: ٢٨-٣٢).

تُعتبر صلاة البارّ سمعان الشّيخ الأنسب لتكون صلاة الوداع الكهنوتيّ بعد إتمام اللّيتورجيّا الإلهيّة؛ فمن الطّبيعيّ أن تُنقَش مشاعر هذا البارّ الخلاصيّة، والإيمانيّة، والرّوحيّة، الّتي أيقظها الرّوح القدس (راجع لوقا ٢: ٢٥-٢٧) حين حمل على ذراعَيه مخلّص العالم، في نفس الكاهن في هذه اللّحظة"[٤١٣]. إنّه يُكرِّر مع سمعان كلمات الامتنان والشّكر للعزّة الإلهيّة لأجل العطيّة العظيمة (الإفخارستيّا) ونعمة كهنوت العهد الجديد؛ ولأجل منحه النّعمة ليحمل بيدَيه البشريّتين الضّعيفتَين المخلّص الإلهيّ من خلال جسده ودمه المقدّسين؛ ولكونه أداةً حيّةً بيد الكاهن الأعظم الأبديّ لإتمام الذّبيحة الإفخارستيّة غير الدّمويّة.

هذا الاختيار الإلهيّ للكاهن، الإنسان الضّعيف والخاطئ، هو ما عبّر عنه بولس الرّسول بكلماتٍ ممتلئةٍ حكمةً إلهيّة، قائلاً: "وإنّما اختار الله ما هو جاهلٌ في العالم ليُخزيَ الحكماء؛ واختار الله ما هو ضعيفٌ في العالم ليُخزيَ ما هو قويّ؛ واختار الله ما خسيسٌ في العالم وحقير، وغير الموجود ليُعدِم الموجود، لكي لا يفتخر ذو جسدٍ أمام الله. وبه أنتم في المسيح يسوع، الّذي صار لنا، من الله، حكمةً وبرًّا وقداسةً وفِداء، حتّى إنّه، على ما هو مكتوب: مَنْ افتخر، فليفتخر بالرّبّ" (١ كورنثس ١: ٢٧-٣١).

إنّ كلمات هذا النّشيد تُخبرنا ما هي اللّيتورجيّا الإلهيّة ككلّ. إنّها "**الخلاص**" الّذي هيّأه الله للجنس البشريّ؛ إنّها تذكارٌ حيٌّ ومتجدّدٌ للفداء الّذي

٤١٣) Meletius Solovey, ***The Byzantine Divine liturgy***, p.332.

أنجزه الرّبّ يسوع المسيح بشخصه. يكشف المسيح، في اللّيتورجيّا الإلهيّة، عن هُويّته كنوزٍ ومجدٍ لشعب الله المختار الجديد؛ إنّها الوحي الجديد لمحبّة الله، وصلاحه ورحمته اللّامتناهية للإنسان؛ إنّها المجيء الجديد للمسيح في العالم بواسطة النّعم المسيحانيّة: يتكلّم معنا، ينوّرنا بتعاليمه الإلهيّة، يُضحّي بنفسه، يموت بطريقةٍ أسراريّة، يُعطينا ذاته كطعامٍ لحياتنا الرّوحيّة، ويُوحّد نفسه معنا من أجل "أن تكون للخراف الحياة، وتكون لها وافرة" (يوحنّا ١٠: ١٠). لقد فعل المسيح كلّ هذا ليَكفل لنا الخلاص الأبديّ، الّذي حقّقه بسفك دمه على خشبة الصّليب. فكيف يستطيع الكاهن أن يترك مذبح الله دون أن يُقدّم شكرًا قلبيًّا لائقًا على كلّ ما فعله الله من أجل أبنائه؟!

٧) إفتتاح الزّمن الجديد

"وقاما في تلك السّاعة" (لوقا ٢٤: ٣٣). قام تلميذا عمّاوس لوقتهما، بعد أن تعرّفا على يسوع، ليُعلنا ما رأياه وسمعاه. عندما نختبر المسيح القائم، ونتغذّى من جسده ودمه، لا يمكن أن نحتفظ بهذا الفرح لأنفسنا فقط. فخبرة العيش مع المسيح في التّعبّد الإفخارستيّ تحمل المؤمن، كما تحمل الكنيسة، على واجب الشّهادة والتّبشير. إنّ دخول المؤمنين إلى الكنيسة للاحتفال في ذبيحة المسيح الإفخارستيّة والاشتراك الإيمانيّ فيها يعني أنّهم دخلوا إلى السّموات للوقوف أمام عرش الله والحمل من أجل هدف التّسبيح والتّمجيد والصّلاة وشكر الله على جميع الإحسانات الّتي منحنا إيّاها، كما يظهر ذلك جليًّا في سفر رؤيا يوحنّا: "آمين! لإلهنا التّسبيح والمجد والحكمة والشّكر والإكرام والقدرة والقوّة أبد الدّهور، آمين" (٧: ١٢). هذا يعني أنّ المؤمنين بدخولهم الكنيسة قد انفصلوا عن العالم الأرضيّ بكلّ أبعاده ودخلوا في سرّ العالم الآخر الرّوحانيّ والسّماويّ: "حقًّا إنّ الرّبّ في هذا المكان... ما أرهب هذا المكان! ما هذا إلاّ بيت الله! هذا باب السّماء" (تكوين ٢٨: ١٦-١٧).

هذه هي دعوة الإنسان المسيحيّ: **أن يعيش الحالة الفردوسيّة الأولى، حالة البرارة والنّقاء الروحيّ**. وهكذا، فحين يخرج المؤمنون من الكنيسة، عليهم أن يكونوا قد لبسوا المسيح وأصبحوا (تحوّلوا) مبشّرين بعظائم الله الّتي جرت على يد المسيح المخلّص. يخرج المسيحيّ من الكنيسة إنسانًا جديدًا وخليقة

جديدةً في المسيح، ليكون ذاك النّور السّاطع الضّياء في ظلمات العالم، وذاك الصّوت الصّارخ في بريّة العالم وصحرائها. فالمسيحيّ المؤمن هو المسيحيّ القادر على صُنع المعجزات بنعمة المخلّص يسوع، وما المعجزات المرجوّة إلاّ صيرورة عالمنا من عالم الظّلمة إلى النّور، عالم الموت إلى الحياة الحقيقيّة، وعالم الأرضيّات إلى عالم السّماويّات، وهذا كلّه يتحقّق بقوّة الرّوح القدس وفعله وعمله فقط.

فالإفخارستيّا لا تنتهي عند انتهاء القدّاس أو الانصراف من الكنيسة، بل هي حقيقةٌ مستمرّة؛ فعندما يأخذ المؤمن زاده الرّوحيّ في الكنيسة يكون قد كَسَرَ حائط أنانيّته وانفتح على الإخوة: "سرُّ القربان هو سرُّ الأخ. والدّينونة ستكون على مدى ربطنا بين سرّ المسيح الحاضر في القربان المقدس وسرّه الحاضر في إخوته البشر"[٤١٤] (الذّهبيّ الفم، العظة ٥٠ في انجيل متّى). فالقدّاس ينتهي وينصرف المؤمنون من الكنيسة، لكنّ جسد الرّبّ ودمه الكريمين يبقيان مع المتناول ويرافقانه في سائر نواحي حياته: "فقوِّم طُرُقَنا، ثبِّتنا جميعًا في مخافتك، صُن حياتنا، وطِّد خطواتِنا...". إنّ الإفخارستيّا، إذًا، لا تنتهي في الكنيسة، عند انصراف المؤمنين، بل تبدأ إذ ذاك. فعندما يتَّحد المؤمن بجسد المسيح ودمه، وينال روح الرّبّ، ينطلق مبشّرًا ومحرِّرًا ومنيرًا على مثال المسيح الّذي قال: "روح الرّبّ عليّ لأنّه مسحني لأبشّر المساكين، وأرسلني لأنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر، وأُطلق المرهقين أحرارًا، وأعلن سنة نعمة الرّبّ" (لوقا ٤: ١٨-١٩)[٤١٥].

إنّها افتتاح ملء الزّمان، زمن الرّوح القدس والكنيسة المقدّسة، حيث يُصبح المؤمن وبحقٍّ هيكل الرّوح القدس. فبعد أن تذوّق المسيحيّون الحياة الجديدة للملكوت في الليتورجيا الإلهيّة، الّتي هي ليتورجيا الصّعود إلى السّماء على مثال المسيح الصّاعد، يعودون إلى العالم ووجوههم تعكس النّور الإلهيّ، تعكس الفرح "... لا تحزنوا، لأنّ فرح الرّبّ حِصنُكم" (نحميا ٨: ١٠) والسّلام اللّذين

---

٤١٤) البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة، لاهوت اللّيتورجيا الإلهيّة***، ص. ٧.

٤١٥) **المرجع نفسه**، ص. ٧.

لذلك الملكوت، وبالتّالي، يكونون هم، بالفعل، شهودًا حقيقيّين لهذا النّور السّماويّ: "هكذا فليُضئ نوركم للنّاس، ليرَوا أعمالكم الصّالحة، فيُمجّدوا أباكم الّذي في السّماوات" (متّى ٥: ١٦). وهكذا، بتهليلٍ وفرحٍ مُذهلٍ وشكرٍ فوق شكر، تنتهي الإفخارستيّا بإحساس ما سينتهي إليه العالم في القيامة العتيدة عندما تتجلّى الخليقة وعلى رأسها الإنسان، ويلبس الفاسد عدم الفساد، ويُستعلَن الله في الكلّ مالئًا الكلّ في الكلّ. ويخرج المؤمنون من الكنيسة وكأنّهم آتون وقادمون من السّماء"[٤١٦].

- **خلاصة: دور الثّالوث القدّوس في اللّيتورجيّا**

كما قال البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني إنّ الإفخارستيّا سرّ نور. ما هو معنى ذلك وما هي نتائجه على روحانيّة الحياة المسيحيّة؟ قال يسوع عن نفسه أنّه "نور العالم"، وقد ظهر ذلك في لحظاتٍ كالتّجلّي والقيامة حيث سطع مجده الإلهيّ. بينما مجد المسيح مخفيٌّ في الإفخارستيّا. سرّ الإفخارستيّا هو "سرّ الإيمان" بامتياز. والمسيح، من خلال احتجابه في السّرّ، يصبح سرّ نور، ويُعطي نعمةً تساعد المؤمن على الدّخول في عمق الحياة الإلهيّة. بناءً على هذا الكلام اللّاهوتيّ، تأتي هذه الخلاصة للتّركيز على ثلاث نقاطٍ أساسيّة يرتكز عليها لاهوت اللّيتورجيّا الإلهيّة، هي:

- **الثّالوث القدّوس**

برز، عبر هذه الصّفحات، الدّور الجوهريّ الّذي يضطلع به **الثّالوث القدّوس**، الآب والابن والرّوح القدس في وَحدانيّته الإلهيّة الجامعة في الليتورجيا الإلهيّة، حيث تولي الكنيسة المقدّسة اهتمامًا بالغًا بعقيدة الثّالوث الّتي تعتبرها من العقائد الحياتيّة الهامّة في حياة المسيحي الّذي لا يستطيع أن يحيا دون الإيمان بالثّالوث القدّوس، وعمله في حياة الإنسان. **فاللّيتورجيا البيزنطيّة هي ليتورجيّا ثالوثيّة**، حيث نرى ذلك واضحًا في جميع أقسام القدّاس الإلهيّ من بدايته حين يُبارك الكاهن ملكوت الثّالوث القدّوس، الآب والابن والرّوح القدس؛ في الإعلانات الّتي يتلوها الكاهن بعد كلّ صلاة؛ في نشيد الكلمة المتجسّد:

---

٤١٦) متّى المسكين (الأب)، ***الإفخارستيّا***، ص. ٤٢.

"يا كلمة الله... أنتَ أحدُ الثّالوث القدّوس، الممجَّد مع الآب والرّوح القدس، خلِّصنا"؛ في النّشيد المثلَّث التّقديس: "قدّوس الله..."؛ في النّشيد الشّيروبيميّ: "... والمرنِّمون للثّالوث المُحيي..."؛ في صلاة الكاهن من أجل نفسه والّتي يتلوها عند ترنيم النّشيد الشّيروبيميّ: فالله الآب هو ملك المجد وهو المحبّ البشر... الله الابن هو رئيس الكهنة وهو المقرِّب والمقرَّب، القابل والموزِّع... والله الرّوح القدس هو الصّالح والمُحيي؛ في قبلة السّلام والمصالحة: حين يُجيب الشّعب على دعوة الكاهن له إلى المحبّة والاعتراف والنيّة والواحدة، مُعلِنًا اعترافه بالثّالوث الواحد في الجوهر وغير المنفصل؛ في قانون الإيمان النّيقاويّ – القسطنطينيّ: الله الآب الضّابط الكلّ، الخالق... الله الابن الوحيد يسوع المسيح... والله الرّوح القدس عرّاب التّجسُّد الإلهيّ؛ في الأنافورا، عندما يُبارك الكاهن شعب الله بركةً ثالوثيّة: "نعمة الرّبّ يسوع، محبّة الله الآب وشَركَة الرّوح القدس"؛ في صلاة الشّكر الافخارستيّة: "... أنتَ [الله الآب] وابنُك الوحيد وروحُك القدّوس"؛ في صلاة تأسيس الإفخارستيّا: "... أنتَ [الله الآب] وابنُك الوحيد وروحُك القدّوس"؛ في صلاة استدعاء الرّوح القدس على القرابين، نطلب من الله أن يُرسل روحه القدّوس ليُحوِّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. لهذا يتجلّى الغنى اللّاهوتيّ الأوّل في اللّيتورجيّا البيزنطيّة في العبارات الّتي تتناول العمق الثّالوثيّ، فنلاحظ مباشرةً التواجد الأبديّ للآب مع أقنومَي الابن والرّوح.

إنّ اللّيتورجيّا تَبرَع في إبراز الحركة المستمرة الدائريّة بين الأقانيم الثّالوثيّة، ولعلّ التّعبير اليونانيّ المستخدم PERICHORE يعبّر عن الاشتراك في الذّات مع المحافظة على بُعدٍ مكانيّ: "فالآب الأزليّ غير المولود، وَلَد من ذات جوهره شعاعًا غير منقطع، أيّ الابن نورًا من نور، ومنه انبثق الرّوح القدس"[٤١٧]، وبذلك تبرز العبارات الثّالوثيّة متضمّنةً مباشرةً الصّفات الأقنوميّة لكلٍّ من الآب والابن والرّوح القدس. **فالأقنوم** هو كلمة سريانيّة وتعني "**شخصيّةٌ متميّزةٌ عن سواها دون انفصال أو استقلال**". فالله حسبما أعلن عن نفسه في الكتاب المقدّس هو ثلاثة أقانيم تشكّل جوهرَه الواحد بكلّ صفاته

---

٤١٧) المطران لطفي لحّام (البطريرك الحاليّ غريغوريوس الثّالث)، ***كتاب الصّلوات الطّقسيّة***، المجلّد الثّالث، الجزء الثّالث، ص. ١٥١.

وخصائصه ومميّزاته. ولا يجوز أبدًا اعتبار كلّ أقنومٍ أنّه جزءٌ من الله أو عنصرٌ من عناصره، لأنّ الله واحدٌ لا يتجزأ ولا ينقسم ولا تركيب فيه. فكلّ أقنومٍ هو ذات الله بكماله. والكتاب المقدّس يعلّمنا أنّ أقانيم الله الواحد هي "الآب والابن والرّوح القدس". فالآب هو الله، والابن هو الله، والرّوح القدس هو الله. فهم كأقانيم ليسوا ثلاثة آلهة، إنّما الله الواحد هو ثلاثة أقانيم في وحدانيّته الجامعة. عبر هذا المنظور الثّالوثيّ تضع اللّيتورجيّا البيزنطيّة الثّالوث في مركزيّة الإيمان المسيحي، إذ إنّ الثّالوثيّة الإلهيّة تقع لاهوتيًّا في رأس الهرم العقائديّ الّذي يُفرّع منه كلّ العقائد الأخرى، عندها تعلن القراءات البيزنطيّة في قانونها الثّالوثيّ: "أنّنا نحن مصدّقين أقوال الأنبياء. أنّك إلهٌ واحدٌ، ونمجّدك في ثلاثة أقانيم"[418]. هذا ما يؤكّده **القدّيس أثناسيوس الرّسوليّ** بقوله: "إنّ للآب أقنومًا متميّزًا، والإبن أقنومًا متميّزًا، والرّوح القدس أقنومًا متميّزًا كذلك. ولكنّ الآب والإبن والرّوح القدس لاهوتٌ واحد، ومجدٌ متساوٍ، وجلالٌ أبديّ".

- الإبن يسوع المسيح

وحده يسوع هو حدث الله لأجل الإنسان، لأنّه مجيءُ الله إلى الإنسان، لأنّه الله مع الإنسان، "الله معنا"[419]. فيسوع الّذي بموته أمات الموت ومنحنا الحياة الأبديّة هو الحدث الأوحد في التّاريخ: صليبه وقيامته معًا، لا كحدثين مستقلّين، بل كوجهَي السّرّ الواحد، سرّ الافخارستيّا، الّذي ما هو إلاّ احتفال الكنيسة الأرضيّة المجاهدة والكنيسة السّماويّة المنتصرة في سرّ الحبّ الإلهيّ الّذي تجلّى بأبهى حُلله في صلب المسيح وموته، اللّذين حوّلهما الله بقدرته إلى قيامةٍ وحياةٍ جديدة. إنّ شخص المسيح هو محور اللّيتورجيّا الإلهيّة ومركزها، إذ إنّه هو نفسه الّذي أسّس سرّ الشّكر عندما تناول العشاء الأخير مع تلاميذه لَمّا أخذ "خبزًا وبارك وكسر وأعطى تلاميذه وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي ... وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم وقال: إشربوا من هذا كلكم هذا هو دمي للعهد الجديد الّذي يهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا" (متّى ٢٦: ٢٦-٢٨؛

---

٤١٨) المطران لطفي لحّام، *كتاب الصّلوات الطّقسيّة*، المجلّد الأوّل، ص. ١٤٧.
٤٢٠) **المرجع نفسه**، ص. ٤٥.

مرقس ١٤: ٢٢-٢٤؛ لوقا ٢٢: ١٩-٢٠؛ ١ كورنثس ١١: ٢٣-٢٥). وقد أوصاهم أن يُقام هذا السرّ بشكلٍ دائمٍ "إصنعوا هذا لذكري" (لوقا ٢٢: ١٩)، "فإنّكم كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرّبّ إلى أن يأتي" (١ كورنثس ١١: ٢٦).

- الرّوح القدس

بيد أنّه يجب علينا، بُغية ولوج روح الليتورجيّا الإلهيّة ولوجًا حقيقيًّا، أن نعرض للدّور الأساسيّ لعمل **الرّوح القدس** وحضوره الفاعل فيها. "فالرّوح القدس هو مَن يفتتح أوّلاً اللّيتورجيّا المحتفل بها. ثمّ يُظهر لنا في حركةٍ أولى هي خدمة الكلمة، الرّبَّ الآتي. وفي حركةٍ ثانية هي الأنافورا، يُحقّق الرّوح القدس لأجلنا فصحَ الرّبّ. هذا التّحوّل يكتمل في الحركة الثّالثة، أي في تناول جسد المسيح. وإذّاك، وكما في الخاتمة، الّتي هي بدايةٌ جديدة، يجعلنا الرّوح ننفتح على اللّيتورجيّا المُعاشة"[٤٢٠]. كلّ هذا يتطلّب منّا تهيئةً ذاتيّةً إيمانيّة، ليستطيع روح الله أن يتغلغل في داخلنا، فاتحًا عيوننا على معرفة الرّبّ، وقلوبَنا على استقبال كلمته الإلهيّة الخلاّقة، مُرويًا إيّانا من نهر الحياة المتدفّق من عرش الله والحمل (راجع رؤيا ٢٢: ١-٢)، وأعني به دم المسيح الكريم المهراق على خشبة الصّليب لأجلنا، ومالِئًا إيّانا من خبز الحياة، وأعني به جسد الرّبّ الطّاهر، "الخبز الحيّ النّازل من السّماء: فمَن أكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الّذي أعطيه أنا هو جسدي المبذول لحياة العالم" (يوحنّا ٦: ٥١). من هنا نؤكّد أنّ ما من أمرٍ يحدث في الكنيسة من دون الرّوح القدس والشّركة معه. ذلك أنّ الكنيسة، وبفضل حلوله، تكشف عن نفسها على أنّها تُحوِّل النّهاية إلى بداية، والحياة القديمة إلى حياةٍ جديدة، والإنسان العتيق إلى إنسانٍ جديدٍ "خُلِقَ على صورة الله في البرّ وقداسة الحقّ" (أفسس ٤: ٢٤).

---

٤١٩) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجيّة الينبوع***، ص. ١٦٧-١٦٨.

- **خلاصة عامّة**

إنّ تهيئة القرابين الّتي تتمّ في أوّل القدّاس ترمز إلى ميلاد المسيح وأحيانًا إلى آلامه وموته. يؤتى بالخبز على مائدة التّقدمة، كما جاءت مريم العذراء إلى مغارة بيت لحم لتلد ابنها البكر. يُستَخرج "الحمل" من الخبز، كما خرج المسيح من أحشاء أمّه الطّاهرة. مائدة التّقدمة تمثّل مغارة بيت لحم، والصّينيّة المذود، والنّجم يشير إلى الكوكب الّذي هدى المجوس إلى المغارة، والأغطية ترمز إلى القُمُط، والكأس والمبخرة والبخور ترمز إلى الذّهب واللُّبان والمرّ الّتي قدّمها المجوس للطّفل الإلهيّ. على أنّ ميلاد المسيح هو في الوقت عينه بدء آلامه. ولذلك فإنّ مراسيم تهيئة الذّبيحة تذكّرنا أيضًا بآلام المخلّص وموته. يقوم الكاهن بقطع الحمل واستخراجه من القربانة، متلفّظًا بكلمات نبوءة أشعيا النبيّ عن آلام المسيح من خلال أناشيد عبد يهوه المتألّم، ويقطع الحمل بهيئة صليب، إشارةً إلى صلب المسيح، ويطعنه بحربة، على ما فعل الجنديّ بالمصلوب، ويسكب في الكأس الخمر والماء معًا، إشارةً إلى الدّم والماء اللّذين خرجا من جنب المصلوب لَمّا طُعِنَ بحربة.

ثمّ يضع الكاهن عن يمين الحمل جزءًا مثلّث الزوايا، لكي يرمز إلى العذراء الّتي كانت واقفةً عن أقدام الصّليب. ثمّ يضع عن يسار الحمل تسعة أجزاء، للدّلالة على فئات القدّيسين التّسعة (أنبياء العهد القديم، هامتَي الرسل وسائر الرسل، الشّهداء، المعلّمين، رؤساء الكهنة، الأبرار الّذين عاشوا في النّسك والحياة الرّهبانيّة، الزّاهدين في المال، جدَّي المسيح الإله يواكيم وحنّة، وجميع القدّيسين). أمّا أجزاء الأحياء والأموات فيضعها الكاهن تحت الحمل لكي ينحدر عليها دمُه فيغسلها من خطاياها. ومن وُجهة النّظر هذه، أصبحت مائدة الذّبيحة رمزًا إلى الجلجلة، والأغطية إلى السّباني، والبخور إلى الحَنوط الّذي طُيِّب به جسد الرّبّ، والصّينيّة إلى القبر الّذي وُضِعَ فيه.

كما أنّ مطلع القدّاس يذكّرنا بحياة المسيح الخفيّة في النّاصرة. وفيه تستمطر الإنسانيّة، بطلباتها المتواترة وترنيم المزامير، مجيء المخلّص. ثمّ تصير دورة الإنجيل، فكأنّي بالمسيح يظهر ليبشّر، يتقدّمه حامل الشّمعة مشيرًا إلى السّابق (يوحنّا المعمدان)، الّذي لم يكن النّور، بل جاء ليشهد للنّور.

فالدّخول الصّغير هذا إذن يمثِّل مجيء المسيح الأول إلى العالم وتدبيره الخلاصيّ. فقد حمل للعالم تحرير الطّبيعة البشريّة المُستعبَدة للفساد والخاضعة بسقطتها وخطيئتها للموت ولحكم الشّيطان. ويُمثّل صعودَه إلى السّماء بشكلٍ رمزيٍّ دخولُ الأسقف إلى القدس وصعودُه إلى عرشه الأسقفيّ. ثم يصغون إلى تعاليم الرّسل، فيسمعون بخشوع تلاوة فصلٍ من الرّسائل، ويصغون إلى السّيّد المسيح عينه يعلّمهم في إنجيله الطّاهر. إنّ هذه القراءات الكتابيّة المقدّسة تُبيّن لنا إرادة الرّبّ، ويتقبّل كلٌّ من مستمعيها المبادئ الّتي يجب أن يعمل بموجبها حتّى يستحقّ ملكوت المسيح ويأخذ الإكليل العادل عن جهاده. وبالنّظر إلى ما كان يسبق ويتبع القراءات من أناشيد فهي تُعبِّر عن الفرحة الرّوحيّة الإلهيّة المبشّرة بظهور الخيرات الإلهيّة.

وفي دورة القرابين، يجيء المخلّص لكي يتألّم ويُصلب ويموت. فتوضع القرابين على الهيكل، كما أُنزل جسد يسوع عن الصّليب ووُضع في قبر. وتُغلَق الأبواب المقدّسة وتُسدل السّتائر (عادةٌ قديمةٌ في التّقليد البيزنطيّ، قد زالت في أيّامنا الحاضرة)، فكأنّي بالحجر يُدحرج على باب القبر. ويُقدّم البخور، كأنّه الطّيب الّذي حُنّط به جسد الرّبّ. ثم تُفتَح الأبواب المقدّسة، كما لو فُتِحَ القبر وخرج منه المسيح. ويُرفرف بالغطاء الكبير فوق القرابين، فكأنّي بالأرض تهتزّ والحرّاس يهربون والحجر يُدحرج عن باب القبر.

على أنّ تقدمة الذّبيحة، أي الأنافورا، تعود بنا إلى ذكر العشاء السّرّيّ. ثم يرفع الكاهن الحمل، إشارةً إلى قيامة المسيح. ويمزج الجسد بالدم (يضع الكاهن جزءًا صغيرًا من الحمل في الكأس المقدّسة) فيدلّ على أنّ جسد المسيح نهض من القبر ممجّدًا، "لا يذوق الموت في ما بعد"، متّحدًا بدمه اتّحادًا لا ينفصم. والماء الحارّ الّذي يُسكَب في الكأس المقدّسة يدلّ على أنّ الدّم الّذي خرج من جنب المخلّص كان دمًا حارًّا حيًّا. وعندما يعود الكاهن بعد المناولة فيُظهر القربان للشّعب ثم يُخفيه عن عيونهم ويضعه على مائدة الذّبيحة، نتذكّر المسيح يرتفع إلى السّماء ويختفي عن عيون تلاميذه، لكنّه يَعِدهم أن يبقى معهم كلّ حين حتّى انقضاء الدّهر[٤٢١].

---

٤٢١) المطران ناوفيطوس إدلبي، *كتاب الصّلاة*، ص. ٣١٥-٣١٨.

القسم الثّالث

القدّاس الإلهيّ
في الرّمزيّة اللّيتورجيّة

مقدّمة

إنّ اللّغة الرّمزيّة الّتي تتخطّى في خبرتها الصّور والكلمات والحركات الطّقسيّة، تُظهر أنّها تنقل رغبة الإنسان في لمس الرّبّ ومعاينته، عن طريق الممارسة اللّيتورجيّة الحقيقيّة، القائمة على العلاقة الشّخصيّة واللّقاء الرّوحيّ مع الرّبّ يسوع: "ذاك الّذي سَمِعناه، ذاك الّذي رأيناه بعَينَينا، ذاك الّذي تأمّلناه، ولمسته أيدينا" (١ يوحنّا ١: ١)، والّتي منبعها هو الإيمان الحيّ به. إنّها، بتعابيرَ أخرى، الخبرةُ الإيمانيّة لجماعةٍ يتجلّى بها حضور المسيح غيرُ الزّمنيّ. إنّ مدار الكلام في الرّمزيّة اللّيتورجيّة ليس على عالَمٍ مجمَّدٍ مغلَق، فكلّ ما تتألّف منه اللّيتورجيّا إنّما يُحيل إلى الّذي لا يُتَخطّى، وإلى الانفتاح الّذي لا حدّ له. بتعابيرَ أخرى، إنّ الرّمزيّة اللّيتورجيّة والطّقسيّة هي "علاماتٌ ماديّةٌ لحضور العالم الرّوحيّ"[٤٢٢]، ذلك أنّها وُجِدَت لتذكيرنا بحقائقَ روحيّةٍ تُمثّل بمجملها كلّ عناية الله الخلاصيّة.

من هنا فإنّ الإنسان المسيحيّ لا يسعه أن يشترك اشتراكًا فعّالاً في القدّاس الإلهيّ دون أن يفهم بعُمقٍ معاني الحركات الطّقسيّة الّتي يقوم بها الكاهن أثناء الاحتفال الإفخارستيّ وأبعادها اللاهوتيّة المبنية على أساس كتابيّ (أي الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد)، إذ إنّ كلّ حركةٍ من تلك الحركات تُعيدُنا إلى أحداثٍ خلاصيّةٍ تمّت في العهد القديم وكانت رمزًا للمسيح الّذي لم يحضر بعد ولم يرَوه، وتحقّق اكتمالها في العهد الجديد بشخص يسوع المسيح، الّذي تجسّد حين تمّ ملء الزّمان وأصبح منظورًا وملموسًا.

فاللّغة الرّمزيّة المُستَعمَلة في اللّيتورجيّا تُؤوّن هذه الأحداث الخلاصيّة الّتي تمّت مرّةً واحدةً في التّاريخ البشريّ، وتجعلها آنيةً وحاضرةً في زمن المؤمنين الحاليّ، بقوّة الإيمان الحيّ بالرّبّ القائم، الحاضر دومًا في وسط الجماعة

---

٤٢٢) فلاديمير لوسكي، ***بحث في اللاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، ص. ١٥٧.

المؤمنة، كنيسته المقدّسة، بناءً على وعدٍ إلهيٍّ للتّلاميذ بعد قيامته من بين الأموات: "وهاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم" (متّى ٢٨: ٢٠). فالرّموز اللّيتورجيّة المُستَعملة في الاحتفالات الطّقسيّة الكنسيّة تُعبِّر إذًا عن الأشياء الّتي لا تُرى وتجعلها حاضرةً بالحقيقة، ومرئيّةً وفاعِلة.

(١)

إشارة الصّليب المقدّس

١) إشارة الصّليب في لاهوت الكنيسة المقدّسة

يرسم المسيحيّون إشارة الصّليب كدليلٍ على إيمانهم بالمسيح المخلّص، وكتذكير لهم بمحبّة الله اللامتناهية وبعمل المسيح الخلاصيّ والفدائيّ على الصّليب كفّارةً وقربانًا عن البشريّة قاطبة، انطلاقًا مِمّا جاء في الإنجيل الرّابع: "فإنّ الله أحبّ العالم حتّى إنّه جاد بابنه الوحيد، لكي لا يهلك كلُّ مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة، فإنّ الله لم يُرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلّص به العالم" (يوحنّا ٣: ١٦-١٧). إنّ عادة رسم إشارة الصّليب على صدور المؤمنين هي عادةٌ مسيحيّةٌ كانت شائعةً منذ عصور المسيحيّة الأولى، وقد ذكرها القدّيس ترتليانوس، أحد آباء الكنيسة الأولى في كتاباته، في القرن الثّاني للميلاد. وبهذا الصدد فإنّ صليب المسيح أصبح مفخرةً للمؤمنين بعد أن كان الصّليب قديمًا أداةً للعنة والعار. ويقول بولس الرّسول: "أمّا أنا فمَعاذَ الله أن أفتخر إلاّ بصليب ربّنا يسوع المسيح! وفيه أصبح العالم مصلوبًا عندي، وأصبحتُ أنا مصلوبًا عند العالم" (غلاطية ٦:١٤).

يرسم المؤمنون الشّرقيّون الّذين يتبعون الطّقس البيزنطيّ إشارة الصّليب بتوحيد أصابع اليد اليُمنى الثّلاث معًا دلالةً على الثّالوث القدّوس في وَحدانيّته الإلهيّة، أي أنّ الله واحدٌ في ثلاثة أقانيم. كما ويضمّون الإصبعَين الخنصر والبنصر معًا للدّلالة على اتّحاد الطّبيعتَين الإلهيّة والإنسانيّة في شخص الكلمة المتجسّد، يسوع المسيح، إذ هو إلهٌ كاملٌ وإنسانٌ كامل.

عندما نبدأ برسم إشارة الصّليب على **الجبهة**: دلالةً على أنّ الله الآب الأقنوم الأول هو مصدر كلّ الكائنات؛ على **أسفل الصدر**: إشارةً إلى أنّ الابن الأقنوم

الثاني قد تجسّد في أحشاء مريم البتول وولد منها؛ على **الكتف اليمنى**: تكميلاً للدّلالة على سرّ الأقنوم الثّاني، أي أنّ السّاكن في أحشاء مريم البتول هو نفسُه الجالس إلى يمين الله الآب، بعد أن أتمّ سرّ الفداء العظيم. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى ما قاله الرّبّ يسوع أمام المجلس وهو في مسيرته نحو الآلام المخلِّصة: "ستَرَون بعد اليوم ابن الإنسان جالسًا عن يمين القدير وآتيًا على غمام السّماء" (متّى ٢٦: ٦٤؛ مرقس ١٤: ٦٢؛ لوقا ٢٢: ٦٩). وهذا بالتّحديد ما اختبره القدّيس استفانوس (أوّل الشّهداء في المسيحيّة) الّذي استطاع، بإنعامٍ خاصٍّ من الرّوح القدس، أن يرى يسوع جالسًا عن يمين الله في السّماء: "فحدّق إلى السّماء وهو مُمتلئٌ من الرّوح القدس، فرأى مجد الله ويسوع قائمًا عن يمين الله. فقال: ها إنّي أرى السّموات مُتَفَتِّحة، وابن الإنسان قائمًا عن يمين الله" (أعمال ٧: ٥٥-٥٦)؛ على **الكتف اليسرى**: إشارةً إلى أنّ الرّوح القدس الأقنوم الثّالث يسكن في القلب ويفيض منه كلّ نعمةٍ وبركة.

٢) إشارة الصّليب في فكر زعيم الإصلاح البروتستانتيّ مارتن لوثر

لقد علّم مارتن لوثر في كتابه "شرح أصول الإيمان" بأنّه على المسيحيّ أن يرسم إشارة الصّليب يوميًّا عند نهوضه من النّوم ويقول "باسم الآب والابن والرّوح القدس الإله الواحد آمين". كما يُعلّم مارتن لوثر الوالدَين أن يعلّموا أولادهم رسم إشارة الصّليب والصّلاة لله يوميًّا. ففي إشارة الصّليب أجمل رمز وأعظم مغزى، لأنّها تذكّرنا بمحبّة الله وفداء المسيح لنا بموته عنّا على خشبة الصّليب.

(٢)

الثّياب الكهنوتيّة اللّيتورجيّة:
لاهوتٌ ورموز

١) الثّياب الكهنوتيّة في العهد القديم

كانت الثّياب الكهنوتيّة في حِقبة العهد القديم في غاية الجمال والجلال، كما أعلنها الله لكليمه موسى، حينما طلب منه أن يصنع ثيابًا مقدّسةً لهارون: "واصنع ثياب قُدْسٍ لهارون أخيك تكون له ثياب مجدٍ وبهاءٍ" (خروج ٢٨: ٢). لقد كانت هذه الثّياب مقتصرةً على رؤساء الكهنة والكهنة، وكانوا يرتدونها في الخدم اللّيتورجيّة فقط. أمّا خراج الخدم اللّيتورجيّة، فكانوا يرتدون ثياب عامّة الشّعب، وذلك تعبيرًا عن عن احترامهم لرتبة الكهنوت، وإظهار سلطة الكاهن في خلع الإنسان العتيق مع أعماله وخطاياه، كما يظهر في الرّؤيا الرّابعة للنّبيّ زكريّا، الّتي شاهد خلالها يشوع الكاهن العظيم: "وقال له: أنظر! إنّي قد أجزتُ إثمك عنك. فلتُلبَس ثيابًا فاخرة. وقلتُ: ليُجعَل تاجٌ طاهرٌ على رأسه. فجعلوا التّاج الطّاهر على رأسه وألبسوه الثّياب وملاك الرّبّ واقف" (زكريّا ٣: ٤-٥). لقد كانت هذه الثّياب مصنوعةً من الحرير أو من الكتّان، علامة النّقاوة والطّهارة: "وإذا دخلوا أبواب الدّار الدّاخليّة، يلبسون ثيابًا من كتّان، ولا يكون عليهم صوفٌ حين يخدمون في أبواب الدّار الدّاخليّة أو في داخلها" (حزقيال ٤٤: ١٧).

٢) ثياب الكاهن رمزٌ إلى شخصيّته الرّوحيّة

إرتداءُ ثوبٍ خاصٍّ لإقامة عملٍ مقدّس، يعني الخروج من مقاييس الحياة اليوميّة العاديّة للدّخول في حضرة الله، في أثناء الاحتفال بالأسرار الإلهيّة،

استنادًا إلى الرّمز الَّذي يعلّمه بولس الرّسول: "لأنّكم، أنتم جميعَ الَّذين اعتمدوا للمسيح، قد لبستم المسيح" (غلاطية ٣: ٢٧). وكتب الكاثوليكوسُ الأرمنيّ نرسيسُ شنورَلي (١١٦٥-١١٧٣)، قائلاً: "لا يظنَّنَّ أحدٌ أنّه نافلٌ وباطلٌ سرُّ الثّوب الكهنوتيّ... إنّ فيه تقيّدًا من الإنسان الخارجيّ لِمَن هم في خدمة ما هو لله. إنّا نتحدَّث أيضًا عن الإنسان الباطن، الَّذي يرى في الطّقس الخارجيّ صورةً للزّينة الرّوحيّة المُشرقة".

لذا، فالحُلل الكهنوتيّة أثوابٌ يلبسها ذوو الكهنوت حينما يقيمون الخدم الإلهيّة والأسرار المقدّسة، فتذكِّرهم بواجباتهم، وتُعطى لهم عند سيامتهم، وارتداؤها مهمٌّ للغاية، لأنّ الثّوب على الإجمال يرمز إلى **الشّخصيّة الرّوحيّة** الَّتي يتمتّع بها خادم الأسرار؛ فعندما يرتدي الكاهن ألبسةً خاصّةً استعدادًا للخدمة الإلهيّة، فهو يشير بذلك إلى أن شخصيَّته العاديّة حُجِبَت ولم يعد لها أهميّة، لا بل فسحت المجال بظهور شخصيَّة جديدةٍ هي شخصيَّة خادم الأسرار. فالكاهن الَّذي يقيم الخدمة الإلهيَّة لم يعد بنظرنا ذلك الإنسان الَّذي نعاشره يوميًا، إنّه الآن الأداة الحيَّة الَّتي أقامها الرّوح القدس لخدمة الأسرار المجيدة والَّتي يستخدمها - رغم عدم استحقاقه - ليبث نعمة الرّبّ في الكنيسة. فارتداء الألبسة الكهنوتيَّة يعني أنّ الكاهن، رغم جهله وخطاياه الَّتي هي موضوع حساب بينه وبين الله، يمكنه أن يتمّم الأسرار الإلهيَّة، لأنّ متمّم الأسرار الحقيقيّ هو الرّبّ يسوع المسيح نفسه الَّذي هو "الكاهن إلى الأبد" (مزمور١٠٩: ٤؛ عبرانيّين ٥: ٦). وهو يفعل ذلك من خلال الكاهن.

٣) ألوان الثّياب الكهنوتيّة الكنسيّة

والثّياب الكهنوتيّة زاهية الألوان موشّاة بالذّهب والفضة للدّلالة على أنّ خادم الأسرار المقدّسة يقترب من مجد الملكوت الإلهيّ بصفته وسيطًا بين الله والشّعب. لذلك تستخدم الكنيسة ألوانًا زاهيةً ومتنوّعة:

- **اللّون الأبيض:** يدلّ على الفداء بدم المخلّص وعلى الطّهارة والنّقاوة والفرح. يُلبَس في أيّام الآحاد إذ إنّها تعبّر عن قيامة المسيح من بين الأموات.
- **اللّون الأزرق:** يدلّ على الصّفاء والقداسة. يُلبَس في عيد الغطاس (معموديّة الرّبّ يسوع)، وأعياد السّيِّدة العذراء، والقدّيسات البارات.

- **اللّون الأخضر:** يرمز إلى النُّموّ الرّوحيّ والازدهار بمجيء المخلِّص. يُلبَس في آحاد ما قبل الميلاد، وأعياد الأنبياء وأبرار العهد القديم، وأحد الشّعانين، إذ إنّ هذا اللّون يرمز إلى لون سعف النّخيل وأغصان الزّيتون الّتي حملتها الجموع الأورشليميّة أثناء دخول المسيح الانتصاريّ إليها.
- **اللّون الذّهبيّ:** يدلّ على المجد والنّور الّذي يدخل في خبرته القدّيسون النُّسّاك. يُلبَس في أعياد السَّيِّد مثل الدّخول إلى الهيكل، وفي أعياد الأبرار النُّسّاك ورؤساء الكهنة.
- **اللّون البنفسجيّ:** إنّه لون الحزن المُتّبع رسميًا في الكنيسة. لذلك فهو اللّون المُهيمن على لباس الكهنة في زمن الصّوم الأربعينيّ المقدّس. يُلبَس هذا اللّون أيضًا في خدمة اللّيتورجيّا الإلهيّة الخاصّة بالرّاقدين.
- **اللّون الأسود:** يدلّ هذا اللّون على الحزن، ويُلبَس عادةً في أسبوع الآلام العظيم المقدّس، وبخاصّةٍ في رتبة جنّاز المسيح بحسب تيبيكون (ترتيب الصّلوات) أمّ الكنائس ومسكن الله أورشليم، وكنيسة القسطنطينيّة. أمّا بحسب تيبيكون كنيسة اليونان، فقد شاع لبس الأبيض في رتبة جنّاز المسيح، "وذلك لأنّنا نؤمن أنّ الموت في تعليم الكنيسة ليس سوى نومًا أو رُقادًا. فليس من فناءٍ في حياة المؤمن، لأنّ المسيح هو القيامة والحياة"[٤٢٣].
- **اللّون الأحمر:** يُعبِّر اللّون الأحمر عن الألوهة والطّبيعة الإلهيّة في المسيح. يُلبَس في عيدَي الميلاد المجيد وأحد العنصرة المقدّس، وأعياد الرّسل والشّهداء.

٤) زينة الثّياب الكهنوتيّة

نزيِّن الملابس الكهنوتيّة على الإجمال، وأحيانًا بصور السَّيِّد أو السَّيِّدة، أو بصور الأعياد السَّيِّديَّة للتّعبير عن فرح العيد وتكريمًا للرّبّ الممجَّد بالفنون المستخدَمة من رسمٍ وموسيقى وأناشيد، وكذلك في زركشة ثياب خدّامه دلالة على المجد الّذي يعطيه الله لخدّامه ليخدموا الآخرين ويتمجّدوا هم أيضًا بمجد الرّبّ.

---

٤٢٣) نقولا كاباسيلاس، *شرح القدّاس الإلهيّ*، ص. ١٦٣.

من بين الرّموز الّتي تُزيّن حلّة القدّاس الكهنوتيّة[٤٢٤]:

- **الصّلبان:** كلّنا نعلم أنّ الصّليب، بعد أن كان أداة لعنة، أصبح مع المسيح أداة خلاص... فهو حارس المسكونة، وسند المؤمنين، وبهاء الكنيسة، ونكبة الأبالسة.
- **سنابل القمح:** وهي تذكّرنا بالزارع الّذي يبذر الحبوب في الأرض فتثمر ثلاثين وستين ومئة؛ فهي رمزٌ لوفرة الثّمار في المسيحيّ. وتذكّرنا بالحنطة الّتي تُجمَع من السّهول وتُطحَن لتصير خبزًا واحدًا؛ وهي رمزٌ لوَحدة المسيحيّين. وتذكّرنا أيضًا بالخبز غذاء الجسد، وقد حوّله المسيح إلى جسده الخاصّ، فأصبح غذاءً للنّفوس.
- **عناقيد العنب:** تذكّرنا بالكرمة. فالمسيح هو الكرمة ونحن الأغصان؛ فعلينا أن نثبت فيه لكي نأتي بثمار. والعنقود يقطُر خمرةً لذيذة، وقد حوّلها السّيّد المسيح إلى دمه الخاصّ، فأصبح غذاءً لنفوسنا يجلب لنا الفرح والسّعادة.

٥) **أنواع الثّياب الكهنوتيّة**

أمّا أنواع الثّياب الكهنوتيّة فتُقسم إلى ثلاثة أنواع:

١. **ملابس خاصّة بالشّمامسة:** وعددها ثلاثة وهي: القميص (الاستيخارة) والزّنّار (الأوراريون) والأكمام.
٢. **ملابس خاصّة بالكهنة:** وعددها ستّة وهي: القميص والبطرشيل والزّنّار والأكمام والحِجر والمعطف (الإفلونيّة).
٣. **ملابس خاصّة بالأسقف:** عددها اثنتا عشرة قطعةً وهي: القميص، والبطرشيل، والزّنّار، والأكمام، والصاكوس، والحِجر، والأموفوريون، والصّليب، وذخيرتا السّيّد والسّيّدة (الأنكولبيون)، والمنديّة، والتّاج، والعصا الرّعائيّة.

---

٤٢٤) بطريركيّة الرّوم الملكيّين الكاثوليك، ***الصّلاة في الكنيسة مع الجماعة***، ص. ٣٩-٤٠.

بشكلٍ عام تُكرّس الملابس بالصّلاة ونضحِها بالماء المقدّس، وأيضًا قبل ارتدائها يباركها الكاهن برسم الصّليب وبتلاوة آياتٍ من سفر المزامير إجمالاً وبصلاةٍ خاصّة كما سنرى في النّقطة التّالية.

٦) شرح الحلّة الكهنوتيّة والأسقفيّة

١. القميص (الاستيخارة)

قميصٌ طويلٌ ينسدل حتّى القدمَين. يدلّ على الطّهارة الّتي يجب أن يتحلّى بها الكاهن وأن يحفظها في حياته. لقد كان لونه في البداية أبيض، ويرمز إلى الطّهارة، والفرح الرّوحيّ، وظهور مجد الله ونقاوته، ونور الله والاستنارة؛ كما ويرمز إلى حلّة المعموديّة المستنيرة. إنّه يرمز أيضًا إلى الثّوب اللّامع الّذي ألبسه هيرودس الملك للمسيح وأرسله إلى بيلاطس سخريّة: "فازدراهُ هيرودس مع جُنده، واستهزأ به، وألبسهُ ثوبًا برّاقًا وردّه إلى بيلاطس" (لوقا ٢٣: ١١)؛ وأيضًا إلى القميص المنسوج الّذي نزعه الجنود عن المسيح عند صلبه: "وأمّا الجُنود فبَعدَما صَلَبوا يسوع أخذوا ثِيابَه وجَعلوها أربَعَ حِصَص، لِكُلّ جُنديٍّ حِصّة. وأخَذوا القَميصَ أيضًا وكانَ غيرَ مَخيط، مَنسوجًا كُلُّه مِن أعلاهُ إلى أسفَلِه" (يوحنّا ١٩: ٢٣). **إنّه حلّة البهجة وثوب الخلاص.**

عند ارتدائه يقول الكاهن: "تبتهج نفسي بالربّ، فإنّه ألبسني ثوبَ الخلاص، وشملني برداءِ السّرور، وعصّبني بتاج كعريس، وزيّنني زينة العروس" (أشعيا ٦١:١٠).

٢. البطرشيل

قطعة نسيج طويلةٍ وعريضةٍ يلبسها الكاهن أو الأسقف على العنق وتتدلى على الصّدر وتنتهي إلى الأسفل بشراريب. يرمز عُنُق البطرشيل إلى المسيح، بينما الطّرفان المتدلّيان إلى الأسفل فيُشيران إلى النّفوس الّتي عَهِدَ الله أمر تدبيرها ورعايتها إلى الكاهن. فالبطرشيل، بالتّالي، يكشف أنّ الكاهن هو تحت الرّأس، المسيح، وأنّه يجدر به إتمام الخدمة اللّيتورجيّة المقدّسة كخادم. كما يرمز البطرشيل أيضًا إلى "نير الرّبّ" و"عبء الخدمة في الهيكل"[٤٢٥].

---

٤٢٥) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.240.

فعلى الرّغم من المسؤوليّات والاهتمامات الثّقيلة المثلقاة على كاهل الكاهن الرّاعي، إلاّ أنّ أعباءه هذه ليست مُرهِقَةً لأنّ يد الله ونعمته تُخفِّفها. هذا ما أعلنه بوضوح السَّيّد المسيح نفسه في الإنجيل المقدّس، قائلاً: "... خذوا نيري عليكم وتتلمذوا لي، لأنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجدوا راحةً لنفوسكم. أجل، إنّ نيري لَيِّن، وحِملي خفيف" (متّى ١١: ٢٨-٢٩).

يدلّ البطرشيل على نعمة الكهنوت الّتي تُحييها وتُثبّتها النّعمة الإلهيَّة المستقرّة على لابسه، وهي حلول الرّوح القدس على المرتسم بواسطة يد الأسقف الرّاسم، ويشير، في الوقت عينه، إلى تحمُّل الأسقف أو الكاهن مسؤوليَّة الرّعيّة. إنّ انسكاب النّعمة الإلهيّة على المرتسم يُشير إلى أنّ عمل الرّوح القدس يقوم أوّلاً على إعادة خلق الطّبيعة مُطهّرًا إيّاها وموحّدًا إيّاها بجسد المسيح، وهو، ثانيًا، يمنح الشّخص البشريّ الألوهة، قوّة الثّالوث القدّوس الواحدة أي النّعمة. يصف سفر الخروج تكريس هارون، أخي موسى، وقد نُفِّذ من خلال صبّ الزّيت على رأسه (راجع خروج ٢٩: ٧). إنّ دهن وتكريس هذا الكاهن في الشّريعة القديمة يُمثّل استباقًا لسرّ الكهنوت المقدّس في العهد الجديد. مثل كلّ الأسرار المقدّسة، يسكب سرّ الكهنوت المقدّس نعمة الله في روح المُتَلَقِّي. بدونه لا يستطيع الكاهن القيام بأيَّة خدمةٍ كنسيَّة، أسراريّةٍ وليتورجيّة.

حين ارتداؤه يُقال: "تبارك الله المُفيضُ النّعمة على كهنته، كالطِّيب على الرّأس، النّازل على اللّحية، لحية هارون، النّازل على طَرَف ثيابه" (مزمور١٣٢: ٢).

٣. الزّنّار

- **للشّمامسة**

يُسمّى الزّنّار الخاصّ بالشّمامسة الرّسائليّين والإنجيليّين بالأوراريون، وهي عبارةٌ عن قطعة نسيج طويلةٍ تشبه الزّنّار وعليها صلبان صغيرة أو كتابة "قدّوس قدّوس قدّوس" يلبسه الشّماس، الّذي يُمثّل الشّيروبيم والسّيرافيم، على كتفه الأيسر، إشارةً رمزيّةً إلى أجنحة الملائكة، إذ إنّ خدمة الشّماس هي كخدمة الملائكة الّتي تتمثّل في خدمة هيكل العَلِيّ.

- **للكهنة والأساقفة**

أمّا الكاهن والأسقف فيتمنطقان بالزّنّار وعندئذٍ يشير إلى العفاف اللّازم لمَن تمنطق به. وقد درج استعماله في أوائل القرن الخامس الميلاديّ، من قِبَل بعض الأساقفة الّذين كانوا يرتدونه عند الاحتفال باللّيتورجيّة الإلهيّة "الإفخارستيّا". إنّ لهذا التّمنطق بالزّنّار أساسًا إنجيليًّا نجده عند القدّيسَين يوحنّا الحبيب وبولس الرّسول: "نهض عن العشاء، وخلع عنه رداءه، وأخذ منديلاً وائتزر به" (يوحنّا ١٣: ٤)؛ "أجل، آنهضوا! وشُدُّوا أحقاءكم بالحقّ، وتدرَّعوا بالبرّ" (أفسس ٦: ١٤).

لذا، فإنّنا نؤكّد أنّ الكاهن محزَّمٌ من الله بالقوّة الإلهيّة[٤٢٦]، إذ إنّه جنديٌّ من جنود المسيح، مستعدٌّ لمواجهة تحدّيات الحياة اليوميّة، ومتأهِّبٌ، في الوقت عينه، لخوض معارك الحياة الرّوحيّة أيضًا. يَشُدُّ الكاهن والأسقف حَقَوَيه بالزّنّار متهيّئًا للقيام بالخدمة المقدّسة الإلهيّة بكلِّ ضبطٍ لشهواته، ولذلك هو يرمز إلى القوّة الّتي تمنطق بها السَّيّد في ملكوته بحسب الرّؤيا. لذا، فإنّ الزّنّار يُشير إلى أمرين هامّين هما: قوّة الله الّتي تعضد الكاهن في القدّاس الإلهيّ، والطّهارة (العفّة) الّتي يجب أن يتحلّى بها كاهن الله.

يقول الكاهن والأسقف حين التّمنطق بالزّنّار: "تبارك الله الّذي يُمنطقني بالقدرة، وقد جعل طريقي بلا عيب" (مزمور ١٧: ٣٢-٣٤؛ حبقوق ٣: ١٩).

٤. الأكمام

قطعتا قِماش عريضتان عليهما صليبان صغيران. يغطّي الكمّان زندي الشّماس أو طَرَفَي قميص الكاهن أو الأسقف. وتدلّ على الأسلحة الرّوحيّة الضروريّة لمرتديها في جهادهم الرّوحيّ ضدّ الشّيطان وما يثير عليه من المعاكسة، وكذلك إلى الوثاقات الّتي ربطت يدي المخلّص حين آلامه (راجع يوحنّا ١٨: ١٢). تدلّ الأكمام، بحسب القدّيس سمعان التّسالونيكيّ، على عمل الله الدّائم، وتكشف كيف أنّ المسيح يخدم بذاته، بيديه الخاصّتين، الخدمة المقدّسة، خدمة جسده ودمه المقدّسين.

---

٤٢٦) Casimir Kucharek, ***<u>The Byzantine-Slav liturgy</u>***, p.241.

حين ارتداؤها يُقال على الكمّ الأيمن: "يمينك يا ربّ عزيزة القوّة. يمينك يا ربّ تحطّم العدوّ، وبعظمة اقتدارك تهدم مقاوميك" (خروج ١٥: ٦-٧)؛ وعلى الكمّ الأيسر: "يداك صنعتاني وجبلتاني. فهمني فأتعلم وصاياك" (مزمور١١٨: ٧٣).

٥. الحِجر

قطعة نسيج مربّعة الزّوايا، في وسطها صليبٌ أو صورة أحد القدّيسين يضعها الأساقفة والكهنة على الجانب الأيمن بواسطة خيطٍ يتدلّى حتّى الرُّكبة. إنّه يُشير إلى فضائل الشّجاعة والصّدق والدّعة والحقّ الّذي ينبغي أن يتّصف بها الكاهن عند تقديم الذّبيحة الإلهيّة. يرمز الحجر إلى غلبة السّيّد المسيح على الموت بقيامته وعزته وقدرته، بما أنّه لا شركة له مع الخطيئة. كذلك يرمز إلى السّيف الرّوحيّ الّذي ينبغي للكاهن والأسقف أن يتقلّداه، وهذا السّيف هو التّعليم والكرازة واستقامة الرّأي. إنه سيف الحقّ المسلول دومًا على الشّرّير. يلبسه الأسقف وبعض الكهنة من ذوي الرّتب الكنسيّة أو الّذين يكلّفهم المطران بمسؤوليّة تتميم سرّ الاعتراف كآباءَ روحيِّين.

يقول الكاهن عند لبسه الحجر: "تقلّد سيفك على جنبك، أيّها القويّ. بحُسنكَ وجمالكَ استلّه وسِرْ إلى الأمام. وأملك في سبيل الحقّ والدّعة والبرّ، فتهديَكَ يمينُك هديًا عجيبًا" (مزمور٤٤: ٤-٥).

٦. المِعطَف (الإفلونية)

رداءٌ (مَشلح) عريضٌ مستدير، ذو فتحةٍ في أعلاه يُلبَس منها، فيدخل رأس الكاهن فيها، ويغطّي المعطف (الإفلونية) جسم الكاهن. يرمز إلى ثوب الأرجوان الّذي سَخِرَ به جند الرّومان من السَّيِّد المسيح عند آلامه؛ وترمز أيضًا إلى نعمة الرّبّ المستقرّة بالرّوح القدس على الرّسل وخلفائهم. يلبسها الكاهن مع البطرشيل في تتميم جميع الأسرار المقدّسة وعند تتميم الدّخول في صلوات الغروب وكذلك في صلاة الغروب الإحتفاليّة (عند تقديس الخبزات الخمس). إنّها وشاح المجد والطّهارة والقداسة الّتي يسكبها الرّبّ على خدّامه. يقول الكاهن عند لبسها: "كهنتك يا ربّ يلبسون البرّ، وأصفياؤك يبتهجون

ابتهاجًا" (مزمور ١٣٢: ٩). إنّ خادم سرّ الفرح يظهر مُتجَلببًا بإفلونيّةٍ بديعةٍ لأنّه لابسٌ مجد الملكوت، لأنّ الله، حتّى في هيئة النّاس، ظهر بمجد. ونحن، متى وقفنا، في سرّ الشكر، في حضرة المسيح، كموسى أمام الله، لا بدّ لنا من أن نتغطّى بمجده الإلهيّ.

إنّ المعطف هو الثّوب الأساسيّ للكاهن؛ طوله وعرضه يكفيان لتغطية كلّ ثيابه الأخرى. وفي كلّ الخدم اللّيتورجيّة، وفي كلّ أعماله الرّعويّة، يُمثّل الكاهن المسيح، الّذي قدّم نفسه من أجل النّاس لكي يخلصوا. تمامًا كما يُغطّي المعطف كلّ الثّياب الأخرى، كذلك ينبغي لروح المسيح أن يُظلّل كلّ كيان الكاهن[٤٢٧]، وجميع الفضائل الكهنوتيّة الّتي يجب أن يتحلّى بها رجل الله: الرّحمة، واللُّطف والتّواضع، والوداعة والصَّبر، واحتمال بعضنا البعض، ومسامحة بعضنا البعض، وفوق كلّ شيءٍ المحبّة (راجع كولسّي ٣: ١٢-١٤). هذا ما يؤكّده لنا القدّيس بولس الرّسول بقوله: "بل البسوا الرّبّ يسوع المسيح، ولا تهتمُّوا بالجسد لقضاء شهواته" (رومة ١٣: ١٤)، وأيضًا: "فلستُ أنا حيًّا بعد، بل هو، المسيح، يحيا فيّ" (غلاطية ٢: ٢٠). إنّ المعطف، إذًا، يرمز إلى مجد الكنيسة كخليقةٍ جديدة. إنّه صورةٌ لفرح الحياة الجديدة وعدلها وجمالها، وصورةٌ أرضيّةٌ مسبقةٌ لملكوت الله وللملك الّذي "مَلَكَ ولبس الجلال" (مزمور ٩٢: ١) إلى الأبد.

٧. الصّاكُوس

رداء الأسقف: هو قميصٌ واسعٌ قصيرٌ وعريض الكمين ومشقوق الطّرفَين يجمع طرفيه بجلاجل. يرمز إلى قميص المخلّص الّذي اقترع عليه الجند ساعة صلب السَّيِّد؛ وأيضًا إلى عبادة الله الصّانعة الصّالحات الّتي تستر مرتديه وتكتنفه من كلّ الجهات. كان ثوب الأباطرة، وَهَبوه للبطاركة وبعده للأساقفة المفضَّلين. عمّ استعماله للأساقفة بعد سقوط القسطنطينيّة على يد العثمانيّين في العام ١٤٥٣م. وهو يُمثّل ثوب التّوبة الّذي كان شائعًا في العهد القديم. فالأسقف يتذكّر أنّه الحَبر الّذي عليه أن يُكفّر عن خطاياه وخطايا رعيّته.

---

٤٢٧) **Ibid**, p.244.

يقول الأسقف عند لبسه: "رؤساء كهنتك يارب يلبسون البرّ. وأصفياؤك يبتهجون ابتهاجًا" (مزمور١٣٢: ٩).

٨. الأوموفوريون

كلمةٌ يونانيّةٌ تعني: "ما يُحمَل على الكتف". إنّها قطعةٌ نسيج مستطيلة، تلفّ الكتفَين وتتدلّى من الوراء إلى الأمام، يرتديها الأسقف فقط على كتفيه وحول عنقه فوق الصّاكوس ويدلّ على الخروف الضالّ الّذي فتّش عنه المسيح، فلما وجده حمله على منكبيه بفرح عظيم وضمّه إلى التّسعة والتّسعين (راجع لوقا ١٥: ٤-٧)؛ وكذلك يرمز إلى خشبة الصّليب الّتي حملها المسيح على كتفيه، ولهذا كان يُنسج من الصّوف. يوجد أموفوريون صغير يضعه الأسقف بدل الكبير في القدّاس الإلهيّ بعد الإنجيل وكذلك يلبسه مع البطرشيل في شتى الخدم.

يقول الأسقف عند ارتداء الأموفوريون: "لقد حملت الطّبيعة الضّالّة على منكبيك. أيّها المسيح. ولمّا صعدتَ قدّمتها إلى الله الآب. حلف الرّبّ ولن يُخلِف: أنتَ كاهنٌ إلى الأبد على ترتيب ملكيصادَق".

٩. ذخيرة السَّيّد والسَّيّدة (الأنكولبيون)

إيقونة السَّيّد أو السَّيّدة أو أحد القدّيسين مرصّعة بالحجارة الكريمة يعلّقها الأسقف على صدره دلالة الإيمان القويم من كلّ قلبه. الأنكولبيون يدلّ على أهميّة حامله وأهليّته للخدمة، وعلى أنّ الأسقف يعترف من قلبه بالإيمان المستقيم. يقول عند تعليقها: "قلبًا طاهرًا أخلق فيّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي" (مزمور٥٠: ١٢).

يقول على ذخيرة السَّيّد: "فاض قلبي بنشيدٍ رائع. أقول إنّ نشيدك هو للملك. لسانُكَ قلم كاتبٍ ماهر. أنت الأبهى جمالاً بين بني البشر" (مزمور٤٤: ٢-٣).

وعلى ذخيرة السَّيّدة: "قامتِ الملكة عن يمينك. متسربلةً ومزيَّنةً بوشاحٍ موشّى بالذّهب" (مزمور٤٤: ١٠).

١٠. ذخيرة الصّليب

يتدلّى صليبٌ من معدنٍ ثمينٍ مرصّع من على الرّقبة تمثّلاً بالسّيّد المسيح. ويقول الأسقف عند لبسه: "قال الرّبّ: مَن أراد أن يتبعَني. فليُنكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (مرقس ٨: ٣٤) يلبسه الأسقف وأصحاب الرّتب الكنسيَّة كالأرشمندريت والإيكونومس...

١١. التّاج

زينة الرّأس، مستدير موشّى بالتّخاريم والإيقونات المقدَّسة ويعلوه صليب. يلبسه الأسقف في الاحتفالات الكنسيَّة، وفي تتميم سائر الأسرار المقدَّسة، ويدلّ على إكليل الشّوك الّذي وُضع على هامة ملك الملائكة؛ ويشير أيضًا إلى العمامة الّتي كان يرتديها هارون ورؤساء الكهنة في العهد القديم حسب أمر موسى (خروج ٣٩: ٣، ٣١). ولبس الأسقف للتّاج يعني أنّه بتحمُّله مهامّ الرّعيَّة، سيصل بنعمة الله إلى إكليل المجد والغلبة.

يقول الشّماس حين يُلبسه التّاج: "تبارك الله الّذي وضع على رأسك تاجًا من حجرٍ كريم. حياةً سألتَه. فأعطاك طول الأيّام" (مزمور٢٠: ٤-٥).

١٢. العصا الرّعائيّة (العكّاز)

عصًا طويلةٌ من المعدن أو الخشب تعلوها حيّتان يتوسّطهما صليبٌ صغيرٌ، وتبدي حقوق الأسقف الرّعائيَّة وسلطته الرّوحيَّة. وتشير إلى عصا هارون الّتي تحوّلت إلى حيَّة وأكلت حيَّة كهنة فرعون (خروج ٧: ٨-١٢). وكذلك إلى الحيّة النّحاسيَّة الّتي رفعها موسى في البريّة (عدد ٢١: ٨-٩).

يدفعها الشّمّاس إلى الأسقف ويقول: "عصا قوّةٍ يرسل لك الرّبّ من صهيون. فتسود فيما بين أعدائك" (مزمور ١٠٩: ٢)، "عصاك وعُكّازك هما يعزّياني" (مزمور٢٢: ٤).

فمن ناحيةٍ يستلهم آلام الرّبّ وارشاده ويتكّل عليه، ومن ناحيةٍ أخرى، هو بعصا الرّبّ يؤدّب ويسوس الكنيسة.

١٣. المنديّة

جلبابٌ واسعٌ وطويلٌ لونه أحمر أو بنفسجيّ، تعلّق جلاجل بطرفيه الأماميَين ويزيّن بأيقونتين على الصّدر وتطريز في الزّاويتين السُّفليَين. يلبسه الأسقف في الاحتفالات على أنّه معلّم الكنيسة، ويلبسه رؤساء الأديرة الكبيرة على أنّهم معلّموا الرّهبان وآباؤهم، وهو في الأصل لباسٌ رهبانيٌّ انتقل إلى المدينة مع الأسقف.

أمّا بالنّسبة إلى الصّلوات الّتي يتلوها الأسقف، الكاهن والشّمّاس أثناء ارتدائهم للحلّة الأسقفيّة، الكهنوتيّة والشّمّاسيّة، فتعود تاريخيّتها إلى القرن الثّالث عشر أو الرّابع عشر الميلاديّ. قبل هذا التّاريخ، كان الشّمّاس، كالكاهن، يلبس حلّته بصمت[٤٢٨].

---

٤٢٨) **Ibid**, p.247.

(٣)

الصّلاة بالإتّجاه نحو الشّرق

منذ أزمنةٍ عريقةٍ في القدم، درجت العادة في صلاة الكنائس الشّرقيّة بأن يجثو [المصلّي] حتّى الأرض متّجهًا نحو الشّرق. والأبنية المقدّسة نفسها كانت تبنى بحيث يكون المذبح متّجهًا نحو الشّرق. يشرح القدّيس يوحنّا الدّمشقيُّ معنى هذا التّقليد بقوله: «ليس هو من الأمور البسيطة ولا هو على سبيل الصّدفة أنّا نتّجه في صلاتنا نحو الشّرق (...). بما أنّ الله نورٌ عقليٌّ (١ يوحنّا ١: ٥)، وأنّ المسيح يُسمّى في الكتب المقدّسة شمسَ العدل (ملاخي ٣: ٢٠)، والمُشرق (زكريّا ٣: ٨، بحسب التّرجمة السّبعينيّة)، وجب تخصيص الشّرق لتأديّة العبادة له (...). يقول الكتاب: "وغرس الرّبُّ الإله جنّةً في عدن **شرقًا** وجعل هناك الإنسان الّذي جبله" (تكوين ٢: ٨) (...). إذن نحن نلتمس وطننا القديم فنتّجه إليه ونسجد للرّبّ. وكان المحضرُ الموسويُّ أيضًا له خباؤه ومغتفره موجَّهَين نحو الشّرق. وقبيلة يهوذا، بما أنّها كانت الأكثرَ كرامةً في القبائل، استوطنت ناحيّة الشّرق (راجع عدد ٢: ٣). وفي هيكل سليمان، كان باب الرّبّ متّجهًا نحو الشّرق (راجع حزقيال ٤٤: ١). والرّبُّ، في عودته إلى السّماء، قد ارتفع نحو المشارق، وهكذا سجد له التّلاميذ، وسيأتي هكذا كما عاينوه منطلقًا إلى السّماء (راجع أعمال ١: ١١)، على حدّ ما قال الرّبّ نفسه: "فإنّه مثلما أنّ البرق ينطلق من المَشرق ويلتمع حتّى المغرب، كذلك يكون مجيءُ ابن البشر" (متّى ٢٤: ٢٧). إذن بانتظار مجيءِ الرّبّ نسجد نحن نحو المشرق.

إنّ هذا تقليدٌ غير مكتوب، جاءَنا من الرّسل"[٤٢٩]. إنّ هذا التّفسير الغنيّ والجذّاب يشرح أيضًا السّبب الّذي لأجله يصلّي المترئّسُ الاحتفال متّجهًا نحو

---

٤٢٩) يوحنّا الدّمشقيّ، ***إيضاح في الإيمان الأرثوذكسيّ***، الكتاب ٤، ص ١١٣٣-١١٣٦.

الشّرق، وكذلك الشّعب الَّذي يشارك في الاحتفال. في هذه الحال، ليس المقصود، كما يتردّد في الغالب، أن يرئس المحتفلُ الصّلاةَ موليًا ظهرَه للشّعب، بل أن يقود الشّعبَ في مسيرته نحو الملكوت الَّذي يتوسَّله بالصّلاة حتّى مجيءِ الرّبّ.

لذا، فأنْ نُصلّيَ متَّجهين نحو الشّرق يرمز إلى شمس العدل العقليّة المنظورة، المسيح إلهنا، الَّذي ظَهَرَ على الأرض في مناطق الشّمس الحسيّة. وكما تبزغ الشّمس في الفجر من الشّرق مُعلنةً بدء النّهار الجديد الممتلئ بإشراقة الأمل والرّجاء، كذلك نستقبل نحن فجر بهاء مجيء المسيح إلهنا من الشّرق، إذ إنّ المسيح هو النّور الحقيقيّ الَّذي أتى إلى العالم ليُنير كلّ إنسان (يوحنّا ١: ٩)؛ وأيضًا: "أنا [المسيح] نور العالم، مَن يتبَعْني لا يَمش في الظّلام، بل يكونُ له نورُ الحياة" (يوحنّا ٨: ١٢).

(٤)

قدس الأقداس

إنّه القسم الأقصى في هيكل أورشليم، الّذي لا يدخله العوامّ. إنّه يرمز إلى قلبنا، الّذي طُردَت منه الأفكار السّيّئة وكلّ نجاسة. إنّه النّفس حيث يسكن الله وحيث يجب وجودُه للعيش معه بدالّة. من هنا يتّضح أنّ قدس الأقداس يعني أسمى درجةٍ من الصّلاة الّتي تفترض انفصال النّفس عن العالم الخارجيّ وانزواءها في قدس ذاتها، ليكوّن المكان الّذي يتمّ فيه اتّحاد النّفس بالله[٤٣٠]. في الكنائس الشّرقيّة، يُقسمُ المكان المقدّس إلى عدّة أمكنةٍ عمليّةٍ يرتبط بعضها ببعض بانتظام. إنّه صورة كنيسة الله، ودعوةٌ مقدّسةٌ إلى المؤمنين الحاجّين نحو أرض الميعاد. كلُّ عضوٍ يحتلُّ فيه مكانًا مميّزًا يتوافق ورسالته. يفصل المقدِسَ عن صحن الكنيسة حواجزُ أو إيقونسطاسات، إذ إنّه المكان الأقدس: هنا يُقام المذبح الّذي عليه يُحتفل باللّيتورجيّا الإلهيّة وتقدَّم الذّبيحة، فيدخله وحدَه مَن أوكلت إليه الخدمةُ المقدّسةُ ليتمّ الشّعائر المقدّسة. وتنظّم تطوافاتٌ وتحرّكاتٌ أخرى العلاقةَ بين صحن الكنيسة والمقدِس فتوجِّه، تدريجيًّا وبطريقةٍ تثقيفيّة، المؤمنين نحو المذبح. هنا يوضع الإنجيل المقدّس على الدّوام؛ ومن هنا يؤخذ باحتفالٍ لخدمة الكلمة، وإلى هنا أيضًا تُنقل القرابين، في بدء الخدمة الإفخارستيّة ذاتها، كي تقدّم للرّبّ. ومن المذبح حيث وُضعت القرابين، تخرج باحتفالٍ من المقدِس كي تعطى للمؤمنين، تعبيرًا عن أنّ الحِجاب الّذي يستر سرّ الله قد أزيح، في الوحي، وبالأخصّ، في التّجسّد وفي سرّ الابن الفصحيّ.

---

٤٣٠) تيودور حلاّق (الأب)، ***اللاّهوت الصّوفيّ حسب القدّيس غريغوريوس النّيصيّ***، ص. ٤٥.

(٥)

الهيكل المقدّس

علّم يسوعُ المرأة السّامريّة أنّه لا في أورشليم ولا في جبل جيرازيم سوف تقدّم عبادةٌ للّه، بل أنّه يجب أن يُعبد اللّه بالرّوح والحقّ (راجع يوحنّا ٤: ٢١-٢٤). فَقَدَ الهيكل قيمته كمركزٍ للعبادة، لأنّ حجابه، عند موت المسيح، قد انشقّ من فوق إلى أسفل (راجع متّى ٢٧: ٥١). والهيكل، بصفته صورةً وإعلانًا للأيّام المستقبلة، يبلغ ملءَ معناه في العهد الجديد (راجع متّى ٥: ١٧). فالكنيسة هي الهيكلُ الجديدُ المبنيُّ بحجارةٍ حيّة: إنّ المسيح، في الواقع، قد هدم الحائطَ الحاجزَ الّذي كان يقسم البشر، وابتنى منهم منـزلاً للّه بالرّوح (راجع أفسس ٢: ١٤-٢٢). في أورشليم السّماويّة، لن يكون هناك هيكلٌ، بل سيكون فيها "عرش اللّه والحمَل" (راجع رؤيا ٢٢: ٣)؛ فالرّبُّ الإله الكلّيُّ القدرة والحمَل سيكونان هما الهيكل (راجع رؤيا ٢١: ٢٢).

البناءُ المقدّس، في زمن الكنيسة هذا، هو علامةٌ ترشدنا إلى الطّريق الّذي يقود إلى مَن هو سيّدُ المخلوقات السّماويّة والأرضيّة، ربُّ السّيرافيم، ملكُ إسرائيل، القدّوسُ وحدَه الّذي جاء وسكن في ما بيننا كي يقودنا إلى الملكوت، "موطِننا في السّماوات" (فيلبّي ٣: ٢٠). الكنيسةُ الماديّةُ هي علامةُ المذبح السّماويّ والمقدِس حيثُ دخل المسيح، لا إلى مقدِسٍ من صُنع يد بشر، صورةٍ للهيكل الحقيقيّ، "بل إلى السماءِ بعينها ليظهر الآن، أمام وجه اللّه، لأجلنا" (عبرانيّين ٩: ٢٤). فالمقدِس يقودنا إذًا داخل عالمٍ مختلف، إلى حضرة اللّه. تلك العلاقة بين العالمَين، الأرضيّ والسّماويّ، غالبًا ما تؤكّدها اللّيتورجيّات المسيحيّة كلّها. مثالاً على ذلك، هناك عبارةٌ إفخارستيّةٌ بيزنطيّةٌ واسعةُ الانتشار تطلب "إلى اللّه الرّحيم أن يتقبّل تقادمنا، رائحة طيبٍ روحيّ، على مذبحه المقدّس السّماويّ العقليّ". إن في ذلك لبعدًا مقدّسًا يختلف عن الواقع

البشريّ البسيط؛ يُدخلنا إليه السّرُّ اللّيتورجيُّ الّذي به تستعيد البشريّة وشاحَ المجد الإلهيّ الّذي كانت تتّشحُ به قبل سقطة الخطيئة.

إنّ العلاقة الأساسيّة القائمة في الكنائس الشّرقيّة بين صحن الكنيسة والمقدِس ترمز إلى واقعنا الحاضر الّذي فيه نرى كما في مرآةٍ، في إبهامٍ (راجع ١ كورنثس ١٣: ١٢)، بما أنّ الكنيسة جمعاء لا تزال في الطّريق نحو رؤية ربّها الممجَّدة. بهذه الطّريقة تتبدَّل الحياةُ الحاضرةُ وتتوافقُ وصورةَ الرّبّ "من مجدٍ إلى مجدٍ" (٢ كورنثس ٣: ١٨)، بعيدًا عن المهامّ الدّنيويّة، نحو الحياة المستقبلة حيثُ نرى الله "وجهًا إلى وجه" (١ كورنثس ١٣: ١٢). وعليه، فإنّ الهيكل هو موئل غيمة الحضرة الإلهيّة، ومكان مجد الله الّذي سبق أن ملأ قدس الأقداس في هيكل أورشليم. كلُّ مَن في الهيكل عليه أن يحافظ على الصّمت الوقور والمهابة الخشوعة، ذلك لأنّ الهيكل كمكانٍ يُشير إلى حضور الله الخاصّ في وَسَط كنيسته وجماعته. ينبغي ألاّ تتحوّل هذه الفسحة المقدّسة إلى مخزنٍ للأواني الكنسيّة أو إلى مكتبة أو سكرستيّا أو أيّ شيءٍ آخر. إنّ الهيكل يُمثّل إذًا السّماء على الأرض، بحيث أنّ اجتماع الكنيسة يُحقّق ذلك. هذا الهيكل هو الرّمز الّذي يجمع هاتين الحقيقتَين وهذين البُعدَين للكنيسة، أي "السّماء" و"الأرض" بإعلان الواحدة في الأخرى، وبأن تتحوّل الواحدة إلى الأخرى[٤٣١].

تجد هذه الفكرة جذورها في العهد القديم، حين أعلن الرّبّ عن سُكناه في بيته وحلول مجده فيه عند بدء طقس التّدشين (راجع ١ملوك ٨) ليكشف عن حبّه الفائق. إنّه يُبادر بالحبّ، ويشتاق أن يسكب مجده على مؤمنيه. أمّا المؤمنون فيلزمهم أن يتجاوبوا مع حبّه بالحبّ، وذلك بتذكُّرهم لوعوده الإلهيّة، ودخولهم في حوار حبٍّ معه، واتّساع قلبهم لإخوتهم، وثقتهم في التّمتّع بروح النُّصرة والغلبة، وحفظهم للوصيّة الإلهيّة بفرح، وتقديم ذبائح الحبّ المقبولة لديه مع ممارستهم للحياة المفرحة كظلٍّ للحياة السّماويّة. هذا باختصار ما ندعوه بتدشين بيت الرّبّ. إنّه مزيج الحبّ المتبادل بين الله والجنس البشريّ، مع صلواتٍ وتسابيح، وطاعةٍ وعطاء، وفرح لا ينقطع!

---

٤٣١) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ٦٦-٦٧.

فإنْ كانت الكنيسة تمارس طقسًا خاصًّا بالتّدشين، فإنّ تدشين الكنيسة بالصّلوات والتّسابيح هو نقطة بدايةٍ لا نهاية. يبقى الكهنة مع الشّعب يمارسون الحبّ مع الصّلاة والفرح بروح الطّاعة، فيختبرون **التّدشين كعمل الرّوح القدس الدّائم في حياة كنيسته.** بيت الرّبّ ليس مكانًا مجرّدًا لممارسة العبادة فحسب، بل هو لقاءٌ حيٌّ مع الله المحبّ البشر، فيه يتمتّع المؤمنون بالحبّ المتبادل مع الله ومع إخوتهم، ويشاركون السّماويّين فرحهم المستمرّ. عند تدشين خيمة الاجتماع ملأ مجد الرّبّ القُدس، ولم يستطع موسى أن يدخل (خروج ٤٠: ٣٤-٣٥)، وقد تكرّر الأمر عند تدشين الهيكل، ويتكرّر أيضًا في كلّ مرّةٍ تُدشّن الكنيسة فيها هيكلاً لله، علامةً على حضوره في وسط شعبه، وحضور مجده الّذي يُظلّلهم بمخافة الله وقداسته.

وهكذا نُدرك أنّ الهيكل المقدّس هو المرفأ الرّوحيّ الأمين للنّفوس المتعطّشة والجائعة إلى الله، حيث يسود فيه سلام الله الّذي يفوق كلّ سلام؛ إنّه فردوس حضور المسيح الّذي يُدخلنا من خلاله إلى أسراره الإلهيّة المقدّسة. فعندما ندخل إلى الهيكل، ندخل إلى البلاط السّماويّ، ونمشي على أرضٍ تُشرق نورًا. فحينما يدخل أحدٌ ما إلى قصر الملك الأرضيّ، ينتبه إلى مسيرته، إلى نظراته وإلى تصرّفه كلّه، فكيف يمكن له عندما يدخل إلى قصر الملك السّماويّ أن يضحك وأن يستهزئ؟ علينا، أثناء دخولنا إلى الهيكل، أن نكون أجواقًا ملائكيّةً، أن نجعل الكنيسة سماءً وألاّ نعرف إلاّ الصّلوات، والإصغاء إلى كلمة الله، والتّكلُّم معه، كي يتحوّل المؤمنون إلى هيكل الله الحيّ، إذ إنّ الصّلاة تجعل من المؤمنين هياكل للمسيح، ذاك الّذي لا تحويه السّماوات، يدخل إلى نفس الّذي يعيش وسط الصّلاة! إنّ الهيكل، إذًا، هو المكان المقدّس، حيث يعيش كلّ مؤمنٍ حضور الله؛ إنّه قطعةٌ من السّماء على الأرض، لذلك هو موجّهٌ نحو الشّرق، لكي نتطلّع إلى الملكوت، حيث يسير المؤمنون دائمًا إلى فوق، إلى أورشليم السّماويّة.

(٦)

المائدة المقدّسة

تتألّف المائدة المقدّسة من لوحةٍ رُخاميّةٍ ترتكز على صخرةٍ مكعّبةٍ ترمز إلى السّيِّد المسيح، وعلى عواميد أربعة ترمز إلى الإنجيليّين الأربعة[٤٣٢].

تُدشَّن المائدة المقدّسة بنضحها بالماء المقدّس، والميرون المقدّس، وبوضع ذخائر القدّيسين في المائدة خلال تدشينها من قِبَل رئيس الكهنة، ذلك أنّ كنيستنا تعتبر أنّ الشّهيد هو المذبح الحقيقيّ للمسيح، استنادًا إلى ما جاء في رؤيا القدّيس يوحنّا الحبيب: "ولمّا فتح الحمل الختم الخامس، رأيتُ تحت المذبح، نفوس المقتولين من أجل كلمة الله، ومن أجل الشّهادة الّتي أدّوها" (٦: ٩). وإكرام ذخائر القدّيسين عند المسيحيّين عادةٌ قديمةٌ تعود إلى الأزمنة المسيحيّة الأولى، وهو تقليدٌ مستمرٌّ في كنيستنا. ودليلنا من التّقليد هو الشّهيد بوليكاربوس أسقف إزمير وتلميذ الرّسول يوحنّا الانجيليّ (رقد بالرّبّ حوالي ١٥٦-١٥٧م). إنّ بقاياه توصف بأنّها "أغلى من الحجارة الكريمة وأثمن من الذّهب"، بحيث كان المؤمنون يقيمون القدّاس الإلهيّ على بقاياه هذه.

إنّها المكان حيث وُضِعَ المسيح في دفنه، وهي، في الوقت عينه، مكان إعلان القيامة. يُعرَض عليها الخبزُ الحقيقيّ والسّماويّ، الذّبيحة السّرّيّة وغير الدّمويّة. وعليها يُتِمّ المسيح ذبيحة جسده ودمه ويقدّمهما غذاءً للمؤمنين لحياتهم الأبديّة. إلى هذه المائدة جلس المسيح في عشائه السّرّيّ الأخير وسط تلاميذه في عليّة صهيون، مؤسِّسًا في تلك اللّيلة المقدّسة، سرّ الإفخارستيّا (راجع متّى ٢٦: ٢٦-٢٨) الّذي فيه يُقدِّم لنا ذاته ذبيحةً وكفّارةً من أجل حياة العالم.

---

٤٣٢) المطران ناوفيطوس إدلبي، ***كتاب الصّلاة***، ص.٣٢.

لقد سَبَقَ تمثيل هذه المائدة بمائدة العهد القديم (خروج ١٦: ١-٣٦)، الّتي عليها المَنّ (هو الخبز الّذي أعطاه الرّبّ مأكلاً لبني إسرائيل في البريّة)، الّذي هو المسيح الخبزُ الحيُّ النّازلُ من السّماء. فحضور المسيح على المائدة إذن هو حضورٌ حقيقيٌّ منظور، لأنّ ما نراه بعد الاستحالة (حلول الرّوح القدس على القرابين)، ليس خبزًا ولا خمرًا، بل يسوع نفسه، الّذي قدّم نفسه ذبيحةً على الصّليب.

(٧)

المذبح المقدّس

١) مفهوم المذبح ولاهوته

"المذبح هو في جميع الدّيانات مركز العبادات المتعلّقة بالأضاحي (راجع خروج ٢٤: ٦-٨؛ ١ كورنثس ١٠: ١٨). وهو علامة الحضور الإلهيّ"[٤٣٣]. إنّه يعني مكانًا مرتفعًا تُقدَّم عليه الذّبيحة، وقد وردت في العهد القديم أكثر من أربعمائة إشارةٍ إلى المذابح، كانت أوّلها عند خروج نوح من الفُلك بعد الطُّوفان: "وبنى نوحٌ **مذبحًا للرّبّ** وأخذ من جميع البهائم الطّاهرة ومن جميع الطّيور الطّاهرة **فأصعد مُحرقاتٍ على المذبح**" (تكوين ٨: ٢٠). وكان القصد من بناء المذابح الاستغاثة بالله أو تقديم الشكر له أو طلب مراحمه. وكانوا يؤثرون لذلك الأماكن المرتفعة دعمًا لفكرة الاقتراب من الله. وكانت المذابح تُبنى تذكارًا للحوادث العظيمة مثل انهزام العماليق: "وبنى موسى مذبحًا وسمّاه الرّبُّ رايَتي" (خروج ١٧: ١٥) وقطع العهد بين الله وإسرائيل: "فكتب موسى جميع كلام الرّبّ، وبكّر في الصّباح وبنى مذبحًا في أسفل الجبل... وأرسل شُبّان بني إسرائيل فأصعدوا مُحرقاتٍ وذبحوا ذبائح سلاميّةً من العجول للرّبّ..." (خروج ٢٤: ٤-٨). إنّ التّقدمة الّتي تُقام على المذبح تُمثِّل محلّة الجلجلة حيث صُلِبَ المسيح. وقد سبق رَسْمَ الجلجلة بإبراهيم عندما أمره الله أن يبنيَ مذبحًا من حجر على أحد الجبال الّذي يُريه إيّاه ويجمع حطبًا ويضع عليه وحيده اسحق ليُصعده مُحرقةً لله... وعندما رأى الله إيمان إبراهيم بأنّه لم يمنع عن الله ابنه الوحيد، قدّم كبشًا عِوَضًا عن ابنه ذبيحةً ومُحرقةً كاملة (راجع تكوين ٢٢: ١-١٩). حينئذٍ، رَضِيَ الله الآب الّذي لا بدء له أن يتجسّد ابنه الأبديّ في آخر الأزمان من

---

٤٣٣) *معجم اللاهوت الكتابيّ*، ص. ٧٢١.

العذراء الكليّة الطُّهر (راجع غلاطية ٤: ٤-٧) المتحدّرة من نسل ابراهيم، على حسب الوعد الَّذي قطعه له. وكإنسانٍ [المسيح] تألّم بجسده وبَقِيَ دون تألُّمٍ بلاهوته. من هنا يرمز المذبح إلى **قبر المسيح المقدّس**. عليه يُقدِّم المسيح ذاته بتقدمة جسده كحملٍ ذبيحٍ وككاهنٍ أعظم وكابنٍ للإنسان، إذ إنّه "المقرِّب والمقرَّب"، لأنّه الحمل الحقيقيّ الَّذي يحمل خطيئة العالم بصليبه: "فقد ذُبحَ حملُ فصحنا، وهو المسيح" (١كورنثس ٥: ٧؛ راجع أيضًا خروج ١٢: ١-١٤). ويصحّ هذا بمقدار ما يرمز المذبح إلى المسيح نفسه، الحاضر وسط جماعة المؤمنين بصفته، في آنٍ واحد، الضّحيّة المقرّبة لمصالحتنا مع الله، وخبزًا سماويًّا يُقدَّم لنا. يقول القدّيس أمبروسيوس: "**ما هو مذبح المسيح إلاّ صورة جسد المسيح؟**"[٤٣٤].

أستشهد بما قاله الأب ألكسندر شميمن عن المذبح وهو تلخيصٌ لِما قيل مُسبَقًا: "إنّ المذبح هو رمزٌ للمسيح وملكوته. إنّه المائدة الَّتي يجمعنا المسيح حولها، وهو مذبح التّقدمة الَّذي يجمع الكاهن الأوّل والضّحيّة. إنّه عرش الملك والرّبّ. إنّه السّماء والملكوت حيث "الله هو الكلّ في الكلّ""[٤٣٥]. بكلماتٍ أخرى، إنّ **المذبح المقدّس هو ينبوعٌ يَفيض موهبة المحبّة الإلهيّة.**

٢) قبّة المذبح

يُقال لها باليونانيّة "كيبوريوم - Κιβώριον" وتعني "قُبّة بهاء الله ونوره". إنّها قُبّةٌ مبنيّةٌ على أربعة أعمدة تُقام فوق المذبح في الكنائس الكبرى. إنّه يمثِّل المكان الَّذي فيه صُلِبَ المسيح. ولقد وُضِعَت [القُبّة] في الكنيسة لتُمثّل بشكلٍ مُسهَب الصّلبَ والوضع في القبر وقيامة المسيح. وتُقابل أيضًا **مائدةَ عهد الرّبّ** الَّتي قيل عنها إنّها قدس الأقداس ومسكن الله المقدّس، حيث أمر الله بأن يوضع كروبان من كلّ ناحية (راجع خروج ٢٥: ١٨).

٣) غطاء المذبح

وهو من الكتّان الصّافي، ذاك الَّذي وُضِعَ فيه جسدُ يسوع عندما أُنزل عن الصّليب ووُضِعَ في قبرٍ[٤٣٦].

---

٤٣٤) ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، عدد ١٣٨٣، ص. ٤١٩.

٤٣٥) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا سرّ الملكوت***، ص. ٨٨-٨٩.

٤٣٦) أفثيميوس سكاف (الأب)، ***مدخل إلى الهستوريّة الكنسيّة...***، ص. ٨٤.

(٨)

العرش الأسقفيّ

إنّه عرشٌ موجودٌ في الجزءِ الأيمن من الكنيسة. كان العرش قديمًا كرسيّ الإمبراطور حيث يوضع داخل الهيكل مع كراسي الكهنة. لكن، بعهدالإمبراطور ثيوذوسيوس الكبير (٣٧٩-٣٩٥م) قام القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلانو (٣٣٩-٣٩٧م) بإخراج العرش من الهيكل قائلاً له: "أيّها الملك، إنّ الكهنة يدخلون الهيكل فقط، أمّا الآخرون، فلا يستطيعون الدّخول أو الجلوس. مكانك الصّحيح مع المؤمنين إذ إنّ لِبْسك للمنديّة لا يجعلك كاهنًا".

وهكذا، تمّ إخراج العرش من الهيكل إلى الجانب الأيمن من الكنيسة. وبالمقابل في الجهة الشّماليّة، كان هناك عرش البطريرك. إلاّ أنّه وبعد سقوط القسطنطينيّة، عاصمة الشّرق المسيحيّ، إنتقل البطريرك إلى العرش اليمين "الإمبراطوريّ"، بالإضافة إلى اعتباره حاميًا للإرث البيزنطيّ للقسطنطينيّة، حافظ أيضًا على بعض الرّموز الّتي كانت تخصّ الإمبراطور كالعكّاز والصّاكوس... فاعتُبر البطريرك القسطنطينيّ البيزنطيّ امتدادًا لهذه الحِقبة التّاريخيّة الهامّة في تاريخ الكنيسة البيزنطيّة أيضًا.

(٩)

الأمبون (المنبر)

يأخذ الأمبون في التّقليد الشّرقيّ أشكالاً عديدةً لها تعبيرٌ متشابهٌ نوعًا ما. ففي التّقليد المسيحيّ اليونانيّ، كان بناءً يُعلَن منه الإنجيل أو تُلقى العظة، أو يعتليه المرنّمون لأداء الأناشيد الكنسيّة. في تقليد الكنائس السّريانيّة يوازي الأمبون **البيما**، وهو مصطبةٌ تُبنى وسط الكنيسة تحتوي على مقاعدَ للأسقف والكهنة، وعلى مذبح صغير مع الصّليب، وعلى كتاب الإنجيل وشمعتين، وتدعى "الجلجلة". هنا يتلو الشّمّاس الإنجيليّ الإنجيل، وهنا تُلقى العظة.

وكما تدلّ على ذلك العبارتان ("أمبون" يذكّر بالارتفاع، و"الجلجلة" بموت الرّبّ ودفنه)، تذكّر رمزيّة الأمبون أيضًا بقبر الرّبّ الفارغ، حيث قام من بين الأموات، والباقي "علامة" حيث "ملاك القيامة"، الشّمّاس الإنجيليّ، يُعلن إنجيل القيامة على الدّوام.

يُمثّل المنبر (باليونانيّة Ἄμβων – أمبون وتعني المكان المُرتفع) إذًا الحجرَ الّذي كان قائمًا على القبر المقدّس والّذي جلس عليه الملاك بعد أن أزاله من مدخله، عندما أعلن قيامة السّيّد للنّسوة حاملات الطّيب[٤٣٧] (راجع متّى ٢٨: ٢-٧).

---

٤٣٧) أفثيميوس سكاف (الأب)، ***مدخل إلى الهيستوريّة الكنسيّة...***، ص. ٧٤.

(١٠)

المبخرة والبخور

١) المبخرة

ترمز المبخرة إلى الطّبيعة الإنسانيّة في المسيح، والفحم المحترق إلى طبيعته الإلهيّة، بينما ترمز سُحُب الدّخان الممتلئة برائحة البخور العَطِرَة والطّيِّبة إلى عبق نفس الرّوح القدس. تتألّف المبخرة من أقسامٍ عدّة هي:

١. الأجراس

تحتوي المبخرة على اثني عشر جرسًا يُمثّلون تلاميذ الرّبّ الاثني عشر. إلاّ أنّ واحدًا من هذه الأجراس "أخرس" لا يُعطي صوتًا وهو يُشير إلى التّلميذ الخائن يهوذا الإسخريوطيّ.

٢. قبّة المبخرة

ترمز إلى الكنيسة المقدّسة الّتي احتضنت سرّ الخلاص الإلهيّ منذ العنصرة حتّى يومنا هذا. إنّها المكان الّذي يُعبِّر عن حضور الرّبّ في هذا العالم، لأنّها بابُ السّماء وبيت الله، إنّها الفردوس على الأرض.

٣. جرن المبخرة (القاعدة الّتي تحوي الجمر والبخور)

إنّ هذا الجرن الّذي يحتوي الجمرة يدلّ بطريقةٍ رمزيّةٍ بديعةٍ على أحشاء العذراء القدّيسة والدة الله، الّتي حملت الجمرة الإلهيّة، المسيح الّذي فيه "يحلّ جميع كمال الألوهيّة حُلولاً جسديًّا" (كولسّي ٢: ٩)، إذ إنّ المبخرة "تُمثّل ناسوت المسيح ونار لاهوته"[٤٣٨].

---

٤٣٨) المرجع نفسه، ص. ٤٤.

كما ويُشير أيضًا إلى جرن المعموديّة الّذي يجمع إلى حرارة جمر اللاهوت عذوبة عمل الرّوح القدس الّذي يَتمّ بالحصول على نعمة التّبنّي بالإيمان وبها إشاعة الرّوح الطّيّبة.

٢) البخور في العهدَين القديم والجديد

إنّ استعمال البخور في العبادة هو وصيّةٌ إلهيّة. ففي العهد القديم، أمر اللّه موسى بأن يصنع مذبحًا خاصًّا في خيمة الاجتماع يُسمّى "مذبح البخور" حيث أمر الرّبّ الإله بني إسرائيل بتقديم البخور عليه دائمًا (خروج ٣٠: ١-١٠، ٣٤-٣٨). نرى في النّصّ الثّاني من سفر الخروج (٣٠: ٣٤-٣٨) أنّ البخور يتكوّن من أربعة أصنافٍ عطريةٍ هي: المَيعَة (وتشبه المر السائل)، والأظفار (وهي مادة صلبة تطحن، وتصدر منها رائحةً طيّبة) والقِنَّة (وهي دهن له رائحة نفاذة، وتستعمل لتثبيت العطور وحفظ رائحتها)، واللُّبان النّقي (ويستعمل في صناعة بعض الأدوية). وكانت هذه المواد تؤخذ بمقاديرَ متساوية. وبعد سحقها جيّدًا تملّح بملح لصيانتها من الفساد، ثم تركّب معًا في تناسقٍ تام، وإزاء ذلك نقول:

إنّ المَيعَة رمزٌ إلى محبّة المسيح الّتي كانت تتقاطر منه أينما سار، والأظفار رمزٌ إلى صلابته ضدّ كلّ انحرافٍ عن الحقّ، والقِنّة رمزٌ إلى بقاء صفاته كما هي بكامل فعاليّتها في كلّ الظّروف والأحوال، واللُّبان رمزٌ إلى قدرته على علاج النّفوس وشفائها من عِلَلها. وكما أنّ رائحة البخور من شأنها أن تتصاعد إلى العلاء وتفيح في كلّ الأرجاء، هكذا فإنّ حياة المسيح الّتي عاشها على الأرض قد أنعشت (إن جاز التّعبير) قلب اللّه في السماء، وأنعشت وتُنعش قلوب قدّيسيه في كلّ الأنحاء. ومن ثم كان هذا البخور يعتبر "قدس أقداس"، أي لا يجوز لإنسانٍ أن يصنع مثله، وكان ذلك إشارةً إلى أنّ المسيح لا مثيل له في كماله على الإطلاق. والمؤمنون الحقيقيّون في العهد الجديد، بوصفهم كهنةً للّه، ليس لديهم بخور (أو تعبُّد) يرفعونه إليه، أسمى من أن يظهروا اعتزازهم القلبيّ بكمالات المسيح، وأن يرفعوا أمامه شكرهم العميق لأجل بركاته الغنية. كما أنّ اللّه في مجده، ليس هناك أشهى وأجمل لديه من أن يراهم يعتزون بابن محبّته، ويقدّرون بركاته حقّ التقدير بكلّ قلوبهم.

وبمناسبة أهميّة البخور في العهد القديم نقول: إنّنا إذا رجعنا إلى حادثة القضاء على قورح ورفقائه، الّذين أرادوا أن يقيموا أنفسهم كهنةً بدون أمر الله، نرى هرون يأخذ المجمرة ويضع فيها بخورًا مع نارٍ من المذبح، ويذهب بها مسرعًا إلى الشعب ليكفّر عنهم (عدد ١٧: ١١) وهناك وَقَفَ ببخوره بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء (عدد ١٧: ١٣)- وكان ذلك رمزًا إلى ربّنا يسوع المسيح الّذي على أساس رائحته الذكيّة المنبعثة من كمالاته، يشفع في شعبه كرئيس الكهنة جالبًا إليهم رضى الله وعطفه في كلّ حين. والبخور، كما يرمز إلى المسيح، يرمز أيضًا إلى الصّلاة. فقد جاء في سفر الرؤيا عن الشيوخ: "... ولهم جامات من ذهب مملوءة بخورًا هي صلوات القديسين" (رؤيا ٥: ٨). وقد عرف هذه الحقيقة كاتب المزامير فقال للّه "لتكن صلاتي بخورًا أمامك" (مزمور ١٤٠: ٢).

وهناك علاقات وثيقة بين مذبح المحرقة ومذبح البخور: * كان هرون يقدّم على المذبح الأول كلّ صباحٍ ومساءٍ المحرقة الدّائمة، ثم يدخل توًّا إلى القدس لكي يوقد البخور على المذبح الثّاني؛ * إنّ الدّم الّذي كان يسفك على المذبح الأوّل، كان يؤخذ بعضه إلى الثّاني، وذلك للدّلالة على أنّ الفداء الّذي تمّ على الصّليب هو أساس العبادة الّتي يليق تقديمها للّه؛ * إنّ النّار الّتي كان يوقد عليها البخور عند المذبح الثّاني، كانت تؤخذ من النّار الّتي على المذبح الأوّل، الأمر الّذي يدلّ على أنّ رائحة عمل المسيح الكفّاريّ على الصّليب، هي الرّائحة الذّكيّة الوحيدة الّتي يُسَرُّ الله أن يتقبّلها في حضرته.

أخيرًا نقول إنّ الوحي كان يحذر كهنة العهد القديم أولاً من استعمال بخورٍ غريب، وكان ذلك إشارة إلى أنّه لا شيء سوى رائحة المسيح الذكيّة يمكن أن يقبلها الله في عبادتنا؛ وثانيًا من تقديم ذبيحةٍ أو تقدمةٍ أو سكيبٍ على مذبح البخور، لأنّ في هذا خلطًا بينه وبين مذبح المحرقة، وهذا الخلط هو ما يقع فيه مَن يجتمعون للعبادة في الوقت الحاضر وهم غير متأكّدين من أمر خلاصهم. ولذلك عوضًا عن أن يتأمّلوا في المسيح ويقدّموا الحمد والشكر للّه، لأجل ما نالوه من عطاياه، ينشغلون بأنفسهم فيتوّسلون إليه لأجل خلاصها؛ وثالثًا من تقديم نارٍ غريبة، لأنّ النّار الوحيدة الّتي كانت تستعمل في البخور، هي

المأخوذة من مذبح المحرقة، أو بالحري من عند الرب (أحبار ٩: ٢٤) وكان ذلك إشارةً إلى أنّ العبادة يجب أن تكون نابعةً من المسيح في كمال عمله الكفاريّ، وليس من عواطفَ بشريّةٍ أيًّا كان نوعها.

نجد أنّ استخدام البخور في الهيكل ساد كلّ أزمنة العهد القديم حتّى زكريّا الكاهن والد يوحنّا المعمدان الّذي جاءه ملاك الربّ مُبشّرًا إيّاه بمولد المعمدان وهو في الهيكل يقوم بخدمته الكهنوتيّة: "وبينما زكريّا يقوم بالخدمة الكهنوتيّة أمام الله في دور فرقته، أُلقِيَت القرعة جَريًا على سُنّة الكهنوت، فأصابته ليدخل مقدس الربّ ويُحرق البخور. وكانت جماعة الشّعب كلُّها تُصلّي في خارجه عند إحراق البخور. فتراءى له ملاك الربّ قائمًا عن يمين مذبح البخور" (لوقا ١: ٨-١١). وعند ميلاد الربّ يسوع، قدّم المجوس هداياهم الّتي كان منها اللُبان (أي البخور) الّذي كان إشارةً إلى كهنوته وألوهيّته (متّى ٢: ١١)، وهذا علامة على امتداد تقديم البخور في كنيسة العهد الجديد.

يُشير في الكنيسة إلى رائحة المسيح الطّيّبة: "فإنّنا عند الله رائحةُ المسيح الطّيّبة بين الّذين يسلكون طريق الخلاص وطريق الهلاك: لهؤلاء رائحةٌ تسيرُ بهم من موتٍ إلى موت، ولأولئك رائحةٌ تسير بهم من حياةٍ إلى حياة" (٢ كورنثس ٢: ١٥-١٦). وفي الوقت نفسه، تُشير رائحة البخور أيضًا إلى الرّوح القدس الّذي يُظلّل المؤمنين. وتأتي صلاة الكنيسة المقدّسة أثناء تقدمة البخور قبل بدء اللّيتورجيّا الإلهيّة لتؤكّد هذين الأمرَين: "أيّها المسيح إلهنا، نُقدّم لكَ البخور رائحة طيبٍ روحيّ، فاقبله على مذبحك السّماويّ، وأسبغ علينا عِوَضًا منه نعمة روحك القدّوس".

وعليه نقول إنّ "الجمر والبخور المتحوّل إلى رائحةٍ ودُخانٍ يرتفع إلى السّماء، كلّها أمور "تُعبّر" عن عبادة الخليقة للخالق وقداسته الحاضرتَين بين البشر"[٤٣٩]. وحينما يُبخّر الكاهن أمام إيقونات القدّيسين، فهو يُعبّر باسم جماعة المؤمنين كلّها عن أشياءَ كثيرةٍ منها:

---

٤٣٩) ألكسندر شميمن (الأب)، ***الإفخارستيّا، سرّ الملكوت***، ص ١١٠.

- كيف صارت صلاتهم مقبولة أمام الرّبّ كرائحة البخور العَطِر.
- شركة الصّلاة بين الكنيستَين المجاهدة والظّافرة: "وتصاعد من يد الملاك دخان العطور مع صلوات القدّيسين أمام الله" (رؤيا ٨: ٤).
- توسُّل أن يذكرونا ويرفعوا صلواتنا أمام الجالس على العرش في السّماء.
- الطواف بالبخور حول المذبح وتقديمه للإيقونات وأجساد القدّيسين والشّعب، هنا نجمع صلوات الجميع كصوتٍ واحدٍ يحمله البخور المقدّس وترفعه الملائكة المنوطة بالخدمة مع صلوات وتشفّعات العذراء مريم.
- حينما يشمّ الشّعب رائحة البخور يذكر أنّه يجب أن تكون له فضائل، وأن يقدّم نفسه ذبيحة حتّى يكون رائحة طيِّبة أمام الله.

(١١)

المراوح

توضع المراوح على الهيكل وهي تُشير إلى اشتراك الملائكة في الذّبيحة الإلهيّة. وفي وسط المراوح وجه ملاكٍ من الفضة محاطٌ بستة أجنحة. تُستَعمل هذه المراوح في دورة القرابين، إذ إنّ النّشيد الشّيروبيميّ ("أيّها الممثّلون الشّيروبيم") يمثّل دخول جميع القدّيسين والأبرار أمام القوّات الشّيروبيميّة وجنود الملائكة، وهي تتقدّم بشكلٍ غير منظور الملكَ العظيم المسيح المنطلق إلى ذبيحته السِّرّيّة، تنقله أيادٍ ماديّة، هي أيادي الكهنة، خدّام الهيكل.

لذلك نُنشد في نشيد الدّورة الكبرى في رتبة الأقداس السّابق تقديسها: "الآن قوّات السّماوات تخدم معنا على حالٍ غير منظور. فهوذا ملك المجد مُقبل. هذه ذبيحةٌ سرّيّةٌ مكمَّلة تمرّ في موكبها. فلنتقدّم بإيمانٍ وشوق، لنصير شركاء في الحياة الأبديّة".

(١٢)

بركة الشّموع في القدّاس الحَبريّ

١) صلاة بركة الشّموع

عندما يحتفل البطريرك أو الأسقف بالذبيحة الإلهيّة، تتمّ أثناء ترنيم الخورس للنّشيد المثلّث التّقديس "قدّوسٌ الله..." (أو أنتم الّذين... أو لصليبك...) بركة الشّموع بالتريكيري والذيكيري، إذ يقف رئيس الكهنة في وسَط الباب المقدّس متَّجهًا نحو الشّعب، ويقف عن يمينه ويساره كاهنان من أصحاب الرّتب الكنسيّة، مُسندَين ذراعَيه والشّمعدائَين، ويقول مباركًا الشّعب من الباب المقدّس:

يا ربّ، يا ربّ، إطّلع من السّماء وانظُر، وتعهّد هذه الكرمة (أي الكنيسة المقدّسة) **وأنمِها، لأنّ يمينك قد غَرَسَتْها**

إنّ هذا النّشيد الأسقفيّ الّذي يُتلى في ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ الحَبريّ في كنيستنا يُقسَم إلى قسمَين: الأوّل: "يا ربّ، يا ربّ، إطّلع من السّماء وانظُر"، وهو مأخوذٌ من كتابات العهد القديم وبخاصّةٍ سفر أشعيا النّبيّ الّذي قال: "تطلّع [الرّبّ] **من السّماء وانظُر من سُكنى قُدسك ومجدك" (٦٣: ١٥)؛ بينما الثّاني: "وتعهّد هذه الكرمة وأنمِها، لأنّ يمينك قد غَرَسَتْها"، فهو مأخوذٌ من كتابات العهد الجديد وبخاصّةٍ الإنجيل اليوحنّاويّ، حيث جاء على لسان الرّبّ يسوع نفسه: "أنا الكرمة الحقيقيّة وأبي الكرّام... أنا الكرمة وأنتم الأغصان. فمَن ثَبَتَ فيّ وثبتُّ فيه، فذاك الّذي يُثمِرُ ثمرًا كثيرًا، لأنّكم، بمعزلٍ عنّي، لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا" (١٥: ١، ٥). إبتداءً من هذا الإصحاح يتكلّم المسيح وحده والتّلاميذ يسمعون. الكرمة الحقيقيّة هذه هي في مقابل الكرمة الّتي لم تثبت وهي إسرائيل (راجع مزمور ٧٩: ٨-١٣؛ أشعيا ٥: ١-٧)، أي أنّ الكنيسة هي إسرائيل الجديد. والكرمة هي تعبيرٌ عن الكنيسة جسد المسيح: "في ذلك**

اليوم غنُّوا لها، للكرمة اللَّذيذة. أنا الرّبّ حارسُها في كلّ لحظةٍ أسقيها، ولئلاّ يُساء إليها أحرسُها ليلاً ونهارًا" (أشعيا ٢٧: ٢-٣). بينما تُشير صفة "الحقيقيّة" إلى كونها لا تفسد ولا تزول.

٢) **الشّمعدانان: المثلّث (التريكيري) و المثنّى (الذيكيري)**

- "**تريكيري**" كلمةٌ يونانيّةٌ تعني "**المثلّث**" لوجود ثلاث شمعات على الشّمعدان، وهي ترمز في اللّاهوت اللّيتورجيّ إلى **الثّالوث القدّوس**، الآب والابن والرّوح القدس، أي إلى وحدانية الله المثلّث الأقانيم.
- "**ذيكيري**" هي أيضًا كلمةٌ يونانيّةٌ تعني "**المثنّى**" لوجود شمعتين على الشّمعدان، وهي ترمز إلى **طبيعتَي المسيح الإلهيّة والإنسانيّة**.

إنّ استخدام الشّموع في الكنيسة يأتي انطلاقًا من كلام السَّيّد المسيح في الإنجيل المقدّس: "أنتم نور العالم... هكذا فليُضئ نوركم قدّام النّاس، ليرَوا أعمالكم الصّالحة، ويمجِّدوا أباكم الَّذي في السّماوات" (متّى ٥: ١٤-١٦).

٣) **الكاهنان اللّذان يُسندان ذراعَي الأسقف**

تُعيدنا هذه الواقعة بالذّكرى إلى حدثٍ تمّ في العهد القديم، عندما حارب بنو إسرائيل العمالقةَ وانتصروا عليهم برفع موسى يدَيه بمعاونة هارون وحُور اللّذين قاما بإسناد يدَي موسى لتبقيا مرفوعتين إلى الله من أجل انتصار بني إسرائيل في المعركة: "وجاء العمالقةُ فحاربوا إسرائيل في رَفيديم. فقال موسى ليشوع: إختر لنا رجالاً واخرُج لمحاربة العمالقة، وغدًا أنا أقف على رأس التّلّ وعصا الله في يدي. ففعل يشوع كما قال له موسى في أمر محاربة العمالقة. أمّا **موسى وهارون وحُور فصعدوا إلى رأس التّلّ. فكان، إذا رفع موسى يده، يغلب بنو إسرائيل، وإذا حطّها، تغلب العمالقة. ولَمّا ثَقُلَت يدا موسى، أخذا حجرًا وجعلاه تحته. فجلس عليه وأسند هارون وحُور يدَيه، أحدهما من هنا والآخَر من هناك.** فكانت يداه ثابتتَين إلى مغيب الشّمس. فهزم يشوع عماليق وقومَه بحدّ السَّيف" (خروج ١٧: ٨-١٣). إذًا، فإنّنا نرى أنّ رئيس الكهنة يُجسّد شخصيّة موسى في تضرُّعه إلى الله من أجل انتصار شعبه "الكنيسة المجاهدة والمُضطهَدة" على قوى الظّلمة والظّلام، بينما يُجسّد الكاهنان شخصيَّتَي هارون وحُور في مساندتهما وتقويّتهما للأسقف في إتمام عمله المقدّس هذا.

(١٣)

الرّفرفة فوق القرابين

١) الرّفرفة عند قانون الإيمان

أثناء تلاوة قانون الإيمان، يتناول الكاهن الغطاء الكبير الموضوع على القرابين ويُرفرف به حتّى يصل المؤمنون إلى إعلان القيامة "وقام في اليوم الثّالث كما في الكتب" إشارةً إلى الزّلزلة العظيمة الّتي حدثت أثناء قيامة المسيح من بين الأموات: "... فإذا زلزالٌ شديدٌ قد حدث. ذلك بأنّ ملاك الرّبّ نزل من السّماء وجاء إلى الحجر فدحرجه وجلس عليه" (متّى ٢٨: ٢)، حيث يتحوّل الهيكل من مكان يُعبّر عن آلام وموت المسيح إلى مكان إشعاعيٍّ يُعبّر عن قيامة المسيح وفصح الحمل الإلهيّ: "طوبى للمدعوّين إلى وليمة عرس الحمل" (رؤيا ١٩: ٩).

وفي القدّاس الحَبريّ (هو القدّاس الّذي يرأسه الأسقف)، نرى كاهنَين يُمسكان بالسّتر الكبير ويُرفرفان به فوق رأس الأسقف. إنّ الأسقف، بحسب لاهوت الكنيسة المقدّسة، هو إيقونةٌ حيّةٌ للمسيح، مِمّا يُشير إلى أنّه يُمثّل المسيح المائت الموضوع في القبر، وفي الوقت عينه، يُشير إلى المسيح الحيّ، القائم من بين الأموات. إنّ الكاهنَين يُشيران إلى الملاكَين اللّذين بشّرا النّسوة حاملات الطّيب بالقيامة (راجع لوقا ٢٤: ٤).

٢) الرّفرفة عند صلاة الشّكر الإفخارستيّة

أثناء صلاة الشّكر الّتي يتلوها الكاهن قبل الكلام الجوهريّ "واجبٌ وحقٌّ أن نُسبّحك ونباركك..." يتناول الشّمّاس إن وُجد المروحة ويُرفرف بها فوق القرابين، مُشيرًا إلى حضور الملائكة في هذا الوقت الرّهيب أمام الحمل الإلهيّ المُعدّ لأن يُذبح على الهيكل.

٣) الرّفرفة عند الذّكرانيّات

بعد استحالة القرابين، الخبز إلى جسد المسيح المقدّس، والخمر إلى دمه الطّاهر، يذكر الكاهن جميع الّذين تُوُفُّوا على الإيمان من الأجداد وحتّى روح كلّ صدّيق تُوُفِّيَ على الإيمان، يُرفرف الشّماس فوق القرابين دلالةً على حضور الرّوح القدس، الرّبّ المُحيي.

(١٤)

رموز الاستعداد للمناولة المقدّسة

١) الجزء الصّغير من الحمل

عندما يُعلن الكاهن "الأقداس للقدّيسين" يأخذ الحمل من الصّينيّة ويرفعه عاليًا على مرأىً من جميع المشتركين في الخبز الواحد والكأس الواحدة، إشارةً إلى أنّ هذا الحمل الّذي دلّ في وقتٍ من الأوقات على المسيح الحمل الذبيح على خشبة الصّليب، قد أصبح الآن في هذه اللّحظة المقدّسة المسيح الحمل الفصحيّ القائم من بين الأموات. كما وتتضمّن هذه الحركة الطّقسيّة دعوةً يوجهّها الكاهن المحتفِل إلى جماعة المؤمنين للاشتراك في وليمة الحمل: "طوبى للمدعوّين إلى وليمة عرس الحمل" (رؤيا ١٩: ٩) وهي الوليمة، أي اللّيتورجيّا الإفخارستيّة، المحتفَلُ بها في الكنيسة السّماويّة المنتصرة بدم الحمل (راجع رؤيا ١٢: ١١). ثمّ يقوم الكاهن بتجزئة الحمل الّذي يرمز إلى حمل الله الرّافع خطيئة العالم (يوحنّا ١: ٢٩)، إلى أربعة أجزاء، ثمّ يتناول الجزء الّذي يحمل الحرفين الأولّين من اسم يسوع باليونانيّة (ΙΣ)، ويُبارك به الكأس (هذا هو التّبارُك)، ثمّ يضعه في الكأس المقدّسة (هذا هو التّمازُج)، مُشيرًا إلى وَحدة الذّبيحة تحت شكلَيها الحسيَّين[٤٤٠]. وهذا يعني "أنّ الجزء الصّغير من الخبز الإفخارستيّ الّذي يُمزَج بالكأس، يشير إلى الّذي بذل جسده وأراق دمه، مشاركًا بموتنا، قد صار حيًّا لكي يُشركنا في حياته"[٤٤١].

ويرى البارّ نيقولا كاباسيلاس في كتابه "شرح القدّاس الإلهيّ" أنّ الحمل رمزٌ إلى يسوع الطّفل؛ رمزٌ إلى المسيح المَسوق إلى الموت، والمصلوب والمطعون

---

٤٤٠) المطران ناوفيطوس إدلبي، ***كتاب الصّلاة***، ص. ٣١١.

٤٤١) جان كوربون (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، ص. ١٧٧.

بحريّة. ثم نرى الخبز محوّلاً إلى الجسد الكلّيّ القداسة الّذي احتمل كلّ هذه الآلام وقام من الموت وصعد إلى السّماء وجلس عن يمين الآب[٤٤٢]، أي أنّ الحمل أصبح رمزًا للمسيح النّاهض من بين الأموات، الظّافر والمُمجَّد.

٢) الماء الحارّ (الزّاون)

ثمّ يسكب الكاهن في الكأس المقدّسة قليلاً من الماء الحارّ، ويُقال له باليونانيّة "الزّاون" لكي يدلّ على حرارة القدّيسين الّتي يجب أن تكون فينا لكي نتّحد بالمسيح. ويرى كاباسيلاس أنّ سكب الماء الحارّ في الكأس المقدّسة يرمز إلى "الرّوح القدس بعد أن تمّ كلّ مشروع الفداء الّذي قام به المسيح. والآن يأتي انحدار الرّوح القدس عندما تُقدَّم الذّبيحة وتكون القرابين الطّاهرة قد بلغت كمالها، وهي تتمّ في الّذين يتناولون باستحقاق"[٤٤٣].

ويعلّل كاباسيلاس رؤيته هذه أنّه ما دام هذا الماء السّاخن ليس ماءً فقط، بل يشترك في طبيعة النّار، فهو يرمز إلى الرّوح القدس الّذي يُرمَز إليه أحيانًا بالماء (راجع حوار يسوع مع المرأة السّامريّة حول موضوع "الماء الحي"، يوحنّا ٤: ٧-١٥؛ يوحنّا ٧: ٣٧-٣٩، والّذي نزل على الرّسل بشكل ألسنةٍ من نار (راجع أعمال ٢: ٢-٤). بكلماتٍ لاهوتيّةٍ نقول إنّه بعد أن أتمّ يسوع في شخصه كلّ تدبير الله الآب الخلاصيّ بالآلام والموت والقيامة في اليوم الثّالث والصّعود إلى السّماوات والجلوس عن يمين الله، قد ابتدأ زمنٌ جديدٌ في الكنيسة هو زمن الرّوح القدس.

---

٤٤٢) نقولا كاباسيلاس، *شرح القدّاس الإلهيّ*، ص. ١١٠.

٤٤٣) **المرجع نفسه**، ص. ١١٠.

(١٥)

الإيقونات المقدّسة

١) لاهوت الإيقونة الكتابيّ

لقد استند تعليم الكنيسة المقدّسة حول الإيقونات على الكتاب المقدّس، بخاصّة العهد الجديد وأخصّ بالذّكر إنجيل يوحنّا، الّذي أعلن منذ بدايته قائلاً: "إنّ الله ما رآه أحدٌ قطّ، الابنُ الوحيد الّذي في حضن الآب هو الّذي أخبر عنه" (يوحنّا ١: ١٨). إنّ لهذه الآية اليوحنّاويّة صدًى في كتابات العهد القديم، عندما طلب موسى من الله أن يُريه مجده، فأعلن الله لكليمه موسى قائلاً: "أمّا وجهي فلا تستطيع أن تراه لأنّه لا يراني الإنسان ويحيا" (خروج ٣٣: ٢٠). فهذا الله المتعالي والمتسامي والّذي لا يستطيع أيُّ إنسان أن يتصوّره، هو نفسه قد اتّخذ بواسطة الكلمة الإلهيّ يسوع المسيح جسدنا وأصبح بشرًا وسكن في ما بيننا، حيث إنّنا استطعنا أن نرى مجد الله من خلاله (راجع يوحنّا ١: ١٤). من هنا نستطيع أن نُدرك ما قاله القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ: "وإنّني، إذ أكرّم الإيقونة، لا أعبد الخليقة دون الخالق، بل أعبد الخالق وقد أضحى خليقةً، لكيما يُمجّد طبيعتي الخاصّة ويُشركني إشراكًا تامًّا في طبيعته الإلهيّة". هذا هو باختصار لاهوت الكنيسة المقدّسة الخاصّ بالإيقونات والّذي سنتطرّق إليه في النّقطة التّالية.

٢) لاهوت الإيقونة الكنسيّ

إنّ الإيقونة المقدّسة تشهد لعظمة تجسّد الكلمة تجسُّدًا أفضى، في الذّات الإلهيّة، إلى اختبار الخروج من الذّات خروجَ حبٍّ وعطاء، وتدلّ على التحام اللّاهوت بالنّاسوت التحامًا خارقًا لا امتزاج فيه ولا اختلاط. إنّها مبنيّةٌ على أنّ الإنسان يتقدّس باتّصاله بنورٍ غير مخلوق، أي إنّه يصير بدوره نورًا ويتجاوز الحسّ

والعقل معًا باختباره الأشياء الإلهيّة نفسها. فالإيقونة، وبحسب لاهوت الكنيسة المقدّسة، إنّما تصوّر شخص الكلمة المتجسّد المعروف بطبيعتيه الإلهيّة والإنسانيّة. لذا تُمسي الإيقونة شهادةً حيّةً دائمةً على سرّ التجسّد وتأليه الإنسان. هذا ما يؤكّده البطريرك القسطنطينيّ جرمانوس في مقالته الّتي كتبها بعنوان "في الهرطقات والمجامع": "أمّا في ما يختصّ بإيقونة سيّدنا يسوع المسيح الّتي تُمثّل تقاطيعه البشريّة الّتي باتت مرئيّةً بفضل ظهوره الإلهيّ، فإنّنا نصونها لكيما نتذاكر دومًا حياته الجسديّة وآلامه وموته الخلاصيّ وما تبع ذلك من افتداء العالم. فبواسطة إيقونته، يتهيّأ لنا الوقوف على إخلاء (الإخلاء عبارةٌ مستقاةٌ من مصطلحات اللاهوت الكتابيّ تعبّر عن تجرّد المسيح في التجسُّد تجرّد الطّاعة لأبيه وتجرّد القبول الواعي للصّليب (فيلبّي ٢: ٦-١١). وكان الإخلاء بالنّسبة إلى المسيح يقوم في ما أتى به المسيح في أثناء ما ارتضى به من أجلنا من حياة العبد على الأرض، ما أتى به من إعراضٍ عن إظهار المجد الّذي يعود إليه في طبيعته) الله ذاته في رحابة مداه.

وعليه، فإنّ الإيقونات هي اتّحاد العالم المنظور وغير المنظور وعلامةُ وجود الخليقة الجديدة والمتجلّية، حيث تُشارك الإيقونات الجماعة الكنسيّة صَلاتَها وتُعبِّر عن معنى وجودها مانحةً إيّاها حركتها وإيقاعها الأزليّين، فتبدو الكنيسة برمّتها، بكلّ طغماتها من أنبياء ورسل وشهداء وقدّيسين صاعدةً إلى السّماء، إلى حيث يرفعها السَّيِّد نحو مائدته وملكوته. لذا، فإنّنا نؤكِّد أنّ الإيقونة تُظهر سرّ شخص المسيح إظهارًا متألِّقًا فريدًا. ذلك بأنّها لا تُذكِّر بحقيقة التجسُّد فقط، بل أيضًا بسرّ أقنوم الكلمة المتجسّد، فنرى أنّ الإيقونة لا تُظهر الوجه البشريّ ولا الطّبيعة الإلهيّة الّتي لا يقوى أحدٌ على معاينتها، بل صلة الأوّل بالثّانية في الأقنوم، أي في شخص الكلمة المتجسِّد يسوع المسيح.

فالإيقونة هي بالطّبع رمز الملكوت وظهورٌ للخليقة المتجلّية والممجَّدة، إذ إنّ الكنيسة والإيقونة هما وليدتا خبرة حيّة للسّماء، ذلك أنّ ملكوت الله، وبحسب لاهوت بولس الرّسول، ليس "أكلاً وشُربًا، بل هو برٌّ وسلامٌ وفرحٌ في الرّوح القدس" (رومة ١٤: ١٧).

٣) رموز الألوان في الإيقونة

- **أحمر قاتم:** يرمز إلى الإنسانيّة المتألمة، وإلى محبّة المسيح وإلى الألوهة.
- **الأزرق:** رمز المعرفة الّتي لا تُدرَك بالعقل ولكن بالقلب. ويرمز إلى المجد الإلهيّ.
- **الأخضر:** يرمز إلى التّجديد وإلى الطّبيعة البشريّة.
- **الذّهبيّ:** يرمز إلى الأبديّة، المُلك الأبديّ الّذي لا يفنى (كلّ الإيقونات تؤسّس على اللّون الذّهبيّ).
- **الأصفر:** يرمز إلى النّور الإلهيّ.
- **الأبيض:** يرمز إلى الطّهارة، وإلى توهُّج النّور الإلهيّ.
- **الأسود:** يرمز إلى الضياع والمجهول وإلى ظلمة الخطيئة والموت.
- **البنّي:** يرمز إلى الأرض، فآدم الأول من تراب.
- **البنفسجي:** يرمز إلى الاتّحاد بالله (وهو مزيج من الأزرق، طبيعة البشر، والأحمر، رمز الطبيعة الإلهية).

انطلاقًا من رمزيّة الألوان هذه، أودّ أن أشرح معنى الألوان الّتي تؤلّف إيقونتَي السَّيِّد المسيح والسَّيِّدة العذراء الطّاهرة. فنرى أنّ لون قميص السَّيِّد أحمر، دلالةً على الطّبيعة الإلهيّة للمسيح، بينما ثوبه الخارجيّ أزرق، إشارةً إلى طبيعته الإنسانيّة الّتي اتّخذها من العذراء الطّاهرة؛ بينما نجد أنّ قميص العذراء أزرق، دلالةً على طبيعة العذراء الإنسانيّة، وأمّا ثوبها الخارجيّ فأحمر، إشارةً إلى التحافها بالطّبيعة الإلهيّة، فأضحت العذراء أوّل طبيعةٍ مخلوقةٍ **متألّهة**.

٤) ترتيب الإيقونات في الكنيسة

١. القبّة الكبرى

تُرسَم في القبة الكبرى الوسطيّة أعلى الكنيسة (فوق الخورس) إيقونة "**المسيح الضّابط الكلّ**" (Παντοκράτωρ) ناظرًا إلى النّاس برأفةٍ وحنان، وتحته الإنجيليّون، وتحفّ به القوّات الملائكة العادمة الأجساد. إنّها إيقونةٌ تُشير إلى الجلال الإلهيّ الّذي يتّصف به الخالق وحده، كما وأنّ هناك ملامحَ

ساطعة لناسوت الابن المتجسّد نلاحظها في الرّسم المفصّل لجسمه البشريّ. إنّ القبّة الكبرى ترمز، من حيث موقعها في الكنيسة، إلى السّماء عرش الله. لذا، يُطِلّ علينا المسيح الضّابط الكلّ "من أعالي سماء قبّته، ويُشرف على جماعة المؤمنين المجتمعين في الكنيسة لعبادته، فيباركهم بيُمناه، ويُريهم بيُسراه دَرْج الأناجيل الطّاهر مفتوحًا"[٤٤٤].

٢. قدس الأقداس

أ. الحِنيّة الكبرى

تُقسَم الحِنيّة الكبرى الواقعة وراء المائدة المقدّسة إلى قسمين: فالقسم الأعلى تُرسَم فيه إيقونة الاستشفاع "والدة الإله الأرحب من السّموات" (Πλατυτέρα των Ουρανών). "فتبدو تارةً بشكلٍ نصفيٍّ فاتحةً ذراعيها مصلّيةً لأجل البشريّة الخاطئة، وعلى صدرها إيقونة المسيح، فتُمثّل الكنيسة مبتهلةً إلى الله؛ وطورًا تُرسَم جالسةً على العرش بين ملاكين، حاضنةً طفلها الحبيب، فترمز إلى سرّ التّجسّد، وإلى الكنيسة عرش العليّ"[٤٤٥].

بينما يُخصَّص القسم السّفليّ لتمثيل مناولة الرّسل من يد المسيح، كاهن الإفخارستيّا الأوّل: من اليسار، يحمل الصّينيّة الّتي فيها الخبز جسده يُوزّعه على رسله، وهم يُقبّلون يده؛ ومن اليمين، يحمل كأس دمه مناولاً منه رسله أيضًا (إنّ ما يحدث في هذه الإيقونة هو بالتّحديد ما يحدث في مناولة الكهنة خلال القدّاس الحَبريّ من يد الأسقف).

ب. الحِنيّتان الصّغيرتان

يرمز مذبح التّقدمة الّذي يقع شماليّ المائدة المقدّسة إلى مغارة بيت لحم، فتُزيّن إذّاك إيقونة الميلاد الحِنيّة الشّماليّة (قد تُرسَم في بعض الأحيان إيقونة موت المسيح وقيامته بين مشاهد من العهد القديم، كذبيحة إبراهيم، تشير إلى ذبيحة الفادي لانتشال جنس الأنام من وَهدة الضّلالة والفساد)[٤٤٦]. أمّا الحِنيّة الجنوبيّة، فهناك

---

٤٤٤) أنطون هبّي (الأرشمندريت)، ***الصّوَر المقدّسة أو الإيقونات***، ص.٩٤.

٤٤٥) **المرجع نفسه**، ص.٩٦.

٤٤٦) **المرجع نفسه**، ص.٩٦.

خياراتٌ عدّة، يبرز من بينها إيقونات السَّيِّد المسيح مُحاطًا برئيسَي الملائكة جبرائيل وميخائيل وبعض القدّيسين، أو ملائكة وشمامسة قدّيسين خدّام الكنيسة المقدّسة.

٣. الإيقونسطاس

أ. ماهية الإيقونسطاس

الإيقونسطاس كلمةٌ يونانيّةٌ مركّبةٌ من كلمتين: **إيقونة وموضع**، ومفادها في الإصطلاح ذلك الجدار الرّخاميّ أو الحجريّ أو الخشبيّ الفاصل قدس الأقداس عن صحن الكنيسة في المعابد البيزنطيّة، والمزيَّن بالإيقونات المقدّسة. يتكوّن الإيقونسطاس من ثلاثة أبواب:

- يُدعى **الباب الوسط بالباب الملوكيّ أو المقدّس**، وتُرسَم عليه إيقونة البشارة والإنجيليّين الأربعة، "لأنّ هذا الباب المقدّس يرمز إلى بشارة الإنجيل وبداية عمل الفداء ومجموع تعاليم المخلّص، الّتي تُدخل المؤمن إلى معرفة أسرار الله"[٤٤٧]. إنّ دخول هذه الأبواب مقتصرٌ على المرتسمين فقط (الشّمامسة، الكهنة، والأساقفة)، ويستطيعون دخولها عند إتمام الخدمات الإلهيّة فقط[٤٤٨]، ويجب عليهم مع ذلك ألاّ يدخلوه ما لم يكونوا مُرتدين حللهم الطّقسيّة الكاملة، ما عدا الاساقفة. إنّها الأبواب حيث يتّصل الكاهن بالشّعب ليعطي السّلام، والبركة، والقُدُسات، وليتلو الإنجيل المقدّس، ويُعلّم شعب الله بالوعظ.

- أمّا **البابان الجانبيّان**، باب الشّمال وباب اليمين أو الجنوب، فيُغلقان بستائر. ويُستعملان لاجتياز كلّ الّذين يخدمون في الهيكل. وهما يمثّلان أبواب الفردوس الأرضيّ، الّتي أغلقت منذ خطيئة أبوَينا الأوّلين ونُصِبَ ملاكٌ لحراستها[٤٤٩].

---

٤٤٧) المطران ناوفيطوس إدلبي، ***كتاب الصّلاة***، ص.٣١.

٤٤٨) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.209.

٤٤٩) المطران ناوفيطوس إدلبي، ***كتاب الصّلاة***، ص.٣٢.

لذا يظهر أنّ الغاية الأساسيّة من الإيقونسطاس إنّما هي تصوير بيت الصّلاة، أعني الكنيسة المقدّسة، على أنّه السّماء على الأرض، وأن يشهد أنّ ملكوت الله قد اقترب منّا. إنّه يمثّل مواطني السّماء، والدّينونة العامّة. كما أنّ المسيح مُحاطٌ في مجده بصفوفٍ من الكائنات السّماويّة على الإيقونسطاس، كذلك سيكون المسيح في الدّينونة الأخيرة مُحاطًا بأجواق الملائكة، الّذين سيأتون ليحكموا على الأحياء والأموات، ويفصلوا أولئك الّذين سيحيَون أبديًّا في السّماء عن أولئك الّذين سيُستبعدون منها إلى الأبد"[٤٥٠]. إنّه، إذًا، رمزٌ **لكنيسة المسيح المجاهدة والمنتصرة الّتي حرّرها المسيح بصليبه الكريم.** كما يرمز الإيقونسطاس، بحسب تعليم القدّيس سمعان أسقف تسالونيكي (+١٤٢٩) إلى محبّة المسيح للبشر:

> "يجمع رباط المحبّة، المسيح والقدّيسين والمؤمنين على الأرض. لذا تتوسّط إيقونة المسيح الإيقونات المقدّسة، تُحيط بها إيقونة أمّه الطّاهرة والمعمدان والملائكة ورؤساء الملائكة وسائر القدّيسين. ويُشير هذا التّرتيب إلى أمورٍ ثلاثة: المسيح في السّماء مع أوليائه القدّيسين، المسيح في ما بيننا على الأرض، والمسيح العائد بمجدٍ في آخر الأزمان"[٤٥١].

أمّا أصل استعمال الإيقونسطاس فيعود إلى كنائس سوريا في ختام القرن الرّابع الميلاديّ. فحين يتحدّث عن اللّيتورجيّا الإلهيّة في أنطاكيا حوالي العام ٣٩٠م، يُشير القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم إلى الحجاب المستخدَم هناك كما لو كان تقليدًا مؤكّدًا.

ب. ترتيب الإيقونات بالإيقونسطاس

وعلى هذا الجدار تُرتَّب الإيقونات على الشّكل التّالي:

- إيقونة السّيِّد، دومًا موجودةٌ على يمين الباب المقدّس.
- إيقونة والدة الإله، على شمال الباب المقدّس: "قامت الملكة عن يمينك..." (مزمور٤٤: ١٠).

---

٤٥٠) Casimir Kucharek, ***The Byzantine-Slav liturgy***, p.209.

٤٥١) أنطون هبّي (الأرشمندريت)، ***الصّور المقدّسة أو الإيقونات***، ص.١٠٦.

- إيقونة شفيع الكنيسة، توضع بالقرب من إيقونة العذراء الّتي هي عروس الله والّتي تمثّل الكنيسة.
- إيقونة النّبيّ الكريم والسّابق المجيد يوحنّا المعمدان، توضع عن يمين إيقونة السّيّد، فهو صديق العريس (يوحنّا ٣: ٢٩).
- إيقونة البشارة، ترسم على الباب المقدّس الّتي فيها حصل اتّحاد الله بالبشر، ومن خلال الاتّحاد صارت أبواب السّماء مفتوحة، وعادت علاقة النّاس بالله إلى مجراها الأوّل في بكر المصالَحين مع الله، ألا وهي العذراء الّتي نسميّها في صلواتنا "باب السّماء".
- أمّا على البابَين الآخرين فنرسم إيقونة رئيسَي الملائكة ميخائيل وجبرائيل أرفع جند السّماء، وفوق هذه الإيقونات، الّتي عادةً ما تكون بمقاس الحجم الطّبيعي للإنسان، توجد ثلاثة أو أربعة صفوف من الإيقونات الأصغر حجمًا وعددها يتوقف على كِبَر الكنيسة أو صِغَرها. فتترتّب كالتّالي: الصّف الأول: للرّسل؛ الصّف الثّاني: للقدّيسين والأبرار والشّهداء؛ الصّف الثّالث: هو مصفّ الأنبياء؛ الصّف الرّابع: هو مصف آباء العهد القديم.
- ثمّ نضع فوق الباب المقدّس، إيقونة الشّفاعة أو الصّلاة الّتي تمثّل المسيح جالسًا على عرشه كديّانٍ للكون ومريم أمّه ويوحنّا المعمدان واقفَين عن يمينه وعن يساره في وضع صلاةٍ وتشفّع من أجل العالم.
- وفي أعلى الإيقونسطاس، إيقونة آلام الرّبّ يسوع البارزة أي صليب الرّبّ يسوع، وأمّه ويوحنا الحبيب واقفَين عند الصليب.

وهكذا نرى أنّ ترتيب الإيقونات بهذا الشّكل يقدّم الكنيسة السّماويّة كلّها لجماعة المصلّين الأرضيّين.

- **خلاصة الإيقونات**

كما رأينا سابقًا، فإنّ للإيقونات المقدّسة قيمة عظمى، إذ إنها تقدّم لأنظار المؤمنين رؤية العظائم الّتي صنعَها الله على الأرض، وبالأخصّ ما صنعه بواسطة الكلمة المتجسّد، ولكن أيضًا ما صنعه بواسطة القدّيسين والكنيسة. ولهذا السّبب حقًّا تتّسم الإيقونات بأهميّة عظمى في الحياة اللّيتورجيّة. إحدى ميّزات اللّيتورجيّا الرّائعة، هي في الواقع أنّها تحتفل وتتذكّر وتؤوّن مختلِف الأزمنة الّتي يتحقّق فيها خلاصنا سرّيًّا. إنّ تصوير تاريخ تلك الأحداث بالرّسوم، يمكنه إذًا، بطريقة ساميّة، أن يُسهم في الإيحاء بها وترسيخها في ذهن وقلب الّذي يتأمّل فيها. كلُّ جزءٍ من ذاك التّاريخ المقدّس يشكّل، في الواقع، عملاً من أعمال القدرة الإلهيّة.

معنى الإيقونات المميَّز، بالمقارنة مع صوَرٍ أخرى، يقوم على أنّها تستحضر وتمثّل، لا مظاهرَ بشريّة، كما تبدو للعين الأرضيّة، بل الجِدَّةَ المسيحيّة المطلقة: "... ممّا لم ترَه عينٌ، ولا سمعت به أذُنٌ، ولا خَطرَ على قلب بشر، ما أعدّه الله لمحبّيه (١ كورنثس ٢: ٩)، إذ يُعيد ولادتَهم من العلاء ويُريهم ملكوت الله (راجع يوحنّا ٣: ٢-٣).

إنّ مجرّد التّعبير عن بُعد الأشخاص السّماويّ الّذي تمثّله الإيقونات، يوليها ميزةً مقدّسة، تُشارك نوعًا ما في ما هو إلهيّ. لذلك، فالإيقونات هي موضع عبادةٍ مباشر، وتكرَّم على غرار ما تكرَّم إيقوناتُ السَّيّد وأعمالُه والقدّيسون الّذين تمثّلهم الإيقونات.

خاتمة عامّة

لقد حاولنا، طوال هذا البحث، أن نُعطيَ لمحةً كتابيّةً، لاهوتيّةً، ليتورجيّةً وآبائيّةً عن مفهوم سرّ الإفخارستيّا وروحانيّته في الكنيسة. أمّا الآن، فإنّنا سنسعى إلى استخراج بعض النّتائج:

- سرّ الشّكر (الإفخارستيّا) هو مائدة الرّبّ الّتي يقدّم فيها المسيح لنا نفسه مأكلاً ومشربًا حقيقيّين في ذبيحةٍ غير دمويّة، إذ هي استمرارٌ لضحيّة الصّليب عينها، الّتي قدّم فيها الكاهن الأعظم نفسه حملاً، مرّةً واحدةً بدمه الكريم من أجل خلاص العالم ومحا صكّ خطاياه (خطايا العالم).
- مناولة القرابين الإلهيّة هي اشتراكٌ في جسد الرّبّ ودمه، فإنّ الخبز والخمر يصبحان باستدعاء الرّوح القدس وحلوله غير المنظور جسد المسيح الطّاهر نفسه ودمه الكريم عينه: "كأس البركة الّتي نباركها أليست هي شركة دم المسيح والخبز الّذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح" (١ كورنثس ١٠: ١٦).
- الإجتماع اللّيتورجيّ-الإفخارستيّ هو التّعبير الأوضح عن سرّ الكنيسة، جسدِ المسيح. فالكنيسة هي الّتي تقيم الإفخارستيّا، والإفخارستيّا هي الّتي تشكّل الكنيسة وتوحّد أعضاءها وتغذّيهم بالحياة. لهذا فَسِرُّ الشُّكر هو سرُّ الجماعة ووحدتها وترابطها "فإنّنا نحن الكثيرين خبز واحد وجسد واحد، لأنّنا جميعًا نشترك في الخبز الواحد" (١ كورنثس ١٠: ١٧) "وأمّا نحن المشتركين في الخبز الواحد والكأس الواحدة فاجعلنا جميعًا متّحدين بعضنا ببعضٍ في شركة الرّوح القدس الواحد" (قدّاس باسيليوس الكبير).
- يتم بالمناولة حقيقة اتّحاد الإنسان بالمسيح والثّبات فيه: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه" (يوحنّا ٦: ٥٦). والإتحاد بالمسيح والثّبات فيه هو الّذي يمنح الإنسان الحياة الأبديّة: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله

الحياة الأبديّة وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنّا ٦: ٥٤)، ويجعله شريك الطَّبيعة الإلهيَّة: "به (بالمسيح) وُهِبَت لنا المواعيد العظيمة الثّمينة لكي تصيروا شركاء الطّبيعة الإلهيَّة" (٢ بطرس ١: ٤) .

وبالتّالي، فإنّ سرّ الإفخارستيّا يقوم في أساسه الكتابيّ واللّاهوتيّ واللّيتورجيّ على أنّه:

- **عهدٌ** بين المسيح والمؤمن به في كلّ جيلٍ وعصر. إنّه عهد المحبّة العجيبة الغنيّة بالصّفح والغفران، الّذي كُتِبَ بدم المسيح على الصّليب.
- **شركةٌ مستمرةٌ** بين المؤمنين المفتدين ككنيسة، وبين المسيح، الّذي هو رأس الكنيسة ومخلّص الجسد. وقد وصف الرسول بولس هذه الناحية بقوله: "أليست كأسُ البركة الّتي نُباركها مشارَكةً في دم المسيح؟ أليس الخبزُ الّذي نكسره مشارَكةً في جسد المسيح" (١ كورنثس ١٠: ١٦) بمعنى أنّ العشاء يتحوّل بقوّة هذا العهد إلى رابطةٍ حيّةٍ تربط التلاميذ بعضهم ببعض بالمسيح. فكلّما نتناول هذا العشاء نذكر هذه الشّركة العظيمة المباركة. ولا ريب في أنّ المسيح طبع هذا السّرّ بطابع خاصٍّ مميّز. فقد خصَّص بالذّات الشّيء الأهمّ في المسيحيّة ليكون أساس هذه الشّركة أعني بهذا الفداء العظيم، حين بذل جسده وأراق دمه من أجلنا.
- **شكر**، لأنّ المسيح عندما أخذ العنصرَين باركهما، وشكر لأجل تدبير اللّه العجيب للخلاص، ولأجل محبّته الّتي سارت به إلى الصّليب، حيث قدّم نفسه ذبيحة إثمٍ لفداء البشريّة في كلّ جيلٍ وعصر (لوقا ٢٢: ١٤-٢٢).
- **تذكار**، لأنّ المسيح قال: اصنعوا هذا لذكري، بيد إنّنا يجب أن نذكر أنّ هذه الذّكرى ليست مجرّد ذكرى تاريخيّة لحادثة الصّليب. وإنّما هي **تذكارٌ حيّ، يبدو فيه الصّليب اختبارًا متجدّدًا في حياة المؤمن كلّ يوم**، وَفقًا لقول الرّسول بولس: "فما أنا أحيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ. وإذا كنتُ أحيا الآن حياةً بشريّة، فإنّي أحياها في الإيمان بابن اللّه الّذي أحبّني وجاد بنفسه من أجلي" (غلاطية ٢: ٢٠).

- **شهادة مستمرّة للمصلوب، لأنّ المشتركين في العشاء، يُقرُّون بإيمانهم بالمسيح المصلوب، ويجدّدون معه الولاء. واعترافًا منهم بفضله، يخبرون بموته إلى أن يأتي: "فإنّكم كُلّما أكلتم هذا الخبز وشَربتم هذه الكأس تُعلنون موت الرّبّ إلى أن يأتي" (١ كورنثس ١١: ٢٦).**
- **تقدمة، لأنّه يُشير إلى عطيّة الله الّتي لا قياس لها. وقد درج المسيحيّون على أن يقرنوا ممارستهم السّرّ، بالمزيد من العطايا والتّقدمات، عرفانًا بالجميل وإجلالاً لعطيّة الله المباركة في يسوع المسيح، الّذي صار لهم من الله حكمةً وبرًا وفداء.**

ختامًا، أقتبس مقطعًا جاء في الرّسالة البابويّة للبابا الكبير الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني بعنوان "أمكث معنا يا ربّ" للسّنة الإفخارستيّة، يقول:

> **"إبقَ معنا يا ربّ، فالمساء يقترب" (لوقا ٢٤: ٢٩). هذه هي الدّعوة الّتي وجّهها تلميذا عمّاوس ليسوع المسيح مساء يوم القيامة. فقد كان الحزن يعصر قلبيهما، ولم يفهما أنّ المسافر الغريب هو يسوع المسيح القائم من الموت. ومع ذلك فقد كان قلبهما "متّقدًا في داخلهما" بينما كان يفسّر لهما الكتب. واستطاع نورُ الكلمة أن يليّن قساوة القلب، فانفتح قلبهما وانفتحت "أعينهما". ففي ظلام المساء وظلمة قلبهما، كان المسافر بمثابة قبس نور أحيا فيهما الرّجاء والرّغبة في النُّور الكامل. "إبق معنا". وقَبِلَ. بعد قليلٍ سيختفي وجه يسوع، لكنّه سيبقى تحت شكل الخبز المكسور الّذي انفتحت أعينهما أمامه. فالمسافر الإلهيّ يرافقنا في طرق حياتنا المليئة بالأحزان والقلق وجميع أنواع الإحباطات، ويفسّر لنا الكتب في ضوء سرّ الله. وعندما يكتمل اللّقاء، يتبع نورَ الكلمة، النّورُ المنبثق من "خبز الحياة"، الّذي يحقّق المسيح من خلاله وعدَه بأن يبقى معنا "طول الأيّام إلى منتهى الدّهر"[٤٥٢].**

---

٤٥٢) البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***أمكث معنا يا ربّ***، عدد ١.

إنّ "كسر الخبز"، كما كانت تدعوه الكنيسة الأولى، هو منذ البدء مركز حياة الكنيسة. فالمسيح يأوّن من خلاله سرَّ موته وقيامته. وفيه يُقبل المسيح، هو "الخبز النّازل من السّماء"، وفيه نُعطى عربون الحياة الأبديّة، ونتذوّق الوليمة الأبديّة في أورشليم السّماويّة، ذلك أنّه في سرّ الإفخارستيّا، يستمرّ المخلّص الّذي تجسّد من مريم العذراء قبل ألفي سنة، في تقديم نفسه كنبع للحياة الإلهيّة.

بعد كلّ ما تقدّم شرحه في هذا الكتاب عن سرّ الإفخارستيّا بكلّ أبعاده الكتابيّة، العقائديّة، اللّيتورجيّة، الآبائيّة والكنسيّة، أجسر على القول بأنّنا في كنائسنا ورعايانا بتنا في أمسّ الحاجة إلى تجديد روح الإيمان الإفخارستيّ في كلّ مرّةٍ نحتفل فيها بالذّبيحة الإلهيّة بعيدًا عن تسليط الأضواء على الطّقوس والشّعائر اللّيتورجيّة فقط، والتّركيز أكثر فأكثر على التَّعبُّد القربانيّ الإفخارستيّ خارج اللّيتورجيّا الإلهيّة (القدّاس الإلهيّ) الّذي يُعطي زخمًا روحيًّا متألّقًا للنّفس الإنسانيّة في محجّها من أرض العبوديّة إلى أرض الحريّة الإلهيّة، من أورشليم الأرضيّة إلى أورشليم السّماويّة.

صلاةٌ ختاميّة

لقداسة البابا بندكتوس السّادس عشر

تلاها بمناسبة عيد جسد الرّبّ في العام ٢٠٠٩

أقِم معنا يا يسوع، إمنحنا ذاتك وأعطنا الخبز الّذي يغذينا للحياة الأبديّة! حرِّر هذا العالم من سمّ الشّرّ، من العنف والبغض الّذي يُلوِّث الضّمائر، ونَقِّهِ بقوّة محبّتك الرّحومة. وأنتِ يا مريم، أنت الّتي كنت "امرأةً إفخارستيّةً" طيلة حياتك، ساعدينا لنسير متّحدين نحو الهدف السّماويّ، متغذين من جسد ودم المسيح، خبز الحياة الأبديّة، ودواء الحياة الإلهيّة الأزليّة. آمين!

المراجع

- البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***الإفخارستيا حياة الكنيسة***، رسالة بابويّة عامّة، حاضرة الفاتيكان، ٢٠٠٣.

- ....، ***إرشاد رسوليّ: رعاة القطيع***، حاضرة الفاتيكان، ٢٠٠٣.

- ....، ***أمكث معنا يا ربّ***، رسالة رسوليّة للسّنة الإفخارستيّة، حاضرة الفاتيكان، ٢٠٠٤.

- ....، ***سرّ التّجسُّد***، رسالة بابويّة عامّة، حاضرة الفاتيكان، ١٩٩٨.

- البطريرك غريغوريوس الثّالث لحّام، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة***، الجزء الأوّل، ٢٠٠٦.

- ***التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة***، ترجمه عن الطّبعة اللّاتينيّة الأصليّة مجموعة مترجمين، المطبعة الفاتيكانيّة، ١٩٩٩.

- ***المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، دساتير، قرارات، بيانات***، أشرف على التّرجمة وقام بالقسم الأكبر منها عن الأصل اللّاتينيّ الأب حنّا فاخوري، منشورات المكتبة البولسيّة، طبعة أولى، ١٩٩٢.

- المسكين، متّى (الأب)، ***الإفخارستيّا، عشاء الرّبّ. بحث في الأصول الأولى للّيتورجيّا ومدخل لشرح القدّاس وتطوّره من القرن الأوّل وحتّى عصرنا الحالي***، مطبعة دير القدّيس أنبا مقار، وادي النّطرون، مصر، طبعة ثالثة، ٢٠٠٧.

- ألكسندر، شميمن (الأب)، ***الإفخارستيا، سرّ الملكوت***، تعريب سامر عبّود، منشورات النّور، بيروت، لبنان، ١٩٨٥.

- ....، ***من أجل حياة العالم: الأرثوذكسيّة والأسرار الكنسيّة***، تعريب الأرشمندريت توما بيطار، منشورات النور، ١٩٩٤.
- إدلبي، ناوفيطوس (المطران)، ***كتاب الصّلاة***، منشورات التّجديد، دير الملاك ميخائيل، الذوق، لبنان، ١٩٦٢.
- بطريركيّة الرّوم الملكيّين الكاثوليك، ***الصّلاة في الكنيسة مع الجماعة***، مطبعة باب توما، دمشق، سوريا، ٢٠٠٥.
- بوبّي، جان، ***الله أبونا: الكشف عن الله الآب و"الصّلاة الرّبّيّة"***، نقله إلى العربيّة الأب بيوس عفّاص، دار المشرق، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠٠.
- ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، طبعة أولى، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، ٢٠٠١.
- حلاّق، تيوردور (الأب)، ***اللّاهوت الصّوفيّ حسب القدّيس غريغوريوس النيصيّ***، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠١.
- راتزينغر، جوزيف (البابا الحالي بندكتوس السادس عشر)، ***قيم في أزمنة التحوّل، الصمود أمام تحدّيات المستقبل***، نقله إلى العربيّة مجموعة من ذوي الاختصاص اللّاهوتيّ والفلسفيّ، خطوات للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٩.
- ....، ***مدخل إلى الإيمان المسيحيّ***، ترجمه إلى العربيّة الدكتور نبيل الخوري، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، ١٥، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، ١٩٩٤.
- سكاف، أفثيميوس (الأب)، ***مدخل إلى الهستوريّة الكنسيّة والثيوريّة التّذوقيّة لجرمانوس الأول بطريرك القسطنطينيّة***، المنشورات المخلّصيّة، ٢٠٠٣.
- عون، مشير (الأب)، ***الإيقونة بهاء وجهك***، نقله إلى العربيّة مشير باسيل عون، منشورات كلّيّة اللاهوت الحبريّة، جامعة الرّوح القدس – الكسليك، ٢٠٠٤.

- غريغوريوس (الأب المتوحّد)، ***تفسير القدّاس الإلهيّ***، تعريب الشمّاس سلوان موسي، منشورات دير البلمند، لبنان، ١٩٩٩.
- فانوا، ألبير (الأب)، ***دراسة في الرّسالة إلى العبرانيّين***، نقلها إلى العربيّة الأب أنطوان أودو اليسوعيّ، دار المشرق، بيروت، لبنان، طبعة رابعة، ١٩٩٧.
- كابازيلاس، نقولا، ***شرح القدّاس الإلهي***، نقله إلى العربيّة وعلّق عليه الأب منيف حمصي، المنشورات الأرثوذكسيّة، الطّبعة الثانية، ١٩٩١.
- كوربون، جان (الأب)، ***ليتورجيّا الينبوع***، نقله عن الفرنسيّة جورج الياس عازار، منشورات النور، ١٩٩٣.
- لحّام، لطفي (البطريرك الحاليّ غريغوريوس الثّالث)، ***كتاب الصّلوات الطّقسيّة، المجلّد الأوّل***، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٨.
- ....، ***كتاب الصّلوات الطّقسيّة، المجلّد الثّالث***، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٧.
- ....، ***كتاب الصّلوات الطّقسيّة، المجلّد الرّابع***، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٩.
- ....، ***كتاب اللّيتورجيّات الإلهيّة المقدّسة***، طبعة أولى، ١٩٩٢.
- لوسكي، فلاديمير، ***بحث في اللاّهوت الصّوفيّ لكنيسة الشّرق***، تعريب نقولا أبو مراد، منشورات النور، ٢٠٠٠.
- ***معجم اللاّهوت الكتابيّ***، نقله إلى العربيّة مجموعة مترجمين، دار المشرق، بيروت، لبنان، طبعة ثالثة، ١٩٩١.
- ***مجموعة قوانين الكنائس الشّرقيّة***، نقلها عن الأصل اللاّتينيّ المطران يوحنّا منصور، المطران كيرلّس سليم بسترس، والأب حنّا الفاخوري، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، طبعة أولى، ١٩٩٣.

- هبّي، أنطون (الأرشمندريت)، ***الصّور المقدّسة أو الإيقونات***، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، لبنان، طبعة ثالثة مزيدة، ١٩٨٩.
- يازجي، يوحنّا (الأسقف)، ***مدخل إلى الأشكال اللّيتورجيّة***، منشورات معهد القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ اللّاهوتيّ، جامعة البلمند، ٢٠٠٣.

- Barrett, C., K., ***The Gospel according to St. John***, The Westminster press, Philadelphia, second edition, 1978.
- Brown, Raymond E., ***The Gospel according to John I-XII***, I, The Anchor Bible, Doubleday, New York, 1966.
- ……………………………, ***The Gospel according to John XIII-XXI***, II, The Anchor Bible, Doubleday, New York, 1970.
- Bultmann, Rudolf, ***The Gospel of John***, The Westminster press, Philadelphia, 1971.
- Chatziemmanouil, Gregorio, ***La divina liturgia***, Libreria editrice vaticana, Città del Vaticano, 2002.
- Cranfield, C., E., ***The Gospel of Mark***, Cambridge university press, Reprinted 2000.
- Fitzmyer, Joseph, ***The Gospel according to Luke X-XXIV***, the anchor yale bible, vol.28A, London, 1985.
- France, R., T., ***The Gospel of Mark***, NIGTC, Eerdmans Publishing, 2002.
- Jeremias, Joachim, ***The Eucharistic words of Jesus***, redwood press limited, Great Britain, 1966.
- Kodell, Jerome, ***The Eucharist in the New Testament***, the liturgical press, Collegeville, Minnesota, 1988.
- Koester, Craig R., ***Symbolism in the Fourth Gospel***, Fortress press, minneapolis, second edition, 2003.
- Kucharek, Casimir, ***The Byzantine-Slav liturgy of st. John Chrysostom***, Alleluia press, Canada, 1971.

- Ladd, George E., ***A theology of the New Testament***, William B. Eerdmans publishing company, Grand Rapids, Michigan, 1993.
- Leon-Dufour, Xavier, ***Lettura dell'evangelo secondo Giovanni***, San Paolo, seconda edizione, 2007.
- Lindsey, F. Duane, ***The servant songs***, moody press, Chicago, 1985.
- Mannucci, Valerio, ***Giovanni il vangelo narrante***, Edizioni Dehoniane Bologna, 2005.
- Marshall, I., Howard, ***The Gospel of Luke***, NIGTC, Eerdmans Publishing, 1978.
- Meyendorff, Paul, ***Germanus of Constantinople, on the Divine Liturgy***, St. Vladimir's Seminary Press, Crestwood, New York, 1999.
- Meynet, Ronald, ***La Pasqua del Signore***, centro editoriale dehoniano, Bologna, 2001.
- Nolland, John, ***The Gospel of Matthew***, NIGTC, Eerdmans Publishing, 2005.
- Penna, Romano, ***Paul the Apostle, wisdom and folly of the Cross***, Translated by Thomas P. Wahl, The liturgical press, Collegeville, Minnesota, 1991.
- Potterie, Ignace de la, ***Studi di Cristologia Giovannea***, Casa editrice Marietti, Genova, terza edizione, 1992.
- Schnackenburg, Rudolf, ***The Gospel according to St. John***, vol. 1, crossroad, New York, 1968.
- Schreiner, Thomas & Crawford, Matthew, ***The Lord's Supper, remembering and proclaiming Christ until He comes***, B & H publishimg group, Nashville, Tennessee, 2010.
- Solovey, Meletius, ***The Byzantine Divine Liturgy, history and commentary***, the Catholic university of America press, Washington D.C., 1970.

- Taylor, Michael J., ***John: The different Gospel***, Alba house, New York, 1983.
- Williams, Hayden, ***The disciples of Emmaus*** (article), 1-11.

الفهرس

إهداء ٣

إفتتاحيّة وبركة: غبطة البطريرك غريغوريوس الثالث ٥

تقديم: سيادة المطران بطرس المعلّم الموقّر ٩

مقدّمة عامّة: المؤلّف ١١

القسم الأوّل

الإفخارستيّا في الكتاب المقدّس

ولاهوت الكنيسة المقدّسة

الفصل الأوّل

الشّكر بين العهدين القديم والجديد

الباب الأوّل: الخبز، عطيّةٌ من الله للإنسان ٢٣

الباب الثّاني: الشّكر، وعيٌ لعطايا الله المجّانيّة ٢٧

الباب الثّالث: تقدمة ملكيصادق ٢٩

الفصل الثّاني

الإفخارستيّا في لاهوت العهد الجديد

الباب الأوّل: الإنجيليّان متّى ومرقس ٣٥

١) الدّعوة إلى الأكل ٣٦

٢) العشاء الفصحيّ ٣٦

٣) دم العهد ٣٧

٤) غفران الخطايا ٤٢

٥) يسوع يُعلِن موته وقيامته ٤٤

الباب الثّاني: الإنجيليّ لوقا ٤٧

١) العشاء السّرّيّ ٤٨

٢) تلميذا عمّاوس (٢٤: ١٣-٣٥) ٥٣

١. مقدّمة حول الفصل ٢٤ من الإنجيل الثّالث ٥٣

٢. بُنية الفصل ٢٤ ٥٣

٣. عمّاوس والاحتفال اللّيتورجيّ-الإفخارستيّ الأوّل ٥٥

الباب الثّالث: الإنجيليّ يوحنّا الحبيب ٥٩

١) يسوع خبز الحياة ٥٩

٢) العشاء الفصحيّ الوداعيّ ٦٥

١. اختلاف تاريخ العشاء السّرّيّ ٦٥

٢. الأناجيل الأربعة تتّفق على يوم الدّفن ٦٧

٣. وَحدة لاهوت العشاء السّرّيّ ٦٨

٤. غسل الأرجل ٦٩

٣) رمزيّة "الدّم والماء" من جنب يسوع المطعون ٧٣

١. الرّمزيّة الكتابيّة ٧٣

٢. الرّمزيّة اللّيتورجيّة ٧٦

الباب الرّابع: بولس الرّسول ٧٩

١) التّقليد الإفخارستيّ البولسيّ ٧٩

١. "فإنيّ تسلّمتُ من الرّبّ" ٧٩

٢. "إصنعوا هذا لذكري" ٨٠

٣. "إلى أن يأتي" ٨٢

٢) مفهوم "دم المسيح" في الرّسائل البولسيّة ٨٣

١. الإفخارستيّا ٨٣
٢. التّبرير والفداء ٨٤
٣. المصالحة الكونيّة ٨٥
٤. وَحدة الكنيسة ٨٦

الفصل الثّالث

الإفخارستيّا في لاهوت الكنيسة المقدّسة

الباب الأوّل: الرّسالة البابويّة "الإفخارستيّا حياة الكنيسة" ٩١
١) الرّوحانيّة القربانيّة ٩١
٢) الإفخارستيّا وسرّ التّجسّد ٩٢
٣) الطّابع القربانيّ لعيشنا ٩٣
١. إرتباطه بالإيمان ٩٣
٢. إرتباطه بالمحبّة ٩٤
٣. إرتباطه بالرّجاء ٩٥
الباب الثّاني: الإفخارستيّا في تسميات الكنيسة ٩٧
١) كسر الخبز ٩٧
٢) الإفخارستيّا ٩٧
٣) عشاء الرّبّ السّرّيّ ٩٨
٤) الجماعة الملتئمة ٩٩
٥) التّذكار ٩٩
٦) اللّيتورجيّا المقدّسة وسرّ الأسرار ١٠٠
٧) الذّبيحة المقدّسة ١٠١
١. الإفخارستيّا وذبائح العهد القديم ١٠١
٢. ذبيحة المسيح الواحدة تتمّم جميع الذّبائح ١٠١

٣. الإفخارستيّا، ذبيحة الصّليب ١٠٢

٤. ذبيحة الكنيسة الإفخارستيّة: ذبيحةٌ كهنوتيّة ١٠٤

٨) المناولة المقدّسة أو الاتّحاد ١٠٥

القسم الثّاني

القدّاس الإلهيّ في اللّاهوت اللّيتورجيّ

مقدّمة: الاحتفال اللّيتورجيّ ١٠٩

١) أهميّة الكنيسة في الاحتفال الإفخارستيّ ١٠٩

٢) الاحتفال اللّيتورجيّ والفرح الإفخارستيّ ١١٣

٣) اللّيتورجيّا الإلهيّة للقدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم ١١٤

الفصل الأوّل

ليتورجيّا التّقدمة

الباب الأوّل: طهارة الكاهن الملائكيّة ١١٩

١) تهيئة الكاهن الرّوحيّة ١١٩

١. استعداد الكاهن الرّوحيّ ١١٩

٢. عَظَمَة الخدمة الكهنوتيّة ١٢١

٣. ثابتٌ قلبي يا الله ١٢٢

٢) رتبة أخذ الإذن (الكيرون) المعروفة بصلاة الباب ١٢٢

٣) إرتداء الحُلّة الكهنوتيّة ١٢٤

٤) غسل اليدَين ١٢٥

١. مفهوم الغُسل في العهد القديم ١٢٥

٢. ماهيّة غسل اليدَين في اللّيتورجيّا الإلهيّة ١٢٧

الباب الثّاني: تهيئة الذّبيحة الإلهيّة ١٢٩

١) لمحة ليتورجيّة وتاريخيّة عامّة ١٢٩

١. ماهيّة التّقادم ١٢٩

٢. مكان تهيئة الذّبيحة المقدّسة ١٣٠

٣. مضامين التّهيئة اللّاهوتيّة ١٣١

٢) تهيئة الذّبيحة المقدّسة ١٣٢

١. التّقدمة الإفخارستيّة: الخبز والخمر ١٣٢

أ. مفهوم التّقدمة ١٣٢

ب. مفهوم الخبز والخمر بين العهدين القديم والجديد ١٣٢

ت. تقدمة الذّات من خلال الخبز والخمر ١٣٣

ث. ميزة الخبز والخمر اللّيتورجيّة ١٣٤

٢. الصّينيّة المقدّسة ١٣٤

أ. الحمل الإفخارستيّ ١٣٤

- تعبير "الحمل" في العهد الجديد ١٣٤
- رمزيّة الحمل ١٣٥
- هويّة العبد في كتابات العهد القديم ١٣٦
- يسوع هو العبد في العهد الجديد ١٣٧
- نشيد العبد المتألّم الرّابع وكتابات العهد الجديد ١٣٧
- تحقيق نبوءة أشعيا ليتورجيًا ١٤٠

ب. مزيج الخمر بالماء في الكأس المقدّسة ١٤٠

ت. ذكرانيّات الكنيسة السّماويّة المنتصرة ١٤١

١- لاهوت الذّكرانيّات ١٤١

- ماهيّة القربانات الخمس ١٤١
- وحدة الكنيسة حول الحمل الذّبيح ١٤١

٢- ذكرانيّات الكنيسة السّماويّة المنتصرة ١٤٢

•والدة الإله الدّائمة البتوليّة مريم ١٤٢
• الملائكة ١٤٣
• أنبياء العهد القديم ١٤٤
•هامتا الرّسل: بطرس وبولس وسائر الرّسل ١٤٥
• القدّيسون ١٤٦
ث. ذكرانيّات الكنيسة الأرضيّة المجاهدة والمتألّمة ١٤٨
• الطّبقة الإكليروسيّة ١٤٩
•رئيس الكهنة الرّاسم ١٥٠
• المغبوطون الّذين أنشأوا هذه الكنيسة ١٥٠
• الأحياء والرّاقدون على رجاء القيامة ١٥٠
•الكاهن نفسه المحتفل بالذّبيحة ١٥٢
ج. تقدمة البخور وتغطية القرابين ١٥٢
• البخور ١٥٢
• النّجم ١٥٣
• غطاء الصّينيّة والكأس ١٥٤
• السّتر الكبير ١٥٥
ح. صلاة التّقدمة ١٥٥
خ. الحلّ ١٥٦
د. نشيد الختام ١٥٦

الفصل الثّاني

ليتورجيّا الموعوظين أو ليتورجيّا الكلمة

الباب الأوّل: أصل تسميّة "ليتورجيّا الموعوظين" ١٦٣
١) ارتباطها بالمجمع اليهوديّ ١٦٣
٢) نشأة اللّيتورجيّا المسيحيّة ١٦٤

٣) مفهومها الكنسيّ ١٦٦

الباب الثّاني: المراسيم الافتتاحيّة ١٦٧

١) طقس البخور ١٦٧

٢) صلاة الرّوح القدس ١٦٨

١. أسماء الرّوح القدس ١٦٨

٢. خصائص الرّوح القدس في حياة الجماعة ١٦٩

٣. الرّوح القدس والكنيسة ١٧١

٤. تاريخيّة الصّلاة ١٧٢

٣) أنشودة ملائكة بيت لحم ١٧٢

١. البُعد الكتابيّ ١٧٢

٢. الطّابع اللّيتورجيّ ١٧٣

٣. الكاهن فم المسيح ١٧٤

٤. تقبيل الإنجيل المقدّس والمائدة المقدّسة ١٧٤

٤) مملكة الثّالوث ١٧٥

١. المجدلة الثّالوثيّة إعلانٌ للملكوت ١٧٥

٢. جواب الجماعة الإيمانيّ ١٧٧

أ. معنى "الآمين" ١٧٧

ب. المعنى الكتابيّ للآمين ١٧٧

ت. المعنى اللّيتورجيّ للآمين ١٧٨

الباب الثّالث: الطّلبة السّلاميّة الكبرى ١٧٩

١) ميّزاتها ١٧٩

١. كاثوليكيّة ١٧٩

٢. كنسيّة ١٨٠

٣. سلاميّة ١٨١
٢) صرخة المؤمنين: يا ربّ ارحم ١٨١
٣) الطلبة السّلاميّة الكبرى: دراسة لاهوتيّة تحليليّة ١٨٣
الباب الرّابع: رتبة الأنديفونات ٢٠٩
١) جذور الأنديفونات الكتابيّة ٢٠٩
٢) رمزيّتها اللّيتورجيّة ٢١٠
٣) صلوات الأنديفونات الثّلاثة ٢١٠
• الحياة الأبديّة: حياة الله في الإنسان ٢١٣
٤) الأنديفونات الثّلاثة ٢١٤
• الشّفاعة الكفّاريّة ٢١٥
• الشّفاعة التّوسّليّة ٢١٦
• بُنُوّة يسوع المسيح الإلهيّة: "إبن الله" ٢٢١
٥) أنديفونات التّيبيكا ٢٢٣
٦) نشيد الكلمة المتجسّد ٢٢٤
١. كاتب النّشيد ٢٢٤
٢. الظّروف المحيطة بتأليفه ٢٢٤
٣. مكانته اللّيتورجيّة ٢٢٥
٤. مضمونه اللّاهوتيّ ٢٢٥
الباب الخامس: الدّخول الصّغير أو الدّخول بالإنجيل المقدّس ٢٣١
١) معناه الأصليّ: الدّخول الصّغير ٢٣١
٢) معناه المتجدّد: الدّخول بالإنجيل المقدّس ٢٣٢
٣) ليتورجيّا الدّخول ورمزيّته ٢٣٣
٤) رمزيّة الشّمعة ٢٣٥

٥) صلاة الدّخول الصّغير ٢٣٥

١. صلاة الدّخول الأولى ٢٣٥

٢. صلاة الدّخول الثّانية ٢٣٦

٦) أناشيد العيد (الطّروباريّات) ٢٣٧

١. نشأة التّرانيم الكنسيّة ٢٣٧

٢. ترتيبها اللّيتورجيّ ٢٣٨

٣. الأناشيد، تعبيرٌ عن انتصار الكنيسة بالمسيح ٢٣٨

٤. ترتيب الأناشيد في اللّيتورجيّا الإلهيّة ٢٣٩

٧) النّشيد المثلّث التّقديس (التّريصاجيون) ٢٣٩

١. صلاة التّريصاجيون ٢٣٩

أ. تاريخيّتها ٢٣٩

ب. مضمونها اللّاهوتيّ ٢٣٩

٢. نشيد التّريصاجيون ٢٤٣

أ. أهميّة النّشيد في اللّيتورجيّا البيزنطيّة ٢٤٣

ب. مضمون تعبير "قدّوس" ٢٤٣

ت. إرحمنا ٢٤٤

ث. تفسير الآباء ٢٤٤

الباب السّادس: قراءة الكتب المقدّسة ٢٤٧

١) تاريخيّة القراءة البيبليّة أثناء اللّيتورجيّا ٢٤٧

١. الإرث اليهوديّ ٢٤٧

٢. الاستقلاليّة الطّقسيّة للمسيحيّين ٢٤٧

٣. القراءات المقدّسة بين التّاريخ واللّيتورجيّا ٢٤٨

٤. محاولاتٌ لتأسيس نظامٍ ليتورجيٍّ محدَّدٍ للقراءات المقدّسة ٢٤٩

٥. تأسيس النّظام اللّيتورجيّ: مبدأ القراءة المتواصلة ٢٤٩
٦. إختفاء قراءات العهد القديم من اللّيتورجيّا ٢٥٠
٢) الموكب إلى العرش أو الكرسي العالي (الكاثذرة) ٢٥٠
١. الكاثذرة: مكان تعليم كلمة الله وتفسيرها ٢٥٠
٢. موقع العرش في الكنيسة ٢٥١
٣. موقعه في اللّيتورجيّا الإلهيّة ٢٥١
٤. رمزيّته الكتابيّة ٢٥٢
٣) آيات الرّسالة (البروكيمنن) ٢٥٣
١. مفهومها ومضمونها اللّاهوتيّ ٢٥٣
٢. لماذا تتلو الكنيسة المزامير؟ ٢٥٤
٤) قراءة الرّسالة ٢٥٤
١. الجهوزيّة الرّوحيّة للإصغاء ٢٥٤
٢. قراءة الرّسالة بين التّعليم والتّبشير ٢٥٥
٥) الهلّلويا ٢٥٥
٦) التّبخير قبل الإنجيل ٢٥٦
٧) صلاة ما قبل الإنجيل ٢٥٧
١. الإنجيل مبدأ الحياة المسيحيّة وأساسها ٢٥٧
٢. الرّوح القدس هو روح فهم الإنجيل وعيشه ٢٥٨
٣. أهميّة الرّوح القدس في حياة الكنيسة ٢٥٩
٤. صلاة المؤمنين دعوةٌ إلى التّغيير والتّيقُّظ ٢٥٩
٨) تلاوة الإنجيل المقدّس ٢٦٠
مقدّمة ٢٦٠
١. عَظَمَة الإجلال لكتاب الإنجيل المقدّس في الكنيسة ٢٦١

٢. الكاهن إيقونة المسيح الحيّة ٢٦١
٣. الإنجيل في اللّيتورجيّا البيزنطيّة ٢٦٢
أ. تلاوة الإنجيل هو إعلانٌ للبشارة ٢٦٢
ب. ترتيب الأناجيل في اللّيتورجيّا ٢٦٢
ت. رمزيّة الإنجيليّين ٢٦٤
٤. اللّيتورجيّا البيزنطيّة ليتورجيّةٌ كتابيّةٌ بامتياز ٢٦٤
٥. علاقة "كلمة الله" بوجود الإنسان ٢٦٦
٦. إعلان تلاوة الإنجيل المقدّس في اللّيتورجيّا الإلهيّة ٢٦٧
٧. عادة إضاءة الشّموع أثناء تلاوة الإنجيل المقدّس ٢٧٢
٨. عادةٌ كنسيّةٌ أخرى ٢٧٢
٩) العِظَة ٢٧٣
١. العظة موهبةٌ من مواهب الرّوح القدس ٢٧٣
٢. صفات العظة الأساسيّة ٢٧٤
أ. كتابيّة ٢٧٤
ب. آبائيّة ٢٧٥
ت. ليتورجيّة ٢٧٥
ث. عَمَلانيّة ٢٧٥
ج. كلمة تعزية ٢٧٥
٣. التّعليم والوعظ في حياة الكاهن ٢٧٦
٤. قبول الجماعة لتعاليم المسيح ٢٧٨
١٠) الطّلبة الملحّة (الإكتاني) ٢٧٨

الفصل الثّالث

ليتورجيّا المؤمنين أو ليتورجيّا الذّبيحة الإفخارستيّة

الباب الأوّل: ملاحظات أوّليّة ٢٨٣

١) أهميّة ليتورجيّا المؤمنين ٢٨٣

٢) خصائص ليتورجيّا المؤمنين اللّاهوتيّة واللّيتورجيّة ٢٨٣

١. ليتورجيّا القدّيسين ٢٨٤

٢. ليتورجيّا الذّبيحة ٢٨٤

٣. ليتورجيّا الإتّحاد بالمسيح ٢٨٥

٣) بُنية ليتورجيّا المؤمنين ٢٨٦

الباب الثّاني: التّحضير للذّبيحة الإفخارستيّة ٢٨٧

١) إفتتاح ليتورجيّا المؤمنين ٢٨٧

١. صلاة المؤمنين الأولى ٢٨٧

٢. صلاة المؤمنين الثّانية ٢٨٨

٣. الأنديمنسيون ٢٩٠

٢) الدّخول الكبير ٢٩١

١. ميزته وأصله التّاريخيّ ٢٩١

٢. أوجه التّشابه بين ليتورجيّا التّقدمة وليتورجيّا المؤمنين ٢٩٢

أ. الصّلوات الإفتتاحيّة ٢٩٢

ب. غسل اليدين ٢٩٢

ت. تهيئة القرابين ٢٩٣

ث. طقس التّبخير وصلاة التّقدمة ٢٩٣

٣. النّشيد الشّيروبيميّ ٢٩٣

٤. صلاة النّشيد الشّيروبيميّ ٢٩٥

أ. صلاة الانسحاق الكهنوتيّ ٢٩٦
ب. محبّة الله الخلاصيّة للإنسان ٣٠٠
• خلق الإنسان على الصّورة والمثال الإلهيَّين ٣٠٠
• التّجسّد علامة الحبّ الإلهيّ الخلاصيّ للإنسان ٣٠١
ت. يسوع المسيح رئيس كهنة العهد الجديد الأبديّ ٣٠٢
٥. الدّخول الكبير ٣٠٤
أ. طقسيّة الدّخول الكبير ٣٠٤
ب. التّوبة ٣٠٥
ت. الذّكرانيّات ٣٠٥
ث. يوسف الوجيه ٣٠٧
ج. أبعاد الدّخول الكبير اللّيتورجيّة والرّمزيّة ٣٠٩
٣) صلاة التّقدمة ٣١١
٤) القُبلة الأخويّة وتلاوة قانون الإيمان ٣١٣
١. المحبّة إيقونة الله الكاملة ٣١٣
٢. القبلة الأخويّة: قبلة السّلام والمصالحة ٣١٧
أ. المصدر الكتابيّ للقبلة المقدّسة ٣١٧
ب. رُكنا القبلة: المحبّة والغفران ٣١٨
ت. القبلة المقدّسة في اللّيتورجيّا الإلهيّة ٣١٨
٣. قانون الإيمان ٣٢٠
أ. نشأة قانون الإيمان التّاريخيّة واللّاهوتيّة ٣٢٠
ب. قانون الإيمان في الاحتفال اللّيتورجيّ الإفخارستيّ ٣٢٣
ت. إيمان الفرد وإيمان الجماعة ٣٢٤
ث. الأنا الشّخصيّ والأنا الكنسيّ ٣٢٥

ج. فحوى الإيمان الأنثروبولوجيّ (الإنسانيّ) ٣٢٥
ح. موضوع الإيمان الجوهريّ ٣٢٦
خ. الإيمان الحقيقيّ والشّعور الدينيّ ٣٢٧
الباب الثّالث: الذّبيحة الإفخارستيّة المقدّسة ٣٢٩
١) التّطوّر التّاريخيّ واللّيتورجيّ للأنافورا ٣٢٩
١. إرتباط الأنافورا بالوليمة اليهوديّة ٣٢٩
٢. إرتباطها بوصيّة المخلّص: "إصنعوا هذا لذكري" ٣٣٢
٣. وليمة الأغابي-المحبّة ٣٣٣
٤. الإفخارستيّا في الذّيذاخي ٣٣٤
أ. تسمية الذّيذاخي وبُنيته ٣٣٤
ب. الإفخارستيّا في الذّيذاخي ٣٣٥
٥. الأنافورا في اللّيتورجيّا الإلهيّة الحاليّة ٣٣٦
٢) الحوار الإفخارستيّ بين الكاهن والجماعة ٣٣٧
٣) صلاة الشّكر الإفخارستيّة ٣٤٣
٤) التّسبيح السّيرافيميّ الملائكيّ: نشيد الظّفر ٣٤٦
١. مقدّمة تاريخيّة ٣٤٦
٢. تركيبة النّشيد ٣٤٦
٣. الملائكة وتسبيح الله ٣٤٧
٤. السّماء والأرض مملوءتان من مجدك ٣٤٨
٥. هوشعنا ٣٤٨
٦. اللّيتورجيّا الأرضيّة جسرٌ حيٌّ نحو اللّيتورجيّا السّماويّة ٣٤٩
٧. الكنيسة الفردوس الأرضيّ ٣٥٠
٥) صلاة تأسيس الإفخارستيّا ٣٥٠

١. الحبّ الخلاصيّ ٣٥٠
٢. لاهوت كلام التّأسيس ٣٥٢
٣. كلام التّأسيس في تكوين الكنيسة ٣٥٥
٦) الذّكر ٣٥٦
٧) إستدعاء الرّوح القدس ٣٧٠
١. حلول الرّوح القدس على الجماعة الإفخارستيّة ٣٧٠
٢. حلول الرّوح القدس على القرابين ٣٦٢
٣. عَظَمَة الكاهن بتواضعه وانسحاقه ٣٦٤
٤. ثمار الإستحالة على الصّعيد الشّخصيّ ٣٦٤
٨) الذّكرانيّات الإفخارستيّة ٣٦٥
١. القدّيسون الرّاقدون على الإيمان ٣٦٥
٢. مريم المرأة الإفخارستيّة ٣٦٧
٣. الرّاقدون على رجاء القيامة ٣٧٠
٤. السّلطة الكنسيّة ٣٧٣
أ. روح السّلطة في المسيحيّة روحُ خدمة ٣٧٣
ب. مفهوم السّلطة في القانون الكنسيّ ٣٧٤
٩) خاتمة الأنافورا ٣٧٥
الباب الرّابع: طقس المناولة المقدّسة ٣٧٧
مقدّمة ٣٧٧
١) الاستعداد للمناولة المقدّسة ٣٧٨
١. طلبة الاستعداد للمناولة ٣٧٨
٢. طلبة السّؤالات ٣٧٩
٣. وَحدة الإيمان وشركة الرّوح القدس ٣٨٤

٤. صلاةٌ تحضيريّةٌ للمناولة المقدّسة ٣٨٧

٥. الصّلاة الرّبّيّة ٣٨٩

أ. تاريخيّة استعمال الصّلاة الرّبّيّة في أسرار الكنيسة ٣٩٠

ب. ماهيّة الصّلاة ٣٩٠

ت. لاهوت الصّلاة الرّبّيّة الكتابيّ ٣٩٢

٦. صلاة حِناية الرّأس ٤١١

مقدّمة ٤١١

أ. لماذا حِناية الرّأس؟ ٤١١

ب. هل من واجبٍ إنسانيٍّ لشكر الله؟ ٤١٢

ت. هُويّة الطّبيب ٤١٣

٧. صلاة المناولة ٤١٥

٢) طقس المناولة المقدّسة ٤١٥

١. رفع الحمل المقدّس عاليًا ٤١٦

٢. كسر الحمل المقدّس ٤١٨

٣. التّبارُك والتّمازُج ٤١٩

أ. وضع الجزء الأعلى من الحمل المقدّس في الكأس المقدّسة ٤١٩

ب. الماء الحارّ (الزّاون) ٤٢٠

٤. ترنيمة المناولة (الكينونيكون) ٤٢١

٥. المناولة الكهنوتيّة ٤٢٢

أ. مناولة الكاهن ٤٢٢

ب. مناولة الكاهن في حال وجود أسقف ٤٢٤

٦. مناولة المؤمنين ٤٢٥

أ. لاهوت المناولة المقدّسة وطقسها اللّيتورجيّ ٤٢٥

ب. مخافة الله ركنٌ أساسٌ من أركان المناولة ٤٢٩
ت. المناولة تقديسٌ للحواس ٤٣١
ث. توصيات الكنيسة بشأن المناولة المقدّسة ٤٣٣
- القلب النّقيّ الطّاهر ٤٣٣
- الصّوم الإفخارستيّ ٤٣٤
- الحِشمة ٤٣٥
- التّقدُّم إلى المناولة بخشوع ووقار ٤٣٥
٣) الشّكر بعد المناولة ٤٣٦
١. نقل القرابين المقدّسة إلى مذبح التّقدمة ٤٣٦
٢. صلوات الشّكر ٤٣٩
أ. النّشيد العنصرويّ: "لقد نظرنا النّور الحقيقيّ" ٤٤٠
ب. نشيد الشّكر: "لتمتلئ أفواهنا" ٤٤٥
ت. صلاة الشّكر: "نشكر لك" ٤٤٨
ث. صلاة وراء الأمبون ٤٤٩
ج. ليكن اسم الرّبّ مبارَكًا ٤٥٥
ح. صلاة الختام ٤٥٥
٤) البركة الختاميّة والحلّ الكبير ٤٥٦
٥) توزيع خبز البركة (الأنديذورون) ٤٥٨
٦) نزع الحلّة الكهنوتيّة ٤٦٠
٧) إفتتاح الزّمن الجديد ٤٦١
خلاصة: دور الثّالوث القدّوس في اللّيتورجيّا ٤٦٣
خلاصة عامّة ٤٦٧

القسم الثّالث

القدّاس الإلهيّ في الرّمزيّة اللّيتورجيّة

مقدّمة ٤٧١

(١) إشارة الصّليب المقدّس ٤٧٣

١) إشارة الصّليب في لاهوت الكنيسة المقدّسة ٤٧٣

٢) إشارة الصّليب في فكر زعيم الإصلاح البروتستانتيّ مارتن لوثر ٤٧٤

(٢) الثّياب الكهنوتيّة اللّيتورجيّة: لاهوتٌ ورموز ٤٧٥

١) الثّياب الكهنوتيّة في العهد القديم ٤٧٥

٢) ثياب الكاهن رمزٌ إلى شخصيّته الرّوحيّة ٤٧٥

٣) ألوان الثّياب الكهنوتيّة الكنسيّة ٤٧٦

٤) زينة الثّياب الكهنوتيّة ٤٧٧

٥) أنواع الثّياب الكهنوتيّة ٤٧٨

٦) شرح الحلّة الكهنوتيّة والأسقفيّة ٤٧٩

١. القميص (الاستيخارة) ٤٧٩

٢. البطرشيل ٤٧٩

٣. الزّنّار ٤٨٠

٤. الأكمام ٤٨١

٥. الحِجر ٤٨٢

٦. المِعطف (الإفلونيّة) ٤٨٢

٧. الصاكوس ٤٨٣

٨. الأموفوريون ٤٨٤

٩. ذخيرة السّيّد والسّيّدة (الأنكولبيون) ٤٨٤

١٠. ذخيرة الصّليب ٤٨٥

١١. التّاج ٤٨٥
١٢. العصا الرّعائيّة (العكّاز) ٤٨٥
١٣. المندية ٤٨٦
(٣) الصّلاة بالإتّجاه إلى الشّرق ٤٨٧
(٤) قدس الأقداس ٤٨٩
(٥) الهيكل المقدّس ٤٩٠
(٦) المائدة المقدّسة ٤٩٣
(٧) المذبح المقدّس ٤٩٥
١) مفهوم المذبح ولاهوته ٤٩٥
٢) قبّة المذبح ٤٩٦
٣) غطاء المذبح ٤٩٦
(٨) العرش الأسقفيّ ٤٩٧
(٩) الأمبون (المنبر) ٤٩٨
(١٠) المبخرة والبخور ٤٩٩
١) المبخرة ٤٩٩
١. الأجراس ٤٩٩
٢. قبة المبخرة ٤٩٩
٣. جرن المبخرة ٤٩٩
٢) البخور في العهدَين القديم والجديد ٥٠٠
(١١) المراوح ٥٠٤
(١٢) بركة الشّموع في القدّاس الحَبريّ ٥٠٥
١) صلاة بركة الشّموع ٥٠٥
٢) الشّمعدنان: المثلّث والمثنّى ٥٠٦

٣) الكاهنان اللّذان يُسندان ذراعَي الأسقف ٥٠٦

(١٣) الرّفرفة فوق القرابين ٥٠٧

١) الرّفرفة عند قانون الإيمان ٥٠٧

٢) الرّفرفة عند صلاة الشّكر الإفخارستيّة ٥٠٧

٣) الرّفرفة عند الذّكرانيات ٥٠٨

(١٤) رموز الاستعداد للمناولة المقدّسة ٥٠٩

١) الجزء الصّغير من الحمل ٥٠٩

٢) الماء الحارّ ٥١٠

(١٥) الإيقونات المقدّسة ٥١١

١) لاهوت الإيقونة الكتابيّ ٥١١

٢) لاهوت الإيقونة الكنسيّ ٥١١

٣) رموز الألوان في الإيقونة ٥١٣

٤) ترتيب الإيقونات في الكنيسة ٥١٣

١. القبّة الكبرى ٥١٣

٢. قدس الأقداس ٥١٤

أ. الحِنيّة الكبرى ٥١٤

ب. الحِنيّتان الصّغيرتان ٥١٤

٣. الإيقونسطاس ٥١٥

أ. ماهيّة الإيقونسطاس ٥١٥

ب. ترتيب الإيقونات بالإيقونسطاس ٥١٦

خاتمة عامّة ٥١٩

صلاةٌ ختاميّة ٥٢٣

المراجع ٥٢٥

الفهرس ٥٣١